تفسير القرآن العظيم

للإمام المحدث ابن كثير
(٧٠١ - ٧٧٤هـ)

تحقيق
د. محمد إبراهيم البنا

الجزء الثامن
سورة الحديد - سورة الناس

مؤسسة علوم القرآن
شركة دار القبلة
دار ابن حزم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م

دار القبلة للثقافة الإسلامية
المملكة العربية السعودية ـ جدة ـ ص.ب: ١٠٩٣٢ ـ ت: ٦٧١٠٠٠٠ ـ تلكس: ٦٠٤٠٨٠ ـ دلة س ج

مؤسسة علوم القرآن
سوريا ـ دمشق ـ شارع مسلم البارودي ـ بناء خولي وصلاحي ـ ص.ب ٤٢٦٠ ـ ت ٢١٥٨٧٧ ـ بيروت ـ ص.ب ١١٣/٥٢٨١

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ ـ تلفون: ٧٠١٩٧٤

تفسير القرآن العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سُورَةُ الحَدِيدِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن عبدِ رَبِّه، حدثنا بقيةُ بن الوليد، حدثني بَحِير بن سَعْد، عن خالد بن مَعْدان، عن ابن أبي بلال، عن عِرْباض بن سارية: أنّه حدَّثهم أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقرأُ المُسَبِّحات قبل أن يرقُدَ، وقال: «إنَّ فيهنَّ آيةً أفضلَ مِن ألفِ آيةٍ»[1].

وهكذا رَواه أبو داودَ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ، من طرق عن بَقِيَّةَ، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ غَرِيب»[1].

ورواه النَّسائي عن ابن أبي السَّرح، عن ابن وهب، عن معاوية بن صالح عن بَحِير بن سعد، عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ. . . فذكره مُرْسَلاً، لم يذكر عبد الله بن أبي بلال، ولا العِرْباض بن سارِيَةَ.

والآية المُشارُ إليها في الحديث هي ـ والله أعلم ـ قولُهُ: ﴿ هو الأوَّلُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكُلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾، كما سيأتي بيانُه إن شاء الله، وبه الثقةُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنه يُسَبِّح له ما في السموات والأرض، أي: من الحيواناتِ والنباتاتِ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ تُسَبِّحُ له السموات السبعُ والأرضُ ومن فيهنَّ وإن من شيءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِه ولكن لا تَفقهُون تَسبيحَهُم إنَّه كان حليماً غفوراً ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وهو العزيزُ ﴾، أي: الذي قد خَضَع له كلُّ شيءٍ ﴿ الحكيمُ ﴾، في خَلْقِه وأَمْرِه وشَرْعِه. ﴿ له

(١) مسند الإمام أحمد ٤/١٢٨، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣١٣، وعارضة الأحوذي، ابواب فضائل القرآن ١١/٤١ ـ ٤٢، واخرجه النسائي في كتاب فضائل القرآن من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ٧/٢٨٨.

ملكُ السموات والأرض يُحيي ويُميت﴾، أي: هو المالك المتصرِّفُ في خلقه، فيُحيي ويُميت، ويُعطي مَن يشاءُ ما يشاءُ، ﴿وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾، أي: ما شاء كانَ، وما لم يشأ لم يكن.

وقولُهُ: ﴿هو الأوّلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطِنُ﴾، وهذه الآية هي المشارُ إليها في حديث عِرْباض بن سارية أنها أفضلُ مِن ألفِ آيةٍ.

وقال أبو داودَ: حدَّثنا عباسُ بن عبد العظيم، حدثنا النضرُ بن محمد، حدثنا عِكْرِمَةُ ـ يعني ابنَ عمَّار ـ حدثنا أبو زُمَيل قال: سألْتُ ابنَ عبّاسٍ فقلت: ما شيءٌ أجدُه في صَدري؟ قال: ما هُوَ؟ قلت: والله لا أتكلّم به. قال: فقال لي: أشيءٌ من شكٍّ؟ قال: ـ وضَحِك ـ قال: ما نجا من ذلك أحدٌ. قال، حتى أنزلَ اللهُ: ﴿فإن كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليك فاسألِ الذينَ يقرءُون الكتاب من قبلِكَ﴾. . . الآية قال: وقال لي: إذا وجدتَ في نفسِكَ شيئاً فقُل: ﴿هو الأوّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطِنُ وهو بكُلِّ شيءٍ عليمٌ﴾[1].

وقد اختلفت عباراتُ المفسِّرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعةَ عشرَ قولاً. وقال البُخاريُّ: قال يحيى: الظاهرُ على كلِّ شيءٍ علماً، والباطنُ على كلِّ شيءٍ علماً[2]. قال شيخنا الحافظ المِزِّي: يحيى هذا هو ابنُ زيادٍ الفراءُ، له كتابٌ سمّاه «معاني القرآن».

وقد وَرَد في ذلك أحاديث، فمن ذلك ما قال الإمام أحمدُ:

حدثنا خَلَف بن الوليد، حدثنا ابن عَيّاش، عن سُهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يدعُو عند النَّوم: «اللهُمَّ، ربَّ السموات السبع وربَّ العرش العظيم، رَبَّنا وربَّ كل شيءٍ، مُنَزِّل التوراةِ والإنجيلِ والفُرقان، فالقَ الحبِّ والنَّوى، لا إلَه إلا أنت، أعوذُ بكَ من شرِّ كُلِّ شيءٍ أنتَ آخذٌ بناصيته، أنتَ الأوّلُ ليسَ قبلك شيءٌ، وأنت الآخِرُ ليس بعدَك شيءٌ، وأنت الظاهرُ ليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطنُ ليس دُونَك شيءٌ. اقضِ عنا الدَّين، وأغنِنا من الفقر»[3].

ورواه مسلم في صحيحه: حدثني زُهَير بن حَرْبٍ، حدثنا جَرير، عن سُهَيل قال: كان أبو صالح يأمُرنا إذا أراد أحدُنا أن ينامَ: أن يضطجِع على شِقِّه الأيمنِ، ثم يقول: «اللهُمَّ، رَبَّ السمواتِ وربَّ الأرضِ وربَّ العرشِ العظيم، رَبَّنا وربَّ كل شيءٍ، فالقَ الحبِّ والنَّوى، ومُنَزِّل التوراةِ والإنجيلِ والفُرقان، أعوذُ بكَ من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ أنت آخذ بناصيته، اللهُمَّ، أنتَ الأوّلُ فليسَ قبلَك شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدَك شيءٌ، وأنت الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ، وأنتَ الباطِنُ فليس دونك شيءٌ، اقضِ عنا الدينَ، وأغنِنا من الفقرِ». وكان يَرْوي ذلك، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ[4].

وقد روى الحافظ أبو يعلَى الموصلي في مُسنَده عن عائشةَ أم المؤمنين نحوَ هذا، فقال:

حدثنا عقبة، حدثنا يونس، حدثنا السريُّ بن إسماعيل، عن الشعبيِّ، عن مَسرُوق، عن عائشةَ أنها قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يأمرُ بفراشه فيُفرَش له مُستقبِلَ القبلةِ، فإذا أوَى إليه توسَّد كفَّه اليمنى، ثم هَمَس ـ ما يُدرَى ما يقولُ ـ فإذا كان في آخر الليلِ رَفَع صوتَه فقال: «اللهُمَّ، ربَّ السمواتِ السَّبعِ وربَّ العرشِ العظيم، إلَه كُلِّ شيءٍ، وربَّ كُلِّ شيءٍ، ومُنَزِّلَ التوراةِ والإنجيلِ والفُرقانِ، فالقَ الحبِّ والنَّوَى، أعوذُ بكَ من

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٢٩.

(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٣٦١، وذكر البخاري هذا القول في تفسير سورة الواقعة دون نسبته إلى يحيى ٨/٦٢٧. وقول يحيى وهو ابن زياد الفراء في معاني القرآن ٣/١٣٢.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٤٠٤، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء ٤/٢٠٨٤.

شَرِّ كلِّ شيءٍ أنت آخذ بناصيته. اللهم، أنتَ الأولُ الذي ليس قبلك شيءٌ[١]، وأنت الآخر الذي ليسَ بعدَك شيءٌ، وأنت الظاهرُ فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطنُ فليس دونَك شيءٌ، اقضِ عنا الدينَ، وأغنِنا من الفقرِ»[٢].

السَّرِيُّ بنُ إسماعيلَ هذا ابنُ عَمِّ الشعبيِّ، وهو ضعيفٌ جداً، والله أعلم. وقال أبو عيسى التِّرمِذيُّ عند تفسير هذه الآية:

حدثنا عَبْدُ بن حُمَيد وغيرُ واحد ـ المعنى واحدٌ ـ قالوا: حدثنا يونُس بن محمد، حدثنا شَيبانُ بن عبد الرحمن، عن قتادةَ قال: حدث الحسنُ، عن أبي هُرَيرةَ قال: بينما رسولُ الله ـ ﷺ ـ جالسٌ وأصحابُه إذْ أتى عليهم سَحَابٌ، فقال نبي الله ـ ﷺ ـ: هل تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا العَنَانُ[٣]، هذه رَوَايا الأرض يَسُوقُه إلى قوم لا يَشكُرونه ولا يَدْعُونه[٣]. ثم قال: هل تدرُون ما فَوقكم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلَمُ. قال: فإنها الرَّقيع[٤]، سقفٌ محفوظ، وموجٌ مكفوفٌ[٤]. ثم قال: هل تدرُون كم بينكُم وبينهَا؟ قالوا: الله ورسولُه أعلَمُ. قال: بينكم وبينها خمسُمائةِ سنةٍ. ثم قال: هل تَدرُون ما فوقَ ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلَم. قال: فإن فوق ذلك سماءً [بُعْد سَمَاءٍ][٥] بُعدُ ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة ـ حتى عَدَّ سبع سموات ـ ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض. ثم قال: هل تدرُون ما فوقَ ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن فوقَ ذلك العرشَ، وبينَه وبينَ السماءِ مثل بعدُ ما بين السماءين، ثم قال: هل تدرُون ما الذي تحتكم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: فإنها الأرضُ. ثم قال: هل تَدرُون ما الذي تحتَ ذلك. قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: فإنَّ تحتَها أرضاً أُخرَى بَينَهُما مسيرة خمسمائة سنة ـ حتى عَدَّ سبع أرضين ـ بين كلِّ أَرْضَين مسيرةُ خمسمائة سنةٍ، ثم قال: والذي نفسُ محمدٍ بيده لو أنَّكم دَلَّيتم بحبلٍ إلى الأرضِ السُّفلى لهبَطَ على الله، ثم قرأ: ﴿ هو الأوَّلُ والآخر والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ثم قال التِّرمذيُّ: «هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوَجه، ويُروَى عن أيُّوبَ ويونُسَ ـ يعني ابنَ عُبَيد ـ وعليِّ بن زيد قالوا: لم يَسْمَع الحسنُ من أبي هُرَيرة. وفَسَّر بعضُ أهل العلم هذا الحديث فقالوا: إنما هَبَطَ على علم الله وقُدْرته وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كُلِّ مكان، وهو على العَرْشِ، كما وَصَف في كِتابه»[٦] انتهى كلامه.

وقد رَوَى الإمام أحمدُ هذا الحديث عن سُرَيج، عن الحكم بن عبد الملك، عن قَتادَة، عن الحَسَن، عن أبي هُرَيرَةَ عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره، وعنده: «وبُعدُ ما بين الأرْضَين مسيرةُ سبعمائةِ[٧] عامٍ». وقال: «لو دَلَّيتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة لهبط[٨] على الله». ثم قرأ: ﴿ هو الأولُ والآخر والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾[٩].

(١) في نسخة: أنت الأول فليس.
(٢) مسند أبي يعلى ٤/٣٩٠ ـ ٣٩١.
(٣) العَنَانُ: السحاب. والروايا: جمع راوية، وهي التي تحمل الماء، شبه السحاب بها.
(٤) الرقيع: اسم سماء الدنيا. والموج المكفوف: الممنوع من الاسترسال، وقد حفظ الله تعالى السماء أن تقع على الأرض، وهي معلقة بلا عَمَدٍ كالموج المكفوف.
(٥) عن نسخة. ولفظ الترمذي: فإن فوق ذلك سماءين ما بينهما.
(٦) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الحديد ١٢/١٨٢ ـ ١٨٤.
(٧) في المسند: خمسمائة عام.
(٨) في المسند: لهبط، ثم قرأ.
(٩) مسند الإمام أحمد ٢/٣٧٠.

وَرَوَاه ابن أبي حاتم والبزَّار من حديث أبي جعفر الرازيِّ، عن قتادة، عن الحَسَن، عن أبي هُرَيرة... فذكر الحديث، ولم يذكر ابن أبي حاتم آخره وهو قوله: «لو دلَّيتم بحبل»، وإنما قال: «حتى عَدّ سبع أرَضِين بين كلِّ أرضين مَسيرةُ خمسمائة عام»، ثم تلا: ﴿ هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾. وقال البزار: لم يَرْوِه عن النبي ـ ﷺ ـ إلا أبو هُريرة.

وَرَوَاه ابن جرير، عن بِشْرٍ، عن يزيد، عن سعيد، عن قتادة: ﴿ هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ ﴾، ذُكِر لنا أن نبي الله ـ ﷺ ـ بينما هو جالس في أصحابه إذ ثار عليهم سَحاب، فقال: هل تدرون ما هذا[1]؟ وذَكَر الحديث مثل سياقِ الترمذي سواء، إلا أنه مرسَلٌ من هذا الوجه، ولعل هذا هو المحفوظ، والله أعلم.

وقد روى من حديث أبي ذرٍّ الغفاري ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ رواه البزَّار في مسنده، والبيهقيُّ في كتابِ الأسماءِ والصِّفاتِ[2]، ولكن في إسناده نظر، وفي مَتْنِه غرابةٌ ونكارةٌ، والله ـ سبحانَه وتعالى ـ أعلمُ.

وقال ابنُ جَرِيرٍ عند قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾:

حدثنا ابنُ عبدِ الأعلى، حدثنا ابنُ ثورٍ، عن معمرٍ، عن قتادة قال: التقى أربعةٌ من الملائكة بين السماء والأرض، فقال بعضهم لبعضٍ: مِن أينَ جئت؟ قال أحدُهم: أرسلني ربي ـ عزَّ وجلَّ ـ من السماءِ السابعة وتركتُه ثَمَّ. قال الآخر: أرسلني ربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ من الأرض السابعة وتركته ثَمَّ. قال الآخر: أرسلني ربي من المشرِق وتركته ثَمَّ. قال الآخر: أرسلني ربي من المغرب وتركته ثَمّ[3].

وهذا غريب جداً، وقد يكون الحديث الأولُ موقوفاً على قتادة كما رُوِي هاهنا من قوله، والله أعلم.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن خَلْقِه السمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبرَ باستوائِه على العَرْش بعد خلقهنَّ. وقد تقدَّمَ الكلامُ على هذه الآيةِ وأشباهِها في «سورة الأعراف»[4]، بما أغنى في إعادتِه هاهُنا.

﴿ يعلَمُ ما يَلِج في الأرض ﴾، أي: يعلَمُ عَدَد ما يدخُل فيها من حَبٍّ وقَطْرٍ، ﴿ وما يخرُج منها ﴾، من زَرْعٍ ونبات وثِمار، كما قال: ﴿ وعنده مفاتحُ الغيبِ لا يعلَمُها إلا هو ويعلَمُ ما في البرِّ والبحر وما تسقُط من ورَقةٍ إلا يعلَمُها ولا حبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مُبينٍ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وما يَنزِلُ من السماءِ ﴾، أي: من الأمطار، والثلوج والبَرَدِ، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام، وقد تقدَّم في «سورة البقرة» أنه ما ينزل من قَطْرةٍ من السماءِ إلا ومَعَها ملك يُقرِّرُها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء تعالى.

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/٢١٦.

(٢) الأسماء والصفات ٢/١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣) تفسير الطبري في سورة الطلاق ٢٨/١٥٤.

(٤) انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

وقولُهُ: ﴿ وما يعرُج فيها ﴾، أي: من الملائكةِ والأعمالِ، كما جاء في الصحيح: «يُرْفَع إليه عَمَلُ الليل قبل النهار، وعَمَلُ النهارِ قبل الليل»[1].

وقولُهُ: ﴿وهو مَعَكم أين ما كُنتم والله بما تعملُون بصيرٌ﴾، أي: رقيبٌ عليكم، شهيدٌ على أعمالكم حيث أنتم، وأينَ كنتُم، من برٍّ أو بحرٍ، في ليلٍ أو نهارٍ، في البيوتِ أو القِفار، الجميعُ في عِلْمِه على السَّواء، وتحت بَصَرِه وسَمْعِهِ، فيسمَعُ كلامَكُم ويرى مكانَكُم، ويعلم سرَّكم ونجواكم، كما قال: ﴿ ألا إنهم يَثْنون صُدورَهم ليستخفُوا منه ألا حين يستغشُون ثيابهم يعلم ما يُسِرُّون وما يعلنون إنه عليمٌ بذاتِ الصُّدُور ﴾. وقال: ﴿ سواءٌ منكم من أسر القولَ ومن جَهَر به ومن هو مُستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار ﴾، فلا إلَه غيرُه ولا ربَّ سِواه. وقد ثبت في الصحيح أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لجبريل، لما سأله عن الإحسان: «أن تَعبُدَ الله كأنك تَراه، فإن لم تكن تراه فإنه يَراك»[2].

ورَوَى الحافظُ أبو بكر الإسماعيلي من حَديث نَصر بن خُزَيمة بن جُنَادة بن محفوظِ بن عَلْقمة، حدثني أبي، عن نصر بن علقمة، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن عائذٍ قال: قال عمر: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: زَوِّدني كلمةً أعيشُ بها. فقال: «استحِ الله كما تَستَحِي رجُلاً من صَالحِ عَشِيرتك لا يُفارِقُك». هذا حديثٌ غَريبٌ.

ورَوَى أبو نُعَيمٍ من حديث عبد الله بن مُعاويَةَ الغاضِريِّ مرفُوعاً: «ثلاثٌ مَن فعلهن فقد طَعِم الإيمان: من عبد الله وحدَه، وأعطى زكاةَ ماله طيبةً بها نفسُه في كلِّ عام، ولم يُعطِ الهَرِمَةَ ولا الدَّرِنَةَ[3]، ولا الشَّرَط اللَّئيمة ولا المَريضة، ولكن من أوسط أموالكم. وزَكَّى نفسه». وقال رجلٌ: يا رسولَ الله، ما تَزْكِيَةُ المرءِ نفسَه؟ فقال: «يعلَم أنَّ الله مَعَه حيثُ كانَ».

وقال نُعَيم بن حَمَّاد ـ رحمه الله ـ: حَدَّثنا عثمانُ بن سَعيد بن كثير بن دينار الحِمْصِي، عن محمد بن مُهاجِرٍ، عن عُروَةَ بن رُوَيم، عن عبد الرحمن بن غَنْمٍ، عن عُبادة بن الصَّامِتِ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن أفضلَ الإيمان أن تعلَم أن الله مَعَك حيثما كُنتَ». غريب.

وكان الإمام أحمدُ يُنشِد هذَين البيتين:[4]

إذَا ما خَلوتَ الدهرَ يَوماً فَلاَ تَقُلْ: خَلَوتُ، وَلَكِن قُل: عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغفُلُ سَاعَةً وَلاَ أنَّ مَا يَخْفَى عَلَيهِ يَغِيبُ

وقولُهُ: ﴿ لـه مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وإلى الله تُرجَعُ الأمور ﴾، أي: هو المالِكُ للدنيا والآخرة، كما قال: ﴿وإنَّ لَنا للآخرةَ والأولى ﴾، وهو المحمودُ على ذلك، كما قال: ﴿ وهو الله لا إلَه إلا هُو له الحمدُ في الأولى والآخرةِ ﴾، وقال: ﴿ الحمدُ لله الذي له ما في السموات وما في الأرضِ وله الحمدُ في الآخرة وهو الحكيمُ الخبيرُ ﴾. فجميعُ ما في السمواتِ والأرضِ مِلْكٌ له، وأهلُهما عَبيدٌ أرقَّاءُ أذلاءُ بين يدَيه كما قال: ﴿ إن كُلُّ مَن في السمواتِ والأرضِ إلا آتِي الرحمنِ عَبْداً * لقدأحصاهُم وعَدَّهم عدًّا * وكلُّهم آتيهِ يومَ القيامة

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة، ٨ من سورة النمل، وخرجناه هنالك.
(٢) أخرجاه في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/١١٤، ومسلم ١/٣٨.
(٣) الدَّرِنَة: الجرباء. والشَّرَط: رُذَال المال.
(٤) تقدم البيتان في آخر سورة النمل، وقد ذكرهما ابن كثير في البداية في جملة أبيات منسوبة إلى أبي نواس، انظر ١٠/٢٤٤.

فَرْدًا ﴾. ولهذا قال: ﴿ وإلى الله تُرجَع الأمور ﴾. أي: إليه المرجعُ يومَ القيامة، فيحكُم في خلقه بما يشاء، وهو العادلُ الذي لا يَجُور ولا يظلِم مثقالَ ذرَّةٍ، بل إن يَكُن أحدُهم عَمِل حسنةً واحدةً يُضاعِفها إلى عَشْرِ أمثالها. ﴿ ويُؤتِ من لدنه أجراً عظيماً ﴾. وكما قال تعالى: ﴿ ونَضَع الموازين القِسْطَ ليوم القيامةِ فلا تُظلَم نفسٌ شيئاً وإنْ كانَ مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أتينا بها وكَفَى بنا حاسبين ﴾.

وقولُهُ: ﴿ يُولِج الليلَ في النهارِ ويُولِجُ النهارَ في الليل ﴾، أي: هو المتصرِّف في الخلق، يُقلِّب الليل والنهار ويُقدِّرهما بحكمته كما يشاء، فتارةً يَطُول الليل ويقصُر النهار، وتارةً بالعكس، وتارة يتركُهما مُعتدِلَين. وتارةً يكون الفصلُ شتاءً ثم رَبيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً، وكلُّ ذلك بحكمته وتقديره لما يُريده بخلقه، ﴿ وهو عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ ﴾، أي: يعلَم السرائرَ وإن دَقَّتْ وخَفِيَتْ.

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

أَمَرَ تعالى بالإيمان به وبرسُوله على الوجه الأكمل، والدَّوام والثباتِ على ذلك والاستمرار، وحَثَّ على الإنفاق مما جعلكم مُستخلَفين فيه، أي: مما هو معكم على سبيل العاريَّة، فإنه قد كان في أيدي مَن قبلَكم ثم صار إليكم. فأرشدَ تعالى إلى استعمالِ ما استخلَفَهُم فيه من المال في طاعتِهِ وإن يفعلُوا حاسَبَهُم عليه وعاقَبَهم، لِتَرْكِهم الواجبات فيه.

وقولُهُ: ﴿ مما جعلكم مُستخلَفين فيه ﴾: فيه إشارةٌ إلى أنه سيكون مُخلَّفاً عنك، فلعلَّ وارثك أن يُطيع الله فيه، فيكون أسعدَ بما أنعم الله به عليكَ منك، أو يَعصِي الله فيه فتكونَ قد سعيتَ في معاونته على الإثم والعُدوان.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شُعبةُ، سَمِعت قتادة يُحدِّث، عن مُطَرِّف ـ يعني ابنَ عبد الله بن الشِّخير ـ عن أبيه قال: انتهيتُ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو يقول: ﴿ ألهاكم التكاثُرُ ﴾، يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تَصدَّقتَ فأمضيتَ(١)؟

ورَواه مسلم من حديث شُعبةَ، به، وزاد: «وما سِوَى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناسِ»(١).

وقولُهُ: ﴿ فالذين آمنُوا منكُم وأنفقُوا لهم أجرٌ كبيرٌ ﴾، ترغيبٌ في الإيمانِ والإنفاقِ في الطاعةِ. ثم قال: ﴿ وما لكُم لا تؤمنون بالله والرَّسول يدعُوكم لتؤمنُوا بربِّكم ﴾، أي: وأيُّ شيءٍ يمنعكم الإيمانَ والرسولُ بين أظهرِكم، يدعُوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحُجَجَ والبراهين على صِحَّة ما جاءكم به؟. وقد رَوَينا في الحديث من طُرُقٍ في أوائل شرح «كتاب الإيمان» من صَحيح البُخاري: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال يوماً لأصحابه: أيُّ

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢٤، ومسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٧٣.

المؤمنين أعجبُ إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكةُ. قال: وما لهم لا يُؤمِنُون وهم عند ربِّهم؟ قالوا: فالأنبياء قال. وما لهم لا يُؤمِنُون والوحيُ ينزل عليهم. قالوا. فنحن؟ قال: وما لكم لا تُؤمِنُون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجَبُ المؤمنين إيماناً قومٌ يجيئون بعدَكُم يجدون صُحُفاً يُؤمِنُون بما فيها.

وقد ذكرنا طَرَفاً من هذا في أول «سُورَةِ البقرة» عند قوله: ﴿الذينَ يُؤمِنُون بالغَيبِ﴾(١)

وقولُهُ: ﴿ وقد أخذَ ميثاقكم ﴾، كما قال ﴿ واذكرُوا نعمةَ الله عليكم وميثاقَه الذي واثَقَكُم به إذ قلتُم سَمِعنا وأطعنا ﴾. ويعني بذلك بيعةَ الرسول الله ﷺ. وزَعَم ابنُ جَرِيرٍ أنَّ المرادَ بذلك الميثاقُ الذي أُخِذ عليهم في صُلبِ آدمَ. وهو مذهبُ مجاهدٍ(٢) فالله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ هو الذي يُنَزِّل على عبدِه آياتٍ بيِّناتٍ ﴾، أي: حُجَجاً واضحات، ودلائلَ باهرات، وبراهين قاطعاتٍ، ﴿ لِيُخرجَكُم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ﴾، أي: من ظُلُماتِ الجَهلِ والكُفرِ والآراء المتضادَّةِ إلى نُورِ الهدي واليَقينِ والإيمان، ﴿ وإنَّ الله بكُم لرءوفٌ رحيم ﴾، أي: في إنزالِهِ الكتب وإرساله الرُّسُلَ لهدايةِ الناسِ، وإزاحةِ العِلَلِ وإزالةِ الشُّبَهِ.

ولَمَّا أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم حَثَّهم على الإيمان، وبيَّن أنه قد أزال عنهم مَوَانِعه، حَثَّهم أيضاً على الإنفاق فقال: ﴿ وما لكم ألا تُنفِقُوا في سبيلِ الله ولله ميراثُ السمواتِ والأرضِ ﴾، أي: أنفِقُوا ولا تخشَوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالكُ السمواتِ والأرض، وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مَالِكُ العرشِ بما حَوَى، وهو القائل: ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يُخلِفه وهو خَيرُ الرازقين ﴾. وقال. ﴿ ما عندكم ينفَدُ وما عند الله باقٍ ﴾، فمَن توكَّل على الله أنفَقَ، ولم يخشَ من ذي العرش إقلالاً، وعلم أن الله سَيُخلِفه عليه.

وقولُهُ: ﴿ لا يستوي منكم مَن أنفق من قبل الفتح وقاتَلَ ﴾، أي: لا يستوي هذا ومَن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكَّةَ كان الحالُ شديداً، فلم يكن يُؤمِن حينئذ إلا الصدِّيقون، وأما بعدَ الفتحِ فإنه ظهر الإسلامُ ظُهوراً عظيماً، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً. ولهذا قال: ﴿ أولئك أعظَمُ درجةً من الذين أنفقُوا من بعدُ وقاتلوا وكُلًّا وَعَد الله الحسنى ﴾.

والجمهورُ على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة. وعن الشعبيِّ وغيره أن المرادَ بالفتح هاهنا صُلحُ الحُدَيبية. وقد يُستَدلُّ لهذا القول بما قال الإمام أحمد:

حدثنا أحمدُ بن عبد الملك، حدثنا زُهَير، حدثنا حُمَيدٌ الطويلُ، عن أنَسٍ قال: كان بين خالدِ بنِ الوليد وبين عبد الرحمن بن عَوفٍ كلامٌ، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيامٍ سبقتُمونا بها؟ فبَلَغَنا أنَّ ذلك ذُكِر للنبي ـ ﷺ ـ فقال: «دَعُوا لي أصحابي، فوالذي نَفسِي بيده لو أنفقتُم مثلَ أُحُدٍ ـ أو: مثلَ الجبالِ ـ ذَهَباً، ما بلغتُم أعمالَهم»(٣).

ومعلومٌ أن إسلامَ خالدِ بن الوليد المواجَه بهذا الخطاب كان بين صُلحِ الحُدَيبية وفَتحِ مكة، وكانت هذه

---

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية الثالثة من سورة البقرة. وانظره أيضاً في جزء الحسن بن عرفة ٥١ ـ ٥٢.
(٢) تفسير الطبري ٢٧/٢١٨.
(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٢٦٦.

المشاجرةُ بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسولُ الله - ﷺ - خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: «صَبَأنا، صبأنا»، فلم يُحسِنُوا أن يقولوا: «أسلمنا»، فأمر خالدٌ بقتلهم وقَتْلِ مَنْ أُسِرَ منهم، فخالفه عبدُ الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عُمَر، وغيرهما. فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك[1].

والذي في الصَّحيح عن رسول الله - ﷺ -: أنه قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بِيَدِهِ لو أَنْفَقَ أحدُكم مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه»[2].

وروى ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، من حديث ابن وهب: أخبرنا هِشَام بنُ سَعْدٍ، عن زيد بن أسلَمَ، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدريِّ أنه قال: خَرَجنا مع رسولِ الله - ﷺ - عام الحُدَيبية، حتى إذا كنا بعُسْفان قال رسول الله - ﷺ -: «يُوشِكُ أن يأتيَ قومٌ تحقِرُون أعمالَكُم مع أعمالهم». فقلنا: مَنْ هُم يا رسول الله؟ أقُرَيشٌ؟ قال: «لا، ولكن أهلُ اليَمن، هم أَرَقُّ أفئدةً وأليَنُ قلوبًا». فقلنا: هُم خيرٌ منا يا رسول الله؟ قال: «لو كان لأحدهم جبلٌ من ذهب فأنفقَه ما أدرَكَ مُدَّ أَحَدِكم ولا نَصيفه، ألا إنَّ هذا فصلُ ما بيننا وبين الناس، ﴿ لا يستوي منكم مَن أنفقَ مِن قبل الفتح وقاتَل أولئك أعظَمُ درجةً من الذين أنفقُوا مِن بعدُ وقاتلوا وكُلًّا وعَدَ الله الحسنى والله بما تعملُون خبير ﴾»[3].

وهذا الحديثُ غريبٌ بهذا السياق، والذي في الصَّحيحين من رواية جماعةٍ، عن عطاءِ بن يسارٍ، عن أبي سعيد - ذكر الخوارج -: «تحقِرون صَلاتَكُم مع صلاتهم، وصِيامكم مع صِيامهم، يَمرُقُون من الدِّين كما يمرُق السهمُ من الرميَّة»[4]... الحديث. ولكن رَوَى ابنُ جرير هذا الحديثَ من وجه آخر، فقال:

حدَّثني ابنُ البَرْقيِّ، حدثنا ابنُ أبي مَرْيَم، أخبرنا محمد بن جعفر، أخبرني زيد بن أسلَمَ، عن أبي سعيد التمَّار، عن أبي سَعيد الخُدري: أنَّ رسول الله - ﷺ - قال: «يُوشِكُ أن يأتي قومٌ تَحقِرون أعمالَكم مع أعمالِهم». قلنا: مَن هُم يا رسول الله؟ قُرَيشٌ؟ قال: «لا، هُمْ[5] أَرَقُّ أفئدةً، وأَلْيَنُ قلوبًا». وأشار بيده إلى اليَمن، فقال: «هُم أهلُ اليمن، ألا إنَّ الإيمانَ يمانٍ، والحكمةَ يمانيةٌ». فقلنا: يا رسول الله، هم خيرٌ منا؟ قال: «والذي نفسي بيده لو كان لأحدِهم جَبَلٌ من ذهب يُنفِقُه ما أدَّى مُدَّ أَحَدِكم ولا نَصِيفَه». ثم جَمَع أصابعه ومَدَّ خِنْصرَه وقال: «ألا، إنَّ هذا فصلُ ما بيننا وبين الناس، ﴿ لا يَستَوي منكُم من أنفَقَ من قبل الفتح وقاتَلَ أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقُوا من بعد وقاتلوا وكُلًّا وعَدَ الله الحسنى والله بما تعملون خَبِير ﴾»[6].

فهذا السياقُ ليس فيه ذكرُ الحُدَيبية، فإن كان ذلك محفوظًا كما تقدَّم، فَيُحْتَمل أنه أُنزِل قبل الفتح إخبارًا عما بعده، كما في قوله تعالى في «سورة المزمل» - وهي مكية، من أوائل ما نزَل -: ﴿ وآخرون يُقاتِلون في سبيل الله ﴾... الآية، فهي بشارة بما يُستَقْبَل، وهكذا هذه. والله أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿ وكلًّا وعد الله الحسنى ﴾، يعني المُنفقين قبل الفتح وبعده، كلُّهم لهم ثوابٌ على ما عَمِلوا، وإن كان بينهم تفاوتٌ في تفاضُل الجزاء، كما قال: ﴿ لا يَستوي القاعدُون من المؤمنين غيرُ أولي الضَّرَرِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، فتح الباري ١٣/١٨١، وأخرجه النسائي في كتاب السير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٥/٣٩٤.

(٢) تقدَّم الحديث آخر سورة الفتح، وخرجناه من مسلم، وهو في فتح الباري، كتاب الفضائل ٧/٢١.

(٣) تفسير الطبري ٢٧/٢٢١.

(٤) مسلم، كتاب الزكاة ٢/٧٤٣ - ٧٤٤، وانظر تحفة الأشراف للمزي ٣/٣٩٤، ٤١٠.

(٥) في هامش نسخة زيادة بين (لا) و(هم) هي: (ولكن أهل اليمن) ويختل بها السياق.

(٦) تفسير الطبري ٢٧/٢٢١.

والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾، وهكذا الحديث الذي في الصحيح: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ»[1]. وإنما نَبَّه بهذا لئلا يُهدَرَ جانبُ الآخرِ بمَدْحِ الأول دون الآخر، فيَتوَهَّم مُتوهِّم ذَمَّه، فلهذا عَطَف بمَدْحِ الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه، ولهذا قال: ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾، أي: فلخبرته فاوتَ بين ثواب مَن أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومَن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذاكَ إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التامِّ، وإنفاقه في حال الجَهْد والقلة والضيق. وفي الحديث: «سَبَق دِرْهَمٌ مائةَ ألفٍ»[2]. ولا شكَّ عند أهل الإيمان أنَّ الصدِّيق أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ له الحظ الأوفرُ من هذه الآية، فإنه سيِّد مَن عَمِل بها من سائر أُمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كُلَّه ابتغاء وجهِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولم يكن لأحدٍ عنده نعمةٌ يَجزيه بها.

وقد قال أبو محمد الحُسَين بن مسعود البَغَوي عند تفسير هذه الآية: أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشُّرَيحي، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد، أخبرنا أحمد بن إسحاق بن أيوب، أخبرنا محمد بن يونس، حدثنا العلاء بن عمرو الشيباني، حدثنا أبو إسحاق الفَزاري، حدثنا سفيان بن سعيد، عن آدم بن علي، عن ابن عُمَر قال: كنتُ عند النبيِّ ـ ﷺ ـ وعنده أبو بكر الصديق، وعليه عباءةٌ قد خَلَّها في صدره بخِلال[3]، فنزل جبريلُ فقال: ما لي أرَى أبا بكر عليه عباءةٌ قد خَلَّها في صَدْرِه بخِلال؟ فقال: «أنفق ماله عليَّ قبل الفتح». قال: فإن الله يقول: اقرأ عليه السلام، وقل له: أراضٍ أنتَ عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله: «يا أبا بكر، إن الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟». فقال أبو بكر رضي الله عنه: أسخطُ على ربي عزَّ وجلَّ؟! إنِّي عن ربِّي راضٍ[4].

هذا الحديثُ ضعيفُ الإسنادِ من هذا الوجهِ.

وقولُهُ: ﴿ مَن ذا الذي يُقرِضُ الله قرضاً حسناً ﴾، قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاقُ في سبيل الله. وقيل: هو النفقةُ على العيال. والصحيحُ أنه أعمُّ من ذلك، فكلُّ مَن أنفق في سبيل الله بنيَّةٍ خالصةٍ وعزيمة صادقة دَخَلَ في عُموم هذه الآية، ولهذا قال: ﴿ مَن ذا الذي يُقرِضُ الله قرضاً حسناً فيُضاعِفَه له ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أضعافاً كثيرة وله أجر كريم ﴾، أي: جزاءٌ جميلٌ، ورزقٌ باهرٌ ـ وهو الجنَّةُ ـ يوم القيامة.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفَة، حدثنا خَلَف بن خَليفَة، عن حُمَيدٍ الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: لما نَزَلت هذه الآيةُ: ﴿ مَن ذا الذي يُقرِض الله قرضاً حسناً فيُضاعِفَهُ له ﴾، قال أبو الدَّحداح الأنصاري: يا رسولَ الله، وإنَّ الله لَيُريدُ منَّا القرضَ؟ قال: «نعم، يا أبا الدَّحداح». قال: أرني يَدَكَ يا رسولَ الله. قال: فناوله يدَه، قال: فإني قد أقرضتُ ربِّي حائطي ـ وله حائطٌ فيه ستمائة نخلةٍ وأمُّ الدَّحداح فيه وعيالُها، قال: فجاء أبو الدَّحداح فناداها: يا أم الدَّحداح. قالت: لبيك. فقال: اخرُجي، فقد أقرضته ربِّي عزَّ وجلَّ[5].

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ٢٠٥٢/٤، والنسائي في اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف للمزي ٢١٩/١٠، وابن ماجه في المقدمة ٣١/١.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب الزكاة ٥٩/٥.

(٣) خَلَّ الكساء وغيره: جمع أطرافه بخِلال، وهو: عودٌ أو حديدٌ.

(٤) تفسير البَغَوي ٢٩٥/٤.

(٥) جزء الحسن بن عرفة ٩٢

وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعُك يا أبا الدَّحداح. ونقلت منه متاعها وصبيانها، وأنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «كم من عذقٍ رداح[1]، في الجنة لأبي الدَّحداح» وفي لفظ: «ربَّ نخلةٍ مُدلّاة عروقُها درٌّ وياقوتٌ، لأبي الدَّحداح في الجنة».

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟
نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ
أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدِّقين أنّهم يومَ القيامة يسعَى نورُهم بينَ أيديهم في عَرَصاتِ القيامة، بحسَب أعمالهم، كما قال عبدُ الله بنُ مسعودٍ في قوله: ﴿ يسعَى نورُهم بين أيديهم ﴾، قال: على قدْرِ أعمالهم يمرُّون على الصِّراطِ، منهم من نورُه مثلُ الجبل، ومنهم مَن نورُه مثل النخلة، ومنهم مَن نورُه مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نورُه في إبهامه يتقدُ مرةً ويَطْفأُ مرةً. رَوَاه ابنُ أبي حاتمٍ، وابنُ جَرِيرٍ[2].

وقال قتادةُ: ذُكر لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ كان يقولُ: «من المؤمنينَ مَن يُضيء نُورُه من المدينة إلى عَدَنٍ[3] أَبين وصنعاء، فدونَ ذلك، حتى من المؤمنين من يُضيء نورُه موضع قدميه».

وقال سفيانُ الثَّوري، عن حُصَين، عن مجاهد، عن جُنادة بن أبي أُميَّة قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم، وسيماكم وحُلاكم[4]، ونجواكم ومَجالسِكم، فإذا كان يومُ القيامة قيلَ: يا فلانُ، هذا نورُك. يا فلانُ، لا نُورَ لك. وقرأ: ﴿ يسعَى نورُهم بين أيديهم ﴾.

وقال الضحاك: ليس أحدٌ إلا يعطَى نُوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طَفِيء نورُ المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقُوا أن يطفأَ نورُهم كما طَفيء نورُ المنافقين، فقالوا: ربَّنا أَتمِمْ لنا نورَنا.

وقال الحسنُ: ﴿ يسعَى نورُهم بين أيديهم ﴾، يعني على الصِّراطِ.

وقد قال ابن أبي حاتم رَحمه الله: حدثنا أبو عُبَيدِ الله ابنُ أخي ابن وهب، أخبرنا عَمِّي، عن يزيدَ بن أبي حبيب، عن سَعد بن مسعود: أنه سَمِع عبد الرحمن بن جُبَير يُحدِّث: أنه سَمعَ أبا الدرداء وأبا ذَرٍّ يُخبِران عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أنا أوّل مَن يُؤذَنُ له يومَ القيامة بالسُّجود، وأوّلُ من يُؤذَنُ له برفعِ رأسه، فأنظر من بين يَدَيَّ ومن خلفي، وعن يَميني وعن شمالي، فأعرفُ أُمّتي من بين الأمم». فقال له رجل: يا نبيَّ الله، كيف تعرفُ أُمّتكَ من بين الأُمَم، وما بين نوحٍ إلى أُمّتك؟ قال: «أعرفُهم، مُحجَّلون من أثرِ الوضوء، ولا يكونُ لأحدٍ من الأمم غيرَهم، وأعرِفُهم يُؤتَون كتبَهم بأيمانهم، وأعرِفُهم سيماهم في وجُوهِهم، وأعرِفُهم نورهم يسعَى بين أيديهم وذُرِّيتهم».

(1) عذق ـ بفتح فسكون ـ: النخلة، وبكسر فسكون: العرجُون، والرَّداح: العظيمة والثقيلة.
(2) تفسير الطبري ٢٧/٢٢٣.
(3) عدن: موضع باليمن، ويقال له: عدنُ أَبين، نُسب إلى أُبين رجلٍ من حِمْيرٍ، لأنه عدن به، أي أقام.
(4) الحُلي ـ بضم الحاء وكسرها ـ: جمع حِلْيَة، والمراد بها هنا: صفةُ الرجُل وخِلْقتهُ وصُورته.

وقولُهُ: ﴿ وبِأيمانِهم ﴾، قال الضحاك: أي: وبأيمانهم كُتُبهم. كما قال. ﴿ فمن أُوتي كِتابه بيمينه ﴾[1].

وقولُهُ: ﴿ بُشْرَاكُمُ اليومَ جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ ﴾، اي: يُقال لهم: بشراكم اليوم جنَّاتٌ، أي. لكُم البشارةُ بجناتٍ تجرِي من تحتها الأنهار، ﴿ خَالِدِين فيها ﴾، أي: ماكِثين فيها أبداً، ﴿ ذلك هو الفوزُ العظيمُ ﴾.

وقولُهُ. ﴿ يوم يقول المنافقونَ والمنافقات للذين آمنوا انظُرونا نَقتبِسْ من نُورِكم﴾، وهذا إخبارٌ منه تعالى عمَّا يقع يوم القيامة في العرَصات من الأهوالِ المزعجَة، والزلازلِ العظيمَة، والأمور الفظيعةِ، وأنه لا ينجُو يومئذٍ إلَّا مَن آمن بالله ورسوله، وعَمِل بما أَمَر، وتَرَك ما عنه زَجَر.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَبْدَة بن سُلَيمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صَفوان بن عَمرو، حدثني سُلَيم بن عامر قال: خَرجنا على جنازة في باب دِمَشْقَ، ومعنا أبو أمامةَ الباهلي، فلما صُلِّي على الجنازة وأخذُوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناسُ، إنكم قد أصبحتُم وأمسيتم في منزلٍ تقتَسِمُون فيه الحسنات والسيئات، وتُوشِكُون أن تظعَنُوا منه إلى منزلٍ آخرَ، وهو هذا ـ يُشِير إلى القبر ـ بيتِ الوحدة، وبيتِ الظُّلمة وبيتِ الدُّودِ، وبيتِ الضِّيق، إلَّا ما وسَّع الله، ثم تنتقِلُون منه إلى مواطنِ يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطِنِ حينَ يغشَى الناسَ أمرٌ من الله، فَتبيضُّ وجوه وتَسْوَدُّ وجوهٌ، ثم تنتقِلون منه إلى منزلٍ آخَرَ فتغشى الناسَ ظلمةٌ شديدةٌ، ثم يُقسَمُ النورُ فيُعطَى المؤمن نوراً، ويُترَكُ الكافرُ والمنافق فلا يُعطَيان شيئاً. وهو المثلُ الذي ضَرَبه الله في كتابه، قال: ﴿ أو كظُلُماتٍ في بَحرٍ لُجِّيٍّ ﴾. إلى قوله: ﴿ فما له من نُورٍ ﴾، فلا يَستضيء الكافرُ والمنافقُ بنورِ المؤمنِ كما لا يَستضيء الأعمى بنور البَصِير، ويقول المنافقون للذين آمنوا ﴿انظُرونا نَقتَبِسْ من نورِكم قيل ارجِعُوا وَرَاءَكُم فالتمِسُوا نوراً ﴾، وهي خدعة الله التي خَدَع بها المنافقين حيث قال ﴿ يُخادِعُون الله وهو خادِعُهم ﴾. فيرجعُون إلى المكانِ الذي قُسِم فيه النورُ، فلا يجدون شيئاً فَينصرفُون إليهم وقد ضُرِب بينهم بسُورٍ له بابٌ، ﴿ باطنُهُ فيه الرحمةُ وظاهِرُه من قِبَلِه العذابُ ﴾... الآية، يقولُ سُلَيم بن عامر: فما يزال المنافقُ مغترًّا حتى يُقسَمَ النورُ، ويُميِّزَ الله بين المؤمن والمنافق.

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا ابنُ حَيْوَة، حدثنا أرطاةُ بن المنذر، حدثنا يوسفُ بن الحَجَّاج عن أبي أمامة قال: تُبعَثُ ظلمةٌ يوم القيامة، فما مِن مؤمنٍ ولا كافرٍ يَرَى كفَّه، حتى يبعَثَ الله بالنور إلى المؤمنين بِقَدْرِ أعمالِهم، فيتبَعُهم المنافقون يقولُون: ﴿ انظُرونا نَقتَبِسْ من نُورِكُم. ﴾.

وقال العَوفيُّ، والضحاك، وغيرهما، عن ابن عباس: بينما الناس في ظُلمةٍ إذْ بعثَ الله نُوراً، فلما رأى المؤمنونَ النورَ توجَّهُوا نحوَه، وكان النورُ دليلاً من الله إلى الجنة، فلمَّا رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقُوا اتَّبعُوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذٍ: ﴿ انظُرونا نَقتَبِسْ من نُورِكم ﴾ فإنا كُنَّا معكم في الدُّنيا. قال المؤمنونَ: ﴿ ارجِعُوا ﴾ من حيثُ جئتُم من الظُّلمة، فالتمِسُوا هنالك النورَ[2].

وقال أبو القاسم الطَّبَراني: حدثنا الحَسن بن عَلَّويَةَ القَطَّان، حدثنا إسماعيلُ بن عيسى العطَّار، حدثنا إسحاقُ بن بشر أبو[3] حُذَيفَةَ، حدثنا ابن جُرَيج، عن ابن أبي مُلَيكَةَ، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله

(١) أخرجه الطبري ٢٧/٢٢٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٧/٢٢٤. وكذلك أخرجه ابن مردويه، والبيهقي في البعث، انظر الدر المنثور ٨/٥٣.

(٣) في النسخ: بن حذيفة. والمثبت من المعجم الكبير، ومجمع الزوائد ١٠/٣٥٩، والمغني للذهبي ١/١٧٠.

ـ ﷺ ـ: «إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده. وأما عند الصِّراط فإن الله يُعطي كلَّ مؤمنٍ نوراً، وكلَّ منافقٍ نوراً، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾، وقال المؤمنون: ﴿ربَّنا أتمم لنا نورنا﴾. فلا يذكر عند ذلك أحدٌ أحداً»[1].

وقوله: ﴿فضُرب بينهم بسُورٍ له بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرُه من قِبَله العذابُ﴾، قال الحسنُ، وقتادةُ: هو حائطٌ بين الجنة والنار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الذي قال الله تعالى: ﴿وبينهما حجابٌ﴾. وهكذا رُوي عن مجاهدٍ ـ رحمه الله ـ وغيرِ واحدٍ. وهو الصحيحُ.

﴿باطنُه فيه الرحمةُ﴾، أي: الجنةُ وما فيها، ﴿وظاهرُه من قِبَلِه العذابُ﴾، أي: النارُ. قاله قتادةُ، وابنُ زيدٍ، وغيرهما.

قال ابنُ جريرٍ: وقد قيل: إن ذلك السور سورُ بيت المقدس عند وادي جَهَنَّم. ثم قال:

حدثنا ابن البرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن سعيد بن عطية بن قيسٍ، عن أبي العوّام ـ مُؤذِّن بيت المقدس ـ قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: إنَّ السُّور الذي ذَكَر الله في القرآن: ﴿فضُرِب بينهم بسور له بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرُه من قِبَلِه العذابُ﴾، هو السور الشرقي باطنه المسجدُ وما يليه، وظاهره وادي جهنَّم[2].

ثم روى عن عُبادة بن الصَّامت، وكعب الأحبار، وعلي بن الحُسين زين العابدين[3]، نحوَ ذلك. وهذا محمولٌ منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك، لا أنَّ هذا هو الذي أُريدَ من القرآن هذا الجدارُ المعيَّن ونفسُ المسجد وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنَّم؛ فإن الجنة في السموات في أعلى عِلِّيِّين، والنار في الدركات أسفل سافلين. وقولُ كعب الأحبار: إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمةِ الذي هو أحد أبواب المسجد، فهذا من إسرائيليّاته وتُرّهاته. وإنما المراد بذلك سورٌ يُضرَب يوم القيامة لِيَحجُز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دُخولهم أُغلِقَ البابُ وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظُّلمة والعذابِ، كما كانوا في الدار الدُّنيا في كُفرٍ وجهلٍ وشكٍّ وحيرةٍ.

﴿ينادونهم ألم نكن معكم﴾، أي: ينادي المنافقون المؤمنين: أما كُنّا معكم في الدار الدنيا، نشهدُ معكم الجُمُعات، ونصلي معكم الجماعاتِ، ونقف معكم بعرَفاتٍ، ونحضُر معكم الغزواتِ، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ ﴿قالوا بلى﴾، أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى، قد كنتُم معنا، ﴿ولكنكم فتنتُم أنفسكم وتربّصتُم وارتبتُم وغرّتكم الأمانيُّ﴾، قال بعضُ السلف: أي فتنتُم أنفُسكم باللذاتِ والمعاصي والشهوات، ﴿وتربّصتُم﴾، أي: أخّرتم التوبة من وقتٍ إلى وقتٍ.

وقال قتادةُ: ﴿تربّصتم﴾ بالحقِّ وأهله. ﴿وارتبتُم﴾، أي: بالبَعثِ بعد الموتِ، ﴿وغرّتكم الأمانيُّ﴾، أي: قلتم سيُغفر لنا، وقيل: غرّتكم الدنيا. ﴿حتى جاء أمر الله﴾، أي: ما زلتُم في هذا حتى جاء الموتُ، ﴿وغرّكم بالله الغرور﴾، أي: الشيطانُ. قال قتادة: كانوا على خُدعةٍ من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار.

---

(١) أخرجه في المعجم الكبير ١١/١٢٢
(٢) تفسير الطبري ٢٧/٢٢٥
(٣) كذا، وفي تفسير الطبري: علي بن عبدالله بن عباس، عن أبيه

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: أنكم كنتُم معنا بأبدانٍ لا نِيَّةَ لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حَيرةٍ وشَكٍّ، فكُنتم تُراءُون الناس ولا تذكُرون الله إلا قليلاً.

قال مجاهدٌ: كان المنافِقُون مع المؤمنين أحياءً يُناكِحُونهم ويَغْشَونهم ويُعاشِرُونهم، وكانوا معهم أمواتاً، ويُعطون النورَ جميعاً يوم القيامة، ويَطْفَأُ النورُ من المنافقين إذا بلغوا السورَ، ويُمازُ بينهم حينئذٍ[١].

وهذا القولُ من المؤمنين يُنافِي قولَهم الذي أخبر الله به عنهم، حيث يقولُ وهو أصدقُ القائلين: ﴿كلُّ نفسٍ بما كَسَبَت رَهينة * إلا أصحابَ اليمينِ * في جناتٍ يتساءلون * عن المجرمين * ما سَلَكَكم في سَقَر * قالوا لم نَكُ من المصلِّين * ولم نَكُ نُطعِم المسكين * وكنا نخوضُ مع الخائضين * وكنا نُكذِّبُ بيوم الدين * حتى أتانا اليقين﴾، فهذا إنما خَرَجَ منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ. ثم قال تعالى: ﴿فما تَنْفعهُم شفاعةُ الشافعين﴾، كما قال تعالى هاهنا: ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فِديةٌ ولا من الذين كَفروا﴾، أي: لو جاء أحدُكم اليومَ بمِلءِ الأرضِ ذَهَباً ومثلَه معه لِيفتدِيَ به من عذابِ الله ما قُبِل منه.

وقولُهُ: ﴿مأواكُم النارُ﴾، أي: هي مَصيركم وإليها مُنقَلَبُكم.

وقولُهُ: ﴿هي مَولاكُم﴾، أي: هي أولى بِكُم من كُلِّ منزلٍ على كُفرِكم وارتيابِكم. وبئس المصيرُ.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقولُ تعالى: أما آنَ للمؤمنين أن تخشع قلوبُهم لذكر الله، أي: تَلِين عند الذِّكر والموعظة وسَماع القرآن، فتفهَمُه وتَنْقادُ له وتسمعُ له وتُطيعه.

قال عبد الله بن المبارك: حدثنا صالح المُرِّي، عن قتادة، عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قُلُوبَ المهاجرين فعاتَبَهم على رأس ثلاث عشرة من نُزول القرآن، فقال: ﴿ألم يأنِ للذين آمنُوا أن تخشَعَ قُلوبهم لذِكرِ الله﴾... الآية، رواه ابنُ أبي حاتمٍ، عن الحسن بن محمد بن الصَّبّاح، عن حُسَين المروزيِّ، عن ابن المبارك، به.

ثم قال هو ومُسلِمٌ: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال ـ يعني اللَّيثيَّ ـ عن عَونِ بن عبد الله، عن أبيه، عن ابن مسعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كان بينَ إسلامنا وبينَ أن عاتَبَنا الله بهذه الآيةِ: ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشَعَ قلوبُهم لذكر الله﴾... الآية، إلا أربع سنين[٢].

كذا رواه مسلم في آخر الكتاب. وأخرجه النسائي عند تفسير هذه الآية، عن هارونَ بن سعيد الأيليِّ، عن ابن وَهب، به. وقد رواهُ ابن ماجه من حديث مُوسى بن يعقوب الزَّمعيِّ، عن أبي حازم، عن عامر بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه، مِثلَه. فجعله من مُسنَدِ ابن الزُّبير[٢]. لكن رواه البزَّار في مسنده من طريق

---

(١) أخرجه الطبري ٢٧/٢٢٦.

(٢) مسلم، كتاب التفسير ٤/٢٣١٩. وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزّي ٧/٧٠، وعند ابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٠٢.

موسى بن يعقوب، عن أبي حازم، عن عامر، عن ابن الزبير، عن ابن مسعود، فذكره.

وقال سفيان الثوري، عن المسعودي، عن القاسم قال: ملّ أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ مَلَّة، فقالوا: حدّثنا يا رسول الله. فأنزل الله تعالى: ﴿ نحن نقصُّ عليك أحسن القصص ﴾. قال: ثم ملّوا ملّة فقالوا: حدّثنا يا رسول الله، فأنزل الله تعالى: ﴿ الله نزّل أحسن الحديث ﴾. ثم ملوا ملّة فقالوا: حدّثنا يا رسول الله. فأنزل الله: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾(١)

وقال قتادة: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾: ذُكر لنا أن شدّاد بن أوس كان يَرْوي عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أوّل ما يُرفع من الناس الخُشوع»(٢).

وقوله: ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهمُ الأمدُ فقست قلوبُهم ﴾: نهى الله المؤمنين أن يتشبّهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لمّا تطاول عليهم الأمدُ بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلّدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظةً، ولا تلين قلوبُهم بوعدٍ ولا وعيد.

﴿ وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾، أي: في الأعمال، فقلوبُهم فاسدةٌ، وأعمالهم باطلةٌ. كما قال: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يُحرّفون الكلم عن مواضعه ونسُوا حظّاً ممّا ذُكّروا به ﴾، أي: فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيّتهم تحريفُ الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمالَ التي أُمروا بها، وارتكبوا ما نُهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبّهوا بهم في شيءٍ من الأمور الأصليّة والفرعيّة.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشامُ بن عمّار، حدثنا شهابُ بن خِراش، حدثنا حجّاج بن دينار، عن منصور بن المعتمر، عن الربيع بن عميلة الفزاري قال: حدثنا عبد الله بن مسعود حديثاً ما سمعتُ أعجب إليّ منه، إلّا شيئاً من كتاب الله ـ أو شيئاً قاله النبيُّ ﷺ ـ قال: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمدُ فقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، استهوته قلوبُهم واستحلّته ألسنتهم واستلذّته، وكان الحقُّ يحولُ بينهم وبين كثير من شهواتهم فقالوا: تعالوا ندعُ بني إسرائيل إلى كتابنا هذا، فمن تابعنا عليه تركناه، ومن كره أن يتابعنا قتلناه. ففعلوا ذلك، وكان فيهم رجل فقيهٌ، فلما رأى ما يصنعون عمَدَ إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه في شيءٍ لطيف، ثم أدرجه، فجعله في قرن ثم علّق ذلك القرن في عُنقه، فلما أكثروا القتلَ قال بعضُهم لبعض: يا هؤلاء، إنكم قد أفشيتم القتل في بني إسرائيل، فادعوا فلاناً فاعرضوا عليه كتابَكم، فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقيّةُ الناس، وإن أبى فاقتلوه. فدعوا فلاناً ذلك الفقيهَ فقالوا: تؤمن بما في كتابنا؟ قال: وما فيه؟ اعرضوه عليّ. فعرضوه عليه إلى آخره، ثم قالوا: أتؤمن بهذا؟ قال: نعم، آمنت بما في هذا ـ وأشار بيده إلى القرن ـ آمنت بما في هذا ـ فتركوه، فلما مات نبشوه فوجدوه متعلّقاً ذلك القرنَ، فوجدوا فيه ما يُعرف من كتاب الله، فقال بعضهم لبعض: يا هؤلاء، ما كنا نسمعُ هذا أصابهُ فتنةٌ. فافترقت بنو إسرائيلَ على ثنتين وسبعين ملّةً، وخيرُ مللهم ملةُ أصحاب ذي القرن».

قال ابن مسعود: أوشك بكم إن بقيتم ـ أو بقي من بقي منكم ـ أن تروا أموراً تُنكرونها، لا تستطيعون لها

(١) تقدم الأثر بنحوه عند تفسير الآية الثالثة من سورة يوسف، عند حديث عون بن عبد الله.
(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر ٨/ ٥٧، والطبري ٢٧/ ٢٢٨، وابن المبارك في الزهد ٥٦، والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ٢٩٥

غيراً(١) فبِحَسْبِ المرءِ منكُم أن يعلَمَ اللهُ من قلبِه أنه لها كارِهٌ(٢).

وقال أبو جعفر الطبريُّ: حدثنا ابنُ حُمَيد، حدثنا جَرير، عن مُغيرة، عن أبي معشر، عن إبراهيم قال: جاء عِتْرِيس بنُ عُرقُوبٍ إلى ابن مسعود فقال: يا عبدَ الله، هَلَكَ مَن لم يأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر. فقال عبد الله: هَلَكَ مَن لم يعرِف قلبُه معروفاً ولم يُنكِر قلبُه منكراً، إنَّ بني إسرائيل لما طال عليهم الأمدُ وقَسَت قلوبُهم، اخترعُوا كتاباً من بين أيديهم وأرجُلِهم، استهوته قلوبُهم واستحلته ألسنتُهم، وقالوا: نعرض بني إسرائيلَ على هذا الكتاب فمن آمن به تركناه، ومن كَفَر به قتلناه. قال: فجعل رجلٌ منهم كتابَ الله في قَرْنٍ، ثم جعل القَرْنَ بين ثُنْدُوَتَيه(٣) فلما قيل له: أتؤمِنُ بهذا؟ قال: آمنتُ به - ويُومىء إلى القرن بين ثَنْدُوَتَيْهِ - ومالي لا أومن بهذا الكتاب؟ فمِنْ خَيرِ مِلَلِهم اليومَ مِلَّةُ صاحبِ القَرْنِ(٣).

وقولُهُ: ﴿ اعلَمُوا أن الله يُحيي الأرضَ بعد موتها قد بيَّنا لكم الآياتِ لعلكُم تَعقِلُون ﴾: فيه إشارةٌ إلى أنه - تعالى - يُلينِ القلوبَ بعد قسوتها، ويَهدي الحَيارى بعد ضَلَّتها، ويُفرِّج الكروبَ بعد شِدَّتها، فكما يُحيي الأرضَ الميْتةَ المُجدبةَ الهامِدَةَ بالغيث الهَتَّان، كذلك يَهدِي القلوبَ القاسيةَ ببراهينِ القرآنِ والدَّلائل، ويُولج إليها النورَ بعد ما كانت مُقفلةً لا يَصِل إليها الواصلُ، فسبحانَ الهادي لمن يشاءُ بعد الإضلال، والمُضِلُّ لمن أراد بعد الكَمال، الذي هو لما يشاءُ فعّالٌ، وهو الحَكَمُ العدلُ في جميع الفِعَال، اللطيفُ الخبيرُ الكبيرُ المُتَعال.

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

يُخبر تعالى عمّا يُثيب به المصدِّقين والمُصدِّقات بأموالهم على أهل الحاجةِ والفقر والمسكنة. ﴿ وَأَقرَضُوا الله قرضاً حسناً ﴾، أي: دفعُوه بنيّةٍ خالصة ابتغاءَ وجهِ الله، لا يُريدون جزاءً ممن أعطَوه ولا شُكُوراً. ولهذا قال: ﴿ يضاعَف لهم ﴾ أي: يقابلُ لهم الحسنةَ بعشرِ أمثالِها، ويُزاد على ذلك إلى سبعمائةِ ضعفٍ وفوق ذلك، ﴿ ولهم أجرٌ كريمٌ ﴾، أي: ثوابٌ جزيلٌ حسنٌ، ومَرجِعٌ صالحٌ ومآبٌ كريم.

وقولُهُ: ﴿ والذين آمنوا بالله ورسلِه أولئك هم الصدِّيقون ﴾: هذا تمامُ الجملةِ، وَصفُ المؤمنين بالله ورسله بأنهم صدِّيقون.

قال العَوفيُّ، عن ابن عباس قوله: ﴿ والذين آمنوا بالله ورسُله أولئك هم الصدِّيقون ﴾: هذه مفصولة، ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرُهم ونورُهم ﴾(٤).

وقال أبو الضُّحى: ﴿ أولئك هم الصدِّيقون ﴾، ثم استأنف الكلام فقال: ﴿ والشهداءُ عند ربهم ﴾. وهكذا قال مسروق، والضحاك، ومقاتل بن حَيَّان، وغيرهم.

---

(١) أي: تغييراً.
(٢) أخرجه أيضاً سعيد بن منصور، والبيهقي في الشعب. الدر المنثور ٨/٥٩.
(٣) الثندوة: ثَدْي الرجل. والأثر في تفسير الطبري ٢٧/٢٢٩
(٤) تفسير الطبري ٢٧/٢٣٠.

وقال الأعمش، عن أبي الضُّحى، عن مَسْرُوقٍ، عن عبد الله في قوله: ﴿ أولئك هم الصدِّيقون والشهداءُ عند رَبِّهم ﴾، قال: هم ثلاثة أصناف: يعني المصَّدِّقين، والصدِّيقين، والشهداء. كما قال تعالى: ﴿ ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾، ففرّق بين الصديقين والشُّهَداء، فدل على أنهما صنفان. ولا شك أن الصدِّيق أعلى مقاماً من الشَّهيد، كما رواه الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ في كتابه الموطأ، عن صفوانَ بن سُلَيم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أهلَ الجنّةِ ليتراءَون أهلَ الغُرَفِ من فوقهم، كما يَتراءون الكوكبَ الدُّرِّيَ الغابرَ في الأفقِ من المشرقِ أو المغرب، لِتَفاضُلِ ما بَينَهم». قالوا: يا رسولَ الله، تلك منازلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرُهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين».

اتفق البخاريُّ ومسلمٌ على إخراجِهِ من حديث مالك، به(١).

وقال آخرون: بل المرادُ من قوله: ﴿ أولئك هم الصديقونَ والشهداءُ عند ربِّهم ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صدِّيقون وشهداء. حكاه ابن جرير عن مجاهد، ثم قال ابن جرير:

حدثني صالحُ بن حرب أبو مَعْمَرٍ، حدثنا إسماعيل بن يحيى، حدثنا ابن عَجْلان، عن زيد بن أسلَمَ، عن البراء بن عازبٍ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «مؤمنو أُمَّتي شهداءُ». قال: ثم تلا النبيُّ ـ ﷺ ـ هذه الآيةَ ﴿ والذين آمَنُوا بالله ورُسُلِه أولئك هم الصدِّيقُون والشهداءُ عند ربهم ﴾(٢). هذا حديث غريب.

وقال أبو إسحاق، عن عَمْرو بن مَيْمُونٍ في قوله: ﴿ والذين آمنُوا بالله ورُسُله أولئك هم الصدِّيقون والشهداءُ عند ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم ﴾، قال: يجيئُون يومَ القيامةِ معاً كالإصبعين.

وقولُهُ: ﴿ والشُّهَداءُ عند رَبِّهم ﴾، أي: في جَنَّاتِ النَّعيم، كما جاء في الصَّحيحَين: «إنَّ أرواحَ الشُّهَداءِ في حَواصِلِ طيرٍ خُضْرٍ تسرَحُ في الجنةِ حيثُ شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلَع عليهم ربك اطِّلاعةً فقال: ماذا تريدُون؟ فقالوا: نحبُّ أن تَرُدَّنا إلى الدار الدنيا فنقاتلَ فيك، فنُقتَلَ كما قُتِلنا أوَّلَ مَرَّةٍ. فقال: إني قضيتُ أنهم إليها لا يَرْجِعون»(٣).

وقولُهُ: ﴿ لهم أجرُهم ونورُهم ﴾، أي: لهم عند ربِّهم أجرٌ جزيلٌ ونورٌ عظيمٌ يسعَى بين أيديهم، وهُم في ذلك يَتفاوَتُون بحسَبِ ما كانوا في الدار الدُّنيا من الأعمال، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعةَ، عن عطاء بن دينار، عن أبي يزيدَ الخَولاني، قال: سَمِعتُ فَضالة بن عُبَيد يقول: سَمِعتُ عُمَر بن الخطاب يقول: سَمِعت النبي ـ ﷺ ـ يقول: «الشهداءُ أربعةٌ، رجلٌ مؤمن جيِّد الإيمان، لَقِيَ العدُوَّ فصدق الله فَقُتِل، فذلك الذي ينظُر الناسُ إليه هكذا ـ ورَفَع رأسه حتى سَقَطت قَلَنْسوة رَسُول الله ـ ﷺ ـ أو قَلَنْسوةُ عُمَر ـ والثاني مؤمنٌ لقي العدُوَّ فكأنما يُضرَب ظهرُه بشَوكِ الطَّلح(٤)، جاءه سَهْمٌ غَرْبٌ فقتله، فذاك في الدرجة الثانية. والثالث رجل مؤمن خَلَط عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً لَقِي العدو

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٦٩ من سورة النساء، ٢٠ من سورة الزمر، وخرجناه هنالك.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/٢٣١.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير آية آل عمران ١٦٩ عن مسلم وحده. وانظر تفسير الآية ١٥٤ من سورة البقرة، ٤٦ من سورة غافر، ٨٩ من سورة الواقعة.

(٤) الطلح: شجر عظام ترعاه الإبل. والسهم الغَرْبُ: الذي لا يُعرف رامِيه.

فصدق الله حتى قُتِل، فذاك في الدرجة الثالثة. والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً، لقي العدو فصَدَق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الرابعة»[1].

وهكذا رواه علي بن المديني، عن أبي داود الطَّيالسي، عن ابن المبارك، عن ابن لهيعة، وقال: هذا إسناد مصريٌّ صالح. ورواه الترمذي من حديث ابن لهيعة وقال: حسن غريب[1].

وقولُهُ: ﴿ والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ الجحيم ﴾: لما ذكر السُّعَداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبيَّنَ حالَهم.

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُوهناً أمْرَ الحياةِ الدنيا ومحقِّراً لها: ﴿ إنما الحيوةُ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخُرٌ بينكُم وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ ﴾، أي: إنما حاصل أمْرِها عند أهلها هذ، كما قال: ﴿ زُيِّن للناس حُبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنين والقناطير المُقنطرةِ من الذَّهبِ والفضةِ والخيلِ المُسوَّمة والأنعامِ والحَرْثِ ذلك متاعُ الدُّنيا والله عندَه حسنُ المآب ﴾.

ثم ضرَب تعالى مثلَ الحياةِ الدُّنيا في أنها زهرةٌ فانيةٌ ونعمةٌ زائلةٌ فقال: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾، وهو: المطرُ الذي يأتي بعد قُنوطِ الناس، كما قال: ﴿ وهو الذي يُنَزِّل الغَيْثَ من بعد ما قَنَطوا ﴾.

وقولُه: ﴿ أعجبَ الكفارَ نباتُه ﴾، أي: يُعجِب الزرَّاعَ نباتُ ذلك الزرعِ الذي نَبَت بالغيث؛ وكما يُعجِب الزرّاعَ ذلك كذلك تُعجب الحياةُ الدنيا الكفارَ، فإنهم أحرصُ شيءٍ عليها وأميلُ الناسِ إليها. ﴿ ثم يَهيج فتراه مصفراً ثم يكونُ حُطاماً ﴾، أي: يَهيجُ ذلك الزرعُ فتراهُ مصفَراً بعدما كان خَضِراً نَضِراً، ثم يكون بعد ذلك كلِّه إلى أن يَصير يَبَساً متحطماً، هكذا الحياةُ الدُّنيا تكون أولاً شابَّةً، ثم تكتهلُ، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك يكونُ في أوَّلِ عُمُره وعُنفوانِ شبابه غَضّاً طَرِيّاً لَيِّنَ الأعطاف، بَهِيَّ المنظر، ثم إنه يشرع في الكُهُولة فتتغير طباعهُ ويَنفَدُ بعضُ قواه، ثم يكبرُ فيصيرُ شيخاً كبيراً ضعيفَ القُوى قليلَ الحركةِ، يُعجِزهُ الشيءُ اليسيرُ، كما قال تعالى: ﴿ الله الذي خلقكم من ضَعفٍ ثم جعَلَ من بعدِ ضَعفٍ قُوَّةً ثم جَعَل من بعدِ قُوَّةٍ ضعفاً وشيبةً يخلُق ما يشاءُ وهو العليمُ القدير ﴾. ولما كان هذا المثَلُ دالاً على زوالِ الدنيا وانقضائها وفراغِها لا محالةَ، وأنَّ الآخرة كائنةٌ لا محالةَ، حذَّر من أمرها ورغَّب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿ وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرورِ ﴾، أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إمَّا هذا وإمَّا هذا، إما عذابٌ شديدٌ، وإما مغفرةٌ من الله ورضوان.

وقولُه: ﴿ وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرورِ ﴾، أي: هي متاعٌ فانٍ غارٌّ لمن رَكَن إليه، فإنه يغترُّ بها وتُعجبه حتى يعتقِدَ أنه لا دارَ سواها ولا معادَ وراءَها، وهي حَقيرةٌ قليلةٌ بالنسبة إلى الدار الآخرة.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٢٣.

قال ابنُ جَرير: حدثنا عليُّ بن حَرب المَوصِليُّ، حدثنا المُحاربيُّ، حدثنا محمد بن عَمرو، عن أبي سلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَوضِعُ سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»[١]. اقرءوا: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾».

وهذا الحديث ثابت في الصحيح[١] بدون هذه الزيادة، والله أعلم.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا ابنُ نُمَير ووَكيعٌ، كلاهما عن الأعمش، عن شَقِيق، عن عبدِ الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لَلْجَنَّةُ أقربُ إلى أَحدِكم من شِراكِ نَعْلِه، والنارُ مثلُ ذلك»[٢].

انفرد بإخراجه البخاريُّ في «الرِّقاق»، من حديث الثوريِّ، عن الأعمش، به[٢].

ففي هذا الحديثِ دليلٌ على اقتراب الخير والشرِّ من الإنسان، وإذا كان الأمرُ كذلك فلهذا حَثَّه الله على المبادرةِ إلى الخيراتِ، من فِعْلِ الطاعاتِ، وتَرْكِ المحرَّمات، التي تُكَفِّر عنه الذنوب والزلَّاتِ، وتُحَصِّل له الثوابَ والدَّرَجاتِ، فقال تعالى: ﴿ سَابِقُوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها كَعَرْضِ السماءِ والأرضِ ﴾: والمرادُ جِنْسُ السماءِ والأرضِ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وسارِعُوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرضها السمواتُ والأرض أُعِدَّت للمتقين ﴾، وقال هاهنا: ﴿ أُعِدَّت للذين آمنوا بالله ورُسُله ذلك فضل الله يُؤتيه مَن يشاء والله ذُو الفضلِ العَظيم ﴾، أي: هذا الذي أَهَّلَهُم اللهُ له هو مِن فَضْلِه ومَنِّه عليهم وإحسانِه إليهم، كما قدَّمنا في الصحيح أن فُقَراء المهاجرين قالوا: يا رسولَ الله، ذهب أهلُ الدُّثُور بالدرجات العلى والنَّعيم المقيم. قال: «وما ذاك؟». قالوا: يصلون كما نُصَلِّي، ويَصُومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدق، ويُعتِقُون ولا نُعْتِق. قال: «أفلا أدلُّكُم على شيءٍ إذا فعلتُموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم إلَّا مَن صنع مثلَ ما صنعتم. تُسَبِّحُون وتكبرون وتحمَدُون دُبُر كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين». قال: فرجَعُوا فقالوا: سَمِع إخوانُنا أهلُ الأموالِ ما فعلنا، ففعلُوا مثله! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء»[٣].

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن قَدَرِه السابقِ في خَلْقِه قبل أن يبرأ البريَّة، فقال: ﴿ ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم ﴾، أي: في الآفاق وفي نُفوسِكم، ﴿ إلا في كتابٍ من قبلِ أن نبرَأها ﴾، أي: من قَبْلِ أن نخلق الخليقة ونَبرأ النَّسمة.

وقال بعضُهم: ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾، عائدٌ على النُّفوسِ، وقيل: عائد على المُصيبة. والأحسن عودُهُ على الخليقةِ والبرية، لدلالة الكلام عليها كما قال ابن جرير:

حدثني يعقوبُ، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن منصورُ بن عبد الرحمن قال: كنتُ جالساً مع الحَسَنِ فقال رجلٌ:

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/٢٣٢. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٥ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك. والزيادة هي من قوله: «اقرءوا ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾» وهي غير ثابتة في طبعة تفسير الطبري.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٣٨٧، ٤٤٢، وفتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٣٢١

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٩ من سورة ﴿ ق ﴾ وخرجناه هنالك

سَلْهُ عن قوله: ﴿ ما أصابَ من مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفسِكم إلا في كتابٍ من قبلِ أن نبرأها ﴾، فسألته عنها، فقال: سُبحانَ الله! ومَن يشُكُّ في هذا؟ كل مصيبةٍ بينَ السماء والأرضِ ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النَّسَمَةَ[1].

وقال قتادةُ: ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض. قال: هي السُّنون. يعني: الجَدْبَ، ﴿ ولا في أنفسكم ﴾، يقول: الأوجاعَ والأمراض. قال: وبلغنا أنه ليس أحدٌ يصيبه خدشُ عُودٍ ولا نَكْبَةُ قَدمٍ، ولا خَلَجانُ عِرْقٍ إلا بذَنْبٍ، وما يعفو الله عنه أكثرُ.

وهذه الآية الكريمة من أدلِّ دليلٍ على القَدَرِيَّةِ نُفاة العلمِ السابقِ ـ قبَّحهم الله ـ وقال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَةُ وابن لَهِيعَةَ قالا: حدثنا أبو هانيءٍ الخَوْلانيّ: أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُليَّ يقول: سمعت عبد الله بن عَمرو بن العاص يقول: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «قدَّر الله المقاديرَ قبل أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسين ألف سنةٍ»[2].

وَرواه مسلمٌ في صحيحه، من حديث عبد الله بن وَهب وَحيْوة بن شُرَيح ونافع بن يزيدَ، ثلاثتُهم عن أبي هانيءٍ، به. وزاد ابنُ وهبٍ: «وكان عرشه على الماء»[2]. ورواه الترمذي وقال: «حسن صحيح»[2].

وقولُهُ: ﴿ إنَّ ذلك على الله يسيرٌ ﴾، أي: إنَّ علمه تعالى الأشياء قَبْلَ كونها وكتابتِه لها طِبْقَ ما يُوجَدُ في حينها سَهْلٌ على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنه يعلمُ ما كان وما يكُون، وما لم يكُن لو كان كيفَ كان يكُون.

وقولُهُ: ﴿ لِكيلا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرَحُوا بما آتاكم ﴾، أي: أعلمناكُم بتقدُّمِ عِلْمنا وسَبْقِ كتابتنا للأشياءِ قبلَ كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وُجودها، لتعلمُوا أنَّ ما أصابكم لم يكن لِيُخطِئَكُم، وما أخطأكُم لم يكُن لِيُصيبكُم، فلا تأسَوا على ما فاتكم، فإنه لو قُدِّر شيءٌ لكان، ﴿ ولا تفرَحُوا بما آتاكم ﴾، أي: جاءكم، ويقرأ ﴿ أتاكم ﴾[3] أي أعطاكم. وكلاهما متلازمٌ، أي: لا تفخَرُوا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإنَّ ذلك ليس بسَعْيِكم ولا كَدِّكم، وإنَّما هو عن قَدَر الله ورِزْقِه لكم، فلا تتَّخذوا نِعَم الله أشَراً وبَطَراً، تفخَرُون بها على الناس، ولهذا قال: ﴿ واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُختالٍ فَخُورٍ ﴾، أي: مختال في نفسه مُتكبِّر فَخُور، أي: على غيره.

وقال عكرمةُ: ليس أحدٌ إلا وهو يفرَحُ ويحزَنُ، ولكن اجعلُوا الفرَحَ شُكراً والحزنَ صَبْراً.

ثم قال: ﴿ الذين يَبْخَلُون ويأمُرُون الناسَ بالبُخل ﴾، أي: يفعلُون المنكرَ ويحضُّون الناسَ عليه، ﴿ ومن يَتولَّ ﴾، أي: عن أمْرِ الله وطاعَته، ﴿ فإن الله هو الغَنِيُّ الحميد ﴾، كما قال ـ عليه السلام ـ: ﴿ إن تكفروا أنتم ومَن في الأرضِ جميعاً فإن الله لغنيٌّ حميدٌ ﴾.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ

---

(1) تفسير الطبري ٢٧/٢٣٤.

(2) مسند الإمام أحمد ٢/١٦٩، ومسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٤٤، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٣٢٠ ـ ٣٢١.

(3) قرأ أبو عَمْرو بقصر الألف. وقرأ باقي السبعة بمدّها. انظر الإقناع لابن البادش ٢/٧٨١. ويقول الطبري ٢٧/٢٣٥: «واختلف القراء في قراءة قوله: ﴿ بما آتاكم ﴾ فقرأ عامة قُرّاء الحجاز والكوفة ﴿ بما آتاكم ﴾ بمدّ الألف، وقرأه بعض قرّاء البصرة: ﴿ بما أتاكم ﴾ بقصر الألف». ثم اختار قراءة المدّ بعد أن ذكر أن كلتيهما صحيحة، وفسّر قراءة المد فقال: بالذي أعطاكم منها، وقراءة القصر بقوله: بالذي جاءكم منها.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾

يقولُ تعالى: ﴿لقد أرسلنا رُسُلنا بالبيّنات﴾، أي: بالمُعجزات، والحُجَجِ الباهرات، والدلائل القاطعات ﴿وأنزلنا معهم الكتابَ﴾، وهو النقلُ المُصدِّق، ﴿والميزان﴾، وهو العدْلُ. قاله مجاهد، وقتادةُ، وغيرهما. وهو الحقُّ الذي تشهدُ به العقولُ الصحيحةُ المستقيمة لمخالفةُ للآراء السَّقيمة. كما قال: ﴿أفمن كان على بيّنةٍ من ربِّه ويتلوه شاهدٌ منه﴾، وقال ﴿فطرةَ الله التي فطر الناسَ عليها﴾، وقال: ﴿والسماءَ رفعها ووضعَ الميزانَ﴾، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿ليقومَ الناسُ بالقسْطِ﴾، أي: بالحقِّ والعدلِ وهو: اتباعُ الرُّسُل فيما أخبرُوا به، وطاعتُهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحقُّ الذي ليس وراءه حقٌّ، كما قال ﴿وتمّت كلماتُ ربِّك صِدقاً وعدلاً﴾[1]. أي: صِدقاً في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي. ولهذا يقولُ المؤمنون إذا تبوءُوا غُرفَ الجنّاتِ، والمنازلَ العاليات، والسُّرُرَ المصفُوفات: ﴿الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنّا لنهتديَ لولا أن هدانا الله لقد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ﴾.

وقولُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، أي: وجعلنا الحديدَ رادِعاً لمن أبى الحقَّ وعانَده بعد قيام الحُجّة عليه، ولهذا أقام رسول الله ـ ﷺ ـ بمكّة بعد النبوّة ثلاثَ عشرةَ سنةً توحى إليه السُّوَرُ المكيّة، وكلها جدالٌ مع المشركين، وبيانٌ وإيضاحٌ للتوحيد، وتبيانٌ ودلائلُ، فلما قامت الحجة على مَن تخلّف منهم، شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتالِ بالسيوف، وضَرْبِ الرِّقابِ والهامِ لمن خالفَ القرآن وكذّب به وعانده

وقد روى الإمام أحمدُ وأبو داودَ، من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبانَ، عن حسّان بن عطية، عن أبي المنيب الجُرَشي الشامي، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بُعثتُ بالسيفِ بين يَدَيِ الساعةِ حتى يُعبَدَ الله وحده لا شريك له، وجُعِل رزقي تحتَ ظِلِّ رُمحي، وجُعِل الذِّلّةُ والصغارُ على من خالفَ أمري، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿فيه بأسٌ شديدٌ﴾، يعني: السلاحَ كالسيوفِ، والحِرابِ، والسِّنان، والنِّصال، والدُّروع، ونحوها. ﴿ومنافعُ للناس﴾، أي: في معايشهم كالسِّكّة[3] والفأس والقَدوم، والمِنشار، والإزميل، والمِجرفة، والآلات التي يُستعان بها في الحِراثة والحِياكة والطبخ والخَبْز، وما لا قِوام للناس بدونه، وغيرِ ذلك.

قال عِلباء بن أحمرَ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ثلاثةُ أشياء نزلت مع آدم: السِّندان والكَلْبَتان والمِيقَعة. يعني المِطْرَقة. رواه ابنُ جرير[4]، وابنُ أبي حاتم.

وقولُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن ينصُره ورُسُلَه بالغَيْب﴾، أي: مَن نيّته في حَمْلِ السلاحِ نُصرةُ الله ورُسُله، ﴿إن الله قويٌّ عزيزٌ﴾، أي: هو قويٌّ عزيزٌ، ينصُرُ مَن نَصَره من غير احتياجٍ منه إلى الناسِ، إنما شرَع الجهادَ ليبلُوَ بعضَكم ببعضٍ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝٢٦﴾

---

(١) قرأ الكوفيون: ﴿كلمةُ ربِّك﴾ على الإفراد، وقرأ الباقون بالجمع، كما في نُسخ. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٤٢. وهي الآية ١١٥ من سورة الأنعام.

(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٠٤ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.

(٣) السِّكّة: حديدة المحراث التي يحرث بها، وحديدة منقوشة تضرب عليها النقود.

(٤) تفسير الطبري ٢٧/٢٣٧.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾

يُخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ـ عليه السلام ـ لم يُرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذُرِّيته، وكذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ خليلُ الرحمن، لم يُنزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أُوحى إلى بشرٍ من بعده، إلا وهُوَ من سُلالته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجعلنا في ذريته النبوَّة والكِتابَ﴾، حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريمَ الذي بَشَّر بعدَه بمُحمَّدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهما ـ ولهذا قال تعالى: ﴿ثم قفَّينا على آثارهم بُرُسُلنا وقفَّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيلَ﴾، وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه، ﴿وجعلنا في قُلُوب الذين اتَّبعوه﴾، وهم الحواريُّون ﴿رأفةً ورحمةً﴾، أي: رأفةً وهي الخشيةُ ﴿ورحمةً﴾ بالخلْق.

وقولُه: ﴿ورهبانيَّةً ابتَدَعُوها﴾، أي: ابتدعها أُمَّةُ النصارى، ﴿ما كتبناها عليهم﴾، أي: ما شرَعناها لَهُم، وإنما هم التزمُوها من تِلْقاءِ أنفُسِهم.

وقولُهُ: ﴿إلاَّ ابتغاءَ رضْوَانِ الله﴾، فيه قولانِ، أحدُهما: أنَّهم قصدُوا بذلك رضوانَ الله، قاله سعيد بن جُبَير، وقتادةُ، والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم ابتغاءَ رِضْوان الله.

وقولُهُ: ﴿فما رَعَوها حَقَّ رعايتها﴾، أي: فما قامُوا بما التزمُوه حَقَّ القيام. وهذا ذمٌّ لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمُرْ به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزمُوه مما زَعَمُوا أنه قُربةٌ يُقرِّبهم إلى الله عزَّ وجلَّ.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا إسحاق بن أبي حَمْزَة أبو[1] يعقوب الرازي، حدثنا السِّندي بن عبدويه[2]، حدثنا بُكَير بن مَعروف، عن مُقاتل بن حَيَّان، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن جدِّه ابن مسعود قال: قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا ابن مسعود»، قلت: لبَّيكَ يا رسولَ الله. قال: «هل عَلِمْتَ أنَّ بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعينَ فرقةً؟ لم ينجُ منها إلا ثلاثُ فِرَقٍ، قامَتْ بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فقاتلت الجبابرةَ فقُتِلت فصَبرت ونَجَت، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوَّة بالقتال، فقامت بين الملوك والجبابرة، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مَرْيَم، فقُتِلت وقُطِعت بالمناشير وحُرِّقت بالنيران، فصَبرت ونجت. ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوَّةٌ بالقتال ولم تُطِق القيام بالقسط، فلَحِقت بالجبالِ فتعبَّدت وترَهَّبت، وهم الذين ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ورهبانيَّةً ابتدعُوها ما كتبناها عليهم﴾»[3].

وقد رَوَاه ابنُ جَرير بلفظ آخَرَ من طريق أخرى فقال:

حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا داودُ بن المُحبَّر، حدثنا الصعق بن حَزْنٍ، حدثنا عَقيلٌ الجَعْديّ، عن أبي إسحاق الهَمْداني، عن سُوَيد بن غَفَلة، عن عبدِ الله بن مَسْعُودٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اختلف مَن كان قبلنا على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، نجا منهم ثلاثٌ وهلك سائرُهُم». وذكر نحو ما تقدم، وفيه: ﴿فآتينا

(١) في نسخة: «حدثنا أبو يعقوب»، ولم تقع لنا ترجمة إسحاق بن أبي حمزة.
(٢) في النسخ: السريّ بن عبد ربه. والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٣١٨ على أن المحقق ذكر أن في نسخة: عبد ربه.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/٢١١ ـ ٢١٢ بإسناده إلى بكير بن معروف، نحوه.

الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾: هم الذين آمنوا بي وصدَّقوني، ﴿ وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾، وهم الذين كذَّبوني وخالفوني»[1].

ولا يَقدحُ في هذه المتابعة لحال داود بن المُحبَّر، فإنه أحد الوضاعين للحديث، لكن قد أسنده أبو يعلَى، وسنده عن شيْبَانَ بن فَرُّوخ، عن الصَّعق بن حَزْن، به مثل ذلك. فقوي الحديثُ من هذا الوجه[1].

وقال ابنُ جرير، وأبو عبد الرحمن النسائي ـ واللفظ له ـ: أخبرنا الحُسَين بن حُرَيث، حدثنا الفضلُ بن موسى عن سُفيان بن سَعيد، عن عَطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان مُلوكٌ بعد عيسى ـ عليه السلام ـ بَدَّلت التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءُون التوراة والإنجيل، فقيل لملوكهم: ما نجد شيئاً أشدَّ من شَتم يشتُمونا[2] هؤلاء، إنهم يقرأون: ﴿ وَمَن لم يحكُم بما أنزلَ الله فأولئك هم الكافرُون ﴾. . . هؤلاء الآيات، مع ما يَعيبُونا به من أعمالنا في قِرءتهم، فادعُهم فلْيقرَأوا كما نقرأ، وَلْيؤمنوا كما آمنَّا. فدعاهم فجمعهم وعَرض عليهم القَتل أو يتركُوا قراءة التوراة والإنجيل، إلا ما بَدَّلوا منها، فقالوا: ما تُريدون إلى ذلك؟ دَعُونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أُسطُوانةً[3]، ثم ارفعُونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفعُ به طَعامنا وشرابنا فلا نَرِدُ عليكم، وقالت طائفةٌ: دَعُونا نسيحُ في الأرض ونَهيم ونَشربُ كما يشرَب الوحشُ، فإن قَدَرتُم علينا في أرضِكُم فاقتلُونا. وقالت طائفة: ابنُوا لنا دُوراً في الفيافي، ونحتَفِرُ الآبار ونَحترثُ البقولَ فلا نَرِدُ عليكم ولا نمرُّ بكم. وليس أحد من القبائل إلا له حَميمٌ فيهم[4]، ففعَلُوا ذلك، فأنزل الله ـ عزَّ وجلّ ـ: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعُوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاءَ رِضْوانِ الله فما رَعَوْها حقَّ رِعايتها ﴾. والآخرون[5] قالوا: نتعبَّدُ كما تعبَّد فلان، ونسيحُ كما ساحَ فلانٌ، ونتَّخذُ دوراً كما اتَّخذ فلانٌ، وهم على شِرْكهم لا علم لهم بإيمانِ الذين اقتدَوا به، فلما بُعث النبيُّ ـ ﷺ ـ ولم يبقَ منهم إلاَّ القليلُ، انحطَّ منهم رجلٌ من صَوْمعَتِه، وجاء سائحٌ من سِياحَتِه، وصاحبُ الدَّير من دِيره، فآمنوا به وصَدَّقُوه، فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا اتقُوا الله وآمِنُوا برسُولِهِ يُؤتِكُم كِفْلَين من رَحْمَتِه ﴾: أجْرَين بإيمانهم بعيسى ابن مريم [ونَصَبِ أنفسهم][6] والتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد ـ ﷺ ـ وتَصْديقهم، قال: ﴿ ويجعَل لكم نُوراً تمشُون بِهِ ﴾: القرآنَ، واتِّبَاعَهم النبيَّ ـ ﷺ ـ قال ﴿ لئلا يعلَم أهلُ الكِتَاب ﴾ الذين يَتَشبَّهُون بكم ﴿ أن لا يَقدِرُون على شيءٍ من فَضْلِ الله وأنَّ الفَضْلَ بيد الله يُؤتيه من يشاء والله ذُو الفَضْلِ العظيم ﴾[7].

هذا السياق فيه غرابةٌ وسيأتي تفسيرُ هاتين الآيتين الأُخريَين على غير هذا، والله أعلم.

وقال الحافظُ أبو يعلى الموصليُّ: حدثنا أحمدُ بن عيسى، حدثنا عبدُ الله بن وهب، حدثني سَعيد بن عبد الرحمن بن أبي العَمياء: أن سَهْلَ بن أبي أمامة حَدَّثَهُ، أنه دَخلَ هو وأبوه على أَنسِ بن مالك بالمدينة زَمان

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠ وقد أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٨٠، بإسناده إلى الصَّعق بن حزن مثله. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٧٢ بإسناده إلى شيبان بن فروخ.

(٢) جملة (يشتمون) صفة لشتم بتقدير العائد، و (يشتمونا) مسند إلى هؤلاء، على لغة أكلوني البراغيث.

(٣) أي: منارة مرتفعة.

(٤) الحَميمُ: القريب الذي تودُّه ويودُّك. ولهذه القرابة تركوهم من القتل، وأجابوهم إلى ما طلبوا.

(٥) أي: الذين بقوا عند الملك.

(٦) ما بين القوسين عن النسخ كلِّها، وهو غير ثابت في النسائي. يقال: نَصَب الأمر فلاناً: أتعبه وأعياه. ولعلَّ المعنى: بإيمانهم بعيسى ابن مريم وما ألزموا به أنفسهم في ذلك، أو بعمله ونصب أنفسهم، من النصب، وهو التَّعب. والتوراة والإنجيل معطوف على عيسى.

(٧) النسائي، كتاب آداب القضاة ٨/ ٢٣١ ـ ٢٣٣، وتفسير الطبري ٢٧/ ٢٣٩.

عُمَرَ بن عبد العزيز وهو أمير، وهو يُصلِّي صلاة خفيفةً[1] كأنها صلاةُ مسافرٍ أو قريباً منها، فلما سلَّم قال يرحمُكَ الله، أرأيتَ هذه الصلاة المكتوبة أم شيءٌ تنفّله؟ قال: إنها المكتوبةُ، وإنها صلاةُ رسول الله ـ ﷺ ـ ما أخطأتُ إلا شيئاً سهوتُ عنه، إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «لا تُشَدِّدُوا على أنفسكم فيُشدَّد عليكم، فإن قوماً شدَّدُوا على أنفسهم فشُدِّد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والدِّيارات ﴿رهبانيةً ابتدعُوها ما كتبناها عليهم﴾. ثم غَدَوا من الغد فقالوا: نَركبُ فننظرُ ونعتبرُ. قال: نعم. فَرَكِبُوا جميعاً، فإذا هم بديارٍ قفرٍ قد باد أهلُها وانقرضُوا وفَنَوا، خاويةً على عروشها، فقالوا: أتعرفُ هذه الديار؟ قال: ما أعرفني بها وبأهلها، هؤلاء أهلُ الدِّيار، أهلكهُم البغيُ والحسدُ، إن الحسدَ يُطفىءُ نُور الحسنات، والبغي يُصدِّق ذلك أو يُكذِّبه، والعينُ تزني والكفُّ والقدمُ والجسدُ واللِّسان، والفرج يُصدِّق ذلك أو يكذِّبه»[2].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يَعْمُرُ، حدثنا عبد الله، أخبرنا سُفيان، عن زيدٍ العمِّي، عن أبي إياس، عن أنس بن مالك أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لكل نبيٍّ رَهبانيةٌ، ورَهبانيةُ هذه الأمة الجهادُ في سبيل الله عزَّ وَجلَّ»[3].

ورواه الحافظ أبو يعلَى عن عبدالله بن محمد بن أسماء، عن عبدالله بن المبارك، به، ولفظه: «لِكُلِّ أمةٍ رهبانيةٌ، ورَهبانيةُ هذه الأمةِ الجهادُ في سبيل الله»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين ـ هو ابن محمد ـ حدثنا ابن عَيَّاش ـ يعني إسماعيلَ ـ عن الحجاجِ بن مَرْوَان الكَلاعِيّ، وعُقَيل بن مُدرِك السُّلميّ عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ أن رَجُلاً جاءه فقال: أوصني. فقال: «سألتَ عما سألتُ عنه رسول الله ـ ﷺ ـ من قَبْلِك، أُوصيكَ بتقوى الله فإنه رأسُ كلِّ شيء، وعليكَ بالجهادِ فإنه رهبانيةُ الإسلامِ، وعليكَ بذكرِ الله وتلاوةِ القرآنِ فإنه رُوحُكَ في السماءِ، وذكرُكَ في الأرض». تفرد به أحمد[4].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

وقد تقدَّم في رواية النسائي عن ابن عباس أنه حَمَلَ هذه الآية على مُؤمني أهل الكتاب، وأنهمْ يُؤتَون أجرَهم مرَّتين كما في الآية التي في القَصَص[5]، وكما في حديث الشعبي عن أبي بُرْدَة، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثةٌ يُؤتَون أجرَهم مرَّتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وآمنَ بي فله أجرانِ، وعبدٌ مملوكٌ أدَّى حقَّ الله وحقَّ مَوَاليه فله أجرانِ، ورجلٌ أدَّبَ أمَتَه فأحسنَ تأديبها ثم أعتَقَها وتزوَّجها فله أجرانِ». وأخرجاه في الصحيحين[5].

---

(1) بعده في نسخة: دقيقة. وفي سواها: دقعة. وفي سنن أبي داود: (صلاة خفيفة دقيقة) وهذه الزيادة ليست في مسند أبي يعلى.
(2) مسند أبي يعلى ٤/٢١ ـ ٢٢. وقد أخرجه أبو داود في كتاب الأدب من سننه ٤/٢٧١ ـ ٢٧٢ عن أحمد بن صالح، عن ابن وهب، به.
(3) مسند الإمام أحمد ٣/٢٦٦، ومسند أبي يعلى ٤/١٨٤.
(4) مسند الإمام أحمد ٣/٨٢.
(5) الآية ٥٤ من سورة القصص. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤ من سورة البقرة، ١٩٩ من سورة آل عمران، ٥٤ من سورة القصص، وخرجناه هنالك.

ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاكُ، وعُتْبَةُ بن أبي حكيم، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير[١].

وقال سعيدُ بن جُبير: لما افتخر أهلُ الكتاب بأنهم يُؤتَون أجرهم مرَّتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة. ﴿يا أيها الذين آمَنُوا اتقُوا الله وآمنوا برسُوله يُؤتِكم كِفْلَين من رَحْمته﴾، أي ضِعْفَين، وزادَهُم ﴿ويجعَلْ لكم نُوراً تمشُون به﴾، يعني هُدًى يُتَبَصَّرُ به من العَمَى والجهالة، ويغفر لكم، ففضلهم بالنور والمغفرة. ورواه ابن جرير عنه.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتَّقُوا الله يجعل لكم فُرقَاناً ويُكَفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾.

وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عُمر بن الخطاب حبراً من أحبار يَهُودَ: [كم][٢] أفضلُ ما ضُعِّفَ لكم حَسَنةً؟ قال: كِفْلٌ ثلاثمائةٍ وخمسُون حسنةً. قال: فحَمِدَ الله عُمَرُ على أنه أعطانا كِفْلَين. ثم ذَكَر سعيدٌ قولَ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿يُؤتِكم كِفْلَين من رَحْمته﴾ ـ قال سعيد: والكفلان في الجمعة مثل ذلك. رواه ابن جرير.

ومما يُؤَيِّد هذا القول ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيلُ، حدثنا أيوب، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَثَلُكم ومثلُ اليهودِ والنصارى كَمثل رجُلٍ استعمل عُمَّالاً، فقال: من يعمَلُ لي من صلاة الصُّبح إلى نصف النهار على قيراطٍ قيراطٍ؟ ألا فعَمِلت اليهودُ. ثم قال: مَن يعمل لي من نصفِ النهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراطٍ؟ ألا فعملت النصارى. ثم قال: من يعمَلُ لي من صلاة العصر إلى غُرُوب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم. فغَضِبَ النصارى واليهودُ، وقالوا: نحنُ أكثرُ عملاً وأقلُّ عطاءً. قال: هل ظلمتكم من أجرِكم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فَضْلي أوتيه من أشاء»[٣].

قال أحمد: وحدَّثناه مُؤَمَّل، عن سفيان، عن عبد الله بن دِينارٍ، عن ابن عُمَر، نحوَ حديثِ نافعٍ، عنه[٣].

انفرد بإخراجه البُخاريُّ فرَوَاه عن سُلَيمانَ بن حَرْب، عن حَمَّاد، عن أيوب، عن نافعٍ، به، وعن قُتَيبة، عن الليث، عن نافع، بمثله[٣].

وقال البُخاري: حدثني محمدُ بن العلاء، حدثنا أبو أُسامة، عن بُرَيد، عن أبي بُردَة، عن أبي موسى، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مثلُ المسلمينَ واليهودِ والنصرَى كمثلِ رجُلٍ استأجر قوماً يعملُونَ له عملاً يوماً إلى الليلِ على أجرٍ معلُوم، فعَمِلُوا إلى نصفِ النهار فقالوا: لا حاجةَ لنا إلى أجرِكَ الذي شرَطْتَ لنا، وما عَمِلنا باطلٌ. فقال لهم: لا تفعلوا، أكمِلُوا بقية عَمَلِكم وخُذُوا أجركم كاملاً، فأبَوا وتَركُوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقيَّة يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر. فعملوا حتى إذا حينَ صَلَّوُا العصرَ قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال: أكمِلُوا بقية عملكم؛ فإن ما بقي من النهار شيءٌ يسيرٌ. فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملُوا له بَقيَّة يومهم فعملوا بَقيَّة يَوْمهم حتى غابت الشمسُ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مَثَلُهم ومثل ما قبلوا من هذا النُّور». انفرد به البخاريُّ[٤].

(١) تفسير الطبري ٢٧/٢٤١.
(٢) من تفسير الطبري ٢٧/٢٤٣.
(٣) مسند أحمد ٢/٦، ١١١، وفتح الباري، كتاب الإجارة ٤/٤٤٥، وكتاب الأنبياء ٦/٤٩٥ ـ ٤٩٦.
(٤) فتح الباري، كتاب الإجارة ٤/٤٤٨ ـ ٤٤٩.

ولهذا قال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يعلم أهلُ الكتاب ألَّا يقدرون على شيء من فضل الله ﴾، أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رَدِّ ما أعطاه الله، ولا إعطاء ما منع الله، ﴿ وأنَّ الفضل بيد الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضلِ العظيم ﴾.

قال ابن جرير: ﴿ لِئَلَّا يعلمَ ﴾، أي: لِيَعْلَم. وقد ذُكِرَ عن ابن مسعود أنه قرأها ﴿لِكَي يعْلَم ﴾. وكذا حِطَّان[1] بن عبد الله، وسعيد بن جُبَير. قال ابن جرير: لأنَّ العرب تجعل (لا) صلةً في كل كلام دخل في أوله أو آخره جَحْدٌ غير مُصرَّح، فالسابق كقوله: ﴿ ما منَعك ألَّا تسجد ﴾، ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾، ﴿ وحَرَامٌ على قرية أهلكناها أنهم لا يرْجِعون ﴾[2].

آخر تفسير سورة الحديد

---

(١) في تفسير الطبري وبعض أصولنا: خطاب. وصوابه: حطان وهو ابن عبد الله الرقاشي، ويقال السدوسي، قرأ على أبي موسى الأشعري عنها، وعليه الحسن البصري عرضا. انظر غاية النهاية ١/٢٥٣ ـ ٢٥٤

(٢) تفسير الطبري ٢٧/٢٤٦، وهو كلام الفراء في معانيه ٣/١٣٧ ـ ١٣٨

تفسير

سورة المجادلة

وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① ﴾

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عُرْوَةَ، عن عائشةَ قالت: الحمدُ لله الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلةُ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ تُكَلِّمه وأنا في ناحيةِ البيتِ، ما أسمعُ ما تقولُ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قد سَمِعَ الله قولَ التي تُجادِلُكَ في زَوْجِها﴾... إلى آخر الآية[1].

وهكذا رواه البخاريُّ في كتاب التوحيد تَعليقاً فقال: وقال الأعمش، عن تميم بن سَلمة، عن عُرْوَةَ، عن عائشةَ، فذكره. وأخرجَه النَّسائيُّ، وابنُ ماجَه، وابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرِير، من غير وَجْهٍ، عن الأعمشِ به[1].

وفي رواية لابن أبي حاتم عن الأعمش، عن تَمِيم بن سَلَمة، عن عُرْوَةَ، عن عائشة أنها قالت: تبارَكَ الذي أَوْعَى سمعُه كلَّ شيءٍ، إني لأسمعُ كلام خَوْلَةَ بنتَ ثعلبةَ، ويخفَى عليَّ بعضُه، وهي تشتكي زَوْجَها إلى رسول الله ﷺ ـ وهي تقول: يا رسولَ الله أكلَ شبابي، وَنَثَرْتُ له بطني، حتى إذا كَبِرَت سِني، وانقطع وَلَدِي، ظاهَرَ منيَّ! اللهُمَّ، إني أشكو إليك قالت: فما بَرِحت حتى نَزَل جبريلُ بهذه الآية: ﴿قد سَمِع الله قولَ التي تُجادِلُكَ في زَوْجِها﴾. وقال: وزوجُها أوسُ بنُ الصَّامِتِ.

وقال ابنُ لَهِيعَة، عن أبي الأسود، عن عُرْوَةَ ـ عن أوس بن الصامت ـ وكان أوسٌ امرَأً به لَمَمٌ، فكان إذا أخذه لَمَمُهُ واشتدَّ به يُظاهِرُ من امرأتِه، وإذا ذَهَب لم يقل شيئاً. فأتت رسولَ الله تَستَفْتِيه في ذلك وَتَشْتَكِي إلى الله، فأنزل الله: ﴿قد سَمِع الله قولَ التي تُجادِلُك في زَوْجِها وتَشْتَكِي إلى الله﴾... الآية.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤٦/٦، وفتح الباري، كتاب التوحيد ٣٧٢/١٣، وأخرجه النسائي في كتاب الطلاق ١٦٨/٦، وفي كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٣/١٢، وابن ماجه في المقدمة ٦٧/١، والطبري في تفسيره ٥/٢٨.

وهكذا روى هشام بن عروة، عن أبيه: أنّ رجلاً كان به لَمَمٌ. فذكر مثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل أبو سلمة، حدثنا جرير ـ يعني ابن حازم ـ قال: سمعتُ أبا يزيد يُحدّث قال: لَقِيَت امرأةٌ عُمَرَ ـ يقال لها: خولةُ بنتُ ثعلبة ـ وهو يسير مع الناس، فاستوقفته فوقفَ لها ودَنا منها وأصغَى إليها رأسَه، ووضَعَ يَدَيه على مَنْكِبَيْهَا حتى قضت حاجتها وانصرفت. فقال له رجلٌ: يا أميرَ المؤمنين، حَبَستَ رجالاتِ قُرَيشٍ على هذه العجوز؟! قال: ويحكَ! وتدري من هذه؟ قال: لا. قال: هذه امرأةٌ سَمِعَ الله شكواها من فوقِ سَبْعِ سمواتٍ وهذه خولةُ بنتُ ثعلبةَ، وايمُ الله لو لم تَنصرِفْ عنّي إلى الليل ما انصرفتُ حتى تَقضِيَ حاجتَها إلا أن تحضُرَ صلاةٌ فأُصلّيها، ثم أرجِعُ إليها حتى تقضِيَ حاجتها.

هذا منقطعٌ بين أبي يزيد وعُمَرَ بن الخطاب. وقد رُوِي من غير هذا الوجه.

وقال ابنُ أبي حاتم أيضاً: حدثنا المُنذرُ بن شاذان، حدثنا يعلَى، حدثنا زكريا، عن عامر قال: المرأةُ التي جادَلَت في زَوْجِها خولةُ بنتُ الصامت، وأمها مُعاذةُ التي أنزل الله فيها ﴿ولا تُكرِهُوا فَتَياتِكم على البِغاء إن أردن تحصنا﴾.

صوابه: خَوْلَةُ امرأةُ أَوسِ بن الصّامتِ(١).

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ ﴾.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سعدُ بن إبراهيم ويعقوبُ قالا: حدثنا أبي، حدثنا محمدُ بن إسحاق، حدثني معمر بن عبد الله بن حَنْظَلَة، عن يوسفَ بن عبد الله بن سَلَام، عن خُوَيلَةَ بنتِ ثعلبة قالت: فِيَّ ـ والله ـ وفي أوسِ بن الصامتِ أنزل الله صَدْرَ سُورَةِ «المجادلة».

قالت: كنتُ عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خُلُقه، قالت: فدخل عليَّ يوماً فراجعتُه بشيءٍ فغَضِبَ فقال: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمّي. قالت، ثم خَرَجَ فجلسَ في نادي قومه ساعةً، ثم دخل عليَّ فإذا هو يُريدني على نفسي، قالت: قلتُ: كلا، والذي نفسُ خُوَيلَةَ بيده لا تخلص إليَّ وقد قُلتَ ما قُلتَ حتى يحكمَ الله ورسولُه فينا بحكمه. قالت: فواثبني وامتنعتُ منه، فغَلَبْتُه بما تَغلِبُ به المرأةُ الشيخَ الضعيف، فألقيتُه عنّي، قالت: ثُمّ خرجتُ إلى بعضِ جاراتي، فاستعرتُ منها ثياباً، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فجلستُ بين يَدَيه، فذكرتُ له ما لَقِيتُ منه، وجعلتُ أشكو إليه ما ألقى من سُوءِ خُلُقه. قالت: فجعَل رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يا خُوَيلَةُ، ابنُ عَمّكِ شيخٌ كبيرٌ، فاتّقي الله فيه». قالت: فوالله ما بَرِحتُ حتى نَزَلَ فِيَّ القرآنُ، فتغشّى رسولَ الله ـ ﷺ ـ ما كان يَتغشّاه، ثم سُرّيَ عنه، فقال لي: «يا خُوَيلةُ، قد أنزلَ الله فيكِ وفي صاحبِكِ». ثم قرأ عليَّ ﴿قد سَمِعَ الله قولَ التي تُجادِلُكَ في زَوْجِها وتَشْتكي إلى الله والله يسمَعُ تحاوُرَكُما إن الله سميعٌ بصيرٌ﴾ إلى

(١) انظر أسد الغابة، ترجمة خولة بنت ثعلبة ٩١/٧.

قوله: ﴿وللكافرينَ عذابٌ أليمٌ﴾: قالت: فقال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مُريه فليُعْتِقْ رقبةً» قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله، ما عنده ما يُعْتِقُ. قال: «فليصُمْ شهرين مُتتابعين». قالت: فقلتُ: والله إنه شيخٌ كبيرٌ، ما به من صيام. قال: «فليُطعِمْ ستينَ مسكيناً وسْقاً[1] من تَمر». قالت: فقلت: والله يا رسولَ الله، ما ذاكَ عِندَه. قالت: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «فإنَّا سنُعينُه بعرَقٍ[1] من تَمرٍ». قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأُعينُه بعرَقٍ آخرَ. قال: «قد أصبتِ وأحسنْتِ فاذهَبي فتصدَّقِي به عنه، ثم استَوْصي بابنِ عَمِّك خيراً». قالت: ففعلت[2].

وَرَواه أبو داودَ في كتاب الطلاق من سُننه من طريقين، عن محمد بن إسحاق بن يَسَارٍ، به. وعنده: خولةُ بنتُ ثعلبَةَ، ويقالُ فيها: خولةُ بنتُ مالكِ بن ثعلبةَ. وقد تُصغَّرُ فيقال: خُوَيلة. ولا منافاةَ بين هذه الأقوال، فالأمرُ فيها قريب، والله أعلم.

هذا هو الصحيحُ في سَبَبِ نُزولِ صَدرِ هذه السورة، فأما حديث سلَمة بن صَخْر فليس فيه أنه كان سببَ النزول، ولكن أمرٌ مما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام أو الإطعام، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن عَمرو بن عطاءٍ، عن سُلَيمان بن يَسارٍ، عن سَلَمة بن صَخرٍ الأنصاريِّ قال: كنتُ امرأً قد أُوتيتُ من جِماعِ النساء ما لم يُؤْتَ غيري، فلما دخل رَمَضان، تظهَّرتُ من امرأتي حتى يَنْسلِخَ رمضان، فَرَقاً من أن أُصيبَ في ليلتي شيئاً فأَتتابَعَ في ذلك إلى أن يُدْرِكَني النهار، وأنا لا أقدِرُ أن أنزِعَ. فبينا هي تخدُمني من الليل إذ تَكشَّفَ لي منها شيءٌ، فوَثبتُ عليها، فلما أصبحتُ غَدَوتُ على قَومي فأخبرتهم خَبَري وقلت: انطلِقوا معي إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فأُخبِرَه بأمري. فقالوا: لا، والله لا نفعلُ؛ نَتخوَّفُ أن ينزلَ فينا ـ أو يقولَ فينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ مقالةٌ يبقى علينا عارُها، ولكن اذهَبْ أنتَ فاصنَعْ ما بدا لَكَ. قال: فخرجتُ حتى أتيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فأخبرتُه خَبَري. فقال لي: «أنتَ بذاكَ». فقلتُ: أنا بذاكَ؟ فقال: «أنتَ بذاك». فقلت: أنا بذاك؟. قال: «أنت بذاك». قلت: نعم، ها أنا ذا فأمضِ فيَّ حكم الله تعالى، فإنِّي صابرٌ له. قال: «أعتِقْ رقبةً». قال: فضربتُ صفحةَ رقَبتي بيَدي وقلتُ: لا، والذي بَعثَك بالحقِّ ما أصبحتُ أملِكُ غيرَها، قال: «فصُم شهرَين». قلت: يا رسولَ الله، وهل أصابَني ما أصابني إلاَّ في الصيام؟ قال: «فتَصدَّق». فقلت: والذي بعثك بالحق لقد بِتْنا ليلتَنا هذه وَحْشَى[3]، ما لنا عَشاءٌ. قال: «اذهَب إلى صاحبِ صَدَقةِ بني زُرَيق فقُلْ له فَليَدفَعْها إليكَ، فأَطْعِمْ عنك منها وَسْقاً من تَمرٍ سِتِّينَ مِسْكيناً، ثم استعِنْ بسائرِه عَلَيكَ وعلى عِيالِكَ». قال: فَرجَعتُ إلى قومي فقلتُ: وجَدْتُ عندكُم الضِّيقَ وسُوءَ الرأي، ووَجَدْتُ عندَ رسول الله ـ ﷺ ـ السَّعَةَ والبركَةَ، قد أمر لي بِصَدقتِكم، فادفعوها إليَّ. فدَفَعُوها إليَّ[4].

وهكذا رَواه أبو داود، وابن ماجه، واختصره الترمذي وحَسَّنه.

---

(١) الوَسْقُ: مكْيلَةٌ معلومة، وهي: ستُّون صاعاً، والصاع: خمسةُ أرطالٍ وثلثٌ. والعَرق والعَرَقةُ: زِبيلٌ منسوج من سائج الخوص، يَسَعُ خمسة عشر صاعاً.

(٢) مسند أحمد ٦/٤١٠ ـ ٤١١، وسنن أبي داود، كتاب الطلاق ٢/٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٣) أي: ما لنا طعامٌ، وانظر النهاية لابن الأثير.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/٣٧، وسنن أبي داود، كتاب الطلاق ٢/٢٦٥ ـ ٢٦٦، وسنن ابن ماجه، كتاب الطلاق ١/٦٦٥ ـ ٦٦٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المجادلة ١٢/١٨٥ ـ ١٨٦

وظاهرُ السياقِ أن هذه القصة كانت بعد قصة أوسِ بن الصامت وزوجته خُويلة بنت ثعلبة، كما دلَّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل.

قال خُصَيف، عن مجاهد، عن ابن عباس: أوّلُ من ظاهر من امرأته أوسُ بن الصامت، أخو عُبادة بن الصامت، وامرأتُه خولةُ بنتُ ثعلبةَ بن مالك، فلما ظاهر منها خَشِيت أن يكون ذلك طلاقاً، فأتت رسول الله - ﷺ - فقالت: يا رسولَ الله، إنَّ أوساً ظاهَرَ منّي، وإنا إن افترقنا هلكنا، وقد نَثَرْتُ بطني منه، وقَدُمت صُحْبَتُه وهي تَشكُو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيءٌ. فأنزل الله: ﴿قد سمع الله قول التي تُجادلُك في زَوْجها وتَشْتكي إلى الله﴾، إلى قوله: ﴿وللكافرين عذابٌ أليمٌ﴾. فدعاه رسولُ الله - ﷺ - فقال: «أتقدِرُ على رقبةٍ تُعتِقُها»؟ قال: لا والله يا رسولَ الله، ما أقدِرُ عليها؟ قال: فجمع له رسولُ الله - ﷺ - حتى أعتَقَ عنه، ثم راجَعَ أهلَه. رواه ابن جرير[1].

ولهذا ذهَب ابنُ عباس والأكثرون إلى ما قلناه، والله أعلم.

فقولُه تعالى: ﴿الذين يُظاهِرُون منكم من نسائهم﴾ أصلُ الظِّهار مُشْتَقٌّ من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانُوا إذا تظاهر أحدٌ مِنَ امرأتِهِ قال لها: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي. ثم في الشرع كان الظِّهر في سائر الأعضاء قياساً على الظهر، وكان الظِّهارُ عند الجاهلية طلاقاً، فأرخص الله لهذه الأمةِ وجعَلَ فيه كفارةً، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يَعْتَمِدُونه في جاهليتهم. هكذا قال غير واحد من السلف.

قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن أبي حمزةَ، عن عكرمةَ عن ابن عباس قال: كان الرجلُ إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنتِ عليَّ كظهرِ أُمّي، حَرُمت عليه، فكان أولَ مَن ظاهرَ في الإسلام أوسٌ، وكانت تحته ابنةُ عمٍّ له يقال لها: «خُوَيلة بنتُ ثعلبةَ» فظاهر منها، فأُسقِطَ في يَدَيه، وقال: ما أراكِ إلا قد حَرُمتِ عليَّ. وقالت له مثلَ ذلك[2]، قال: فانطلقي إلى رسولِ الله ﷺ. فأتت رسولَ الله فوجدت عنده ماشطةً تمشُط رأسه، فقال: «يا خُويلة، ما أُمِرْنا في أمْرِك بشيءٍ». فأنزل الله على رسوله - ﷺ - فقال: «يا خُوَيْلَةُ، أبشري» قالت: خيراً. فقرأ عليها: ﴿قد سَمِع الله قول التي تُجادلك في زَوْجها وتشتكي إلى الله والله يسمَعُ تحاوركما﴾... إلى قوله: ﴿والذين يُظاهِرُون من نسائهم ثم يعودُون لما قالوا فتحريرُ رقبةٍ من قبل أن يتماسا﴾. قالت: وأيُّ رقبةٍ لنا؟ والله ما يَجِدُ رقبةً غيري. قال: ﴿فمَن لم يجد فصيام شهرَين متتابعين﴾، قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصرُه! قال: ﴿فمن لم يستطع فإطعامُ ستّين مسكيناً﴾. قالت: من أين؟ ما هي إلا أكلةٌ إلى مثلها! قال: فدعا بشطر وَسْق - ثلاثينَ صاعاً، والوسقُ ستون صاعاً - فقال: لِيُطْعِم ستّين مسكيناً ولْيُراجِعْكِ[3].

وهذا إسنادٌ جَيد قويٌّ، وسياقٌ غريبٌ، وقد رُوِي عن أبي العالية نحوَ هذا، فقال ابن أبي حاتم:

حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهَرَوِيُّ، حدثنا علي بن عاصم، عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية قال: كانت خولةُ بنت دُلَيج تحتَ رجلٍ من الأنصار، وكان ضرير البصر فقيراً سيِّء الخلق، وكان طلاقُ أهل الجاهلية إذا أراد الرجُل أن يُطلِّق امرأته، قال: أنتِ عَلَيَّ كَظَهرِ أمّي. وكان له منه عَيِّلٌ أو عَيِّلان، فنازَعَته يوماً في شيءٍ فقال: أنتِ عَلَيَّ كَظَهرِ أمّي. فاحتَمَلت عليها ثيابها حتى دخلت على النبيِّ - ﷺ - وهو

(١) تفسير الطبري ٢٨/٦.
(٢) في نسخة: مثل ما قال.
(٣) تفسير الطبري ٢٨/٣.

في بيت عائشة، وعائشةُ تَغسِل شِقَّ[1] رأسِه، فقدمت عليه ومعَها عَيِّلُها، فقالت: يا رسولَ الله، إنّ زَوجي ضريرُ البصرِ، فقيرٌ لا شيءَ له، سَيِّءُ الخُلُقِ، وإني نازعتُه في شيءٍ فَغَضِبَ، فقال: «أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي»، ولم يرد به الطلاقَ، ولي منه عَيِّل ـ أو: عَيِّلان ـ فقال: ما أعلمُكِ إلا قد حَرُمت عليه. فقالت: أشكو إلى الله ما نَزَل بي وأبا صِبيَتي. قال: ودارت عائشةُ فغسَلَت شِقَّ رأسِه الآخر، فدارت معها، فقالت: يا رسولَ الله، زَوجي ضَريرُ البَصَر، فقيرٌ سَيِّء الخُلُق، وإن لي منه عَيِّلاً أو عَيِّلين، وإني نازعتُه في شيءٍ فغَضِب وقال: أنتِ عليَّ كظهر أمّي، ولم يُرِد به الطلاق! قالت. فرَفع إليّ رأسَه وقال. ما أعلمُكِ إلا قد حَرُمتِ عليه. فقالت: أشكو إلى الله ما نَزَل بي وأبا صِبيَتي؟ قال: ورأت عائشةُ وجه النبي ـ ﷺ ـ تَغَيَّر، فقالت لها: وراءكِ وراءكِ؟ فتَنَحت، فمكثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ في غَشَيانِهِ ذلك ما شاء الله، فلما انقطع الوحيُ قال. يا عائشةُ، أين المرأةُ؟ فدعتها، فقال لها رسولُ الله ـ ﷺ ـ: اذهبي فأتيني بزَوْجِك. فانطلقت تسعَى فجاءت به، فإذا هو ـ ضَريرُ البصرِ، فقير، سيِّء الخُلُق ـ فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: أستعيذ بالله السميع العليم ﴿بسم الله الرحمنِ الرحيم * قَدْ سَمِعَ اللهُ قولَ التي تُجادِلُكَ في زَوْجِها وَتَشْتَكي إلى الله﴾ إلى قوله: ﴿والذين يُظاهِرُون من نِسائِهم ثم يعودُون لما قالوا﴾. قال النبيُّ ﷺ: أتجدُ رقبةً تُعتِقُها من قبل أن تَمسَّها؟. قال: لا. قال: أفتستطيعُ أن تَصُومَ شهرَين مُتتابِعَين؟ قال: والذي بَعَثَك بالحقّ، إني إذا لم آكُل المرّتين والثلاث يكاد يعشُو بصري. وقال: أفتستطيعُ أن تُطعِم سِتّين مسكيناً؟. قال: لا، إلا تُعينَني. قال: فأعانه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال. «أطعِم سِتّين مِسكيناً». قال: وحَوَّل اللهُ الطلاق، فجعله ظِهاراً.

ورواه ابنُ جرير، عن ابن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، سمعت أبا العالية، فذكره نحوه، بأخصرَ من هذا السياق[2].

وقال سعيد بن جُبَير: كان الإيلاءُ والظهارُ من طلاقِ الجاهليةِ فوَقَّت اللهُ الإيلاءَ أربعةَ أشهر، وجعَلَ في الظهارِ الكفّارةَ. رواه ابن أبي حاتم، بنحوه.

وقد استدلَّ الإمامُ مالكٌ على أن الكافر لا يدخلُ في هذه الآية بقوله: ﴿منكُم﴾، فالخطابُ للمؤمنين. وأجاب الجُمهور بأنّ هذا خَرج مخرَج الغالب فلا مفهومَ له، واستدل الجمهورُ عليه بقوله: ﴿من نسائهم﴾، على أن الأمَة لا ظِهار منها، ولا تدخل في هذا الخطاب.

وقولُه: ﴿ما هُنَّ أمهاتِهم إنْ أمهاتُهم إلا اللائي وَلَدْنَهم﴾ أي: لا تصيرُ المرأةُ بقولِ الرجُلِ: أنتِ عليَّ كظهرِ أُمّي، أو كأمي أو «مثل أمي»، وما أشبه ذلك، لا تصير أمَّه بذلك، إنما أمُّه التي وَلَدته. ولهذا قال: ﴿وإنهم ليقولُون مُنكَراً من القول وزُوراً﴾، أي: كلاماً فاحشاً باطلاً، ﴿وإن الله لعفوٌ غفورٌ﴾، أي: عما كان منكُم في حال الجاهليّة، وهكذا أيضاً عما خَرَج من سَبْقِ اللسانِ ولم يَقصِد إليه المتكلم. كما رَواه أبو داود أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ سَمِع رجلاً يقول لامرأته: يا أختي. فقال: أختُك هي[3]؟!، فهذا إنكار، ولكن لم يُحَرِّمها عليه بمجرَّد ذلك، لأنه لم يَقصده، ولو قصَده لَحَرُمَت عليه، لأنه لا فَرقَ على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارِم، مِن أختٍ وعَمّةٍ وخالةٍ، وما أشبه ذلك.

---

(١) شِقّ الشيء: جزؤه، وجانبُه.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/١ ـ ٢. وذكر في الدر المنثور ٧٧/٨ أنه أخرجه عبد بن حميد، وابن مَرْدَويه، والبيهقي في السُّنن. وانظر السنن الكبرى للبيهقي ٣٨٤/٧ ـ ٣٨٥.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الطلاق ٢٦٤/٢.

وقولُه: ﴿والذين يُظاهِرُون من نسائهم ثم يَعُودون لما قالُوا﴾، اختلف السلفُ والأئمةُ في المراد بقوله: ﴿ثم يَعودُون لما قالوا﴾ فقال بعضُ الناس: العودُ هو أن يعودَ إلى لفظ الظهار فَيُكرِّره. وهذا القولُ باطلٌ، وهو اختيارُ ابن حزْم وقَوْلُ داود، وحكاه أبو عُمَر بن عبد البرِ، عن بُكَير بن الأشجِّ والفرّاء[١]، وفرقة من أهل الكلام.

وقال الشافعي: هو أن يُمسِكَها بعد الظهار زماناً يُمكنُه أن يُطلِّق فيه فلا يُطلِّق. وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعودَ إلى الجماع، أو يعزم عليه، فلا يَحِلُّ له حتى يُكَفِّرَ بهذه الكفّارة. وقد حُكِي عن مالك أنه العزمُ على الجماع والإمساك، وعنه أنه الجماعُ. وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه، ورَفْع ما كان عليه أمر الجاهلية، فمتى ظاهر الرجُل من امرأته فقد حَرَّمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفّارةُ، وإليه ذهبَ أصحابُه، والليثُ بنُ سَعد.

وقال ابنُ لَهِيعةَ: حدثني عطاء، عن سعيد بن جُبَير: ﴿ثم يعودُون لما قالوا﴾، يعني: يُريدون أن يعودُوا في الجماع الذي حَرَّموه على أنفُسِهم.

وقال الحسن البصري: يعني الغِشْيانَ في الفَرْجِ. وكان لا يرى بأساً أن يغشَى فيما دُون الفرج قبل أن يُكفِّر.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿من قبل أن يتماسا﴾، والمسُّ: النكاحُ. وكذا قال عطاءٌ، والزهريُّ، وقتادةُ، ومقاتلُ بن حَيَّانَ.

وقال الزهريُّ: ليس له أن يُقَبِّلها ولا يَمَسَّها حتى يُكفِّر.

وقد رَوَى أهلُ السُّنَن من حديث عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس أن رَجُلاً قال: يا رسولَ الله، إني ظاهرتُ من امرأتي فوقعتُ عليها قبل أن أُكفِّر. فقال: «ما حَمَلك على هذا يرحمُكَ الله؟» قال: رأيتُ خَلْخَالها في ضَوْء القَمَر. قال: «فلا تَقْرَبها حتى تفعلَ ما أمَرَكَ الله عزَّ وجلَّ».

وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ غريبٌ صَحيح. ورواه أبو داود والنسائي من حديث عكرمة مُرْسلاً. قال النسائيُّ: وهو أولى بالصواب[٢].

وقولُه: ﴿فتَحريرُ رَقَبَةٍ﴾، أي: فإعتاق رقبةٍ كاملةٍ من قبل أن يتماسا، فها هنا الرقبةُ مطلقةٌ غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القَتْلِ مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ ما أطلق ها هنا على ما قُيِّد هناك لاتحادِ الموجِب، وهو عتقُ الرقبةِ، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسَنَدِه، عن مُعاوية بن الحكم السلمي، في قصة الجارية السوداءِ، وأن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أَعْتِقْها فإنها مُؤمِنةٌ». وقد رواه أحمدُ في مسنده، ومسلمٌ في صحيحه[٣].

وقال الحافظ أبو بكر البَزّار: حدثنا يوسفُ بن موسى، حدثنا عبد الله بن نُمَير، عن إسماعيلَ بن مُسلم، عن عَمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس قال: أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ رجلٌ فقال: إني ظاهرتُ من

(١) انظر معاني القرآن للفراء ٣/١٣٩.

(٢) أخرجوه في كتاب الطلاق، سنن أبي داود ٢/٢٦٨، وعارضة الأحوذي ٥/١٧٦ ـ ١٧٧، والنسائي ٦/١٦٧، وابن ماجه ١/٦٦٦ ـ ٦٦٧.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٩٢ من سورة النساء، وخرجناه هنالك.

امرأتي ثم وقعتُ عليها قبل أن أُكفِّر. فقال رسول الله ﷺ: ألم يقُلِ الله: ﴿من قبل أن يتماسَّا﴾. قال: أعجبتني؟ قال: «أمسِكْ حتى تُكفِّر».

ثم قال البزار: لا يُروَى عن ابن عباس بأحسنَ من هذا، وإسماعيل بن مسلم تُكُلِّم فيه، ورُوِيَ عن جماعة كثيرة من أهل العلم، وفيه من الفقه أنه لم يأمُره إلا بكفَّارةٍ واحدةٍ.

وقولُه: ﴿ذلكم توعَظون به﴾ أي: تُزْجَرُون به، ﴿والله بما تعملُون خبيرٌ﴾، أي: خبيرٌ بما يُصلِحُكم، عليمٌ بأحوالكم.

وقولُه: ﴿فمَن لم يجد فصيامُ شهرَين متتابعَين من قبل أن يتمسا فمَن لم يَستطِعْ فإطعامُ سِتِّين مسكيناً﴾، قد تقدَّمت الأحاديثُ الواردةُ بهذا على الترتيب، كما ثبت في الصحيحين في قصة الذي جامَع امرأته في رمضانَ.

﴿ذلكَ لِتُؤمنوا بالله ورسُوله﴾، أي: شرَعنا هذا لهذا. وقولُه: ﴿وتلكَ حُدودُ الله﴾، أي: محارمُه فلا تَنتهِكُوها. وقولُه: ﴿وللكافرين عذابٌ أليم﴾، أي: الذين لم يُؤْمِنُوا ولا التزمُوا بأحكام هذه الشريعة، لا تَعتقِدُوا أنهم ناجُون من البلاءِ، كلَّا، ليس الأمرُ كما زَعَمُوا، بل لهم عذابٌ أليمٌ، أي في الدُّنيا والآخرةِ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ ﴾

يُخبِر تعالى عمَّن شاقُّوا الله ورسوله وعانَدُوا شَرعه، ﴿كُبِتوا كما كُبِت الذينَ من قبلهم﴾، أي: أُهِينوا ولُعِنوا وأُخزُوا، كما فعل بمن أشبَهَهُم ممَّن قبلهم، ﴿وقد أنزلنا آيتٍ بيِّناتٍ﴾، أي: واضحاتٍ لا يُخالِفُها ويُعانِدُها إلا كافرٌ فاجرٌ مكابرٌ، ﴿وللكافرين عذابٌ مُهين﴾، أي: في مقابَلَة ما استكبروا عن اتِّباع شَرْعِ الله، والانقيادِ له، والخضُوعِ لَدَيه.

ثم قال: ﴿يومَ يبعثُهم الله جميعاً﴾، وذلك يومَ القيامة، يجمَعُ الله الأولين والآخرين في صَعيدٍ واحدٍ، ﴿فيُنبِّئهم بما عَمِلُوا﴾، أي: يُخبِرُهم بالذي صَنَعُوا من خيرٍ وشرٍ، ﴿أحصاهُ الله ونَسُوه﴾، أي: ضَبَطه الله وحَفِظه عليهم، وهم قد نَسُوا ما كانوا عملوا، ﴿والله على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾، أي: لا يَغِيبُ عنه شيءٌ، ولا يخفى، ولا ينسَى شيئاً.

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطةِ عِلْمِه بخلقه واطِّلاعِه عليهم، وسَمَاعِه كلامَهم، ورؤيته مكانَهم حيث كانُوا وأين كانُوا، فقال: ﴿ألم تر أن الله يعلَمُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ﴾، أي من سِرِّ ثلاثةٍ ﴿إلا هو رابعُهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾، أي: يَطَّلع عليهم ويسمَعُ كلامَهم وسِرَّهم ونجواهم، ورُسُله أيضاً مع ذلك تكتُب ما يتناجَون به، مع عِلمِ الله به وسَمْعِه لهم، كما قال: ﴿ألم يعلمُوا أن الله يَعلمُ سِرَّهم ونجواهُم وأن الله علامُ الغُيوب﴾. وقال:

﴿أم يَحسَبُون أنا لا نسمعُ سرَّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ ولهذا حَكَى غيرُ واحدٍ الإجماعَ على أن المراد بهذه الآية مَعيّةُ علم الله تعالى، ولا شكَّ في إرادةِ ذلك ولكن سَمْعَه أيضاً مع عِلْمِه محيطٌ بهم، وبَصره نافذٌ فيهم، فهو ـ سبحانه ـ مُطَّلعٌ على خلقِهِ، لا يَغيب عنه من أمورهم شيءٌ.

ثم قال ﴿ثم يُنَبِّئهم بما عَمِلُوا يومَ القيامَةِ إن الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾، قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعِلْمِ، واختتمها بالعِلْمِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿ألم تَرَ إلى الذين نُهوا عن النَّجوى﴾ قال: اليهودُ[1]. وكذا قال مقاتل بن حيان، وَزَادَ: وكان بين النبي ﷺ وبين اليهود مُوادَعَةٌ، وكانوا إذا مَرَّ بهم رجُل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ جَلَسُوا يتناجون بينهم، حتى يَظُنَّ المؤمن أنهم يَتناجون بِقَتْلِه ـ أو: بما يكره المؤمنُ ـ فإذا رأى المؤمن ذلك ـ خشِيَهم، فترك طريقَه عليهم فنهاهُم النبيُّ ـ ﷺ ـ عن النَّجوى، فلم ينتهُوا وعادُوا إلى النَّجوَى، فأنزل الله. ﴿ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يَعُودون لما نُهُوا عنه﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحِزَامِيُّ، حدثني سفيان بن حَمْزَة، عن كثير بن زيد، عن رُبَيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدري، عن أبيه، عن جَدِّه قال: كنا نَتَناوبُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ نَبِيتُ عندَه؛ يَطرُقه من الليل أمر، وتبدُو له حاجةٌ. فلما كانت ذاتُ ليلةٍ كَثُر أهلُ النُّوَب والمحتَسِبُون، حتى كنا أندِيةً نتحدَّث، فخرج علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: ما هذا النجوَى؟ ألم تُنْهَوا عن النجوى؟ قلنا: تُبنا إلى الله يا رسولَ الله، إنا كُنَّا في ذكر المَسِيح؛ فَرَقاً منه. فقال: ألا أُخبِرُكم بما هو أخوفُ عليكم عِنْدِي منه؟ قلنا: بلى يا رسول الله؟ قال. الشركُ الخفي، أن يقومَ الرجلُ يعمَلُ لمكانِ رَجُلٍ[2]. هذا إسناد غريب، وفيه بعض الضعفاء.

وقولُه: ﴿ويَتَناجونَ بالإثم والعدوان ومَعصيةِ الرسُول﴾، أي: يَتحدَّثُون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يَختصُّ بهم، والعُدوانِ، وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه مَعْصِيَةُ الرسولِ ومخالفتُه، يُصِرُّون عليها ويتواصون بها.

وقوله: ﴿وإذا جاءُوكَ حَيَّوكَ بما لم يُحيِّك به الله﴾، قال ابن أبي حاتم:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨/١٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٨/٨٠.

(٣) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ١١٠ من سورة الكهف

حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا ابن نُمير، عن الأعمش[١]، عن مَسْروقٍ، عن عائشة قالت: دَخَل على رسول الله ـ ﷺ ـ يهودٌ فقالوا: السامُ عليكَ يا أبا القسم. فقالت عائشة: وعليكُم السامُ. قالت. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا عائشةُ، إن الله لا يحبُّ الفُحشَ ولا التفحُّشَ»، قلت: ألا تسمَعُهم يقولون: السامُ عليك؟! فقال رسول الله: «أوَ ما سَمِعتِ أقولُ: وعليكم؟». فأنزل الله: ﴿وإذا جاءُوك حَيَّوك بما لم يُحَيِّك به الله﴾.

وفي روايةٍ في الصحيح أنها قالت لهم: عليكُم السامُ والدامُ واللعنةُ، وأن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّه يُستَجابُ لنا فيهم، ولا يُستَجابُ لهم فينا»[٢].

وقال ابنُ جرير: حدثنا بِشْرٌ، حدثنا يزيدُ، حدثنا سعيدٌ، عن قتادةَ، عن أنس بن مالكٍ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ بينما هو جالسٌ مع أصحابه إذ أتى عليهم يهوديٌّ فسَلَّم عليهم، فرَدُّوا عليه، فقال نبيُّ الله ـ ﷺ ـ: هل تدرُون ما قال؟. قالوا: سَلَّم يا رسول الله. قال: بل قال: سَامٌ عليكم. أي: تَسأَمون دينكم. قال رسول الله: رُدُّوه. فرَدُّوه عليه، فقال نَبيُّ الله: أقلتَ: سَامٌ عليكم؟. قال: نعم، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إذا سلَّم عليكُم أحدٌ من أهل الكتاب فقولوا: عليكَ. أي: عليك ما قلتَ[٣].

وأصلُ حديثِ أنسٍ مخرَّجٌ في الصَّحيح، وهذا الحديثُ في الصحيح عن عائشةَ، بنحوه[٣].

وقولُه: ﴿ويقولُون في أنفُسِهم لولا يُعَذِّبنا الله بما نقولُ﴾، أي: يفعلون هذا، ويقولون ما يُحرِّفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شَتْمٌ في الباطن، ومع هذا يقولُون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً لعذَّبنا الله بما نقولُ له في الباطنِ، لأن الله يعلم ما نُسِرُّه، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يُعاجلَنا الله بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حسْبُهم جَهنَّم﴾، أي: جَهنَّم كفايتُهم في الدارِ الآخرة، ﴿يصلَونها فبئسَ المصيرُ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبدُ الصمد، حدثنا حَمَّادٌ، عن عطاءِ بن السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمْرٍو: أن اليهودَ كانُوا يقولُون لرسولِ الله ـ ﷺ ـ: سامٌ عليك، ثم يقولُون في أنفسهم: ﴿لولا يُعذِّبنا الله بما نقولُ﴾، فنزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءُوك حَيَّوك بما لم يُحَيِّك به الله ويقولُون في أنفُسِهم لولا يُعذِّبنا الله بما نقول حَسْبُهم جَهنَّم يصلَونها فبئس المصير﴾. إسنادٌ حَسَنٌ، ولم يُخرجُوه[٤].

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿وإذا جاءُوك حَيَّوك بما لم يُحَيِّك به الله﴾، قال: كان المنافقونَ يقولُون لرسول الله إذا حَيَّوه: سامٌ عليك، قال الله: ﴿حَسبُهم جَهنَّم يصلونها فبئس المصير﴾[٥].

ثم قال الله مُؤدِّباً عباده المؤمنين ألَّا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين. ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتُم فلا تتناجَوا بالإثم والعُدْوان ومعصيةِ الرسُول﴾، أي: كما يتناجى به الجهلةُ من كفرة أهلِ الكتاب ومن مَالأَهم على ضَلالهم من المنافقين، ﴿وتَناجوا بالبِرِّ والتقوى واتقوا الله الذي إليه تُحشَرُون﴾، أي: فيُخبِرُكم بجميع أعمالِكُم وأقوالِكُم التي قد أحصاها عليكُم، وسَيَجْزيكم بها.

---

(١) كذا في النسخ، والحديث أخرجه الإمام أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، بإسنادهم إلى الأعمش، عن مسلم بن صبيح، عن مسروق، به. المسند ٦/٢٢٩، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧٠٦ ـ ١٧٠٧، والنسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٢/٣٢١، وابن ماجه، كتاب الأدب ٢/١٢١٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، فتح الباري ١٠/٤٥٢ وانظره في مسلم في التعليق السابق.

(٣) تفسير الطبري ٢٨/١٥. وانظر فتح الباري، كتاب الاستئذان ١١/٤١ ـ ٤٢، ومسلم فيما تقدّم.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٠.

(٥) تفسير الطبري ٢٨/١٤

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا بَهزٌ وعفَّانُ قالا: أخبرنا هَمَّامٌ، حدثنا قتادةُ، عن صفوان بن مُحرز قال: كنتُ آخذاً بيد ابن عُمر، إذ عَرَض له رجلٌ فقال: كيف سمعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول في النجوى يومَ القيامة؟ قال سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إن الله يُدني المؤمنَ فيَضع عليه كنَفه ويستُره من الناس، ويُقرّره بذُنوبه، ويقول له: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنبَ كذا؟ حتى إذا قرَّره بذُنوبه ورأى في نفسه قد هلك، قال: فإني قد سترتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفرُها لك اليومَ، ثم يُعطَى كتابَ حسناته. وأما الكفارُ والمنافقونَ فيقولُ الأشهادُ: هؤلاء الذينَ كذَبُوا على ربهم، ألا لعنةُ الله على الظالمين»[١]. أخرجاه في الصحيحين، من حديث قتادة[٢].

ثم قال تعالى: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزُنَ الذين آمنوا وليس بضارِّهم شيئاً إلَّا بإذنِ الله وعلى الله فَلْيتوكَّلِ المؤمنُون﴾، أي: إنما النجوى ـ وهي المُسارَّةُ حيث يتوهَّم مؤمنٌ منها سُوءاً ـ ﴿من الشيطان ليحزُنَ الذين آمَنُوا﴾، يعني: إنما يصدُر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه، ﴿ليحزُنَ الذين آمنوا﴾، أي: ليَسُوءَهم، وليس ذلك بضارِّهم شيئاً إلا بإذنِ الله، ومَن أحسَّ من ذلك شيئاً فلْيستعِذْ بالله ولْيتوكَّل على الله؛ فإنه لا يَضُرُّه شيءٌ بإذن الله. وقد وَرَدَت السنةُ بالنهي عن التناجي حيث يكونُ في ذلك تأذٍّ على مؤمنٍ، كما قال الإمامُ أحمدُ:

حدَّثنا وكيعٌ وأبو معاويةَ قالا: حدثنا الأعمشُ، عن أبي وائلٍ، عن عبدِ الله بن مسعودٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجَيَنَّ اثنانِ دونَ صاحبِهما فإن ذلك يحزُنه»[٣]. أخرجاه من حديث الأعمش[٣].

وقال عبد الرزاق، أخبرنا معمرٌ، عن أيوبَ، عن نافعٍ، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجى اثنانِ دونَ الثالثِ إلا بإذنه؛ فإن ذلك يَحزُنُه». انفرد بإخراجه مسلمٌ عن أبي الربيع وأبي كامل، كلاهما عن حمَّاد بن زيد، عن أيوبَ، به[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝﴾.

يقولُ تعالى مُؤدِّباً عبادَه المؤمنين، وآمراً لهم أن يُحسِنَ بعضُهم إلى بعضٍ في المجالس ﴿يا أيها الذين آمنُوا إذا قيل لكم تَفسَّحُوا في المجلِس﴾[٤]، وقُرِىءَ: ﴿في المجالس﴾، ﴿فافسَحُوا يفسَحِ الله لكم﴾، وذلك أن الجزاءَ من جنسِ العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: «مَن بَنى لله مَسجداً بَنى الله له بيتاً في الجنة»[٥] وفي الحديث الآخر: «ومن يَسَّر على مُعسِرٍ يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عَونِ العبد ما كان العبدُ في عون أخيه»[٦] ولهذا أشباهٌ كثيرة، ولهذا قال: ﴿فافسَحُوا يفسَحِ الله لكم﴾.

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨ من سورة هود، وخرجناه هناك.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/٤٣١ ـ ٤٣٢، وقد أخرجه مسلم في كتاب السلام ١٧١٨/٤ وانظر تحفة الأشراف للمزي ٤٠/٧
(٣) مصنف عبد الرزاق ٣٦/١١، ومسلم، كتاب السلام ١٧١٧/٤.
(٤) قرأ عاصم بالجمع، وباقي السبعة بالإفراد. انظر الإقناع لابن الباذش ٧٨٢/٢
(٥) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الصلاة ٥٤٤/١، ومسلم، كتاب المساجد ٣٧٨/١
(٦) أخرجه مسلم في كتاب الذكر ٢٠٧٤/٤.

قال قتادةُ: نزلت هذه الآيةُ في مجالسِ الذكرِ، وذلك أنَّهم كانُوا إذا رَأَوا أحدَهم مُقبلاً ضَنُّوا بمجالسهم عند رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأمرهم الله أن يَفْسَحَ بعضُهم لبعضٍ[(١)].

وقال مُقاتِلُ بن حَيَّان: أنزلت هذه الآيةُ يومَ جُمُعةٍ، وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يومئذٍ في الصُّفَّةِ، وفي المكانِ ضِيقٌ، وكان يُكرِم أهلَ بدرٍ من المهاجرين والأنصار، فجاء أُناسٌ من أهلِ بدرٍ وقد سُبِقوا إلى المجالس، فقامُوا حِيالَ رسول الله ﷺ، فقالوا: السلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه. فردَّ النبي ـ ﷺ ـ عليهم، ثم سَلَّمُوا على القومِ بعدَ ذلك، فَرَدُّوا عليهم، فقامُوا على أرجُلِهم يَنتظِرُون أن يُوسَّع لهم، فعَرَفَ النبيُّ ـ ﷺ ـ ما يحمِلُهم على القِيام، فَلَم يُفسَحِ لهم، فَشَقَّ ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حولَه من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قُم يا فلانُ، وأنتَ يا فلانُ. فلم يَزَل يُقيمهم بِعِدَّةِ النفرِ الذين هم قيامٌ بين يَدَيه من المهاجرين والأنصار أهلِ بَدرٍ، فَشَقَّ ذلك على من أُقِيم من مجلسه، وعَرَف النبيُّ ـ ﷺ ـ الكراهةَ في وجوههم، فقال المنافقُون: ألستُم تزعُمون أنَّ صاحبَكم هذا يَعدِلُ بين الناس؟ والله ما رأيناه قبلُ عَدَلَ على هؤلاء، إنَّ قوماً أخذُوا مجالِسَهم وأحبُّوا القُربَ لنبيهم، فأقامَهُم وأجلسَ من أبطأ عنه! فَبلَغَنا أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: رَحِم الله رجلاً فَسَحَ لأخيه. فجعلُوا يقومُون بعد ذلك سِراعاً، فَتَفَسَّحَ القومُ لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة. رواه ابن أبي حاتم[(٢)].

وقد قال الإمامُ أحمد، والشافعيُّ: حدثنا سفيان[(٣)]، عن أيُّوبَ، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يُقِيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فَيجلِسَ فيه، ولكن تَفَسَّحُوا وتَوسَّعُوا». وأخرجاه في الصحيحين من حديث نافع[(٣)]، به.

وقال الشافعيُّ: أخبرنا عبدُ المجيد، عن ابن جُرَيجٍ قال: قال سُلَيمان بن مُوسَى، عن جابر بن عبدِ الله أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يُقِيمَنَّ أحدُكم أخاه يوم الجُمُعةِ، ولكن ليقل افسَحُوا»[(٤)]. على شرط السنن ولم يُخرجُوه

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الملكِ بن عَمرو، حدثنا فُلَيح، عن أيُّوبَ بن عبد الرحمن بن صعصَعَةَ، عن يعقُوبَ بن أبي يعقُوبَ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: لا يُقِم الرجلُ الرجلَ من مجلِسِه ثم يَجلِسُ فيه، ولكن افسَحُوا يَفْسَحِ الله لكم[(٥)].

ورواه أيضاً عن سُرَيج بن يُونُس ويونُس بن محمد المؤدب، عن فُلَيحٍ، به. ولفظه: «لا يقوم الرجل للرجل من مجلسه، ولكن افسَحُوا يَفْسَحِ الله لكم». تفرَّد به أحمدُ[(٥)].

وقد اختلف الفقهاءُ في جَوازِ القيامِ للواردِ إذا جاء على أقوال: فمنهم من رَخَّصَ في ذلك محتجاً

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨/١٧.

(٢) الدر المنثور ٨/٨١.

(٣) لم يقع لنا الحديث في المسند من هذه الطريق، وانظر المسند ٢/١٧، ٢٢، ٤٥، ٨٩، ١٠٢، ١٢١، ١٢٤، ١٢٦، ١٤٩ وهو في ترتيب مسند الشافعي ٢/١٨٦، عن سفيان، عن عُبَيد الله بن عُمر، عن نافع. وانظر الأمّ ١/١٨١، ٦/١٠٣. وفتح الباري، كتاب الجمعة ٢/٣٩٣، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧١٤

(٤) ترتيب مسند الشافعي ٢/١٨٧.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢/٣٣٨، ٤٨٣، ٥٢٣.

بحديث: «قوموا إلى سيِّدكم»[١]. ومِنهم من مَنع من ذلك محتجاً بحديث: «مَن أحبَّ أن يَتمثَّل له الرجالُ قياماً فليتبوَّأ مقعدَه من النار»[٢]. ومِنْهم مَن فصَّل فقال: يجوزُ عند القُدوم من سفرٍ، وللحاكِم في محلِّ ولايته، كما دلَّ عليه قصة سَعدِ بن مُعاذٍ، فإنه لما استقدمه النبيُّ ـ ﷺ ـ حاكماً في بني قُريظة فرآه مُقبلاً قال للمسلمين «قوموا إلى سَيِّدكم»[٣]. وما ذاك إلا لِيَكونَ أنفذَ لحُكمِه، والله أعلم. فأما اتخاذه دَيدَناً فإنه من شعار العَجَم. وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم من رسول الله ـ ﷺ ـ وكان إذا جاء لا يقومُون له، لما يعلمونَ من كراهَتِهِ لذلكَ.

وفي الحديث المرويِّ في السُّنن: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يجلس حيث انتهى به المجلسُ، ولكن حيث يجلسُ يكونُ صدرُ ذلك المجلس، وكان الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ يجلسُون منه على مَراتبهم، فالصِّدِّيق يُجْلسُه عن يمينه، وعُمَر عن يَساره، وبين يَدَيه غالباً عثمانُ وعليٌّ، لأنهما كانا ممن يكتُبُ الوحيَ، وكان يأمرهُم بذلك، كما رَوَاه مسلم من حديثِ الأعمش، عن عُمارة بن عُمَير، عن أبي مَعْمَرٍ، عن أبي مسعودٍ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «لِيَلِيَني منكم أولُوا الأحلام والنُّهَى، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم»[٣]. وما ذاك إلا لِيعقِلُوا عنه ما يقوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ ولهذا أَمَر أولئك النفرَ بالقيام ليجلس الذين وَرَدُوا من أهل بَدْرٍ، إمّا لتقصير أولئك في حَقِّ البدريين، أو ليأخذَ البدريُّون من العلم بنصيبهم، كما أخذ أولئك قبلَهم، أو تعليماً بتقديم الأفاضلِ إلى الأمام.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، عن الأعمش، عن عُمارة بن عُمَير التيمي، عن أبي مَعْمَر، عن أبي مسعودٍ قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يمسَحُ مناكبَنا في الصلاة ويقول: «استَوُوا ولا تَختلِفُوا فتختلفَ قلوبكم، لِيَلِيني منكم أولُوا الأحلامِ والنُّهَى، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم». قال أبو مسعود: فأنتمُ اليومَ أشدُّ اختلافاً[٤].

وكذا رواه مسلم وأهلُ السُّنَنِ، إلا التِّرمذي، من طُرُقٍ عن الأعمش، به[٤].

وإذا كان هذا أمرَه لهم في الصلاة أن يَلِيه العُقَلاء ثم العُلَماء، فبطريق الأولى أن يكُون ذلك في غير الصلاة.

وَرَوَى أبو داود من حديث معاويةَ بن صالحٍ، عن أبي الزاهريَّة، عن كثير بن مُرَّةَ عن عبد الله بن عُمَر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أقيمُوا الصُّفوف، وحاذوا بين المناكب، وسُدُّوا الخَلَل، ولِينُوا بأيدي إخوانكم، ولا تَذَروا فُرُجَاتٍ الشيطان، ومَن وصل صَفًّا وَصَله الله، ومن قَطَع صَفًّا قَطَعه الله»[٥].

ولهذا كان أُبَيُّ بنُ كَعب سيدُ القُرّاء إذا انتهى إلى الصفِّ الأولِ انتزع منه رجلاً يكونُ من أفناء[٦] الناس،

---

(١) تقدم من حديث طويل عند تفسير الآية ٢٧ من سورة الأعراف، وخرجناه هنالك. وقد أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ٤/٣٥٥

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي في كتاب الأدب، سنن أبي داود ٤/٣٥٨، وعارضة الأحوذي ١٠/٢١٣ ـ ٢١٤ ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن عمرو بن مرة، انظر المجمع ٨/٤٠.

(٣) مسلم، كتاب الصلاة ١/٣٢٣

(٤) مسند أحمد ٤/١٢٢، وحديث مسلم تقدم تخريجُه، وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه في كتب الصلاة، سنن أبي داود ١/١٨٠، والنسائي ٢/٨٧ ـ ٨٨، وابن ماجه ١/٢١٣.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٧٨ ـ ١٧٩.

(٦) الأفناء من الناس: الأخلاط، لا يُدرى من أيَّة قبيلة هم. والمراد رجلاً من العامة

ويدخل هو في الصفِّ المقدَّم، ويحتج بهذا الحديث: «لِيَلِيني منكم أولوا الأحلام والنُّهى» وأما عبدُ الله بن عُمَر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبُه عنه، عملاً بمقتضى ما تقدَّم من روايته الحديثَ الذي أوردناه. ولْنقتصِرْ على هذا المقدار من الأنموذجِ المتعلِّق بهذه الآية، وإلا فبَسْطُه يحتاجُ إلى غير هذا الموضع. وفي الحديث الصحيح: «بينا رسول الله ـ ﷺ ـ جالسٌ، إذ أقبل ثلاثةُ نفرٍ، فأما أحدُهم فوجد فُرجَةً في الحَلْقةِ فدخل فيها، وأما الآخرُ فجلس وراء الناس، وأدبرَ الثالث ذاهباً. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ألا أُنبِّئكم بخبرِ الثلاثة؟ أما الأولُ. فآوى إلى اللهِ فآواه اللهُ، وأما الثاني. فاستحيا فاستحيا اللهُ منهُ، وأما الثالثُ: فأعرضَ فأعرضَ اللهُ عنه»[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَتَّابُ بن زياد، أخبرنا عبد الله، أخبرنا أُسامةُ بن زيد، عن عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمْرو أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يحلُّ لرجلٍ أن يُفرِّق بين اثنينِ إلا بإذنهما»[2].

ورواه أبو داودَ والترمذيُّ، من حديث أُسامةَ بن زيدٍ الليثيِّ، به. وحسَّنه الترمذيُّ[3].

وقد رُوي عن ابن عباس، والحسن البصريِّ وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجلس فافسحوا﴾، يعني: في مجالسِ الحربِ.

قالوا: ومعنى قوله: ﴿وإذا قيل انشزُوا فانشزُوا﴾، أي: انهضُوا للقتال. وقال قتادة: ﴿وإذا قيل انشزُوا فانشزُوا﴾، أي: إذا دُعيتم إلى خير فأجيبُوا. وقال مقاتل: إذا دُعيتم إلى الصلاةِ فارتفعُوا إليها.

وقال عبدُ الرحمن بنُ زيد بن أسلمَ: كانوا إذا كانوا عند النبيِّ ـ ﷺ ـ في بيته فأرادُوا الانصراف، أحبَّ كلٌّ منهم أن يكون هو آخرَهم خروجاً من عندِه، فرُبَّما يَشُقُّ ذلك عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد تكون له الحاجةُ، فأُمِرُوا أنهم إذا أُمروا بالانصراف أن ينصرِفوا، كقوله: ﴿وإن قيل لكم ارجعُوا فارجعُوا﴾.

وقوله: ﴿يرفَعِ اللهُ الذين آمنُوا منكم والذين أُوتُوا العلمَ درجاتٍ والله بما تعملُون خبيرٌ﴾، أي: لا تعتقدُوا أنه إذا فَسَحَ أحدٌ منكم لأخيه إذا أقبل، أو إذا أُمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصاً في حَقِّه، بل هو رفعةٌ ومَزِيَّةٌ عند الله، والله تعالى لا يُضيع ذلك له، بل يَجْزيه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضعَ لأمرِ الله رفعَ الله قدره، ونَشَر ذِكْرَهُ. ولهذا قال: ﴿يرفَعِ الله الذين آمنُوا منكم والذين أُوتُوا العلم درجاتٍ والله بما تعملون خبيرٌ﴾، أي: خبيرٌ بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحِقُّه.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيمُ، حدثنا ابنُ شهاب، عن أبي الطُّفَيل عامر بن واثلة؛ أن نافع بن عبدِ الحارثِ لقي عُمَر بن الخطاب بعُسفَانَ، وكان عُمر استعمَلَه على مكة، فقال له عمر: مَن استخلفت على أهلِ الوادي؟ قال: استخلفتُ عليهم ابن أَبْزَى قال: [وما ابن أبزَى؟ فقال]: رجلٌ من موالينا. فقال عمر: استخلفتَ عليهم مولىً؟! فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنه قارىءٌ لكتاب الله، عالمٌ بالفرائض، قاضٍ، فقال عُمَر ـ رضي الله عنه ـ: أما إنَّ نبيَّكم ـ ﷺ ـ قد قال: «إنَّ الله يرفَعُ بهذا الكتابِ قوماً ويضَعُ به آخرين»[3].

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب العلم ١/١٥٦، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧١٣.
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٢١٣، أخرجه أبو داود والترمذي في كتاب الأدب، سنن أبي داود ٤/٢٦٢، وعارضة الأحوذي ١٠/٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) مسند الإمام أحمد ١/٣٥، وما بين القوسين منه، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٥٥٨.

وهكذا رواه مسلم من غير وجهٍ، عن الزُّهريِّ، به. ورُوي من غير وجه عن عُمر نحوه. وقد ذكرتُ فضل العلمِ وأهلِهِ وما ورد في ذلك من الأحاديث مستقصاةً في شرح «كتاب العلم» من صحيح البُخاري، ولله الحمدُ والمنةُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

يقولُ تعالى آمراً عبادَه المؤمنين إذا أراد أحدُهم أن يُناجيَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أي: يُسارُّه فيما بينه وبينه، أن يُقدِّم بين يدي ذلك صدقةً تُطهِّره وتُزكِّيه وتؤهِّله لأن يصلح لهذا المقام، ولهذا قال: ﴿ذلك خيرٌ لكُم وأطهرُ﴾.

ثم قال: ﴿فإن لم تَجِدُوا﴾، أي: إلا من عَجَز عن ذلك لفقره ﴿فإن الله غفورٌ رحيمٌ﴾، فما أمر بها إلا من قدر عليها.

ثم قال: ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صَدَقاتٍ﴾، أي: أخفتُم من استمرارِ هذا الحُكم عليكُم من وجوب الصدقة قبل مُناجاة الرسول، ﴿فإذ لم تفعلُوا وتابَ الله عليكُم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعُوا الله ورسولَه والله خبير بما تعملون﴾، فنسخ وجوب ذلك عنهم.

وقد قيل: إنه لم يَعْمل بهذه الآية قبل نَسْخها سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال ابنُ أبي نَجيحٍ، عن مُجاهدٍ قال: نُهوا عن مناجاةِ النبيِّ ـ ﷺ ـ حتى يتصدَّقوا، فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب، قدَّم ديناراً صدقةً تصدَّق به، ثم ناجى النبيَّ ـ ﷺ ـ فسأله عن عشر خِصالٍ، ثم أنزلت الرخصة(١).

وقال لَيثُ بن أبي سُلَيم، عن مجاهد قال علي ـ رضي الله عنه ـ: آيةٌ في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يَعْمل بها أحدٌ قبلي، ولا يعمل بها أحدٌ بعدي، كان عندي دينار فصَرفتُه بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ تصدَّقت بدرهم، فنُسخت ولم يعمل بها أحدٌ قبلي، ولا يعملُ بها أحدٌ بعدي، ثم تلا هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتُم الرسولَ فقدِّموا بين يَدَيْ نجواكم صَدقةً﴾... الآية(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا مِهران، عن سُفيانَ، عن عُثمانَ بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجَعدِ، عن علي بن علقمة الأنماريِّ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: ما ترى؟ دينار؟ قال: لا يُطيقون. قال: فنصفُ دينار؟ قال: لا يُطيقون. قال: ما ترَى؟ قال: شَعيرة. فقال له النبي ـ ﷺ ـ: إنك زَهيد. قال: قال علي: فبِيَ خَفَّفَ الله عن هذه الأمة، وقولُه: ﴿إذا ناجيتم الرسول فقدِّموا بين يَدَي نجواكم صدقةً﴾، فنزلت: ﴿أأشفقتُم أن تُقدِّموا بين يَدَي نجواكُم صدقاتٍ﴾(١).

ورواه الترمذي عن سفيان بن وكيع، عن يحيى بن آدم، عن عُبَيد الله الأشجعيِّ، عن سُفيانَ الثَّوريِّ، عن عثمان بن المُغيرة الثقفي، عن سالم بن أبي الجعد، عن علي بن علقمة الأنماري، عن علي بن أبي طالب

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨/١٩ ـ ٢٠.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/٢١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المجادلة ٨/١٨٦ ـ ١٨٧، ومسند أبي يعلى ١/٢٢٢

قال: لما نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتُم الرسولَ فقدِّموا بين يَدَي نجواكم صدقةً﴾، قال لي النبي ـ ﷺ ـ: ما ترى؟ دينارٌ؟ قلت: لا يُطيقونه. وذكره بتمامه، مثله، ثم قال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، إنما نعرفه من هذا الوجه». ثم قال: «ومعنى قوله «شَعِيرة»: يعني وزن شَعِيرة من ذهبٍ»[1].

ورواه أبو يعلى، عن أبي بكر بن أبي شيبةَ، عن يحيى بن آدمَ، به[1].

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتُم الرسولَ فقدِّموا بين يَدَي نجواكُم صدقةً﴾، إلى: ﴿فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾: كان المسلمون يُقدِّمون بين يَدَي النجوى صدقةً، فلما نزلت الزكاةُ نُسِخ هذا.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس قوله: ﴿فَقَدِّموا بين يَدَي نجواكُم صدقةً﴾، وذلك أن المسلمين أكثَرُوا المسائلَ على رسول الله ـ ﷺ ـ حتى شقُّوا عليه، فأراد الله أن يُخفِّفَ عن نَبيِّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلما قال ذلك ضَنَّ كثير من الناس وكفُّوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿أأشفقتم أن تُقدِّموا بين يدي نجواكم صدقةٍ فإذْ لم تفعلُوا وتاب الله عليكم فأقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ﴾، فوَسَّع الله عليهم ولم يُضيِّق.

وقال عِكْرمةُ والحسنُ البصريُّ في قوله: ﴿فقدِّموا بين يَدَي نجواكُم صدقةً﴾: نسختها الآيةُ التي بعدها: ﴿أأشفقتُم أن تُقَدِّموا بين يَدَي نجواكم صدقةٍ﴾ إلى آخرها.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ ومقاتل بن حَيَّانَ: سأل الناسُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ حتى أحفَوه[2] بالمسألة، فَفَطَمهم[3] الله بهذه الآية، فكان الرجلُ منهم إذا كانت له الحاجةُ إلى نَبيِّ الله ـ ﷺ ـ فلا يستطيعُ أن يَقضيها حتى يُقدِّم بين يَدَيه صدقةً، فاشتدَّ ذلك عليهم، فأنزل الله الرُّخصةَ بعد ذلك ﴿فإن لم تَجِدُوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ﴾.

وقال مَعمرٌ، عن قتادةَ: ﴿إذا ناجيتُم الرسولَ فقدِّموا بين يَدَي نجواكم صدقةً﴾: إنها منسوخةٌ، ما كانت إلا ساعةً من نهار. وهكذا رَوى عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوبَ، عن مجاهد قال عليٌّ: ما عَمِل بها أحدٌ غيري حتى نُسِخَت، وأحسَبه قال: وما كانت إلا ساعة.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/٢١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المجادلة ٨/١٨٦ ـ ١٨٧، ومسند أبي يعلى ١/٢٢٣

(٢) أي: ألحُّوا عليه وجَهَدُوه.

(٣) أي: قطعهم عما اعتادوه

يقولُ تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفارَ في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿مُذَبذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يُضلل اللهُ فلن تجد له سبيلاً﴾. وقال هاهنا: ﴿ألم تَرَ إلى الذين تولَّوا قوماً غضب الله عليهم﴾، يعني اليهود، الذين كان المنافقون يمالئُونهم ويُوالونهم في الباطن. ثم قال: ﴿ما هم منكُم ولا منهُم﴾، أي: هؤلاء المنافقون، ليسوا في الحقيقة لا منكُم أيها المؤمنون، ولا من الذين تَوَلَّوهم وهم اليهود.

ثم قال: ﴿وَيحلِفُون على الكَذِب وهم يعلمون﴾، يعني: المنافقين يحلِفُون على الكذب وهم عالمُون بأنهم كاذبُون فيما حلفوا، وهي اليمينُ الغَمُوس، ولا سيَّما في مثل حالهم اللعين، عياذاً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لَقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا جاءوا الرسولَ حلفُوا بالله له إنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمُون أنهم يَكذِبون فيما حَلفُوا به، لأنهم لا يَعتقِدُون صِدْقَ ما قالُوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً. ولهذا شهد الله بِكَذبهم في إيمانهم وشَهَادتهم لذلك.

ثم قال: ﴿أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملُون﴾، أي: أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذابَ الأليمَ على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونُصحِهم، ومُعاداة المؤمنين وغشِّهم. ولهذا قال تعالى: ﴿اتخذُوا أيمانهم جُنَّةً فصَدُّوا عن سبيل الله﴾، أي: أظهروا الإيمان وأبطنُوا الكفر، واتقَوا بالأيمان الكاذبة، فَظَنَّ كثيرٌ ممن لا يعرف حقيقةَ أمرهم صدقَهم فاغترَّ بهم، فحصَل بهذا صَدٌّ عن سبيل الله لبعض الناس، ﴿فلهم عذابٌ مهينٌ﴾، أي: في مقابلة ما امتهنُوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة.

ثم قال: ﴿لن تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله شيئاً﴾، أي: لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم. ﴿أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدُون﴾.

ثم قال: ﴿يومَ يبعثُهم الله جميعاً﴾، أي: يحشُرهم يومَ القيامة عن آخرهم فلا يُغادر منهم أحداً. ﴿فيحلِفُون له كما يَحلِفُون لكم ويحسَبُون أنَّهم على شيءٍ﴾، أي: يَحلِفُون بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنهم كانوا على الهُدى والاستقامةِ، كما كانوا يَحلِفُون للناس في الدنيا، لأنَّ من عاش على شيءٍ مات عليه وبُعث عليه، وَيعتقِدُون أن ذلك ينفَعهُم عند الله كما كان ينفَعهُم عند الناس، فيُجرون عليهم الأحكامَ الظاهرة، ولهذا قال: ﴿ويحسَبُون أنهُم على شيءٍ﴾، أي: حَلِفِهم ذلك لربِّهم عزَّ وجلَّ.

ثم قال مُنكِراً عليهم حُسبانَهم: ﴿ألا إنهُم هم الكاذِبُون﴾، فأكَّد الخبرَ عنهم بالكذب.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا زُهَير، عن سِمَاكِ بن حَربٍ، حدثني سَعيد بن جُبَير: أنَّ ابن عباسٍ حَدَّثه: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ كان في ظل حُجرةٍ من حُجره، وعنده نفرٌ من المسلمين قد كاد يَقلِصُ[1] عنهم الظل، قال: إنه سيأتيكم إنسانٌ ينظُر بعينَي شيطانٍ، فإذا أتاكم فلا تُكلِّموه. فجاء رجلٌ أزرقُ، فدعاه رسول الله ـ ﷺ ـ فكلَّمه، فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان؟ ـ نفرٌ دَعاهم بأسمائهم ـ. قال: فانطلق الرجلُ فَدَعاهم، فَحَلفُوا له واعتذرُوا إليه، قال: فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿فيحلِفُون له كما يحلِفُون لكم ويحسَبُون أنهم على شيءٍ ألا إنهم هم الكاذِبُون﴾.

---

(١) أي: يتقبض وينتقص.

وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ من طريقين، عن سِمَاكٍ[1] به: ورواه ابنُ جرير، عن محمد بن المثنّى، عن غُنْدَر، عن شُعْبَة، عن سِمَاكٍ به نحوه، وأخرجه أيضاً من حديثِ سفيان الثوريِّ، عن سِمَاكٍ، بنحوه[1] إسنادٌ جيدٌ ولم يُخرجُوه

وحالُ هؤلاء كما أخبرَ تعالى عن المُشركِينَ حيث يقول: ﴿ثُمَّ لم تكُن فتنتُهم إلا أن قالوا واللهِ ربِّنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذَبُوا على أنفسِهم وضَلَّ عنهم ماكانوا يفترون﴾ ثم قال. ﴿استحوذَ عليهم الشيطانُ فأنساهم ذِكْرَ الله﴾، أي استحوذَ على قُلوبهم الشيطانُ حتى أنساهم أن يذكُروا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكذلك يصنَعُ بمن استحوَذَ عليه. ولهذا قال أبو داود:

حدثنا أحمدُ بن يونُس، حدثنا زائدةُ، حدثنا السائب بنُ حُبَيْش، عن معدانَ بن أبي طلحةَ اليَعْمُري، عن أبي الدرداء. سَمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «ما من ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدْوٍ، لا تُقامُ فيهم الصلاةُ إلا قد استحوذَ عليهم الشيطانُ، فعليكَ بالجماعةِ فإنما يأكلُ الذئبُ من الغنم القاصية». قال زائدةُ. قال السائبُ. يعني الصلاةَ في الجماعة[2].

ثم قال تعالى: ﴿أولئك حزبُ الشيطانِ﴾، يعني الذين استحوذَ عليهم الشيطانُ فأنساهُم ذكرَ الله، ثم قال. ﴿ألا إنَّ حِزْبَ الشيطانِ هم الخاسِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

يقولُ تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادِّين لله ورسوله، يعني: الذين هُم في حَدٍّ والشرعُ في حَدٍّ، أي: مُجانبُون للحقِّ مُشاقُّون له، هم في ناحيةٍ والهُدَى في ناحيةٍ، ﴿أولئك في الأذلِّين﴾، أي: في الأشقياءِ المُبعَدين المطرُودين عن الصواب، الأذلِّين في الدُّنيا والآخرة

﴿كتَبَ الله لأغلبنَّ أنا ورُسُلي﴾، أي: قد حَكم وكَتَب في كتابه الأول وقدَره الذي لا يُخالَفُ ولا يمانَعُ ولا يُبدَّلُ، بأنَّ النُّصرة له ولكتابه ورُسُله وعباده المؤمنين في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ العاقبة للمتَّقين، كما قال تعالى: ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلنا والذين آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ * يوم لا ينفعُ الظالمين مَعْذِرتُهم ولهم اللعنة ولهم سوءُ الدار﴾. وقال ها هنا: ﴿كتَبَ الله لأغلبنَّ أنا ورُسُلي إنّ الله قويٌّ عزيزٌ﴾، أي. كَتَبَ القويُّ العزيزُ أنه الغالبُ لأعدائه. وهذا قدَرٌ مُحكَمٌ وأمر مُبرَمٌ، أنَّ العاقبةَ والنُّصرةَ للمؤمنين في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٢٤٠، ٢٦٧، ٣٥٠، وتفسير الطبري ٢٨/٢٣، ٢٥.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٥٠.

ثم قال تعالى: ﴿لا تجدُ قوماً يُؤمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّونَ من حادَّ اللهَ ورسولَه ولو كانُوا آباءَهُم أو أبناءَهُم أو إخوانَهُم أو عَشِيرتَهُم﴾، أي: لا يُوادُّون المحادِّين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لا يتَّخذِ المؤمِنُونَ الكافرينَ أولياءَ من دُونِ المؤمنينَ ومَن يفعلْ ذلكَ فليسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ إلا أن تتَّقُوا منهم تُقاةً ويُحَذِّرُكم اللهُ نفسَه﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿قُلْ إن كانَ آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتُموها وتجارةٌ تخشَوْنَ كسادَها ومساكنُ ترضَوْنَها أحبَّ إليكُم مِنَ اللهِ ورسُولِه وجهادٍ في سبيلِه فتربَّصُوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِه واللهُ لا يهدِي القومَ الفاسِقِينَ﴾.

وقد قال سعيدُ بن عبد العزيز وغيرُه: أُنزلت هذه الآية: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنُون بالله واليوم الآخر﴾ .. إلى آخرها، في أبي عُبيدة عامر بن عبد الله بن الجَرَّاح، حين قَتَل أباه يومَ بدر. ولهذا قال عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين جَعَل الأمر شُورى بعده في أولئك الستَّة ـ رضي الله عنهم ـ: «ولو كان أبو عُبيدة حيًّا لاستخلفته»[1].

وقيل في قوله: ﴿ولو كانوا آباءَهُم﴾: نَزَلت في أبي عُبَيدة، قَتَل أباه يومَ بدر. ﴿أو أبناءهم﴾: في الصدِّيق، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن. ﴿أو إخوانهم﴾: في مُصعَب بن عمير، قتل أخاه عُبيد بن عُمير يومئذ. ﴿أو عشيرتهم﴾: في عُمَر، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعليٍّ وعُبَيدة بن الحارث، قتلوا عُتبة وشَيبة والوليد بن عتبة يومئذٍ[2]، والله أعلم.

قلتُ: وَمِن هذا القبيل حين استشار رسولُ الله ـ ﷺ ـ المسلمين في أُسارى بدر، فأشار الصدِّيقُ بأن يُفادَوا، فيكون ما يُؤخَذُ منهم قوة للمسلمين، وهم بنُو العمِّ والعشيرة، ولعلَّ الله أن يهديَهم. وقال عُمَر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، بل[3] تُمَكِّنِّي من فلان ـ قريبٍ لعُمَر ـ فأقتلُه، وتُمَكِّن عليًا من عَقِيل، وتُمكِّنُ فلاناً من فلانٍ، ليعلَمَ اللهُ أنه ليست في قُلُوبنا موادَّةٌ للمشركين... القصة بكاملها.

وقولُه: ﴿أولئك كَتَبَ في قُلُوبِهم الإيمانَ وأيَّدهم بِرُوحٍ منه﴾ أي: من اتَّصف بأنه لا يُوادُّ من حادَّ اللهَ ورسولَه ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كَتَبَ الله في قلبِه الإيمانَ، أي: كَتَبَ له السعادةَ وقرَّرها في قلبه وزيَّن الإيمانَ في بصيرته.

قال السدي: ﴿كَتَبَ في قلوبهم الإيمانَ﴾: جَعَلَ في قلوبهم الإيمان، وقال ابن عباس: ﴿وأيَّدهم بروحٍ منه﴾، أي: قوَّاهم.

وقولُه: ﴿ويُدخِلُهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها رَضِيَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة.

وفي قوله ﴿رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه﴾. سرٌّ بديعٌ، وهو أنه لما سَخِطُوا على القَرائب والعشائر في الله عَوَّضَهُم الله بالرضا عنهُم، وأرضاهم عنه بما أعطاهُم من النعيم المُقِيم، والفوزِ العظيمِ، والفضلِ العميم.

وقولُه: ﴿أولئكَ حِزْبُ اللهِ ألا إنَّ حزبَ الله هم المفلحونَ﴾، أي: هؤلاء حزبُ الله، أي: عبادُ الله وأهلُ كرامته.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ٢٦٨/٢، وانظر طبقات ابن سعد ٤٠٠/١/٣، وأسد الغابة ١٢٨/٣
(٢) ذكر هذا الأثر البغويُّ في تفسيره ٣١٢/٤ عن مقاتل، عن عمرو بن مُرَّة، عن عبد الله بن مسعود
(٣) في بعض النسخ: هل تمكنني.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المفلحُون﴾: تنويهٌ بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم في الدُّنيا والآخرة، في مُقابلَةِ ما أخبرَ عن أولئك بأنهم حِزْبُ الشيطان. ثم قال: ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشيطانِ هُمُ الخاسِرُونَ﴾.

وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدّثنا هارونُ بن حُمَيد الواسِطيُّ، حدثنا الفضل بن عُيَيْنة، عن رجل قد سَمَّاه ـ فقال: هو عبد الحميد بن سليمان، انقطع من كتابي ـ عن الذّيال[1] بن عَبَّاد قال: كتب أبو حازم الأعرج إلى الزُّهريِّ: اعلَمْ أنَّ الجاه جاهان، جاه يُجريه الله على أيدي أوليائه لأوليائِه، وإنهم الخامِلُ ذكرُهم، الخفيةُ شخوصُهم، ولقد جاءت صفتُهم على لسان رسول الله ـ ﷺ ـ وإن الله يحبُّ الأخفِياءَ الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابُوا لم يُفتَقدوا، وإذا حضروا لم يُدْعَوا، قلوبُهم مصابيحُ الهُدَى، يخرجُون من كل فتنةٍ سوداء مُظلِمةٍ»[2]. فهؤلاء أولياءُ الله الذين قال الله: ﴿أولئك حزبُ الله ألا إن حزبَ الله هُم المفلِحُونَ﴾.

وقال نُعَيم بن حَمَّاد: حدثنا محمد بن ثَور، عن يُونُس، عن الحَسَن قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «اللهُمَّ، لا تجعَلْ لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمةً، فإني وَجَدتُ فيما أوحيتَه إلي: ﴿لا تَجِدُ قوماً يُؤمِنُون بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ من حادَّ الله ورسولَه﴾[3]».

قال سفيانُ: يَرَون أنها نَزَلت فيمَن يخالِطُ السُّلطان[3]. رواه أبو أحمد العَسْكَرِي[4].

آخرُ تفسير سُورَة المجادلَةِ ولله الحمدُ والمنة

---

(١) في النسخ: الديال. وقد اعتمدنا فيما أثبتناه على المؤتلف والمختلف للدارقطني ٢/ ٩٧١

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢/ ١٣٢٠ ـ ١٣٢١. والأخفياء: جمعُ خَفِيٍّ، وهو المعتزل من الناس يخفى عليهم مكانه. ولم يُفتَقدوا: لم يلتفت أحد إلى معرفة حالهم.

(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٨.

(٤) هو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، أحد أئمة الأدب، وصاحب الأخبار والنوادر. توفي في سنة ٣٨٧. انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣

تفسير

سُورَةُ الحَشْرِ

وهي مَدَنِيَّةٌ

قال سعيدُ بن منصور: حدثنا هُشَيم، عن أبي بِشْرٍ، عن سعيد بن جُبَير قال: قلتُ لابن عباس: سورةُ الحشر؟ قال: أُنزِلَت في بني النَّضير.

وَرَواه البخاريُّ ومسلم من وجه آخرَ، عن هُشَيم، به. وَرَواه البخاريُّ من حديث أبي عَوانة، عن أبي بشرٍ، عن سعيد بن جُبَير قال: قلت لابن عباسٍ: سورةُ الحَشْرِ؟ قال: [قل] سُورةُ [بني] النَّضِير[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ
عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾.

يُخبر تعالى أنَّ جميعَ ما في السموات وما في الأرض من شيءٍ يُسبِّح له ويُمَجِّده ويُقدِّسه، ويُصلِّي له ويُوحِّدُه، كقوله: ﴿تسبح له السمواتُ السبعُ والأرض ومَن فيهنَّ وإن من شيء إلا يسبِّح بحمدِه﴾. وقوله: ﴿وهو العزيزُ﴾، أي: مَنِيعُ الجنابِ، ﴿الحكيمُ﴾ في قَدَره وشرعه.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الحشر ٨/٦٢٨ ـ ٦٢٩، ومسلم، كتاب التفسير ٤/٢٣٢٢.

وقولُه: ﴿هو الذي أخرجَ الذين كفرُوا من أهل الكتاب﴾، يعني يهودَ بني النَّضير. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ والزُّهريُّ، وغيرُ واحد. كان رسول الله - ﷺ - لما قَدِم المدينة هادنهم وأعطاهُم عهداً وذمَّةً على ألاَّ يُقاتِلَهم ولا يُقاتلُوه، فنَقضُوا العهدَ الذي كان بينهُم وبينه، فأحلَّ الله بهم بأسَه الذي لا يُرَدُّ، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يُصَدُّ، فأجلاهم - النبيُّ - ﷺ - وأخرجهُم من حُصُونهم الحَصِينة التي ما طَمِع فيها المسلمون، وظنُّوا هم أنها مانعتُهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءَهُم ما لم يكُن ببالهم، وسيّرهم رسولُ الله وأجلاهُم من المدينة، فكان منهم طائفةٌ ذهبُوا إلى أذْرِعاتٍ من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفةٌ ذهبُوا إلى خَيبَر. وكان قد أنزلَهم منها على أنَّ لهم ما حملت إبلُهم، فكانوا يُخرِبُون ما في بيوتهم من المنقُولات التي يمكنُ أن تُحمَلَ معهم، ولهذا قال: ﴿يُخربون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبِرُوا يا أولي الأبصار﴾، أي: تفكرُوا في عاقبة من خالَف أمرَ الله، وخالَف رَسُوله، وكَذَّب كتابه، كيف يُحِلُّ به من بأسِه المخزِي له في الدُّنيا، مع ما يَدَّخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

قال أبو داودَ: حدثنا مُحمَّد بن داود بن سُفيان، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعمَر، عن الزُّهريِّ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رَجُلٍ من أصحاب النبي - ﷺ - أنَّ كفارَ قُرَيشٍ كتبُوا إلى ابن أُبَيٍّ ومَن كان معه يعبدُ الأوثانَ من الأوس والخزرج، ورسولُ الله - ﷺ - يومئذٍ بالمدينة قبل وَقعة بدرٍ: إنكم آويتم صاحبَنا، وإنا نُقسِمُ بالله لَتُقاتِلُنَّه(١)، أو لَتُخرِجُنَّه، أو لَنَسِيرَنَّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتلَ مُقاتِلَتكُم ونستبيحَ نساءَكُم. فلما بَلَغ ذلك عبدَ الله بن أُبَيٍّ ومَن كانَ معه من عَبَدةِ الأوثانِ، اجتمعُوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبيَّ - ﷺ - لَقِيَهم فقال: «لقد بلَغ وعيدُ قُرَيشٍ منكم المَبالغَ، ما كانت تَكيدُكم بأكثر مما تُريدُون أن تَكيدُوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟!». فلما سمعُوا ذلك من النبي - ﷺ - تفرَّقوا، فبلغ ذلك كفارَ قُرَيش، فكتبت كُفَّار قُرَيشٍ بعد وقعة بَدْرٍ إلى اليهود: إنكم أهل الحَلْقَةِ(٢) والحُصُون، وإنكم لَتُقاتِلُنَّ صاحبنا(٣) أو لَنفعلنَّ كذا وكذا، ولا يَحُول بيننا وبين خَدَم نسائكم شيءٌ - وهي الخَلاخيلُ - فلما بلَغ كتابُهم النبيَّ - ﷺ - أَجْمَعَت(٤) بنو النَّضير بالغَدْر، فأرسلُوا إلى النبي - ﷺ -: اخرُج إلينا في ثلاثين رَجُلاً من أصحابك وليَخرُج منا ثلاثون حَبراً، حتى نلتقي بمكان المَنْصَف(٥) فيسمعُوا منك، فإنْ صَدَّقُوك وآمنُوا بك آمنَّا بك. [فقصَّ خبرَهم](٦). فلما كان الغدُ غدا عليهم رسولُ الله - ﷺ - بالكتائب فحصَرهُم، فقال لهم: «إنكم - والله - لا تأمنون عندي إلاَّ بعهدٍ تُعاهِدُوني عليه». فأبَوا أن يُعطُوه عهداً، فقاتلهم يومَهُم ذلك، ثم غَدا الغدَ على بني قُرَيظَة بالكتائب، وتَرك بني النضير، ودعاهُم إلى أن يُعاهِدُوه، فعاهدُوه، فانصرف عنهُم، وغَدَا إلى بني النَّضِير بالكتائب فقاتلَهُم، حتى نزلوا على الجلاء. فَجَلت بنو النَّضِير، واحتَمَلُوا ما أقلَّت(٧) الإبلُ من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخَشَبِها، وكان نخلُ بَني النَّضِير لرسول الله - ﷺ - خاصَّةً، أعطاه الله إياها وخَصَّه بها، فقال: ﴿وما أفاء الله على رَسُوله منهم فما أوجفتُم عليه من خَيلٍ ولا رِكاب﴾، يقول: بغير قتال، فأعطى النبي - ﷺ - أكثرها

---

(١) في النسخ: «لنقاتلنه أو لنخرجنكم»، والمثبت من سنن أبي داود.
(٢) المراد بالحلقة السلاح، وقيل: الدروع خاصَّة.
(٣) في النسخ: «مع صاحبنا»، والمثبت من السنن.
(٤) في سنن أبي داود: «أجمعت».
(٥) المَنْصَف: الموضع الوسَط.
(٦) من نسخة، وهي في السنن أيضاً من إحدى النسخ.
(٧) أقل الشيء: حَمَله.

للمهاجرين، قسَمها بينهم، وقسَم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوي حاجة، ولم يَقْسِم [لأحدٍ] من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ـ ﷺ ـ التي في أيدي بني فاطمة(1).

ولْنذكر مُلخَّص غزوةِ بني النَّضير على وجه الاختصار، وبالله المستعان:

وكان سببُ ذلك فيما ذكره أصحابُ المغازي والسِّيَر أنه لما قُتل أصحابُ بئر مَعُونَة، من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وكانوا سَبعين، وأفلت منهم عَمرو بن أُميَّة الضَّمريُّ، فلما كان في أثناءِ الطريق راجعاً إلى المدينة قَتل رَجُلين من بني عامر، وكان معهما عهدٌ من رسُولِ الله ـ ﷺ ـ وأمانٌ لم يعلَم به عَمرو، فلما رَجَع أخبر رسُولَ الله ـ ﷺ ـ فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لقد قتلتَ رَجُلين، لأَدِيَنَّهما». وكان بين بني النضير وبني عامر حِلفٌ وعهدٌ، فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بني النضير يَستعينهم في دِيَة ذَينِكَ الرجلين، وكانت منازلُ بني النَّضير ظاهرَ المدينةِ على أميالٍ منها شرقيَّها.

قال محمدُ بن إسحاقَ بن يَسَارٍ في كتابه السيرة: ثم خَرَج رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى بني النَّضير يَستعينُهم في دِيَة ذَينِكَ القَتيلين من بني عامر، اللذَين قتل عَمرو بن أمية الضمري، للجوَار الذي كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ عقد لهما، فيما حدثني يزيد بن رُومان، وكان بين بني النَّضير وبني عامرٍ عَقدٌ وحِلْفٌ. فلما أتاهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَستعينُهم في دِيَة ذَينِكَ القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نُعينك على ما أحببتَ، مما استعنتَ بنا عليه. ثم خلا بعضُهم ببعضٍ فقالوا: إنكم لن تَجِدوا الرجلَ على مثل حاله هذه ـ ورسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى جَنْب جدارٍ من بُيُوتهم ـ فمَن رجلٌ يعلُو على هذا البيت فيُلقِيَ عليه صَخرةً، فيُريحَنا منه؟ فانتدبَ لذلك عَمْرو بن جِحَاش بن كعب أحدُهم، فقال: أنا لذلك. فصعَدَ لِيُلقيَ عليه صخرةً كما قال، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ في نفرٍ من أصحابه، فيهم أبو بكر، وعُمَر، وعليٌّ رضي الله عنهم. فأتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ الخبرُ من السماء بما أراد القومُ، فقام وخَرَج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبثَ النبيَّ ـ ﷺ ـ أصحابه قاموا في طَلَبِه، فلَقُوا رجلاً مُقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيتُه داخلاً المدينة. فأقبل أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يَهُودُ أرادت من الغَدْرِ به، وأمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالتهيُّؤ لِحَرْبهم والمَسِيرِ إليهم. ثم سار حتى نَزَل بهم فتحصَّنوا منه في الحُصون، فأمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ بقَطْعِ النخلِ والتحريقِ فيها، فنادَوه: أن يا محمدُ، قد كنتَ تنهَى عن الفسادِ وتَعيبه على مَن صَنَعه، فما بالُ قَطْعِ النخلِ وتحريقها؟!.

وقد كان رهطٌ مِن بَني عَوفِ بن الخزرج، منهم عبدُ الله بن أُبيِّ ابنِ سَلُول، ووَديعةُ، ومالك بن أبي قَوْقَلٍ، وسُوَيدُ وداعسُ، قد بعثُوا إلى بني النَّضير: أن اثبتُوا وتَمنَّعُوا فإنا لن نُسلِمَكم، إن قُوتِلتُم قاتلنا معكم، وإن أُخرِجتُم خَرَجنا معكم. فتربَّصُوا ذلك من نَصْرِهم فلم يفعلُوا، وقَذَف الله في قلوبهم الرُّعبَ، فسألوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ أن يُجليَهم ويَكُفَّ عن دمائهم، على أنّ لهم ما حَمَلت الإبلُ من أموالهم إلا الحَلْقَةَ، ففعل، فاحتملُوا من أموالهم ما استقلَّت به الإبلُ، فكان الرجلُ منهم يَهدِمُ بيتَه عن نِجَافِ(2) بابه، فيضَعُه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجُوا إلى خيبَر، ومنهم من سار إلى الشام، وخلَّوا الأموالَ لرسولِ الله ـ ﷺ ـ فكانت لرسول الله خاصَّةً يضعُها حيث يشاءُ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصارِ إلا أن سَهْلَ بن حُنَيف وأبا دُجانة سِمَاك بن خَرَشة ذكرا فَقراً، فأعطاهما رسولُ الله ﷺ.

---

(1) سنن أبي داود، كتاب الخراج ٣/١٥٦ ـ ١٥٧.
(2) في النسخ: انجاف. والنِّجاف ـ كَكِتَاب ـ: العتبة التي بأعلى الباب.

قال: ولم يُسلِم من بني النضير إلا رجلان: يامينُ بنُ عُمَير[١] بن كعب بن عَمرو بن جِحَاش، وأبو سَعدِ بن وهب، أسلما على أموالهما فأَحْرَزاها.

قال ابن إسحاق: وقد حَدَّثني بعضُ آل يامينَ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال ليامين: «ألم تر ما لقيتُ من ابن عمِّك، وما هَمَّ به من شأني؟!» فجعل يامين بن عُمير[١] لرجل جُعْلاً على أن يقتُل عمرو بن جِحَاش، فقتله فيما يزعُمون.

قال ابن إسحاق: ونَزَل في بني النضير سورةُ الحشرِ بأَسْرِها[٢]، وهكذا رَوى يونس بن بُكَير عن ابن إسحاق، بنحو ما تقدم.

فقولُه: ﴿هو الذي أخرجَ الذين كفرُوا من أهل الكتاب﴾، يعني بني النَّضِير، ﴿من ديارهم لأول الحشر﴾.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سُفيانُ، عن أبي سَعدٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ قال: من شكَّ في أنَّ أرضَ المحشَرِ ها هنا ـ يعني الشام ـ فَلْيَقرأ هذه الآية: ﴿هو الذي أخرج الذين كفَرُوا من أهلِ الكتابِ من ديارِهم لأول الحشْر﴾، قال لهم رسول الله ﷺ: «اخرجُوا». قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[٣].

وَحَدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو أسامةَ، عن عَوْفٍ، عن الحَسَنِ قال: لما أجلى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بني النَّضِير، قال: «هذا أولُ الحشرِ، وأنا على الأثرِ».

ورواه ابنُ جرير، عن بُندار، عن ابن أبي عَديٍّ، عن عوفٍ، عن الحسن، به[٤].

وقولُه: ﴿ما ظننتُم أن يخرجُوا﴾ أي: في مُدَّةِ حصاركم لهم وقصرها، وكانت ستةَ أيام، مع شدَّةِ حُصُونهم ومَنَعَتِها، ولهذا قال: ﴿وظنُّوا أنهم مانعتُهم حُصونُهم من الله فأتاهم الله من حيثُ لم يَحتسِبُوا﴾، أي: جاءَهم من أمرِ الله ما لم يكُن لهم في بال، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قد مَكَر الذين من قبلهم فأتى الله بُنيانهم من القواعِدِ فَخَرَّ عليهم السقفُ من فوقهم وأتاهم العذابُ من حيث لا يشعرونَ﴾.

وقولُه: ﴿وقذف في قُلوبهم الرعبَ﴾، أي: الخوف والهلع والجزَع، وكيف لا يحصُل لهم ذلك وقد حاصَرهُم الذي نُصِر بالرعب مسيرة شهرٍ، صلواتُ الله وسلامه عليه

وقولُه: ﴿يُخرِبُون بيوتهم بأيديهم وأيدي المُؤمنين﴾، قد تقدَّم تفسيرُ ابن إسحاقَ لذلك، وهو نقضُ ما استحسَنُوه من سقوفهم وأبوابهم، وتَحَمُّلها على الإبل. وكذا قال عروةُ بن الزُّبَير، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ، وغيرُ واحدٍ.

(١) في النسخ: عمرو. والمثبت من سيرة ابن هشام، وأسد الغابة، ترجمة يامين بن يامين.
(٢) سيرة ابن هشام ٢/١٩٠ ـ ١٩٢.
(٣) أخرجه أيضاً البزار، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في البعث كما في الدر المنثور ٨/٨٩. وكشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البعث ٤/١٥٤.
(٤) تفسير الطبري ٢٨/٢٩. وأخرجه كذلك عبد بن حميد، وابن المنذر. الدر المنثور ٨/٨٩.

وقال مقاتلُ بن حَيَّانَ: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُقاتلهم، فإذا ظهر على دَرْبٍ أو دار هدم حيطانها ليتّسع المكانُ للقتال. وكانت اليهودُ إذا عَلَوْا على دَرْبٍ أو دارٍ نَقَبُوها من أدبارها ثم حصَّنوها ودرّبوها. يقول الله تعالى: ﴿فاعتبِرُوا يا أُولي الأبصارِ﴾[1].

وقولُه: ﴿ولولا أن كَتَبَ اللهُ عليهم الجلاءَ لعذَّبهم في الدنيا﴾، أي: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ـ وهو النَّفيُ من ديارهم وأموالهم ـ لكان لهم عند الله عذابٌ آخَرُ من القتل والسَّبي ونحو ذلك. قاله الزُّهري، عن عُروةَ، والسُّدّي وابنُ زيد، لأن الله قد كَتَب عليهم أنه سيُعذِّبهم في الدار الدنيا مع ما أعدَّ لهم في الآخرة من العذاب في نار جَهَنّم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدُ الله بن صالح ـ كاتبُ الليث ـ حدثني الليثُ، عن عُقيلٍ، عن ابن شِهابٍ قال. أخبرني عُروةُ بن الزُّبَير قال: ثم كانت وقعةُ بَني النَّضير، وهم طائفةٌ من اليهودِ، على رأس ستة أشهُرٍ من وقعةِ بَدْرٍ. وكان منزلُهم بناحيةٍ من المدينة، فحاصَرهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى نَزَلوا على الجلاء، وأنَّ لهم ما أقلَّت[2] الإبلُ من الأموالِ والأمتعةِ إلا الحَلْقَة ـ وهي السلاحُ ـ فأجلاهم رسول الله ـ ﷺ ـ قِبَل الشام قال: والجَلاء أنه كُتب عليهم في آيٍ من التوراة، وكانوا من سِبْطٍ لم يُصِبهم الجَلاء قبل ما سُلِّط عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ وأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لله ما في السموات وما في الأرض﴾، إلى قوله: ﴿وليخزيَ الفاسقين﴾.

وقال عِكْرِمةُ: الجلاءُ: القتلُ. وفي رواية عنه: الفَناءُ. وقال قتادةُ: الجَلاءُ: خروج الناس من البلد إلى البلد. وقال الضَّحّاك: أجلاهم إلى الشام، وأعطى كلَّ ثلاثةٍ بعيراً وسِقاءً[3]، فهذا الجَلاء.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبدِ الله الحافظُ، أخبرنا أحمد بن كامل القاضي، حدثنا محمد بن سَعْدٍ العَوفي، حدثني أبي، عن عَمّي، حدثني أبي، عن جَدّي، عن ابن عباس قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ قد حاصرَهُم حتى بلغ منهم كلَّ مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحَهُم على أن يَحقِنَ لهم دماءَهم، وأن يُخرجَهُم من أرضِهم ومن ديارهم وأوطانِهم، وأن يُسَيِّرهم إلى أذرعاتِ الشام، وجعَلَ لكلِّ ثلاثةٍ منهم بَعيراً وسِقاءً، والجَلاء إخراجُهم من أرضهم إلى أرضٍ أُخرى[4].

وَرَوى أيضاً من حديث يعقوبَ بن محمد الزُّهريِّ، عن إبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد بن مسلمَةَ، عن أبيه، عن جَدِّه، عن محمد بن مَسلَمَةَ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعثه إلى بني النَّضير، وأمره أن يُؤَجِّلَهم في الجلاء ثلاث ليالٍ[5].

وقولُه: ﴿ولهم في الآخرة عذابُ النار﴾، أي: حَتْمٌ لازم لا بُدَّ لهم منه.

وقولُه: ﴿ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسولَه﴾، أي: إنما فَعَل الله بهم ذلك وسلَّط عليهم رَسُوله وعباده المؤمنين، لأنهم خالفُوا الله ورسولَه، وكذَّبوا بما أنزل الله على رُسُلِه المتقدِّمين من البشارة بمُحمَّدٍ ﷺ، وهم يَعرِفون ذلك كما يَعرِفون أبناءَهم. ثم قال: ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فإن اللهَ شديدُ العقاب﴾.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٣/٣٥٨ ونقله في الدر المنثور عنه ٨/٩٧ وفي الصحاح: نقبوا. والدَّرب: كل طريق يؤدي إلى ظاهر البلد ولعلَّ معنى دربوها: عملوا لها دَرْباً.

(٢) أي: حملت.

(٣) السِّقاءُ: وعاءٌ من جِلدٍ يكون للسَّقْي.

(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل ٣/٣٥٩.

(٥) الدلائل ٣/٣٦٠. وانظر مغازي الواقدي ١/٣٦٦ ـ ٣٦٧.

وقولُه تعالى: ﴿ما قطعتُم من لِينَةٍ أو تركتُموها قائمةً على أُصولها فبإذنِ الله وَلِيخزِيَ الفاسقين﴾، اللِّينُ: نوعٌ من التمر، وهو جَيِّد. قال أبو عُبَيدة: وهو ما خالفَ العَجْوَةَ والبَرْنِيَّ من التمر[١]، وقال كثيرٌ من المفسِّرين: اللِّينَةُ: ألوانُ التمر سوى العَجْوَة.

قال ابن جرير: هو جميعُ النخل. ونقله عن مجاهد[٢]. وهو البُوَيْرَةُ[٣] أيضاً. وذلك أن رسول الله - ﷺ - لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانةً لهم، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم. فروى مُحمَّد بن إسحاق، عن يزيدَ بن رومان، وقتادةَ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: فبعثَ بنو قُرَيظة[٤] يقولون لرسول الله ﷺ: إنكَ تنهَى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة، أي: ما قطعتُم وما تركتُم من الأشجار فالجميعُ بإذنِ الله ومشيئتِه وقُدرته ورضاه، وفيه نكايةٌ للعدوِّ، وخِزيٌ لهم، وإرغامٌ لأنوفهم.

وقال مجاهدٌ: نهى بعضُ المهاجرين بعضاً عن قطع النخل، وقالوا: إنما هي مغانم المسلمين. فنزل القرآنُ بتصديق مَن نهى عن قطعِه، وتحليل من قطعه من الإثم، وإنما قطعُه وتركُه بإذنه. وقد روي نحو هذا مرفوعاً، فقال النسائي:

أخبرنا الحسن بن محمد، عن عفّان، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا حَبيب بن أبي عَمْرَةَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ما قطعتُم من لِينَةٍ أو تركتُموها قائمةً على أُصولها فبإذنِ الله وَلِيُخزِيَ الفاسقين﴾، قال: يَستنزلونهم من حُصُونهم، وأُمِروا بقطع النخل، فحاكَ في صُدُورهم، فقال المسلمون: قَطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فَلَنسألَنَّ رسولَ الله - ﷺ -: هل لنا فيما قَطعنا مِن أجرٍ؟ وهل علَينا فيما تَركنا من وِزْرٍ؟ فأنزل الله: ﴿ما قَطعتُم من لِينَةٍ﴾[٥].

وقال الحافظُ أبو يعلَى في مُسنَدِه: حَدَّثنا سُفيان بن وكيع، حدثنا حفصٌ، عن ابن جُرَيج، عن سُليمان بن موسى، [عن جابر - و] عن أبي الزبير، عن جابر - قال: رُخِّص لهم في قطع النخل، ثم شُدِّد عليهم، فأتوا النبيَّ - ﷺ - فقالوا: يا رسولَ الله، علينا إثمٌ فيما قَطعنا؟ أو علينا وِزْرٌ فيما تَركنا؟ فأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ما قطعتُم من لِينَةٍ أو تركتُموها قائمةً على أُصولها فبإذنِ الله﴾.[٦].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سُفيانُ، عن موسى بنِ عُقبَةَ، عن نافعٍ، عن ابن عُمَر: أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قَطع نخلَ بني النَّضِير وحَرَّقَ[٧].

---

(١) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/٢٥٦.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٨/٣٣.

(٣) يريد أن النخل كان بالبُوَيرة، والبُوَيرة كما ذكر البكري: موضع من تيماء. وقال أبو عُبَيد في الأموال: وأحرق رسول الله - ﷺ - نخل بني النضير وقطع زهو البُوَيرة، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

وهـانَ علـى سـراةِ بنـي لُـؤيٍّ   حـريـقٌ بـالـبُـوَيْـرَةِ مُـسـتـطـيـرُ

وذكر القرطبي في تفسيره ١٨/٦ أن البُوَيرة كانت حصون بني النضير. وسيذكر ابن كثير ما ورد من الأحاديث والأشعار عن البُوَيرة.

(٤) ذكر الطبري في تفسيره ٢٨/٣٤ أثر ابن إسحق عن يزيد بن رومان، وفيه: «فنادوه يا محمد»، والضمير عائدٌ على بني النضير.

(٥) أخرجه النسائي في كتاب التفسير والسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٤/٤٠٨، وأخرجه كذلك الترمذي عن الحسن بن محمد الزعفراني بإسناده مثله في كتاب التفسير. انظر عارضة الأحوذي ٨/١٨٨ - ١٨٩.

(٦) مسند أبي يعلى ٢/٤٤٣، وما بين القوسين سقط من السند في المسند. وانظر مجمع الزوائد ٧/١٢٢.

(٧) مسند أحمد ٢/٧ - ٨.

وأخرجه صاحبا الصحيح من رواية موسى بن عُقْبَة، بنحوه. ولفظُ البخاريِّ من طريق عبد الرزّاق عن ابن جُرَيج، عن موسى بن عُقْبَة، عن نافع، عن ابن عُمَر قال:

حاربت النَّضِيرُ وقُرَيظةُ، فأجلىَ بني النضير وأقرَّ قُرَيظة ومَنَّ عليهم حتى حاربت قريظةُ فقتل رجالهم وقسّم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لَحِقوا بالنبي ـ ﷺ ـ فأمّنهم وأسلمُوا، وأجلى يهودَ المدينةِ كلَّهم: بني قَيْنُقاع، وهم رهطُ عبد الله بن سَلاَم، ويهودَ بني حارثة، وكلَّ يهودٍ بالمدينة[1].

ولهما أيضاً عن قُتَيبةُ، عن اللَّيث بن سعد، عن نافع، عن ابن عُمَر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ حَرَّق نخلَ بني النَّضِير وقطع وهي البُوَيْرَةُ، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ فيه: ﴿ما قطعتُم من لِينةٍ أو تركتُموها قائمةً على أُصُولها فَبِإذنِ الله وَلِيُخزِيَ الفاسقين﴾[1].

وللبخاري ـ رَحِمَه الله ـ من رواية جُوَيْرِيَةَ بن أسماء، عن نافع، عن عبد الله: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ حَرَّق نخلَ بني النضير[2]. ولها يقول حسَّانُ رضي الله عنه:

وَهَانَ عَلى سَراةِ بَني لُؤَيٍّ ... حَريقٌ بالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

فأجابه أبو سُفيانَ بنُ الحارث يقول:

أدام اللهُ ذلك مِن صَنيعٍ ... وَحَرَّقَ في نَواحِيها السَّعِيرُ
سَتَعْلَمُ أيُّنا منها بِنُزْهٍ ... وتَعْلَمُ أيَّ أرْضَيْنا تَضِيرُ[3]

كذا رواه البخاري[1]، ولم يذكره ابن إسحاق[4].

وقال محمد بن إسحاق: وقال كعبُ بن مالك يذكر إجلاء بني النَّضِير وقَتْلَ ابنِ الأشرف:

لَقَد خَزِيَتْ بِغَدْرَتِها الحُبُورُ ... كَذاكَ الدهرُ ذُو صَرْفٍ يَدُورُ[5]
وَذلكَ أنَّهم كَفَروا بِرَبٍّ ... عَظِيمٍ، أمرُهُ أمرٌ كَبيرُ
وقَد أُوتُوا مَعاً فَهماً وعِلماً ... وَجَاءَهُمُ مِن اللهِ النَّذِيرُ
نَذيرٌ صَادِقٌ أدّى كِتاباً ... وَآياتٍ مُبَيَّنةً تُنيرُ[6]
فقالوا: ما أتيتَ بأمرِ صِدْقٍ ... وأنتَ بِمُنكَرٍ مِنَّا جَدِيرُ
فَقالَ: بَلى، لَقَد أدّيتُ حقاً ... يُصَدِّقني بهِ الفَهِمُ الخَبيرُ
فَمنْ يَتْبعْهُ يُهْدَ لِكُلِّ رُشْدٍ ... وَمَن يَكفُرْ بهِ يُجْزَ الكَفُورُ
فَلَمّا أُشْرِبُوا غَدْراً وكُفْراً ... وَجَدَّ بِهِمْ عَنِ الحَقِّ النُّفُورُ[7]
أرَى اللهُ النَّبيَّ بِرَأيِ صِدْقٍ ... وكانَ اللهُ يَحْكُمُ لا يَجُورُ

---

(١) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٣٢٩، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٣٦٥ ـ ١٣٦٦

(٢) بعده في النسخ: «وقطع، وهي البُوَيْرَةُ» وهي زيادة ليست في الصحيح، ولعلها سهو من الناسخ، أخذها من نهاية الحديث السابق

(٣) بنزهٍ: ببعد. وتضير، من الضير، وهو بمعنى الضرّ

(٤) الأبيات في سيرة ابن هشام ٢/٢٧٢.

(٥) الحُبُور: جمع حَبْر، يريد علماء اليهود.

(٦) في نسخة: «وأولى كتاباً».

(٧) في النسخ وأصول سيرة ابن هشام: «وجَدَّ بهم»، والمعنى: قطعهم عن الحق النُّفور، وقد ضُبِط «وجدّ» بمعنى مال أو حاد، ولذلك عُنّي بتعديته. وقد أثبت مُحققو السيرة: «وحاد بهم»، عن نصّ شرح السيرة لأبي ذرّ. ولا مقتضى للعدول عن نصِّ السيرة، والله أعلم

فَـأَيَّـدَهُ وَسَلَّطَهُ عَـلَيْـهِـمْ ... وكَـانَ نَـصِيـرَهُ نِـعْـمَ الـنَّـصِـيـرُ
فَـغُـودِرَ مِـنْـهُـمُـو كَـعْـبٌ صَـرِيـعـاً ... فَـذَلَّتْ بعـدَ مَـصْـرَعِـهِ الـنَّـضِـيـرُ
عـلى الـكَـفَّـيْـنِ ثُـمَّ وَقَـدْ عَـلَـتْـهُ ... بِـأَيْـدِيـنَـا مُـشَـهَّـرَةٌ ذُكُـورُ(١)
بِـأَمْـرِ مُـحَـمَّـدٍ إِذْ دَسَّ لَـيْـلاً ... إِلَى كَـعْـبٍ أَخَـا كَـعْـبٍ يَـسِـيـرُ
فَـمَـاكَـرَهُ فَـأَنْـزَلَـهُ بِـمَـكْـرٍ ... وَمَـحْـمُـودٌ أَخُـو ثِـقَـةٍ جَـسُـورُ
فَـتِلْكَ بَـنُـو الـنَّـضِـيـرِ بِـدَارِ سَـوْءٍ ... أَبَـارَهُـمُ بِـمَـا اجْـتَـرَمُـوا الـمُـبِـيـرُ
غَـدَاةَ أَتَـاهُـمُ فِي الـزَّحْـفِ رَهْـواً ... رَسُـولُ اللهِ، وَهْـوَ بِـهِـمْ بَـصِـيـرُ(٢)
وَغَـسَّـانُ الـحُـمَـاةُ مُـوَازِرُوهُ ... عَـلَى الأَعـدَاءِ، وَهْـوَ لَـهُـمْ وَزِيـرُ
فَـقَـالَ: الـسِّـلْـمَ، وَيْـحَـكُـمْ فَـصَـدُّوا ... وَحَـالَـفَ أَمْـرَهُـمْ كَـذِبٌ وَزُورُ
فَـذَاقُـوا غِـبَّ أَمْـرِهِـمُ وَبَـالاً ... لِـكُـلِّ ثَـلاثَـةٍ مِـنْـهُـمْ بَـعِـيـرُ
وَأُجْـلُـوا عَـامِـدِيـنَ لِـقَـيْـنُـقَـاعٍ ... وَغُـودِرَ مِـنْـهُـمُ نَـخْـلٌ وَدُورُ(٣)

قال: وكان مما قيلَ من الأشعارِ في بني النضيرِ قولُ ابن لُقيم العَبْسيّ - ويقال: قالها قَيْسُ بن بَحْرِ بن طَرِيفٍ - قال ابن هشام الأشجعي -:

أَهْلِي فِدَاءٌ لامْرِىءٍ غَيْرِ هَالِكٍ ... أَحَلَّ اليهودَ بِالحَسِيِّ المُزَنَّمِ(٤)
يَقِيلُونَ فِي جَمْرِ الغَضَاةِ وَبُدِّلُوا ... أُهَيْضِبَ عُودَى بِالوَدِيِّ المُكَمَّمِ(٥)
فَإِنْ يَكُ ظَنِّي صَادِقاً بِمُحَمَّدٍ ... يَرَوْا خَيْلَهُ بَيْنَ الصَّلا وَيَرَمْرَمِ(٦)
يَؤُمُّ بِهَا عَمْرو بنَ بُهْثَةَ إِنَّهُمْ ... عَدُوٌّ، وما حَيٌّ صَدِيقٌ كَمُجْرِمِ
عَلَيْهِنَّ أَبْطَالٌ مَسَاعِيرُ فِي الوَغَى ... يَهُزُّونَ أَطْرَافَ الوَشِيجِ المُقَوَّمِ(٧)
وَكُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدٍ ... تُوُرِّثْنَ مِنْ أَزْمَانِ عَادٍ وَجُرْهُمِ
فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي قُرَيْشاً رِسَالَةً ... فَهَلْ بَعْدَهُمْ فِي المَجْدِ مِنْ مُتَكَرِّمِ
بِأَنَّ أَخَاكُمْ - فَاعْلَمُنَّ - مُحَمَّداً ... تَلِيدُ النَّدَى بَيْنَ الحَجُونِ وَزَمْزَمِ
فَدِينُوا لَهُ بِالحَقِّ تَجْسُمْ أُمُورُكُمْ ... وَتَسْمُوا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى كُلِّ مُعْظَمِ
نَبِيٌّ تَلاقَتْهُ مِنَ اللهِ رَحْمَةٌ ... وَلا تَسْأَلُوهُ أَمْرَ غَيْبٍ مُرَجَّمِ

---

(١) ذكور: جمع ذَكَر، والذكر من الحديد: أيْبَسُه وأشدُّه، أراد السيوف، يقال: سيف ذكر وذكير ومذكر، أي: قوي ماض.
(٢) رهواً: مشياً في سكون.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/١٩٨ - ٢٠٠.
(٤) الحسيُّ: المعد الطريد. والمزنَّم: الرجل يكون في القوم وليس منهم. والمعنى: أحلهم منار غربة وفي غير عشائرهم، وانظر السُّهيليّ في الروض الأنف ٢/١٧٧.
(٥) الغضاة: واحدة الغضى، وهو شجر من الأَثْل، والأَثْلُ: شجر من الفصيلة الطرفاوية، طويل مستقيم يُعَمِّر، جيد الخشب، كثير الأغصان، متعقدها، دقيق الورق، وَجَمْرُ الغضى يبقى زمناً طويلاً لا ينطفىء. وأُهَيْضِب: مكان مرتفع. وعُودَى: لم يهتد إليها. وهي في النسخ عودا. وفي شرح السيرة لأبي ذر: عودى. وقال: هي اسم موضع. والوديّ: صغار النخل. والمُكَمَّم: الذي خرج طَلْعُه.
(٦) الصّلا ويرمرم: موضعان.
(٧) المساعيرُ: جمع مِسْعَار، وهو في الأصل: ما تُحرّك به النار من حديدٍ أو خشب، ثم قيل للأبطال: مساعير، على التشبيه لأنهم يحشون الحروب على القتال، والواحد يقال له: مِسْعَرٌ ومِسْعارٌ. والوشيجُ في الأصل ما نبت من القنا، واحدته: وَشِيجَة، أراد الرماح.

فقَدْ كانَ في بَدْرٍ ـ لَعَمْري ـ عِبْرَةٌ ... لَكُم يـا قُـرَيشُ والقَليبُ المُلَمَّمُ(١)
غَداةَ أتى في الخَزْرَجيَّةِ عـامِـداً ... إليكُم مُـطيعـاً للعـظيمِ المُكَـرَّمِ
مُعَـانـاً بِرُوحِ القُدُسِ يُنْكِي عَـدُوَّهُ ... رَسُـولاً مِنَ الرَّحمنِ حَقّـاً بِمَعْلَمِ(٢)
رسُـولاً مِنَ الـرَّحمنِ يَتْلُو كِتـابَـهُ ... فـلَمّـا أنـارَ الحَقُّ لـمْ يَتَلَعْثَمِ
أرَى أمْـرَهُ يَزْدادُ في كُـلِّ مَـوطِنٍ ... عُـلُوّاً لأمْـرٍ حَمَّـهُ اللهُ مُحْكَـمِ(٣)

وقد أورد ابنُ إسحاقَ(٤) ـ رَحِمه الله ـ ها هنا أشعاراً كثيرةً، فيها آدابٌ ومواعظُ وحِكَمٌ، وتفاصيلُ للقصَّةِ، تركنا باقِيَها اختصاراً واكتفاءً بما ذكرناه، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النَّضير بعد وقعةِ أُحُدٍ وبعد بئر معُونة. وحكى البخاري، عن الزُّهري، عن عُرْوَةَ أنه قال: كانت وقعة بني النَّضير بعد بدرٍ بستةِ أشهرٍ(٥).

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾.

يقولُ تعالى مُبيِّناً لمال الفَيْءِ، وما صِفَتُه؟ وما حُكْمُه؟ فالفيء: كلُّ مالٍ أُخِذ من الكفَّار بغير قتالٍ ولا إيجافِ خيلٍ ولا رِكابٍ، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يُوجِف المسلمون عليه بخَيْلٍ ولا رِكابٍ، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نَزَل أولئك من الرُّعبِ الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبةِ رسول الله ـ ﷺ ـ فأفاءه الله على رسوله، ولهذا تصرَّف فيه كما شاء، فرَدَّه على المسلمين في وُجُوه البِرِّ والمصالح التي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآيات، فقال: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾، أي: من بني النَّضير، ﴿فما أوجفتم عليه من خيلٍ ولا ركابٍ﴾، يعني: الإبل، ﴿ولكن الله يُسلِّط رُسُله على من يشاء والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾، أي: هو قديرٌ لا يُغالَبُ ولا يُمانَعُ، بل هو القاهرُ لكلِّ شيءٍ.

ثم قال: ﴿ما أفاءَ الله على رسوله من أهلِ القُرى﴾، أي: جميعُ البلدانِ التي تُفتَح هكذا، فحُكمُها حكمُ أموالِ بني النَّضير. ولهذا قال: ﴿فللهِ وللرسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين﴾؛ إلى آخرها والتي بعدها. فهذه مصارفُ أموالِ الفيءِ ووُجُوهُه.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عَمرو ومَعْمَرٍ، عن الزُّهريِّ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان، عن عُمَر ـ رضي الله عنه ـ قال: كانت أموالُ بني النَّضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف المسلمون عليه

(١) المُلَمَّم: المجموع.
(٢) نكى العدُوَّ: أوقع به. والمعْلَمُ: الموضع العالي، وما يُستدَلُّ به على الطريق.
(٣) حمَّه الله: قدَّره.
(٤) انظر القصيدة السابقة في سيرة ابن هشام ٢/١٩٥ ـ ١٩٦.
(٥) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٣٢٩.

بخيلٍ ولا ركاب، فكانت لرسول الله ـ ﷺ ـ خالصةً، فكان يُنفق على أهله منها نفقةَ سَنَتِه ـ وقال مرّة: قُوتَ سَنَتِه ـ وما بَقِي جعَله في الكُراع والسلاح في سبيل الله عزّ وجلّ[1].

هكذا أخرجه أحمدُ ها هنا مُختصراً، وقد أخرجه الجماعةُ في كُتُبهم ـ إلا ابنَ ماجه ـ من حديث سُفيانَ، عن عَمرو بن دينار، عن الزُهريّ، به[1]. وقد رَوَيناه مطولاً. وقال أبو داود رَحِمه الله:

حدثنا الحسنُ بن علي ومحمدُ بن يحيى بنُ فارسٍ ـ المعنى واحد ـ قالا: حدثنا بشر بن عُمَر الزّهراني، حدثني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن مالك بن أوس قال: أرسلَ إليّ عمرُ بن الخطاب ـ رَضِي الله عنه ـ حين تعالى النهارُ، فجئتُه فوجدتُه جالساً على سرير مُفضِياً إلى رُمَالِه[2]، فقال حين دخلتُ عليه: يا مالِ[3]، إنه قد دفّ[4] أهل أبياتٍ من قومك، وقد أمرتُ فيهم بشيءٍ، فقَسِّمْ فيهم. قلت: لو أمرتَ غيري بذلك؟ فقال: خُذه. فجاءه يرْفا[5] فقال: يا أميرَ المؤمنين، هل لك في عثمان بن عفان، وعبدِ الرحمن بن عوف، والزُبَير بن العوّام، وسعدِ بن أبي وقاص؟ فقال: نعم. فأذِن لهم فدَخَلوا، ثم جاءه يرفا فقال: يا أميرَ المؤمنين، هل لك في العبّاس وعليٍّ؟ قال: نعم. فأذِن لهم فدَخَلوا، فقال العباس: يا أميرَ المؤمنين، اقضِ بيني وبين هذا ـ يعني علياً ـ فقال بعضهم: أجَلْ يا أميرَ المؤمنين، اقضِ بينهما وأرِحْهُما ـ قال مالكُ بنُ أوس: خُيِّل إليّ أنهما قَدّما أولئك النفَرَ لذلك ـ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: اتَّئِدا. ثم أقبل على أولئك الرّهطِ فقال: أَنشُدُكم بالله الذي بإذنه تقومُ السماءُ والأرض، هل تعلَمُون أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا نُوَرَّثُ، ما تَرَكنا صدقةٌ». قالوا: نعم. ثُمّ أقبل على عليٍّ والعباس فقال: أَنشُدُكما بالله الذي بإذنه تقومُ السماءُ والأرض، [هل] تعلمانِ أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لا نُورث، ما تركنا صدقةٌ». فقالا: نعم. فقال: فإن الله خَصّ رسولَه بخاصّةٍ لم يَخُصّ بها أحداً من الناس، فقال: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركابٍ ولكنّ الله يُسَلِّط رُسُله على من يشاءُ واللهُ على كلّ شيءٍ قديرٌ﴾. فكان الله أفاء على رسُوله أموالَ بني النَّضِير، فوالله ما استأثَرَ بها عليكُم ولا أخذها دُونكم. فكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يأخذ منها نفقةَ سنةٍ ـ أو: نفقَته ونفقةَ أهله سنةً ـ ويجعل ما بقي أُسوةَ[6] المال. ثم أقبل على أولئك الرهطِ فقال: أَنشُدُكم بالله الذي بإذنه تقومُ السماءُ والأرضُ: هل تعلَمُون ذلك؟ قالوا: نَعَم. ثم أقبل على عليٍّ والعباس فقال: أنشدكُما بالله الذي بإذنه تقومُ السماءُ والأرضُ: هلْ تعلمان ذلك؟ قالا: نعم. فلما تُوفي رسول الله ـ ﷺ ـ قال أبو بكر: «أنا وليُّ رسولِ الله»، فجئتَ أنتَ وهذا إلى أبي بكر تطلبُ أنتَ ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأتِه من أبيها، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: قال رسولُ الله ﷺ: «لا نُورَثُ، ما تركنا صَدَقةٌ». والله يعلم إنه لصادقٌ بارٌ راشدٌ تابعٌ للحقّ. فَوَلِيها أبو بكر، فلما تُوُفي قلتُ: أنا وليُّ رسول الله ـ ﷺ ـ ووليُّ أبي بكر، فوَلِيتُها ما شاء الله أن أَلِيَها، فجئتَ أنتَ

(١) مسند الإمام أحمد ١/٢٥، ٤٨، وفتح الباري، كتاب الجهاد ٦/٩٣، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٣٧٦ ـ ١٣٧٧، وسنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة ٣/١٤١، والنسائي، كتاب قسم الفيء ٧/١٣٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الجهاد ٧/٢١٥ ـ ٢١٨.

(٢) الرُمال ـ بضم الراء وكسرها ـ: ما ينسج من سعف النخل ونحوه ليُضطجع عليه، ومفضياً إليه: ليس بينه وبين الرمال شيء، وقال هذا لأن العادة أن يكون هناك فراشٌ فوق الرُمال.

(٣) يريد: يا مالك. وهو ترخيم مالك، بحذف الكاف.

(٤) الدفّ: المشي في سرعة. وإنما أسرع أهل الأبيات لضرر نزل بهم.

(٥) يَرْفا: غلام عُمر، وقد يهمز فيقال: يرْفأ.

(٦) أي: لا ينفرد به أحد.

وهذا، وأنتما جَميعٌ وأمركما واحد(١)، فسألتُمانيها، فقلتُ: إن شئتما أن أدفعَها إليكُما على أنّ عليكما عهد الله أن تليَاها بالذي كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَليها، فأخذتماها مِنّي على ذلك، ثم جئتماني لأقضيَ بينكما بغير ذلك والله لا أقضي بينكُما بغير ذلك حتى تقومَ الساعةُ، فإن عَجَزْتُما عنها فرُدّاها إليّ(٢).

أخرجُوه من حديثِ الزُّهري، به(٣). وقال الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا عارمٌ وعفَّانُ قالا: حدثنا مُعتمِرٌ: سَمِعتُ أبي يقولُ: حدَّثنا أنس بن مالك، عن نبيِّ الله ـ ﷺ ـ أنَّ الرجل كان يَجْعَل له من مالِه النَّخلاتِ، أو كما شاء الله، حتى فُتِحَت عليه قُرَيظة والنَّضير. قال: فجعل يَرُدّ بعد ذلك، قال: وإنّ أهلي أمَرُوني أن آتيَ النبيَّ ـ ﷺ ـ فأسأله الذي كان أهله أعطوه أو بعضه، وكان نبيُّ الله ـ ﷺ ـ قد أعطاه أُمَّ أيمن(٤)، أو كما شاء الله، قال: فسألتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فأعطانيهنَّ، فجاءت أُمُّ أيمن فجعلت الثوبَ في عُنُقي وجعلت تقولُ: كَلاَّ، والله الذي لا إلَه إلا هو لا يُعطيكَهُنَّ وقد أعطانيهنَّ. أو كما قالت. فقال نبيُّ الله: لَكِ كذا وكذا. قال: وتقولُ: كَلاَّ، والله. قال: ويقول: لَكِ كذا وكذا. قال: وتقولُ: كلاَّ والله. قال: ويقول: لكِ كذا وكذا. قال: حَتَّى أعطاها، حَسِبتُ أنه قال: عَشَرة أمثاله ـ أو قال قريباً من عَشَرة ـ أمثاله، أو كما قال(٥).

رواه البخاري ومسلم من طُرُق عن معتمر، به(٣).

وهذه المصارِفُ المذكورةُ في هذه الآيةِ هي المصارفُ المذكورةُ في خُمسِ الغنيمةِ. وقد قدَّمنا الكلامَ عليها في «سورة الأنفال» بما أغنى عن إعادَتِهِ ها هنا، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقولُه: ﴿كي لا يكونَ دُولةً بين الأغنياء منكم﴾، أي: جَعَلنا هذه المصارفَ لمالِ الفيءِ لئلا يبقَى مأكلة يتغلب عليها الأغنياءُ ويتصرَّفُون فيها، بمحضِ الشهواتِ والآراءِ، ولا يَصرِفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقولُه: ﴿وما آتاكُم الرسولُ فَخُذوه وما نهاكُم عنه فانتَهُوا﴾، أي: مهما أمركُم به فافعلُوه، ومهما نهاكُم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمُر بخيرٍ وإنما ينهَى عن شَرٍّ.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا سَعيدٌ، عن قتادةَ، عن الحسن العوفي، عن يحيى بن الجزَّار، عن مسرُوق قال: جاءت امرأةٌ إلى ابن مسعودٍ فقالت: بلَغني أنك تنهَى عن الواشمة والواصلةِ(٦)، أشيءٌ وجدتَه في كتاب الله أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، شيءٌ وجدتُه في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ. قالت: والله لقد تصفحتُ ما بين دَفَّتي المصحفِ فما وجدتُ الذي تقول! قال: فما وَجَدتِ فيه: ﴿وما آتاكُم الرسولُ فَخُذُوه وما نَهاكُم عنهُ فانتَهُوا﴾؟ قالت: بلى. قال: فإني سَمِعتُ رسول

---

(١) أنتما جميع: متحدان، ومطلوبكما واحد، وهو دَفْعي إيّاها إليكما.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة ١٣٩/٣ ـ ١٤٠.

(٣) فتح الباري، كتاب فرض الخمس ١٩٧/٦ ـ ١٩٨، ومسلم، كتاب الجهاد والسِّير ١٣٧٧/٣ ـ ١٣٧٩، وعارضة الأحوذي، أبواب السِّير ١١٢/٧ ـ ١١٣، والنسائي، كتاب قسم الفيء ١٣٦/٧ ـ ١٣٧.

(٤) كان رسول الله ـ ﷺ ـ أعطى أُمَّ أيمن ما كان قد منحه الأنصار، وأُمّ أيمن هي أم أسامة بن زيد، وهي حاضنة رسول الله ﷺ وقد فصّل ذلك الإمام مسلم في صحيحه.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢١٩/٣. وفتح الباري، كتاب فرض الخمس ٢٢٧/٦، وكتاب المغازي ٣٢٩/٧، ٤١٠ ـ ٤١١، ومسلم، كتاب الجهاد ١٣٩٢/٣ ـ ١٣٩٣.

(٦) الواصلة: هي التي تصل شعرها بشعر غيرها.

الله ـ ﷺ ـ ينهى عن الواصلةِ والواشمةِ والنامصة[1]. قالت: فلعلَّه في بعضِ أهلك! قال: فادخُلي فانظُري. فدخلَت ثم خرجَت، قالت: ما رأيتُ بأساً. فقال لها: أما حفظتِ وصيةَ العبدِ الصالح: ﴿وما أُريدُ أن أُخالِفَكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سُفيانُ، عن منصور، [عن إبراهيم][2]، عن عَلْقَمَةَ، عن عبدِ الله ـ هو ابن مسعُودٍ ـ قال: لعن الله الواشمات والمستوشِمات، والمُتنمِّصات، والمُتَفَلِّجات[3] للحُسْنِ، المغيِّرات خَلْقَ الله عزَّ وجل. قال: فبلغ امرأةً في البيت يقال لها: أم يعقُوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلتَ كيتَ وكيتَ؟ قال: ما لي لا ألعَن مَن لَعَن رَسولُ الله ـ ﷺ ـ وفي كتاب الله. فقالت: إني لأقرأُ ما بين لَوْحَيه فما وجدتُه. فقال: إن كنتِ قرأتِيه فقد وَجدتِيه. أما قرأت: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذُوه وما نهاكُم عنه فانتهُوا﴾؟ قالت: بلى. قال: فإن النبيَّ ـ ﷺ ـ نَهى عنه. قالت: إني لأظن أهلَكَ يفعلُونه! قال: اذهبي فانظُري، فذهبَتْ فلم تَرَ من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيتُ شيئاً. قال: لو كانت كذلك لم تُجامِعنا[4]. أخرجاه في الصحيحين، من حديث سفيان الثوري[5].

وقد ثَبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هُريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا أمرتُكم بأمرٍ فائتوا منه ما استطعتُم، وما نهيتُكم عنه فاجتنبُوه»[*].

وقال النَّسائي: أخبرنا أحمدُ بن سعيد، حدثنا يزيدُ، حدثنا منصورُ بن حَيَّان، عن سَعِيد بن جُبير، عن ابن عُمر، وابنِ عبَّاس: أنهما شهدا على رسولِ الله ـ ﷺ ـ: أنه نَهى عن الدُّباء والحَنْتَم والنَّقير والمزَفَّت، ثم تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿وما آتاكُم الرسولُ فخذوه وما نهاكُم عنه فانتهُوا﴾[6].

وقوله: ﴿واتقُوا الله إنَّ الله شديدُ العقاب﴾، أي: اتَّقُوه في امتثالِ أوامره وتَرْكِ زواجِره، فإنه شديدُ العقابِ لمن عَصاه وخالفَ أمره وأباه، وارتكَبَ ما عنه زَجرَه ونَهاه.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) النامصة: التي تنتف الشعر من وجهها.

(٢) من المسند: وهو إبراهيم بن يزيد النخعي.

(٣) المتفلجات: اللاتي يباعدن ما بين الثنايا والرَّباعيات، بترقيق الأسنان بالمبرد.

(٤) مسند الإمام أحمد ١/٤٣٣ ـ ٤٣٤، وفتح الباري، تفسير سورة الحشر ٨/٦٣٠، ومسلم، كتاب اللباس ٣/١٦٧٨.

(*) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٢٥١، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨٣٠.

(٦) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/٤٤٩

والدُّبَّاء والحنتم والنَّقير والمزفَّت أوعيةٌ كانوا ينتبذون فيها، وكان النبيذ يَغْلي فيها سريعاً ويُسْكِرُ، فنهاهم عن الانتباذ فيها.

يقولُ تعالى مُبيِّناً حال الفُقَراء المستحقِّين لمال الفيءِ أنَّهم ﴿الذين أُخرِجُوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله وَرِضوانًا﴾، أي: خَرَجُوا من ديارهم وخالفُوا قومَهُم ابتغاءَ مرضاة الله ورضوانه، ﴿وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾، أي: هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلِهم، وهؤلاء هُم ساداتُ المهاجرينَ.

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار، ومبيناً فضلَهم وشَرَفهم وكرَمهم، وعدَم حَسَدهم، وإيثارَهم مع الحاجة، فقال: ﴿والذين تَبَوَّءُوا الـدارَ والإيمانَ من قبلِهم﴾، أي: سكَنُوا دار الهجرةِ من قبل المهاجرينَ وآمنوا قبل كثير منهم.

قال عمر: أُوصِي الخليفةَ بَعْدِي بالمهاجرين الأوَّلين أن يَعرِفَ لهم حقَّهم، ويحفَظَ لهم كرامتهم. وأُوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ من قبلُ، أن يقبلَ من محسنهم، وأن يعفُوَ عن مسيئهم. رواه البخاري ها هنا أيضاً(١).

وقولُه: ﴿يُحِبُّون من هاجَرَ إليهم﴾، أي: مِنْ كَرَمهم وشَرَفِ أنفُسِهم يُحبُّون المهاجرين ويُواسُونَهم بأموالهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ، أخبرنا حُمَيد، عن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسولَ الله، ما رأينا مثلَ قومٍ قدمنا عليهم أحسنَ مواساةً في قليلٍ ولا أحسن بَذْلاً في كثيرٍ، لقد كَفَوْنا المُؤْنَةَ، وأشركونا في المَهنَأ(٢)، حتى لقد خَشينا أن يذهَبُوا بالأجر كلِّه! قال: لا، ما أثنيتُم عليهم ودَعَوْتُمُ الله لهم(٣). لم أره في الكتب من هذا الوجه.

وقال البخاريُّ: حدثنا عبدُ الله بن محمد، حدثنا سُفيان، عن يحيى بن سَعيد، سَمِع أنسَ بن مالك حين خَرَج معه إلى الوليدِ قال: دَعَا النبيُّ ـ ﷺ ـ الأنصارَ أن يُقطِعَ لهم البحرَين، قالوا: لا، إلَّا أن تُقطِعَ لإخواننا مِنَ المهاجرين مثلها. قال: إمَّا لا(٤)، فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيُصِيبُكم أثَرةٌ(٥)، تفرَّد به البخاري من هذا الوجه(٦).

وقال البُخاري: حدثنا الحكم بن نافع، أخبرنا شُعَيب، حدثنا أبو الزِّناد، عن الأعرَج، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قالت الأنصارُ(٧): اقسِم بيننا وبين إخوانِنا النَّخيل. قال: لا. فقالوا: تَكفُونا المُؤنَةَ ونَشرَكُكم في الثَّمَرَةِ؟ قالوا: سَمِعْنَا وأَطَعنا(٧). تفرَّد به دُونَ مُسلم.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الحشر ٦٣١/٨.

(٢) كفونا المُؤْنَة: أي تحملوا عنا عمارة الدور والنخيل وغيرهما، وأشركونا في المَهنَأ: يعني ثمار نخيلهم، والمهنأ: ما يأتيك بلا تعب

(٣) أي: إن دعاءكم يقوم بحسناتهم إليكم ما دمتم تدعون لهم بخير. والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٠٠/٣. وقد أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة بإسناده إلى حميد، عارضة الأحوذي ٣٠١/٩ ـ ٣٠٢، كما أخرجه أبو داود في كتاب الأدب من سننه بإسناده إلى ثابت عن أنس ٢٥٥/٤

(٤) إمّالا: أصله إنْ ـ مكسورة الهمزة مُخفَّفة النون، وهي إن الشرطية ـ وما زائدةٌ، ولا نافيةٌ، فأدغمت النون في الميم، وحذف فعل الشرط وتقديره: تقبلوا أو تفعلوا. والمعنى: إن لم تقبلُوا ـ أن أُقطِعَكُم فاصبروا. وترد هذه الكلمة في المحاورات كثيراً

(٥) الأثرة: الإيثار، وأشار بذلك ﷺ إلى أن الأمر يصير في غيرهم فيختصبون دونهم الأموال. وكان الأمر كما وصف صلوات الله وسلامه عليه

(٦) فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ١١٧/٧.

(٧) أي: حين قدم النبي ـ ﷺ ـ المدينة والحديث أخرجه البخاري في كتاب الحرث والمزارعة ٨/٥

﴿ولا يَجِدُون في صُدُورِهم حاجةً مما أُوتوا﴾، أي. ولا يَجِدُون في أنفسِهم حَسداً للمهاجرين فيما فَضَّلهم الله بِهِ من المنزلة والشرفِ، والتقديمِ في الذكر والرتبةِ. قال الحسن البصري ﴿ولا يَجِدُون في صُدُورهم حاجةً﴾، يعني الحسدَ[1].

﴿مما أُوتُوا﴾ قال قتادةُ: يعني فيما أُعطي إخوانُهم. وكذا قال ابنُ زيدٍ. ومما يُستَدلُّ به على هذا المعنى ما رواه الإمامُ أحمد حيث قال:

حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا مَعمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن أنَس قال. كُنّا جُلوساً مع رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «يَطلُع عليكم الآنَ رجلٌ من أهلِ الجنةِ». فطلعَ رجلٌ من الأنصار تَنْطِفُ[2] لحيتُه من وَضُوئِه، قد تَعلَّق نعليه بيدِه الشِّمالِ فلما كان الغدُ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ مثلَ ذلك، فطلع ذلك الرجُل مثلَ المرَّة الأُولى. فلما كان اليومُ الثالث قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ مثلَ مَقالتِه أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حالِه الأُولى، فلما قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ تَبِعه عبدُ الله بن عمرو بنِ العاص، فقال: إني لاحَيتُ[3] أبي فأقسمتُ ألّا أدخُلَ عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تُؤويني إليك حتى تمضي فَعَلْتَ. قال: نعم. قال أنس: فكان عبدُ الله يُحدِّث أنه باتَ معه تلك الليالِيَ الثلاثَ فلم يره يقومُ من الليل شيئاً، غير أنه إذا تَعارَّ[4] تَقلَّبَ على فراشه ذَكَر الله وكبَّر حتى يقومَ لِصَلاةِ الفَجْر. قال عبد الله. غير أني لم أسمَعْه يقولُ إلّا خيراً، فلما مَضَت الثلاثُ ليالٍ وكِدْتُ أن أحتقِرَ عملَه قلتُ. يا عبد الله، لم يكُن بيني وبينَ أبي غَضَبٌ ولا هَجْر[5]، ولكن سَمِعْتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ لك ثلاث مرّاتٍ. «يطلُع عليكم الآنَ رجلٌ من أهلِ الجنة». فطلَعْتَ أنت الثلاثَ المرَّاتِ، فأردت أن آوِيَ إليكَ لأنظُرَ ما عَمَلُكَ فأقتديَ به، فلم أرَكَ تعمَلُ كثيرَ عملٍ، فما الذي بَلَغ بِكَ ما قال رسولُ الله؟ قال: ما هُو إلا ما رأيت فلما وَلَّيتُ دعاني فقال. ما هُو إلا ما رأيتَ، غير أني لا أجِدُ في نفسي لأحد من المسلمين غِشًا، ولا أحسُد أحداً على خيرٍ أعطاهُ الله إيّاه. قال عبد الله: هذهِ التي بَلَغت بِكَ، وهِي التي لا نُطيق[6]

ورَوَاه النسائي في اليوم والليلة عن سُوَيد بن نَصر، عن ابن المُبارك، عن مَعْمَرٍ، به. وهذا إسنادٌ صَحيحٌ على شرط الصحيحَين، لكن رواه عُقَيل وغيره عن الزُّهريِّ، عن رجلٍ، عن أنس[7] فالله أعلمُ.

وقال عبدُ الرحمن بن زَيدِ بن أسلمَ في قوله: ﴿ولا يجدُون في صُدُورهم حاجةً مما أُوتُوا﴾، يعني مما أُوتيَ المهاجرُون قال: وتكلَّم في أموالِ بني النَّضير بعضُ مَن تكلم من الأنصار، فعاتَبهم الله في ذلك، فقال. ﴿وَمَا أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتُم عليه من خيلٍ ولا ركابٍ ولكنَّ الله يُسَلِّط رُسُلَه على من يشاء والله على كلِّ شيءٍ قدير﴾، قال: وقال رسولُ الله: إن إخوانَكُم قد تركوا الأموالَ والأولادَ وخرجُوا إليكم. فقالوا: أموالُنا بينهم[8] قطائعُ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أَوَ غير ذلك؟. قالوا: وما ذاك يا رسولَ الله؟ قال: هم قومٌ لا يعرِفُون العمل، فتكفُونهم وتُقاسِمُونهم الثَّمر. فقالوا. نعم يا رسولَ الله[9].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨/٤٢.
(٢) أي: تقطر.
(٣) أي. نازعتُ.
(٤) أي: استيقظ. ولفظ المسند: «تعارّ وتقلّب» بواو العطف. وكلاهما مستقيم.
(٥) في النسخ: هجرة. والمثبت عن المسند.
(٦) مسند الإمام أحمد ٣/١٦٦.
(٧) انظر تحفة الأشراف للمزّي ١/٣٩٤ ـ ٣٩٥
(٨) في تفسير الطبري: «بينهم». والإقطاع يكون تمليكاً وغير تمليك.
(٩) أخرجه الطبري ٢٨/٤١ ـ ٤٢

وقولُه: ﴿ويُؤْثِرُون على أنفُسِهِم ولو كان بهم خَصاصَةٌ﴾، يعني: حاجَة، أي: يُقدِّمون المحاويج على حاجةِ أنفُسِهم، ويَبْدَءُون بالناس قبلَهم في حال احتياجِهم إلى ذلك. وقد ثَبَت في الصَّحِيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أفضلُ الصدقة جَهدُ المُقِلِّ»(١). وهذا المقامُ أعلى من حال الذين وصَفَ الله بقوله: ﴿ويُطعِمُون الطعام على حُبِّه﴾. وقوله: ﴿وآتى المال على حُبِّه﴾ فإن هؤلاء يَتصدَّقون وهم يُحِبُّون ما تصدَّقوا به، وقد لا يكُون لهم حاجةٌ إليه ولا ضَرُورةٌ به، وهؤلاء آثَرُوا على أنفُسِهم مع خَصاصَتِهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام تَصدُّق الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ بجميع ماله، فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما أبقيتَ لأهلِك؟» فقال: أبقيتُ لهم الله ورسولَه(٢). وهكذا الماءُ الذي عُرِض على عِكْرِمة وأصحابه يومَ اليَرمُوك، فكلٌّ منهم يأمُر بدفعِه إلى صاحبه، وهو جريحٌ مُثقَلٌ أحْوَجَ ما يكونُ إلى الماء، فرَدَّه الآخرُ إلى الثالث، فما وصَل إلى الثالثِ حتى ماتُوا عن آخرِهم ولم يَشرَبْه أحدٌ منهم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقال البخاريُّ: حدثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ بن كَثير، حدثنا أبو أُسامةَ، حَدَّثنا فُضَيل بن غَزْوان، حدثنا أبو حازم الأشجعيّ، عن أبي هُرَيْرَة قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، أصابني الجَهْدُ. فأرسل إلى نسائِه فلم يجد عندهنَّ شيئاً. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «ألا رجلٌ يُضيفُ هذا الليلةَ، رحمه الله؟» فقام رجُلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسُولَ الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضَيفُ رسول الله ـ ﷺ ـ لا تَدَّخِريه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلا قوتُ الصِّبْيَةِ. قال: فإذا أرادَ الصِّبيةُ العَشاء فنَوِّميهم وتعالي فأطفِئي السراج ونَطوِي بُطُونَنا الليلةَ. ففعلَت، ثم غدَا الرجُل على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «لقد عَجِبَ الله ـ عزَّ وجل ـ أو: ضَحِكَ ـ من فلانٍ وفلانةٍ». وأنزل الله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿ويُؤْثِرُون على أنفُسِهم ولو كان بهم خَصاصةٌ﴾(٣).

وكذا رواه البُخاريُّ في موضع آخر، ومسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ من طُرُقٍ، عن فُضَيل بن غَزْوان، به نحوَه. وفي رواية لمسلم تسميةُ هذا الأنصاري بأبي طَلْحَة، رَضِي الله عنه(٤).

وقولُه: ﴿ومَن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هُمُ المُفلِحُون﴾، أي: مَن سَلِم من الشُّحِّ فقد أفلَحَ وأنجَحَ.

قال أحمدُ: حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا داود بن قَيس الفَرَّاء، عن عُبَيد الله بن مِقْسَم، عن جابر بن عبد الله أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إيَّاكم والظُّلمَ، فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامة، واتَّقُوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قبلَكُم، حَمَلهم على أن سَفَكُوا دِماءَهم واستحَلُّوا محارِمَهم»(٤).

انفرد بإخراجه مسلمٌ، فرواه عن القَعْنَبِيّ، عن داودِ بن قَيس، به(٥).

وقال الأعمشُ وشعبةُ، عن عَمرو بن مُرَّة، عن عبد الله بن الحارث، عن زُهَير بن الأقمَر، عن عبد الله بن عَمْرٍو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «واتقُوا الظُّلم؛ فإن الظلمَ ظُلُمات يوم القيامة، واتقُوا الفُحْشَ، فإن الله لا

(١) فتح الباري، كتاب الحرث والمزارعة ٥/٨.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الوتر ٢/٦٩، والنسائي في كتاب الزكاة ٥/٥٨، والإمام أحمد في مسنده ٢/٣٥٨، ٣/٤١١ ـ ٤١٢، ٥/١٧٨، ١٧٩، ٢٦٥.

(٣) أخرجهُ أبو داودَ في كتاب الزكاة ٢/١٢٩، والترمذيُّ في أبواب المناقب، عارضة الأحوذي ١٣/١٣٧ ـ ١٣٩.

(٤) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٦٣١، وكتاب مناقب الأنصار ٧/١١٩، ومسلم، كتاب الأشربة ٣/١٦٢٤ ـ ١٦٢٥، وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١٢/١٨٩ ـ ١٩١، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٠/٨٧ ـ ٨٨.

(٥) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ١١١ من سورة طه، ٢٢٧ من سورة الشعراء وخرجناه هنالك.

يُحبُّ الفُحْشَ ولا التَّفحُّش، وإياكُم والشُّحَّ، فإنه أهلَكَ من كانَ قبلَكُم، أمَرهم بالظُّلم فظلَمُوا، وأمرهم بالفُجُور فَفَجَرُوا، وأمرهم بالقَطِيعة فَقَطعُوا».

رواه أحمدُ، وأبو داود من طريقِ شُعبَةَ، والنَّسائي من طريقِ الأعمش، كلاهُما عن عَمْرو بن مُرَّةَ، به[1].

وقال اللَّيثُ، عن يزيدَ بن الهاد، عن سُهَيل بن أبي صَالح، عن صفوانَ بن أبي يزيدَ، عن القَعقاع بن اللَّجْلاج[2]، عن أبي هُريرة أنه سمع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «لا يجتمعُ غبارٌ في سبيلِ الله ودُخانُ جهنَّم في جَوْفِ عبدٍ أبداً، ولا يجتمع الشحُّ والإيمانُ في قلبِ عبدٍ أبداً»[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدَةُ بن سُلَيمان، أخبرنا ابنُ المبارك، حدثنا المسعُوديُّ، عن جامع بن شداد، عن الأسودِ بن هِلالٍ قال: جاء رجلٌ إلى عبد الله[4] فقال: يا أبا عبدِ الرحمنِ، إني أخافُ أن أكون قد هلكتُ! فقال له عبدُ الله: وما ذاك؟ قال: سَمِعتُ الله يقول: ﴿ومن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هم المفلحون﴾، وأنا رجلٌ شَحِيحٌ، لا أكاد أن أُخرِجَ من يَدِي شيئاً! فقال عبد الله: ليس ذلك بالشُّحِّ الذي ذكَرَ اللهُ في القرآن، إنما الشحُّ الذي ذكر الله في القرآن أن تأكُلَ مالَ أخيك ظُلماً، ولكنَّ ذلك البخلُ، وبئس الشيءُ البخلُ[5].

وقال سفيان الثَّوري، عن طارقِ بن عبدِ الرحمن، عن سعيد بن جُبَير، عن أبي الهَيَّاج الأسَدِي قال: كنتُ أطوفُ بالبيتِ فرأيتُ رجلاً يقولُ: «اللهُمَّ قِنِي شُحَّ نفسي». لا يَزِيد على ذلك، فقلت له، فقال: «إني إذا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لم أسْرِق ولم أزْنِ ولم أفعلْ». وإذا الرجلُ عبدُ الرحمنِ بن عوف، رَضِيَ الله عنه. رَوَاه ابنُ جرير[6].

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني محمد بن إسحاقَ، حدثنا سُليمان بن عبد الرحمن الدِّمشقي، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، حدثنا مُجَمِّع بن جارية الأنصاري، عن عَمِّه يزيدَ بن جارية، عن أنسِ بن مالكٍ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بَريءٌ من الشح من أدَّى الزكاةَ، وقَرَى الضيفَ، وأعطَى في النائبة».

وقولُه: ﴿والذين جاءُو من بعدِهم يقولُون ربنا اغفِرْ لنا ولإخواننا الذين سَبَقُونا بالإيمان ولا تَجْعَل في قُلُوبنا غِلاً للذين آمنوا ربَّنا إنَّك رءوفٌ رحيمٌ﴾. هؤلاء هُم القسمُ الثالثُ ممَّن يستحِقُّ فُقراؤُهم من مال الفَيْء، وهم المهاجرُون ثم الأنصار، ثم التابعُون بإحسانٍ، كما قال في آية براءة: ﴿والسابِقُون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعُوهم بإحسانٍ رضي الله عنهم﴾، فالتابعُون لهم بإحسان هم المتبعُون لآثارهم الحَسَنةِ وأوصافهم الجَميلة، الدَّاعُون لهم في السرِّ والعلانية. ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿والذين جاءُوا من

(١) مسند الإمام أحمد ٢/١٥٩ ـ ١٧٠، وسنن أبي داود، كتاب الزكاة ٢/١٣٣، والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٦/٢٩٠

(٢) في النسخ: بن الجلاح. وانظر مصادر التخريج

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره بإسناده إلى الليث ٤/٣٢٠، وأخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى صفوان ٢/٣٤٢، والترمذي والنسائي في كتاب الجهاد، عارضة الأحوذي ٧/١٢٩ ـ ١٣٠، والنسائي ٧/١٣ ـ ١٤، والحاكم وصححه، المستدرك ٢/٧٢.

(٤) هو ابن مسعود

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٩/٢٤٨، والحاكم ـ وصححه ـ في تفسير سورة التغابن ٢/٤٩٠، والطبري ٢٨/٤٣.

(٦) تفسير الطبري ٢٨/٤٣.

بَعدِهم يقولُون﴾، أي قائلين: ﴿ربَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا الذين سَبَقُونا بالإيمان ولا تَجْعل في قُلُوبنا غِلًّا﴾، أي بُغضاً وحَسَداً ﴿للذين آمنُوا ربَّنا إنَّك رَءُوفٌ رحيمٌ﴾. وما أحسَنَ ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمةِ: أن الرافضيَّ الذي يسبُّ الصحابةَ ليس له في مالِ الفيءِ نَصيبٌ لعدم اتِّصافه بما مَدَحَ اللهُ به هؤلاءِ في قولهم: ﴿ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سَبَقُونا بالإيمان ولا تجعَلْ في قُلُوبنا غِلًّا للذين آمنوا ربَّنا إنك رءوفٌ رحيمٌ﴾[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا موسى بن عبد الرحمنِ المسروقي، حدثنا مُحمَّد بن بشر، حدثنا إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ بن مهاجرٍ، عن أبيه، عن عائشةَ أنها قالت: أُمِروا أن يَستغفِرُوا لهم، فسَبُّوهم ثم قرأت هذه الآية: ﴿والذين جاءُوا مِنْ بَعدِهم يقولُون ربَّنا اغفر لنا ولإخوانِنا الذين سَبَقُونا بالإيمان﴾[2]... الآية.

وقال إسماعيل بن عُلَيَّة، عن عبد الملك بن عُمَير، عن مَسْرُوقٍ، عن عائشةَ قالت: أُمِرتم بالاستغفار لأصحابِ محمد - ﷺ - فسَبَبْتُموهم. سَمِعتُ نَبِيَّكم - ﷺ - يقولُ: «لا تَذْهَبُ هذه الأمَّةُ حتى يَلْعَنَ آخرُها أوَّلَها». رَواه البَغَوِيُّ[3].

وقال أبو داودَ: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ، حدثنا أيوب، عن الزُّهريِّ قال: قال عُمَر - رضي الله عنه -: ﴿وما أفاءَ اللهُ على رَسُوله منهم فما أوجفتُم عليه من خيلٍ ولا رِكابٍ﴾، قال الزُّهريُّ: قال عُمَر: هذه لرسول الله - ﷺ - خاصَّةً، قُرَىً عَرَبِيَّةً، [فَدَكُ] وكذا وكذا ﴿ما[4] أفاءَ اللهُ على رسوله من أهلِ القُرى فللَّه وللرسول ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾، و﴿للفقراء المهاجرين الذين أُخرِجُوا من ديارهم وأموالهم﴾، ﴿والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمانَ من قبلهم﴾، ﴿والذين جاءُوا مِن بَعدِهم﴾، فاستوعَبَتْ هذه الآيةُ الناسَ، فلم يبق أحدٌ من المسلمين إلا له فيها حَقٌّ - قال أيُّوبُ: أو قال: حَظٌّ - إلا بعضَ مَن تَملِكُون من أرِقَّائكم. كذا رواه أبو داودَ، وفيه انقطاع[5].

وقال ابنُ جَريرٍ: حدثنا ابنُ عبدِ الأعلى، حدثنا ابنُ ثَورٍ، عن مَعْمَرٍ، عن أيُّوبَ، عن عِكْرِمةَ بن خالدٍ، عن مالك بن أوسِ بن الحَدَثانِ قال: قرأ عُمرُ بن الخطاب: ﴿إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين﴾ حتى بَلَغ ﴿عليمٌ حكيمٌ﴾، ثم قال: هذه لهؤلاءِ، ثم قرأ: ﴿واعلمُوا أنما غَنِمتم من شيءٍ فأَنَّ للهِ خُمُسَه وللرسولِ ولذي القُربى﴾... الآية، ثم قال: هذهِ لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿ما أفاءَ اللهُ على رسوله من أهل القُرى﴾ حتى بلغ: ﴿للفقراء﴾، ﴿والذين تَبَوَّءُوا الدارَ والإيمانَ﴾، ﴿والذين جاءُوا مِنْ بَعدِهم﴾ ثم قال: استوعَبَت هذه المسلمين عامَّةً، وليس أحد إلا له فيها حقٌّ، ثم قال: لئن عِشْتُ لَيأتِيَنَّ الراعي - وهو بِسَرْوِ حِمْيَرَ[6] - نَصِيبُه فيها، لم يَعْرَق فيها جَبِينُه.

---

(١) أخرجه القرطبي في تفسيره ١٨/٣٢.

(٢) الدر المنثور ٨/١١٣.

(٣) تفسير البغوي ٤/٣٢١.

(٤) في النسخ: «مما». والمثبت عن سنن أبي داود.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة، والفيء ٣/١٤١.

(٦) في تفسير الطبري ٢٨/٣٧: «وهو بِسَرْوِ حِمْيَرَ». والصواب ما أثبت، وانظر الحديث في الأموال لأبي عبيد ٢٣ - ٢٤ «والسَّرْوُ» كل موضع بين انحدار وارتفاع.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ
مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن
قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾

يُخبرُ تعالى عن المنافقين كعبدِ الله بن أبي وأضرابه حين بَعَثُوا إلى يهودِ بني النَّضير يَعِدُونهم النصر من أنفسِهم، فقال تعالى: ﴿ألم تَرَ إلى الذين نافقُوا يقولُون لإخوانهم الذين كفرُوا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجَنَّ معكُم ولا نُطيعُ فيكُم أحداً أبداً وإن قُوتلتُم لننصرنَّكُم﴾، قال الله تعالى: ﴿والله يشهدُ إنهم لكاذبُون﴾، أي: لكاذبُون فيما وَعَدُوهم به، إمّا لأنَّهم قالُوا لهم قولاً ومن نيّتِهم ألاَّ يفُوا لهم به، وإما لأنَّهم لا يَقَعُ منهم الذي قالُوه. ولهذا قال: ﴿ولئن قُوتِلُوا لا يَنصرُونهم﴾، أي: لا يُقاتلون معَهم، ﴿ولئن نَصَرُوهم﴾ أي: قاتلوا معهم ﴿لَيُوَلُّنَّ الأدبار ثم لا يُنصَرُون﴾، وهذه بشارة مُستقلة بنفسها.

ثم قال تعالى: ﴿لأنتُم أشدُّ رهبةً في صُدورهم من الله﴾، أي: يَخافُون منكم أكثرَ من خوفِهم من الله، كقوله: ﴿إذا فريقٌ منهم يخشون الناس كخشيةِ الله أو أشدَّ خشية﴾، ولهذا قال: ﴿ذلكَ بأنهم قومٌ لا يَفقَهُون﴾.

ثم قال: ﴿لا يُقاتِلُونكم جميعاً إلا في قُرًى مُحَصَّنةٍ أو من وَرَاءِ جُدُرٍ﴾، يعني أنهم من جُبْنِهم وهَلَعِهم لا يَقْدِرون على مواجهةِ جيشِ الإسلام بالمبارَزةِ والمقابَلَةِ، بل إما في حُصُونٍ أو من وراءِ جُدُرٍ مُحاصَرين، فيُقاتِلون للدَّفعِ عنهم ضرورةً.

ثم قال: ﴿بأسُهم بينهم شَديدٌ﴾، أي: عَداوتُهم بينهم شديدةٌ، كما قال: ﴿ويُذيق بعضَكم بأسَ بعضٍ﴾. ولهذا قال: ﴿تَحسَبُهم جميعاً وقلوبُهم شتّى﴾، أي: تراهُم مُجتَمِعين فتحسَبُهم مُؤتلِفين، وهم مختلفون غايةَ الاختلافِ، قال إبراهيمُ النخَعيُّ: يعني أهلَ الكتابِ والمنافقين: ﴿ذلكَ بأنهم قومٌ لا يَعقِلونَ﴾.

ثم قال: ﴿كمَثَلِ الذين مِن قَبلِهم قريباً ذاقُوا وبالَ أمرهم ولهم عذابٌ أليمٌ﴾، قال مجاهد، والسُّدّي، ومقاتِل بنُ حَيّان: كمثَلِ ما أصابَ كُفّارَ قُريشٍ يومَ بدرٍ. وقال ابن عباس: ﴿كمثل الذينَ من قَبْلِهم﴾، يعني: يَهُودَ بني قَيْنُقاعٍ. وكذا قال قتادةُ، ومحمد بن إسحاق. وهذا القول أشبهُ بالصواب، فإنّ يَهُودَ بني قَيْنُقاع كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ قد أجلاهم قبلَ هذا.

وقولُه: ﴿كمَثَلِ الشيطانِ إذ قال للإنسان اكفُر فلما كَفَر قال إنّي بريءٌ منك﴾ يعني: مَثَلُ هؤلاء اليهودِ في اغترارهم بالذين وَعَدُوهم النصرَ من المنافقين، وقولِ المنافقين لهم: ﴿لَئِن قُوتِلتُم لَننصُرنَّكُم﴾، ثم لما حَقَّت الحقائقُ وَجَدَّ بهم الحصارُ والقتالُ تخلَّوا عنهم وأسلمُوهم للهَلَكَةِ، مِثالُهم في هذا كَمَثَلِ الشيطانِ إذ سَوَّل للإنسانِ ـ والعِياذُ بالله ـ الكفرَ فإذا دخل فيما سَوَّله تبرّأ منه وتنصَّل، وقال: ﴿إنّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ﴾.

وقد ذكر بعضهم ها هُنا ـ قصّةً لبعض عُبّاد بني إسرائيل هي كالمثالِ لهذا المثَل، لا أنها المرادةُ وحدَها بالمثَلِ، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلةِ لها، فقال ابنُ جَرير

حدثنا خلّاد بن أسلم، أخبرنا النضرُ بن شُمَيل، أخبرنا شُعبةُ، عن أبي إسحاق، سمعتُ عبد الله بن نَهيك قال: سمعتُ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن راهباً تعبّد ستّين سنةً، وإنّ الشيطانَ أراده فأعياه، فعمد إلى امرأةٍ فأجنّها ولها إخوةٌ، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القسّ فيُداويَها قال: فجاءوا بها إليه فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته، فأتاها فحمَلت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتُها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبُك، إنّك أعييتَني، أنا صنعتُ هذا بك فأطعني أُنجِكَ مما صنعتُ بك، اسجُد لي سجدةً. فسجَدَ له، فلما سجَد له قال: إنّي بريءٌ منك، إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين، فذلك قولُه: ﴿كَمَثَلِ الشيطانِ إذ قال للإنسان اكفُرْ فلمّا كفَر قال إنّي بريءٌ منك إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين﴾[1].

وقال ابنُ جَرير: حدَّثني يحيى بن إبراهيم المسعوديُّ، حدثنا أبي، عن أبيه، عن جدّه، عن الأعمش، عن عُمارةَ، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ الشيطانِ إذ قال للإنسان اكفُر فلما كفَر قال إنّي بريءٌ منك إنّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمين﴾، قال: كانت امرأةٌ ترعَى الغنَم، وكان لها أربعةُ إخوةٍ، وكانت تأوي بالليل إلى صَومعةِ راهبٍ، قال: فنزل الراهبُ ففجَر بها، فحملت، فأتاه الشيطانُ فقال له: اقتُلها ثم ادفِنها، فإنك رجل مُصدَّقٌ يُسمَعُ قولُك فقتلها، ثم دفنها، قال: فأتى الشيطان إخوتَها في المنام فقال لهم: إنّ الراهبَ صاحبَ الصومعةِ فجَر بأختِكم، فلما أحبلها قتَلها ثم دفنها في مكانِ كذا وكذا. فلما أصبحُوا قال رجلٌ منهم: والله لقد رأيتُ البارحةَ رؤيا ما أدري أقُصُّها عليكم أم أترُك؟ قالوا: لا بل قُصَّها علينا قال. فقَصّها، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيتُ ذلك، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيتُ ذلك قالوا فوالله ما هذا إلا لشيءٍ. قال: فانطلقوا، فاستعدَوا مَلِكهم على ذلك الراهب، فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فلَقِيه الشيطانُ فقال: إني أنا الذي أوقعتُك في هذا، ولن يُنجيك منه غيري، فاسجُد لي سَجدةً واحدةً وأُنجِيَك مما أوقعتُك فيه. قال: فسجد له، فلما أتوا به مَلِكهم تبرّأ منه، وأُخِذَ فقُتِل[2].

وكذا رُوِي عن ابن عباس، وطاوسٍ، ومُقاتِل بن حَيّانَ، نحوُ ذلك. واشتهر عند كثيرٍ من الناس أن هذا العابدَ هو برصيصا[3]، والله أعلم. وهذه القصة مخالفةٌ لقصّةِ جُريجٍ العابدِ، فإن جُريجاً اتهمته امرأة بَغِيٌّ بنفسها، وادّعت أن حَمْلها منه، ورَفعت أمره إلى وليِّ الأمر، فأمر به فأُنزِل من صَومعته وخُرِّبت صومعته وهو يقول: ما لكُم! ما لكُم! فقالوا: يا عدوَّ الله، فعلتَ بهذه المرأة كذا وكذا! فقال جُريج: اصبِرُوا. ثم أخذ ابنَها وهو صغيرٌ جدّاً ثم قال: يا غلامُ، مَن أبوك؟ قال: أبي الراعي ـ وكانت قد أمكَنته من نفسِها فحملت منه ـ فلما رأى بنو إسرائيلَ ذلك عظّموه كُلُّهم تعظيماً بليغاً وقالوا: نُعيد صومعَتك من ذهب قال: لا، بل أعيدُوها من طين، كما كانت.

وقولُه: ﴿فكان عاقبتَهما أنّهما في النار خالدَين فيها﴾، أي: فكان عاقبةُ الأمرِ بالكفر والفاعلِ له مَصيرَهما إلى نار جَهنّم خالدينِ فيها، ﴿وذلك جزاءُ الظالمين﴾، أي: جزءُ كلِّ ظالمٍ.

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/٤٩.
(٢) تفسير الطبري ٢٨/٤٩ ـ ٥٠.
(٣) أخرجه القرطبي في تفسيره ١٨/٣٧

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن عَونِ بن أبي جُحَيفة، عن المُنذِر بن جَرير، عن أبيه قال: كنّا عند رسول الله ـ ﷺ ـ في صَدْرِ النهار، قال: فجاءه قومٌ حُفاةٌ عُراة مُجتابي النِّمار ـ أو: العَبَاءِ ـ مُتقلّدي السُّيوفِ، عامّتُهم من مُضَرَ، بل كُلُّهم من مُضَرَ، فتغيَّر وجهُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ لما رأى بهم من الفاقةِ، قال: فدخل ثم خَرَج، فأمر بلالاً فأذَّن وأقامَ الصلاة، فصلَّى ثم خَطَب، فقال: ﴿يا أيُّها الناسُ اتقُوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ﴾.. إلى آخر الآية: ﴿إن الله كان عليكم رَقيباً﴾ وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿ولْتنظُر نفسٌ ما قدَّمت لغدٍ﴾، تَصَدَّق رجلٌ من دينارِه، من دِرْهَمِه، من ثَوْبِه، من صاعِ بُرِّه، من صاعِ تَمْرِه، حتى قال: ولو بشِقِّ تَمْرَةٍ. قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرَّةٍ كادت كفُّه تعجِزُ عنها، بل قد عَجَزت، ثم تتابَعَ الناسُ حتى رأيتُ كَومين من طَعَامٍ وثيابٍ، حتى رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يتهلَّلُ وجهُه كأنه مُذْهَبة[1] فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنة فله أجرُها وأجرُ مَن عَمِل بها بعدَه، من غير أن يَنقُصَ من أُجورِهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئَةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِل بها من غير أن يَنقُصَ من أوزارِهم شيءٌ». انفرد بإخراجه مُسلم من حديث شُعبَةَ، بإسناده مثله[2].

فقولُه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقُوا الله﴾. أمْرٌ بتقواه، وهي تشمَلُ فِعْلَ ما به أمَر، وتركَ ما عنه زَجَر.

وقولُهُ: ﴿ولْتنظُر نفسٌ ما قدَّمت لغدٍ﴾، أي: حاسِبُوا أنفُسَكم قبلَ أن تُحاسَبُوا، وانظُروا ماذا ادَّخرتُم لأنفُسِكم من الأعمالِ الصالحةِ ليوم مَعادكم وعَرْضِكم على ربِّكم، ﴿واتقُوا الله﴾: تأكيدٌ ثانٍ، ﴿إنَّ الله خبيرٌ بما تعمَلُون﴾، أي: اعلمُوا أنه عالمٌ بجميعِ أعمالِكم وأحوالِكم، لا تخفَى عليه منكُم خافيةٌ، ولا يَغيبُ عنه من أُمورِكم جليلٌ ولا حقيرٌ.

وقولُه: ﴿ولا تكونوا كالَّذين نَسُوا الله فأنساهُم أنفُسَهم﴾، أي: لا تنسَوا ذكرَ الله فيُنسيكُم العملَ لمصالحِ أنفُسِكم التي تنفعُكم في مَعادكم، فإن الجَزاءَ من جنسِ العَمَلِ، ولهذا قال: ﴿أولئك هُم الفاسِقُون﴾، أي: الخارجُون عن طاعةِ الله الهالكُون يومَ القيامة، الخاسِرُونَ يوم مَعادهم، كما قال: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تُلهِكُم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكرِ الله ومَن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسِرُون﴾.

وقال الحافظُ أبو القاسم الطَّبَراني: حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نَجْدَة الحَوْطِيُّ، حدثنا [أبو][3] المغيرة، حدثنا حَريزُ بن عثمان، عن نُعَيم بن نَمْحَةَ قال: كان في خُطبةِ أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: أما تعلمُون

(١) المشهور في ضبط هذه الكلمة: مُذْهَبة، بالذال المعجمة والباء، والمُذْهَبَة: الفضة المشربة ذهباً، والمذهبة من الجلود: ما كانت العرب تصنعه من جلود، وتجعل فيها خطوطاً مذهبة يرى بعضها في إثر بعض، وهذا تمثيل لحسن الوجه وإشراقه. وهناك ضبط آخر، وهو مُدْهُنَة، وهو ما يجعل فيه الدهن، فيكون شبه الوجه بالدهن في الصفاء. ومال جماعة من العلماء منهم القاضي عياضٌ إلى أن مُدْهُنة، تصحيف.

(٢) تقدم الحديث في مفتتح سورة النساء، وعند تفسير الآية ١٢ من سورة يس، وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه.

(٣) سقط من النسخ، والمثبت من المعجم الكبير، وأبو المغيرة هو: عبد القدوس بن الحجاج الخولاني، انظر تهذيب الكمال، ترجمة الحَوْطي ١/٣٩٦، وترجمة حريز بن عثمان ٥/٥٧١.

أنكم تغدُون وتَرُوحون لأجلٍ معلوم. فمَنِ استطاع أن يقضي الأجل وهو في عَمَلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فليفعَلْ، ولن تنالُوا ذلك إلا بالله عزَّ وجلَّ. إنَّ قوماً جعَلُوا آجالَهم لغيرهم فنهاكم الله أن تكونُوا أمثالَهم: ﴿ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنساهم أنفُسَهم﴾، أين مَن تعرفون مِن إخوانكم؟ قدِموا على ما قدَّموا في أيام سلَفِهم، وحلُّوا بالشِّقوة والسعادة، أين الجبَّارون الأوَّلون الذين بنَوا المدائن وحفَّفُوها[1] بالحوائط. قد صاروا تحت الصخر والآبار. هذا كتابُ الله لا تفنى عجائبُه فاستضيئُوا منه ليوم ظُلمَةٍ، [[2]- واستنصحوا كتابه وتبيانه[2]-]، إن الله أثنى على زكريَّا وأهلِ بيته فقال: ﴿كانُوا يُسَارِعون في الخيرات ويدعوننا رَغَباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾، لا خيرَ في قول لا يُراد به وجهُ الله، ولا خير في مالٍ لا يُنفَق في سبيل الله، ولا خيرَ فيمن يغلب جهلُه حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومةَ لائمٍ[3].

هذا إسنادٌ جيد، ورجاله كلُّهم ثقات، وشيخُ حَريز بن عثمان، وهو نعيم بن نَمْحَة، لا أعرفُه بنفي ولا إثباتٍ، غير أنَّ أبا داود السِّجستاني قد حكَم بأن شُيوخَ حَرِيزٍ كلُّهم ثقاتٌ. وقد رُوِي لهذه الخطبة شواهدُ من وُجوهٍ أُخَرَ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿لا يستوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنَّةِ﴾، أي: لا يَستوي هؤلاءِ وهؤلاءِ في حُكم الله يومَ القيامةِ، كما قال: ﴿أم حَسِبَ الذين اجترحُوا السيئات أن نجعلَهم كالذين آمنُوا وعمِلوا الصالحاتِ سواءً محياهُم ومماتُهم ساءَ ما يحكُمون﴾. وقال: ﴿وما يَستوِي الأعمى والبصيرُ والذين آمنوا وعملُوا الصالحات ولا المسيءُ قليلاً مَا تتذكرون﴾ وقال: ﴿أم نجعلُ الذين آمنُوا وعملوا الصالحات كالمُفسِدين في الأرض أم نجعلُ المتَّقين كالفُجَّارِ﴾، في آياتٍ أُخَرَ دالاتٍ على أن الله ـ سبحانه ـ يكرم الأبرارَ، ويُهين الفجَّارَ. ولهذا قال ها هنا: ﴿أصحابُ الجنةِ هم الفائزُونَ﴾، أي: الناجُون السالمون[4] من عذابِ الله عزَّ وجلَّ.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يقولُ تعالى معظِّماً لأمر القرآن، ومُبيِّناً عُلُوَّ قدره، وأنه ينبغي أن تخشَع له القلوبُ، وتتصدَّع عند سماعه لما فيه من الوعدِ الحقِّ والوعيدِ الأكيدِ: ﴿لو أنزلنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأيته خاشِعاً متصدِّعاً من خشيةِ الله﴾، أي: فإذا كان الجبلُ في غِلَظِه وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبَّر ما فيه، لخشَعَ وتصدَّع من خوف الله عزَّ وجلَّ،

---

(١) في نسخة: وحصّنوها. وما أثبت يوافق لفظ المعجم، ومعنى حفَّفوها بالحوائط: جعلوا حولها.

(٢ ـ ٢) في نسخة: «واستضيئوا ببيانه وتبيانه». وفي أخرى: وانتفعوا ببيانه وبيانه. والمثبت من الدر المنثور ٨/ ١٢٠، وانظر حلية الأولياء ١/ ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) المعجم الكبير ١/ ٦٠ ـ ٦١.

(٤) في النسخ: المسلمون.

فكيفَ يَليقُ بكُم - أيها البشرُ - ألاَّ تلينَ قلوبُكم وتخشعَ، وتتصدَّعَ من خشيةِ الله، وقد فهِمتُم عن الله أمرَه وتدبَّرتُم كتابَه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وتلك الأمثالُ نضربها للناسِ لعلَّهم يتفكَّرون﴾.

قال العَوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ﴾... إلى آخرها، يقول: لو أني أنزلتُ هذا القرآنَ على جبلٍ حمَّلته إياه تصدَّعَ وخشَعَ من ثِقَله، ومن خشيةِ الله. فأمرَ اللهُ الناسَ إذا نزل عليهم القرآنُ أن يأخذُوه بالخشيةِ الشديدةِ والتخشُّعِ. ثم قال: كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ ﴿لعلَّهم يتفكَّرون﴾[1]. وكذا قال قتادة، وابنُ جرير.

وقد ثبَتَ في الحديثِ المتواترِ أنَّ رسولَ الله - ﷺ - لمَّا عُمِلَ له المنبرُ، وقد كان يومَ الخطبةِ يقفُ إلى جانبِ جِذْعٍ من جُذوعِ المسجدِ، فلما وُضِعَ المنبرُ أوَّلَ ما وُضِعَ، وجاء النبيُّ - ﷺ - ليخطبَ فجاوزَ الجذعَ إلى نحوِ المنبرِ، فعند ذلك حَنَّ الجذعُ وجعل يئنُّ كما يئنُّ الصبيُّ الذي يُسكَّنُ[2]، لما كان يسمَعُ من الذكرِ والوحيِ عنده. ففي بعضِ رواياتِ هذا الحديث قال الحسنُ البصريُّ بعد إيراده: «فأنتم أحقُّ أن تشتاقُوا إلى رسولِ الله - ﷺ - من الجذعِ». وهكذا هذه الآيةُ الكريمةُ، إذا كانت الجبالُ الصُّمُّ لو سَمِعت كلامَ الله وفهمته لخشَعت وتصدَّعت من خشيتِه، فكيفَ بِكُم وقد سَمِعتم وفهِمتم؟ وقد قال تعالى: ﴿ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبالُ أو قُطِّعت به الأرضُ أو كُلِّم به الموتى﴾... الآية. وقد تقدَّمَ أنَّ معنى ذلك: «أي لكان هذا القرآن»[3]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ من الحجارةِ لما يتفجَّرُ منه الأنهارُ وإنَّ منها لما يَشَّقَّقُ فيخرجُ منه الماءُ وَإِنَّ منها لما يَهبِطُ من خشيةِ الله﴾.

ثم قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالمُ الغيبِ والشهادةِ هو الرحمنُ الرحيمُ﴾ أخبر تعالى أنَّه الذي لا إله إلا هو فلا ربَّ غيرُه، ولا إله للوجودِ سواهُ، وكلُّ ما يُعبَدُ من دونه فباطلٌ، وأنَّه عالمُ الغيبِ والشهادةِ، أي: يعلم جميعَ الكائناتِ المشاهَداتِ لنا والغائباتِ عنا فلا يخفَى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، من جليلٍ وحقيرٍ، وصغيرٍ وكبيرٍ، حتى الذرِّ[4] في الظلماتِ.

وقولُه: ﴿هو الرحمنُ الرحيمُ﴾: قد تقدَّم الكلام على ذلك في أوَّلِ التفسير، بما أغنَى عن إعادتِه ها هنا. والمرادُ أنه ذُو الرحمةِ الواسعةِ الشاملةِ لجميعِ المخلوقاتِ، فهو رحمنُ الدنيا والآخرةِ ورحيمُهما، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحمتي وَسِعت كلَّ شيءٍ﴾، وقال: ﴿كَتَبَ ربكم على نفسه الرحمةَ﴾، وقال: ﴿قُل بفضلِ الله وبرحمتِه فبذلك فليفرَحُوا هو خيرٌ مما يَجمعُون﴾.

ثم قال: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو المَلِكُ﴾، أي: المالكُ لجميعِ الأشياءِ المتصرِّفُ فيها بلا مُمانعةٍ ولا مُدافعةٍ.

وقولُه: ﴿القدُّوسُ﴾، قال وهبُ بن منبِّه: أي الطاهر. وقال مجاهد، وقتادة: أي المُبارك. وقال ابن جُرَيج: تُقدِّسُه الملائكةُ الكرامُ. ﴿السلامُ﴾، أي: من جميعِ العُيوبِ والنقائصِ؛ بكمالِه في ذاتِه وصفاتِه وأفعاله.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨/٥٣.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، فتح الباري ٦/٦٠١ - ٦٠٢. وانظر دلائل النبوة لأبي نُعيم ٣٩٩ - ٤٠٤.
(٣) انظر تفسير الآية ٣١ من سورة الرعد.
(٤) الذَّرُّ: صغار النمل.

وقولُه: ﴿المؤمنُ﴾، قال الضحّاك، عن ابن عباس: آمَنَ خَلْقَه مِن أن يَظلِمَهم. وقال قتادةُ: آمنَ[١] بقوله إنه حقٌّ. وقال ابنُ زيدٍ: صَدَّقَ عبادَه المؤمنين في إيمانِهم به.

وقولُه: ﴿المُهَيمِنُ﴾، قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: أي: الشاهدُ على خلقِهِ بأعمالِهم، بمعنى هو رقيبٌ عليهم، كقولِهِ: ﴿واللهُ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ اللهُ شهيدٌ على ما يفعلُونَ﴾. وقولِهِ: ﴿أفمن هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبت﴾... الآية.

وقولُه: ﴿العزيزُ﴾، أي: الذي قد عَزَّ كلَّ شيءٍ فقَهره، وغَلَبَ الأشياءَ فلا يُنالُ جنابُه لعزّتِهِ وعظَمتِه وجَبروتِهِ وكبريائِهِ. ولهذا قال: ﴿الجبّارُ المتكبِّرُ﴾، أي: الذي لا تليقُ الجبريّةُ إلا لهُ، ولا التكبُّرُ إلا لعظَمتِه، كما تقدَّمَ في الصحيحِ: «العظمةُ إزاري، والكبرياءُ رِدائي، فمَن نازَعني واحداً منهما عذَّبتُه»[٢].

وقال قتادةُ: ﴿الجبّار﴾: الذي جَبَرَ خَلْقَهُ على ما يشاء. وقال ابنُ جريرٍ: ﴿الجبّار﴾: المصلحُ أمورَ خلقِه، المُصرِّفُهم فيما فيه صلاحُهم[٣]. وقال قتادةُ: المتكبِّر، يعني عن كلِّ سُوءٍ. ثم قال تعالى: ﴿سبحانَ اللهِ عما يُشرِكون﴾.

وقولُه: ﴿هو اللهُ الخالقُ البارئُ المُصَوِّرُ﴾ الخَلْقُ: التقديرُ، والبَرْءُ: هو الفَرْيُ، وهو: التنفيذُ وإبرازُ ما قدَّره وقرَّره إلى الوجود، وليس كلُّ مَن قدَّرَ شيئاً ورتَّبه يقدِرُ على تنفيذِه وإيجادِهِ سوى اللهِ عزَّ وجلَّ. قال الشاعر يمدحُ آخرَ[٤]:

ولأنتَ تَفري ما خَلَقتَ وبَعْـ ... ـضُ القومِ يَخلُقُ ثُمَّ لا يَفْري

أي: أنت تُنفِّذُ ما خَلَقت، أي: قدَّرت، بخلافِ غيرِكَ فإنه لا يستطيعُ ما يُريدُ. فالخَلْقُ: التقديرُ، والفَرْيُ: التنفيذُ. ومنه يقال: قدَّرَ الجلّادُ ثم فَرَى، أي: قَطَعَ على ما قدَّرَه بحسَبِ ما يُريده.

وقولُه تعالى: ﴿الخالقُ البارئُ المصوِّرُ﴾، أي: الذي إذا أرادَ شيئاً قال له: كُن، فيكونُ على الصفةِ التي يُريد، والصورةِ التي يختار. كقوله: ﴿في أيِّ صورةٍ ما شاءَ ركَّبك﴾ ولهذا قال: ﴿المُصَوِّرُ﴾، أي: الذي يُنفِّذُ ما يريد إيجادَه على الصفةِ التي يريدها.

وقولُه: ﴿له الأسماءُ الحُسنى﴾، قد تقدَّمَ الكلامُ على ذلك في «سورة الأعراف»، وذِكرُ الحديثِ المرويِّ في الصحيحين عن أبي هُريرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن لله تسعةً وتسعينَ اسماً، مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخلَ الجنةَ، وهو وِترٌ يحبُّ الوِترَ»[٥]. وتقدم سياقُ الترمذي وابنُ ماجه له، عن أبي هُريرة أيضاً، وزادَ بعد قوله: «وهو وِترٌ يُحبُّ الوِترَ» ـ واللفظ للترمذي ـ: «هو اللهُ الذي لا إلهَ إلا هو الرحمنُ، الرحيمُ، الملكُ، القدّوسُ، السلامُ، المؤمنُ، المُهيمنُ، العزيزُ، الجبّارُ، المتكبِّرُ، الخالقُ، البارئُ، المُصَوِّرُ، الغفّارُ، القهّارُ، الوهّابُ، الرزّاقُ، الفتّاحُ، العَليمُ، القابضُ، الباسطُ، الخافضُ، الرافعُ، المُعِزُّ، المُذِلُّ، السميعُ، البصيرُ، الحَكَمُ، العَدْلُ، اللّطيفُ، الخبيرُ، الحَليمُ، العَظيمُ، الغفورُ، الشكورُ، العليُّ، الكبيرُ، الحفيظُ، المُقيتُ، الحَسيبُ، الجَليلُ، الكَريمُ، الرَّقيبُ، المُجيبُ، الواسعُ، الحكيمُ، الودودُ، المَجيدُ، الباعثُ، الشَّهيدُ،

(١) في نسخة: لقوله. وأخرى: كقوله. والمعنى ـ والله أعلم ـ أنه آمن عباده بما أخبر عن نفسه تعالى بأنه حق.

(٢) تقدَّم الحديث آخر سورة الجاثية، وخرجناه هنالك.

(٣) تفسير الطبري ٢٨/٢٥.

(٤) زهير بن أبي سُلْمَى، ديوانه ٩٤، وانظر تفسير القرطبي ١٨/٤٨.

(٥) تقدم الحديث عند تفسير البسملة، والآية ١٨٠ من سورة الأعراف، وخرجناه هنالك.

الحقُّ، الوَكيلُ، القَوِيُّ، المَتِينُ، الوَلِيُّ، الحميدُ، المُحصي، المُبدِئُ، المُعِيدُ، المُحيي، المُميتُ، الحَيُّ، القَيُّومُ، الواجِدُ، المَاجِدُ، الواحِدُ، الصمَدُ، القديرُ، المُقْتَدِرُ، المقدِّم، المُؤخِّر، الأوَّلُ، الآخِرُ، الظاهِرُ، الباطِنُ، الوَالِي، المُتَعالِي، البَرُّ، التوَّابُ، المُنتقِمُ، العَفُوُّ، الرءوفُ، مالِكُ المُلكِ، ذُو الجلال والإكرام، المُقْسِطُ، الجَامِعُ، الغَنِيُّ، المُغْنِي، المانِعُ، الضارُّ، النافِعُ، النُورُ، الهادِي، البَدِيعُ، الباقِي، الوارِثُ، الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ».

وسياقُ ابن ماجه بزيادةٍ ونُقصانٍ، وتقديمٍ وتأخيرٍ، وقد قدَّمنا ذلك مَبسُوطاً مُطوَّلاً بطُرُقِه وألفاظِه، بما أغنى عن إعادته هنا[1].

وقولُه: ﴿يُسَبِّحُ له ما في السمواتِ والأرضِ﴾ كقوله: ﴿تُسَبِّحُ له السمواتُ السبعُ والأرضُ ومَن فيهنَّ وإن مِّن شيءٍ إلا يُسبِّحُ بحَمدِه ولكن لا تفقَهون تسبيحَهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.

وقوله: ﴿وهو العزيزُ﴾، أي: فلا يُرامُ جَنابُه ﴿الحَكِيمُ﴾ في شَرْعه وقَدَرِه؛ وقد قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا أبو أحمد الزُّبيريُّ، حدثنا خالد ـ يعني ابن طَهْمان، أبو العلاء الخَفَّاف ـ حدثنا نافعُ بن أبي نافع، عن مَعقِل بن يَسار، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «من قال حين يُصبِح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميعِ العليمِ من الشيطان الرجيم ـ ثم قرأ ثلاثَ آياتٍ من آخرِ سُورةِ الحشر ـ وكَّلَ الله به سَبْعين ألفَ مَلَكٍ يُصلُّون عليه حتى يُمسِي، إن ماتَ في ذلك اليوم مات شَهيداً، ومن قالها حين يُمسي كان بتلك المنزِلَةِ»[2].

ورَواه الترمذيُّ عن محمود بن غَيْلانَ، عن أبي أحمدَ الزُّبَيريِّ، به، وقال «غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه[2]».

آخرُ تفسيرِ سُورةِ الحَشْرِ

(١) انظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة الأعراف

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٦، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ٩/٤٢

تفسيرُ

سورة الممتحنة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٣) ﴾.

كان سببُ نزولِ صَدْرِ هذه السُّورَةِ الكريمة قصةَ حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطبَ هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهلِ بَدْرٍ أيضاً، وكان له بمكةَ أولادٌ ومالٌ، ولم يكن من قُرَيش أنفُسِهم، بل كان حليفاً لعثمان، فلما عَزَم رسولُ الله - ﷺ - على فَتح مَكَّة لما نقض أهلُها العهد، فأمر النبيُّ - ﷺ - المسلمين بالتجهيز لِغَزْوِهم، وقال: اللهُمَّ، عَمِّ عليهم خبرنا[1] فعمد حاطبٌ هذا فكتب كتاباً، وبعثه مع امرأةٍ من قريش إلى أهلِ مكة، يُعلِمهم بما عَزَم عليه رسولُ الله - ﷺ - ليتَّخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله رسوله على ذلك، استجابةً لِدُعائه، فبعث في أثر المرأةِ فأخذ الكتاب منها، وهذا بيِّن في الحديث المتَّفق على صحَّته، قال الإمام أحمد:

حدثنا سفيانُ، عن عَمْرو، أخبرني حسنُ بن محمد بن علي، أخبرني عُبيد الله بن أبي رافع - وقال مرة: إن عُبَيد الله بن أبي رافع أخبره - أنه سمع علياً - رضي الله عنه - يقولُ: بعثني رسولُ الله - ﷺ - أنا والزُّبير

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/٣٩٧

والمقدادُ، فقال: «انطلِقُوا حتى تأتُوا روضة خاخٍ[1] فإن بها ظَعِينةً معها كتابٌ، فخُذوه منها فانطلقنا تَعَادي[2] بنا خيلُنا حتى أتينا الروضةَ، فإذا نحنُ بالظَّعينةِ، قلنا: أخرجي الكتابَ. قالت: ما معي كتابٌ! قلنا: لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنُلقِيَنَّ الثيابَ. قال: فأخرجت الكتابَ من عقاصِها[3]، فأخذنا الكتابَ فأتينا به رسولَ الله ـ ﷺ ـ فإذا فيه: من حاطبِ بن أبي بَلتعَةَ إلى ناسٍ من المُشركينَ بمكَّةَ يُخبِرُهُم ببَعضِ أمْرِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا حاطِبُ، ما هذا؟» قال: لا تَعجَلْ عليَّ، إني كنتُ امرأً مُلصَقاً في قُرَيشٍ، ولم أكُن من أنفُسِهم، وكانَ من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يَحمُون أهليهم بمكة، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن أتَّخِذَ فيهم يداً يحمُون بها قرابتي، وما فعلتُ ذلك كُفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رِضىً بالكُفرِ بعدَ الإسلام. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنه صَدَقَكُم». فقال عمر: دعْني أضربْ عُنُقَ هذا المنافق. فقال: «إنه قد شَهِدَ بدراً، وما يُدريكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ إلى أهلِ بدرٍ فقال: اعملُوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكُم»[4].

وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، من غيرِ وَجهٍ، عن سفيان بن عُيَينة، به[4]. وزاد البخاريُّ في كتاب المغازي: فأنزل الله السُّورة: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكم أولياءَ﴾[4]. وقال في كتاب التَّفسير: قال عمرو: وَنَزلت فيه: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكم أولياءَ﴾، قال: «لا أدرِي الآيةُ في الحديث أو قال عَمرو». قال البُخاري: قال علي ـ يعني ابنَ المَدِينيِّ ـ: قِيلَ لسفيان في هذا: نَزَلت: ﴿لا تتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكم أولياء﴾؟ فقال سفيان: هذا في حَدِيثِ الناسِ، حَفِظتُه من عَمرو، ما تركتُ منه حرفاً، وما أرى أحداً حَفِظه غيري[4].

وقد أخرجَاه في الصَّحِيحين من حديث حُصَين بن عبد الرحمن، عن سَعد بن عُبَيدة، عن أبي عَبدِ الرحمن السُّلَمي، عن علي قال: بَعثَني رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأبا مَرثَد، والزُّبَيرَ بن العوَّام، وكُلُّنا فارس، وقال: «انطلِقُوا حتى تأتُوا روضةَ خاخٍ، فإنَّ بها امرأةً من المشركين مَعَها كتابٌ من حاطبٍ إلى المشركين»: فأدركْناها تَسيرُ على بَعيرٍ لها حيثُ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقلنا: الكتابَ؟ فقالت: ما معي كتابٌ. فأنَخناها فالتمسنَا فلم نَرَ كتاباً، فقلنا: ما كذبَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ! لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنُجَرِّدَنَّكِ. فلما رأت الجِدَّ أهْوَت إلى حُجْزَتِها[5] ـ وهي مُحتَجِزةٌ بكساءٍ ـ فأخرجَته. فانطلقنا بها إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال عُمَر: يا رسولَ الله، قد خانَ الله ورسولَه والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال: «ما حمَلَكَ على ما صنعتَ؟». قال: والله ما بي إلا أن أكونَ مؤمناً بالله ورسوله، أردتُ أن تكون لي عندَ القومِ يَدٌ يدفَعُ الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحدٌ من أصحابكَ إلاَّ له هنالكَ مِن عَشِيرته مَن يدفَعُ الله به عن أهلِه ومالِه. فقال: «صَدَق، لا تقولُوا له إلا خيراً». فقال عمر: إنه قد خان الله ورسولَه والمؤمنين، فدعني فلأضربْ عُنقَه. فقال: «أليسَ من أهلِ بدرٍ؟ فقال: لعلَّ الله قد اطَّلع إلى أهلِ بدرٍ فقال: اعملُوا ما شِئتُم فقد وَجبت لكُم الجنَّةُ، أو: قد غفرتُ لكم». فَدَمِعَتْ عينا عُمَر وقال: الله ورسوله أعلم[6]. هذا لفظُ البخاريِّ في «المغازي» في غزوة بَدرٍ، وقد رُوِي من وجهٍ آخرَ عن عليٍّ، قال ابن أبي حاتم:

(١) روضةُ خاخ: موضع بين مكة والمدينة على ١٢ ميلاً من المدينة. والظَّعينة في الأصل: الهودجُ، ثم أطلق على المرأة لأنها تكون فيه.
(٢) أي: تجري.
(٣) العقاص: جمع عقيصة، وهي خُصلَةٌ من شعر مضفورة. يعني أخرجها من شعرها المضفور.
(٤) مسند الإمام أحمد ٧٩/١ ـ ٨٠، وفتح الباري، تفسير سورة الممتحنة ٦٣٣/٨ ـ ٦٣٤، وكتاب المغازي ٥١٩/٧، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٤١/٤ ـ ١٩٤٢، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٤٧/٣ ـ ٤٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الممتحنة ١٩١/١٢ ـ ١٩٤، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤٢٦/٧ ـ ٤٢٧.
(٥) الحُجْزة: موضع شدِّ الإزار، واحتجزت المرأة: شدَّت مئزرها على العورة وما لا تحل مباشرته.
(٦) فتح الباري، كتاب المغازي ٣٠٤/٧ ـ ٣٠٥، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٤٢/٤.

حدثنا علي بن الحسن الهسنجاني، حدثنا عُبيد بن يَعيش، حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي، عن أبي سنان ـ هو سعيد بن سنان ـ عن عَمرو بن مُرّة الجَمَلي، عن أبي البختري الطائي، عن الحارث، عن عليٍّ قال: لما أراد النبيُّ ـ ﷺ ـ أن يأتي مكّة، أسرّ إلى ناسٍ من أصحابه أنه يريد مكّة، فيهم حاطبُ بن أبي بلتعة، وأفشى في الناس أنه يُريد خيبر. قال: فكتب حاطبُ بن أبي بَلتعةَ إلى أهل مكّة أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ يريدُكم. فأُخبِرَ رسولُ الله ﷺ، قال: فبعثني رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأبا مَرْثَد، وليس منا رجلٌ إلّا وعنده فرسٌ، فقال: ائتوا روضة خاخٍ، فإنكم ستلْقَون بها امرأةً معها كتاب، فخُذُوه منها. فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذي ذكر رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقلنا لها: هاتِ الكتابَ. فقالت: ما معي كتابٌ! فوضعنا متاعها وفتّشناها فلم نجده في متاعها، فقال أبو مَرْثَدٍ: لعلّه ألّا يكونَ معها. فقلتُ: ما كَذَب رسولُ الله ـ ﷺ ـ ولا كُذِبْت. فقلنا لها: لتُخرجنّه أو لنُعرينّك. فقالت: أما تتّقون الله؟ ألستم مُسلمين؟ فقلنا: لتُخرجِنّه أو لنُعرينّك ـ قال عمرو بنُ مرّة: فأخرجته من حُجْزتها، وقال حَبيب بن أبي ثابت: أخرجته من قُبُلِها ـ فأتينا به رسولَ الله ﷺ، فإذا الكتابُ من حاطب بن أبي بلتعة. فقام عُمَر فقال: يا رسولَ الله، خانَ الله ورسولَه، فأْذَنْ لي فلأضرِبْ عُنُقَه. فقال رسولُ الله: «أليس قد شهد بدراً؟» قالوا: بلى. قال عُمَر: بلى، ولكنه قد نَكَث وظاهَرَ أعداءَك عليك. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فلعلّ الله اطّلع إلى أهلِ بَدْرٍ فقال: اعملُوا ما شئتم، إني بما تعملون بصير». ففاضت عينا عُمَر وقال: الله ورسولُه أعلمُ. فأرسلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى حاطبٍ فقال: «يا حاطبُ، ما حَمَلك على ما صنعتَ؟». فقال: يا رسولَ الله، إني كنتُ امرأً مُلصَقاً في قُرَيش، وكان بها مالي وأهلي، ولم يكن من أصحابك أحدٌ إلّا وله بمكة من يمنع أهله ومالَه، فكتبتُ إليهم بذلك، ووالله ـ يا رسولَ الله ـ إني لمؤمنٌ بالله ورسوله. فقال رسولُ الله ﷺ: «صَدَق حاطبٌ، فلا تقُولوا لحاطب إلا خيراً» ـ قال حبيبُ بنُ أبي ثابتٍ: فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا عَدُوّي وعدُوَّكم أولياءَ تُلقون إليهم بالمودّة﴾... الآية.

وهكذا رواه ابنُ جرير، عن ابن حُمَيد، عن مِهْرَان، عن أبي سِنَانٍ سعيدِ بن سنانٍ، بإسناده مثلَه[2]. وقد ذَكَر ذلك أصحابُ المَغَازي والسِّيَر، فقال محمدُ بن إسحاقَ بن يَسَارٍ في السيرة:

حَدّثني محمدُ بن جعفر بن الزُّبير، عن عُرْوَة بن الزُّبير وغيره من عُلَمَائنا قال: لما أجمَعَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ المَسِير إلى مَكّةَ، كَتَبَ حاطبُ بنُ أبي بلتعَةَ كتاباً إلى قُرَيشٍ يُخبِرُهم بالذي أجمَعَ عليه رسولُ الله ـ ﷺ ـ من الأمر في السَّيرِ إليهم، ثم أعطاه امرأةً ـ زعم محمدُ بن جعفر أنها من مُزينةَ، وزَعَم غيره أنها سارةُ، مولاةٌ لبني عبدِ المُطّلب ـ وجعل لها جُعْلاً على أن تُبلِغَه قُرَيشاً، فجعلَته في رأسها، ثم فَتَلت عليه قُرُونَها، ثم خرجت به وأتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ الخبرُ من السماء بما صنعَ حاطبٌ، فبَعث عليَّ بن أبي طالب والزُّبير بن العوّام فقال: أَدْرِكا امرأةً قد كَتَب معها حاطبٌ بكتابٍ إلى قُرَيش يُحَذِّرهم ما قد أجمَعْنا له من أمْرِهِمْ.

فَخَرجا حتى أَدْرَكاها بالخُلَيْفة[3] ـ خُلَيفة بني أبي أحمَدَ ـ فاستنزلاها بالخُلَيفة، فالتمَسَا في رَحْلها فلم يَجِدَا شيئاً، فقال لها عليُّ بن أبي طالب: إني أَحلِفُ بالله ما كَذَبَ رسولُ الله ولا كَذَبنا، ولَتُخرِجِنَّ لنا هذا الكتابَ أو لَنكشِفَنّك. فلما رأتِ الجِدَّ منه قالت: أعرِضْ. فأعرَضَ، فَحَلّت قُرونَ رأسِها، فاستخرجت الكتابَ منها،

(١) في بعض الطبعات: وما كذَبْنا. وكذب فلانٌ: أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه في الواقع. وكذب هو فلاناً: أخبره بالكذب. وكذّب فلاناً: نسَبه إلى الكذب.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/٥٩.

(٣) اسم موضع، انظر شرح السيرة لأبي ذرّ ٣٦٨.

فدفعته إليه. فأتي به رسولَ الله ـ ﷺ ـ فدعا رسولُ الله حاطباً فقال: «يا حاطبُ، ما حملك على هذا؟». فقال: يا رسولَ الله، أما والله إني لمؤمنٌ بالله ورسوله، ما غيَّرتُ ولا بدَّلتُ، ولكني كنتُ امرأً ليس لي في القوم من أهلٍ ولا عشيرةٍ، وكان لي بين أظهرهم وَلَدٌ وأهلٌ فصانعتهم عليهم. فقال عُمَرُ بنُ الخطَّاب: يا رسولَ الله، دعني فلأضربْ عُنُقَه، فإنَّ الرجلَ قد نافق. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «وما يُدريك يا عُمَر؟ لعلَّ الله قد اطَّلع إلى أصحاب بَدْرٍ يومَ بدرٍ فقال: اعملُوا ما شئتُم، فقد غفرتُ لكم». فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في حاطب: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عدُوِّي وعدُوَّكم أولياءَ تُلقُون إليهم بالمودَّةِ﴾. إلى قوله: ﴿قد كانت لكُم أُسوَةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه إذ قالُوا لقومهم إنا بُرآءُ منكُم ومما تعبُدون من دون الله كَفَرنا بكُم وبدا بيننا وبينكُم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تُؤمنُوا بالله وحدَه﴾ إلى آخر القِصَّة[1].

وَرَوى مَعْمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن عُرْوَةَ نحوَ ذلك. وهكذا ذكر مُقاتِلُ بن حَيَّان أن هذه الآياتِ نَزَلت في حاطب بن أبي بلتَعَة: أنه بَعث سارةَ مولاةَ بَني هاشم، وأنه أعطاها عشرةَ دراهم، وأن رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعثَ في أثرها عُمر بن الخطاب وعليَّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، فأدركاها بالجُحفَة... وذكر تمامَ القِصَّة كنحوِ ما تقدَّم. وعن السُّدِّي قريبٌ منه. وهكذا قال العَوفيُّ، عن ابن عباس ومجاهدٌ، وقتادةُ، وغيرُ واحد: إن هذه الآيات نزلت في حاطبِ بن أبي بلتَعة[2].

فقولُه تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا لا تتَّخذُوا عدُوِّي وعدُوَّكم أولياءَ تُلقُون إليهم بالمودَّةِ وقد كَفَرُوا بما جاءَكُم من الحقِّ﴾ يعني: المشركين والكفارَ الذين هم مُحاربون لله ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع الله عداوتَهُم ومُصارمتَهم، ونهى أن يتَّخذُوا أولياءَ وأصدقاءَ وأخلاَّءَ، كما قال: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تتَّخذُوا اليهودَ والنصارَى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ومَن يتولَّهم منكم فإنه منهم﴾. وهذا تهديدٌ شديدٌ، ووَعيدٌ أكيدٌ، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تتَّخذُوا الذين اتخذُوا دينكم هُزُواً ولعباً من الذين أُوتوا الكتابَ من قبلكم والكُفَّار أولياءَ واتقُوا الله إن كنتم مؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا الكافرين أولياءَ من دُونِ المؤمنين أتُريدُون أن تجعلُوا لله عليكُم سلطاناً مُبيناً﴾. وقال تعالى: ﴿لا يتَّخذِ المؤمنُون الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنين ومَن يفعل ذلك فليسَ مِنَ الله في شيءٍ إلا أن تتَّقوا منهم تقاةً ويُحذِّركم الله نفسه﴾، ولهذا قَبِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عُذْرَ حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مُصانعةً لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموالِ والأولادِ[3]، ونذكُر ها هنا الحديثَ الذي رَوَاه الإمامُ أحمد:

حدَّثنا مُصعبُ بنُ سَلاَّم، حدثنا الأجلحُ، عن قَيس بن أبي مُسلِم، عن رِبْعِيِّ بن حِرَاش، سَمِعت حُذَيفَةَ يقول: ضَرَبَ لنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أمثالاً: واحداً وثلاثةً وخمسةً وسبعةً، وتسعةً، وأحدَ عشر، قال: فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرَها، قال: «إن قوماً كانُوا أهلَ ضَعفٍ ومَسْكَنَةٍ، قاتلهم أهلُ تَجبُّرٍ وعداءٍ[4]، فأظهر الله أهلَ الضَّعفِ عليهم، فعَمَدُوا إلى عدُوِّهم فاستعملُوهم وسلَّطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه»[5].

وقولُه: ﴿يُخرجُون الرسولَ وإيَّاكم﴾: هذا مع ما قبله من التهييج على عَدَاوتهم وعَدَم مُوالاتهم، لأنهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٩٨ ـ ٣٩٩، وتفسير الطبري ٢٨/٥٩ ـ ٦٠
(٢) انظر الآثار في تفسير الطبري ٢٨/٥٩ ـ ٦١.
(٣) من هنا إلى نهاية الحديث ساقط من إحدى النسخ
(٤) في المسند: وعدي
(٥) مسند الإمام أحمد ٥/٤٠٧ وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٩٠ من سورة البقرة، وذكر ابن كثير معناه هنالك

أخرجُوا الرسولَ وأصحابَه من بين أظهُرِهم، كراهةً لما هُم عليه من التَّوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ولهذا قال: ﴿أن تؤمِنُوا بالله ربِّكم﴾ أي: لم يكن لكم عندهم ذنبٌ إلا إيمانُكم بالله ربِّ العالمين، كقوله: ﴿وما نقمُوا منهُم إلاّ أن يُؤمِنُوا بالله العزيزِ الحَميدِ﴾، وكقوله: ﴿الذين أُخرِجُوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله﴾.

وقولُه: ﴿إن كنتُم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مَرْضاتي﴾، أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتُم خرجتُم مُجاهدين في سَبيلي باغين لمرضاتي عنكُم فلا تُوالُوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجُوكم من دِيارِكُم وأموالكم حَنَقاً عليكم، وسُخطاً لدينكم.

وقولُه: ﴿تُسِرُّون إليهم بالمودَّةِ وأنا أعلمُ بما أخفيتُم وما أعلنتُم﴾، أي: تفعلُون ذلك وأنا العالمُ بالسرائر والضَّمائر والظواهر، ﴿ومَن يفعله منكم فقد ضلَّ سواءَ السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديَهم وألسنتهم بالسُّوءِ﴾ أي: لو قَدَرُوا عليكم لما اتقوا فيكم من أذىً ينالونكم به، بالمقال والفعال، ﴿وودُّوا لو تكفُرون﴾، أي: ويحرِصُون على ألاّ تنالوا خيراً، فهم عَداوتُهم لكم كامنةٌ وظاهرةٌ، فكيف تُوالون مثل هؤلاءِ؟ وهذا تَهييجٌ على عَداوتِهم أيضاً.

وقولُه: ﴿لَن تنفعَكم أرحامُكم ولا أولادُكم يومَ القيامةِ يفصِلُ بينكم والله بما تعمَلُون بصيرٌ﴾، أي: قراباتُكم لا تنفعُكم عند الله إذا أراد الله بكم سُوءاً، ونفعُهم لا يَصِلُ إليكم إذا أرضيتُموهم بما يُسخِطُ الله. ومن وافق أهلَه على الكفر لِيُرضِيَهم فقد خابَ وخسِر وضلَّ عملُه، ولا ينفعُه عند الله قرابتُه من أحدٍ، ولو كان قريباً إلى نبيٍّ من الأنبياء، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا عفَّان، حدثنا حمَّاد، عن ثابتٍ، عن أنَسٍ: أن رَجُلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار». فلما قفَّى[1] دَعَاه فقال: «إن أبي وأباك في النار»[2].

وَرَواه مسلم وأبو داود، من حديث حمَّاد بن سَلَمَةَ، به[2].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا
بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

يقولُ تعالى لعبادِه المؤمنين الذين أمرهم بمصارمةِ الكافرين وعداوتهم ومُجانبتِهم والتبرِّي منهم: ﴿قد كانت لكم أُسوةٌ حَسنةٌ في إبراهيمَ والذينَ معه﴾، أي: وأتباعه الذين آمنوا معه، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا بُرآء منكُم﴾، أي: تبرَّأنا منكم، ﴿ومِمَّا تعبُدون من دُونِ الله كفَرنا بكُم﴾، أي: بدينكم وطَريقكم، ﴿وبدا بيننا وبينكُم العداوةُ والبغضاءُ أبداً﴾، يعني: وقد شُرِعت العداوةُ والبغضاءُ من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على

---

(١) أي: ذهب مولِّياً.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٢٦٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٩١، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٣٠. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ١١٩ من سورة البقرة.

كفركم محن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم، ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾، أي: إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان.

وقوله: ﴿إلا قولَ إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك﴾، أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوةٌ حسنةٌ تتأسون بها، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدةٍ وعدها إياه، ﴿فلما تبيّن له أنه عدوٌ لله تبرّأ منه﴾. وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحابُ الجحيم ۝ وما كان استغفارُ إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه فلما تبيّن له أنه عدوٌ لله تبرّأ منه إن إبراهيم لأوّاهٌ حليمٌ﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والذين معهُ﴾، إلى قوله: ﴿إلا قولَ إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملكُ لك من الله من شيءٍ﴾، أي: ليس لكم في ذلك أسوةٌ، أي: في الاستغفار للمشركين. هكذا قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، ومقاتلُ، والضحاكُ، وغيرُ واحدٍ.

ثم قال تعالى مُخبراً عن قول إبراهيمَ والذين معه، حين فارقوا قومَهم وتبرّءوا منهم، فلجأوا إلى الله وتضرّعوا إليه فقالوا: ﴿ربّنا عليك توكلنا وإليكَ أنبنا وإليك المصيرُ﴾، أي: توكّلنا عليك في جميع الأمور، وسلّمنا أمورنا إليك، وفوضناها إليك؛ ﴿وإليك المصير﴾، أي: المعادُ في الدار الآخرة، ﴿ربّنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفرُوا﴾، قال مجاهد: معناه: لا تُعذّبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاءِ على حقٍّ ما أصابَهم هذا. وكذا قال الضحّاك. وقال قتادة: لا تُظهرهم علينا فيُفتَنوا بذلك، يرون أنهم إنما ظهرُوا علينا لحقٍّ هم عليه. واختاره ابنُ جرير[1] وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباسٍ: لا تُسلّطهم علينا فيَفتِنونا.

وقوله: ﴿واغفِرْ لنا ربّنا إنك أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾، أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعفُ عنها فيما بيننا وبينك، ﴿إنك أنت العزيزُ﴾، أي: الذي لا يُضام مَن لاذ بجنابك، ﴿الحكيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك.

ثم قال تعالى: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليومَ الآخرَ﴾: وهذا تأكيدٌ لما تقدّم، ومستثنىً منه ما تقدم أيضاً، لأن هذه الأسوة المثبتة هاهنا هي الأولى بعينها.

وقوله: ﴿لمن كان يرجُو الله واليوم الآخر﴾: تهييجٌ إلى ذلك لكلّ مؤمنٍ بالله والمعادِ.

وقوله: ﴿ومَن يتولَّ﴾: أي: عمّا أمر الله به، ﴿فإن الله هو الغنيُّ الحميدُ﴾، كقوله: ﴿إن تكفرُوا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيٌّ حميدٌ﴾.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿الغنيُّ﴾: الذي قد كَمُل في غناه، وهو الله، هذه صفتُه لا تنبغي إلا له، ليس له كُفء، وليس كمثله شيءٌ، سُبحان الله الواحد القهّار. ﴿الحميدُ﴾: المُستحمِدُ[2] إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أفعاله وأقواله، لا إله غيرُه، ولا ربّ سواه.

﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ

(١) تفسير الطبري ٢٨/٦٤
(٢) أي: المستوجب حمد الناس بإحسانه إليهم

يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ
قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودَّةً﴾، أي: مَحبَّة بعد البِغْضة، ومَودَّة بعد النُّفرة، وأُلفةً بعد الفُرقة. ﴿والله قديرٌ﴾، أي: على ما يشاءُ من الجَمْع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة، فيُؤلِّفُ بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتُصبحَ مجتمعةً مُتفِقةً، كما قال تعالى مُمتناً على الأنصار: ﴿واذكرُوا نعمة الله عليكُم إذ كنتُم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتُم بنعمته إخواناً وكنتُم على شفا حُفرةٍ من النار فأنقذكُم منها... الآية. وكذا قال لهم النبيُّ ﷺ: «ألم أجدْكم ضُلّالاً فهداكم اللهُ بي، وكنتُم مُتفرِّقين فألَّفكم اللهُ بي»[1]. وقال الله تعالى: ﴿هو الذي أيَّدك بنصْره وبالمؤمنين وألَّف بين قُلوبهم لو أنفقتَ ما في الأرض جَميعاً ما ألفت بين قُلوبهم ولكنَّ الله ألَّفَ بينهم إنه عزيزٌ حكيمٌ﴾. وفي الحديث: «أحبِبْ حَبيبَكَ هوناً ما فعسى أن يكونَ بَغيضَكَ يوماً ما، وأبغضْ بَغيضك هوناً ما فعسى أن يكونَ حَبيبك يوماً مّا»[2]. وقال الشاعر[3]:

وَقَد يجمعُ اللهُ الشَّتِيتَيْن بَعْدَما ... يَظُنَّان كُلَّ الظنِّ أن لا تَلاقِيا

وقولُه تعالى: ﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾، أي: يَغفِر للكافرين كُفرَهم إذا تابُوا منه وأنابُوا إلى ربِّهم وأسلمُوا له، وهو الغفورُ الرحيمُ بكلِّ مَن تاب إليه، من أيِّ ذَنبٍ كانَ.

وقد قال مقاتلُ بنِ حيَّان: إن هذه الآية نزلت في أبي سُفيان صخرِ بن حربٍ، فإن رسول الله ﷺ تزوَّج ابنته، فكانت هذه مودَّةً ما بينه وبينه.

وفي هذا الذي قاله مقاتلٌ نظرٌ؛ فإنَّ رسولَ الله تَزوَّج بأُمِّ حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح، وأبو سُفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف. وأحسن من هذا ما رواه ابنُ أبي حاتم حيث قال:

قُرِىءَ على محمد بن عزيز: حدثني سَلامة، حدثني عُقيل، حدثني ابنُ شهابٍ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ استعمل أبا سُفيان بنَ حربٍ على بعض اليمن، فلما قُبِضَ رسول الله ـ ﷺ ـ أقبل فلَقِي ذا الخِمار مُرتدًا، فقاتله، فكان أول مَن قاتل في الرِدَّة وجاهد عن الدِّين. قال ابنُ شهابٍ: وهو ممن أنزل اللهُ فيه: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودَّةً والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ﴾[4].

وفي صحيح مسلم، عن ابنِ عباسٍ: أن أبا سُفيان قال: يا رسول الله، ثلاثٌ أَعْطِنِيهِنَّ. قال: نعم. قال: تُؤَمِّرني حتى أقاتل الكفار كما كنتُ أقاتلُ المسلمين. قال: نعم. قال: ومعاويةُ تجعله كاتباً بين يَدَيك. قال: نعم. قال: وعندي أحسنُ العربِ وأجملُه[5]، أمُّ حبيبةَ بنتِ أبي سُفيان أُزَوِّجُكها... الحديث[6]. وقد تقدَّم الكلامُ عليه.

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٧٤ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب البرِّ، بإسناده إلى ابن سيرين، عن أبي هريرة، وقال: أراه رفعه. ثم قال الترمذي: وهذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وقد رُوي هذا الحديث عن أيوب بإسنادٍ غير هذا، رواه الحسن بن أبي جعفر ـ وهو حديث ضعيفٌ أيضاً بإسنادٍ له عن علي، عن النبي ـ ﷺ ـ والصحيح: عن علي، موقوف، قوله. انظر تحفة الأحوذي ٨/١٦٢ ـ ١٦٣.

(٣) قيس بن الملوح، ديوانه ٢١٥.

(٤) الدر المنثور ٨/١٣٠.

(٥) هذ من الأساليب العربية الفصيحة، والنحاة يخرجونه على أنه التقدير: أحسن شيء وأجمله، وبهذا التقدير ذُكِّر الضمير.

(٦) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٩٤٥، وأما الكلام على هذا الحديث فهي ابنُ كثير ما علَّق به على أثر مقاتل بن حيَّان المتقدِّم، فالنبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تزوَّج أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ سنة ست أو سنة سبع، قبل فتح مكه، وكان إسلام أبي سفيان سنة ثمان

وقوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتِلُوكم في الدِّين ولم يُخرجُوكم من ديارِكُم﴾، أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يُقاتلونكم في الدين، كالنساء والضعفة منهم، ﴿أن تَبرُّوهم﴾، أي: تُحسنُوا إليهم ﴿وتُقسِطُوا إليهم﴾، أي: تَعدِلُوا ﴿إن الله يُحِبُّ المُقسِطين﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هشامُ بن عُرْوةَ، عن فاطمةَ بنتِ المنذر، عن أسماءَ ـ هي بنت أبي بكر، رضي الله عنهما ـ قالت: قَدِمتْ أُمِّي وهي مُشركَةٌ في عهد قُرَيش إذ عاهدوا، فأتيت النبيَّ ـ ﷺ ـ فقلتُ: يا رسول الله، إنَّ أمي قَدِمت وهي راغبةٌ، أفأَصِلُها؟ قال: «نعم، صِلي أمَّكِ». أخرجاه[(١)]

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عارمٌ، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مُصعَبُ بن ثابت، حدثنا عامر بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه قال: قَدِمت قُتَيلةُ على ابنتها أسماءَ ابنةِ أبي بكر بهدايا: ضِبَاب[(٢)] وأَقِطٍ[(٣)] وسَمن، وهي مُشركة، فأبت أسماءُ أن تقبلَ هَدِيَّتها وتُدخِلَها بيتها. فسألت عائشةُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿لا يَنهاكُم الله عن الذين لم يُقاتِلُوكم في الدين﴾ إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هَدِيَّتها، وأن تُدخِلَها بيتها[(٤)].

وهكذا رَوَاه ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتم، من حديث مُصعَب بن ثابت، به. وفي رواية لأحمد وابن جَرير: «قُتَيلة بنت عبد العُزّى بن [عبد][(٥)] أسعد، من بني مالك بن حِسْلٍ». وزاد ابنُ أبي حاتم: «في المدة التي كانت بين قُرَيشٍ، ورسولِ الله ﷺ».

وقال أبو بكر أحمدُ بن عَمرو بن عبد الخالق البزَّارُ: حدثنا عبد الله بن شَبِيب، حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة، حدثنا أبو قتادة العَدَويُّ، عن ابن أخي الزُّهريّ، عن الزُّهريّ، عن عُرْوَةَ، عن عائشةَ وأسماءَ أنهما قالتا: قَدِمت علينا أُمُّنا المدينةَ، وهي مشركةٌ، في الهُدنة التي كانت بين قُرَيشٍ وبين رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقلنا: يا رسولَ الله، إنَّ أُمَّنا قَدِمت علينا المدينةَ راغبةٌ، أفنَصِلُها؟ قال: نعم، فَصِلاها[(٦)].

ثم قال: وهذا الحديث لا نعلمه يُروَى عن الزهري، عن عروة، عن عائشةَ إلَّا من هذا الوجه[(٦)].

قلتُ: وهو مُنكر بهذا السياق، لأن أمّ عائشة هي أم رُومان، وكانت مُسلِمةً مهاجِرةً، وأُمُّ أسماءَ غيرها، كما هو مُصرَّح باسمها في هذه الأحاديث المتقدِّمة، والله أعلم.

وقولُه: ﴿إنَّ الله يُحِبُّ المُقسِطينَ﴾: تقدَّم تفسيرُ ذلك في «سُورةِ الحُجُرات»، وأورد الحديث الصحيح: «المُقسِطُون على منابرَ من نورٍ عن يمين العرش، الذين يَعدِلُون في حُكْمِهم، وأهاليهم، وما وَلُوا»[(٧)].

وقولُه: ﴿إنَّما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتَلُوكم في الدين وأخرجُوكم من ديارِكم وظاهَرُوا على إخراجِكُم أن

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد من غير هذه الطريق، انظر ٦/٣٤٤، ٣٤٧، ٣٥٥. وفتح الباري، كتاب الهبة ٥/٢٣٣، وكتاب الجزية ٦/٢٨١، وكتاب الأدب ١٠/٤١٣، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٦٩٦.

(٢) في بعض النسخ: صِباب، ومثله في المسند. والمثبت من تفسير الطبري ٢٨/٦٦. والضِّبابُ: طعام يُؤتدم به من الخردل والزبيب، وجمعه: ضِبَبٌ وأضِبَّة. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/٣٣٦ أن أعرابيًا أتاه ـ ﷺ ـ بأرنب قد شواها ومعها صِنابُها.

(٣) في النسخ: وقرظ، أو كلمة نحوها. والمثبت من المسند وتفسير الطبري. والأقط: لبن مُجفَّفٌ يطبخ به.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/٤.

(٥) من المسند، وكتاب نسب قريش لمصعب الزبيري ٢٧٩.

(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البر والصلة ٢/٣٧١ ـ ٣٧٢.

(٧) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٩ من سورة الحجرات، والآية ٥٥ من سورة القمر، وخرجناه هنالك.

تَوَلَّوهُم﴾ أي: إنما ينهاكم الله عن موالاة هؤلاء الذين ناصبُوكم بالعداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم، وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عن موالاتهم، ويأمُركم بمعاداتهم. ثم أكَّد الوعيد على مُوالاتهم فقال: ﴿ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون﴾، كقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ومن يتولَّهم منكُم فإنه منهُم إن الله لا يهدي القومَ الظالمين﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

تقدَّم في «سورة الفتح» ذكرُ صُلح الحُديبية الذي وَقَع بين رسول الله ـ ﷺ ـ وبين كُفَّار قريش، وكان فيه «على أنَّه لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على دينك ـ إلا رَدَدته إلينا» وفي رواية: «على أنه لا يأتيك منا أحدٌ ـ وإن كان على دِينك ـ إلا رَددته إلينا». وهذا قولُ عروة، والضحاك، وعبدِ الرحمن بن زيدٍ، والزهريِّ، ومُقاتلٍ، والسُّدِّي. فعلى هذه الرواية تكون هذه الآيةُ مخصصةً للسنة، وهذا من أحسنِ أمثلةِ ذلك، وعلى طريقة بعض السلف ناسخةٌ، فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مُهاجراتٍ أن يمتحنوهُنَّ، فإن علِمُوهُنَّ مؤمناتٍ فلا يَرْجِعُوهنَّ إلى الكُفار، لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هُم يَحِلُّون لهُنَّ.

[وقد[1] ذكرنا في ترجمة عبد الله بن [أبي] أحمدَ بن جَحْشٍ، من المُسند الكبير، من طريق أبي بكر بن أبي عاصم، عن محمد بن يحيى الذهلي، عن يعقوب بن محمد، عن عبد العزيز بن عمران، عن مُجمِّع بن يعقوب، عن حسين بن أبي لُبابة، عن عبد الله بن أبي أحمد قال: هاجرت أم كلثوم بنت عقبةَ بن أبي مُعَيط في الهجرةِ، فخرج أخواها عُمارة والوليد حتى قَدِما على رسول الله ـ ﷺ ـ فكلَّماه فيها أن يرُدَّها إليهما، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساءِ خاصَّةً، ومنعهنَّ أن يُرْدَدْنَ إلى المشركين، وأنزل الله آية الامتحان[1]]

قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا يونُس بن بُكَير، عن قَيس بن الربيع، عن الأغرِّ بن الصَّبَّاح، عن خَليفة بن حُصَين، عن أبي نَصر الأسدي قال: سُئِل ابنُ عباس: كيف كان امتحانُ رسول الله ـ ﷺ ـ النساءَ؟ قال: كان يَمتحِنهُنَّ: بالله ما خَرجتِ من بُغضِ زَوْجٍ؟ وبالله ما خَرجتِ رَغبةً عن أرضٍ إلى أرضٍ؟ وبالله ما خَرجتِ التماسَ دنيا؟ وبالله ما خرجتِ إلا حُبًّا لله ولرسوله[2].

ثم رَوَاه من وَجْهٍ آخرَ، عن الأغرِّ بن الصبّاح، به. وكذا رواه البزّار من طريقِه[2]، وذَكَر فيه أن الذي كان يُحلِّفهنَّ عن أمْرِ رسُولِ الله ـ ﷺ ـ له عُمَرُ بنُ الخطاب.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنُوهُنَّ﴾: كان امتحانُهنَّ أن يَشهَدْنَ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبدُ الله ورسوله

(١ ـ ١) هذه الفقرة ساقطة من بعض النسخ. وقد أخرج الحديث ابن الأثير في أسد الغابة ٣/١٧١ من هذه الرواية، في ترجمة عبد الله بن أبي أحمد.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/٦٧، وكشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٧٦

وقال مجاهد: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾: فاسألوهنَّ: ما جاء بِهِنَّ؟ فإن كان جاء بِهِنَّ غَضَبٌ على أزواجِهِنَّ أو سَخْطَةٌ أو غيرُه، ولم يُؤْمِنَّ فارجِعُوهُنَّ إلى أزواجِهِنَّ.

وقال عكرمةُ: يُقال لها: ما جاء بك إلا حُبُّ الله ورسولِه؟ وما جاء بِكِ عِشْقُ رجلٍ منا، ولا فِرارٌ من زَوْجِكِ؟ فذلك قوله: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾.

وقال قتادةُ: كانت مِحْنَتُهنَّ أن يُستَحلفْنَ بالله: ما أخرَجَكُنَّ النشوزُ؟ وما أخرجَكُنَّ إلا حبُّ الإسلامِ وأهلِه وحِرصٌ عليه؟ فإذا قُلْنَ ذلك قُبِلَ ذلك مِنْهُنَّ.

وقولُه: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الإيمانَ يُمكِن الاطلاعُ عليه يقيناً.

وقولُه: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾: هذه الآية هي التي حَرَّمَتِ المسلمات على المُشركين، وقد كان جائزاً في ابتداءِ الإسلامِ أن يَتزوَّجَ المشركُ المؤمنةَ، ولهذا كان أبو العاص بن الرَّبيع زَوْجَ ابنةِ النبيِّ ـ ﷺ ـ زينبَ ـ رضي الله عنها ـ وقد كانت مُسلمةً وهُو على دين قومِه، فلما وَقَعَ في الأُساري يومَ بدرٍ بعثت امرأتُه زينبُ في فدائِه بقلادةٍ لها كانت لأُمِّها خديجة، فلما رآها رسولُ الله ـ ﷺ ـ رَقَّ لها رِقَّةً شديدةً، وقال للمسلمين: إن رأيتم أن تُطلِقُوا لها أسيرَها فافعلُوا. ففعلُوا، فأطلقَه رسولُ الله ـ ﷺ ـ على أن يبعث ابنته إليه، فوفَّى له بذلك وَصَدَقَه فيما وعدَه، وبعثَها إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ مع زيدِ بن حارثةَ ـ رضي الله عنه ـ فأقامت بالمدينة من بعد وقعةِ بدر، وكانت سنةَ اثنتين إلى أن أسلم زوجُها أبو العاص بن الربيع سنة ثمانٍ، فردَّها عليه بالنكاحِ الأوَّلِ، ولم يُحدِث لها صَداقاً، كما قال الإمام أحمد:

حَدَّثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، حدثنا ابن إسحاقَ، حدثني داود بن الحُصَين، عن عكرمةَ، عن ابن عبَّاس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ رَدَّ ابنته زينبَ على أبي العاصِ، وكان إسلامُها[(١)] قبل إسلامه بستِّ سِنِينَ على النكاحِ الأوَّلِ، ولم يُحدِث شهادةً ولا صَداقاً[(٢)].

ورواه أبو داودَ والترمذيُّ، وابنُ ماجه[(٢)]. ومنهم من يقول: «بعد سَنَتين»، وهو صحيحٌ، لأنَّ إسلامَه كان بعد تحريمِ المسلمات على المشركين بسَنَتين. وقال الترمذي: «ليس بإسنادِه بأسٌ، ولا نَعرِف وَجْهَ هذا الحديث، ولعلَّه جاء من حِفْظِ داود بن الحصين... وسَمِعتُ عَبْدَ بن حُمَيد يقول: سَمِعتُ يَزِيدَ بنَ هارون يذكُر، عن ابن إسحاقَ هذا الحديث. وحديثُ الحجَّاج ـ يعني ابن أَرْطاةَ ـ عن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ رَدَّ ابنته على أبي العاصِ بن الرَّبيع بمهرٍ جَديد ونِكاحٍ جَديدٍ. فقال يَزِيد: حديث ابنِ عباس أجودُ إسناداً، والعملُ على حديثِ عَمْرو بن شعيب»[(٢)].

قلتُ: وقد رَوى حديثَ الحجَّاج بن أرطاةَ، عن عَمْرو بن شعيب الإمامُ أحمد، والترمذي، وابن ماجه[(٢)]، وضَعَّفه الإمامُ أحمدُ وغيرُ واحدٍ، والله أعلم.

وأجاب الجمهورُ عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضيةَ عينٍ، يَحتمِلُ أنه لم تَنقَضِ عِدَّتُها منه، لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدَّة ولم يسلم، انفسخ نكاحُها منه.

(١) في بعض النسخ: وكان هجرتها، وما أثبت يوافق المسند.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/٢٦١، وسنن أبي داود، كتاب الطلاق ٢/٢٧٢، وعارضة الأحوذي، أبواب النكاح ٥/٨١ ـ ٨٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الطلاق ١/٦٤٧ وحديث الحجاج بن أرطاة عن عمرو في المسند ٢/٢٠٧ ـ ٢٠٨.

وقال آخرون: بل إذا انقضتِ العِدَّةُ هي بالخيارِ، إن شاءت أقامت على النِّكاحِ واستمرَّت، وإن شاءت فَسَخته وذَهَبت فتزوَّجت. وحَمَلُوا عليه حديثَ ابنِ عباسٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُه: ﴿وَآتُوهُم مَا أَنفَقُوا﴾، يعني: أزواجَ المهاجراتِ مِن المشركينَ، ادفَعُوا إليهم الذي غَرِمُوه عليهنَّ مِن الأصدِقَةِ. قاله ابنُ عباسٍ، ومُجاهدٌ، وقتادةُ، والزهريُّ، وغيرُ واحدٍ.

وقولُه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: يعني إذا أعطيتُموهن أصدِقَتَهنَّ فانكِحُوهنَّ، أي: تَزَوَّجوهُنَّ بشرطِه، مِن انقضاءِ العِدَّةِ والوليِّ، وغيرِ ذلك.

وقولُه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: تحريمٌ مِن اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ على عبادِه المؤمنينَ نِكاحَ المشركاتِ، والاستمرارَ معهنَّ. وفي الصَّحيحِ، عن الزُّهريِّ، عن عُروَةَ، عن المِسْوَرِ ومَرْوانَ بنِ الحَكَمِ: أن رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ لما عاهَدَ كُفَّارَ قُريشٍ يومَ الحُدَيبِيَةِ جاءَ نساءٌ من المؤمناتِ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، فطلَّق عُمَرُ بنُ الخطابِ يومئذٍ امرأتينِ، تزوَّجَ إحداهما معاويةُ بنُ أبي سفيانَ، والأخرى صَفْوانُ بنُ أميَّةَ[1].

وقال ابنُ ثورٍ، عن مَعْمَرٍ، عن الزُّهريِّ: أُنزِلَت هذه الآيةُ على رسولِ اللهِ ـ ﷺ ـ وهو بأسفلِ الحُدَيبِيَةِ، حينَ صالحهُم على أنه مَن أتاه منهم رَدَّ إليهم، فلما جاءه النساءُ نزلت هذه الآيةُ، وأمرَه أن يَرُدَّ الصَّداقَ إلى أزواجِهِنَّ، وحَكَمَ على المشركينَ مثلَ ذلك إذا جاءتْهُم امرأةٌ من المسلمين أن يَرُدُّوا الصَّداقَ إلى أزواجِهِنَّ، وقال: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[2].

وهكذا قال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ، وقال: وإنما حَكَمَ اللهُ بينهم بذلك، لأجلِ ما كان بينهم وبينهم من العهدِ.

وقال محمد بن إسحاق، عن الزُّهريِّ: طلَّق عُمَرُ يومئذٍ قُرَيبةَ بنتَ أبي أُميَّةَ بنِ المُغيرةِ، فتزوَّجها معاويةُ، وأمَّ كُلثومٍ بنتَ عَمرِو بنِ جَرْوَلٍ الخزاعيةَ، وهي أمُّ عُبَيدِ اللهِ، فتزوَّجها أبو جهمِ بنُ حُذَيفةَ بنِ غانمٍ، رجلٌ من قومِه، وهما على شركِهما[3]. وطلَّق طلحةُ بنُ عُبَيدِ اللهِ أَرْوى بنتَ ربيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ، فتزوَّجها بعده خالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاصِ[4].

وقولُه: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾، أي: وطالِبُوا بما أنفقتم على أزواجِكُم اللاتي يَذْهَبنَ إلى الكُفَّارِ، إنْ ذَهَبْنَ، ولْيُطالِبُوا بما أنفقُوا على أزواجِهم اللاتي هاجَرْنَ إلى المسلمينَ.

وقولُه: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، أي: في الصُّلحِ واستثناءِ النساءِ منه، والأمرُ بهذا كُلِّه هو حكمُ اللهِ يحكمُ به بين خَلْقِه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عليمٌ بما يُصلِحُ عبادَه، حَكيمٌ في ذلك.

ثُمَّ قال: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾، قال مجاهدٌ، وقتادةُ: هذا في الكُفَّارِ الذين ليس لهم عهدٌ، إذا فَرَّتْ إليهم امرأةٌ ولم يدفعُوا إلى زَوْجِها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأةٌ لا يُدْفَعُ إلى زَوْجِها شيءٌ، حتى يدفَعَ إلى زوجِ الذاهبةِ إليهم مثلَ نفقتِه عليها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، فتح الباري ٥/٣٣٢.
(٢) أخرجه الطبري ٢٨/٧٢.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٣٢٧.
(٤) تفسير الطبري ٢٨/٧٢.

وقال ابنُ جرير: حدثنا يونُس، حدثنا ابنُ وَهب، أخبرني يونُس، عن الزُّهريِّ قال: أقرَّ المؤمنُون بحُكم الله، فأدَّوا ما أُمروا به من نفقاتِ المشركين التي أنفقُوا على نسائهم، وأبى المشركُون أن يُقرُّوا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقاتِ المسلمين، فقال الله للمؤمنين به: ﴿وإن فاتكُم شيءٌ من أزواجكم إلى الكفَّار فعاقبتم فآتُوا الذين ذهبت أزواجُهم مثلَ ما أنفقُوا واتَّقُوا الله الذي أنتم به مُؤمنُون﴾، فلو أنها ذهَبت بعد هذه الآيةِ امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشركين رَدَّ المؤمنون إلى زوجها النفقةَ التي أنفق عليها من العَقِبِ الذي بأيديهم، الذي أُمرُوا أن يَرُدُّوه على المشركين من نَفَقاتهم التي أنفقُوا على أزواجهم اللاتي آمنَّ وهاجرنَ، ثم رَدُّوا إلى المشركين فضلاً إن كان بَقِي لهم. والعقِب: ما كان من صَدَاقِ نساءِ الكُفَّار حين آمنَّ وهاجرنَ[1].

وقال العوفي، عن ابنِ عباس في هذه الآية: يعني إن لَحِقَتِ امرأةُ رجلٍ من المهاجرين بالكفار أَمَرَ له رسولُ الله ـ ﷺ ـ أنه يُعطَى من الغنيمة مثلَ ما أنفق.

وهكذا قال مجاهد ﴿فعاقبتم﴾: أصبتُم غنيمةً من قُرَيش أو غيرهم، ﴿فآتُوا الذين ذَهبت أزواجُهم مثلَ ما أنفقُوا﴾، يعني: مهْرَ مثلها. وهكذا قال مسروقٌ، وإبراهيمُ، وقتادة، ومقاتِلٌ، والضحاكُ، وسفيانُ بن حُسَين، والزُّهريُّ أيضاً.

وهذا لا يُنافي الأوَّلَ، لأنه إن أمكن الأولُ فهو أولَى، وإلاَّ فمن الغنائم اللاتي تُؤخَذ من أيدي الكُفَّار. وهذا أوسعُ. وهو اختيار ابنِ جَرير، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قال البخاري: [حدثنا إسحاق][2]، حدثنا يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابنُ أخي ابنِ شهاب، عن عَمِّه قال: أخبرني عُروةُ أن عائشة زَوجَ النبيِّ ـ ﷺ ـ أخبرَته: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يمتحِنُ مَن هاجر إليه من المؤمِنات بهذه الآية: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمناتُ يُبايِعْنك﴾ إلى قوله: ﴿غفورٌ رحيمٌ﴾، قال عروةُ: قالت عائشةُ: فمن أقرَّ بهذا الشرطِ من المؤمنات قال لها رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قد بايعتُكِ» كلاماً. ولا والله ما مَسَّت يدُه يدَ امرأةٍ قطُّ في المبايعةِ، ما يُبايعهُنَّ إلا بقوله: «قد بايعتُكِ على ذلك». هذا لفظ البخاري[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الرحمن بن مَهدي، حدثنا سفيان، عن مُحمَّد بن المُنكَدِر، عن أُمَيمة بنت رُقَيقة قالت: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في نساءٍ لِنُبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: ﴿ألاَّ نُشرك بالله شيئاً﴾ الآية، وقال: «فيما استطعتنَّ وأطقتنَّ»، قلنا: الله ورسوله أرحمُ بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسولَ الله، ألاَ تُصافِحُنا؟ قال: «إني لا أُصافحُ النساء، إنما قولي لامرأةٍ واحدةٍ كقولي لمائةِ امرأةٍ»[4].

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/٧٥

(٢) من البخاري، وسقط من النسخ

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الممتحنة ٨/٦٣٦.

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/٣٥٧، وعارضة الأحوذي، أبواب السير ٧/٩٤ ـ ٩٥، والنسائي، كتاب البيعة ٧/١٤٩، ١٥٢، وابن ماجه، كتاب الجهاد ٢/٩٥٩، وتفسير الطبري ٢٨/٨٠.

هذا إسنادٌ صحيحٌ. وقد رواه الترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه، من حديث سفيان بن عُيينة، والنسائي أيضاً من حديث الثَّوريّ ـ ومالك بن أنس، كُلُّهم عن محمد بن المُنكدِر، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح، لا نَعرِفُه إلا من حَديث محمد بن المنكدر»[١].

وقد رَواه أحمدُ أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن المُنكدِر، عن أُميمة، به. وزاد: «ولم يُصافح منا امرأةً»[١]. وكذا رَواه ابنُ جَرير من طريق مُوسَى بن عُقْبَةَ، عن محمد بن المُنكدِر[١] به، ورواه ابنُ أبي حاتم من حديث أبي جَعفرٍ الرازيِّ، عن محمد بن المُنكدِر: حَدَّثتني أُميمةُ بنت رُقيقة ـ وكانت أخت خديجة خالةَ فاطمةَ، مِن فيها إلى فيَّ، فذكره.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني سَليطُ بن أيُّوبَ بنِ الحَكَم بن سُلَيم، عن أُمّه سَلمى بنت قيس ـ وكانت إحدى خالاتِ رسول الله ـ ﷺ ـ قد صَلَّت معه القِبلتين، وكانت إحدى نساءِ بني عَديِّ بن النَّجار قالت: جئتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ نبايعه في نِسوَةٍ من الأنصار، فلما شَرَط علينا: ألَّا نُشركَ بالله شيئاً، ولا نَسرقَ، ولا نَزنيَ، ولا نقتلَ أولادنا، ولا نأتيَ ببُهتانٍ نَفتريه بين أيدينا وأرجُلنا، ولا نَعصيه في معروفٍ قال: ولا تَغشُشْنَ أزواجكُنّ. قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلتُ لامرأةٍ منهن: ارجعي فَسَلي رسول الله ـ ﷺ ـ: ما غِشُّ أزواجِنا؟ قال: فسألته فقال: تأخذُ ماله، فتُحابي به غيرَه[٢].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إبراهيمُ بن أبي العباس، حدثنا عبدُ الرحمن بنُ عثمانَ بن إبراهيمَ بن محمد بن حاطب، حدثني أبي، عن أمه عائشةَ بنت قُدامة ـ يعني ابنَ مَظْعُون ـ قالت: أنا مع أُمّي رائطة بنت سفيان الخُزاعيَّة، والنبيُّ ـ ﷺ ـ يبايعُ النِّسوةَ ويقول: «أُبايعكُنَّ على أن لا تُشركنَ بالله شيئاً، ولا تَسرِقْنَ ولا تَزنِينَ ولا تَقتلن أولادكُنَّ، ولا تأتين ببهتان تَفترينه بين أيديكن وأرجُلِكُنَّ، ولا تعصِينني في مَعْرُوفٍ». قُلن: نعم فيما استطعنَ. فكُنَّ يَقُلْنَ وأقولُ معهُنَّ، وأُمّي تقول: أي بُنيَّةُ: نعم. فكنت أقول كما يَقُلن[٣].

وقال البخاريُّ: حدثنا أبو مَعْمَر، حَدَّثنا عبدُ الوارث، حدثنا أيُّوبُ، عن حفصةَ بنت سيرينَ، عن أُمّ عطيةَ قالت: بايَعْنا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقرأ علينا: ﴿أن لا يُشركن بالله شيئاً﴾، ونهانا عن النِّياحَةِ، فقَبضت امرأةٌ يدها، فقالت: أسْعَدتني فلانةُ أريد أن أجزِيَها. فما قال لها رسولُ الله ـ ﷺ ـ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها[٤].

وَرَواه مسلم[٤]. وفي رواية: «فما وَفَى منهُنَّ امرأةٌ غيرُها، وغيرُ أم سُلَيم ابنةِ مِلْحَانَ».

وللبخاريِّ عن أُمّ عَطيَّة قالت: أخذ علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عند البيعة أن لا نَنُوح، فما وَفَت منا امرأة غيرُ خَمْسِ نِسْوَةٍ: أمّ سُلَيمٍ، وأمّ العلاء، وابنة أبي سَبْرَةَ امرأة مُعاذٍ، وامرأتان ـ أو: ابنة أبي سَبرة، وامرأةُ معاذ، وامرأةٌ أخرى[٥].

وقد كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَتعاهَدُ النِّساءَ بهذه البيعةِ يومَ العيد، كما قال البخاري:

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/٣٦٥.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة الممتحنة ٨/٦٣٧، ومسلم، كتاب الجنائز ٢/٦٤٥ ـ ٦٤٦.
والإسعادُ: قيام المرأة مع الأخرى في النياحة تراسلها، وهو خاصٌّ بهذا المعنى، ولا يستعمل إلا في البكاء والمساعدة عليه.

(٥) فتح الباري، كتاب الجنائز ٣/١٧٦.

حدثنا محمدُ بنُ عبد الرحيم، حدثنا هارونُ بنِ معروفٍ، حدثنا عبدُ الله بنُ وَهبٍ، أخبرني ابنُ جُرَيجٍ: أن الحسنَ بنَ مُسلِم أخبَرَه، عن طاوُسٍ، عن ابن عباس قال: شَهِدتُ الصلاةَ يوم الفِطر مع رَسول الله ـ ﷺ ـ وأبي بكر وعُمَر وعثمان، فكلُّهم يُصلِّيها قبل الخطبةِ ثم يخطُب بَعدُ، فنزل نَبيُّ الله ـ ﷺ ـ فكأني أنظرُ إليه حين يُجلِّس الرجالَ بيده، ثم أقبل يشقُّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يا أيُّها النبيُّ إذا جاءكَ المؤمناتُ يُبايعنكَ على أن لا يُشرِكْنَ بالله شيئاً ولا يَسرِقن ولا يَزنين ولا يَقتُلن أولادهُنَّ ولا يأتين بِبُهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ وأرجُلِهنَّ﴾، حتى فَرَغ من الآية كلِّها. ثم قال حين فرغ: أنتُنَّ على ذلك؟ فقالت امرأةٌ واحدةٌ، لم يُجبه غيرُها: نَعَم يا رسول الله ـ لا يدري الحسن مَن هِي ـ قال: فتَصدَّقنَ. قال: وبسطَ بلالٌ ثوبَه فجعلْنَ يُلقِين الفَتَخَ والخواتيمَ في ثَوبِ بِلالٍ(٢).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا خَلفُ بنِ الوليد، حدثنا(٣) [ابنُ] عَيَّاش، عن سليمان بن سُليم، عن عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: جاءت أُمَيمةُ بنتُ رُقَيقة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ تُبايعُه على الإسلام، فقال: «أُبايعُكِ على أن لا تُشركي بالله شيئاً، ولا تَسرِقي ولا تَزْني ولا تقتُلي وَلَدَكِ، ولا تَأتِي بِبُهتانٍ تفترينَه بين يدَيكِ ورجليكِ، ولا تَنُوحي، ولا تَبَرَّجي تَبَرُّجَ الجاهلية الأولى»(٤).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُفيان، عن الزُهريِّ، عن أبي إدريسَ الخَوْلاني، عن عُبادَة بن الصَّامت قال: كُنّا عند رسولِ الله ـ ﷺ ـ في مَجلسٍ فقال: تُبايعُوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تَسرِقوا، ولا تَزْنُوا، ولا تقتلوا أولادكم ـ قرَ الآيةَ التي أُخِذَت على النساء: ﴿إذا جاءكَ المؤمناتُ﴾ ـ فمن وَفَى منكم فأجرُه على الله، ومَن أصاب مِن ذلك شيئاً فعُوقِبَ به فهو كفَّارة له. ومَن أصاب من ذلك شيئاً فَستره الله عليه فهو إلى الله، إن شاء غَفَر له، وإن شاء عذَّبه(*). أخرجاه في الصحيحين(٥).

وقال محمدُ بن إسحاق، عن يَزيدَ بن أبي حَبيب، عن مَرْثَدِ بن عبد الله اليَزَنيِّ، عن أبي عبد الله عبد الرحمن بن عُسَيلة الصُّنابحي، عن عُبادةَ بن الصَّامت قال: كنتُ فيمَن حضر العَقبةَ الأُولى، وكُنَّا اثنى عشرَ رجُلاً، فبايَعْنا رسولَ الله ـ ﷺ ـ على بيعةِ النساءِ، وذلك قبلَ أن يُفرَضَ الحربُ، على أن لا نُشرك بالله شيئاً، ولا نَسرقَ ولا نَزنِيَ ولا نقتلَ أولادَنا، ولا نأتيَ ببهتان نَفتَريه بين أيدينا وأرجُلِنا، ولا نَعصِيَه في معروفٍ، فإن وَفَيْتُم فلكم الجَنَّةُ. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقد روى ابنُ جَرير من طَريق العَوفي، عن ابن عبَّاس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أمَر عُمَر بنَ الخطَّاب فقال «قل لَهنَّ: إن رسولَ الله يُبايعُكُنَّ على أن لا تُشرِكن بالله شيئاً» ـ وكانت هندُ بنتُ عتبةَ بن ربيعةَ التي شقَّت بطن حمزةَ مُتَنكِّرةً في النساءِ ـ فقالت: إني إن أتكلَّم يَعرفني، وإن عَرَفني قَتلني. وإنما تَنكَّرت فرقاً من رسول الله ـ ﷺ ـ فسكتَ النسوةُ اللاتي مع هند، وأبين أن يَتكلَّمن. فقالت هندُ وهي مُتَنكِّرةٌ: كيف تقبلُ من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال؟ فنظر(٦) إليها رسولُ الله وقال لعُمَر. قل لهنَّ: ﴿ولا يَسرِقن﴾ ـ قالت هند: والله إني

---

(١) الفَتَخ. كل خلخال لا يُصلصِلُ، والفتخ ـ بفتحتين ـ . واحده فَتَخة، وهي حلقة من ذهب أو فضة لا فصّ لها، تلبس في البِنْصر كالخاتم.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الممتحنة ٦٣٨/٨.

(٣) في النسخ: حدثنا عباس. والمثبت من المسند، وتفسير الطبري، فقد أخرجه الطبري بإسناده إلى ابن عياش. على أن فيه: سليمان بن سليمان. وهو خطأ. انظر تهذيب الكمال، ترجمة: سليمان بن سُليم الكناني ٤٤٠/١١.

(٤) مسند الإمام أحمد ١٩٦/٢، وتفسير الطبري ٧٩/٢٨.

(٥) مسند الإمام أحمد ٣١٤/٥، وفتح الباري، تفسير سورة الممتحنة ٦٣٧/٨ ـ ٦٣٨، ومسلم، كتاب الحدود ١٣٣٣/٣

(٦) في نسخة الأزهر: فقطن

لأصيب من أبي سفيان الهَنَاتِ، ما أدري أَيُحلُّهن لي أم لا؟ قال أبو سفيان: ما أصبتِ من شيء مَضى، أو قد بَقِي فهو لك حلالٌ. فضحِك رسول الله ـ ﷺ ـ وعرَفَها، فدعاها فأخذت بيده فعاذت به، فقال: أنت هندٌ؟. قالت: عفَا الله عما سَلَف. فصرف عنها رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ﴿ولا يَزْنِين﴾، فقالت: يا رسولَ الله، وهل تزني الحُرَّة؟ قال: لا، والله ما تزني الحُرَّة. فقال: ﴿ولا يقتُلن أولادَهُنَّ﴾. قالت هند: أنت قتلتهم يومَ بدر، فأنت وهم أبصَرُ. قال: ﴿ولا يأتين ببُهتانٍ يَفتَرينَه بين أيديهِنَّ وأرجُلِهِنَّ﴾، قال: ﴿ولا يَعصِينك في معروف﴾. قال: مَنَعهن أن يَنُحن، وكان أهلُ الجاهلية يُمزِّقن الثيابَ ويخدِشن الوجُوه، ويقطَعن الشُّعور، ويدعُون بالثُّبور والويل[1].

وهذا أثر غريب، وفي بَعضِه نكارةٌ، والله أعلم؛ فإن أبا سفيان وامرأته لما أسلَما لم يكُن رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَجْفِيهما[2]، بل أظهرَ الصفاء والوُدَّ له، وكذلك كان الأمرُ من جانبه ـ ﷺ ـ لهما.

وقال مقاتلُ بن حَيَّانَ: أُنزلت هذه الآيةُ يومَ الفتح، فبايع رسولُ الله ـ ﷺ ـ الرجالَ على الصفا، وعمر يُبايعُ النساء تحتها عن رسول الله، ﷺ[3]. فذَكر بَقيَّته كما تقدَّم وزادَ: فلما قال: «ولا تقتُلن أولادكن»، قالت هند: رَبَّيناهم صِغاراً فقتلتُموهم كباراً. فضحِك عُمر بن الخطاب حتى استلقى. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدثنا نصرُ بن علي، حدثني غِبْطَةُ بنتُ سليمان، حدثتني عمَّتي، عن جدَّتي[4]، عن عائشةَ قالت: جاءت هندُ بنتُ عتبة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لتُبايِعَه، فنظرَ إلى يَدِها فقال: «اذهَبي فغَيِّري يَدَكِ» فذهبت فغَيَّرتها بحنَّاءٍ، ثم جاءت فقال: «أُبايعُكِ على ألاَّ تُشركي بالله شيئاً»، فبايعها[5] وفي يَدِها سِواران من ذَهَب، فقالت: ما تقول في هذين السِّوارين؟ فقال: «جَمْرَتان من جَمْرِ جَهنَّم».

فقولُه: ﴿يا أيُّها النبيُّ إذا جاءكَ المؤمناتُ يُبايِعْنَك﴾، أي: مَن جاءكَ منهُنَّ يبايع على هذه الشروط فَبايِعها، ﴿على أن لا يُشركن بالله شيئاً ولا يسرِقن﴾، أي: أموالَ الناسِ الأجانب، فأما إذا كان الزوجُ مُقصِّراً في نفقتها فلها أن تأكُلَ من ماله بالمعروفِ ما جَرَت به عادةُ أمثالها، وإن كان بغير عِلْمِه، عَمَلاً بحديث هند بنت عُتبةَ أنها قالت: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ شَحيحٌ لا يُعطِيني من النفقةِ ما يكفِيني ويكفي بني، فهل عليَّ جناح إن أخذتُ من ماله بغير علمه؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: خذِي من مالِه بالمعروفِ ما يكفيكِ ويكفِي بنيك. أخرجاه في الصحيحين[6].

وقوله: ﴿ولا يَزْنِينَ﴾، كقوله: ﴿ولا تَقرَبُوا الزِّنا إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلاً﴾. وفي حديث سَمُرة ذكرُ عقوبةِ الزُّناة بالعذابِ الأليمِ في نار الجَحِيم[7].

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/٧٨.
(٢) أجفى الشيءَ: أبعده.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٨/١٣٩.
(٤) كذا في نسخنا، وفي سنن أبي داود، كتاب الترجل ٤/٧٦ «غبطة بنت عمرو المجاشعية، قالت. حدثتني عمتي أم الحسن، عن جدتها، عن عائشة».
(٥) في نسخة: فبايعته.
(٦) فتح الباري، كتاب الأحكام ١٣/١٧١، ومسلم، كتاب الأقضية ٣/١٣٣٨
(٧) أخرجه البخاري، فتح الباري، كتاب التعبير ١٢/٤٣٨ ـ ٤٣٩، ومسلم مختصراً في كتاب الرؤيا ٤/١٧٨١، وكذلك الترمذي في الرؤيا وأخرجه النسائي بتمامه في كتاب الرؤيا والتفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/٨١ ـ ٨٢، والإمام أحمد في مسنده ٥/١٤ ـ ١٥.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن الزهريّ، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: جاءت فاطمةُ بنتُ عتبةَ تبايعُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فأخذ عليها: ﴿أن لا يُشركْنَ بالله شيئاً ولا يسرقْنَ ولا يَزْنِين﴾... الآية، قالت: فوضعت يدَها على رأسِها حياءً، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أَقِرِّي أيَّتُها المرأة، فوالله ما بايَعَنا إلا على هذا. قالت: فنعم إذاً، فبايَعَها بالآية(١).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا ابن فُضَيل، عن حُصَين، عن عامر ـ هو الشعبيُّ ـ قال: بايعَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ النساءَ، وعلى يده ثوبٌ قد وَضَعه على كَفِّه، ثم قال: «ولا تقتلن أولادكن». فقالت امرأة: تقتُل آباءهم وتُوصينا بأولادهم؟ قال: وكان بعد ذلك إذا جاءه النساء يُبايعنه، جَمَعهُنَّ فعرَضَ عليهنَّ، فإذا أقرِرن رَجَعْنَ.

وقولُه: ﴿ولا يقتُلن أولادهن﴾: وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يَقتُلون أولادهُم خشيةَ الإملاق، ويعم قتلَه وهو جَنينٌ، كما قد يفعلُه بعضُ الجَهَلة من النساء، تطرحُ نفسها لئلا تحبل إمّا لِغرَضٍ فاسدٍ أو ما أشبَهَه.

وقولُه: ﴿ولا يأتين بِبُهتانٍ يَفْترينه بين أيديهنَّ وأرجُلهنَّ﴾، قال ابنُ عباس: يعني لا يُلحِقنَ بأزواجهن غير أولادِهم. وكذا قال مُقاتِل. ويؤيد هذا الحديثُ الذي رواه أبو داود:

حدثنا أحمدُ بن صالح، حدثنا ابنُ وهب، حدثنا عَمرو ـ يعني ابنَ الحارث ـ عن ابن الهادِ، عن عبد الله ابن يُونُس، عن سَعيد المَقْبُري، عن أبي هُرَيْرَة أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ حين نَزَلت آية الملاعَنة: «أيُّما امرأة أدخلت على قوم مَن ليس منهم فليسـت من الله في شيء، ولن يُدخِلَها الله جَنّته. وأيُّما رجلٍ جَحَد وَلَده وهو ينظُر إليه احتجَبَ الله منه، وفَضَحه على رُءوس الأوّلين والآخرين»(٢).

وقولُه: ﴿ولا يَعصِينَكَ في مَعْرُوفٍ﴾، يعني: فيما أمرتَهُنَّ به من مَعْرُوفٍ، ونَهَيْتَهُنَّ عنه من منكر.

قال البخاريُّ: حدثنا عبدُ الله بن محمد، حدثنا وهبُ بن جَرير، حدثنا أبي قال: سَمِعتُ الزُّبير، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباسٍ في قوله: ﴿ولا يَعصِينَكَ في مَعْرُوفٍ﴾، قال: إنما هو شَرْطٌ شَرَطه الله للنساء(٣).

وقال مَيمُونُ بن مِهران: لم يجعلِ الله لِنَبيِّه طاعةً إلاّ في المعرُوف، والمعروفُ طاعة. وقال ابنُ زيدٍ: أمر الله بطاعة رسوله، وهو خِيرَةُ الله من خَلْقِه في المعروف.

وقد قال غيرُه عن ابن عباس، وأنسُ بن مالك، وسالمُ بن أبي الجَعد، وأبو صالحٍ، وغيرُ واحدٍ: نهاهُنَّ يومئذ عن النوح. وقد تقدّم حديثُ أُم عَطِيَّةَ في ذلك أيضاً.

وقال ابنُ جرير: حدثنا بشر، حدثنا يَزيدُ، حدثنا سَعيدُ، عن قتادةَ في هذه الآية: ذُكِرَ لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ أخذ عليهنَّ النِّياحة، ولا تُحدِّثنَ الرجالَ إلا رجلاً منكن مَحْرَماً. فقال عبدُ الرحمن بنُ عَوف: يا نبيَّ الله، إنّ لنا أضيافاً، وإنا نغيبُ عن نِسائنا. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ليسَ أُولئِكَ عَنَيْتُ، ليس أولئك عَنَيْتُ»(٤).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦/١٥١.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الطلاق ٢/٢٧٩.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الممتحنة ٨/٦٣٧.
(٤) تفسير الطبري ٢٨/٧٨ ـ ٧٩

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا إبراهيمُ بن موسى الفرّاء، أخبرنا ابن أبي زائدة، حدثني مبارك، عن الحسن قال: كان فيما أخذ النبيُّ ـ ﷺ ـ: ألا يُحدِّثْنَ الرجال إلا أن تكون ذات محرم، فإنّ الرجل لا يزالُ يُحدِّث المرأة حتى يُمْذِيَ بين فَخِذَيه.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابنُ حُمَيد، حدثنا هارونُ، عن عَمْرو، عن عاصم، عن ابن سيرين، عن أم عطيَّة الأنصارية قالت: كان فيما اشتُرِطَ علينا من المعروف حين بايعنا: ألاّ ننوحَ، فقالت امرأة من بني فلانٍ: إن بني فلانٍ أسعدُوني، فلا حتّى أجزيَهُم! فانطلقَتْ فأسعدَتْهم، ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وفى منهنّ غيرُها، وغيرُ أمّ سُلَيم ابنة مِلْحانَ أمّ أنس بن مالكٍ[1].

وقد رَوَى البخاريُّ هذا الحديثَ[1] من طريق حفصةَ بنتِ سيرينَ، عن أم عطيَّة نسيبة الأنصارية، رضي الله عنها. وقد رُوِي نحوُه من وجهٍ آخَرَ أيضاً، قال ابنُ جَرير:

حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا عُمَر بن فَرُّوخ القَتّاب، حدثني مُصْعَب بن نُوح الأنصاري قال: أدركتُ عَجُوزاً لنا كانت فيمَن بايعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قالت: فأتيتُه لأبايعَه، فأخذ علينا فيما أخذ ألاّ تنحن، فقالت عَجُوزٌ: يا نبيَّ الله، إن ناساً قد كانُوا أسعدُوني على مصائبَ أصابتني، وإنّهم قد أصابتْهم مُصِيبةٌ، فأنا أُريدُ أن أُسعِدَهُم. قال: «فانطلِقي فكَافِئيهم» فانطَلَقتْ فكافأتْهم، ثم إنها أتتْهُ فبايَعته، وقال: هو المعروفُ الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿ولا يَعصِينَكَ في مَعرُوفٍ﴾[2]

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرَّمادِيُّ، حدثنا القَعنبي، حدثنا الحجاجُ بن صَفوانَ، عن أسيد ابن أبي أَسِيد البرّاد، عن امرأةٍ من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ ألاّ نعصيه في معروفٍ: ألاّ نخمِشَ وجهاً، ولا نَنشُرَ شَعَراً، ولا نشقَّ جيباً، ولا ندعُو ويلاً.

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا وكيعٌ، عن يَزِيد مولى الصَّهباء، عن شهر بن حَوْشَب، عن أم سَلَمة، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ في قولِه: ﴿ولا يَعصِينَكَ في مَعرُوفٍ﴾، قال: النَّوحُ[3]

ورواه الترمذي في التفسير، عن عَبدِ بن حُمَيد، عن أبي نُعَيم ـ وابنُ ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع ـ كلاهُما عن يزيدَ بن عبدالله الشيباني مولى الصهباء، به. وقال الترمذي: «حسنٌ غريبٌ»[3]

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن سِنان القَزّاز، حدثنا إسحاقُ بن إدريسَ، حدثنا إسحاق بن عثمان أبو يعقوب، حدثني إسماعيل بن عبدالرحمن بن عَطِيَّة، عن جَدَّته أم عطية قالت: لما قَدِم رسولُ الله ـ ﷺ ـ جَمَع نساءَ الأنصار في بيتٍ، ثم أرسلَ إلينا عُمَرَ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقام على الباب وسلَّم علينا، فرَدَدْنَ ـ أو: فرَدَدْنا ـ عليه، ثم قال: أنا رسولُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إليكُنّ. قالت: فقلنا: مرحباً برسول الله، وبرسُولِ رسولِ الله. فقال: تُبايِعْنَ على ألاّ تُشرِكن بالله شيئاً، ولا تَسرِقن ولا تَزْنِين؟ قالت: فقلنا: نعم. قالت: فمدَّ يَدَه من خارج الباب ـ أو: البيت ـ ومَدَدنا أيدينا من داخل البيت، ثم قال: اللهم اشهَدْ. قالت: فأمَرَنا في العيدين أن نُخرِجَ فيه الحُيَّضَ والعَواتِقَ[4]، ولا جُمعةَ علينا، ونهانا عن اتّباع الجنائز. قالت:

(١) تفسير الطبري ٢٨/٧٩. وقد تقدَّم حديث البخاري وتخريجُه من قريب
(٢) تفسير الطبري ٢٨/٧٩
(٣) تفسير الطبري ٢٨/٨٠ وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الممتحنة ١٢/١٩٥، وسنن ابن ماجه كتاب الجنائز ١/٥٠٣.
(٤) العواتق: جمع عاتق، وهي الجارية التي قد أدركت وبلغت، فخُدِّرت في بيت أهلها ولم تتزوج، سُمِّيت بذلك لأنها عتقت عن خدمة

إسماعيل: سألتُ جَدَّتي عن قوله: ﴿ولا يَعصِينَكَ في معرُوفٍ﴾، قالت: النِّياحَة[1].

وفي الصحيحَين من طريقِ الأعمش، عن عبدالله بن مُرَّةَ، عن مسروق، عن عبدالله بن مسعُودٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ليس منَّا من ضَرَبَ الخُدُود، وشَقَّ الجُيُوبَ، ودَعَا بدَعوى الجاهلية»[2].

وفي الصحيحَين أيضاً عن أبي موسى: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ بَرِيءٌ من الصالِقَةِ والحالِقَةِ والشاقة[2].

وقال الحافظُ أبو يعلى: حدثنا هُدْبَةُ بنُ خالدٍ، حدثنا أبانُ بن يزيد، حدثنا يحيى بن أبي كثير: أن زيداً حدثه: أن أبا سَلَّام حدثه: أن أبا مالك الأشعريَّ حَدَّثَه: أن رَسُولَ الله ﷺ قال: «أربعٌ في أمتي من أمرِ الجاهلية لا يتركُونَهُنَّ: الفخرُ في الأحساب، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجوم، والنِّياحة. وقال: النائحة إذا لم تَتُب قبل مَوتِهَا تقوم يومَ القيامةِ وعليها سِربال من قَطِرَانٍ، ودِرعٌ من جَرَبٍ»[3].

ورَوَاه مسلم في صحيحه مُنفرداً به، من حديث أبان بن يزيد العطَّار، به[3].

وعن أبي سَعيدٍ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لعنَ النائحةَ والمستَمِعَةَ. رواه أبو داودَ[4].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

ينهى تبارك وتعالى عن مُوالاةِ الكافرين في آخر هذه السورة كما نَهَى عنها في أولها فقال: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تَتَولَّوا قوماً غضِبَ الله عليهم﴾، يعني اليهود والنصارى وسائر الكُفَّار، ممن غَضِبَ الله عليه ولعنه واستحقَّ من الله الطردَ والإبعادَ، فكيف تُوالُونَهم وتتخذُونَهم أصدقاء وأخلاءَ وقد يَئِسُوا من الآخرة، أي: من ثواب الآخرةِ ونَعِيمِها في حكم الله عزَّ وجلَّ.

وقولُه: ﴿كما يَئِسَ الكُفَّار من أصحاب القبور﴾، فيه قولان: أحدهما: كما يَئِس الكُفَّار الأحياءُ من قراباتهم الذين في القُبُور أن يجتمِعُوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نُشوراً، فقد انقطَع رجاؤُهم منهم فيما يعتقدُونه.

قال العوفيُّ: عن ابن عباس: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تتولَّوا قوماً غضب الله عليهم﴾... إلى آخر السورة، يعني من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياءُ من الذين كفروا أن يرجعُوا إليهم أو يبعثَهم الله عزَّ وجلَّ.

وقال الحسنُ البصريُّ: ﴿كما يئس الكُفَّار من أصحاب القبور﴾، قال: الكُفَّار الأحياءُ قد يَئِسوا من الأموات.

= أبويها ولم يمسكها زوج بعدُ. وقيل: لأنها عتقت من الصِّبا. وقد أخرج البخاري عن حفصة أسندية الأم عطية قالت: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يخرج العواتق وذوات الخدور والحُيَّض، وليَشْهَدْن الخير ودعوة المؤمنين، ويعتزل الحيض المُصلَّى. فتح الباري، كتاب الحيض ٤٢٣/١

(١) تفسير الطبري ٨٠/٢٨ ـ ٨١

(٢) فتح الباري، كتاب الجنائز ١٦٥/٣ ـ ١٦٦، ومسلم، كتاب الإيمان ٩٩/١ ـ ١٠٠

والصالقة: التي ترفع صوتها عند المصيبة، والحالقة: التي تحلق شعرها، والشاقة: التي تشقُّ ثوبها

(٣) مسند أبي يعلى ٢٣٥/٢، ومسلم، كتاب الجنائز ٦٤٤/٢

(٤) سنن أبي داود، كتاب الجنائز ٥٦٣/٣ ـ ٥٦٤.

وقال قتادةُ: كما يئِس الكُفَّار أن يرجعَ إليهم أصحابُ القُبورِ الذين ماتُوا. وكذا قال الضحَّاكُ. رواهُنَّ ابنُ جَرِيرٍ[1].

والقولُ الثانيَ، معناه: كما يئِس الكفار الذين هم في القُبُورِ من كلِّ خير.

قال الأعمشُ، عن أبي الضُّحَى، عن مسروقٍ، عن ابن مسعُودٍ ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ قال: كما يَئِس هذا الكافرُ إذا مات وعايَنَ ثوابَه واطَّلع عليه. وهذا قولُ مجاهدٍ، وعكرِمةَ، ومُقَاتِلٍ، وابنِ زيدٍ، والكلبيِّ، ومنصُورٍ. وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ.

آخرُ تفسيرِ سورةِ المُمتحَنَة، ولله الحمدُ والمنةُ

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ٨١ ـ ٨٢.

تفسير

سُورَةُ الصَّفِّ

وهي مَدَنيَّةٌ

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابنُ المبارك، عَن الأوزاعِيِّ، عن يحيى بن أبي كَثِيرٍ، عن أبي سَلَمة ـ وعن عطاء بن يسار، عن أبي سَلَمة ـ عن عبد الله بن سَلاَم قال: تَذاكرنا: أَيُّكم يأتِي رسولَ الله ـ ﷺ ـ فيَسألَه: أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله؟ فلم يَقُم أحدٌ منا، فأرسل رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلينا رَجُلاً، فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورةَ، يعني سورَة الصفِّ كلها. هكذا رواه الإمام أحمد(١).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مَزْيد البيروتيّ قراءةً قال: أخبرني أبي، سمعتُ الأوزاعيَّ، حَدَّثني يحيى بنُ أبي كثير، حدثني أبو سلمةَ بن عبدِ الرحمن، حدثني عبد الله بن سَلاَم، أنَّ أناساً من أصحاب رسولِ الله ـ ﷺ ـ قالوا: لو أرسلنا إلى رَسُول الله نَسألُه عن أحبِّ الأعمالِ إلى الله عزَّ وجلَّ؟ فلم يذهب إليه أحدٌ منا، وَهِبْنا أن نسألَه عن ذلك، قال: فدعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أولئكَ النفرَ رَجُلاً رَجُلاً حتى جمعهم، ونزلت فيهم هذه السورةُ: ﴿سَبَّحَ﴾، الصفُّ، قال عبدُ الله بن سَلاَم: فَقَرأها علينا رسول الله ـ ﷺ ـ كلَّها. قال أبو سلمة: وقرأها علينا عبد الله بن سَلاَمٍ كلَّها. قال يحيى بن أبي كثير: وقرأها علينا أبو سلمة كلَّها. قال الأوزاعي: وقرأها علينا يحيى بن أبي كثير كُلَّها. قال أبي: وقرأها علينا الأوزاعيُّ كلَّها.

وقد رَوَاه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارِميِّ: حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعيِّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سَلاَم قال: قعدنا ـ نَفَراً من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ لَعَمِلْناهُ. فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيزُ الحكيمُ ◈ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقُولون ما لا تفعلون﴾، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسولُ الله ﷺ. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سَلاَم. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سَلَمة. قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعيُّ. قال عبد الله: فقرأها علينا ابنُ كثير.

(١) مسند الإمام أحمد ٤٥٢/٥

ثم قال الترمذي: وقد خُولِف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعيّ، فروى ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن سَلَام ـ أو: عن أبي سَلَمة، عن عبد الله بن سَلَام[١].

قلت: وهكذا رَوَاه الإمام أحمد، عن يَعْمَر، عن ابن المبارك، به[١].

قال الترمذي: «وروى الوليد بن مسلم هذا الحديث عن الأوزاعي، نحو رواية محمد بن كثير»[١].

قلت: وكذا رَوَاه الوليدُ بن يزيد، عن الأوزاعيِّ، كما رواه ابنُ كثير.

قلت: وقد أخبرني بهذا الحديث الشيخُ المُسند أبو العباس أحمد بن أبي طالب الحجار قراءةً عليه وأنا أسمعُ، أخبرنا أبو المُنَجَّا عبد الله بنُ عُمر بن اللَّتِّيّ، أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السِّجْزِيّ، قال: أخبرنا أبو الحسن عبدُ الرحمن بن المُظفّر بن محمد بن داود الداوُدِيُّ، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حَمُّويه السرخَسِيّ، أخبرنا عيسى بنُ عُمَر بن عمران السمرقنديُّ، أخبرنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارميّ بجميع مُسنده، أخبرنا مُحمَّد بن كثير، عن الأوزاعيُّ... فذكر بإسناده مثله، وتَسَلسل لنا قراءتُه إلى شيخنا أبي العبّاس الحجار، ولم يقرأها لأنه كان أُمِّيًّا، وضاق الوقتُ عن تلقينها إياه. ولكن أخبرني الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبيُّ، أخبرنا القاضي تقي الدين سليمان بن الشيخ أبي عُمر، أخبرنا أبو المُنَجّا بن اللَّتِّيّ... فذكره بإسناده، وتَسَلْسَل لي من طريقه، وقرأها عليّ بكماله، ولله الحمدُ والمنّة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾

وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون﴾: إنكارٌ على من يعد عدةً، أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن ذَهَب من عُلَماء السلفِ إلى أنه يجبُ الوفاءُ بالوعد مُطلقاً، سواء ترتّب عليه غُرم للموعُود أم لا، واحتجُّوا أيضاً من السُّنّةِ بما ثبت في الصحيحَين، أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «آيةُ المُنافق ثلاثٌ: إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلفَ، وإذا اؤتُمن خان»[٢]. وفي الحديث الآخر في الصَّحيح: «أربعٌ من كُنَّ فيه كان مُنافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من نفاقٍ حتى يَدَعها»[٣] ـ فذكر منهن إخلافَ الوعد. وقد استقصَيْنا الكلام على هذين الحديثين في أول الشرح

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الصف ١٢/١٩٧ ـ ١٩٨، ومسند الإمام أحمد ٥/٤٥٢.

(٢) تقدَّم الحديث غير مرّة، انظر تفسير الآية ١٧٧، ٢٠٤ من سورة البقرة، ٧٧ من سورة التوبة، ٢٥ من سورة الرعد، ٥٤ من سورة مريم، ٣٢ من سورة المعارج، وخرجناه هنالك.

(٣) أخرجه الشيخان في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/٨٩، ومسلم ١/٧٨.

البُخاري»، ولله الحمدُ والمنَّةُ ولهذا أكَّد تعالى هذا الإنكارَ عليهم بقوله: ﴿كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولُوا ما لا تفعلُون﴾.

[(١) - وقد روى الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ، عن عبد الله بن عامر بن رَبيعة قال: أتانا(٢) رسولَ الله - ﷺ - [في بيتنا] وأنا صبيٌّ - قال: فذهبتُ لأخرُجَ لألعَبَ، فقالت أمي: يا عبدَ الله، تعالَ أُعطِكَ فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تُعطيهِ؟». قالت: تمراً فقال: «أما إنك لو لم تفعلي كُتبت عليكِ كِذْبَةٌ»](١).

وذهب الإمامُ مالكٌ - رحمه الله - إلى أنه إذا تعلَّق بالوعد غُرم على الموعود وجَبَ الوفاءُ به، كما لو قال لغيره: «تزوَّج ولكَ عليَّ كلَّ يوم كذا». فتزوَّجَ، وَجَبَ عليه أن يُعطيه ما دام كذلك، لأنه تَعلَّق به حقُّ آدميٍّ، وهو مَبنيٌّ على المُضايقة. وذهب الجمهورُ إلى أنه لا يجبُ مطلقاً، وحملُوا الآيةَ على أنها نزلت حين تمنَّوا فرضيَّةَ الجهاد عليهم، فلما فُرض نَكَلَ عنه بعضُهم، كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يخشَون الناس كخَشيةِ الله أو أشدَّ خشيةً وقالوا ربَّنا لِمَ كتبتَ علينا القتالَ لولا أخَّرتنا إلى أجلٍ قريبٍ قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتَّقى ولا تُظلَمُون فَتيلاً * أينما تكونُوا يُدرككُّم الموتُ ولو كنتُم في بُرُوجٍ مُشيَّدةٍ﴾. وقال تعالى: ﴿ويقولُ الذين آمنوا لولا نُزِّلت سورة فإذا أُنزلت سورةٌ مُحكمةٌ وذُكِر فيها القتالُ رأيتَ الذين في قلُوبهم مرضٌ ينظرُون إليكَ نظر المغشيِّ عليه من الموت﴾... الآية، وهكذا هذه الآية معناها كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لِمَ تقولُون ما لا تَفعلُون﴾، قال: كان ناسٌ من المؤمنين قبلَ أن يُفرَض الجهادُ يقولُون: لَوَدِدنا أن الله - عزَّ وجلَّ - دَلَّنا على أحبِّ الأعمال إليه، فَنعملَ به. فأخبرَ الله نبيَّه أن أحبَّ الأعمال إيمانٌ به لا شكَّ فيه، وجهادُ أهل مَعصيتِه الذين خالفُوا الإيمانَ ولم يُقِرُّوا به. فلما نزل الجهادُ كَرِه ذلك أناسٌ من المؤمنين، وشقَّ عليهم أمرُه، فقال الله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لم تقولُون ما لا تفعلُون﴾. وهذا اختيارُ ابن جَرير(٣).

وقال مُقاتل بنُ حَيّان: قال المؤمنون: لو نعلَمُ أحبَّ الأعمال إلى الله لَعَمِلنا به. فدَلَّهم الله على أحبِّ الأعمال إليه، فقال: ﴿إنَّ الله يُحبُّ الذين يقاتِلُون في سَبيله صفًّا﴾، فَبيَّن لهم، فابتلُوا يومَ أُحُد بذلك. فولَّوا عن النبي - ﷺ - مُدبرين، فأنزل الله في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾، وقال: أحبُّكم إليَّ مَن قاتل في سَبيلي(٤).

ومنهم من يقولُ: أنزلت في شأنِ القتال، يقولُ الرجلُ: «قاتلتُ». ولم يقاتل. «وطَعَنتُ». ولم يَطْعَن. «وضَرَبْتُ» ولم يضرب. «وصبرتُ» ولم يَصبر.

وقال قتادةُ، والضحَّاكُ: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون: «قَتَلنا، ضَرَبنا، طعَنَّا، وفعَلنا». ولم يكونُوا فعلوا ذلك. وقال ابنُ زيد: نزلت في قومٍ من المنافقين، كانوا يَعِدُون المسلمين النصرَ، ولا يَفون لهم بذلك.

(١ - ١) هذه الفقرة ساقطة من بعض النسخ.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٤٧/٣، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٩٨/٤.

(٣) تفسير الطبري ٨٣/٢٨ - ٨٥

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ١٤٦/٨

وقال مالكٌ، عن زيد بن أسلَمَ: ﴿لِمَ تقولُون ما لا تفعَلُون﴾، قال: في الجِهادِ. وقال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: ﴿لِمَ تقولُون ما لا تفعَلُون﴾ إلى قوله: ﴿كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ﴾، فما بين ذلك، في نفرٍ من الأنصار، فيهم عبدُ الله بن رَواحةَ، قالوا في مجلسٍ: لو نعلمُ أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله، لعملنا بها حتى نموتَ. فأنزلَ اللهُ هذا فيهم. فقال عبدُ الله بن رَواحةَ: لا أبرحُ حبيساً في سبيل الله حتى أموتَ شهيداً[١].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوةُ بن أبي المغْراءِ، حدثنا علي بن مُسهرٍ، عن داود بن أبي هندٍ، عن أبي حَرْب بن أبي الأسود الدِّيلي، عن أبيه قال: بعث أبو موسى إلى قُرَّاءِ أهل البصرةِ، فدخل عليه منهم ثلاثمئة رجلٍ، كلُّهم قد قرأ القرآنَ، فقال: أنتم قُرَّاءُ أهلِ البصرة وخيارُهم. وقال: كُنّا نقرأ سورةً كنا نُشبِّهها بإحدى المُسبِّحات، فأُنسيناها، غير أني قد حفظت منها: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لم تقولُون ما لا تفعَلُون﴾. فتُكتَبُ شهادةً في أعناقكم، فتُسألون عنها يومَ القيامةِ.

ولهذا، قال تعالى: ﴿إنَّ الله يُحِبُّ الذين يقاتِلُون في سبيله صَفًّا كأنهم بنيانٌ مرصُوصٌ﴾، فهذا إخبارٌ منه تعالى بمحبَّةِ عباده المؤمنين إذا اصطَفُّوا مواجهين لأعداءِ الله في حَوْمَةِ الوغى، يُقاتلون في سبيل الله مَن كفر بالله، لتكون كلمةُ الله هي العُليا، ودينُه هو الظاهرُ العالي على سائر الأديانِ.

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا هُشَيم، قال مُجالِدٌ: أخبرنا عن أبي الوَدَّاك، عن أبي سَعيد الخُدْرِيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثةٌ يضحَكُ اللهُ إليهم: الرجلُ يقومُ من الليلِ، والقومُ إذا صَفُّوا للصلاةِ، والقومُ إذا صَفُّوا للقتالِ»[٢].

ورواه ابنُ ماجه من حديثِ مُجالد، عن أبي الوَدَّاك جَبْرِ بن نَوف، به[٢].

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم الفضل بن دُكَين، حدثنا الأسود ـ يعني ابنَ شيبان ـ حَدَّثني يزيدُ بن عبد الله بن الشِّخِّير قال: قال مُطَرِّفٌ: كان يبلُغني عن أبي ذَرٍّ حديثٌ كنتُ أشتهي لقاءَه، فلَقيتُه فقلتُ: يا أبا ذَرٍّ، كان يبلُغني عنك حديثٌ فكنتُ أشتهي لقاءَكَ. فقال: لله أبوكَ! فقد لَقيتَ، فهاتِ. فقلتُ: كان يَبلُغني عنكَ أنك تزعُم أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ حَدَّثكم أن الله يُحبُّ ثلاثةً ويُبغِضُ ثلاثةً؟ قال: أجل، فلا إخالُني أكذِبُ على خليلي ﷺ. قلت: فمَن هؤلاء الثلاثة الذين يُحبُّهم اللهُ؟ قال: رَجلٌ غزا في سبيل الله، خَرج مُحتَسِباً مُجاهداً فلقي العدوَّ فقُتِل، وأنتم تجدُونه في كتاب الله المُنزلِ، ثم قرأ: ﴿إن الله يُحبُّ الذين يُقاتِلُون في سَبيله صَفًّا كأنهم بُنيانٌ مرصُوص﴾... وذكر الحديثَ.

هكذا أوردَ هذا الحديثَ من هذا الوجهِ بهذا السياقِ، وهذا اللفظِ، واختصرُه. وقد أخرجَه التِّرمذيُّ والنسائيُّ[٣] من حَديثِ شُعبةَ، عن منصور بن المُعتَمِر، عن رِبعيّ بن حِرَاش، عن زيد بن ظَبيان، عن أبي ذرٍّ بأبسَطَ من هذا السياق وأتم. وقد أوردناه في موضعٍ آخرَ، ولله الحمدُ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨/٨٤، وعبدُ بن حُميد، وابن المنذر، وابن عساكر. الدر المنثور ٨/١٤٦.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٨٠، وسنن ابن ماجه، المقدمة ١/٧٣.

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/٣٩ ـ ٤٠، وسنن النسائي، كتاب الزكاة ٥/٨٤، وفي كتاب قيام الليل ٣/٢٠٧ ـ ٢٠٨، وأخرجه في كتاب الرجم من سُننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٩/١٦١.

(٤) تقدم عند تفسير الآية ٧٧ من سورة آل عمران، عن الإمام أحمد في مسنده ٥/١٥١.

وعن كَعْب الأحبار أنه قال: يقولُ الله تعالى لمحمدٍ ـ ﷺ ـ: «عَبدِي المتوكِّلُ المختارُ ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ، ولا يجزي بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفِرُ، مولدُه بمكَّة، وهجرتُه[1] بطابَةَ، ومُلكه بالشام، وأُمَّتُه الحمَّادُون، يحمَدُون الله على كلِّ حالٍ، وفي كل منزلةٍ، لهم دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحلِ في جَوِّ السماءِ بالسَّحَرِ، يُوضُّون أطرافهم، ويأتزرون على أنصافهم، صفُّهم في القتال مثل صَفِّهم في الصلاة». ثم قرأ: ﴿إِنَّ الله يحبُّ الذين يُقاتِلُون في سَبيله صفًّا كأنهم بُنيانٌ مرصُوصٌ﴾، رُعاةُ الشمسِ، يُصَلُّون الصلاة حيث أدركَتهم، ولو على ظهرِ كُناسةٍ[2]. رواه ابنُ أبي حاتم[3].

وقال سعيدُ بن جُبَير في قوله: ﴿إن الله يحبُّ الذين يُقاتِلُون في سبيلِه صفًّا﴾. قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ لا يُقاتِلُ العدوَّ إلا أن يُصافَّهم، وهذا تعليمٌ مِنَ الله للمؤمنين. قال. وقوله: ﴿كأنهم بُنيانٌ مرصُوصٌ﴾: مُلتَصِقٌ بعضُه في بعضٍ، في الصفِّ في القتالِ.

وقال مُقاتِلُ بن حَيَّان: ملتصقٌ بعضُه إلى بعضٍ. وقال ابن عباس: ﴿كأنَّهم بنيانٌ مرصُوصٌ﴾: مُثبَتٌ، لا يزول، ملصقٌ بعضُه ببعضٍ.

وقال قتادةُ: ﴿كأنهم بُنيانٌ مرصُوصٌ﴾، ألم ترَ إلى صاحب البُنيان، كيف لا يُحِبُّ أن يختلِفَ بنيانُه؟ فكذلك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يختلِف أمرُه، وإنَّ الله صَفَّ المؤمنين في قتالهم، وصَفَّهم في صلاتهم، فعليكم بأمرِ الله، فإنه عصمةٌ لمن أخَذَ به. أورد ذلك كلَّه ابن أبي حاتم.

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثني سعيدُ بن عمرو السَّكُوني، حدثنا بَقِيَّةُ بنُ الوليدِ، عن أبي بكر بن أبي مَرْيَمَ، عن يحيى بن جابر الطائيِّ، عن أبي بَحْرِيَّةَ قال: كانوا يكرَهُون القتالَ على الخيلِ، ويستحِبُّون القتالَ على الأرض، لقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إن الله يُحِبُّ الذينَ يُقاتِلُون في سَبيلهِ صَفًّا كأنهم بنيانٌ مرصُوصٌ﴾. قال: وكان أبو بَحرِيَّة يقول: إذا رأيتموني التفتُّ في الصفِّ فجَئُوا في لَحْيي[4].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عَبدِه ورسولِه وكَليمه موسى بن عمرانَ ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه: ﴿لِمَ تُؤذونَني وقد تعلَمُون أني رسولُ الله إليكم﴾، أي: لِمَ تُوصِلون الأذى إليَّ وأنتم تعلَمُون صِدْقي فيما جئتكم من الرسالة؟! وفي هذا تَسلِيَةٌ لرسول الله ـ ﷺ ـ فيما أصابَه من الكفَّار من قَومِه وغيرهم، وأمرٌ له بالصبر،

---

(١) طابة: اسم من أسماء المدينة النبوية.
(٢) في بعض الطبعات: ولو على ظهر دابّة.
(٣) أخرج أبو نعيم في الدلائل ٧٢ ـ ٧٤ نحوه بإسناده إلى وهب بن مُنَبِّه، وانظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٣٢ ـ ٣٣.
(٤) تفسير الطبري ٢٨/ ٨٦. واللَّحْيُ: منبت اللِّحية من الإنسان وغيره، وهما لَحْيان، والعظمان اللذان فيهما الأسنان من كل ذي لَحْيٍ. ووجأ فلاناً يجؤه وجئاً، ووجاءةً: دفعه بجُمع كفِّه في صدره أو عُنُقه. ويقال: وجأه باليد والسكين: ضربه.

ولهذا قال: «رَحْمَةُ الله على موسى، لقد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبر»(١) وفيه نهيٌ للمؤمنين أن ينالوا من النبيِّ ـ ﷺ ـ أو يُوصِلُوه(٢) أذىً، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تكونُوا كالذين آذَوْا موسى فبرَّأه الله مما قالُوا وكان عندَ الله وَجِيهاً﴾.

وقولُه: ﴿فلما زاغُوا أزاغَ الله قلوبَهم﴾، أي: فلما عَدَلُوا عن اتِّباع الحقِّ مع علْمِهم به أزاغَ اللهُ قلوبَهم عن الهُدى، وأسكنها الشكَّ والحيرةَ والخِذْلان؛ كما قال تعالى: ﴿ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنُوا به أوَّلَ مرَّةٍ ونَذَرُهم في طُغيانهم يَعْمَهُون﴾ وقال: ﴿ومن يُشاقِقِ الرسولَ من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتَّبع غيرَ سَبِيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولّى ونُصْلِه جَهَنَّم وساءت مَصِيراً﴾. ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿والله لا يهدِي القومَ الفاسِقِينَ﴾.

وقولُه: ﴿وإذ قال عيسى ابنُ مريم يا بَنِي إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مُصَدِّقاً لما بين يَدَيَّ من التوراة ومُبَشِّراً برسولٍ يأتي من بعدِي اسمُه أحمدُ﴾، يعني: التوراةَ قد بَشَّرَت بي، وأنا مِصداقُ ما أخبَرَت عنه، وأنا مُبَشِّرٌ بمن بعدي، وهو الرسولُ النبيُّ الأميُّ العربيُّ المكيُّ أحمدُ. فعيسى ـ عليه السلام ـ هو خاتمُ أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في مَلأ بني إسرائيل مُبَشِّراً بمحمد، وهو أحمد خاتَمُ الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نُبُوَّة. وما أحسنَ ما أورد البخاري الحديثَ الذي قال فيه:

حَدَّثنا أبو اليمان، حدثنا شُعَيب، عن الزُّهريِّ قال: أخبرني محمد بن جُبَير بن مُطْعِم، عن أبيه قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إن لي أسماءً: أنا محمدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يَمحُو الله به الكُفر، وأنا الحاشرُ الذي يُحشَر الناسُ على قَدَمِي، وأنا العاقِبُ»(٣). ورواه مسلم، من حديثِ الزُّهريِّ، به نحوَه(٣).

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعُوديُّ، عن عَمرو بن مُرَّةَ، عن أبي عُبَيْدة، عن أبي مُوسَى قال: سَمَّى لنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ نَفْسَه أسماءً، منها ما حفظنا فقال: «أنا محمدٌ، وأحمدُ، والحاشرُ، والمُقَفِّي، ونبيُّ التوبة، والمَلْحَمَة»(٤).

ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن عَمرو بن مُرَّةَ، به(٤).

وقد قال الله تعالى: ﴿الذين يَتَّبِعُون الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يجِدُونه مكتوباً عندَهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وإذ أخَذَ الله ميثاقَ النَّبِيِّين لَمَا آتيتكم من كتابٍ وحِكْمَةٍ ثم جاءكم رسولٌ مُصَدِّقٌ لما مَعَكم لَتُؤمِنُنَّ به ولَتَنصُرُنَّه قال أأقررتُم وأخذتُم على ذلكم إصْرِي قالوا أقرَرْنا قال فاشهَدُوا وأنا معكُم من الشاهدين﴾.

قال ابنُ عبّاس: ما بعثَ الله نبياً إلا أخذَ عليه العهد: لئن بُعِث محمدٌ وهو حَيٌّ لَيَتْبَعنَّه، وأخذ عليه أن يأخُذَ على أمته لئن بُعِث محمد وهم أحياءٌ لَيَتْبَعُنَّه ولَيَنْصُرُنَّه.

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٦٩ من سورة الأحزاب.

(٢) أوصَلَه الشيء، وأوصله إليه: أنهاه وأبلغه إيّاه.

(٣) فتح الباري تفسير سورة الصف ٨/٦٤٠ ـ ٦٤١، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨٢٨. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.

(٤) مسند أبي داود الطيالسي ٦٧، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨٢٨ ـ ١٨٢٩. والمُقَفِّي بمعنى: العاقب، أو المُتَّبِع للأنبياء.

وقال مُحمَّد بن إسحاقَ: حدثني ثورُ بن يزيدَ، عن خالد بن مَعْدانَ، عن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أنهم قالُوا: يا رسولَ الله، أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشرَى عيسى، ورأت أُمّي حينَ حَمَلتْ بي كأنه خَرج منها نورٌ أضاءت له قُصورُ بُصرى من أرْضِ الشام»[١].

وهذا إسنادٌ جَيِّدٌ. ورُوِي له شواهدُ من وجوه أُخَرَ، فقال الإمامُ أحمدُ:

حدَّثنا عبد الرحمن بنُ مَهديٍّ، حدثنا معاويةُ بنُ صالحٍ، عن سعيدِ بن سُوَيدٍ الكَلْبيِّ، عن عبد الأعلى بن هلالٍ السُّلَميِّ، عن العِرْباض بن سَارِيةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إني عندَ الله لخاتَمُ النبيِّين وإن آدم لمُنجَدِلٌ[٢] في طينته، وسأُنَبِّئُكُم بأوَّلِ ذلك، دَعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى بي، ورُؤيا أُمّي التي رأت، وكذلك أُمَّهات النَّبيين يَرَيْنَ»[٣].

وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا أبو النَّضر، حدثنا الفرجُ بن فَضالةَ، حدثنا لُقمان بنُ عامرٍ قال: سَمِعتُ أبا أُمامةَ قال. قلتُ يا نَبيَّ الله، ما كان بَدْءُ أمرِكَ؟ قال: «دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمي أنه يَخرُجُ منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشام»[٤].

وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا حَسَنُ بنُ موسى: سَمِعتُ حُدَيجاً أخا زُهَير بن معاويةَ، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عُتبةَ، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: بَعَثَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى النجاشيِّ ونحن نحوٌ من ثمانين رجلاً، منهم: عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن عُرْفُطَة[٥]، وعثمانُ بن مظعون، وأبو موسى، فأتَوا النَّجاشيَّ، وبعثت قُرَيشٌ عمرو بن العاص، وعُمارةَ بن الوليد بهديَّةٍ، فلما دَخلا على النَّجاشيِّ سَجَدا له، ثم ابتدراه عن يَمينه وعن شماله، ثم قالا له: إنَّ نَفَراً من بني عَمِّنا نزلُوا أرضَكَ، ورَغِبُوا عنا وعن مِلَّتِنا. قال. فأينَ هم؟ قالا: هم في أرضك، فابعث إليهم. فَبَعث إليهم ـ فقال جعفرٌ: أنا خطيبُكُم اليومَ. فاتَّبَعُوه فَسَلَّم ولم يسجُد، فقالوا له. ما لك لا تسجُد للمَلِك؟ قال: إنا لا نسجُد إلا لله عزَّ وجلَّ. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألاَّ نسجدَ لأحدٍ إلا لله عزَّ وجلَّ، وأمرنا بالصلاةِ والزكاةِ. قال عمرو بن العاص: فإنهم يُخالِفونك في عيسى ابن مَرْيَمَ. قال: ما تقولون في عيسى ابن مَرْيَم وأُمِّه؟ قال: نقول كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: هو كلِمةُ الله وروحُه ألقاها إلى العذراءِ البَتُول[٦]، التي لم يَمَسَّها بَشَر ولم يَفْرِضها[٧] وَلَدٌ. قال. فَرَفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشةِ والقِسِّيسين والرُّهبانِ، والله ما يَزيدون على الذي نقولُ فيه ما يُساوي هذا. مَرْحباً بكم وبمن جئتم من عِندِه، أشهد أنه رسولُ الله، وأنه الذي نَجِد في الإنجيل، وأنه الذي بَشَّر به عيسى ابنُ مَرْيَم. انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من المُلكِ لأتيتُه حتى أكونَ أنا أحملُ نعليه وأوضِّئُه. وأمَرَ بهديَّةِ الآخرين فَرُدَّت إليهما، ثم تعجَّل عبد الله بن مسعود حتى أدرَكَ بدراً، وزعَم أن النبيَّ ـ ﷺ ـ استغفر له حين بلغه موتُه[٨].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٦٦.

(٢) أي: مُلقىً على الجدالة وهي الأرض.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٢٧

(٤) مسند الإمام أحمد ٥/٢٦٢

(٥) عن المسند ومثله في البداية والنهاية ٣/٦٧ عن المسند، ومجمع الزوائد ٦/٢٤، ومكانه في إحدى النسخ «ابن رواحة» وبياض في الأخرى. وكلاهما غير مستقيم.

(٦) البتول من النساء: العذراء المنقطعة عن الزواج إلى الله تعالى.

(٧) فرض الشيء: حَزّه وأثّر فيه

(٨) مسند الإمام أحمد ١/٤٦١.

وقد رُوِيت هذه القصةُ عن جعفر وأُمِّ سلمة ـ رضي الله عنهما ـ وموضعُ ذلك كتابُ السِّيرة[1]، والمقصدُ أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بُعث. وكان ما اشتهر الأمرُ في أهل الأرض على لسانِ إبراهيم الخليلِ والدِ الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يَبْعَثَ الله فيهم رسولاً منهم، وكذا على لسانِ عيسى ابن مريم، ولهذا قالوا: «أخبِرْنا عن بدءِ أمرك». يعني في الأرض، قال: «دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى ابن مريم، ورؤيا أُمِّي التي رأت»، أي: ظهر في أهل مكة أثرُ ذلك والإرهاصُ بذكره صلوات الله وسلامُه عليه.

وقولُه: ﴿فلما جاءهم بالبيِّنات قالوا هذا سحرٌ مبينٌ﴾، قال ابنُ جُريج، وابنُ جرير[2]: ﴿فلما جاءهم﴾ أحمدُ، أي: المُبَشَّر به في الأعصار المتقادمة المُنوَّه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمرُه وجاء بالبينات قال الكفرةُ المخالفون: ﴿هذا سحرٌ مبينٌ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ومَن أظلمُ ممن افترى على الله الكذبَ وهو يُدعى إلى الإسلام﴾، أي: لا أحدَ أظلمُ ممن يفتري الكذبَ على الله، ويجعلُ له أنداداً وشركاء، وهو يُدعى إلى التوحيد والإخلاص. ولهذا قال: ﴿والله لا يهدي القومَ الظالمين﴾.

ثم قال: ﴿يُريدون ليُطفئوا نورَ الله بأفواههم﴾، أي: يحاولون أن يردّوا الحقَّ بالباطل، ومثلُهم في ذلك كمثل من يُريد أن يُطفِئ شُعاعَ الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيلٌ كذلك ذاك مستحيلٌ، ولهذا قال: ﴿والله مُتِمُّ نورِه ولو كَرِه الكافرون * هو الذي أرسل رسولَه بالهدى ودين الحقِّ ليُظهِرَه على الدِّين كلِّه ولو كره المشركون﴾، وقد تقدَّم الكلام على هاتين الآيتين في «سورة براءة»، بما فيه كفايةٌ، ولله الحمدُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

تقدَّم في حديث عبد الله بن سَلاَم أن الصحابة أرادوا أن يسألوا عن أحبِّ الأعمال إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليفعلوه، فأنزل الله هذه السورة، ومن جملتها هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليم﴾، ثم فسَّر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي مُحَصِّلةٌ للمقصود ومُزيلةٌ للمحذور،

(1) انظر البداية والنهاية ٣/٦٧ ـ ٧٠.
(2) تفسير الطبري ٢٨/٨٧.

فقال: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾، أي: من تجارة الدنيا، والكدِّ لها والتصدِّي لها وحدَها.

ثم قال: ﴿يغفرْ لكم ذُنوبَكم﴾، أي: إن فعلتم ما أمرتُكم به ودَلَلْتُكم عليه غفرتُ لكم الزَّلاَّتِ، وأدخلتُكم الجنَّاتِ، والمساكنَ الطَّيِّباتِ، والدرجاتِ العلياتِ. ولهذا قال: ﴿ويُدخِلْكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ومَساكنَ طيِّبةً في جناتِ عَدْنٍ ذلك الفوزُ العظيمُ﴾.

ثم قال: ﴿وأخرى تُحبُّونها﴾، أي: وأَزيدكُم على ذلك زيادةً تُحبُّونها، وهي: ﴿نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ﴾، أي: إذا قاتلتم في سَبيله ونَصَرتُم دِينَه تكفَّلَ اللهُ بنصركم. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنُوا إن تنصرُوا الله يَنصُركُم ويُثَبِّتْ أقدامَكُم﴾ وقال تعالى: ﴿ولينصُرَنَّ الله مَن يَنصُره إن الله لقويٌّ عزيزٌ﴾.

وقولُه: ﴿وفتحٌ قَرِيبٌ﴾، أي: عاجلٌ. فهذه الزيادةُ هي خيرُ الدنيا، موصولٌ بنعيم الآخرة لمن أطاع اللهَ ورسولَه، ونَصَر اللهَ ودينَه. ولهذا قال: ﴿وبَشِّرِ المُؤمنين﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه المؤمنين أن يكُونوا أنصارَ الله في جَميع أحوالِهم، بأقوالِهم وأفعالِهم وأنفُسِهم وأموالِهم، وأن يَستجيبُوا لله ولرسوله كما استجابَ الحواريُّون لعيسى حين قال: ﴿من أنصاري إلى الله﴾، أي: من مُعِيني في الدعوةِ إلى الله عزَّ وجلَّ؟ ﴿قال الحواريُّون﴾ ـ وهم أتباعُ عيسى عليه السلام ـ: ﴿نحنُ أنصارُ الله﴾، أي: نحنُ أنصارُك على ما أُرسلْتَ به ومُوازِرُوك على ذلك. ولهذا بَعَثهم دُعاةً إلى الناس في بلادِ الشام في الإسرائيليين واليُونانيين. وهكذا كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقولُ في أيام الحج: «مَن رَجُلٌ يُؤويني حتى أُبلِّغَ رسالة ربي، فإن قُريشاً قد منَعُوني أن أُبلِّغ رسالةَ ربي»(١)، حتى قيَّض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له الأوسَ والخزرجَ من أهل المدينة، فبايعوه ووازرُوه، وشارطُوه أن يَمنعُوه من الأسودِ والأحمرِ إن هو هاجرَ إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معَه من أصحابه وفَوا له بما عاهدُوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسولُه الأنصارَ، وصار ذلك علماً عليهم، رَضِي الله عنهُم.

وقولُه: ﴿فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ﴾، أي: لما بَلَّغ عيسى ابن مَرْيَم ـ عليه السلامُ ـ رسالة ربِّه إلى قومه، ووازرَه من وازره من الحواريين، اهتدت طائفةٌ من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضَلَّت طائفةٌ فخرجت عما جاءهُم به، وجَحدُوا نُبُوَّته، ورَمَوه وأُمَّه بالعظائم، وهم اليهودُ ـ عليهم لعائنُ الله المتتابعةُ إلى يوم القيامة ـ وغلَت فيه طائفةٌ ممن اتبعه، حتى رَفَعُوه فوق ما أعطاه الله من النُّبُوَّة، وافترقوا فِرَقاً وشِيَعاً، فمِن قائلٍ منهم: إنه ابنُ الله، وقائلٍ: إنه ثالثُ ثلاثةٍ: الأب، والابن، وروحِ القُدُسِ. ومِن قائلٍ: إنه اللهُ. وكل هذه الأقوال مُفصَّلةٌ في سورة النساء(٢).

وقولُه: ﴿فأيَّدنا الذين آمنُوا على عدوِّهم﴾، أي: نصرناهُم على مَن عاداهم من فِرق النصارى،

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٥٢ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.

(٢) انظر تفسير آيتي النساء ١٥٧ ـ ١٥٨.

﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ أي: عليهم، وذلك ببعثة محمدٍ ﷺ، كما قال الإمامُ أبو جعفر بن جرير رحمه الله:

حدَّثني أبو السائب، حدثنا أبو مُعاوية، عن الأعمش، عن المنهال ـ يعني ابن عمرو ـ عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: لما أراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيتٍ اثنا عشر رَجُلاً، من عينٍ في البيت، ورأسُه يقطر ماءً، إنَّ منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرَّةً بعد أن آمن بي قال: ثم قال: أيُّكم يُلقى عليه شبهي فيُقتل مكاني، ويكونَ معي في دَرجتي؟ قال: فقام شابٌّ من أحدثهم سناً فقال: أنا. قال: فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشابُّ فقال: أنا. فقال له: اجلس. ثم عاد عليهم فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: نعم، أنت ذاك، قال: فأُلقي عليه شَبَهُ عيسى ورُفع عيسى ـ عليه السلام ـ من رَوْزَنَةٍ[1] في البيتِ إلى السماء، قال: وجاء الطلبُ من اليهود، فأخذوا شِبْهَه فقتلوه وصلَبوه، وكفَر به بعضُهم اثنتي عشرةَ مَرَّةً بعد أن آمن به، فتفرَّقوا ثلاثَ فِرَقٍ. قالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليَعْقُوبيَّة. وقالت فرقةٌ: كان فينا ابنُ الله ما شاء ثم رَفعه إليه وهؤلاء النَّسطُورية. وقالت فرقة: كان فينا عبدُ الله ورسولُه ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المُسلِمَة فقتلوها، فلم يَزَل الإسلامُ طامساً حتى بعثَ الله محمداً ـ ﷺ ـ ﴿فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾، يعني: الطائفةَ التي كفرت من بني إسرائيل في زَمَن عيسى، والطائفةَ التي آمنت في زَمن عيسى، ﴿فأيّدنا الذين آمنوا على عَدُوِّهم فأصبَحُوا ظاهرين﴾، بإظهار مُحمدٍ ـ ﷺ ـ دِينَهم على دين الكفار، ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾.

هذا لفظُه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة[2]. وهكذا رَواه النسائي عند تفسير هذه الآية من سُننه، عن أبي كُرَيبٍ محمد بن العلاء، عن أبي معاوية، بمثله سواءً[3].

فأُمة مُحمَّدٍ ـ ﷺ ـ لا يزالُون ظاهرين على الحقِّ حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك، وحتى يُقاتِلَ آخرُهم الدجالَ مع المسيحِ عيسى ابنِ مَرْيَم عليه السلامُ، كما وَرَدت بذلك الأحاديثُ الصِّحاحُ.

آخِرُ تفسيرِ سُورَةِ الصَّفِّ ولله الحمدُ والمنَّةُ

---

(١) الرَّوْزَنَةُ: الكُوَّة غير النافذة.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/٩٢. وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/٤٥٢

تفسير

سُورَةُ الجُمُعَةِ

وهي مَدَنِيَّةٌ

عن ابن عبَّاس وأبي هُرَيْرَةَ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقرأُ في صلاةِ الجُمُعة بسورتي الجُمُعة والمنافقين. رواهما مُسلِمٌ في صَحِيحِهِ[(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤ ﴾

يُخبِر تعالى أنه يُسبِّح له ما في السموات وما في الأرض، أي: مِن جَميعِ المخلوقاتِ ناطقِها وجامِدها، كما قال: ﴿وإن من شيء إلا يُسَبِّح بحمده﴾.

ثم قال: ﴿الملكِ القدُّوس﴾، أي: هو مالكُ السمواتِ والأرض المتصرِّفُ فيهما بحُكمه، وهو ﴿القُدُّوسُ﴾، أي: المُنزَّهُ عن النقائصِ، الموصوفُ بصفاتِ الكَمالِ. ﴿العزيزِ الحكيم﴾، تقدَّم تفسيره غيرَ مرَّةٍ.

وقولُه تعالى: ﴿هو الذي بَعَثَ في الأُمِّيين رَسُولاً منهم﴾، الأُمِّيُّون هم العربُ، كما قال تعالى: ﴿وَقُل

---

(١) مسلم، كتاب الجمعة ٢/٥٩٧ ـ ٥٩٩.

للذين أُوتُوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلمُوا فقد اهتدَوا وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصيرٌ بالعباد﴾ وتخصيصُ الأميين بالذكر لا ينفي مَن عداهم، ولكن المنّة عليهم أبلغُ وآكدُ، كما في قوله: ﴿وإنه لذكرٌ لَكَ ولقومك﴾. وهو ذكرٌ لغيرهم يتذكرون به. وكذا قوله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناسُ إني رسولُ الله إليكم جميعاً﴾، وقوله: ﴿لأنذركم به ومَن بلغ﴾، وقوله إخباراً عن القرآن: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنارُ موعدُه﴾، إلى غير ذلك من الآياتِ الدالةِ على عُموم بعثته ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ إلى جميع الخلقِ، أحمرِهم وأسودِهم. وقد قدّمت تقرير ذلك في سورة الأنعام[١]، بالآيات والأحاديث الصَّحيحةِ. ولله الحمدُ والمنّةُ.

وهذه الآيةُ هي مصداقُ إجابة الله لخليله إبراهيمَ، حين دعا لأهل مكّة أن يبعث الله فيهم رَسُولاً منهم يتلُو عليهم آياته ويُزكّيهم ويُعلّمُهم الكتابَ والحكمة. فبَعثه الله ـ سبحانه وتعالى، وله الحمدُ والمنّة ـ على حين فترةٍ من الرسُل، وطُمُوسٍ من السُّبُلِ، وقد اشتدَّت الحاجةُ إليه، وقد مقتَ الله أهلَ الأرضِ عَرَبِهم وعجَمِهم؛ إلا بَقَايا من أهل الكتاب ـ أي: نزراً يسيراً ـ ممّن تمسَّكَ بما بعث الله به عيسى ابنِ مَرْيَم ـ عليه السلام ـ ولهذا قال تعالى: ﴿هو الذي بَعَثَ في الأُميين رَسُولاً منهم يتلو عليهم آياتِهِ ويُزكّيهم ويُعلّمُهم الكتابَ والحِكْمَةَ وإن كانُوا من قبلُ لفي ضلالٍ مُبين﴾، وذلك أنَّ العربَ كانوا مُتَمَسِّكين بدين إبراهيم الخليل ـ فبدّلوه وغيّروه، وقلَبُوه وخالَفُوه، واستبدلُوا بالتوحيد شِركاً، وباليقين شكّاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهلُ الكتابَين قد بَدَّلوا كُتُبَهم وحرّفوها وغيّروها وأوَّلوها، فبعث الله مُحمَّداً ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بشرعٍ عظيمٍ كامل شامل لجميعِ الخلْقِ، فيه هدايتُهم، والبيانُ لجميعِ ما يحتاجُون إليه من أمْرِ معاشِهم ومَعَادِهم، والدعوةُ لهم إلى ما يُقرّبهم إلى الجنة، ورِضَا الله عنهم، والنهي عما يُقرّبهم إلى النار وسَخَطِ الله. ـ حاكمٌ، فاصلٌ لجميع الشبهات والشُكوكِ والرِيَبِ في الأصول والفروع. وجَمع له تعالى ـ وله الحمدُ والمنّةُ ـ جميعَ المحاسنِ ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يُعطِ أحداً من الأوّلين، ولا يُعطيه أحداً من الآخرين، فصلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقوله: ﴿وآخَرين منهم لمّا يلحَقُوا بهم وهو العزيزُ الحكيم﴾، قال الإمام أبو عبد الله البُخاري، رَحِمه الله: حدّثنا عبد العزيز بنُ عبد الله، حدثنا سُليمان بنُ بلال، عن ثورٍ، عن أبي الغَيثِ، عن أبي هُرَيرة قال: كُنّا جُلُوساً عند النبيِّ ـ ﷺ ـ فأُنزلت عليه سورة الجُمُعة: ﴿وآخرين منهُم لمَّا يَلحَقُوا بهم﴾، قالُوا: مَن هم يا رسولَ الله؟ فلم يراجِعْهُ حتى سأَل ثلاثاً[٢] وفينا سَلْمَان الفارسي، فوضَع رسولُ الله ـ ﷺ ـ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمانُ عند الثُرَيّا لناله رجالٌ ـ أو: رجُلٌ ـ من هؤلاء»[٣].

ورواه مُسلِمٌ، والترمذيُّ، والنسائيُّ وابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرير، من طرق عن ثورِ بن زيد الدِّيلي، عن سالم أبي الغَيْثِ، عن أبي هُرَيرَةَ، به[٣].

---

(١) انظر تفسير آيتي الأنعام ١٩، ٩٢.

(٢) في نسخة الأزهر «فلم يراجعهم حتى سئل»، وفي فتح الباري وقد ذكر رواية «فلم يراجعوه»، قال: «كما في نسختي من طريق أبي ذرّ، وفي غيرها: «فلم يراجعه»، وهو الصواب، أي: لم يراجع النبي ـ ﷺ ـ السائل، أي: لم يعد عليه جوابه حتى سأله ثلاث مرات. ووقع ذلك صريحاً في رواية الدراوردي قال: «فلم يراجعه النبي ـ ﷺ ـ حتى سأله مرتين أو ثلاثاً».

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الجمعة ٦٤١/٨، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٧٢/٤ ـ ١٩٧٣، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الجمعة ١٩٨/١٢ ـ ١٩٩، وأخرجه النسائي في كتابي التفسير والمناقب من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤٦٠/٩، وتفسير الطبري ٩٦/٢٨.

ففي هذا الحديث دليلٌ على أن هذه السورةَ مدنيةٌ، وعلى عُموم بعثته ـ ﷺ ـ إلى جميع الناس، لأنه فسَّر قوله: ﴿وآخرين منهم﴾ بفارس، ولهذا كتب كُتُبَه إلى فارسٍ والرومِ وغيرهم من الأمم يدعُوهم إلى الله عزّ وجلّ، وإلى اتّباع ما جاء به. ولهذا قال مجاهدٌ وغيرُ واحدٍ في قوله: ﴿وآخرين منهم لما يَلْحَقُوا بهم﴾، قال: هم الأعاجمُ، وكلُّ من صَدَّق النبي ـ ﷺ ـ من غير العَرَبِ[(1)].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيمُ بن العلاء الزُّبَيديّ، حدثنا الوليدُ بن مسلم، حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى، عن أبي حازم، عن سَهل بن سعد الساعديّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ في أصلاب أصلاب أصلاب رجال[(2)] ـ [من أصحابي، رجالاً] ـ [(2)] ونساءً من أمتي يدخُلون الجنةَ بغير حساب»، ثم قرأ: ﴿وآخرين منهم لَمَّا يلحقوا بهم﴾، يعني بقيةَ مَن بَقِيَ من أُمَّة محمدٍ ﷺ.

وقولُه: ﴿وهو العزيزُ الحكيمُ﴾، أي: ذو العِزّة والحِكْمة في شَرْعِه وقَدَرِه.

وقولُه: ﴿ذلك فضلُ الله يُؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضلِ العظيمِ﴾، يعني ما أعطاه الله محمداً ـ ﷺ ـ من النُّبوَّة العظيمة، وما خَصَّ به أُمَّتَه مِن بَعثته ـ ﷺ ـ إليهم.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى ذاماً لليهودِ الذين أُعطوا التوراةَ وحُمِّلوها للعمل بها فلم يعمَلُوا بها، مَثَلُهم في ذلك ﴿كَمَثَل الحمار يحمل أسفاراً﴾، أي: كمثَل الحمار إذا حَمَل كُتُباً لا يَدْري ما فيها، فهو يَحمِلها حَمْلاً حِسِّياً ولا يَدْري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتابَ الذي أُوتوه، حَفِظوه لفظاً ولم يفهَمُوه، ولا عَمِلوا بمقتضاه، بل أوّلوه وحَرَّفوه وبدَّلوه، فهُم أسوأُ حالاً من الحَمير؛ لأنّ الحمار لا فهمَ له، وهؤلاء لهم فُهُومٌ لم يستعملوها، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أولئك كالأنعامِ بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون﴾. وقال ها هنا: ﴿بئسَ مثَلُ القومِ الذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القومَ الظالمين﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا ابنُ نُمَير، عن مُجالِد، عن الشعبيّ، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن تكلَّم يوم الجمعة والإمامُ يخطب فهو كَمَثَل الحمارِ يحمِل أسفاراً، والذي يقولُ له: أنصِتْ، ليس له جُمُعَةٌ»[(3)].

ثم قال تعالى: ﴿قل يا أيُّها الذين هادُوا إن زَعمتُم أنكم أولياءُ لله من دُونِ الناسِ فتَمنَّوا الموتَ إن كنتم صادِقين﴾، أي: إن كنتُم تزعُمون أنكم على هُدًى وأن محمداً وأصحابَه على ضلالة، فادعُوا بالموتِ على

(1) أخرجه الطبري ٢٨/٩٦، وغير واحد كما في الدر المنثور ٨/١٥٢ ـ ١٥٣.
(٢ ـ ٢) من المعجم الكبير للطبراني ٦/٢٠١، وقد أخرجه بإسناده إلى الوليد بن مسلم، وانظر الدر المنثور ٨/١٥٣
(٣) مسند الإمام أحمد ١/٢٣٠.

الضالِّ من الفئتين ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تزعُمونه. قال الله تعالى: ﴿ولا يَتمنَّونه أبداً بما قدَّمت أيديهم﴾، أي: بما يعمَلون لهم من الكفر والظلم والفُجُور، ﴿والله عليمٌ بالظالمين﴾. وقد قدمنا في «سورة البَقرة» الكلام على هذه المُباهلة لليهـود، حيث قال تعالى: ﴿قُل إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دُونِ الناس فتمنوا الموت إن كنتُم صادقين * وَلَن يَتمنَّوه أبداً بما قدَّمت أيديهم والله عليمٌ بالظالمين * ولَتجدنهم أحرص الناس على حياةٍ ومن الذين أشركُوا يَودُّ أحدُهم لو يُعمَّرُ ألفَ سنةٍ وما هو بمُزَحْزِحِه من العذاب أن يُعمَّر والله بصيرٌ بما يعملُون﴾[1]. وقد أسلفنا الكلامَ هناك، وبيَّنا أنَّ المراد أن يدعُوا على الضالِّ من أنفُسِهم أو خُصُومهم، كما تَقدَّمت مباهلة النصارى في آل عمرانَ: ﴿فمن حاجَّكَ فيه من بَعدِ ما جاءَكَ من العلم فقُل تعالَوا ندعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكُم ثم نبتهل فنجعَلْ لعنَةَ الله على الكاذبين﴾[2] ومباهلة المشركين في سورة مريم: ﴿قل من كان في الضَّلالَةِ فليمدُد له الرحمنُ مدًّا﴾[3]

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيلُ بن يَزيدَ الرَّقي أبو يزيد، حدثنا فُرات، عن عبد الكريم بن مالك الجَزَريِّ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: إنْ رأيتُ مُحمَّداً عند الكعبة لآتيَنَّه حتى أطأَ على عُنُقه. قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو فَعَل لأخذتْهُ الملائكةُ عِياناً، ولو أن اليهود تَمنَّوا الموت لماتوا ورأَوا مقاعِدَهم من النار، ولو خَرَج الذين يُبَاهِلون رسولَ الله ـ ﷺ ـ لرجَعُوا لا يَجِدُون مالاً ولا أهلاً».

رواه البخاري والترمذيُّ والنَّسائي[4]، من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم. قال البخاري: «وتابعه عَمرو بن خالد، عن عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم». ورواه النسائي أيضاً عن عبد الرحمن بن عُبَيد الله الحَلبيِّ، عن عُبَيد الله بن عَمرو الرَّقي، به أتَمَّ.

وقولُه تعالى: ﴿قل إنَّ الموتَ الذي تَفِرُّون منه فإنه مُلاقيكُم ثم تُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادةِ فيُنبِّئكم بما كُنتُم تعملون﴾. كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿أينما تكونوا يُدرِككُم الموتُ ولو كنتُم في بُروجٍ مُشيَّدةٍ﴾.

[(٥- وفي مُعجَم الطَّبَراني من حديث مُعاذِ بن مُحمَّد الهُذَلي، عن يُونُسَ، عن الحَسَن، عن سَمُرةَ مرفوعاً: «مَثَلُ الذي يَفِرُّ من الموتِ كَمثَلِ الثَّعلب تطلبه الأرضُ بدَينٍ، فجاء يسعَى حتى إذا أعيا وانبهر دَخل جُحْرَهُ، فقالت له الأرض: يا ثعلب، دَيني. فخَرج له حُصَاصٌ[6]، فلم يَزَل كذلك حتى تقطَّعت عنقه، فمات -٥)]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾

(١) انظر تفسير الآيات ٩٤ ـ ٩٦ من سورة البقرة

(٢) آل عمران، آية ٦١.

(٣) سورة مريم، آية ٧٥.

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٦١ من سورة آل عمران وخرجناه هنالك.

(٥ ـ ٥) حديث الطبراني ساقط من بعض النسخ، وقد تقدَّم عند تفسير الآية ١٩ من سورة (ق)، وقد أخرجه الطبراني في الكبير ٧/٢٢٢، والأوسط كما في مجمع الزوائد ٢/٣٢٠

(٦) الحُصَاص: شدّة العَدْو في سُرْعَة، يقال: حصَّ الفرسُ وغيره حصًّا وحُصاصاً.

إنما سُمّيت الجُمُعَةُ جُمعة لأنها مشتقّةٌ من الجمع، فإن أهل الإسلام يَجتمعُون فيه في كلّ أُسبوع مَرَّةً بالمعابد الكبار، وفيه كَمُل جميعُ الخلائق، فإنه اليوم السادسُ من الستة التي خلَق الله فيها السموات والأرض وفيه خُلق آدم، وفيه أُدخِل الجنة، وفيه أُخرج منها، وفيه تقومُ الساعةُ، وفيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفة، حدثنا عَبيدةُ بن حُميد، عن منصورٍ، عن أبي معشر، عن إبراهيم، عن علقمة، عن قَرْثَع الضَّبّي، حدثنا سلمانُ قال: قال أبو القاسم - ﷺ -: «يا سلمانُ، ما يوم الجمعة؟» قلت: الله ورسوله أعلم. فقال رسولُ الله ﷺ: «يومٌ جُمِعَ فيه أبواك، أو: أبوكم».

وقد رُوي عن أبي هُرَيرة، من كلامه، نحو هذا، فالله أعلم.

وقد كان يُقال له في اللغة القديمة يوم العَرُوبة(١). وثبت أن الأُمم قبلنا أُمروا به فَضلُّوا عنه، واختار اليهودُ يوم السبت الذي لم يقع فيه خَلْقٌ، واختار النصارى يومَ الأحد الذي ابتُدىء فيه الخَلْقُ، واختار الله لهذه الأمة الجُمُعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، كما أخرجه البخاريُّ ومسلم من حديث عبد الرزّاق، عن معمرٍ، عن همّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هُرَيْرَة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أُوتُوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهُم الذي فرض الله عليهم فاختلفُوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبَعٌ، اليهودُ غداً، والنصارى بعد غدٍ». لفظ البخاري(٢).

وفي لفظٍ لمسلم: «أضلَّ الله عن الجُمُعة من كان قبلنا، فكان لليهودِ يومُ السبتِ، وكان للنصارى يومُ الأحدِ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجُمُعة، فجعل الجُمُعة والسبتَ والأحدَ، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يومَ القيامة، نحن الآخِرون من أهل الدنيا، والأوّلون يوم القيامة، المقضيُّ بينهم قبل الخلائق»(٣).

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجُمُعة، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نُودي للصلاةِ من يوم الجُمُعة فاسعوا إلى ذكْرِ الله﴾، أي: اقصدوا واعمِدُوا واهتمُّوا في مَسيركم إليها، وليس المرادُ بالسعي ها هنا المشيَ السريع، وإنما هو الاهتمامُ بها، كقوله تعالى: ﴿ومَن أراد الآخرة وسعَى لها سعْيَها وهو مؤمن﴾. وكان عمر بن الخطاب وابن مسعُود - رضي الله عنهما - يقرآنها: «فامضُوا إلى ذكر الله»(٤). فأما المشيُ السريعُ إلى الصلاة فقد نُهي عنه، لما أخرجاه في الصحيحين، عن أبي هُرَيْرة، عن النبيِّ - ﷺ - قال: «إذا سمعتم الإقامةَ فامشُوا إلى الصلاة وعليكُم السكينةُ والوقارُ، ولا تُسرعوا، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأَتِمُّوا»(٥). لفظ البخاري.

وعن أبي قتادةَ قال: بينما نحنُ نُصَلّي مع النبيِّ - ﷺ - إذْ سَمع جلبَةَ رجالٍ، فلما صلَّى قال: ما شأنُكم؟

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية: «عَرُوبة اسم قديم للجمعة، وكأنه ليس بعربيٍّ. وجزم بعضهم بأنه سرياني مُعَرَّب».

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢١٣، ٢٢٤ من سورة البقرة، ١١٠ من سورة آل عمران، ٤٧ من سورة يونس، ١٢٤ من سورة النحل، ١٣ من سورة الواقعة، وخرجناه هنالك.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة النحل، وخرجناه هنالك.

(٤) أخرجه الطبري ٢٨/١٠٠، وفي روح المعاني للآلوسي ٢٨/١٠٣: «وقرأ كثير من الصحابة والتابعين «فامضوا»، وحُملت على التفسير، بناءً على أنه لا يُراد بالسعي الإسراع في المشي، ولم تجعل قرآناً لمخالفتها سواد المصحف المجمع عليه».

(٥) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/١١٧ - ١٢٠، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٢٠ - ٤٢٢.

قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال: «فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم السكينة، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتِمُّوا». أخرجاه(١).

وقال عبدُ الرزّاق: أخبرنا مَعمر، عن الزُّهري، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هُرَيْرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا أُقيمتِ الصلاةُ فلا تأتوها تسعَون، ولكن ائتُوها تمشُون، وعليكم السكينةُ، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتِمُّوا»(٢).

رواه التِّرمِذيُّ من حديث عبد الرزّاق كذلك، وأخرجه من طريق يَزيد بن زُرَيع، عن معمر، عن الزهري، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيْرَة، بمثله(٢).

قال الحسنُ: أما والله ما هو بالسّعي على الأقدام، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلاّ وعليهم السكينةُ والوقارُ، ولكن بالقُلوب والنيَّة والخُشُوع.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾، يعني: أن تسعَى بقلْبك وعَمَلِك، وهو المشيُ إليها، وكان يتأوَّلُ قوله تعالى ﴿فلما بَلَغ معه السَّعْي﴾، أي: المشيَ معَهُ. ورُوِي عن محمدِ بن كَعْبٍ، وزيدِ بن أسلم، وغيرهما، نحو ذلك.

ويُستَحب لمن جاء إلى الجُمُعة أن يَغتسِلَ قبل مجيئه إليها، لما ثبت في الصحيحَين عن عبد الله بن عُمَر أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا جاء أحدُكم الجُمُعَةَ فلْيغتسل»(٣).

ولهما عن أبي سعيدٍ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «غُسلُ يومِ الجُمُعةِ واجبٌ على كلِّ مُحتَلِمٍ»(١).

وعن أبي هُرَيْرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «حَقٌّ لله على كل مُسلمٍ أن يَغتسِلَ في كلِّ سبعةِ أيامٍ، يغسِلُ رأسَه وجسَدَه». رَوَاه مسلم(٣)

وعن جابر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «على كلِّ رجلٍ مسلمٍ في كل سبعةِ أيام غُسْلُ يومٍ، وهو يومُ الجُمُعةِ». رواه أحمدُ، والنسائيُّ، وابن حِبّانَ(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدمَ، حدثنا ابنُ المبارك، عن الأوزاعيِّ، عن حَسّان بن عطية، عن أبي الأشعثِ الصَّنْعانيِّ، عن أوسِ بن أوسٍ الثقفيِّ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «من غَسَّل واغتسل يومَ الجمعة، وبكَّر وابتكَر، ومَشى ولم يَركَب، ودَنَا من الإمام واستَمَع ولم يَلْغُ، كان له بكلِّ خطوة أجرُ سنةٍ، أجرُ صيامِها وقيامِها»(٥).

وهذا الحديث له طُرُق وألفاظ، وقد أخرجه أهل السُّنَن الأربعة، وحسَّنه التِّرمِذيُّ(٥).

وعن أبي هُرَيْرَة ـ رَضِي الله عنه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «مَن اغتسلَ يومَ الجُمُعة غُسْلَ الجَنابة، ثم راح فكأنَّما قرَّبَ بَدَنةً، ومَن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرةً، ومَن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرَّب كَبشاً

---

(١) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/١١٧ ـ ١٢٠، ومسلم كتاب المساجد ١/٤٢٠ ـ ٤٢٢

(٢) المُصَنَّف ٢/٢١١، ٢٨٨، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/١٢٣ ـ ١٢٤.

(٣) أخرجاه في كتاب الجمعة، فتح الباري ٢/٣٥٦ ـ ٣٥٧، ومسلم ٢/٥٧٩ ـ ٥٨١

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٣٠٤، والنسائي، كتاب الجمعة ٣/٩٣، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الطهارة ٢/٢٦٢

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/١٠٤، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/٩٥، والنسائي، كتاب الجمعة ٣/٩٥ ـ ٩٦، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٣٤٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الجمعة ٤/٢٨١ ـ ٢٨٢

أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجةً، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضةً، فإذا خرج الإمامُ حضرتِ الملائكةُ يستمعُون الذِّكر». أخرجاه[1].

ويُستحبُّ له أن يلبسَ أحسنَ ثيابه، ويتطيَّب ويتسوَّك، ويتنظَّف ويتطهَّر. وفي حديث أبي سعيد المتقدِّم: «غُسْلُ يوم الجمعة واجبٌ على كلِّ مُحتلم، والسواكُ، وأن يَمَسَّ من طِيب أهْلِه».

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن محمدُ بن إسحاق، حدثني محمد بن إبراهيم التيميُّ، عن عِمران بن أبي يحيى، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبي أيوب الأنصاريِّ، سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «من اغتسل يومَ الجُمُعة ومسَّ من طيبِ أهله إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له، ولم يُؤذِ أحداً، ثم أنصتَ إذا خرج إمامُه حتى يُصلِّي، كانت كفارةً لما بينها وبين الجمعة الأخرى»[2].

وفي سُنن أبي داود وابن ماجه، عن عبد الله بن سَلاَم أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول على المنبر: «ما على أحدكم لو اشترَى ثوبَين ليوم الجُمُعة سوى ثَوْبَي مِهْنَتِه»[3].

وعن عائشة أن رسُولَ الله ـ ﷺ ـ خطَب الناس يومَ الجُمُعة، فرأى عليهم ثياب النِّمار[4]، فقال: «ما على أحدكم إن وَجَد سَعَة أن يتَّخِذ ثوبَين لِجُمُعته سِوى ثَوْبَي مِهْنته». رواه ابن ماجه[3].

وقولُه تعالى: ﴿إذا نُودِيَ للصلاة﴾، المرادُ بهذا النداءِ هو النِّداءُ الثاني الذي كان يُفعَل بين يدَي رسول الله ـ ﷺ ـ إذا خرَج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذٍ يُؤذَّن بين يديه، فهذا هو المرادُ، فأمَّا النداءُ الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمانُ بنُ عفَّان ـ رضي الله عنه ـ فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاري ـ رحِمَه الله ـ حيث قال:

حدثنا آدم ـ هو ابن أبي إياس ـ حَدَّثنا ابنُ أبي ذِئْب، عن الزُّهريِّ، عن السائب بن يزيدَ قال: «كان النداءُ يومَ الجمعة أولُهُ إذا جلَس الإمامُ على المنبر على عهدِ رسول الله ـ ﷺ ـ وأبي بكر وعُمَر، فلما كان عُثمان بعد زَمنٍ، وكَثُر الناس، زاد النداء الثالث على الزوراء»[5]. يعني يُؤذَّن به على الدار التي تُسمَّى بالزوراء، وكانت أرفع دارٍ بالمدينة، بِقُرب المسجد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا محمد بن راشد المَكْحُولي، عن مَكحُولٍ: أن النداءَ كان في الجُمُعة مُؤذِّن واحدٌ حين يخرج الإمام، ثم تُقام الصلاة، وذلك النداءُ الذي يحرُم عنده الشِّرى والبيعُ إذا نُودي به، فأمر عثمانُ ـ رَضِيَ الله عنه ـ أن يُنادَى قبل خروجِ الإمام حتى يجتمعَ الناسُ.

وإنما يُؤمَرُ بحضور الجُمُعةِ الرجالُ الأحرارُ دونَ النساءِ والعَبيد والصِّبيانِ، ويُعذَر المسافرُ والمَريضُ وقَيِّمُ المريض، وما أشبه ذلك من الأعذار، كما هو مُقرَّر في كُتُب الفُروع.

وقولُه: ﴿وذروا البيع﴾، أي: اسعَوا إلى ذكر الله واتركُوا البيعَ إذا نُودي للصلاةِ. ولهذا اتفق العُلَماء على

---

(١) أخرجاه في كتاب الجمعة، فتح الباري ٢/٣٦٦، ومسلم ٢/٥٨٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٤٢٠

(٣) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٣٨٢ ـ ٣٨٣، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٤) النِّمار: جمع نمِرة، وهي: بُرْدة يلبسها الأعراب.

(٥) فتح الباري، كتاب الجمعة ٢/٣٩٣

تحريم البيع بعد النداء الثاني: واختلفوا هل يصحُّ إذا تعاطاه مُتعاطٍ أم لا؟ على قولين، وظاهرُ الآية عدمُ الصحةِ كما هو مُقرَّر في مَوضِعه، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، أي: تركُكُم البيعَ وإقبالُكم إلى ذكْر الله وإلى الصلاة خيرٌ لكم، أي: في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون.

وقوله: ﴿فإذا قُضِيت الصلاةُ﴾، أي: فُرِغ منها، ﴿فانتشروا في الأرض وابتغُوا من فضل الله﴾، لمَّا حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهُم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله. كان عِراكُ بن مالك إذا صَلَّى الجُمُعَةَ انصرفَ فوقَفَ على باب المسجد، فقال: «اللهُمَّ، أجبتُ دعْوتكَ، وصَلَّيتُ فَريضَتكَ، وانتشرتُ كما أمرتَني، فارزُقني من فضلك، وأنت خيرُ الرازقين» رواه ابن أبي حاتم.

ورُوِي أيضاً عن بعض السلف أنه قال: مَن باع واشترى في يوم الجُمُعة بعد الصلاة، بارك الله له سبعين مَرَّةً، لقول الله تعالى: ﴿فإذا قُضِيت الصلاةُ فانتشِروا في الأرض وابتغُوا من فضلِ الله﴾.

وقولُه: ﴿واذكُروا الله كثيراً لعلَّكم تُفلِحُون﴾، أي: في حال بَيعكم وشرائكم، وأخذكُم وعطائكم، اذكُروا الله ذِكْراً كثيراً، ولا تشغلكُم الدنيا عن الذي يَنفعُكم في الدار الآخرة. ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سُوقاً من الأسواقِ فقال: لا إلَه إلا اللهُ، وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، كتب الله له ألفَ ألفِ حَسنة، ومَحَى عنه ألفَ ألفِ سَيِّئة»(١).

وقال مجاهد: لا يكون العبدُ من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكُر الله قائماً وقاعداً ومُضْطَجِعاً.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

يُعاتِب تبارَكَ وتعالى على ما كان وقع مِنَ الانصرافِ عن الخُطْبة يوم الجُمُعَة إلى التِّجارة التي قدمت المدينة يومئذٍ، فقال تعالى: ﴿وإذا رَأَوا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها وتركُوكَ قائماً﴾، أي: على المنبر تخطبُ هكذا ذكره غيرُ واحدٍ من التابعين، منهم: أبو العالية، والحسنُ، وزيدُ بن أسلَمَ، وقتادة.

وزَعَم مُقاتِل بن حَيَّان: أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يُسلم، وكان معه طبلٌ، فانصرفُوا إليها وتركُوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ قائماً على المنبرِ إلاّ القليلَ منهم. وقد صحَّ بذلك الخبرُ، فقال الإمام أحمد:

حدَّثنا ابنُ إدريس، عن حُصَين، عن سَالم بن أبي الجعد، عن جابر قال: قدمتْ عِيرٌ المدينة، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يخطُب، فخرج الناسُ وبقِي اثنا عَشر رجُلاً، فنزلت ﴿وإذا رأَوا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها﴾(١) أخرجاه في الصحيحَين، من حديث سالمٍ، به(٢).

وقال الحافظُ أبو يعلَى: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا هُشَيم، عن حُصين، عن سالم بن أبي الجعْد وأبي

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه، عارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٢/٢١١-٢١٢، وابن ماجه، كتاب التجارات ٢/٧٥٢، والإمام أحمد ١/٤٧

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٣١٣، وفتح الباري، تفسير سورة الجمعة ٨/٦٤٢، ومسلم، كتاب الجمعة ٢/٥٩٠

سُفيانَ، عن جابر بن عبد الله قال: بينا النبيُّ - ﷺ - يخطُب يومَ الجُمُعة، فقدِمت عِيرٌ إلى المدينة، فابتدرها أصحابُ رسول الله - ﷺ - حتى لم يبق مع رسول الله - ﷺ - إلا اثنا عشرَ رجلاً، فقال رسولُ الله - ﷺ - . والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لم يبقَ منكم أحدٌ لسالَ بكم الوادي ناراً، ونزلت هذه الآية. ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾، وقال: في الاثني عَشَر الذين ثَبَتُوا مع رسولِ الله - ﷺ - : أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما[1].

وفي قوله: ﴿وتركُوك قائماً﴾ دليلٌ على أن الإمامَ يخطُب يومَ الجُمُعة قائماً. وقد رَوَى مسلمٌ في صَحِيحه عن جابر بن سَمُرَةَ قال: كانت للنبيِّ - ﷺ - خُطبتان يجلِسُ بينهما، يَقرأُ القرآنَ ويُذكِّر الناسَ[2].

لكن ها هنا شيءٌ ينبغي أن يُعلَم وهو: أن هذه القصةَ قد قِيل: إنها كانت لمَّا كان رسولُ الله - ﷺ - يُقدِّم الصلاةَ يوم الجُمُعة على الخطبة، كما رواه أبو داود في كتاب المراسيل.

حدثنا محمودُ بن خالدٍ، عن الوليدِ، أخبرني أبو مُعَاذ بُكَير بنُ مَعْرُوفٍ، أنه سَمِع مُقَاتِل بن حَيَّان قال: وكان رسول الله - ﷺ - يُصَلِّي يومَ الجُمُعةِ قبل الخُطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يومٌ والنبيُّ - ﷺ - يخطُب، وقد صلَّى الجُمُعة، فدخل رجلٌ فقال: إن دحيةَ بنَ خليفةَ قد قَدِمَ بتجارة[3]. يعني فانفضوا، ولم يبق معه إلا نفرٌ يسيرٌ.

وقولُه: ﴿قُل ما عند الله﴾، أي: الذي عند الله مِنَ الثواب في الدار الآخرة ﴿خيرٌ من اللهو ومِنَ التجارةِ والله خيرُ الرازقين﴾، أي: لمن توَكَّل عليه، وطلب الرزقَ في وقتِه.

آخر تفسير سورة الجُمُعة، ولله الحمدُ والمنَّةُ

---

(١) مسند أبي يعلى ٣٧٨/٢.
(٢) مسلم، كتاب الجمعة ٥٨٩/٢.
(٣) مراسيل أبي داود ١٠

تفسير

سُورَةُ المنافقون

وهي مدنيةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا
فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ
مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً عن المنافقين أنّهم إنما يَتفوَّهُون بالإسلام إذا جاءوا النبيَّ ـ ﷺ ـ فأمّا في باطن الأمر فليسُوا كذلك، بل على الضِدِّ من ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إذا جاءكَ المنافقون قالوا نشهدُ إنَّك لرسولُ الله﴾، أي: إذا حَضَرُوا عندك واجهُوك بذلك، وأظهرُوا لك ذلك، وليسوا كما يقولون. ولهذا اعترض بجملةٍ مخبرةٍ أنه رسولُ الله، فقال: ﴿والله يعلَمُ إنك لَرَسُولُه﴾.

ثم قال: ﴿والله يشهَدُ إنَّ المنافقين لَكَاذِبُون﴾، أي: فيما أخبرُوا به، وإن كان مطابقاً للخارج، لأنهم لم يكُونوا يَعتقِدُون صِحّة ما يقولُون ولا صِدْقَه، ولهذا كذَّبهم بالنِّسبة إلى اعتقادهم.

وقولُه: ﴿اتخذُوا أيمانَهم جُنَّةً فصَدُّوا عن سبيلِ الله﴾، أي: اتَّقَوا النّاسَ بالأيمان الكاذبة والحلفات الآثمة، لِيُصَدَّقُوا فيما يقولون. فاغترَّ بهم مَن لا يعرف جَلِيَّةَ أمرهم، فاعتقدوهم مُسلِمين، فرُبَّما اقتدى بهم فيما يفعلُون، وصَدَّقهم فيما يقولون، وهم من شأنِهم أنهم كانُوا في الباطن لا يألُون الإسلامَ وأهله خبالاً، فحَصل بهذا القدرِ ضررٌ كبيرٌ على كثيرٍ من الناس. ولهذا قال تعالى: ﴿فصدُّوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانُوا

يعمَلون﴾. ولهذا كان الضحَّاك بن مُزاحم يقرؤها ﴿اتخذُوا إيمانهم جُنَّةً﴾(١)، أي: تصديقهم الظاهرَ جُنَّة، أي: تقيَّةً يتَّقون به القتلَ. والجمهور يقرؤها: ﴿أيمانهم﴾ جمع يَمين.

وقوله: ﴿ذلك بأنَّهم آمنوا ثم كفَرُوا فطُبع على قُلوبهم فهُم لا يفقَهُون﴾، أي: إنَّما قُدِّرَ عليهم النفاقُ لِرُجوعهم عن الإيمان إلى الكُفران، واستبدالهم الضلالةَ بالهُدى ﴿فطُبع على قُلوبهم فهُم لا يفقَهُون﴾، أي: فلا يصل إلى قُلوبهم هُدًى، ولا يخلُص إليها خيرٌ، فلا تعي ولا تهتدي.

﴿وإذا رأيتهُم تُعجبُكَ أجسامهُم وإن يقُولوا تَسْمع لِقَوْلهم﴾، أي: وكانوا أشكالاً حسنةً وذَوِي فصاحةٍ وألسنةٍ، إذا سمعهم السامعُ يُصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخَوَر والهَلَع والجزع والجُبن، ولهذا قال: ﴿يحسَبُون كل صيحةٍ عليهم﴾، أي: كُلَّما وقع أمرٌ أو كائنةٌ أو خوفٌ يعتقِدُون لجُبنهم أنه نازلٌ بهم، كما قال تعالى: ﴿أشحةً عليكم فإذا جاء الخوفُ رأيتَهم ينظُرون إليك تَدُور أعينهُم كالذي يُغشى عليه من الموتِ فإذا ذهب الخوف سلقُوكم بألسنةٍ حِدادٍ أشحةً على الخير أولئك لم يُؤمِنُوا فأحبطَ الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾، فهم جَهامات(٢) وصُوَرٌ بلا معانٍ. ولهذا قال: ﴿هم العدُوُّ فاحذَرْهُم قاتلهم الله أنى يُؤفكون﴾، أي: كيفَ يُصرَفُون عن الهُدى إلى الضَّلال.

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيد، حدثنا عبد الملك بن قُدامة الجُمَحِيُّ، عن إسحاقَ بن بكر بن أبي الفُرات، عن سَعيد بن أبي سَعيد المَقْبُريِّ، عن أبيه، عن أبي هُريرَة عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ للمنافقين علاماتٍ يُعرَفون بها: تحيَّتُهم لعنةٌ، وطعامُهم نُهبةٌ(٣)، وغَنيمتهم غُلولٌ، ولا يقرَبون المساجدَ إلا هَجْراً(٣) ولا يأتون الصلاة إلا دَبْراً(٣)، مُستكبرين لا يألَفون ولا يُؤلَفون، خُشُبٌ(٣) بالليل، صُخُبٌ بالنهار». وقال يزيدُ مرَّةً: سُخُبٌ بالنهار(٤).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المنافقين ـ عليهم لعائن الله ـ أنَّهم ﴿إذا قِيل لهم تعالَوا يَستغفِرْ لكم رسولُ الله لَوَّوا

---

(١) نُسبت هذه القراءة في البحر المحيط ٢٧١/٨، وروح المعاني ١١٠/٢٨ إلى الحسن البصري.
(٢) الجهام: السحاب لا ماء فيه، ويقال: جاءني من هذا الأمر بجهام: بما لا خير فيه.
(٣) النهبة: ما ينتهب، وهجراً: متعرضين، أي: يقربونها غير مقبلين عليها. ودَبْراً: يروى بالضم وبالفتح، والمعنى أنهم يأتون الصلاة في آخر وقتها. ومعنى أنهم خُشُبٌ بالليل: أنهم ينامون الليل كأنهم خُشُبٌ مُطَرَّحة، لا يُصلّون فيه، وتضم الشين وتُسكّن تخفيفاً. وسُخُب بالنهار: أي هم بالنهار يتسخبون على الدنيا شحاً وحرصاً، والسَّخب والصخب: الصياح.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢٩٣/٢.

رُءوسَهُم﴾ أي: صدُّوا وأعرَضُوا عما قيل لهم، استكباراً عن ذلك، واحتقاراً لما قيل لهم. ولهذا قال ﴿ورأيتَهُم يَصُدُّون وهُم مُستكبِرُون﴾. ثم جازاهم على ذلك فقال: ﴿سواءٌ عليهم أستغفرتَ لهم أم لم تستغفِرْ لهم لن يغفِرَ الله لهم إنّ الله لا يَهدِي القومَ الفاسقين﴾ كما قال في سورة «براءة»(١)، وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك، وإيرادُ الأحاديثِ المرويَّة هنالك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر العَدَنيُّ قال: قال سفيان: ﴿لوَّوا رُءوسَهُم﴾، قال ابنُ أبي عُمَر: حَوَّلَ سفيانُ وجهَه على يَمِينه، ونظر بعينه شَزْراً، ثم قال: هُوَ هذا.

وقد ذكر غيرُ واحد من السلف أن هذا السياق كُلَّه نزل في عبد الله بن أُبيّ ابن سَلُول، كما سَنُورِدُه قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقةُ وعليه التُّكلانُ.

وقد قال محمدُ بن إسحاق في السِّيرة: «ولما قدِمَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ المدينة ـ يعني مَرْجِعه من أُحُدٍ ـ وكان عبدُ الله بن أُبيّ ابن سَلُولَ ـ كما حَدَّثني ابنُ شهاب الزُّهريُّ ـ له مقامٌ يَقُومُه كل جُمُعةٍ لا يُنكَر، شرفاً له من نفسه ومن قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلسَ النبي ـ ﷺ ـ يوم الجمعة وهو يخطُب الناس قام، فقال: أيها الناسُ، هذا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بين أظهُركم، أكرمَكُم الله به، وأعزَّكم به، فانصُروه وعَزِّروه، واسمعُوا له وأطيعوا. ثم يجلس، حتى إذا صَنَع يومَ أُحُدٍ ما صَنَع ـ يعني مَرْجِعَه بثُلُث الجَيْش ـ ورجع الناسُ، قام يفعلُ ذلك كما كان يفعلُه، فأخذ المسلمُون بثيابِه من نواحيه وقالوا: اجلس، أيْ عدُوَّ الله، لستَ لذلك بأهلٍ، وقد صنعتَ ما صنعتَ. فخرج يَتَخطَّى رقابَ الناس وهو يقولُ: والله لكأنما قلتُ بُجْراً(٢)، أن قُمتُ أُشَدِّدُ أمرَه! فلقيه رجالٌ من الأنصار بباب المسجد فقالوا: وَيْلَكَ! ما لك؟ قال: قُمتُ أُشَدِّدُ أمره، فوثب عليَّ رجالٌ من أصحابه يَجذِبُونَني ويُعنِّفُونَني، لكأنما قلتُ بُجْراً، أن قمتُ أُشدِّدُ أمره. قالوا: وَيْلَكَ! ارجِعْ يستغفرُ لك رسولُ الله ﷺ، فقال: والله ما أبتغي أن يَستغفِر لي(٣).

وقال قتادةُ والسُّدِّي: أُنزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبيّ، وذلك أن غُلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فحدَّثه بحديثٍ عنه وأمرٍ شديد، فدعاه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فإذا هو يَحْلِفُ بالله ويتبرَّأُ من ذلك، وأقبلَت الأنصارُ على ذلك الغلامِ فلامُوه وعَذَمُوه(٤)، وأنزل الله فيه ما تَسْمَعُون، وقيل لعدو الله: لو أتيتَ رسولَ الله ﷺ؟ فجعل يُلَوِّي رأسَه، أي: لستُ فاعلاً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزَّهرانيُّ، حدثنا حَمّادُ بنُ زيد، حدثنا أيُّوبُ، عن سعيد بن جُبَير: أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان إذا نَزَل منزلاً لم يَرْتَحِل حتى يُصَلِّي فيه، فلما كانت غزوةُ تَبُوك بلغه أن عبدَ الله بن أُبيِّ ابن سَلُولَ قال: ﴿لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾ فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار، وقيل لعبد الله ابن أُبيّ: ائتِ النبيَّ ـ ﷺ ـ حتى يستغفرَ لك، فأنزل الله: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ إلى قوله ﴿وإذا قيلَ لهم تعالَوا يستغفِرْ لكُم رسولُ الله لَوَّوا رُءوسَهم﴾.

---

(١) انظر تفسير الآيات ٧٣ ـ ٨٠ من سورة براءة.
(٢) البُجْر: الأمر العظيم.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/١٠٥
(٤) في بعض النسخ: وعزموه، وفي أخرى: وعزلوه، وفي تفسير الطبري ٢٨/١١٠، والدر المنثور ٨/١٧٤: وعذلوه. وعذمه: أخذه بلسانه؛ روى الإمام أحمد في مسنده ٢/١٥٨: «وأقبل عليَّ فعذمني وعضَّني بلسانه»، أي: لامني.

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جُبَير. وقوله: إن ذلك كان في غزوة تبوك، فيه نظر، بل ليس بجيّد؛ فإنّ عبد الله بن أُبيٍّ ابنَ سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك، بل رجع بطائفةٍ من الجيش. وإنما المشهورُ عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المُرَيْسِيع، وهي غزوةُ بني المُصطلِق.

قال يُونُس بن بُكير، عن ابن إسحاق: حدثني محمد بن يَحيى بن حَبَّان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادة، في قصةِ بني المُصْطلق. «فبينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ مقيمٌ هناك، اقتَتَل على الماءِ جهجاه بنُ سعيد[1] الغفاري ـ وكان أجيراً لعُمَر بن الخطاب ـ وسنانُ بنُ وبَر[2]». قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن يحيى بن حَبَّان قال: ازدحَما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشرَ المهاجرين ـ وزيدُ بنُ أرقَم ونفرٌ من الأنصار عند عبد الله بن أُبيّ ـ فلما سمعها قال: قد ثاوَرُونا[3] في بلادِنا، والله ما مثلُنا وجلابيب[4] قريش هذه إلا كما قال القائل: «سَمِّن كَلْبَكَ يأكُلْك». والله لئن رَجَعنا إلى المدينة لَيُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. ثم أقبل على مَن عنده من قومه وقال: هذا ما صنَعْتم بأنفسكم، أحْلَلْتُموهم بلادكم، وقاسمْتُموهم أموالكُم، أما والله لو كففتُم عنهم لتحوّلوا عنكم من بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيدُ بن أرقم، فذهب بها إلى رسول ـ ﷺ ـ وهو غُلَيِّمٌ ـ وعنده عُمَر بن الخطاب، فأخبره الخبر، فقال عمر: يا رسول الله، مُرْ عَبَّاد بن بِشْرٍ فليضربْ عُنُقَه. فقال ﷺ: «فكيفَ إذا تحدَّثَ النَّاسُ ـ يا عُمَر ـ أن محمداً يقتُل أصحابه؟ لا، ولكن نادِ يا عُمَر في الرَّحيل».

فلما بلغ عبد الله بن أُبيٍّ أن ذلك قد بَلَغ رسولَ الله ﷺ، أتاه فاعتذَر إليه، وحَلَف بالله ما قال ما قال عليه زيدُ بنُ أرقم ـ وكان عند قومه بمكانٍ ـ فقالوا: يا رسولَ الله، عسى أن يكونَ هذا الغلامُ أوهَم ولم يُثبِتْ ما قال الرجل.

وراح رسول الله ﷺ مُهجراً[5] في ساعةٍ كان لا يرُوح فيها، فلَقِيه أُسَيد بن الحُضَير فسلَّم عليه بتحيَّةِ النبوة، ثم قال: والله لقد رُحت في ساعةٍ مُنْكرةٍ ما كنتَ تروح فيها. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أما بَلغك ما قال صاحبُك ابن أُبيٍّ؟! زعم أنه إذا قدِم المدينة أنه سيُخرج الأعزُّ منها الأذلَّ. قال: فأنت ـ يا رسول الله ـ العزيزُ وهو الذليلُ. ثم قال: يا رسول الله، ارفُق به، فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخَرَزَ لِنُتَوِّجه، فإنه لَيَرى أن قد استلبته مُلكاً.

فسار رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالناس حتى أمسَوا، وليلتَه حتى أصبحُوا، وصَدْرَ يومَه حتى اشتدَّ الضُّحَاءُ[6]. ثم نزَل بالناس لِيَشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمنِ الناسُ أن وَجدوا مسَّ الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين[7].

---

(١) في سيرة ابن هشام: بن مسعود. وما في مغازي الواقدي ٤١٥، ٤١٦، ٤٣٥ يوافق ما هنا.

(٢) في النسخ: بن يزيد. والمثبت من السيرة، ومغازي الواقدي ٤١٥، وأسد الغابة ٦٣/٢ ٤.

(٣) ثاوره: وثَبَ كل منهما على صاحبه.

(٤) قال ابنُ ذرٍّ في شرح السيرة ٣٣٣: الجلابيب: لقبٌ لمن كان أسلم من المهاجرين، لقَّبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب الأُزُرُ الغِلاظ، واحدها جلبابٌ، وكانوا يلتحفون بها، فلقَّبوهم بذلك.

(٥) مُهَجِّراً: أي سائراً في الهاجرة، وهي نصف النهار عند اشتداد الحرّ.

(٦) الضُّحاء: الضحى.

(٧) سيرة ابن هشام ٢٩٠/٢ ـ ٢٩٢.

وقال الحافظُ أبو بكر البَيْهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظُ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق، أخبرنا بِشْرُ بن موسى، حدثنا الحُمَيدي، حدثنا سُفيان، حدثنا عَمرو بن دينار، سَمِعتُ جابرَ بن عبد الله يقولُ: كُنَّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غَزاةٍ فكسَعَ[١] رجلٌ من المهاجرين رَجُلاً من الأنصار. فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار. وقال المُهاجري: يا للمُهاجرين. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: ما بالُ دعوى الجاهلية؟! دَعُوها فإنها مُنتِنة! وقال عبد الله بن أبي ابن سَلول: وقد فعلوها؟! والله لئن رَجَعنا إلى المدينة لَيُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. قال جابر: وكانت الأنصارُ بالمدينة أكثرَ من المهاجرين حين قَدِمَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضربْ عُنُقَ هذا المنافق. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: دَعه، لا يتحدثُ الناسُ أن مُحمَّداً يقتل أصحابه[٢].

ورواه الإمام أحمدُ عن حُسَين بن محمد المَرْوَزيّ، عن سُفيان بن عُيَيْنة[٢]. ورواه البخاري عن الحميدي، ومسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن سفيان، به نحوه[٢].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بنُ جعفر، حدثنا شعبةُ، عن الحَكَم، عن محمد بن كَعب القُرَظي، عن زيد بن أرقَم قال: كنتُ مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في غَزْوة تَبُوكَ، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ: لئن رَجَعنا إلى المدينة لَيُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. قال: فأتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأخبرتُه، قال: فَحَلف عبدُ الله بن أُبيٍّ أنه لم يكن شيءٌ من ذلِكَ. قال: فلامني قومي وقالوا: ما أردتَ إلى هذا؟ قال: فانطلقتُ فنِمتُ كئيباً حزيناً، قال: فأرسلَ إليَّ نبيُّ الله ـ ﷺ ـ فقال: إن الله قد أنزل عُذْرَكَ وصَدَّقك. قال: فَنَزلت هذه الآيةُ: ﴿هُم الذين يقولون لا تُنفقُوا على مَن عندَ رسولِ الله حتى ينفضُّوا﴾، حتى بَلَغ: ﴿لئن رَجَعنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾[٣].

ورواه البخاريُّ عند هذه الآيةِ، عن آدم بن أبي إياس، عن شُعبة، ثم قال: وقال ابنُ أبي زائدة، عن الأعمشِ، عن عَمْرو، عن ابن أبي لَيلى، عن زيدٍ، عن النبيِّ ﷺ[٣]. ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ عندها أيضاً من حديث شعبة، به[٣].

طريقٌ أُخرى عن زيدٍ، قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يحيى بنُ آدَمَ، ويحيى بن أبي بُكَير قالا: حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ قال: سَمِعتُ زيدَ بن أرقَم ـ وقال ابن أبي بُكَير: عن زيدِ بن أرقَم ـ قال: خرجتُ مع عَمِّي في غَزاةٍ، فسمعتُ عبد الله بن أُبَيٍّ يقول لأصحابه: لا تُنفقُوا على مَن عندَ رسول الله، ولَئِن رَجَعنا إلى المدينة لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل. فذكرتُ ذلك لعمِّي، فذكره عَمِّي لرسول الله ـ ﷺ ـ فأرسلَ إليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فحدَّثته، فأرسل إلى عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا: فكذَّبني رسولُ الله ـ ﷺ ـ وصَدَّقه، فأصابني هَمٌّ لم يُصِبني مثلُه قطُّ، وَجلَستُ في البيت، فقال عَمِّي: ما أردتَ إلا أن كَذَّبكَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ومَقَتَك. قال: حتى أنزلَ الله: ﴿إذا جاءَكَ المنافِقُون﴾، قال: فَبَعثَ إليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَقَرأها رسولُ الله، ثم قال: «إن الله قد صَدَّقك».

ثم قال أحمدُ أيضاً: حدثنا حَسَن بن موسى، حدثنا زُهَير، حدثنا أبو إسحاق: أنه سَمع زيدَ بن أرقم يقول: خَرَجنا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ، فأصابَ الناسَ شِدَّةٌ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تُنفقوا

(١) كسعه: ضَرَب دُبُرَه بيده أو بصدر قدمه.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٥٣/٤ ـ ٥٤، ومسند الإمام أحمد ٣٩٢/٣ ـ ٣٩٣، وفتح الباري، كتاب التفسير ٦٥٢/٨، ومسلم، كتاب البر ١٩٩٨/٤ ـ ١٩٩٩.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٦٨/٤ ـ ٣٦٩، وفتح الباري، تفسير سورة المنافقون ٦٤٦/٨ ـ ٦٤٧، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المنافقون ٢٠٤/١٢ ـ ٢٠٥، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف، للمزي ٢٠١/٣.

علي من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ. فأتيتُ النبيَّ - ﷺ - فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أُبيّ فسأله، فاجتهد يمينَه ما فعل. فقالوا: كذب زيدٌ يا رسولَ الله. فوقع في نفسي مما قالوا، حتى أنزل الله تصديقي: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾. قال: ودعاهم رسولُ الله - ﷺ - ليستغفر لهم، فلوّوا رؤوسهم. وقوله تعالى: ﴿كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدة﴾، قال: كانوا رجالاً أجمل شيء[1].

وقد رواه البخاري ومسلم والنسائي، من حديث زُهَير. ورواه البخاريُّ أيضاً والترمذيُّ من حديث إسرائيلَ، كلاهما عن أبي إسحاقَ عمرو بن عبد الله السَّبيعيّ الهَمْدانيّ الكوفيّ، عن زيد، به[1].

طريقٌ أُخرى عن زيد، قال أبو عيسى الترمذيُّ: حدثنا عَبْدُ بن حُمَيد، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن السُّدِّي، عن أبي سعدٍ الأزديّ قال: حدثنا زيدُ بن أرقمَ قال: غزَوْنا مع رسول الله - ﷺ - وكان معنا أُناسٌ من الأعراب، فكنا نَبْتدرُ الماء، وكان الأعراب يسبقوننا، فيسبقُ الأعرابي أصحابه فيملأ الحوضَ، ويجعلُ حولَه حجارةً، ويجعل النِّطَع عليه حتى يجيء أصحابُه. فأتى رجلٌ من الأنصار الأعرابيَّ، فأرخى زمامَ ناقته لتشرب، فأبى أن يَدَعه، فانتزع حَجَراً ففاض[2] الماء، فرفع الأعرابيُّ خشبةً، فضرَبَ بها رأسَ الأنصاريِّ فشجَّه، فأتى عبدَ الله بن أُبيٍّ رأسَ المنافقين فأخبَرَه - وكان من أصحابه - فغضب عبدُ الله بن أُبيٍّ، ثم قال: لا تُنفقوا على من عندَ رسولِ الله حتى ينفضُّوا من حَوله - يعني الأعراب - وكانوا يحضُرون رسُولَ الله - ﷺ - عند الطعام، فقال عبدُ الله لأصحابه: إذا انفضُّوا من عند محمَّدٍ فأْتُوا محمداً بالطعام، فلْيأكل هو ومَن عنده، ثم قال لأصحابه: إذا رجعتُم إلى المدينة فلْيُخرج الأعزُّ منها الأذلَّ. قال زيد: وأنا رِدْفُ عَمّي[3]، فسمعتُ عبدَ الله فأخبرتُ عَمّي، فانطلق فأخبَرَ رسولَ الله - ﷺ - فأرسلَ إليه رسولُ الله، فحلَف وجَحَد، قال: فصدَّقه رسولُ الله - ﷺ - وكذَّبني، فجاء إليّ عَمّي فقال: ما أردتَ أن مَقَتَكَ رسولُ الله - ﷺ - وكذَّبك والمسلمون. فوقع عليَّ من الغَمّ ما لم يقع على أحدٍ قطُّ، فبينما أنا أسيرُ مع رسولِ الله - ﷺ - في سفرٍ وقد خَفَقْتُ[4] برأسي من الهم، إذ أتاني رسولُ الله - ﷺ - فعرك أُذني، وضحك في وَجْهي، فما كان يسُرُّني أن لي بها الخلدَ في الدنيا. ثم إنَّ أبا بكر لحِقني وقال: ما قال لك رسولُ الله ﷺ؟ قلت: ما قال لي رسول الله - ﷺ - شيئاً غير أن عَرَكَ أُذني وضَحِكَ في وجهي. فقال: أبشِرْ. ثم لَحِقني عُمَر فقلت له مثل قولي لأبي بكرٍ. فلما أن أصبحنا قرأ رسولُ الله - ﷺ - سورة المنافقين[5].

انفرد بإخراجه الترمذي وقال: «هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحيح». وهكذا رواه الحافظُ البيهقيُّ عن الحاكم، عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبُوبي، [[6] عن سعيد بن مسعود][6]، عن عُبَيد الله بن موسى، به. وزادَ بعد قوله سُورة المنافقين ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهدُ إنك لرسُول الله﴾، حتى بلَغ: ﴿هم الذين يَقولُون لا

---

(١) المسند ٤/٣٧٣، وفتح الباري، تفسير سورة المنافقون ٨/٦٤٧ - ٦٤٨، ومسلم، كتاب صفات المنافقين ٤/٢١٤٠ وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المنافقون ١٢/١٩٩ - ٢٠١.

(٢) في النسخ: ففاض. والمثبت من دلائل النبوة للبيهقي. ولفظ الترمذي: «فانتزع قباض الماء».

(٣) كذا في أصولنا وأصول الدلائل. ولفظ الترمذي: «وأنا رِدْفُ رسول الله ﷺ».

(٤) أي: نكّسته من شدّة الهم.

(٥) عارضة الأحوذي، تفسير سورة المنافقون ١٢/٢٠١ - ٢٠٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/٥٤ - ٥٥.

(٦ - ٦) من الدلائل.

تُنفِقُوا على من عند رسولِ الله حتى ينفضُّوا﴾ حتى بلغ: ﴿لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾[(١)]

وقد روى عبدُ الله بن لَهِيعَةَ، عن أبي الأسود، عن عُرْوَةَ بن الزبير في المغازي ـ وكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه أيضاً هذه القصة بهذا السياق، ولكن جَعَلا الذي بَلَّغ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كلامَ عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلول إنما هو أوس بن أَقْرَم، من بني الحارث بن الخزرج[(٢)] فلعله مُبَلِّغ آخر، أو تصحيفٌ من جهة السَّمع، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عزيز الأيليُّ، حدثني سلامةُ، حدثني عقيلٌ، أخبرني محمد بن مُسلم: أنَّ عُرْوَةَ بن الزُّبَير وعَمْرو بن ثابت الأنصاريُّ أخبراه: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ غزا غزوةَ المُرَيْسِيع، وهي التي هَدَم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيها مناةَ الطاغيةَ التي كانت بين قفا المُشَلَّل[(٢)] وبين البحر، فبعث رسولُ الله ـ ﷺ ـ خالدَ بنَ الوليد فكَسَر مناةَ، فاقتتل رَجُلان في غَزْوةِ رسول الله ـ ﷺ ـ تلك، أحدهما من المُهاجرين، والآخرُ من بَهْزٍ، وهم حُلَفاءُ الأنصار، فاستعلى الرجُل الذي من المهاجرين على البَهزيِّ، فقال البَهزيُّ: يا معشَرَ الأنصار، فنصَرَه رجالٌ من الأنصار، وقال المُهاجريّ: يا معشرَ المهاجرين. فنصره رجال من المهاجرين، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجالِ من الأنصار شيءٌ من القتال، ثم حُجِز بينهم فانكفأ كلُّ منافقٍ ـ أو: رجل في قلبه مرضٌ ـ إلى عبد الله بن أُبيّ ابن سَلُولَ، فقال: قد كنتَ تُرْجَى وتَدفَعُ، فأصبحت لا تضرُّ ولا تَنفعُ، قد تناصرت علينا الجلابيبُ ـ وكانوا يدْعُون كُلَّ حديث الهجرة: الجلابيب[(٣)] ـ فقال عبدُ الله بن أُبيّ: لَئِن رَجَعنا إلى المدينة لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. قال مالك بن الدُّخشُم[(٤)] وكان من المنافقين ـ أوَ لم أقُل لكم لا تُنفِقوا على من عندَ رسولِ الله حتى ينفضوا. فسمع بذلك عمرُ بن الخطاب، فأقبل يمشي حتى أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن[(٥)] الناس، أضرِبْ عُنقَه ـ يُريدُ عُمرُ عبدَ الله بن أُبيّ ـ فقال رسول الله ﷺ ـ لِعُمَر: أوَ قاتِلُه أنت إن أمرتُك بقتلِه؟ ـ قال عمر: نعم، والله لَئِن أمَرتني بِقَتْلِهِ لأضربَنَّ عُنُقَه. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: اجلِسْ. فأقبل أُسَيدُ بن الحُضير ـ وهو أحد الأنصار، ثم أحدُ بني عبد الأشهل، حتى أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، ائذَن لي في هذا الرجل الذي قد أفتنَ الناسَ أضربْ عُنقَه. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أوَ قاتِلُه أنتَ إن أمرتُك بقتله؟. قال: نعم، والله لَئِن أمرتني بقتله لأضربَنَّ بالسيف تحت قُرْطِ أُذنيه. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ اجلس. ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: آذنوا بالرحيل. فهَجَّرَ بالناس، فسار يومَه وليلَته والغَدَ حتى مَتَعَ النهار[(٦)] ثم نَزَل. ثم هَجَّر بالناس مثلها، فَصَبَّحَ بالمدينةِ في ثلاثٍ سارَها من قفا المُشَلَّل فلما قدم رسولُ الله ـ ﷺ ـ المدينةَ أرسلَ إلى عُمَر فدعاه، فقال له رسولُ الله: أيْ عُمَرُ، أكنتَ قاتِلَه لو أمرتُك بقتله؟ قال عُمَر: نعم، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: والله لو قتلته يومئذٍ

---

(١) أخرج ذلك البيهقي في الدلائل ٤/٥٦.

(٢) المُشَلَّل: جبلٌ يُهبَط منه إلى قُدَيدٍ من ناحية البحر، وقُدَيد: اسم موضع قُرْبَ مكة.

(٣) مضى تفسير الجلابيب من قريب.

(٤) في الأصل: الدخشن. والمثبت من مغازي الواقدي ١/٤٠٥، وسيرة ابن هشام ٢/٦، والمسند العالية ٥/٢٢. هذا وقد شهد مالك بن الدخشم بدراً في قول الجميع، وكان يتهم بالنفاق، ولكن أبا عُمر بن عبد البر يقول في الاستيعاب ٣/١٣٥١ «ولا يصحّ عنه النفاق، وقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه»

(٥) فَتَن وأَفْتَن، لغتان.

(٦) أي: ارتفع.

لأرعِدَتْ أُنُوفُ رجالٍ لو أمرتُهم اليوم بقتلِهِ لقتلُوه فيتحدثُ الناسُ أني قد وقعتُ على أصحابي فأقتلهم صَبْراً. وأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿هُمُ الذين يقولُون لا تُنفقُوا على من عِند رسولِ الله حتى ينفضُّوا﴾ ـ إلى قوله: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾. الآية

وهذا سياقٌ غريبٌ، وفيه أشياءُ لا تُوجَدُ إلا فيه.

وقال محمد بن إسحاق بن يَسار: حدثني عاصمُ بن عُمَر بن قتادةَ: أن عبدَالله بن [عبدالله بن] أُبَيٍّ ـ يعني لمَّا بلغَه ما كان من أمر أبيه ـ أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إنه بلغني أنك تُريدُ قتلَ عبدالله بن أُبَيٍّ فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً فَمُرني به، فأنا أحملُ إليك رأسَه، فوالله لقد علِمت الخزرجُ ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مِنِّي، إني أخشَى أن تأمُر به غيري فيقتُله، فلا تدعُني نفسِي أنظُر إلى قاتلِ عبدِالله بن أُبَيٍّ يمشِي في الناس، فأقتله فأقتُلَ مؤمناً بكافرٍ، فأدخلَ النار. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بل نترفَّق به ونُحسِنُ صُحبَتَه، ما بقي معنا»[(١)]

وذكر عكرمةُ وابنُ زيدٍ وغيرُهما أنَّ الناسَ لما قفلُوا راجعينَ إلى المدينة وقفَ عبدُ الله بن عبدِ الله هذا على باب المدينةِ، واستلَّ سيفَه، فجعل الناسُ يمرُّون عليه، فلما جاء أبوه عبدُ الله بن أُبَيٍّ قال له ابنه: وَرَاءَكَ. فقال: ما لكَ؟ وَيْلَكَ! فقال: والله لا تجوزُ من ها هنا حتى يأذنَ لك رسولُ الله ـ ﷺ ـ فإنه العزيزُ وأنتَ الذليلُ. فلما جاء رسولُ الله ـ ﷺ ـ وكان إنما يسير ساقةً[(٢)]، فشكا إليه عبدُ الله بن أُبَيٍّ ابنَه، فقال ابنُه عبدُ الله: والله يا رسول الله لا يدخُلها حتى تأذنَ له. فأذِن له رسولُ الله ﷺ، فقال: أما إذْ أذِن لك رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَجُزِ الآن.

وقال أبو بكر عبد الله بنُ الزُّبَير الحُميدي في مُسنَده: حدثنا سُفيان بن عُيَينة، حدثنا أبو هارون المدني قال: قال عبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ لأبيه: والله لا تدخُل المدينة أبداً حتى تقول: رسولُ الله ـ ﷺ ـ الأعزُّ وأنا الأذلُّ. قال: وجاء النَّبيُّ ـ ﷺ ـ فقال: يا رَسول الله، إنَّه بَلغَني أنَّك تُريدُ أن تَقتُلَ أبي، فوالذي بعثك بالحقِّ ما تأمَّلتُ وَجْهَه قطُّ هيبةً له، ولئن شئتَ أن آتيكَ برأسه لآتينَّك، فإنِّي أكرَه أن أرَى قاتِلَ أبي[(٣)].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً لعباده المُؤمنين بكثرةِ ذكرِه وناهياً لهم عن أن تشغَلَهم الأموالُ والأولادُ عن ذلك، ومخبراً لهم بأنَّه من التَهى بمتاع الحياة الدُّنيا وزينتِها عما خُلِقَ له من طاعةِ ربِّه وذِكْرِه فإنه من الخاسرين، الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة. ثم حثَّهم على الإنفاق في طاعته فقال: ﴿وأنفِقُوا من ما رزَقناكُم من قبل أن يأتي أحدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخَّرتَني إلى أجلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ وأكُنْ من الصالحين﴾، فكلُّ مُفرِّطٍ يندَمُ عند الاحتضار، ويسألُ طولَ المُدَّة ولو شيئاً يسيراً، ليستعتِبَ ويستدرِكَ ما فاته، وهيهاتَ! كان ما كان، وأتَى ما هو آتٍ، وكلٌّ بحسَبِ تفريطِه، أمَّا الكفارُ فكما قال تعالى: ﴿وأنذِر الناس يوم يأتيهم العذابُ فيقولُ الذين ظلمُوا

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٢) أي: في مؤخرة أصحابه، والساقة من الجيش: مؤخره.
(٣) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، كتاب التفسير ٣/٣٨٨ ـ ٣٨٩

ربَّنا أخّرنا إلى أجلٍ قريب نُجِبْ دَعْوتك ونتّبع الرسُلَ أوَ لم تكونُوا أقسمتُم من قبل ما لكم من زوال﴾. وقال تعالى ﴿حتّى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال رَبِّ ارجِعُون * لعلّي أعمل صالحاً فيما تركتُ كلاّ إنها كلمة هو قائلُها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبْعَثُون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ولن يُؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خَبيرٌ بما تعملون﴾، أي: لا يُنظِر أحداً بعد حُلول أجله، وهو أعلَمُ وأخبَرُ بمن يكونُ صادِقاً في قولِه وسُؤالِه ممن لو رُدَّ لعادَ إلى شرٍّ مما كان عليه، ولهذا قال: ﴿والله خبيرٌ بما تعمَلُون﴾.

وقال أبو عيسى الترمِذيُّ: حدثنا عَبدُ بن حُمَيد، حدثنا جعفرُ بن عَون، حدثنا أبو جَناب الكَلْبيُّ، عن الضحّاكِ مُزاحم، عن ابن عَبّاسٍ قال: من كان له مال يُبلِغه حَجَّ بيتِ ربِّه، أو تَجِبُ فيه عليه زكاةٌ، فلم يفعَلْ، سأل الرجعَةَ عند الموتِ. فقال رجلٌ: يا ابنَ عباس، اتّق الله، فإنما يسأل الرجعةَ الكفارُ، فقال: سأتلُو عليكَ بذلِكَ قرآناً. ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلهِكُم أموالُكُم ولا أولادكُم عن ذكر الله ومَن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفِقُوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتِيَ أحدَكُم الموت فيقولَ ربِّ لولا أخّرتني إلى أجلٍ قريب فأصَّدَّق﴾ إلى قوله. ﴿والله خبير بما تعمَلُون﴾، قال: فما يُوجِبُ الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مائتين فصاعداً قال: فما يُوجِبُ الحج؟ قال: الزادُ والبَعيرُ[١].

ثم قال: حدثنا عَبدُ بن حُمَيد، حدثنا عبد الرزّاق، عن الثوري، عن يحيى بن أبي حَيَّة ـ وهو أبو جَنابٍ الكَلْبيُّ ـ عن الضحّاكِ، عن ابن عباسٍ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ بنحوه[١].

ثم قال: وقد رَواه سفيانُ بن عُيينة وغيره، عن أبي جَنابٍ، عن الضحّاكِ، عن ابن عبّاسٍ، من قولِه: وهو أصحُّ[١]. وضعَّف أبا جَنابٍ الكَلبيَّ.

قلتُ: وروايةُ الضحّاكِ عن ابن عبّاسٍ فيها انقطاعٌ، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا سُلَيمان بنُ عَطاءٍ، عن مَسْلَمَةَ الجُهَنِيِّ، عن عَمِّه ـ يعني أبا مَشْجعة بن رِبْعي ـ عن أبي الدرداء ـ قال: ذَكرنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ الزيادةَ في العُمُر، فقال: «إنّ الله لا يُؤخِّر نفساً إذا جاء أجلُها، وإنما الزيادةُ في العُمُر أن يَرزُقَ الله العبدَ ذُرِّيةً صالحةً يدعُون له، فيَلْحَقه دُعاؤُهم في قَبْرِه»[٢].

آخر تفسير سُورَة المنافقين، ولله الحمدُ والمنَّة

---

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة المنافقون ١٢/٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٦١ من سورة النحل، وقد رواه ابنُ أبي حاتم هناك، عن علي بن الحسين، عن الوليد بن عبد الملك، عن سليمان، به.

تفسير

سورة التغابن

وهي مَدَنيَّة، وقيل: مكّيَّة

قال الطَّبَرانيُّ: حدثنا محمد بن هارون بن مُحمَّد بن بكّار الدِّمشقيُّ، حدثنا العبّاس بن الوليد الخلال، حدثنا الوليد بن الوليد، حدثنا ابن ثَوبان، عن عطاءِ بن أبي رَباح، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من مولودٍ يُولَد إلا مكتوبٌ في تَشبيكِ رأسه خمسُ آيات من سورة التَّغابن».

أورده ابن عساكر في ترجمة «الوليد بن صالح»، وهو غَريب جداً، بل مُنكَر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾

هذه السورةُ هي آخر المُسبِّحات، وقد تقدَّم الكلام على تَسبيحِ المخلوقاتِ لبارئها ومالكها، ولهذا قال: ﴿له الملكُ وله الحمدُ﴾. أي: هو المتصرِّف في جميعِ الكائناتِ، المحمودُ على جميع ما يخلقه ويُقدِّره.

وقولُه ﴿وهو على كل شيء قدير﴾، أي: مهما أراد كانَ بلا مُمانعٍ ولا مُدافعٍ، وما لم يَشأ لم يكُن.

وقولُه: ﴿هو الذي خلقكُم فمنكُم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ﴾، أي: هو الخالق لكُم على هذه الصفة، وأراد منكُم ذلك، فلا بدَّ من وُجود مؤمنٍ وكافرٍ، وهو البصيرُ بمن يستحقُّ الهدايةَ ممَّن يستحقُّ الإضلالَ، وهو شهيدٌ على أعمالِ عبادِه، وسيَجزيهم بها أتمَّ الجزاءِ. ولهذا قال: ﴿والله بما تعملُون بصيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾، أي: بالعدل والحكمة، ﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾، أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم ● الذي خلقك فسوّاك فعدلك ● في أيّ صورة ما شاء ركّبك﴾، وكقوله: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوّركم فأحسن صُوَركم ورزقكم من الطيبات﴾ الآية. وقوله: ﴿وإليه المصير﴾، أي: المرجعُ والمآبُ.

ثم أخبر تعالى عن عِلْمه بجميع الكائنات السمائيةِ والأرضيةِ والنفسيّة، فقال: ﴿يعلم ما في السمواتِ والأرضِ ويعلمُ ما تُسِرُّون وما تُعلِنُون والله عليمٌ بذات الصُّدُور﴾.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حلَّ بهم من العذابِ والنَّكال؛ في مُخالفة الرُّسل والتكذيب بالحقّ. فقال: ﴿ألم يأتكم نبأُ الذين كفرُوا من قبل﴾، أي: خبَرُهم وما كان من أمرهم، ﴿فذاقوا وبالَ أمرهم﴾، أي: وَخيم تكذيبهم ورَدِيء أفعالهم، وهو ما حلّ بهم في الدنيا من العُقوبة والخِزْي، ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾، أي: في الدار الآخرة مضافٌ إلى هذا الدنيوي. ثم علّل ذلك فقال: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلُهم بالبيّنات﴾، أي: بالحُجج والدلائل والبراهين، ﴿فقالُوا أَبَشَرٌ يهدُونَنا﴾، أي: استبعدُوا أن تكونَ الرسالةُ في البشر، وأن يكون هُداهم على يَدَي بشر مثلهم، ﴿فكفروا وتولّوا﴾، أي: كذّبوا بالحقّ ونَكلُوا عن العمل، ﴿واستغنَى الله﴾، أي: عنهم، ﴿والله غنيٌّ حَميدٌ﴾.

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين والكُفّار والمُلحِدين أنهم يزعُمُون أنهم لا يُبعثون، ﴿قل بلى وربّي لَتُبعَثُنَّ ثم لَتُنبَّؤُنَّ بما عَمِلتم﴾، أي: لَتُخْبَرُنَّ بجميعِ أعمالِكم، جليلها وحقيرها، صَغيرها وكبيرها، ﴿وذلك على الله يسيرٌ﴾، أي: بعثكم ومجازاتكم.

وهذه هي الآية الثالثةُ التي أمرَ الله رسولَه ـ ﷺ ـ أن يُقسِم بربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ على وُقوع المعاد ووجُوده، فالأولى في سورة يونس: ﴿ويستنبئونك أحقٌّ هو قُلْ إي وربّي إنه لحقٌّ وما أنتم بمُعجزين﴾، والثانية في سورة سبأ: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ قُل بلَى وربّي لتأتينَّكم﴾... الآية، والثالثةُ هي هذه: ﴿زَعم الذين كَفَرُوا أن لَن يُبعَثُوا قل بلى ورَبّي لَتُبعَثُنَّ ثم لَتُنبَّؤُنَّ بما عملتم، وذلك على الله يَسير﴾.

ثم قال: ﴿فآمنُوا بالله ورسُوله والنور الذي أنزلنا﴾، يعني: القرآن، ﴿والله بما تعملون خبيرٌ﴾، أي: فلا تخفَى عليه من أعمالكم خافيةٌ.

وقوله ﴿يومَ يجمعُكم ليوم الجَمْعِ﴾، وهو يومُ القيامة، سُمّي بذلك لأنه يُجمع فيه الأوَّلون، والآخرون في صعيدٍ واحدٍ، يُسمعهُم الداعي وينفذهم[1] البصرُ، كما قال تعالى ﴿ذلك يوم مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهودٌ﴾.

وقال تعالى ﴿قُل إنَّ الأوّلين والآخرين لَمجمُوعونَ إلى ميقاتِ يومٍ معلومٍ﴾.

وقولُه ﴿ذلك يومُ التغابن﴾، قال ابنُ عباس: هو اسمٌ من أسماء يومِ القيامةِ[2] وذلك أنَّ أهل الجنةِ يغبُنون أهل النار. وكذا قال قتادةُ ومجاهدٌ[2].

وقال مُقاتِل بن حيان: لا غَبْنَ أعظمُ من أن يدخُلَ هؤلاء إلى الجنة ويُذهب بأولئك إلى النار.

قلتُ: وقد فسَّر ذلك بقوله ﴿ومن يؤمن بالله ويعمَل صالحاً يُكفِّر عنه سيِّئاتِه ويُدخِلهُ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيمُ ۞ والذين كفَرُوا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ النارِ خالدين فيها وبئس المصير﴾. وقد تقدم تفسيرُ مثلِ هذه غيرَ مرّةٍ

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً بما أخبَرَ به في سُورةِ الحديدِ ﴿ما أصابَ من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفُسِكم إلا في كتابٍ من قبلِ أن نبرَأها﴾، وهكذا قال ها هنا ﴿ما أصاب من مُصيبة إلا بإذن الله﴾، قال ابن عباس بأمرِ الله، يعني عن قَدَره ومشيئته

﴿ومَن يُؤمن بالله يَهد قلبه والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾، أي: ومن أصابته مصيبةٌ فعلم أنها بقضاءِ الله وقَدَرِه، فصَبَر واحتسَبَ واستسلم لقضاءِ الله، هَدى الله قلبَه، وعوَّضه عما فاته من الدُنيا هُدًى في قلبه، ويقيناً صادقاً، وقد يُخلِفُ عليه ما كان أَخذَ منه، أو خيراً منه.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ومن يُؤمن بالله يَهدِ قلبه﴾، يعني يهدِ قلبه لليقين فيعلَمَ أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه[3].

وقال الأعمش، عن أبي ظَبْيان قال: كُنّا عند علقمةَ فقُرِىء عنده هذه الآية: ﴿ومن يُؤمن بالله يَهد قلبَه﴾، فسُئل عن ذلك فقال: هو الرجل تُصيبه المصيبة فيعلَم أنها من عند الله، فَيرضى ويسلِّم. رواه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتمٍ.

وقال سعيد بن جُبير، ومقاتل بن حَيَّان: ﴿ومَن يُؤمن بالله يهدِ قلبه﴾، يعني: يَسترجِعُ، يقول: ﴿إنا لله وإنّا إليه راجعُون﴾.

---

(١) أي: بخرقهم وينحدرهم لاستواء الصعيد. وقد تقدم في حديث أبي هريرة عند تفسير الآية ٧٩ من سورة الإسراء.
(٢) انظر الآثار في تفسير الطبري ١٢٢/٢٨
(٣) أخرجه الطبري ١٢٣/٢٨

وفي الحديث المتّفق عليه: «عجباً للمؤمن! لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته ضرَّاء صَبَر فكان خيراً له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن»[1].

[(٢ ـ وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابنُ لهيعة، حدثنا الحارثُ بن يزيد، عن عليِّ بن رباح: أنه سمع جُنادة بن أبي أُميَّة يقول: سمعتُ عُبادة بنَ الصامت يقول: إنَّ رجلاً أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال يا رسول الله، أيُّ العمل أفضل؟ قال «إيمانٌ بالله، وتصديقٌ به، وجهادٌ في سبيله». قال: أريد أهونَ من ذلك يا رسول الله. [قال: السماحة والصبر. قال: أُريد أهوَن من ذلك يا رسول الله]. قال: «لا تَتَّهم الله في شيءٍ قضى لك به»[2]. لم يخرجوه].

وقوله: ﴿وأَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرسُولَ﴾ أمرٌ بطاعةِ الله، ورسُوله فيما شرَع، وفعْلِ ما [به] أمَر وتَرْكِ ما عنه نهى وزَجر، ثم قال: ﴿فإن توليتم فإنّما على رَسُولنا البلاغُ المُبين﴾ أي: إن نكلتم في العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ، وعليكُم ما حُمِّلتم من السَّمعِ والطاعة.

قال الزُهريُّ: من الله الرسالةُ، وعلى الرسُولِ البلاغُ، وعلينا التسليمُ.

ثم قال تعالى مُخبراً أنه الأحدُ الصمدُ، الذي لا إلَه غيرُه، فقال: ﴿الله لا إلَه إلاَّ هُو وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون﴾، فالأول خبرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وَحِّدوا الإلهية له، وأخلِصُوها لديه، وتوكَّلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿ربُّ المشرق والمغربِ لا إلَه إلا هُو فاتَّخِذه وكيلاً﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (١٥) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٦) إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (١٨) ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد: أنَّ منهم مَن هو عدُوُّ الزوجِ والوالِد، بمعنى أنه يَلْتَهي به عن العمل الصالح، كقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكُم أموالكُم ولا أولادكُم عن ذِكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾. ولهذا قال ها هنا ﴿فاحذَرُوهم﴾، قال ابنُ زيد: يعني على دينكم. وقال مجاهد: ﴿إنَّ من أزواجِكُم وأولادِكُم عدُوًّا لكم﴾، قال: يَحمِلُ الرجلَ على قطيعةِ الرَّحمِ أو معصيةِ ربِّه، فلا يستطيعُ الرجُل مع حُبِّه إلا أن يُطيعه[3].

وقال ابنُ أبي حاتم، حَدَّثنا أبي، حدثنا مُحمَّد بن خلَف العسقلاني[4]، حدثنا الفِرْيابي، حدثنا إسرائيل،

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٥٣ من سورة البقرة، ٩٥ من سورة الأعراف، ٥ من سورة إبراهيم، ٣٣ من سورة الروم، ١٩ من سورة سبأ، وخرجناه هنالك.

(٢ ـ ٢) هذه الفقرة ساقطة من بعض النسخ، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣١٨/٥ ـ ٣١٩ وما بين القوسين عنه.

(٣) أخرجه الطبري ١٢٥/٢٨ ـ ١٢٦.

(٤) في بعض النسخ: الصيدلاني، وانظر ترجمته في الجرح والتعديل ٢٤٥/٧.

حدثنا سماكُ بن حرب، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبَّاسٍ وسأله رَجُلٌ عن هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنُوا إنَّ من أزواجكم وأولادكم عَدُوًّا لكم فاحذروهم﴾، قال: «هؤلاء رجالٌ أسلمُوا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعُوهم، فلما أتوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ رأوا الناس قد فقِهُوا في الدين، هَمُّوا أن يُعاقبُوهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وإن تعفوا وتصفحُوا وتغفِرُوا فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾».

وكذا رواه التِّرمذي عن محمد بن يحيى، عن الفِرْيابي ـ وهو مُحمَّد بنُ يوسفَ ـ به وقال: «حسنٌ صحيح»[١] ورواه ابنُ جرير والطبراني، من حديث إسرائيل، به[١]، ورُوِي من طريق العوفي، عن ابن عباس، نحوُه، وهكذا قال عِكْرمة مولاه سواء[١].

وقولُه ﴿إنما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ والله عنده أجرٌ عظيمٌ﴾، يقول تعالى. إنما الأموالُ والأولادُ فتنةٌ، أي: اختبارٌ وابتلاءٌ من الله لِخلْقِه. لِيعلم مَن يُطيعه ممن يعصيه.

وقولُه ﴿والله عنده﴾، أي. يومِ القيامة ﴿أجرٌ عظيم﴾، كما قال: ﴿زُيِّن للناس حُبُّ الشَّهَوات مِنَ النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المُقنطرة من الذَّهب والفضَّةِ والخيلِ المُسوَّمة والأنعام والحرْثِ ذلك متاعُ الحياة الدنيا والله عنده حسنُ المآب﴾، والتي بعدها.

وقال الإمامُ أحمد: حدَّثنا زيدُ بن الحُبَاب، حَدَّثني حُسَين بن واقِدٍ، حدَّثني عبد الله بن بُرَيْدَة، سمعت أبي بُرَيْدة يقول. كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يخطُب، فجاء الحَسَن والحُسَين ـ رضي الله عنهما ـ عليهما قميصان أحمران يَمْشِيان ويعثُران، فنَزَل رسولُ الله ـ ﷺ ـ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يَدَيه، ثم قال: صَدَق الله ورسولُه. ﴿إنما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ﴾، نظرتُ إلى هذَين الصَّبيَّين يَمشِيان ويَعثُران، فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي ورفعتُهما[٢].

ورواه أهلُ السنن من حديث حُسَين بن واقد، به. وقال الترمذي: «حسن غريب، إنما نعرفه من حديثه»[٣].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُرَيج بنُ النُّعمان، حدثنا هُشَيم، أخبرنا مُجالد، عن الشَّعبي، حدثنا الأشعث بن قيس قال: قَدِمتُ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ في وَفْدِ كِنْدَةَ، فقال لي: هل لَكَ من وَلَدٍ؟ قلتُ: غلام وُلد لي في مُخرَجي إليك من ابنة جمْدٍ[٤]، ولوَدِدتُ أن بمكانه شِبَعَ[٥] القومِ. قال: لا تقولَنَّ ذلك، فإن فيهم قُرَّة عين، وأجراً إذا قُبِضُوا، ثم قال: ولئن قلت ذاك إنهم لمَجْبَنةٌ مَحْزنةٌ، إنهم لمجبنة مَحْزنة، تفرَّد به أحمدُ[٥].

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة التغابن ١٢/٢٠٧ ـ ٢٠٨، وتفسير الطبري ٢٨/١٢٤ ـ ١٢٥، والمعجم الكبير للطبراني ١١/٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٣٥٤، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٩٠، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/١٩٤، ١٩٥، والنسائي، كتاب الجمعة ٣/١٠٨، وكتاب العيدين ٣/١٩٢، وابن ماجه، كتاب اللباس ٢/١١٩٠.

(٣) جِمْدُ الكِنْدي مترجم في أسد الغابة ١/٣٤٩.

(٤) الشِّبَعُ من الطعام: ما يكفي ويشبع.

(٥) مسند الإمام أحمد ٥/٢١١ وأخرجه الطبراني في معجمه ١/٢٣٦ بإسناده إلى هشيم، ومن طريق أخرى كما أخرجه الحاكم بإسناده إلى سفيان، عن الأعمش، عن خيثمة، عن الأشعث، وفيه: «وددْتُ لكم مكانه قصعةً من خبز ولحم»، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمود بن بكر، حدثنا أبي، عن عيسى، عن ابن أبي ليلى، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الولدُ ثمرةُ القلوبِ، وإنَّهم مجْبَنةٌ مبْخلةٌ محزنةٌ». ثم قال: «لا يُعرَفُ إلَّا بهذا الإسناد»(١).

[(٢) وقال الطبرانيُّ: حدثنا هاشم بن مَرْثَدٍ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عيَّاش، حدثني أبي، حدثني ضَمْضَمُ بن زُرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس عَدُوَّكَ الذي إن قتلْتَه كان نوراً لك وإن قتلك دخلتَ الجنة، ولكن الذي لعله عَدُوٌّ لك وَلَدُك الذي خرج من صُلْبِك، ثم اعدَى عَدُوٌّ لك مالُك الذي مَلَكَتْ يمينُك»](٢).

وقولُه: ﴿فاتَّقُوا اللهَ ما استطعتُم﴾، أي: جُهدَكم وطاقتَكم. كما ثبتَ في الصحيحَين عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا أمرتُكم بأمرٍ فائتُوا منه ما استطعتُم، وما نهيتُكم عنه فاجتَنِبُوه»(٣).

وقد قال بعضُ المفسرين ـ كما رواه مالك، عن زيد بن أسلَمَ ـ: إنَّ هذه الآيةَ العظيمةَ ناسخةٌ للتي في «آل عمران»، وهي قولُه: ﴿يا أيها الذين آمنُوا اتقُوا اللهَ حَقَّ تقاتِه ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمُون﴾(٤).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثني يحيى بن عبد الله بن بُكَير، حدثني ابن لَهِيعة، حدثني عطاءٌ ـ هو ابن دينارٍ ـ عن سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿اتقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِه ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمُونَ﴾، قال: لما نزلت هذه الآيةُ اشتدَّ على القوم العَمَلُ، فقامُوا حتى وَرِمت عراقِيبُهم وتَقَرَّحت جِبَاهُهم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿فاتقُوا اللهَ ما استطعتم﴾، فنَسَخت الآيةَ الأولى.

ورُوِي عن أبي العاليةِ، وزَيدِ بن أسلَمَ، وقتادة، والربيعِ بن أنسٍ، والسُّدِّي، ومقاتِل بن حَيَّان، نحوُ ذلك.

وقولُه: ﴿واسمَعُوا وأَطِيعُوا﴾، أي: كونوا مُنقادين لما يأمُركم اللهُ به ورسولُه، لا تحيدُوا عنه يمنةً ولا يَسْرةً، ولا تُقدِّموا بين يَدَي الله ورسوله، ولا تتخلَّفُوا عما أُمِرتم، ولا تركَبُوا ما عنه زُجِرتُم.

وقولُه: ﴿وأنفقُوا خيراً لأنفُسكم﴾، أي: وابذُلوا مما رزَقكم الله على الأقارب والفُقراءِ والمساكين وذوي الحاجات، وأحسِنُوا إلى خَلْقِ الله كما أحسَنَ إليكم يكُن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإلَّا تفعلُوا يكن شرّاً لكم في الدُّنيا والآخِرة.

وقولُه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المُفْلِحُون﴾، تقدم تفسيرُه في «سورة الحشر»(٥)، وذِكْرُ الأحاديثِ الواردةِ في معنى هذه الآية، بما أغنى عن إعادته ها هنا، ولله الحمدُ والمنَّة.

وقولُه: ﴿إن تُقرِضُوا اللهَ قرضاً حسناً يُضَاعِفْه لكم ويَغفِرْ لكم﴾، أي: مهما أنفقتُم من شيءٍ فهو يُخلِفُه، ومهما تصدَّقتم من شيءٍ فعليه جزاؤُه، ونَزَّل ذلك منزلة القَرْضِ له، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول:

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البر والصلة ٢/٣٧٨
(٢-٢) غير ثابت في بعض النسخ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٤٥: «رواه محمد بن إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف».
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٧ من سورة الحشر، وخرجناه هنالك.
(٤) انظر تفسير الآية ١٠٢ من سورة آل عمران.
(٥) انظر تفسير الآية ٩ من سورة الحشر.

«من يُقرض غيرَ ظلُوم، ولا عديم»[١]. ولهذا قال يُضاعِفْه لكم، كما تقدم في سورة البقرة. ﴿فيُضاعِفَه له أضعافاً كثيرةً﴾.

﴿ويَغْفِرْ لكم﴾، أي: ويُكَفِّرْ عنكم السيِّئاتِ. ولهذا قال: ﴿والله شَكُورٌ﴾، أي: يَجْزي على القليل بالكثير، ﴿حليمٌ﴾ أي: يَصفَحُ ويَغفِرُ ويَستر، ويَتجاوز عن الذُّنوب والزَّلّات والخطايا والسيِّئات. ﴿عالمُ الغيبِ والشهادةِ العزيزُ الحكيمُ﴾. تقدم تفسيرُه غيرَ مرَّةٍ.

آخر تفسير «سُورَةِ التَّغابن»، ولله الحمدُ والمِنَّةُ

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٤٥ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.

تفسير

سُورَةُ الطَّلَاقِ

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ ﴾

خُوطب النبي ـ ﷺ ـ أولاً تشريفاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال: ﴿يا أيها النبيُّ إذا طلقتُم النساء فطلِّقوهن لِعِدَّتِهنَّ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم، حدثنا محمد بن ثَوَاب بن سَعيد الهَبَّارِيُّ، حدثنا أسباطُ بن محمد، عن سعيد، عن قتادةَ، عن أنس قال: طلَّق رسول الله ـ ﷺ ـ حفصةَ، فَأَتَتْ أهلَها، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يا أيها النبيُّ إذا طَلَّقتُم النساء فطلِّقوهن لِعِدَّتِهنَّ﴾، فقيل له: رَاجِعها فإنها صَوَّامة قَوَّامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة.

ورواه ابنُ جرير، عن ابن بَشَّار، عن عبد الأعلى، عن سَعيد، عن قتادةَ... فذكره مُرسَلاً(١). وقد ورد من غير وجهٍ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ طلَّق حفصةَ ثم راجَعَها.

وقال البخاري: حدثنا يحيى بن بُكَير، حدثنا الليث، حَدَّثني عُقَيلٌ، عن ابن شِهاب، أخبرني سالم: أن عبد الله بن عُمَر أخبره أنه طَلَّق امرأةً له وهي حائضٌ، فذَكر عمرُ لرسول الله ـ ﷺ ـ فتغيَّظَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثم

(١) تفسير الطبري ٢٨/١٣٢.

قال: «ليُراجعْها، ثم يُمسِكْها حتى تَطهُرَ، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يُطلِّقها طاهراً قبل أن يمسَّها، فتلك العِدَّةُ التي أمر الله عزَّ وجلَّ»[(١)].

هكذا رواه البُخاريُّ ها هنا، وقد رَوَاه في مواضعَ من كتابه، ومُسلِمٌ، ولفظُه: «فتلك العدَّةُ التي أمر الله أن يُطلَّق لها النساء»[(١)] ورَواه أصحابُ الكُتُب والمَسَانيد من طُرُق مُتعدِّدةٍ وألفاظٍ كثيرة[(١)]، ومَوْضِعُ استقصائها كُتُب الأحكام.

وأمسُّ لفظٍ يُوردُ ها هنا ما رواه مسلم في صحيحه، من طريق ابن جُريج: أخبرني أبو الزُّبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن - مولى عزَّة - يسأل ابنَ عمر، وأبو الزبير يَسْمَعُ ذلك: كيف ترَى في رَجُلٍ طلَّق امرأته حائضاً؟ فقال: طلَّق ابنُ عُمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله - ﷺ - فسأل عُمر رسولَ الله - ﷺ - فقال: إن عبد الله بن عُمر طلَّق امرأته وهي حائض - فقال رسولُ الله - ﷺ -: لِيُراجعْها فردَّها، وقال: إذا طَهُرت فليُطلِّق أو يُمسكْ. قال ابنُ عُمر: وقرأ النبيُّ - ﷺ -: «يا أيها النبيُّ إذا طلَّقتم النساء فطلِّقُوهُنَّ في قُبُل عِدَّتهن»[(٢)].

وقال الأعمشُ، عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله في قوله: ﴿فطلِّقوهنَّ لعدَّتهنَّ﴾ قال: الطُّهر من غير جماع[(٣)]. ورُوِي عن ابن عُمَر، وعطاءٍ، ومجاهدٍ، والحسنِ، وابن سيرينَ، وقتادة، وميمون بن مهران، ومُقاتل بن حَيَّان، مثلُ ذلك: وهو روايةٌ عن عِكْرِمة، والضَّحاك.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: لا يُطلِّقها وهي حائضٌ ولا في طُهرٍ قد جامعها فيه، ولكن: يتركُها حتى إذا حاضت وطَهُرت طلَّقها تطليقةً[(٣)].

وقال عكرمة: ﴿فطلِّقوهن لعدَّتِهن﴾، العِدَّةُ: الطهر، والقُرْءُ الحَيضة، أن يُطلِّقها حُبلَى مُستَبِيناً حَمْلُها، ولا يُطلِّقها وقد طاف عليها، ولا يدري حُبلَى هي أم لا.

ومن ها هنا أخذ الفقهاءُ أحكامَ الطلاق وقسَّموه إلى طلاق سُنَّةٍ وطلاق بدْعَةٍ، فطلاقُ السنة أن يُطلِّقها طاهراً من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملُها. والبِدْعة: هو أن يُطلِّقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامَعَها فيه، ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاقٌ ثالث لا سُنَّة فيه ولا بدعة، وهو طلاقُ الصَّغيرةِ والآيسةِ، وغيرِ المدخول بها. وتحريرُ الكلام في ذلك وما يتعلَّق به مُستقصىً في كُتُب الفروع، والله - سبحانه وتعالى - أعلمُ.

وقولُه: ﴿وأحصُوا العدَّة﴾، أي: احفظُوها واعرفُوا ابتداءها وانتهاءها، لِئلَّا تطُولَ العدَّةُ على المرأةِ فتمتنع من الأزواج ﴿واتقُوا الله ربَّكم﴾، أي: في ذلك.

وقولُه: ﴿لا تُخرِجُوهُنَّ من بُيوتهنَّ ولا يَخرُجْنَ﴾، في مُدَّة العِدَّة لها حَقُّ السُّكنى على الزوج ما دامت مُعتدَّةً منه، فليس للرجلِ أن يُخرجها، ولا يجوزُ لها أيضاً الخروجُ لأنها مُعتقَلَةٌ لحقِّ الزوجِ أيضاً.

وقولُه: ﴿إلَّا أن يأتينَ بفاحشةٍ مُبيِّنة﴾، أي لا يَخرُجن من بيوتهنَّ إلَّا أن ترتكب المرأة فاحشةً مُبيِّنةً، فتخرج من المنزل، والفاحشة المبيِّنة تشمل الزنا، كما قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيدُ بن المُسيِّب،

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الطلاق ٨/٦٥٣، وكتاب الطلاق ٩/٣٤٥، ٣٥١، ٣٥٦، ٣٧١، ٤٨٢ - ٤٨٤، وكتاب الأحكام ١٣/١٣٦ - ١٣٧، ومسلم، كتاب الطلاق ٢/١٠٩٥، وأخرجه أصحاب السنن في كتاب الطلاق، سنن أبي داود ٢/٢٥٥، والنسائي ٦/١٤٠ - ١٤١، وعارضة الأحوذي ٥/١٢٣ - ١٢٥، وابن ماجه ١/٦٥٢.

(٢) مسلم، كتاب الطلاق ٢/١٠٩٨ وقد كان ابن عمر وابن عباس يقرآنها كذلك، وهي قراءة شاذة.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨/١٢٩ - ١٣٢

والشعبيُّ، والحسن، وابنُ سيرين، ومُجاهدٌ، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبير، وأبو قلابة، وأبو صالح، والضحَّاك، وزيدُ بن أسلم، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، وسعيد بن أبي هلال، وغيرُهم. وتشمل ما إذا نشزت المرأةُ أو بذَتْ[1] على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أُبَيُّ بن كعب، وابنُ عباس، وعكرمةُ، وغيرُهم.

وقولُه ﴿وتلك حدودُ الله﴾، أي: شرائعُه ومحارمُه. ﴿ومن يتعدَّ حُدود الله﴾، أي: يخرُجْ عنها ويتجاوزْها إلى غيرها ولا يأتمِرْ بها، ﴿فقد ظلم نفسه﴾، أي: بفعْل ذلك.

وقولُه ﴿لا تدْري لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً﴾، أي: إنما أبقينا المُطلَّقة في منزل الزوج في مُدَّة العدَّة لعلَّ الزوج يندمُ على طلاقها ويخلُق الله في قلبه رجْعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل.

قال الزُّهريُّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن فاطمة بنت قيس في قوله ﴿لا تدْري لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً﴾، قالت: هي الرجعةُ[2]. وكذا قال الشعبيُّ، وعطاءٌ، وقتادةُ، والضحَّاك، ومقاتل بن حيَّان، والثوريُّ. ومن هاهنا ذهب من ذهَب من السلف ومن تابعهم، كالإمام أحمد بن حنبل ـ رحمهم الله ـ أنه لا تجب السكنى للمبتُوتة، وكذا المتوفى عنها زوجُها، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية، حين طلَّقها زوجُها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيلُه بشَعير نفقةً، فتسخطته، فقال: والله ليس لك علينا نفقةٌ. فأتت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «ليس لك عليه نفقةٌ». ولمسلم: «ولا سُكنى»، وأمرها أن تعتدَّ في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأةٌ يغشاها أصحابي، اعتدِّي عند ابن أمِّ مكتوم، فإنه رجلٌ أعمى، تضعين ثيابك». الحديث[3].

وقد رَوَاه الإمام أحمد من طريق أُخرى بلفظٍ آخرَ، فقال:

حَدَّثنا يحيى بنُ سعيد، حدثنا مُجالِدٌ، حدثنا عامر قال: «قدمتُ المدينة فأتيتُ فاطمة بنت قيس فحدَّثتني أنَّ زوجها طلقها على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فبعثه رسولُ الله ـ ﷺ ـ في سريَّة، قالت: فقال لي أخوه: اخرُجي من الدار. فقلتُ: إنَّ لي نفقةً وسُكنى حتى يحلَّ الأجلُ. قال: لا. قالت: فأتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقلتُ: إن فلاناً طلَّقني، وإنَّ أخاه أخرجني ومنعني السُّكنى والنفقة. [فأرسل إليه] فقال: ما لك ولابنة آل قيس؟ قال: يا رسولَ الله، إنَّ أخي طلَّقها ثلاثاً جميعاً. قالت: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: انظري يا بنت آل قيس، إنما النفقةُ والسُّكنى للمرأة على زَوْجها ما كانت له عليها رجعةٌ، فإذا لم يكن له عليها رَجعةٌ فلا نفقة ولا سُكنى، اخرُجي فانزلي على فلانة. ثم قال: إنه يُتحدَّث إليها، انزلي على ابن أمِّ مكتوم، فإنه أعمى لا يراك». وذكر تمامَ الحديث[4].

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عبد الله البزار التُّستري، حدثنا إسحق بن إبراهيم الصوَّاف، حدثنا بكر بن بكَّار، حدثنا سَعيد بن يزيد البَجلي، حدثنا عامرٌ الشعبي، أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحَّاك بن قيس القُرشي، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزُومي، فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إليَّ وهو منطلقٌ في جيشٍ إلى اليمن بطلاقي، فسألتُ أولياءه النفقة عليَّ والسُّكنى، فقالوا: ما أرسل إلينا

---

(١) بذا يبذُو، وبذاءة: ساء خلقه، وبذا عليه: أفحش في منطقه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ١٩٤/٨.

(٣) مسلم، كتاب الطلاق ١١١٤/٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣٧٣/٦ ـ ٣٧٤، وما بين القوسين منه.

في ذلك شيئٌ، ولا أوصانا به. فانطلقتُ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقلتُ: يا رسول الله، إن أبا عمرو بن حفصٍ أرسل إليَّ بطلاقي، فطلبتُ السُكنى والنفقةَ علي، فقال أولياؤهُ: لم يُرسِل إلينا في ذلك بشيء. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إنما السُكنى والنفقةُ للمرأة إذا كان لزوجها عليها رَجْعَةٌ، فإذا كانت لا تَحِلُّ له حتى تنكِحَ زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سُكنى[١].

وكذا رواه النسائي[١]، عن أحمد بن يحيى الصُوفي، عن أبي نُعيم الفضل بن دُكين، عن سَعيد بن يزيد ـ وهو الأحمَسيُّ البَجَلي الكوفي ـ قال أبو حاتم الرازيُّ: «هو شيخٌ، يُروَى عنه»[١].

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾

يقولُ تعالى: فإذا بَلَغتِ المعتدَّات ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ أي: شارَفْن على انقضاءِ العِدَّة وقارَبْنَ ذلك، ولكن لم تَفرُغ العِدَّة بالكُلِّية، فحينئذٍ إما أن يعزم الزوجُ على إمساكها، وهو رَجْعَتُها إلى عصمةِ نكاحه والاستمرارُ بها على ما كانت عليه عندَه، ﴿بمعروفٍ﴾، أي: محسناً إليها في صُحبتها، وإما أن يعزِمَ على مفارقتها ﴿بمعروف﴾ أي: من غير مُقبحةٍ ولا مُشاتمةٍ ولا تعنيفٍ، بل يُطلِّقها على وجهٍ جميلٍ وسبيلٍ حَسنٍ.

وقولُه: ﴿وأشهدُوا ذَوَيْ عدلٍ منكم﴾، أي: على الرجعةِ إذا عَزَمْتُم عليها، كما رواه أبو داودَ وابنُ ماجه، عن عمران بن حُصَين: أنه سُئل عن الرجُل يُطلِّق امرأتَه ثم يقَعُ بها ولم يُشهد على طلاقها ولا على رَجعتها فقال: طلَّقتَ لغير سُنَّةٍ، ورجَعْتَ لغير سُنَّةٍ، أشهِدْ على طلاقها وعلى رَجْعَتِها، ولا تَعُدْ[٢].

وقال ابن جُرَيج: كان عطاءٌ يقول: ﴿وأشهدُوا ذَوَيْ عدلٍ منكم﴾ قال: لا يجوزُ في نكاحٍ ولا طَلاقٍ ولا رجاعٍ إلا شاهِدا عدلٍ، كما قال الله عزَّ وجلَّ، إلا أن يكون من عُذرٍ.

وقولُه: ﴿ذلكُم يوعَظُ به من كان يُؤمن بالله واليوم الآخِرِ﴾، أي: هذا الذي أمرناكُم به من الإشهادِ وإقامةِ الشهادةِ إنما يأتمرُ به مَن يُؤمن بالله وأنه شَرَعَ هذا، ويخافُ عِقابَ الله في الدار الآخرة.

ومن ها هنا ذهب الشافعي ـ في أحد قولَيه ـ إلى وجوب الإشهاد في الرجعَة، كما يجبُ عنده في ابتداءِ النِّكاح. وقد قال بهذا طائفةٌ من العلماء، ومن قال بهذا يقولُ: إنَّ الرجعة لا تَصِحُّ إلا بالقولِ ليقَعَ الإشهادُ عليها.

وقولُه: ﴿ومن يَتَّقِ الله يجعلْ له مَخرَجاً ويرزُقه من حيثُ لا يَحتسِبُ﴾، أي: ومن يَتَّقِ الله فيما أمرَه به، وترَك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزُقه من حيثُ لا يحتَسِبُ، أي: من جهةٍ لا تخطُر بباله.

قال الإمامُ أحمد: حدَّثنا يزيد، أخبرنا كَهْمَسُ بن الحسن، حدثنا أبو السَّليل، عن أبي ذَرٍّ قال: جَعَل

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٤/٣٨٢ ـ ٣٨٣، وسنن النسائي، كتاب الطلاق ٦/١٤٤، وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٧٤

(٢) أخرجه في كتاب الطلاق، سنن أبي داود ٢/٢٥٧، وابن ماجه ١/٦٥٢.

رسولُ الله ـ ﷺ ـ يتلو عليَّ هذه الآية: ﴿ومَن يَتَّقِ الله يجعل لَهُ مخرجاً ويرزُقْه من حيثُ لا يحتسبُ﴾، حتى فرغ من الآية، ثم قال: يا أبا ذرّ، لو أن الناسَ كُلَّهم أخذوا بها كفتهم. قال: فجعل يتلوها ويردّدُها عليّ حتى نعست. ثم قال: يا أبا ذرّ، كيف تصنعُ إن أُخرجتَ من المدينة؟ قلتُ: إلى السَّعة والدَّعة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة. قال: كيف تصنعُ إن أُخرجت من مكّة؟ قال قلتُ: إلى السعةِ والدَّعة، إلى الشام والأرض المقدَّسة. قال: وكيفَ تصنعُ أن أُخرِجْتَ من الشام؟ قلت: إذاً ـ والذي بعثك بالحقّ ـ أضعُ سيفي على عاتقي. قال: أوَخيرٌ من ذلك؟ قلت: أوَ خيرٌ من ذلك؟ قال: تسمعُ وتُطيعُ وإن كان عبداً حبشياً[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرَّماديُّ، حدثنا يعلى بن عُبيد، حدثنا زكريا، عن عامر، عن شُتير بن شكل قال: سَمِعتُ عبد الله بن مسعود يقولُ: إن أجمعَ آيةٍ في القرآن: ﴿إن الله يأمر بالعدْلِ والإحسانِ﴾، وإن أكثرَ آيةٍ في القرآن فَرَجاً: ﴿ومن يَتَّقِ الله يجعل له مخرجاً﴾[2].

وفي المسند: حَدَّثني مهدي بن جعفر، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الحَكَم بن مُصْعَب، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عَبّاس، عن أبيه، عن جدِّه عبد الله بن عبّاس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «من أكثرَ من الاستغفارِ جعل الله له من كلِّ هَمٍّ فَرجاً، ومن كلِّ ضِيقٍ مَخرجاً، ورزَقه من حيثُ لا يَحْتَسِب»[3].

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ومَن يَتَّقِ الله يَجْعَلْ له مخرجاً﴾، يقول: يُنجيه من كلِّ كرب في الدنيا والآخرة ﴿ويرزُقه من حيثُ لا يَحْتَسِبُ﴾. وقال الربيع بن خُثَيم: ﴿يجعل له مخرجاً﴾، أي: من كلِّ شيء ضاق على الناس.

وقال عِكْرِمة: من طَلَّق كما أمره الله يَجعل له مخرجاً. وكذا رُوِي عن ابن عباس، والضحاك.

وقال ابنُ مسعودٍ ومسروقٌ: ﴿ومن يَتَّقِ الله يجعَلْ له مَخرجاً﴾، يعلم أن الله إن شاء مَنَع وإن شاء أعطى، ﴿من حيثُ لا يَحتَسِبُ﴾، أي: من حيثُ لا يَدْري.

وقال قتادةُ: ﴿ومن يَتَّقِ الله يجعل له مخرجاً﴾، أي: من شُبُهات الأمور والكَرْب عند الموتِ؛ ﴿ويرزُقه من حيثُ لا يَحتَسِبُ﴾، من حيثُ لا يرجُو ولا يُؤَمِّل[4].

وقال السُّدّي: ﴿ومَن يَتَّقِ الله﴾: يُطلِّق للسنة، ويُراجع للسُّنَّة، وَزَعَم أن رجُلاً من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يُقال له «عوف بن مالك الأشجعي» كان له ابن، وأن المشركين أسرُوه، فكان فيهم، وكان أبوه يأتي رسولَ الله ـ ﷺ ـ فيشكُو إليه مكانَ ابنه وحالَه التي هو بها وحاجَته، فكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يأمُره بالصبر، ويقول له: «إن الله سيجعل لك فرجاً». فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً أن انفلَت ابنُه من أيدي العدوِّ فمرَّ بغنم من أغنام العدوِّ، فاستاقها فجاء بها إلى أبيه، وجاء معه بِغِنىً[5] قد أصابه من الغَنم، فنزلت هذه الآية: ﴿ومن يَتَّقِ الله يجعل له مخرجاً * ويرزُقه من حيثُ لا يَحْتَسِبُ﴾.

رواه ابن جَرير، وروي أيضاً من طريق سالم بن أبي الجَعْد مُرسَلاً نحوه.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) تقدم عند تفسير الآية ٩٠ من سورة النحل، من رواية الطبري، وخرجناه هنالك. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٩/١٤٢ ـ ١٤٣ بإسناده إلى الشعبي، مثله.

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٢٤٨.

(٤) أخرجه عبد بن حميد وأبو نعيم في الحلية، الدر المنثور ٨/١٩٥.

(٥) مكانه بياض في نسخة الأزهر، وفي غيرها: بغنم قد أصاب من الغنم، والمثبت عن الطبري ٢٨/١٣٨.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سُفيان، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجَعْد، عن ثوبانَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «إن العبد لَيُحْرَمُ الرزقَ بالذنبِ يُصِيبُه، ولا يَرُدُّ القَدَرَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العُمر إلا البرّ»(١).

ورَواه النَّسائيُّ وابنُ ماجه، من حديث سُفيانَ ـ وهو الثَّوريُّ ـ به(١).

وقال محمد بن إسحاق: جاء مالك الأشجعيُّ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له: أُسِر ابني عوفٌ. فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أَرسِلْ إليه أنّ رسول الله يأمُرك أن تُكثِر من قول: لا حولَ ولا قوّة إلا بالله. وكانوا قد شَدُّوه بالقِدِّ(٢) فسقط القِدُّ عنه، فخرَج، فإذا هو بناقةٍ لهم فرَكِبها، وأقبل فإذا بسَرْح(٢) القوم الذين كانوا قد شَدُّوه فصاح بهم، فاتبع أوّلَها آخرُها، فلم يَفْجَأ أبويه إلا وهو يُنادي بالباب، فقال أبوه: عوفٌ وربِّ الكعبة. فقالت أمه: واسوأتاه. وعوفٌ كيف يَقْدَمُ؟! لما هو فيه من القِدِّ ـ فَستبق البابَ والخادمُ، فإذا عوفٌ قد ملأ الفِناء إبلاً، فقصَّ على أبيه أمرَه وأمرَ الإبل، فقال أبوه: قِفا حتى آتيَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأسأله عنها. فأتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأخبره بخبر عَوفٍ وخبر الإبل، فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: اصنَعْ بها ما أحببت، وما كنتَ صانعاً بمالك. ونزل: ﴿ومن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً ۝ ويرزُقْه من حيثُ لا يحتسِبُ﴾. رواه ابنُ أبي حاتم(٣).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا محمد بن علي بن الحَسَن بن شَقِيق(٤)، حدثنا إبراهيمُ بن الأشعث، حدثنا الفُضَيل بن عياض، عن هِشَام، عن حسان(٥)، عن عِمرانَ بن حُصَين قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «من انقطع إلى الله كَفاه الله كل مَئونةٍ، ورَزَقه من حيثُ لا يحتسِبُ، ومن انقطع إلى الدُّنيا وَكَلَه إليها»(٦).

وقولُه: ﴿ومن يتوكَّل على الله فهو حَسبُه﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا يونس، حدثنا ليثٌ، حدثنا قيس بن الحجّاج، عن حَنَش الصَّنعاني، عن عبد الله بن عباس: أنه حَدَّثه أنه رَكِب خلفَ رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً، فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا غلامُ، إنّي مُعلِّمك كلماتٍ: احفَظِ الله يحفَظْكَ، احفظِ الله تَجِده تُجاهَك، وإذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله، واعلَم أنّ الأمّة لو اجتمعوا على أن ينفعُوكَ لم ينفعُوك إلا بشيءٍ قد كَتَبه الله لك، ولو اجتمعُوا على أن يَضُرُّوك لم يَضُرُّوك إلا بشيءٍ قد كَتَبه الله عليك، رُفِعت الأقلام، وجَفَّتِ الصُّحُفُ»(٧).

وقد رَوَاه التِرمذيُّ من حديث الليث بن سَعدٍ، وابنِ لَهِيعَةَ، به. وقال: «حسنٌ صحيحٌ»(٧).

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا بَشير بن سَلْمان، عن سَيّار أبي الحَكَم، عن طارق بن شِهاب،

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٧٧، وأخرجه النسائي في كتاب الرقائق من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٢/١٣٣، وابن ماجه في كتاب الفتن ٢/١٣٣٤.

(٢) القِدّ: السَّيْرُ يُقَدُّ من الجلد. والسَّرْحُ: الماشية، ولا يُسمّى سَرْحاً إلا ما يُغدَى به ويُراح.

(٣) الدر المنثور: ٨/١٩٧.

(٤) في النسخ: بن سفيان. والمثبت من الجرح ترجمة محمد بن علي ٨/٢٨، وترجمة أبيه ٦/١٨٠.

(٥) في بعض النسخ: عن هشام بن الحسن. وهشام هو ابن حسان يروي عنه الفضيل بن عياض كما في تهذيب الكمال.

(٦) الدر المنثور ٨/١٩٨.

(٧) مسند الإمام أحمد ١/٢٩٣، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٩/٣١٩ ـ ٣٢٠. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٨ من سورة الزمر، وخرجناه هنالك.

عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من نَزَل به حاجة فأنزلها بالناس كان قَمِناً ألا تُسهَّل حاجتُه، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزقٍ عاجلٍ، أو بموتٍ آجلٍ»[1].

ثم رواه عن عبد الرزّاق، عن سفيان، عن بَشِير، عن سَيّار أبي حمزة، ثم قال: وهو الصوابُ، وسيّار أبو الحَكَم لم يُحدِّث عن طارقٍ[1].

وقولُه: ﴿إنَّ الله بالغُ أمرِه﴾، أي: مُنفِّذٌ قضاياه وأحكامه في خَلْقِه بما يُريده ويشاؤه، ﴿قد جَعَل الله لكُلّ شيءٍ قَدْراً﴾، كقوله: ﴿وكلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ﴾.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُبيِّناً لعدَّةِ الآيسةِ ـ وهي التي قد انقطعَ عنها الحيضُ لِكِبَرِها ـ: أنها ثلاثة أشهرٍ، عِوَضاً عن الثلاثة قُروءٍ في حَقِّ من تحيض، كما دلَّت على ذلك آية «البقرة»[2]، وكذا الصغارُ اللائي لم يبلُغن سِنَّ الحيض أن عِدَّتَهُنَّ كَعِدَّةِ الآيسة ثلاثةُ أشهُرٍ، ولهذا قال: ﴿واللائي لم يَحِضْنَ﴾.

وقوله: ﴿إن ارتبتُم﴾، فيه قولان:

أحدهما ـ وهو قولُ طائفة من السلف، كمجاهد، والزُّهريِّ، وابنُ زيد ـ أي: إن رأين دماً وشككتُم في كونه حيضاً أو استحاضةً، وارتبتُم فيه.

والقولُ الثاني: إن ارتبتُم في حُكم عِدَّتهن ولم تعرفُوه فهو ثلاثةُ أشهُر. وهذا يُرْوَى عن سعيد بن جُبَير، وهو اختيارُ ابن جرير[3]، وهو أظهرُ في المعنى، واحتجَّ عليه بما رواه عن أبي كُرَيب وأبي السائب قالا: حدَّثنا ابن إدريس، أخبرنا مُطرِّف، عن عَمرو بن سالم قال: قال أُبيُّ بنُ كَعب: يا رسولَ الله، إن عِدَداً من عِدَدِ النساء لم تُذكَر في الكتاب: الصغارُ والكبارُ وأولاتُ الأحمال. قال: فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿واللائي يَئِسْنَ من المَحِيض من نسائكم إن ارتبتُم فعدَّتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يَحِضْنَ وأولاتُ الأحمالِ أجلُهن أن يَضَعنَ حملهنَّ﴾[3].

ورواه ابنُ أبي حاتم بأبسطَ من هذا السياق فقال:

حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المُغيرة، أخبرنا جَريرٌ، عن مُطرف، عن عُمَر بن سالم، عن أُبيّ بن كعب قال: قلتُ لرسولِ الله ـ ﷺ ـ: إن ناساً من أهل المدينة لَمّا أُنزلت هذه الآيةُ التي في «البقرة» في عدَّة النساء قالوا: لقد بَقِي من عدَّةِ النساءِ عِدَدٌ لم يُذكَرْنَ في القرآن: الصغار والكبارُ اللائي قد انقطع عنهنَّ الحيضُ، وذواتُ الحَمل. قال: فأُنزلت التي في النساء القُصرى[4]: ﴿واللائي يَئِسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدَّتهن ثلاثةُ أشهرٍ﴾.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤٤٢/١

(٢) الآية ٢٢٨.

(٣) تفسير الطبري ١٤١/٢٨.

(٤) تسمى سورةُ الطلاق أيضاً سورة النساءِ القُصْرَى، وقد سماها بذلك ابن مسعود، وأخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق، فتح الباري ٦٥٤/٨، وانظر روح المعاني للألوسي ١٢٨/٢٨. هذا وعُمَر بن سالم الذي في سند الحديث يقال له أيضاً عمرو بن سالم كما في رواية الطبري المتقدمة.

وقولُه: ﴿وأولاتُ الأحمالِ أجلهُنَّ أن يَضعن حمْلَهُنَّ﴾، يقولُ تعالى. ومن كانت حاملاً فعدَّتُها بوضعه، ولو كان بعدَ الطلاقِ أو الموتِ بِفُواق[1] ناقةٍ، وفي قولِ جُمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نصُّ هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السُّنَّةُ النبويَّةُ. وقد رُوي عن علي، وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ أنهما ذهبا في المُتوفَّى عنها زوجها أنها تعتدُّ بأبعدِ الأجلين من الوضع أو الأشهر، عملاً بهذه الآية الكريمة، والتي في سورة البقرة. وقد قال البخاري:

حدثنا سعد بن حفص، حدثنا شيبان، عن يحيى قال: أخبرني أبو سلمة قال: «جاء رجلٌ إلى ابن عبَّاسٍ ـ وأبو هريرة جالس ـ فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلةً. فقال ابنُ عباس: آخرُ الأجَلَين. قلت أنا: ﴿وأولاتُ الأحمال أجلهُنَّ أن يَضعنَ حملهن﴾، قال أبو هُرَيْرَةَ: أنا مع ابن أخي ـ يعني أبا سلَمة ـ فأرسل ابنُ عباس غلامه كُرَيباً إلى أم سَلمة يسألها، فقالت: قُتِل زوج سُبَيعة الأسلميَّة وهي حُبلى، فوضَعت بعد موته بأربعين ليلةً، فخُطِبت، فأنكحها رسولُ الله ـ ﷺ ـ وكان أبو السنابل فيمن خطَبها»[2]

هكذا أورد البخاريُّ هذا الحديث ها هنا مُختصراً. وقد رواه هو ومسلمٌ وأصحابُ الكُتُب مُطوَّلاً من وُجوه أُخَر[1]. وقال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا حَمَّاد بنُ أُسامة، أخبرنا هشام، عن أبيه، عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة أن سُبَيعَةَ الأسلميَّةَ تُوُفِّي عنها زوجُها وهي حاملٌ، فلم تمكُث إلا لياليَ حتى وَضعت، فلما تعلَّت[3] من نفاسها خُطِبت، فاستأذنت رسول الله ـ ﷺ ـ في النكاحِ، فأذِن لها أن تَنكِحَ، فنَكَحت[2].

وَرواه البخاريُّ في صَحيحه، ومُسلِم، وأبو داود، والنَّسائيُّ، وابنُ ماجه، من طُرُقٍ عنها[2]، كما قال مسلم بن الحجَّاج:

حدَّثني أبو الطاهر: أخبرنا ابنُ وهبٍ، حَدَّثني يُونُس بن يزيدَ، عن ابنِ شهابٍ، حدَّثني عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة، أن أباه كتب إلى عُمَر بن عبد الله بن الأرقم الزُّهريِّ يأمُره أن يدخُل على سُبَيعة بنت الحارث الأسلميَّة فيسألها عن حَديثها وعمَّا قال لها رسولُ الله ـ ﷺ ـ حين استفْتته. فكتب عُمر بن عبد الله يُخبِرُه أن سُبَيعة أخبرَته أنها كانت تحتَ سَعدِ بن خَولَةَ ـ وكان ممن شَهِد بدراً ـ فتُوفِّي عنها في حَجَّة الوداع وهي حاملٌ، فلم تَنشَب أن وضعت حَمْلَها بعد وفاته، فلما تعلَّت من نفاسِها تجمَّلت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بنُ بَعكَكٍ فقال لها: ما لي أراكِ مُتجمِّلةً؟ لعلك ترجين النكاحَ، إنكِ والله ما أنتِ بناكحٍ حتى تَمُرَّ عليك أربعةُ أشهرٍ وعشرٌ. قالت سُبَيعة: فلما قال لي ذلك جمعتُ عليَّ ثيابي حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فسألتُه عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللتُ حين وَضعت حملي، وأمرني بالتزوُّج إن بدا لي.

هذا لفظُ مسلم[2]. ورواه البخاريُّ مُختصراً[2]، ثم قال البُخاريُّ بعد رواية الحديث الأوَّل عند هذه الآيةِ:

وقال سُليمان بن حرب وأبو النعمان: حَدَّثنا حماد بن زيد، عن أيُّوب، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال:

---

(١) الفُواق ـ تضم فاؤه وتفتح ـ: ما بين الحلْبتين من الوقت، فهي تحلب ثم تُترك سُويعة يرضعها الفصيل لتدرَّ ثم تُحلَبُ.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الطلاق ٨/٦٥٣، وكتاب المغازي تعليقاً ٧/٣١٠، وكتاب الطلاق ٩/٤٦٩ ـ ٤٧٠، وأخرجوه في كتاب الطلاق، مسلم ٢/١١٢٢، وسنن أبي داود ٢/٣٩٣، وعارضة الأحوذي ٥/١٦٩ ـ ١٧١، والنسائي ٦/١٩٠ ـ ١٩٧، وابن ماجه، ١/٦٥٣ ـ ٦٥٤، ومسند الإمام أحمد ٤/٣٢٧.

(٣) أي: سلمَتْ وأفاقت.

كنتُ في حَلْقَةٍ فيها عبدُ الرحمن بن أبي ليلى، وكان أصحابُه يُعظِّمونه، فذكر آخر الأجلين، فحدَّثتُ بحديث سُبَيعة بنتِ الحارث عن عبد الله بن عُتبَة، قال: فضمَّزَ لي(١) بعضُ أصحابه، قال محمد: ففطنتُ له فقلت: إني لَجَريءٌ أن أكذبَ على عبد الله وهو في ناحية الكُوفة. قال: فاستحيا وقال: ولكن عمَّه(٢) لم يقل ذلك. فلقيتُ أبا عطيَّة مالك بن عامر فسألتُه، فذهب يُحدِّثني بحديث سُبَيعة، فقلت: هل سمعت عن عبد الله فيها شيئاً؟ فقال: كنا عند عبد الله فقال: أتجعلُون عليها التغليظ ولا تجعلُون عليها الرخصة؟ لَنَزَلَتْ سورةُ القُصرى بعد الطُّولى: ﴿وأولاتُ الأحمالِ أجلُهنَّ أن يَضعن حمْلَهنَّ﴾(٣).

ورواه ابنُ جريرٍ، من طريق سُفيان بن عُيَينة وإسماعيل بن عُلَيَّة عن أيوب به مُختصراً(٣). ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد بن الحارث، عن ابن عَوْنٍ، عن محمد بن سيرين، فذكره(٣).

وقال ابنُ جرير: حدثني زكريا بنُ يحيى بن أبان المصريُّ، حدثنا سَعيد بن أبي مريمَ، حدثنا محمد بن جعفر، حدَّثني ابن شُبْرُمَة الكوفي، عن إبراهيم، عن علقمة بن قيس أن عبد الله بن مسعودٍ قال: من شاء لاعنتُه، ما نزلت ﴿وأولاتُ الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنَّ﴾، إلا بعد آية المتوفَّى عنها زوجُها. قال: وإذا وَضعتِ المتوفَّى عنها زوجُها فقد حلَّت. يُريد بآية المتوفى عنها زوجها: ﴿والذين يُتَوَفَّون منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصن بأنفُسِهن أربعةَ أشهر وعشراً﴾(٤).

وقد رَوَاه النسائي من حديث سعيد بن أبي مريمَ، به(٤). ثم قال ابنُ جرير:

حدثنا أحمدُ بن مَنيع، حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبيِّ قال: ذُكِرَ عند ابن مسعود آخر الأجلين، فقال: من شاء قاسمتُه بالله أن هذه الآية التي في النساء القُصرى نَزَلت بعد الأربعةِ الأشهُر والعشر، ثم قال: أجلُ الحامل أن تَضَع ما في بطنها(٥).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سِنان الواسطيُّ، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْديٍّ، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي الضُحى، عن مسروقٍ قال: بلغ ابنَ مسعود أن علياً ـ رضي الله عنه ـ يقولُ: آخرُ الأجلين. فقال: من شاء لاعنتُه، إن التي في النساء القُصرى نزلت بعد البقرة: ﴿وأولاتُ الأحمال أجلُهنَّ أن يَضعن حملهنَّ﴾.

وَرواه أبو داود وابنُ ماجه، من حديث أبي معاويةَ، عن الأعمش(٦).

وقال عبدالله ابن الإمام أحمدَ: حدثني محمدُ بن أبي بكر المقدَّمي، أخبرنا عبد الوهاب الثَّقَفيُّ، حدَّثني المُثنَّى، عن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمْرٍو، عن أُبَيِّ بن كعبٍ قال: قلتُ للنبي ـ ﷺ ـ:

---

(١) أي: أشار إليَّ أن اسكُت، يقال: ضَمَّزَ الرجلُ: إذا عضَّ على شفتيه. وفيها روايات أخر نظرها في فتح الباري ٨/ ٦٥٥
(٢) أي: عبد الله بن مسعود.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الطلاق ٨/ ٦٥٤، وتفسير الطبري ٢٨/ ١٤٢ ـ ١٤٣، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٧/ ١٣٧.
(٤) تفسير الطبري ٢٨/ ١٤٢، وسنن النسائي، كتاب الطلاق ٦/ ١٩٦ ـ ١٩٧
(٥) تفسير الطبري ٢٨/ ١٤٣.
(٦) أخرجاه في كتاب الطلاق سنن أبي داود ٢/ ٢٩٣، وابن ماجه ١/ ٦٥٤

﴿وأولاتُ الأحمالِ أجلهُنَّ أن يَضعن حَملَهنَّ﴾، المُطلَّقة ثلاثاً أو المتوفَّى عنها؟ فقال: هي للمُطلَّقةِ ثلاثاً وللمتوفَّى عنها[1].

هذا حديثٌ غريبٌ جدًا، بل مُنكَر؛ لأن في إسناده المُثنَّى بن الصباح، وهو متروكُ الحديث بمرَّةٍ، ولكن رواه ابنُ أبي حاتم بسندٍ آخرَ فقال:

حدثنا محمد بن داود السِّمناني، حدثنا عَمرو بن خالد - يعني الحَرَّاني - حدَّثنا ابنُ لَهيعةَ، عن عَمرو بن شُعيب، عن سعيد بن المُسيِّب، عن أُبيِّ بن كعب: أنه لما نزلت هذه الآيةُ قال لرسول الله - ﷺ -: لا أدري أمشتركة أم مُبهَمة، قال رسولُ الله - ﷺ -: أيَّةُ آية؟ قال: ﴿أجلهُن أن يَضعن حمْلَهنَّ﴾، المُتوفَّى عنها والمُطلَّقة؟ قال: نعم.

وكذا رواه ابنُ جرير، عن أبي كُرَيب، عن مُوسَى بن داود، عن ابن لهيعة، به. ثم رواه عن أبي كُرَيب أيضاً، عن مالك بن إسماعيلَ، عن ابن عُيَينة، عن عبد الكريم بن أبي المُخَارق أنه حَدَّث عن أُبَيّ بن كعب قال: سألتُ رسول الله - ﷺ - عن: ﴿وأولاتُ الأحمالِ أجلهُنَّ أن يَضعن حَملَهنَّ﴾، قال: «أجَل كُلِّ حاملٍ أن تَضعَ ما في بَطْنِها»[2].

عبدُ الكريم هذا ضعيفٌ، ولم يدرك أُبيًا.

وقولُه: ﴿ومن يَتَّقِ الله يَجعل له من أمره يُسراً﴾، أي: يُسهِّلْ له أمرَه، ويُيَسِّرْه عليه، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً.

ثم قال: ﴿ذلك أمرُ الله أنزله إليكُم﴾، أي: حكمُه وشرعه أنزله إليكُم بواسطةِ رسُوله ﷺ، ﴿ومن يتَّقِ الله يُكفِّرْ عنه سيِّئاتِه ويُعظِم له أجراً﴾، أي: يُذهِبْ عنه المحذورَ، ويُجزِلْ له الثوابَ على العمل اليسيرِ.

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧ ﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه إذا طلَّق أحدُهم المرأة أن يُسكِنَها في منزل حتى تنقضيَ عدَّتها، فقال: ﴿أسكِنُوهُنَّ من حيثُ سكنتُم﴾، أي: عندكم، ﴿من وُجدِكم﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحدٍ: يعني سَعتكم. حتى قال قتادةُ: إن لم تجد إلا جَنْبَ بيتك فأسكِنها فيه.

وقولُه: ﴿ولا تُضارُّوهُن لِتُضيِّقوا عليهنَّ﴾، قال مقاتلُ بن حَيَّان: يعني يُضاجِرها لِتَفتديَ منه بمالها أو تخرُجَ من مسكنه.

وقال الثوريُّ، عن منصورٍ، عن أبي الضُّحى: ﴿ولا تُضارُّوهنَّ لِتُضيِّقوا عليهنَّ﴾، قال: يُطلِّقها فإذا بقي يومان رَاجَعَها.

(١) مسند الإمام أحمد ٥/١١٦
(٢) تفسير الطبري ٢٨/١٤٣

وقولُه: ﴿وإن كُنَّ أولاتِ حَمْلٍ فأنفِقُوا عليهنَّ حتى يَضَعن حَمْلَهُنَّ﴾، قال كثيرٌ من العلماء منهم ابنُ عباس وطائفةٌ من السلف، وجماعاتٌ من الخلف: هذه في البائن، إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضعَ حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواءٌ كانت حاملاً أو حائلاً.

وقال آخرون: بل السياق كُلُّه في الرجعيات، وإنما نصَّ على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعيةً، لأن الحمل تطولُ مُدَّته غالباً، فاحتيج إلى النصِّ على وجوب الإنفاق إلى الوضع، لئلا يُتوهَّم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مُدَّة العِدَّة.

ثم اختلف العلماءُ: هل النفقة له بواسطةِ الحَمل، أو للحمل وحده؟ على قولين مَنصُوصَين عن الشافعيِّ وغيره، ويتفرَّع عليها مسائل مذكورةٌ في علم الفروع.

وقولُه: ﴿فإن أرضعنَ لكُم﴾، أي: إذا وَضَعن حملهُنَّ وهن طوالق فقد بِنَّ بانقضاءِ عِدَّتهنَّ، ولها حينئذ أن تُرضِعَ الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تُغذِّيه باللِّبَأ ـ وهو: باكورةُ اللبنِ الذي لا قِوامَ للولد غالباً إلا به. فإن أرضعت استحقَّت أُجرةَ مثلها، ولها أن تُعاقِد أباه أو وَلِيَّه على ما يتفقان عليه من أُجرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن أرضعنَ لكم فآتوهُنَّ أجورهُنَّ﴾.

وقولُه: ﴿وأتمِرُوا بينكُم بمعرُوفٍ﴾، أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعرُوفِ، من غير إضرارٍ ولا مُضارَّةٍ، كما قال في سورة البقرة: ﴿لا تُضارَّ والدةٌ بولدها ولا مولودٌ له بولده﴾.

وقولُه: ﴿وإن تعاسرتُم فستُرضِعُ له أُخرَى﴾، أي: وإن اختلف الرجلُ والمرأةُ فطلبت المرأةُ في أجرةِ الرَّضاع كثيراً ولم يُجبها الرجلُ إلى ذلك، أو بَذَل الرجلُ قليلاً ولم تُوافِقه عليه، فليسترضِعْ له غيرَها. فلو رضِيت الأُمُّ بما استؤجِرت عليه الأجنبيَّةُ فهي أحقُّ بولدها.

وقولُه: ﴿لِيُنفِق ذو سَعَةٍ من سَعَتِه﴾، أي: لِيُنفق على المولود والدُه أو وليُّه، بحسب قُدرته، ﴿ومن قُدِر عليه رِزقُه فَلْيُنفِق مما آتاه الله لا يُكلِّف الله نفساً إلا ما آتاها﴾، كقوله: ﴿لا يُكلِّف الله نفساً إلا وُسعَها﴾.

قال ابنُ جَرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا حَكَّام، عن أبي سِنانٍ قال: سأل عمرُ بنُ الخطاب عن أبي عُبيدَةَ، فقيل: إنه يلبَس الغليظَ من الثِّياب، ويأكُل أخشَن الطعام. فبعث إليه بألف دينارٍ، وقال للرسول: انظر ما يصنَعُ بها إذا هو أخذها: فما لبث أن لَبِس اللَّيِّن من الثياب، وأكل أطيبَ الطَّعام، فجاء الرسولُ فأخبره، فقال: رحمه الله، تأوَّل هذه الآية: ﴿لِيُنفِق ذو سَعَةٍ من سَعَتِه ومن قُدِر عليه رزقُه فلْيُنفِق مما آتاه الله﴾[1].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا هاشم بن مَرْثَدٍ الطبراني، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، أخبرني أبي، أخبرني ضَمْضَمُ بن زُرعَةَ، عن شُريح بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعريِّ ـ واسمه الحارث ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثة نفرٍ كان لأحدهم عشرةُ دنانير فتصدَّق منها بدينار وكان لآخر عَشْرُ أواقٍ، فتصدَّق منها بأوقية. وكان لآخر مائة أوقية، فتصدَّق منها بعشر أواقٍ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: هم في الأجر سواءٌ، كلٌّ قد تصدَّق بعُشرِ ماله، قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِق ذو سَعَةٍ من سَعَتِه﴾»[2]. هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه.

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/١٤٩.

(٢) المعجم الكبير ٣/٣٩٢.

وقوله: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾. وعدٌ منه تعالى، ووعدُه حقٌّ، وهو لا يُخلِفُه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً * إنَّ مع العُسر يسراً﴾. وقد روى الإمام أحمدُ حديثاً يحسن أن نذكُره ها هنا، فقال:

حدثنا هشيمُ بن القاسم، حدثنا عبدُ الحميدِ بن بَهرام، حدثنا شهرُ بن حوشب قال: قال أبو هُريرة: بينما رَجُلٌ وامرأةٌ له في السلف الخالي لا يقدِران على شيءٍ، فجاء الرجلُ من سفره، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مسغبةٌ شديدةٌ، فقال لامرأته: عندكِ شيء؟ قالت: نعم، أبشِرْ، أتاك رزقُ الله. فاستحثّها فقال: ويحكِ! ابتغي إن كان عندك شيء. قالت: نعم، هُنيهةً ـ ترجو رحمة الله ـ حتى إذا طال عليه الطُّوَى[1] قال: ويحكِ! قومي فابتغي إن كان عندكِ شيءٌ فأتيني به، فإني قد بَلغتُ[2] وجُهدتُ. فقالت: نعم، الآن يَنضج التنورُ فلا تعجلْ. فلما أن سكت عنه ساعةً وتحيّنت أن يَقول لها، قالت من عند نفسها: لو قمتُ فنظرتُ إلى تنّوري؟ فقامتْ فنظرت إلى تنّورها ملآن جُنوبَ الغَنَم، ورحَيَيْها تطحَنان، فقامت إلى الرحى فنفضتها، واستخرجت ما في تنورها من جُنوبِ الغَنَم.

قال أبو هُرَيْرة: فوالذي نفسُ أبي القاسم بيَدِه، عن قول محمد ـ ﷺ ـ: «لو أخذت ما في رَحَيَيْها ولم تنفضها لَطَحَنتها إلى يوم القيامة»[3].

وقال في موضعٍ آخر: حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو بكر، عن هِشَام، عن محمد ـ هُو ابن سيرينَ ـ عن أبي هُرَيْرَةَ قال: دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجةِ خَرَجَ إلى البَرِّيَّةِ، فلما رَأت امرأته قامت إلى الرَّحى فوضعتها، وإلى التنور فسجرته[4]، ثم قالت: اللهم ارزُقنا. فنظرت، فإذا الجَفْنةُ قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنورِ فوجدته مُمتلئاً، قال: فرجع الزوجُ قال: أصبتُم بعدي شيئاً؟ قالت امرأته: نَعَم، من ربِّنا. قام إلى الرَّحى، فذكر ذلك للنبي ـ ﷺ ـ: فقال النبي ـ ﷺ ـ: «أما إنه لو لم ترفعها لم تَزَل تَدور إلى يوم القيامة»[5].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى مُتوعِّداً لمن خالفَ أمره، وكذَّب رُسُلَه، وسَلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حَلَّ بالأمم السالفةِ بسببِ ذلك، فقال: ﴿وكأيِّن من قريةٍ عَتت عن أمر ربِّها ورُسُله﴾، أي: تمرَّدت وطغت واستكبرت عن اتِّباع أمْرِ الله ومتابعة رسله، ﴿فحاسبناها حساباً شديداً وعذَّبناها عذاباً نُكراً﴾، أي: منكراً فظيعاً. ﴿فذاقت وَبالَ

(١) في النسخ: الطول. والمثبت من المسند، والطَّوَى: خُلُوُّ البطن.
(٢) بَلغ فلان: جُهِد، فالعطف عطف تفسير، والجهد: المشقة والتعب.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٤٢١.
(٤) سجر التنور: ملأه وقوداً وأحماه.
(٥) مسند الإمام أحمد: ٢/٥١٣.

أمرِها﴾، أي: غِبَّ مُخَالفتها، وندِمُوا حيث لا ينفعُ الندمُ، ﴿وكان عاقبةُ أمرِها خُسراً * أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً﴾، أي: في الدارِ الآخرةِ، مع ما عَجَّل لهم في الدنيا.

ثم قال بعد ما قصَّ من خَبَر هؤلاءِ: ﴿فاتقوا الله يا أُولي الألباب﴾، أي: الأفهام المُستقيمة، لا تكونُوا مثلهم فَيُصيبَكم ما أصابَهُم يا أُولي الألبابِ، ﴿الذين آمنوا﴾، أي: صدَّقوا بالله ورسله، ﴿قد أنزل الله إليكم ذِكراً﴾، يعني القرآن. كقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

وقولُه: ﴿رسُولاً يتلُو عليكم آياتِ الله مُبَيِّناتٍ﴾، قال بعضهم: ﴿رسُولاً﴾ منصوبٌ على أنه بَدَلُ اشتمالٍ ومُلابسةٍ، لأن الرسولَ هو الذي بَلَّغ الذِكْرَ. وقال ابنُ جرير: الصوابُ أن الرسول ترجمةٌ عن الذِّكر، يعني تفسيراً له[1]، ولهذا قال: ﴿رسُولاً يتلُو عليكم آياتِ الله مُبَيِّناتٍ﴾، أي: في حالِ كونها بيِّنة واضحةً جليَّةً، ﴿ليخرجَ الذين آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ من الظلماتِ إلى النُّورِ﴾، كقوله: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتُخرج الناس من الظُّلماتِ إلى النُّور﴾. وقال تعالى: ﴿الله وليُّ الذين آمنوا يُخرجُهم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾، [[2] أي: من ظُلُماتِ الكُفرِ والجَهلِ إلى نورِ الإيمانِ والعلم. وقد سَمَّى الله تعالى الوحي الذي أنزله نُوراً؛ لما يحصُلُ به من الهُدَى، كما سَمَّاه رُوحاً، لما يحصُلُ به من حياةِ القُلُوبِ، فقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرِنا ما كُنتَ تدرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نُوراً نهدِي به من نشاءُ من عبادنا وإنَّك لتهدِي إلى صِراطٍ مستقيم﴾[2]].

وقولُه: ﴿ومن يُؤمِن بالله ويَعمل صالحاً يُدخِله جناتٍ تجرِي من تحتها الأنهارُ خالدِين فيها أبداً قد أحسَن الله له رِزقاً﴾. قد تقدم تفسيرُ مثل هذا غير مَرَّة، بما أغنى عن إعادته.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قُدرته التامَّة وسلطانه العظيم، ليكونَ ذلك باعثاً على تعظيم ما شَرَع من الدين القويم: ﴿الله الذي خلق سبعَ سمواتٍ﴾، كقوله إخباراً عن نُوح أنه قال لقومه: ﴿ألم تَرَوا كيف خلق الله سبعَ سمواتٍ طباقاً﴾، وقال تعالى: ﴿تُسبِّح له السمواتُ السبعُ والأرضُ ومَن فيهنَّ﴾.

وقولُه: ﴿ومِنَ الأرضِ مثلَهُنَّ﴾، أي: سبعاً أيضاً، كما ثبت في الصحيحَين: «مَن ظلم قِيدَ شِبرٍ من الأرض طُوِّقَه من سَبعِ أرَضِين»[3]. وفي صحيح البخاري: «خُسِفَ به إلى سبع أرَضين». وقد ذكرتُ طُرُقَه وألفاظه وعَزْوَه في أول «البداية والنهاية»[3] عند ذكر خَلْقِ الأرض، ولله الحمدُ والمنَّةُ. ومَن حَمَل ذلك على سبعةِ أقاليم فقد أبعدَ النُّجعةَ، وأغرقَ في النَّزعِ، وخالفَ القرآنَ والحديثَ بلا مُستَنَدٍ. وقد تقدَّم في «سورة الحديد» عند قوله: ﴿هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ﴾ ذكرُ الأرَضين السبع، وبُعدُ ما بينهنَّ، وكثافةُ كلِّ

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/١٥٢، ويعني بالترجمة البدل.

(٢ ـ ٢) ساقط من بعض النسخ

(٣) فتح الباري، كتاب المظالم ٥/١٠٣، وكتاب بدء الخلق ٦/٢٩٢ ـ ٢٩٣ ومسلم، كتاب المساقاة ٣/١٢٣٠ ـ ١٢٣٢، والبداية والنهاية ١/١٦. وقِيدَ شِبْرٍ: قدر شبر

وحدة منهن خمسمائة عام. وهكذا قال ابنُ مسعود وغيره، وكذا الحديثُ الآخر: «ما السموات السبعُ وما فيهن وما بينهن، والأرضون السبع وما فيهنّ وما بينهنّ في الكرسيّ، إلا كحلقةٍ مُلقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ»[1].

وقال ابنُ جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا وكيعٌ، حدثنا الأعمشُ، عن إبراهيم بن مُهَاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿سبع سمواتٍ ومن الأرض مثلهنّ﴾، قال: لو حدَّثتُكم بتفسيرها لكفرتُم، وكفرُكم تكذيبكم بها[2].

وحدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يعقوبُ بن عبد الله بن سعد القُمّي الأشعريُّ، عن جعفر بن أبي المُغيرة الخُزاعيِّ، عن سعيد بن جُبير قال: قال رجلٌ لابن عباس: ﴿الله الذي خَلَق سبع سمواتٍ ومن الأرض مثلهنّ﴾... الآية، فقال ابن عباس: ما يُؤمنك أن أُخبرَك بها فتكفر[2].

وقال ابنُ جرير، حدثنا عمرو بن علي ومحمد بن المُثنّى قالا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبة، عن عَمرو بن مُرّة، عن أبي الضُّحى، عن ابن عبّاسٍ في هذه الآية: ﴿الله الذي خَلَق سبعَ سمواتٍ ومن الأرض مثلهنّ﴾، قال عَمرو: قال: في كلّ أرضٍ مثلُ إبراهيم ونحوُ ما على الأرض من الخَلْق. وقال ابنُ المُثنّى في حديثه: في كل سماءٍ إبراهيمُ[2].

وقد روى البيهقيُّ في كتاب «الأسماء والصفات» هذا الأثرَ عن ابن عباس بأبسطَ من هذا، فقال:

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أحمد بن يعقوب، حدثنا عُبَيد بن غَنّام النخعيُّ، أخبرنا علي بن حكيم، حدثنا شَريكٌ، عن عطاءِ بن السائب، عن أبي الضُّحى، عن ابن عباس أنه قال: ﴿الله الذي خَلَق سبعَ سَمٰواتٍ ومن الأرضِ مِثلَهُنّ﴾، قال: سبعَ أرَضين، في كل أرضٍ نبيٌّ كنبيّكم، وآدمُ كآدَمَ، ونوحٌ كنوحٍ، وإبراهيمُ كإبراهيمَ، وعيسى كعيسى[3].

ثم رواه البيهقي من حديث شُعبَة، عن عَمرو بن مُرّة، عن أبي الضُّحى، عن ابن عباس في قول الله عزّ وجلّ: ﴿الله الذي خَلق سبعَ سمواتٍ ومن الأرض مثلهُنّ﴾، قال: في كلّ أرضٍ نحوُ إبراهيمَ عليه السلامُ.

ثم قال البيهقيُّ: إسنادُ هذا عن ابن عباس صحيحٌ، وهو شاذ بمرّةٍ، لا أعلَمُ لأبي الضحى عليه مُتابِعاً، والله أعلم[4].

قال الإمامُ أبو بكر عبدُ الله بنُ محمّدِ بن أبي الدُّنيا القُرَشيُّ في كتابه «التفكّر والاعتبار»:

حدَّثني إسحاق بن حاتم المدائني، حدثنا يحيى بن سُلَيم، عن عثمان بن أبي دَهْرَش قال: بَلَغني أن رسول الله ـ ﷺ ـ انتهى إلى أصحابه وهم سُكوتٌ لا يتكلّمون، فقال: ما لكم لا تَتكلّمون؟ فقالوا: نتفكّر في خلق الله عزّ وجلّ. قال: فكذلك فافعلوا، تفكّروا في خلْقِه ولا تفكروا فيه، فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاءَ، نُورُها بياضُها[5]ـ أو قال: بياضُها[5] نورُها ـ مسيرةَ الشمس أربعينَ يوماً، بها خلْقٌ من خلق الله لم يَعصُوا الله

---

(١) تقدم عند تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/١٥٣

(٣) الأسماء والصفات ٢/١٣١

(٤) الأسماء والصفات ٢/١٣١ ـ ١٣٢.

(٥) في مخطوطة الأزهر: ساحتها

طَرفةَ عَينٍ قطُّ. قالوا: فأينَ الشيطانُ عنهم؟ قال: ما يدْرُون خُلق الشيطانُ أم لم يخلق؟ قالوا: أمن ولد آدم؟ قال: وما يَدْرُون خُلِق آدمُ أم لم يُخلَق؟

وهذا حديثٌ مُرسَلٌ، وهو مُنكر جدًّا، «وعثمانُ بن أبي دَهْرَشٍ ذكرَه ابن أبي حاتم في كتابه فقال: «روى عن رجُل من آل الحكم بن أبي العاصِ، وعنه سُفيان بن عُيينَة، ويحيى بن سُليم الطائفي، وابن المبارك، سَمِعتُ أبي يقول ذلك»[1].

آخرُ تفسيرِ سورةِ الطلاقِ

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٤٩/٦.

تفسير

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

وهي مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ
وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ
وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن
تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن
يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾

اختُلف في سَبَب نزول صَدْر هذه السورة، فقيل: نَزَلت في شأن مارِيَة، وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ قد حَرَّمها، فنزل قوله: ﴿يا أيها النبيُّ لم تُحَرِّم ما أحلَّ الله لك تَبْتَغِي مرضاةَ أزواجِكَ﴾.. الآية.

قال أبو عبد الرحمن النَّسائي: أخبرنا إبراهيم بن يونُس بن محمد، حدثنا أبي، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن ثابت، عن أنس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كانت له أمة يَطَؤها، فلم تَزَل به عائشةُ وحفصةُ حتى حَرَّمها، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أيها النبيُّ لم تُحَرِّم ما أحلَّ الله لك﴾... إلى آخرِ الآيةِ[1].

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء، وفي التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١/١٢٩. وأخرجه الحاكم وصححه في كتاب التفسير ٢/٤٩٣ بإسناده إلى ثابت.

وقال ابن جرير: حدثني ابنُ عبدِ الرحيم البَرْقيُّ، حدثنا ابنُ أبي مرْيَم، حدثنا أبو غسَّان، حدثني زيدُ بن أسلمَ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أصابَ أمَّ إبراهيمَ في بيتِ بعضِ نسائه، فقالت: أيْ رسولَ الله، في بَيْتي وعلى فِرَاشي؟! فجعلها عليه حراماً. فقالت: أيْ رسولَ الله، كيف تُحَرِّم عليك الحلالَ؟ فحلف لها بالله لا يُصِيبُها. فأنزل الله: ﴿يا أيها النبيُّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لك﴾، قال زيدٌ: فقولُه: «أنت عليَّ حَرَامٌ» لغوٌ[1]. وهكذا روى عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه.

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا يونُس، أخبرنا ابنُ وهبٍ[2]، عن مالك، عن زيدِ بن أسلَمَ، قال: قال لها: «أنت عليَّ حرام، ووالله لا أطؤكِ».

وقال سفيانُ الثوريُّ وابنُ عُلَيَّة، عن داودَ بنِ أبي هندٍ، عن الشعبيِّ، عن مَسْرُوقٍ قال: آلى رسولُ الله ـ ﷺ ـ وحَرَّم، فعُوتِبَ في التحريمِ، وأُمِرَ بالكفَّارة في اليمين؛ رواه ابنُ جَرير. وكذا رُوِي عن قتادةَ، وغيره، عن الشعبيِّ، نفسه. وكذا قال غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ، منهم الضحاكُ، والحسنُ، وقتادةُ، ومقاتلُ بن حَيَّان، ورَوَى العوفيّ، عن ابن عباس القصَّةَ مُطوَّلةً.

وقال ابنُ جرير: حدثنا سعيد بن يحيى، حدثنا أبي، حدثنا محمدُ بن إسحاق، عن الزُّهريِّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، قال: قلتُ لِعُمَر بن الخطاب: من المرأتان؟ قال: عائشةُ وحفصةُ. وكان بدءُ الحديثِ في شأنِ أمِّ إبراهيم القِبطيَّة، أصابها النبيُّ ـ ﷺ ـ في بيت حفصةَ في نَوبتها، فوَجَدت حفصةُ، فقالت: يا نبيَّ الله، لقد جئتَ إليَّ شيئاً ما جئتَ إلى أحدٍ من أزواجِك في يَوْمِي؛ وفي دَوري، وعلى فراشي. قال: ألا ترضَين أن أحرِّمها فلا أقربها؟ قالت: بلى. فحَرَّمها وقال: لا تذكُري ذلك لأحد. فذكرته لعائشةَ، فأظهره الله عليه، فأنزل الله: ﴿يا أيها النبيُّ لِمَ تُحرِّم ما أحلَّ الله لك تبتغي مرضاةَ أزواجِك﴾... الآيات كُلُّها، فبلغنا أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كفر يَمِينه، وأصاب جاريَتَه[3].

وقال الهيثم بن كُلَيب في مُسنَده: حدثنا أبو قِلابَة عبدُ الملك بن محمد الرَّقاشي، حدثنا مُسلم بن إبراهيم، حدثنا جَريرُ بن حازم، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عُمَر، عن عُمَر قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ لحفصة: لا تُخبِري أحداً، وإنَّ أمَّ إبراهيمَ عليَّ حرامٌ. فقالت: أتُحرِّم ما أحلَّ الله لك؟ قال: فوالله لا أقْرَبُها. قال: فلم يَقْرَبها حتى أخبرت عائشةَ. قال: فأنزل الله: ﴿قد فَرَضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانكم﴾.

وهذا إسنادٌ صَحيح، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكتب الستَّة، وقد اختاره الحافظُ الضِّياء المقدسي في كتابه المُستخرَج[4].

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابنُ عُلَيَّة، حدثنا هشام الدَّستوائي قال: كَتَبَ إليَّ يحيى يُحدِّث عن يعلَى بن حَكيم، عن سعيد بن جُبَير: أنَّ ابن عباس كان يقولُ في الحَرَام: يَمينٌ يُكفِّرها. وقال ابن عباس: ﴿لقد كان لكم في رسولِ الله أُسوَةٌ حَسَنة﴾، يعني أن رسولَ الله حَرَّم جاريته فقال الله: ﴿يا

(١) تفسير الطبري ٢٨/١٥٥.
(٢) في تفسير الطبري ٢٨/١٥٦ بعده: وقال: قال ابن زيد، عن مالك.
(٣) تفسير الطبري ٢٨/١٥٨.
(٤) الدر المنثور ٨/٢١٦.

أيها النبيُّ لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك﴾ إلى قوله: ﴿قد فَرَضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانكم﴾، فكفَّر يمينه، فصيَّر الحَرَام يميناً[١].

ورواه البخاري عن مُعاذ بن فضالَة، عن هِشام ـ هو الدَّستوائي ـ عن يحيى ـ هو ابنُ أبي كَثير ـ عن ابن حَكيم ـ وهو يَعلى ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: في الحرام يمين تُكفَّر. وقال ابن عباس: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ﴾[١]. ورواه مُسلِمٌ من حديث هِشامٍ الدَّستوائيِّ به[١].

وقال النَّسائي: أخبرنا عبدُ الله بن عبد الصمد بن علي، حدثنا مَخْلَد ـ هو ابن يزيد ـ حدثنا سُفيان، عن سالم، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس قال: أتاه رجلٌ فقال: إني جعلتُ امرأتي عليَّ حراماً؟ قال: كَذَبْتَ، ليست عليك بحرام، ثم تلا هذه الآية: ﴿يا أيها النبيُّ لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك﴾، عليك أغلظُ الكفَّارات، عِتقُ رقَبةٍ. تفرَّد به النسائيُّ من هذا الوجه، بهذا اللفظ[٢].

وقال الطَّبرانيُّ: حدثنا مُحمَّد بن زَكَريَّا، حدثنا عبدُ الله بن رَجاء، حدَّثنا إسرائيلُ، عن مُسلم، عن مُجاهِدٍ، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿يا أيها النبيُّ لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك﴾، قال: حرَّم رسولُ الله ـ ﷺ ـ سُرِّيَّتَه[٣].

ومن ههنا ذَهَبَ من ذهب من الفقهاء ممَّن قال بوجوب الكفَّارة على من حرَّم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المُباحات، وهو مذهبُ الإمام أحمدَ وطائفةٍ. وذهب الشافعيُّ إلى أنه لا تجب الكفَّارةُ فيما عدا الزوجة والجارية، إذا حَرَّم عَيْنَيهما أو أطلق التحريمَ فيهما في قوله، فأما إن نوى بالتحريم طَلاقَ الزوجة أو عتق الأمة نَفَذَ فيهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الطِّهراني، أخبرنا حَفْصُ بن عُمَر العَدَني، أخبرنا الحكمُ بن أبانَ، أخبرنا عِكرِمَةُ، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآيةُ: ﴿يا أيها النبيُّ لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك﴾، في المرأة التي وَهَبت نفسها للنبي ﷺ.

وهذا قولٌ غريبٌ. والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العَسَل، كما قاله البخاري عند هذه الآية:

حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بنُ يوسفَ، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن عُبَيد بن عُمَير، عن عائشة قالت: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يشربُ عسلاً عند زينبَ بنتِ جَحش، ويمكُث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على: أيَّتنا دَخَلَ عليها فَلْتَقُلْ له: أكلتَ مَغافيرَ؟ إني أجدُ منك ريحَ مغافيرَ. قال: لا، ولكني كنتُ أشرب عسلاً عند زينبَ بنتِ جحشٍ، فلن أعودَ له، وقد حَلَفتُ لا تُخبِري بذلك أحداً[٤]. ﴿تبتغي مرضاةَ أزواجك﴾.

هكذا أوردَ هذا الحديثَ ها هنا بهذا اللفظ، وقال في كتاب الأيمانِ والنُّذور:

حدَّثنا الحسن بن محمد، حدثنا الحجَّاج، عن ابن جُرَيج قال: زَعَم عطاء أنه سَمِع عُبَيد بن عُمَير يقول: سمعتُ عائشةَ تزعُم أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يمكُث عند زينبَ بنت جحشٍ ويشرَبُ عندها عَسَلاً فتواصَيتُ أنا وحفصةُ أنْ أيَّتنا دخل عليها النبيُّ ـ ﷺ ـ فلْتَقُلْ: إني أجِدُ منك ريحَ مغافيرَ؛ أكلتَ مغافيرَ؟ فدخل على إحداهما

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/١٥٧، وفتح الباري، تفسير سورة التحريم ٨/٦٥٦، ولفظه «في الحرام يكفّر». ومسلم، كتاب الطلاق ٢/١١٠٠.

(٢) سنن النسائي، كتاب الطلاق ٦/١٥١، وأخرجه في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/٤١٥.

(٣) المعجم الكبير ١١/٨٦. والسُّرِّيَّة: الجارية المُتَّخذة للملك والجماع.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة التحريم ٨/٦٥٦.

لنبيُّ ـ ﷺ ـ فقالت ذلك له، فقال: لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعودَ له. فنزلت: ﴿يا أيُّها النبيُّ لم تحرِّم ما أحلَّ الله لك﴾، إلى: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾، لعائشة وحفصة، ﴿وإذ أسرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ لقوله: بل شربْتُ عسلاً. وقال إبراهيم بن موسى، عن هشام: «ولن أعود له، وقد حلفتُ، فلا تُخبري بذلك أحداً»(١).

وهكذا رَوَاه في كتاب الطلاق بهذا الإسناد، ولفظُه قريبٌ منه(١)، ثم قال: المغافير: «شبيه بالصَّمغ، يكون في الرِّمث فيه حَلاوةٌ، أغفرَ الرِّمثُ: إذا ظهر فيه. واحدها مُغفُور، ويقال: مَغافير». وهكذا قال الجوهري، قال: «وقد يكون المُغفُور أيضاً للعُشَر والثُّمام والسَّلم والطَّلْح». قال: «والرِّمْثُ، بالكسر: مرعىً من مراعي الإبل، وهو من الحَمْض». قال: والمُرفُطُ: «شَجَرٌ من العضاه يَنْضَحُ المغفور».

وقد رَوَى مُسلم هذا الحديثَ في كتاب «الطلاق» من صَحيحه، عن محمد بن حاتم، عن حَجَّاج بن محمد، عن ابن جُرَيج، أخبرني عطاءٌ، عن عُبَيد بن عُمَير، عن عائشة، به. ولفظه كما أورده البخاري في الأيمان والنذور(١).

ثم قال البُخاريُّ في كتاب الطلاق: حدثنا فَرْوةُ بن أبي المَغْراء، حدثنا علي بن مُسْهر، عن هِشَام بن عُرْوة، عن أبيه، عن عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُحِبُّ الحَلْواءَ والعَسل، وكان إذا انصرف من العصر دخلَ على نسائه، فيدنُو من إحداهنَّ. فدخل على حفصة بنت عُمر فاحتبَسَ أكثر ما كان يحتَبِسُ، فَغِرْتُ فسألتُ عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأةٌ من قومها عُكَّةً(٢) عَسَلٍ، فَسَقَتِ النبيَّ ـ ﷺ ـ منه شَرْبةً. فقلتُ: أما والله لنحتالَنَّ له. فقلتُ لسودةَ بنتِ زَمْعةَ: إنه سيدنُو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلتَ مَغافير؟ فإنه سيقولُ ذلك: لا. فقولي له: ما هذه الريحُ التي أجدُ؟ فإنه سيقولُ لكِ: سَقَتني حفصةُ شربةَ عسلٍ. فقولي: جَرَسَتْ نحلُه العُرفُطَ. وسأقول ذلك، وقُولي له أنتِ يا صفيةُ ذاك. قالت ـ تقولُ سَودةُ ـ: والله ما هو إلَّا أن قام على الباب، فأردتُ أن أُناديَه(٣) بما أمرْتني فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودةُ: يا رسولَ الله، أكلت مغافيرَ؟ قال: لا. قالت: فما هذه الريحُ التي أجدُ منك؟ قال: سَقَتني حفصةُ شربةَ عَسَلٍ. قالت: جَرَسَت نَحلُه العُرفُطَ. فلمَّا دار إليَّ قلتُ نحو ذلك، فلما دار إلى صَفيَّةَ قالت له مثلَ ذلك، فلما دار إلى حفصةَ قالت له: يا رسولَ الله، ألا أسقِيكَ منه؟ قال: لا حاجة لي فيه. قالت ـ تقولُ سَودَةُ ـ: والله لقد حَرَمْنَاه. قلت لها: اسكُتي(٤).

هذا لفظ البخاري: وقد رواه مسلم عن سُوَيد بن سعيد، عن علي بن مُسْهر، به. وعن أبي كُرَيب، وهارون بن عبد الله، والحسن بن بشر، ثلاثتُهم عن أبي أسامة حمَّاد بن أسامة، عن هِشام بن عُرْوَة(٥)، به. وعنده قالت: «وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَشْتدُّ عليه أن يُوجَد منه الريحُ». يعني الريحَ الخَبيثة، ولهذا قُلن له: «أكلتَ مَغافير»، لأنَّ ريحها فيه شيءٌ. فلما قال: «بل شربْتُ عَسلاً». قلن: جرَسَت نحلُه العُرفُطَ أي: رعت نحلُه شَجَر العُرفُطَ الذي صَمغهُ المَغافيرُ، فلهذا ظهر ريحُه في العَسَل الذي شربَه.

---

(١) فتح الباري، كتاب الأيمان والنذور ٥٧٤/١١، وكتاب الطلاق ٣٧٤/٩، ومسلم، كتاب الطلاق ١١٠٠/٢.
(٢) العكة: وعاء من جلد، للعسل والسمن.
(٣) يروى أيضاً: أُباديْه.
(٤) فتح الباري، كتاب الطلاق ٣٧٤/٩ ـ ٣٧٥.
(٥) مسلم، كتاب الطلاق ١١٠١/٢ ـ ١١٠٢.

قال الجوهري: جَرَسَتِ النحلُ العُرفُطَ إذا أكلته، ومنه قيل للنحل: جَوارِسُ، قال الشاعر:

تظَلُّ على الثَّمْراء منها جَوارِسُ

وقال: الجَرْس والجِرْس: الصوتُ الخفيُّ. ويقال: سمعت جَرْسَ الطير، إذا سَمِعتَ صوت مَناقيرها على شيءٍ تأكله، وفي الحديث: «فيَسْمَعون جَرْس طيرِ الجنّةِ». قال الأصمعي: كنت في مجلس شُعْبةَ قال: «فيسْمَعُون جَرْش طير الجنة»، بالشين، فقلت: «جرس»؟! فنظر إليَّ فقال: خُذُوه عنه، فإنه أعلم بهذا منا[(١)].

والغرضُ أنَّ هذا السِّيَاقَ فيه أن حفصةَ هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن خالته عائشةَ. وفي طريق ابن جُرَيج عن عطاء، عن عُبَيد بن عُمَير، عن عائشة أن زينب بنت جَحْش هي التي سَقَت العَسَل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه، فالله أعلم. وقد يقال: إنهما واقعتانِ، ولا بُعدَ في ذلك، إلا أن كونهما سببٌ لنزول هذه الآية فيه نظرٌ، والله أعلم. ومما يدل على أن عائشة وحفصة ـ رضي الله عنهما ـ هما المتظاهرتان الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ في مُسْنَده حيث قال:

حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عُمَر عن المرأتين من أزواج النبيِّ ـ ﷺ ـ اللَّتين قال الله تعالى: ﴿إن تتُوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبُكما﴾، حتى حَجَّ عُمَر وحَجَجتُ معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعَدَلت معه بالإداوة، فتبرَّز ثم أتاني، فسكبتُ على يدَيه فتوضَّأ، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، مَن المرأتان مِنْ أزواج النبيِّ ـ ﷺ ـ اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتُوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبُكما﴾؟ فقال عُمر: واعجباً لك يا ابن عباس ـ قال الزهري: كرِه ـ والله ـ ما سأله عنه ولم يكتُمه ـ قال: هي حفصةُ وعائشةُ. قال: ثم أخذ يسوقُ الحديثَ قال:

كنا ـ معشرَ قريش ـ قوماً نغلِبُ النساءَ، فلما قَدِمنا المدينةَ وجدنا قوماً تغلبهُم نساؤهم، فطَفِق نساؤُنا يتعلَّمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار [بني] أُميَّة[(٢)] بن زيد بالعَوالي. قال: فتغضَّبْتُ يوماً على امرأتي فإذا هي تُراجعُني، فأنكرتُ أن تُراجعَني، فقالت: ما تُنكِر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواجَ النبيِّ ـ ﷺ ـ لَيُراجعْنَه، وتهجُره إحداهُنَّ اليوم إلى الليل. قال: فانطلقتُ فدخلتُ على حفصةَ فقلت: أتُراجعين رسولَ الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلتُ: وتهجُره إحداكُنَّ اليومَ إلى الليل؟ قالت: نعم. قلتُ: قد خابَ مَن فعل ذلك منكُنَّ وخَسِرَ، أفتأمَنُ إحداكُنَّ أن يغضب الله عليها لِغضَب رسُوله، فإذا هي قد هَلَكت؟ لا تُراجعي رسولَ الله ولا تسألِيه شيئاً، وسَلِيني من مالي ما بدا لكِ، ولا يَغُرَّنَّكِ أن كانت جارتكِ هي أوْسَمُ وأحبُّ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ منكِ ـ يريد عائشةَ ـ قال. وكان لي جارٌ من الأنصار، وكنَّا نتناوبُ النزولَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ينزلُ يوماً وأنزلُ يوماً، فيأتيني بخبر الوَحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك. قال: وكُنَّا نتحدَّث أن غسَّانَ تُنعِلُ[(٣)] الخيلَ لتغزُونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاءً فضرب بابي ثم ناداني، فخرجتُ إليه فقال: حَدَث أمرٌ عظيمٌ فقلتُ: وما ذاك؟ أجاءت غسَّان؟ قال: لا، بل أعظمُ من ذلك وأطولُ! طلَّق رسول الله ـ ﷺ ـ نساءه. فقلت: قد خابت حفصةُ وخسِرت، قد

(١) الصحاح، رسم «جرس». والبيت لأبي ذؤيب، وعجزه:

مَرَاضِيعُ شُهْبُ الريشِ زُغْبٌ رِقابُها

والثَّمراء: جمع الثَّمرة، مثل الشَّجراء: جمع الشَّجرة.

(٢) عن المسند وفتح الباري، كتاب العلم ١/١٨٥.

(٣) أنعل الدابة ونعّلها: كسا حافرها أو خُفَّها ما يقيه. وقوله: تُنعِل الخيل كناية عن الاستعداد.

كنتُ أظنُّ هذا كائناً. حتى إذا صلَّيتُ الصبحَ شَدَدتُ عليَّ ثيابي ثم نزلتُ، فدخلتُ على حفصةَ وهي تبكي فقلت: أطلَّقَكُنَّ رسولُ الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المَشْرُبَة[1]. فأتيتُ غلاماً له أسود فقلتُ: استأذِن لِعُمَر. فدخل الغلامُ ثم خَرَجَ إليَّ فقال: ذكرتُك له فصَمت. فانطلقتُ حتى أتيتُ المِنْبر، فإذا عنده رهطٌ جُلُوس يبكي بعضُهم، فجلستُ قليلاً، ثم غلبني ما أجدُ، فأتيتُ الغلامَ فقلت: استأذِن لِعُمَر. فدخل ثم خرَج فقال: قد ذكرتُك له فصَمت. فخرجتُ فجلستُ إلى المنبر، ثم غلَبني ما أجدُ فأتيتُ الغلام فقلتُ: استأذِن لِعُمَر. فدخل ثم خرج إليَّ فقال: قد ذكرتُك له فصَمت. فولَّيت مدبراً فإذا الغلامُ يدعُوني فقال: ادخُل، قد أذِن لك. فدخلتُ فسلَّمتُ على رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا هو مُتَّكِئ على رَمْل[2] حصير ـ قال الإمام أحمد: وحدَّثنا يعقوبُ في حديثِ صالح: رُمَال[2] حصير قد أثَّر في جنبه ـ فقلت: أطلَّقتَ يا رسولَ الله نساءَك؟ فرفع رأسه إليَّ وقال: لا. فقلتُ: الله أكبرُ، لو رأيتَنا يا رسولَ الله وكنَّا معشرَ قريشٍ قوماً نَغلِبُ النساءَ، فلما قدِمنا المدينة وجَدنا قوماً تغلِبُهم نساؤُهم، فَطَفِق نساؤُنا يتعلَّمن من نسائهم، فَغَضِبتُ على امرأتي يوماً فإذا هي تُراجِعُني، فأنكرتُ أن تراجِعَني، فقالت: ما تُنكِر أن أُراجِعَك؟ فوالله إنّ أزواجَ النبي ـ ﷺ ـ لَيُراجِعنَه، وتَهجُره إحداهُنَّ اليومَ إلى الليل. فقلتُ: قد خابَ من فعلَ ذلك منكُنّ وخَسِر، أفتأمَنُ إحداكُنَّ أن يغضَبَ الله عليها لِغضَب رَسُوله، فإذا هي قد هَلَكتْ. فَتَبَسَّم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقلتُ: يا رسولَ الله، فَدَخلت على حفصةَ فقلتُ: لا يغُرَّنَّكِ أن كانَت جارَتُك هي أوسَمَ وأَحبَّ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ منك. فتَبسَّم أخرى، فقلتُ: أستأنِسُ[3] يا رسولَ الله. قال: نعم. فجلستُ فرفعتُ رأسي في البيت، فوالله ما رأيتُ في البيت شيئاً يَرُدُّ البصر إلا أَهَبَة[4] ثلاثة. فقلت: ادعُ الله ـ يا رسولَ الله ـ أن يُوَسِّع على أُمَّتك، فقد وَسَّع على فارسَ والرومِ وهم لا يعبدُون الله. فاستوى جالساً وقال: أفي شَكٍّ أنتَ يا ابنَ الخطاب؟ أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيِّباتُهم في الحياة الدنيا. فقلت: استغفِر لي يا رسولَ الله. وكان أقسم ألا يدخل عليهنَّ شهراً، من شِدَّةِ مَوجِدته عليهنَّ حتى عاتبه الله عزَّ وجلَّ[5].

وقد رَواه البُخاري ومسلمٌ والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ، من طُرُقٍ، عن الزُهريِّ، به[5]، وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عُبَيد بن حُنَين، عن ابن عباس، قال: مكثتُ سنةً أُريد أن أسأل عُمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له، حتى خَرَج حاجاً فخرجتُ معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق عَدَل إلى الأَرَاك[6] لحاجةٍ له، قال: فوقفتُ حتى فَرَغ، ثم سرتُ معه فقلت: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهَرَتا على النبي ﷺ؟.

---

(١) المشرَبة: الغرفة العالية تُضمّ رفوفها وتُصنع.

(٢) الرُمال: جمع رَمْل بمعنى مَرْمُول، أي منسوج، يقال: رمل الحصير إذا نسجه. وكأن الزمخشري يرى أن الرمال اسم لما رُمِل كالحُطام والرُكام: اسم لكل ما حُطِم ورُكِم.

(٣) استأنس الزائر: استأذن، طلب عُمر ـ رضي الله عنه ـ أن يأذن له الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في الحديث معه.

(٤) أَهَبَة بفتح الهاء والهمزة، ويجوز ضمها، كذا قال ابن حجر في الفتح ١١٧/٥، والذي في اللغة: أُهُبة، جمع إهاب، وهو الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدبغ، وهو جمع قليل.

(٥) رواية الزهري في فتح الباري، كتاب العلم ١/١٨٥، وكتاب المظالم ٥/١١٤ ـ ١١٦، وكتاب النكاح ٩/٢٧٨ ـ ٢٧٩، ومسلم في كتاب الطلاق ٢/١١١١ ـ ١١١٣، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة التحريم ١٢/٢٠٨ ـ ٢١٦، وأخرجه النسائي في كتاب الصوم ٤/١٣٧ ـ ١٣٨، وفي كتاب عشرة النساء من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزّي ٨/٤٧.

ورواية يحيى بن سعيد الأنصاري في فتح الباري، تفسير سورة التحريم ٨/٦٥٨، وكتاب النكاح ٩/٣١٧، وكتاب اللباس ١٠/٣٠١ ـ ٣٠٢، ومسلم، كتاب الطلاق ٢/١١٠٨ ـ ١١١١.

(٦) الأَرَاك: شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان، خوَّارة العود، يُستاك بفروعها، وقوله «لحاجة له»، كناية عن التبرُّز.

هذا لفظ البخاري. ولمسلم: من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾؟ قال: عائشة وحفصة. ثم ساق الحديث بطوله، ومنهم من اختصره.

وقال مسلم أيضاً: حدثني زهير بن حرب، حدثنا عمر بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمار، عن سماك بن الوليد أبي زميل، حدثني عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله ـ ﷺ ـ نساءه، دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى⁽¹⁾، ويقولون: طلق رسول الله ـ ﷺ ـ نساءه! وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم. فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة، ووعظه إياهما، إلى أن قال: «فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله ـ ﷺ ـ على أسكفة المشربة، فناديت فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله ﷺ». فذكر نحو ما تقدم، إلى أن قال: «فقلت: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، ونزلت هذه الآية، آية التخيير: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾، ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ فقلت: أطلقتهن؟ قال: لا. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر⁽¹⁾.

وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومقاتل بن حيان، والضحاك، وغيرهم ﴿وصالح المؤمنين﴾: أبو بكر وعمر ـ زاد الحسن البصري: وعثمان ـ وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وصالح المؤمنين﴾، قال: علي بن أبي طالب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين⁽²⁾ قال: أخبرني رجل ثقة يرفعه إلى علي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿وصالح المؤمنين﴾، قال: هو علي بن أبي طالب، إسناده ضعيف، وهو منكر جداً.

وقال البخاري: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا هشيم، عن حميد، عن أنس، قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ـ ﷺ ـ في الغيرة عليه، فقلت لهن: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾، فنزلت هذه الآية⁽³⁾.

وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن، منها في نزول الحجاب، ومنها في أسارى بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾⁽⁴⁾.

وقال ابن أبي حاتم، حدثنا الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء

---

(١) مسلم، كتاب الطلاق ٢/١١٠٥ ـ ١١٠٨.

(٢) في الجرح لابن أبي حاتم ٧/٢٢٠: محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة التحريم ٨/٦٦٠.

(٤) تقدم ذلك عند تفسير الآية ١٢٥ من سورة البقرة، ٨٣ من سورة النساء، ٩، ١٠، ٦٧ من سورة الأنفال، ١٤ من سورة المؤمنون، ٥٣ من سورة الأحزاب.

كان بين أُمّهات المؤمنين وبين النبيّ ـ ﷺ ـ فاستقريتهنّ(١)، أقولُ: لتكفُنّ عن رسولِ الله أو لَيُبدلنّه الله أزواجاً خيراً منكنّ، حتى أتيتُ على آخر أُمّهاتِ المؤمنين، فقالت: يا عُمَر، أما في رَسُولِ الله ما يعظُ نساءَه، حتى تعِظهُنّ؟! فأمسكتُ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿عسى ربُّه إن طلّقكُنّ أن يُبدله أزواجاً خيراً منكُنّ مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيّباتٍ وأبكاراً﴾.

وهذه المرأة التي ردّته عما كان فيه من وَعظِ النساء هي أمُّ سلمة، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري.

وقال الطبراني، حدثنا إبراهيمُ بن نائلةَ الأصبهانيّ، حدثنا إسماعيلُ البَجَليُّ، حدثنا أبو عَوانة، عن أبي يسار، عن الضحاك، عن ابن عبّاس في قوله ﴿وإذ أسرّ النبيُّ إلى بعض أزواجه حديثاً﴾، قال: دخلت حفصةُ على النبيِّ ـ ﷺ ـ في بيتها وهو يطأ ماريةَ، فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تُخبري عائشة حتى أُبشّرك ببشارة، فإن أباك يَلِي الأمرَ من بعدِ أبي بكر إذا أنا متُّ». فذهبَتْ حفصةُ فأخبرتْ عائشةَ، فقالت عائشةُ لرسول الله ـ ﷺ ـ: من أنبأكَ هذا؟ قال: ﴿نبّأنيَ العليمُ الخبيرُ﴾. فقالت عائشةُ: لا أنظر إليكَ حتى تُحرّم ماريةَ، فحرّمها، فأنزل الله: ﴿يا أيها النبي لم تُحرّم﴾(٢).

إسنادُه فيه نظرٌ، وقد تبيّن بما أوردناه تفسيرُ هذه الآياتِ الكريمات.

ومعنى قوله: ﴿مُسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ﴾ ظاهرٌ.

وقولُه: ﴿سائحاتٍ﴾، أي: صائماتٍ، قاله أبو هُرَيْرَةَ، وعائشةُ، وابنُ عباس، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بن جُبَير، وعطاءٌ، ومحمد بن كعب القُرَظي، وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ، وأبو مالك، وإبراهيم النَّخَعِيُّ، والحسنُ، وقتادةُ والضحّاكُ، والربيعُ بن أنس، والسُّدّي، وغيرُهم. وتقدّم فيه حديثٌ مرفوعٌ عند قولِه: ﴿السائحُونَ﴾ من سورة «براءة»، ولفظُه: «سياحةُ هذه الأمّةِ الصيام»(٣).

وقال زيدُ بن أسلَم، وابنُه عبد الرحمن: ﴿سائحاتٍ﴾، أي: مُهاجِراتٍ: وتلا عبدُ الرحمن: ﴿السائحُونَ﴾، أي: المهاجِرُون. والقولُ الأوّلُ أولى، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ثيّباتٍ وأبكاراً﴾، أي: مِنهُنّ ثيّباتٍ، ومنهنّ أبكاراً، ليكون ذلك أشهى إلى النّفوس، فإن التنوع يَبسُط النفسَ، ولهذا قال: ﴿ثيّباتٍ وأبكاراً﴾.

وقال أبو القاسم الطّبراني في مُعجَمه الكبير: حدثنا أبو بكر بن صدَقَة، حدثنا مُحمّد بن محمد بن مرزُوق، حدثنا عبْد الله بن أُمَيّة، حدّثنا عبد القُدّوس، عن صالح بن حَيّان، عن ابن بُريدة، عن أبيه: ﴿ثيّباتٍ وأبكاراً﴾ قال: وعد الله نبيَّه ـ ﷺ ـ في هذه الآية أن يُزوّجه بالثّيّب آسيةَ امرأة فِرْعَون، وبالأبكارِ مريمَ بنتَ عِمرانَ(٤).

وذَكَر الحافظُ ابنُ عساكرَ في ترجمةِ مريم ـ عليها السلامُ ـ من طريق سُوَيد بن سعيد، حدثنا محمدُ بن صالح ابن عمر، عن الضّحاك ومجاهد، عن ابن عمر قال: جاء جبريلُ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فمرّت(٥) خديجةُ

---

(١) أي: تتبّعتهن، يريد: تتبّع كلّ واحدة منهن يقول لها ذلك.

(٢) المعجم الكبير ١٢/١١٧.

(٣) الذي تقدم عند تفسير آية التوبة ١١٢، هو ما رواه أبو داود في سُنَنه بإسناده إلى أبي أُمامة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله». على أن هناك أحاديث أخرى، ولفظها: «السائحون هم الصائمون».

(٤) لم أجده فيما طبع من المعجم الكبير، والأثر في الدرّ المنثور ٨/٢٢٥ عن الطبراني وابن مردُويه.

(٥) في نسخة الأزهر: بموت. وما أثبتناه عن نسخة، والطبعات السابقة.

فقال: إن الله يُقرئها السلام، ويُبشِّرها ببيتٍ في الجنَّةِ من قصبٍ، بعيدٍ من اللهبِ، لا نصبَ فيه ولا صَخَب، من لؤلؤةٍ جوفاء، بين بيت مريم بنت عمران، وبيت آسية بنت مُزاحم.

ومن حديث أبي بكرٍ الهُذَليّ، عن عِكرمةَ، عن ابن عبَّاس: أن النبي ـ ﷺ ـ دخلَ على خديجة، وهي في الموت، فقال: «يا خديجة، إذا لقيتِ ضرائرك فأقرئيهنَّ منِّي السلام». فقالت: يا رسولَ الله، وهل تزوَّجتَ قبلي؟ قال: «لا، ولكن الله زوَّجني مريمَ بنتَ عِمرانَ، وآسية امرأة فِرْعونَ، وكلثم أختِ موسى». ضعيف أيضاً.

وقال أبو يَعْلى: حدثنا إبراهيم بن عرْعرَة، حدثنا عبد النور بن عبد الله، حدثنا يُونُس بن شُعَيب، عن أبي أمامة قال قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أعَلِمْتِ أن الله زوَّجني في الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون». فقلت: هنيئاً لك يا رسول الله[1].

وهذا أيضاً ضَعيفٌ، ورُوِي مُرْسَلاً عن أبي داودَ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨ ﴾

قال سُفيانُ الثَّوري، عن منصور، عن رجل، عن علي ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿قُوا أنفُسَكم وأهليكم ناراً﴾ يقول: أدِّبوهم، علِّموهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿قُوا أنفُسَكم وأهليكم ناراً﴾، يقول: اعملُوا بطاعةِ الله، واتَّقوا معاصي الله، ومُرُوا أهليكم بالذِّكر يُنْجيكم الله من النار.

وقال مجاهدٌ ﴿قُوا أنفُسَكم وأهليكم ناراً﴾، قال: اتقوا الله، وأوْصُوا أهليكم بتقْوى الله. وقال قتادة: يأمُرهم بطاعة الله، وينهاهُم عن معصيته، وأن يَقُوم عليهم بأمرِ الله، يأمُرهم به ويساعِدَهم عليه، فإذا رأيت لله معصيةً قَدَعتَهم[2] عنها وزجرتهم عنها.

وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حَقٌّ على المسلم أن يُعلِّم أهله من قرابته وإمائه وعَبيده ما فرض الله عليهم، وما نهاهُم الله عنه.

وفي معنى هذه الآية الحديثُ الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والتِّرمذي، من حديث عبد الملك بن الرَّبيع بن سَبْرة، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مروا الصبيَّ بالصلاة إذا بلغ سبعَ سنين، فإذا

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بإسناده إلى عبد النور بن عبد الله ٨/٣٠٩ وفيه: عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول لعائشة.

(٢) قدعه: كفه ومنعه. والأثر وما قبله في تفسير الطبري ٢٨/١٦٥ ـ ١٦٦.

بلغ عشر سنين فاضربُوه عليها»[١]. هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ»[١].

وروَى أبو داود، من حديث عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جدِّه، عن النبي ـ ﷺ ـ مثلَ ذلك[٢].

قال الفقهاءُ: وهكذا في الصوم؛ لِيكُونَ ذلك تمريناً له على العادة، لكي يَبلغ وهو مُستمِرٌّ على العبادة والطاعةِ ومجانبة المَعصية، وتَرْكِ المُنْكَر، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُه: ﴿وقودُها الناسُ والحِجارةُ﴾، وقودُها: أي حَطَبُها الذي يُلقَى فيها جُثَثُ بني آدم، ﴿والحجارةُ﴾، قيل: المرادُ بذلك الأصنامُ التي كانت تُعبَد لقوله: ﴿إنكم وما تعبُدون من دُونِ الله حَصَبُ جَهنم﴾.

وقال ابنُ مسعود، ومجاهدٌ، وأبو جَعفرٍ الباقرُ، والسُّدِّي: هي حجارةٌ من كبريت. زاد مجاهدٌ: أنتَنُ من الجِيفَةِ. وروَى ذلك ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ ثم قال:

حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن سنان المِنْقَرِيُّ، حدثنا عبد العزيز ـ يعني ابن أبي رَوَّاد ـ قال: بلَغني أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ تلا هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفُسَكم وأهليكم ناراً وقودُها الناسُ والحجارةُ﴾، وعنده بعضُ أصحابِه، وفيهم شيخٌ، فقال الشيخُ: يا رسولَ الله، حجارةُ جَهنَّم كحجارةِ الدُّنيا؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده لَصَخرةٌ من صَخرِ جَهنَّم أعظمُ من جبالِ الدُّنيا كُلِّها». قال: فوَقع الشيخُ مَغشياً عليه، فوضع النبيُّ ـ ﷺ ـ يدَه على فؤاده فإذا هُوَ حَيٌّ. فناداه قال: «يا شيخُ، قل: لا إلهَ إلا الله». فقالها، فبَشَّره بالجنةِ، قال: فقال أصحابُه: يا رسولَ الله، أمِن بينِنا؟ قال: «نعم، يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾». هذا حديثٌ مُرسَلٌ غريبٌ.

وقولُه: ﴿عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ﴾، أي: طباعُهم غليظة، قد نُزِعت من قلوبهم الرحمةُ بالكافرين بالله، ﴿شِداد﴾، أي: تركيبُهم في غاية الشدة والكثافة والمنظرِ المزعج، كما قال ابنُ أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبانَ، حدثنا أبي، عن عِكرِمة أنه قال: إذا وَصَل أول أهلِ النار إلى النارِ وَجَدوا على الباب أربعمائةِ ألفٍ من خَزَنة جهنَّم، سُودٍ وجوهُهم، كالحةٍ أنيابُهم، قد نَزع الله من قلوبهم الرحمةَ ليس في قلب واحدٍ منهم مثقالُ ذرَّةٍ من الرحمة، لو طُيِّر الطيرُ من مَنكِب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلُغَ مَنكِبه الآخر، ثم يَجِدون على الباب التسعةَ عشرَ، عرضُ صدرِ أحدِهم سبعُون خريفاً، ثم يَهوُون من بابٍ إلى بابٍ خمسَمائةِ سنةٍ، ثم يَجِدُون على كلِّ بابٍ منها مثلَ ما وجدوا على الباب الأوَّل، حتى يَنتهُوا إلى آخرِها.

وقولُه: ﴿لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرُون﴾، أي: مهما أمرهم به تعالى يبادرُوا إليه، لا يتأخرُون عنه طَرْفَةَ عينٍ، وهم قادِرُون على فِعله ليس بهم عجزٌ عنه. وهؤلاء هم الزبانيةُ عياذاً بالله منهم.

وقولُه: ﴿يا أيُّها الذين كَفَرُوا لا تعتذِرُوا اليومَ إنما تُجزَون ما كُنتُم تعمَلُون﴾، أي: يقال للكَفَرة يومَ القيامة: لا تَعتذِرُوا فإنه لا يُقبَل منكم، وإنما تُجزَون اليومَ بأعمالِكم.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا تُوبوا إلى الله توبةً نصُوحاً﴾، أي: توبةً صادقةً جازمةً، تمحُو ما قبلَها من السيِّئاتِ وتَلُمُّ شَعَثَ التائب وتجمَعُه، وتَكُفُّه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

قال ابنُ جرير: حدثنا ابن مُثَنَّى، حدثنا محمد، حدثنا شعبةُ، عن سِمَاك بن حَرب: سمعتُ النعمان بن

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٤٠٤، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٣٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) تفسير الطبري ٢٨/١٦٧.

بشير يخطب. سمعتُ عُمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقولُ: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا توبُوا إلى الله توبةً نصوحاً﴾، قال: يُذْنِبُ الذنبَ ثم لا يَرجِعُ فيه.

وقال الثوريُّ، عن سِماكٍ، عن النُّعمانِ، عن عُمَر قال: التوبةُ النصوحُ أن يَتُوبَ من الذنب ثم لا يعودُ فيه، أو لا يُرِيدُ أن يعودَ فيه[1].

وقال أبو الأحوص وغيرُه، عن سماكٍ، عن النُّعمانِ. سُئِل عُمَر عن التوبة النصُوحِ، فقال: أن يَتُوبَ الرجُل من العمل السيِّيء ثم لا يعود إليه أبداً.

وقال الأعمشُ، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبدِ الله: ﴿توبةً نَصُوحاً﴾، قال: يتوب ثم لا يعودُ.

وقد رُوِي هذا مرفوعاً فقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا علي بن عاصم، عن إبراهيم الهَجَري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «التوبةُ من الذنبِ أن يتوبَ منه ثم لا يعودَ فيه»[2].

تَفرّد به أحمدُ من طريق إبراهيم بن مسلم الهَجَرِيِ، وهو ضعيفٌ، الموقوفُ أصحُّ، والله أعلم.

ولهذا قال العلماءُ: التوبةُ النصوحُ هو أن يُقلِعَ عن الذنب في الحاضِر، ويَندَم على ما سَلَف منه في الماضي، ويَعزِم على ألّا يفعل في المستقبل. ثم إن كان الحقُّ لآدميٍّ ردّه إليه بطريقه.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عبد الكريم، أخبرني زياد بن أبي مَرْيَم، عن عبد الله بن مَعْقِل قال: دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال: أنتَ سَمِعت النبي ـ ﷺ ـ يقول: الندمُ توبةٌ؟ قال: نعم. وقال مَرّةً: نعم سَمِعته يقول: الندمُ توبةٌ[3].

ورواه ابنُ ماجَه، عن هِشَامِ بن عَمّار، عن سُفيانَ بن عُيينَة، عن عبدِ الكريم ـ وهو ابن مالك الجَزَرِيُّ ـ به[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفَة، حدثني الوليدُ بن بُكَير أبو خَبَّاب، عن عبد الله بن مُحمّد العَدَوِيّ[4]، عن أبي سِنانٍ البَصريِّ، عن أبي قِلابَةَ، عن زِرّ بن حُبَيش، عن أُبَيِّ بن كعبٍ قال: قيل لنا أشياءُ تكونُ في آخرِ هذه الأمّة عند اقتراب الساعةِ، منها: نكاحُ الرجلِ امرأتَه أو أمته في دُبُرِها، وذلك مما حرَّم الله ورسولُه، ويمقُت الله عليه ورسولُه. ومنها نكاحُ الرجلِ الرجلَ، وذلك مما حَرّم الله ورسولُه، ويمقُت الله عليه ورسولُه. ومنها: نكاحُ المرأةِ المرأةَ، وذلك مما حَرَّم الله ورسوله، ويمقُت الله عليه ورسوله. وليس لهؤلاءِ صلاةٌ ما أقاموا على هذا، حتى يَتوبوا إلى الله توبةً نَصُوحاً. قال زِرٌّ: فقلتُ لأُبَيِّ بن كعب: فما التوبةُ النصوحُ؟ فقال: سألتُ عن ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: «هو الندمُ على الذنبِ حينَ يَفْرُطُ منك، فتَستغفِرُ الله بندامتك عند الحاضر، ثم لا تعودُ إليه أبداً»[5].

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه، المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٤٩٥، والطبري ٢٨/ ١٦٧، وغير واحد، انظر الدر المنثور ٨/ ٢٢٧

(٢) مسند الإمام أحمد ١/ ٤٤٦.

(٣) مسند أحمد ١/ ٣٧٦، وابن ماجه، كتاب الزهد ٢/ ١٤٢٠.

(٤) في النسخ العدني والمثبت عن الجرح والتعديل، ترجمة الوليد بن بكير ٩/ ٢، وترجمة عبد الله بن محمد العدويّ ٥/ ١٥٦

(٥) أخرجه أيضاً ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان، الدر المنثور ٨/ ٢٢٧.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عبَّاد بن عَمْرو، حدثنا أبو عمرو بن العلاء، سمعت الحسن يقول: التوبةُ النصوحُ: أن تُبغض الذنبَ كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته.

فأما إذا حزم بالتوبة وصمَّم عليها فإنها تَجُبُّ ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصَّحيح: «الإسلامُ يَجُبُّ ما قبلَه، والتوبةُ تَجُبُّ ما قبلها»[1].

وهل من شرط التوبة النصُوح الاستمرارُ على ذلك إلى الممات، كما تقدَّم في الحديث وفي الأثر: «ولا يَعودُ فيه أبداً»، أو يكفي العزمُ على ألَّا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه ذلك الذنبُ بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدَّم، لعموم قوله عليه السلام: «التوبةُ تجبُّ ما قبلها»؟. وللأول أن يحتجَّ بما ثبت في الصحيح أيضاً: «من أحسَن في الإسلام لم يُؤاخَذ بما عَمِل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخِذ بالأوَّل والآخر»[2]. فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة فالتوبة بطريقِ الأَوْلى، والله أعلمُ.

وقولُه: ﴿عسى رَبكُم أن يُكَفِّر عنكم سيِّئاتكم ويُدخِلَكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾ و«عسى» من الله مُوجبة، ﴿يَوم لا يُخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معَه﴾، أي: ولا يُخزيهم معه يعني يوم القيامة، ﴿نورُهم يسعَى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ كما تقدم في سورة الحديد[3]. ﴿يقولُون ربَّنا أتمِمْ لنا نورَنا واغفِرْ لنا إنَّك على كُلِّ شيءٍ قديرٌ﴾، قال مجاهد، والضحاك، والحسن البصريُّ وغيرهُم: هذا يقُوله المؤمنون حين يرون يوم القيامةِ نورَ المنافقين قد طَفِئ.

وقال محمد بن نَصر المروزيُّ: حدثنا محمد بن مُقاتِل المَرْوَزيُّ، حدثنا ابنُ المبارك، أخبرَنا ابنُ لَهيعة، حدثني يَزيدُ بن أبي حَبيب، عن عبد الرحمن بن جُبير بن نُفَير، أنه سَمع أبا ذرٍّ وأبا الدَّرداء قالا: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أنا أول من يُؤذَن له في السُّجود يوم القيامة، وأوَّلُ من يُؤذَن له برفع رأسه فأنظر بين يديَّ فأعرفُ أمَّتي من بين الأمم، وأنظر عن يَميني فأعرف أُمَّتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرفُ أُمَّتي من بين الأمم». فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، وكيفَ تعرفُ أمَّتك من بينَ الأمم؟ قال: «غُرٌّ مُحجَّلُون من أثَر الوضوء، ولا يكونُ أحدٌ من الأمم كذلك غيرُهم، وأعرِفهم أنهم يُؤتَون كُتُبهم بأيمانهم، وأعرِفهُم بسيماهم في وُجُوهِهم من أثَر السُّجُود، وأعرِفهم بنُورِهم يسعَى بين أيديهم»[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاقَ الطالقاني، حدثنا ابنُ المبارك، عن يَحيى بن حسان، عن رجُل من بني كِنَانة قال: صَلَّيتُ خلفَ النبيِّ ـ ﷺ ـ عام الفتح فسَمِعتُه يقول: «اللَّهُمَّ لا تُخزِني يوم القيامة»[5].

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنفال، وخرَّجناه هنالك عن المسند ولفظه ٤/١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥: «... والهجرة تجبُّ ما كان قبلها». ونريد هنا أن مسلم أخرجه في كتاب الإيمان ١/١١٢، ولفظه: «الإسلام يهدمُ ما كان قبله، والهجرةُ تهدمُ ما كان قبلها».

(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب استتابة المرتدين ١٢/٢٦٥، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١١١. وقد تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنفال.

(٣) انظر تفسير الآية ٢٨ من سورة الحديد.

(٤) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٧٩ من سورة الإسراء، وأخرجناه هنالك عن مسند الإمام أحمد ٥/١٠٦. كما تقدم عند تفسير الآية ١٢ من سورة الحديد من رواية ابن أبي حاتم.

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/١٣٤

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ ﷺ ـ بجهاد الكُفَّر والمنافقين، هؤلاءِ بالسلاح والقتال، وهؤلاءِ بإقامةِ الحدودِ عليهم، ﴿واغلظ عليهم﴾، أي في الدنيا ﴿ومأواهم جهنَّم وبِئسَ المصير﴾، أي: في الآخرى.

ثم قال: ﴿ضرَب الله مثلاً للذين كفرُوا﴾، أي: في مُخالَطتِهِم المسلمينَ ومُعاشرَتهم لهم، أنَّ ذلك لا يُجدِي عنهم شيئاً، ولا ينفعُهم عن الله، إن لم يكن الإيمانُ حاصلاً في قلُوبهم، ثم ذكر المَثَل فقال: ﴿امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوط كانتا تحت عَبْدَيْن من عبادِنا صالحَين﴾، أي: نبيَّين رَسُولَين عندهما في صُحبتِهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويُضاجعانهما ويُعاشرانهما أشدَّ العشرة والاختلاط، ﴿فخانتاهُما﴾، أي: في الإيمان، لم يُوافِقاهما على الإيمان، ولا صَدَّقاهما في الرِّسالة، فلم يُجْدِ ذلك كُلُّه شيئاً، ولا دَفَع عنهما محذوراً، ولهذا قال: ﴿فلم يُغنيا عنهُما من الله شيئاً﴾، أي: لكُفرهما، ﴿وقيل﴾ أي: للمرأتين ﴿ادخُلا النارَ مع الداخلين﴾.

وليس المرادُ بقوله: ﴿فخانتاهُما﴾ في فاحشةٍ، بل في الدينِ، فإنَّ نساء الأنبياءِ معصُوماتٌ عن الوقُوع في الفاحشةِ، لِحُرمةِ الأنبياء، كما قدَّمنا في سُورَةِ النُّورِ.

قال سُفيان الثوري، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قَتَّةَ: سَمِعتُ ابن عباس يقولُ في هذه الآية ﴿فخانتاهما﴾، قال: ما زَنَتا، أما امرأةُ نُوحٍ فكانت تُخبِر أنه مجنونٌ، وأما خِيانَةُ امرأةِ لُوطٍ فكانت تَدُلُّ قومها على أضيافِهِ[(١)].

وقال العوفي، عن ابنِ عباسٍ قال: كانت خيانتُهما أنهما كانتا على غير دينهما فكانت امرأةُ نُوحٍ تطَّلِع على سِرِّ نوحٍ، فإذا آمن مع نُوحٍ أحدٌ أخبرت الجبابرة من قوم نُوحٍ به، وأما امرأةُ لوطٍ فكانت إذا أضاف لوطٌ أحداً أخبرت به أهلَ المدينةِ ممن يعمل السوء[(٢)].

وهكذا قال عِكرمةُ، وسعيدُ بن جُبَير، والضَّحَّاكُ، وغيرُهم.

وقد استدلَّ بهذه الآية الكريمة بعضُ العلماء على ضَعفِ الحديث الذي يأثره كثيرٌ من الناس: «مَن أكل مع مغفورٍ له غُفِر له» وهذا الحديث لا أصلَ له، وإنما يُروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبيَّ ـ ﷺ ـ في المنام فقال: يا رسول الله، أنت قلتَ: مَن أكل مع مَغفُورٍ له غُفِر له؟ قال: لا، ولكني الآن أقولُه.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهذا مَثَلٌ ضَرَبه الله للمؤمنين أنهم لا يَضرُّهم مخالطةُ الكافرين إذا كانُوا محتاجِين إليهم، كما قال

(١) أخرجه الحاكم وصححه، المستدرك ٢/٤٩٦، والطبري ٢٨/١٦٩ ـ ١٧٠، وغير واحد كما في الدر المنثور ٨/٢٢٨
(٢) أخرجه الطبري ٢٨/١٧٠

تعالى: ﴿لا يتَّخذِ المؤمنُون الكافرين أولياءَ من دُونِ المؤمنين وَمَن يفعل ذلك فليس من الله في شيءٍ إلا أن تتَّقوا منهم تُقاةً﴾.

قال قتادةُ: كان فِرعونُ أعتى أهلِ الأرض وأكفرَه[1]، فواللهِ ما ضرَّ امرأتَه كُفرُ زَوجِها حين أطاعت ربَّها لِتعلمُوا أن الله حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بِذَنبِه.

وقال ابنُ جَريرٍ: حدثنا إسماعيل بن حفص الأُبُلِّيُّ، حدثنا محمد بن جعفر، عن سُلَيمان التَّيمي، عن أبي عثمان النَّهدي، عن سَلمان قال: كانت امرأةُ فِرعَون تُعَذَّب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلَّتها الملائكة بأجنحتِها، وكانت ترى بيتَها في الجنة[2].

ثم رواه عن محمد بن عبيد[3] المحاربي، عن أَسباطِ بن مُحمَّد، عن سُلَيمان التيميِّ، به.

ثم قال ابنُ جَريرٍ: حدثني يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن هشام الدَّستَوائي، حدثنا القاسمُ بن أبي بَزَّةَ قال: كانت امرأة فِرْعون تسأل: مَن غلب؟ فيُقال: غَلَب موسى وهارونُ. فتقولُ: آمنتُ بربِّ موسى وهرون. فأرسل إليها فِرعَون فقال: انظروا أعظَم صخرةٍ تجِدُونها، فإن مَضَت على قولها فألقُوها عليها، وإن رَجعت عن قَولِها فهي امرأتُه. فلما أتَوها رفعت بَصَرها إلى السماء فأبصرت بيتَها في الجنَّة، فمضت على قولها، وانتُزِع روحُها، وأُلقِيت الصخرةُ على جَسَدٍ ليس فيه روحٌ.

فقولُها: ﴿ربِّ ابن لي عندَكَ بيتاً في الجنَّة﴾، قال العلماءُ: اختارتِ الجارَ قبل الدَّار. وقد وَرَد شيءٌ من ذلك في حديثٍ مَرفُوعٍ، ﴿ونجِّني من فِرعونَ وعمَلِه﴾، أي: خلِّصني منه، فإني أبرأ من عَمَله، ﴿ونجِّني من القوم الظالمين﴾. وهذه المرأةُ هي آسية بنت مُزاحِم، رضي الله عنها.

وقال أبو جَعفر الرازيُّ، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالِية قال: كان إيمانُ امرأةِ فرعونَ من قِبَلِ إيمان امرأة خازِن فرعون، وذلك أنها جَلَست تَمشُط ابنةَ فِرعَون، فوقع المُشطُ من يدها، فقالت: تَعِسَ من كفر بالله! فقالت لها ابنة فرعون: ولك ربٌّ غيرُ أبي؟ قالت: ربِّي وربُّ أبيك وربُّ كلِّ شيءٍ الله. فلطمتها بنتُ فِرعون وضَرَبتها، وأخبرت أباها، فأرسل إليها فِرعَونُ فقال: تَعبُدين ربًّا غيري؟ قالت: نعم، ربِّي وربُّك وربُّ كلِّ شيءٍ الله، وإيَّاه أعبدُ. فعذَّبها فِرعَونُ وأوتَدَ لها أوتاداً، فشدَّ رجلَيها ويدَيها وأرسل عليها الحيَّات، وكانت كذلك، فأتى عليها يوماً فقال لها: ما أنت مُنتَهيةٌ؟ فقالت له: ربِّي وربُّك وربُّ كلِّ شيءٍ الله. فقال لها: إني ذابحٌ ابنكِ في فيكِ إن لم تفعلي. فقالت له: اقضِ ما أنت قاضٍ. فذبح ابنها في فيها، وإنَّ رُوح ابنها بشَّرها فقال لها: أبشري يا أُمَّهْ فإن لكِ عند الله من الثواب كذا وكذا. فصبرت ثم أتى فِرعَونُ يوماً آخرَ فقال لها مثل ذلك، فقالت له مثل ذلك، فذبح ابنها في فيها، فبشَّرها رُوحه أيضاً، وقال لها: اصبري يا أُمَّه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا. قال: وسَمِعت امرأةُ فِرعَون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر، فآمنت امرأةُ فرعون، وقَبَض الله رُوح امرأةِ خازنِ فِرعَون، وكشَف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها في الجنَّة لامرأة فِرعَون حتى رأت، فازدادت إيماناً ويقيناً وتصديقاً، فاطَّلع الله فِرعَونَ على إيمانها، فقال للملأ: ما تعلمون من آسية بنت

(١) أي: وأكفرهم. وهذا أسلوب عربي فصيح، وقد خرَّجه النحاة على تقدير: وأكفر شيء، فلذا أفرد الضمير.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/١٧١.

(٣) في النسخ: عبيد بن محمد. والمثبت من تفسير الطبري، وتهذيب الكمال، ترجمة أسباط بن محمد ٢/٣٥٥.

مُراحم؟ فأتوا عليها، فقال لهم: إنها تعبدُ غيري. فقالوا له: اقتُلها. فأوتَد لها أوتاداً، فشدَّ يَدَيها ورجليها، فدعت آسيةُ ربَّها فقالت ﴿ربِّ ابن لي عندَك بيتاً في الجنة﴾. فوافق ذلك أن حَضرها فرعونُ. فضحكت حين رأت بيتها في الجنة فقال فرعون: ألا تعجبُون من جُنونها، إنا نُعذِّبها وهي تضحك! فقبض الله روحها، رضي الله عنها.

وقوله ﴿وَمَرْيَمَ ابنتَ عِمران التي أحصَنَت فَرْجَها﴾، أي: حفظته وصانته. الإحصان: هو العَفافُ والحُرِّيَّة ﴿فنفخنا فيه من رُوحنا﴾، أي: بواسطة المَلَك، وهو جبريل، فإن الله بَعثه إليها فتمثّل لها في صورة بَشرٍ سَوِيٍّ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلَت النفخةُ فولجَت في فرجها، فكان منه الحملُ بعيسى عليه السلام. ولهذا قال. ﴿فنفخنا فيه من رُوحنا وصَدَّقت بكلمات رَبِّها وكُتُبه﴾، أي: بقَدَرِه وشَرْعِه، ﴿وكانت من القانتين﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا داودُ بن أبي الفُرات، عن عِلْبَاء، عن عِكرِمَة، عن ابن عباس قال. خط رسولُ الله ـ ﷺ ـ في الأرض أربعةَ خُطوطٍ، وقال. أتدرُون ما هذا؟ قالوا: اللهُ ورسُوله أعلمُ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أفضلُ نساءِ أهل الجنة خديجةُ بنتُ خُوَيلد، وفاطمةُ بنتُ محمد، ومريمُ ابنةُ عِمران، وآسيةُ ابنةُ مُزاحِم امرأةُ فرعون[(١)]

وقد ثبت في الصحيحَين من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرّة، عن مُرّة الهمْدانيِّ، عن ابن موسى الأشعريِّ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «كَمَلَ من الرجالِ كثيرٌ، ولم يكمُل من النساءِ إلا آسيةُ امرأةُ فِرْعونَ، ومريمُ بنتُ عِمرانَ، وخَديجة بنتُ خُوَيلِدٍ، وإنَّ فضل عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعام»[(٢)].

وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث وألفاظَها والكلام عليها في قصّة عيسى ابن مَرْيَم ـ عليهما السلام ـ في كتاب «البداية والنهاية»[(٣)]. ولله الحمدُ والمنّةُ، وذكرنا ما وَرَد من الحديثِ من أنّها تكونُ هي وآسيةُ بنتُ مُزاحِم من أزواجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الجنة عند قوله: ﴿ثَيِّباتٍ وأبكاراً﴾.

آخر تفسير «سورة التحريم»، ولله الحمدُ والمنّةُ

(١) مسند الإمام أحمد ٢٩٣/١

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤٢ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.

(٣) انظر البداية والنهاية ٥٦/٢، ١٢٧/٣ ـ ١٢٨، ٩٦/٨.

تفسير

سُورَةِ المُلْكِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قال أحمدُ: حدثنا حَجَّاج بن محمد وابنُ جعفر قالا: حدثنا شُعبة، عن قتادة، عن عباس الجُشَمِيِّ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ سُورةً في القرآن ثلاثين آيةً شَفَعت لصاحبها حتى غُفِر له: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾»[1].

رَواه أهلُ السُّننِ الأربعة، من حديث شُعبَةَ، به. وقال الترمذيُّ: «هذا حديثٌ حسنٌ»[1].

وقد رَوى الطَّبَراني والحافظ الضياء المقدسي، من طريق سلّام بن مسكين، عن ثابت، عن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «سُورَةٌ في القرآنِ خاصَمَت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة ﴿تبارك الذي بيده الملكُ﴾»[2].

وقال التِّرمذِيُّ: حدثنا محمدُ بن عبد الملك بن أبي الشَّوارب، حدثنا يحيى بن مالك النُّكريُّ، عن أبيه، عن أبي الجَوزاء، عن ابن عبَّاسٍ قال: ضَرَبَ بعضُ أصحاب النبي ـ ﷺ ـ خِبَاءَهُ على قَبرٍ، وهو لا يحسبُ أنه قبرٌ، فإذا قبرُ إنسانٍ يقرأ سورةَ الملك حتى خَتمها، فأتى النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، ضربت خبائي على قبرٍ وأنا لا أحسبُ أنه قبرٌ، فإذا إنسانٌ يقرأ سُورة ﴿تبارَك﴾، حتى خَتَمها، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هي المانعة، هي المُنجيَةُ، تُنجيه من عذاب القبر». ثم قال: «هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي هُرَيْرَةَ»[3].

ثم رَوى التِّرمذي أيضاً من طريق لَيثِ بن أبي سُلَيم، عن أبي الزُّبَير، عن جابر: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان لا ينامُ حتى يقرأ ﴿الم * تنزيلُ﴾، و﴿تبارك الذي بيده المُلكُ﴾. وقال ليثٌ عن طاوسٍ: يفضُلان كل سورةٍ في القرآن بسبعين حسنةً[3].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٢٩٩، ٣٢١. وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٥٧، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/٢٠ ـ ٢١، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنِه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٠/١٢٩، وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب ٢/١٢٤٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في الدر المنثور ٨/٢٣١

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/١٩ ـ ٢٢

وقال الطبرانيُّ: حدثنا محمد بن الحسن[(١)] بن عجلانَ الأصبهاني، حدثنا سلمةُ بن شَبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لوددتُ أنها في قلب كل إنسانٍ من أمتي». يعني ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[(٢)].

هذا حديثٌ غريبٌ، وإبراهيمُ ضعيفٌ، وقد تقدَّم مثله في سورة ﴿يسٓ﴾[(٣)] وقد روى هذا الحديث عَبْد ابنُ حُمَيد في مسنده بأبسطَ من هذا فقال:

حدثنا إبراهيمُ بن الحكم، عن أبيه، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أُتحفُك بحديثٍ تفرحُ به؟ قال: بلى. قال: اقرأ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وعَلِّمها أهلَك وجميعَ وَلَدك وصبيانَ بيتِك وجيرانَك، فإنها المُنْجِيةُ والمجادِلة، تجادل ـ أو تخاصم ـ يوم القيامة عند ربِّها لقارئها، وتطلُب له أن يُنجيَه من عذابِ النار، ويُنجي بها صاحبها من عذابِ القبرِ. قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لوددْتُ أنها في قَلْب كلِّ إنسانٍ من أُمَّتي»[(٤)].

وقد روى الحافظ ابنُ عساكرَ في تاريخه، في ترجمة أحمدَ بن نصر بن زياد، أبي عبد الله القُرَشي النَّيسابوريِّ، المقرئِ الزاهدِ الفقيه، أحدِ الثقات الذين رَوَى عنهم البخاري ومسلم، لكن في غير الصحيحين، وروَى عنه الترمذي وابن ماجه وابن خُزيمة، وعليه تفقه في مذهب أبي عُبَيد ابنُ خُزَيمة[(٥)] وخَلقٌ سواهم، ساق بسنده من حديثه عن فُرَات بن السائب، عن الزُّهري، عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن رَجُلاً ممَّن كان قبلكم مات، وليس معه شيءٌ من كتاب الله إلاَّ ﴿تَبَارَكَ﴾، فلما وُضِع في حُفْرَتِه أتاه المَلَكُ فثارت السورةُ في وَجهه، فقال لها: إنكِ من كتاب الله، وأنا أكره مَساءتَكِ، وإني لا أملِكُ لكِ ولا له ولا لِنفْسِي ضرًّا ولا نفعاً، فإن أردتِ هذا به فانطَلِقي إلى الربِّ تبارك وتعالى فاشفَعِي له. فتنطلق إلى الربِّ فتقولُ: يا ربِّ، إن فلاناً عمد إليَّ من بين كِتابك فتَعلَّمني وتلاني أفتحرقه أنتَ بالنار وتُعذِّبه وأنا في جَوفه؟ فإن كنتَ فاعلاً ذاك به فامحُني من كتابك. فيقول: ألا أراكِ غضبتِ؟ فتقولُ: وحُقَّ لي أن أغضبَ. فيقولُ: اذهبي فقد وهبتُه لكِ، وشفَّعتُكِ فيه. قال: فتجيء فتَزْبُرُ المَلَك، فيخرج خاسفَ البال لم يَحْلَ[(٦)] منه بشيءٍ. قال: فتجيء فتَضع فاها على فيه، فتقول: مرحباً بهذا الفم، فربَّما تلاني، ومرحباً بهذا الصَّدرِ فربَّما وَعَاني، ومرحباً بهاتين القَدَمين فربَّما قامتا بي. وتُؤنسه في قبره مخافةَ الوحشةِ عليه».

قال: فلما حدَّث بهذا رسولُ الله ـ ﷺ ـ لم يبقَ صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا حُرٌ ولا عبدٌ، إلا تعلَّمها، وسمَّاها رسول الله ـ ﷺ ـ المُنْجِيَة[(٧)].

قلت: وهذا حديثٌ منكَر جداً، وفُرَات بن السائب هذا ضعَّفه الإمامُ أحمدُ، ويحيى بن مَعين، والبخاريُّ، وأبو حاتم، والدارَقُطنيُّ، وغير واحد. وقد ذكره ابن عساكر من وجه آخر، عن الزُّهريِّ، من قوله

---

(١) كذا في النسخ، وفي المعجم الكبير: الحسين.

(٢) المعجم الكبير ١١/٢٤١ ـ ٢٤٢، وانظر مجمع الزوائد ٧/١٢٧.

(٣) أخرجه هناك البزار في مفتتح سورة ﴿يسٓ﴾.

(٤) الدر المنثور ٨/٢٣١.

(٥) في بعض النسخ: ابن جريرية. وفي أخرى: ابن حريوية. والمثبت من تهذيب تاريخ دمشق، وتهذيب الكمال ١/٥٠٢ ـ ٥٠٣. وابن خزيمة هو الإمام العلم: محمد بن إسحاق بن خزيمة، المتوفى سنة ٣١١ هـ.

(٦) أي: لم يظفر بشيء.

(٧) تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٢/١٠٤ ـ ١٠٥.

مختصراً. وروى البيهقي في كتاب «إثبات عذاب القبر» عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً ما يشهدُ لهذا، وقد كتبناه في «كتاب الجنائز» من الأحكام الكبرى، ولله الحمدُ والمنّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ ﴾

يُمَجِّد تعالى نفسَه الكريمةَ ويُخبِرُ أنّه بيده الملكُ، أي: هو المتصرِّفُ في جميعِ المخلوقات بما يشاءُ لا مُعقِّبَ لِحُكْمِه، ولا يُسأل عما يفعَلُ، لِقهرِه وحِكْمته وعَدله. ولهذا قال: ﴿وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾.

ثم قال: ﴿الذي خَلَق الموتَ والحياةَ﴾، واستدل بهذه الآية مَن قال: إن الموت أمرٌ وُجوديٌّ لأنه مخلوقٌ. ومعنى الآية أنه أوجَد الخلائق من العَدم، لِيبلُوَهُم ويختبرهم أيُّهم أحسن عملاً؟ كما قال: ﴿كيف تكفُرون بالله وكنتُم أمواتاً فأحياكُم﴾، فسمَّى الحالَ الأول ـ وهو العدم ـ موتاً، وسمى هذه النشأةَ حياةً. ولهذا قال: ﴿ثم يُميتكم ثم يُحييكُم﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَة، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوليد، حدثنا خُلَيد، عن قتادةَ في قوله ﴿الذي خَلَق الموتَ والحياةَ﴾، قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله أذلَّ بني آدمَ بالموت، وجعل الدنيا دارَ حياةٍ ثم دارَ موتٍ، وجعل الآخرةَ دار جزاءٍ ثم دارَ بقاءٍ»[1]. ورواه معمرٌ، عن قتادةَ[1].

وقولُه: ﴿لِيبلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملاً﴾ أي: خيرُ عملاً، كما قال محمد بن عجلان. ولم يقل أكثرُ عملاً.

ثم قال: ﴿وهو العزيزُ الغفور﴾، أي: هو العزيزُ العظيمُ المنيعُ الجناب، وهو مع ذلك غفورٌ لمن تاب إليه وأنابَ، بعد ما عصاهُ وخالَفَ أمرَه، وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يَغفِرُ ويرحَمُ ويصفَحُ ويتجاوزُ.

ثم قال: ﴿الذي خَلَق سبعَ سمواتٍ طِباقاً﴾، أي: طبقةً بعد طبقةٍ، وهل هُنَّ متواصلاتٌ بمعنى أنهن عُلويّاتٌ بعضهُنَّ على بعضٍ، أو متفاصلات بينهُنَّ خلاءٌ؟ فيه قولان، أصحُّهما الثاني، كما دلَّ على ذلك حديثُ الإسراءِ وغيره.

وقولُه: ﴿ما ترَى في خَلْقِ الرحمن من تفاوُتٍ﴾، أي: بل هو مُصطَحِبٌ مستوٍ، ليس فيه اختلافٌ ولا تنافرٌ ولا مخالفة، ولا نقصٌ ولا عيبٌ ولا خَلَل. ولهذا قال: ﴿فارجِعِ البصرَ هل ترى من فُطُورٍ﴾، أي: انظر إلى السماءِ فتأمَّلها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خَلَلاً أو فُطوراً؟

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحّاكُ، والثوريُّ، وغيرُهم في قوله: ﴿فارجِعِ البصرَ هل ترَى من

(١) الدر المنثور ٨/٢٣٤، وأخرج الطبري رواية معمر في تفسيره ٢٩/١

فُطورٍ﴾، أي: شُقوقٍ. وقال السُّدي: ﴿هل تَرَى من فُطورٍ﴾، أي: من خُروق. وقال ابن عباس في رواية: ﴿من فُطورٍ﴾، أي: من وُهِيٍّ[1]. وقال قتادة: ﴿هل ترى من فطور﴾ أي: هل ترى خللًا يا ابن آدم؟.

وقوله: ﴿ثم ارجع البصرَ كرَّتين﴾، قال: مرَّتين. ﴿يَنقلِب إليك البصرُ خاسِئًا﴾. قال ابن عباس: ذليلًا. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ: صاغرًا. ﴿وهو حَسِيرٌ﴾، قال ابن عباس: يعني وهو كَلِيل. وقال مجاهد، وقتادةُ، والسُّدي: الحسيرُ: المنقطع من الإعياء.

ومعنى الآيةِ أنَّك لو كرَّرتَ البصر، مهما كرَّرتَ، لانقلب إليك، أي: لرجَع إليك البصرُ، ﴿خاسئًا﴾، عن أن يرى عيبًا أو خللًا، ﴿وهو حَسِير﴾، أي: كَلِيلٌ، وقد انقطع من الإعياء من كَثْرةِ التكرُّر، ولا يرى نقصًا.

ولمَّا نفى عنها في خَلْقِها النقصَ بيَّن كمالها وزينتها فقال: ﴿ولقد زَيَّنَّا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ﴾، وهي الكواكب التي وُضِعت فيها من السيَّارات والثَّوابِت.

وقوله: ﴿وجعلناها رُجومًا للشياطين﴾، عاد الضمير في قوله: ﴿وجعلناها﴾ على جنسِ المصابيح لا على عينِها، لأنه لا يُرمَى بالكواكب التي في السماء، بل بشُهُبٍ من دُونها، وقد تكون مُستمدَّةً منها، والله أعلم.

وقوله: ﴿وأعتدنا لهم عذابَ السَّعير﴾، أي: جعلنا للشياطين هذا الخزيَ في الدنيا، وأعتدنا لهم عذابَ السعير الأخرى، كما قال في أول الصَّافات: ﴿إنا زيَّنَّا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكبِ * وحفظًا من كلِّ شيطانٍ ماردٍ * لا يَسَّمَّعون إلى الملإِ الأعلى ويُقذَفون من كل جانبٍ * دُحُورًا ولهم عذابٌ واصِبٌ * إلا مَن خَطِف الخطفَةَ فأتبَعَهُ شهابٌ ثاقبٌ﴾.

قال قتادة: إنما خُلِقت هذه النجومُ لثلاثِ خِصالٍ: خَلَقها زينةً للسماءِ، ورُجُومًا للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها. فمن تأوَّل فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظَّه، وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به. رواه ابن جرير[2] وابن أبي حاتم.

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١ ﴾

يقولُ تعالى: وأعتدنا ﴿للذين كفروا بربِّهم عذابَ جهنَّم وبئسَ المصير﴾، أي: بئسَ المآلُ والمُنقلَبُ. ﴿إذا أُلقُوا فيها سَمِعوا لها شَهيقًا﴾، قال ابن جُرَيج: يعني الصياح[3]. ﴿وهي تفور﴾، قال الثوري: تغلي بهم كما يَغْلي الحَبُّ القليل في الماء الكثير.

وقوله: ﴿تكادُ تميزُ مِنَ الغيظ﴾، أي: تكادُ ينفصِلُ بعضُها من بعض، من شِدَّةِ غيظِها عليهم وحَنَقِها بهم، ﴿كُلَّما أُلقي فيها فوجٌ سألهم خزنتُها ألم يأتكم نذيرٌ * قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقلنا ما نزَّل الله من

---

(١) في نسخ وهاء، والمثبت من تفسير الطبري ٢/٢٩. ووُهِيٌّ: جمع وَهْيٍ، وهو الشق، ويجمع أيضًا على أوْهية.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/٣ ـ ٤.

(٣) أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج، الدر المنثور ٨/٢٣٥، وفي بعض النُّسَخ: قال ابن جَرير، بدل ابن جُرَيج، ولفظ الطبري غير هذا، انظر تفسيره ٢٩/٤.

شيءٍ إن أنتم إلا في ضلالٍ كبيرٍ﴾ يذكُر تعالى عدلَه في خلقه، وأنه لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحُجَّة عليه وإرسال الرسُول إليه، كما قال: ﴿وما كنا مُعذِّبين حتى نبعثَ رسُولاً﴾، وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاءُوها فُتحت أبوابها وقال لهم خزنتُها ألم يأتكم رُسلٌ منكم يتلون عليكم آياتِ ربِّكم ويُنذرُونكم لقاءَ يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقَّت كلمةُ العذاب على الكافرين﴾ وهكذا عادُوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامةُ، فقالوا: ﴿لو كُنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كُنَّا في أصحاب السَّعير﴾، أي: لو كانت لنا عقولٌ ننتفعُ بها أو نسمعُ ما أنزل الله من الحقِّ لما كُنَّا على ما كُنَّا عليه من الكُفر بالله والاغترارِ به، ولكن لم يكن لنا فهمٌ نعي به ما جاءت به الرسُل، ولا كان لنا عقلٌ يُرشدُنا إلى اتِّباعهم. قال الله تعالى: ﴿فاعترفُوا بذنبهم فسُحقاً لأصحاب السَّعير﴾.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتريِّ الطائيِّ قال: أخبرني من سَمِعه من رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لن يَهلك الناس حتى يُعذِروا من أنفسهم»[1].

وفي حديث آخر: «لا يدخلُ أحدٌ النار إلا وهو يعلمُ أن النار أولى به من الجنة».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عمَّن يخافُ مقام ربِّه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس، فينكفُّ عن المعاصي ويقومُ بالطاعات، حيث لا يراه أحدٌ إلا الله، بأنه له مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ، أي: يُكفَّر عنه ذُنوبه، ويُجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعة يُظِلُّهم الله في ظلِّ عرشِه يومَ لا ظلَّ إلا ظِلُّه»، فذكر منهم رجلاً دعته امرأةٌ ذات منصِب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدَّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شِمالُه ما تُنفق يمينه[2].

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار في مسنده: حدثنا طالوت بن عَبَّاد، حدثنا الحارث بن عُبَيد، عن ثابت، عن أنس قال: قالوا: يا رسولَ الله، إنا نكون عندكَ على حالٍ، فإذا فارقناك كُنَّا على غيره؟ قال: «كيف أنتم وربُّكم؟» قالوا: الله ربُّنا في السرِّ والعلانية. قال: «ليس ذلكم النفاق»[3].

لم يَرْوِه عن ثابتٍ إلا الحارثُ بن عُبَيد فيما نعلمُه[3].

ثم قال تعالى مُنَبِّهاً على أنه مُطَّلعٌ على الضمائر والسرائر: ﴿وأسِرُّوا قولكم أو اجهرُوا به إنه عليمٌ بذات الصُّدُور﴾، أي: بما خطر في القلوب، ﴿ألا يعلمُ من خَلَق﴾، أي: ألا يعلَم الخالقُ؟ وقيل: معناه: ألا يعلم الله مخلوقه؟ والأول أولى، لقوله، ﴿وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾.

ثم ذكر نِعمتَه على خَلْقِه في تسخيره لهم الأرضَ وتذليله إيَّاها لهم، بأن جعلها قارةً ساكنةً لا تَمتدُّ ولا

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢٦٠، وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٧٩ من سورة المائدة، وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٧١ من سورة البقرة، ٢٣ من سورة يوسف، ٣٥ من سورة الأحزاب، وخرجناه هنالك.
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الإيمان ١/٣٤ ـ ٣٥.

تضطربُ، بما جعل فيها من الجبال، وأنبعَ فيها من العُيون، وسَلَكَ فيها من السُّبُل، وهيَّأ فيها من المنافع ومواضع الزُّروع والثمار، فقال. ﴿هو الذي جَعَل لكم الأرضَ ذَلُولًا فامشُوا في مَنَاكِبِها﴾، أي: فَسَافِرُوا حيث شِئتُم من أقطارها، وتردَّدُوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجاراتِ، واعلَمُوا أن سَعْيَكُم لا يُجدي عليكم شيئاً، إلا أن يُيَسِّره الله لكم. ولهذا قال: ﴿وكُلُوا من رِزْقِه﴾ [(١)- فالسعيُ في السبب لا ينافي التوكل، كما قال الإمام أحمدُ:

حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَةُ، أخبرني بكر بن عَمرو: أنه سَمِع عبد الله بن هُبَيرة يقولُ: إنه سَمِع أبا تميم الجَيْشَانِيَّ يقول: إنه سَمِع عمر بن الخطاب يقول: إنه سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لو أنكم تتوكَّلون على الله حقَّ تَوَكُّله لرزقكم كما يرزُقُ الطيرَ، تغدُو خِماصاً وتَرُوح بِطاناً»(٢).

رواه الترمذي والنسائيُّ وابنُ ماجه، من حديث ابن هُبَيرة، وقال الترمذي: «حسنٌ صحيحٌ»(٢)، فأثبت لها رواحاً وغُدُوًّا لطَلَب الرزقِ، مع تَوَكُّلها على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو المسخر المسيِّر المسبِّبُ]-(١). ﴿وإليه النشورُ﴾، أي: المرجعُ يوم القيامة. قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والسُّدِّي. ﴿مَنَاكِبِها﴾ أطرافِها وفِجَاجِها ونواحِيها. وقال ابن عباس وقتادةُ: ﴿مناكِبِها﴾ الجبالِ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن حَكَّام الأزديُّ، حدثنا شُعبة، عن قتادَة، عن يونس بن جُبَير، عن بَشِير بن كعب: أنه قرأ هذه الآية: ﴿فامشُوا في مناكِبِها﴾ فقال لأم ولد له: إن عَلِمت ﴿مَنَاكِبِها﴾ فأنت عتيقةٌ. فقالت: هي الجبالُ: فسأل أبا الدرداء فقال: هي الجبال(٣).

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

وهذا أيضاً من لُطفه ورَحمته بخلقِه أنه قادرٌ على تعذيبهم، بسبب كُفر بعضِهم به وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلُم ويصفَح، ويُؤجِّل ولا يَعْجَل، كما قال: ﴿ولو يُؤاخذ الله الناسَ بما كسَبُوا ما ترَك على ظهرِها من دابَّةٍ ولكن يُؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسمًّى فإذا جاء أجلُهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾.

وقال ها هنا. ﴿أأمِنتُم مَن في السماء أن يَخسِفَ بكم الأرضَ فإذا هي تَمُور﴾، أي: تذهبُ وتجيءُ وتضطربُ، ﴿أم أمِنتم مَن في السماء أن يُرسِل عليكم حاصِباً﴾، أي: ريحاً فيها حصباء تدمَغكم(٤)، كما قال: ﴿أفأمِنتم أن يَخسِفَ بكم جانبَ البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾. وهكذا توعَّدهم ها هنا

(١ ـ ١) ساقط من بعض النسخ.
(٢) مسند أحمد ١/ ٣٠، وأخرجه الترمذي وابن ماجه في الزهد، عارضة الأحوذي ٩/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨، وسنن ابن ماجه ٢/ ١٣٩٤. وأخرجه النسائي في كتاب الرقائق من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٨/ ٧٩.
(٣) الأثر في الدر المنثور ٨/ ٢٣٧ عن ابن المنذر.
(٤) دمغه: شجَّه حتى بلغت الشجَّةُ دِماغه، والدِّماغ: حَشْوُ الرأس من أعصاب ونحوها، وفيه المخُّ والمُخَيخ والنخاع المستطيل، والدِّماغ. الرأسُ أيضاً، والمراد الأول.

بقوله: ﴿فستعلمون كيف نذير﴾، أي: كيف يكون إنذاري وعاقبةُ من تخلّف عنه وكذّب به.

ثم قال: ﴿ولقد كذّب الذين من قبلهم﴾، أي: من الأمم السالفة والقرون الخالية، ﴿فكيف كان نكير﴾، أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومُعاقبتي لهم؟ أي: عظيماً شديداً أليماً.

ثم قال تعالى: ﴿أو لم يَروا إلى الطير فوقَهم صافّاتٍ ويَقبِضْنَ﴾، أي: تارة يَصففْنَ أجنحتهنّ في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً، ﴿ما يُمسِكُهنّ﴾، أي: في الجوّ ﴿إلا الرحمن﴾، أي: بما سخّر لهن من الهواء، من رحمته ولطفه، ﴿إنه بكلّ شيءٍ بصيرٌ﴾، أي: بما يُصلحُ كلَّ شيءٍ من مخلوقاته. وهذه كقوله: ﴿ألم يروا إلى الطير مُسخّرات في جوّ السماء ما يُمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يُؤمنون﴾.

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى للمشركين الذين عَبدُوا غيرَه، يَبتغُون عندهم نصراً ورزقاً، مُنكِراً عليهم فيما اعتقدُوه، ومُخبِراً بهم أنه لا يحصُلُ لهم ما أمّلُوه، فقال: ﴿أمّن هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دون الرحمن﴾، أي: ليس لكم من دُونِه من وَليٍّ ولا واقٍ، ولا ناصِرَ لكم غيرُه، ولهذا قال: ﴿إن الكافرون إلا في غُرورٍ﴾.

ثم قال: ﴿أمّن هذا الذي يرزقُكم إن أمسَكَ رِزقَه﴾، أي: مَن هو الذي إذا قَطَعَ الله رزقَه عنكم يرزُقكم بعده؟ أي: لا أحدَ يُعطي ويمنَعُ، ويخلُق ويرزُق، وينصُر إلا الله ـ عزّ وجلّ ـ وحده لا شريكَ له أي: وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدُون غيره، ولهذا قال: ﴿بل لَجُّوا﴾، أي: استمَرُّوا في طُغيانهم وإفكهم وضلالهم، ﴿في عُتُوٍّ ونُفُورٍ﴾، أي: معاندةٍ، واستكباراً ونفوراً على أدبارهم عن الحق لا يَسْمعُون له ولا يتَّبِعونه.

ثم قال: ﴿أفَمن يمشي مُكِباً على وَجهه أهدى أمَّن يمشي سَوِيًّا على صراط مستقيم﴾، وهذا مثل ضرَبه الله للمؤمن والكافر، فالكافرُ مثله فيما هو فيه كَمَثَل من يمشي مُكِبًّا على وجهه، أي: يمشي مُنحنياً لا مُستوياً على وجهه، أي: لا يَدري أين يسلك ولا كيف يذْهَب؟ بل تائه حائرٌ ضالٌّ، أهذا أهدى ﴿أمّن يمشي سويًّا﴾، أي: مُنتصِبَ القامةِ ﴿على صراطٍ مستقيم﴾، أي: على طريقٍ واضحٍ بيِّن، وهو في نفسه مستقيمٌ، وطريقُه مُستقيمةٌ. هذا مثلُهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة. فالمؤمنُ يُحشَر يمشي سويًّا على صراطٍ مستقيم، مُفضٍ به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافرُ فإنه يُحشر يمشي على وجهه إلى نار جَهنّم، ﴿احشروا الذين ظلمُوا وأزواجَهم وما كانوا يعبدُون من دُون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقِفُوهم إنهم مسؤولون * ما لكم لا تَناصرُون * بل هم اليوم مُستَسلِمُون﴾.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : حدثنا ابن نُمَير، حدثنا إسماعيلُ، عن نُفَيع قال: سمعت أنسَ بن مالك

يقول. قيل: يا رسول الله، كيف يُحشَر الناسُ على وجوههم؟ قال: «أليس الذي أمشاهم على أرجُلهم قادرٌ أن يُمشيهم على وُجُوههم»[1].

وهذا الحديثُ مُخرَّجٌ في الصحيحين[1] من طريق [[2] يونس بن محمد، عن شيبان، عن قتادة، عن أنس، به نحوه] [3].

وقوله: ﴿قُل هو الذي أنشأكُم﴾، أي: ابتدأ خَلْقكُم بعد أن لم تكونُوا شيئاً مذكُوراً، ﴿وجَعَل لكُم السمع والأبصارَ والأفئدةَ﴾، أي: العقول والإدراك، ﴿قليلاً ما تشكرون﴾، أي: ما أقلَّ ما تستعملون هذه القُوى التي أنعم الله بها عليكُم، في طاعته وامتثالِ أوامره، وتَرْكِ زواجره.

﴿قُل هو الذي ذرأكُم في الأرض﴾، أي: بثَّكم ونشركُم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلافِ ألسنتكم في لُغاتكم وألوانكم، وحلاكم[3] وأشكالكم وصُوركم، ﴿وإليه تُحشَرون﴾، أي: تُجْمَعُون بعد هذا التفرُّق والشتات، يَجْمَعُكم كما فرَّقكم، ويُعيدكُم كما بَدَأكُم.

ثم قال مُخبِراً عن الكُفّار المُنكرين للمعادِ المُستبعدين وُقوعه: ﴿ويقولُون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾، أي: متى هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرُّق؟ ﴿قُل إنما العلمُ عندَ الله﴾، أي: لا يعلمُ وقتَ ذلك على التَّعيين إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لكنه أمرني أن أُخبِرَكم أن هذا كائنٌ وواقعٌ لا محالة، فاحذروه، ﴿وإنما أنا نذيرٌ مُبين﴾: وإنما عليَّ البلاغُ، وقد أدَّيتُه إليكُم.

قال الله تعالى: ﴿فلمّا رأوه زُلفةً سِيئَت وجوهُ الذين كفرُوا﴾، أي: لما قدمت القيامةُ وشاهدها الكفارُ، ورأوا أن الأمرَ كان قريباً، لأن كلَّ ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنُه، فلمّا وقع ما كذّبوا به ساءهم ذلك، لما يعلمُون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاطَ بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكُن لهم في بالٍ ولا حساب، ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونُوا يحتسِبُون * وبدا لهم سيئاتُ ما كسَبوا وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزءُون﴾ ولهذا يُقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿هذا الذي كنتم به تدَّعُون﴾، أي: تستعجلُون.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لِنِعمه: ﴿أرأيتم إن أهلكَني اللهُ ومَن مَعِيَ أو رَحِمنا فمن يُجير الكافرين من عذابٍ أليم﴾، أي: خَلِّصُوا أنفسَكم، فإنه لا مُنْقِذَ لكم من الله إلا التوبةُ والإنابةُ، والرجوعُ إلى دينه، ولا ينفعكم وقوعُ ما تتمنون لنا من العذاب والنَّكال، فَسواء عذبنا الله أو رَحِمنا، فلا مناصَ لكُم من نَكاله وعَذابه الأليم الواقع بكم.

---

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٩٧ من سورة الإسراء، ٣٤ من سورة الفرقان، وخرجناه هنالك من المسند والصحيحين.

(٢ ـ ٣) ما بين القوسين ساقط من النسخ، وأثبتناه من الصحيحين.

(٣) الحلى: جمع حِلْيَة، وحِلْيَةُ الرجل: خلقُه وصُورته وصفتُه.

ثم قال: ﴿قُل هو الرحمنُ آمنَّا به وعليه توكَّلنا﴾، أي: آمنَّا بربِّ العالمين الرحمنِ الرحيم، وعليه توكَّلنا في جميع أمورنا، كما قال: ﴿فاعبُده وتوكَّل عليه﴾. ولهذا قال: ﴿فستعلَمُون مَن هو في ضلال مُبين﴾ أي: منَّا ومنكُم، ولمن تكون العاقبةُ في الدنيا والآخرة؟

ثم قال: ﴿قل أرأيتُم إن أصبحَ ماؤُكم غوراً﴾، أي: ذاهباً في الأرض إلى أسفلَ، فلا يُنَال بالفُئُوس الحِدادِ، ولا السواعد الشداد، والغائر: عكسُ النابع. ولهذا قال: ﴿فمن يأتيكم بماءٍ معِين﴾، أي: نابعٍ وسائحٍ جارٍ على وجه الأرض؛ أي: لا يَقدِرُ على ذلك إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فمِن فضلِه وكرَمه أنبعَ لكم المياهَ وأجراها في سائرِ أقطارِ الأرض، بحَسَبِ ما يحتاجُ العبادُ إليه، من القلَّة والكثرة، فله الحمدُ والمنَّةُ.

آخرُ تفسيرِ «سورة الملك» ولله الحمدُ والمنَّةُ

تفسير

سورة القلم

وهي مكيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

قد تقدَّم الكلامُ على حُروفِ الهجاءِ في أولِ «سُورة البقرة»، وأنَّ قولَه ﴿نٓ﴾ كقولِه: ﴿صٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ونحو ذلك من الحروف المُقطَّعة في أوائل السور، وتحريرُ القولِ في ذلك بما أغنى عن إعادتِه.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿نٓ﴾: حوتٌ عظيمٌ على تيَّارِ الماءِ العظيمِ المحيط، وهو حاملٌ للأرَضِينَ السبعِ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدَّثنا ابنُ بشَّار، حدثنا يحيى، حدثنا سُفيان ـ هو الثوريُّ ـ حدثنا سُليمان ـ هو الأعمشُ ـ عن أبي ظبيان، عن ابن عبَّاس قال: أوَّلُ ما خلقَ اللهُ القلمَ قال: اكتُب. قال: وما أكتُب؟ قال: اكتُبِ القَدَر. فجرى بما يكونُ من ذلك اليوم إلى يوم قيامِ الساعةِ. ثم خلق «النُّونَ» ورفعَ بُخارَ الماءِ، فَفُتِقَت منه السماءُ، وبسطت الأرضُ على ظهرِ النون، فاضطربَ النون فمادَتِ الأرضُ، فأُثْبِتت بالجبالِ، فإنها لَتَفخَر على الأرض(١).

وكذا رَواه ابن أبي حاتم عن أحمدَ بن سِنانٍ، عن أبي معاويةَ، عن الأعمش، به. وهكذا رواه شُعبة،

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٤.

ومحمد بن فُضَيل، ووكيع، عن الأعمش، به. وزاد شعبة في روايته: ثم قرأ: ﴿نٓ والقلمِ وما يسطُرون﴾. وقد رواه شَرِيك عن الأعمش عن أبي ظَبيان، أو مجاهد، عن ابن عباس، فذكر نحوه. ورواه مَعْمَرٌ، عن الأعمش أن ابن عباس قال... فذكره، ثم قرأ: ﴿نٓ والقلمِ وما يسطُرون﴾. ثم قال ابن جرير:

حدثنا ابنُ حُميد، حدَّثنا جريرٌ، عن عطاءٍ، عن أبي الضُّحى، عن ابن عباس قال: إنَّ أوَّل شيءٍ خلَق ربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ القلمُ، ثم قال له: اكتُب. فكتب ما هُو كائنٌ إلى أن تقومَ الساعةُ. ثم خلق «النون» فوق الماء، ثم كبَسَ الأرضَ عليه(١).

وقد رَوَى الطبراني ذلك مرفُوعاً فقال: حدثنا أبو حبيب زيدُ بن المُهتَدِي المَرْوذيُّ، حدثنا سَعيد بن يَعقُوب الطالَقانيُّ، حدثنا مُؤمَّل بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضُّحى مسلم بن صُبيح، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أوَّل ما خلق الله القلمُ والحُوتُ. قال: ما أكتُب؟ قال: كلَّ شيءٍ كائنٍ إلى يوم القيامة». ثم قرأ: ﴿نٓ والقلمِ وما يسطُرون﴾. فالنون: الحوتُ. والقلم: القلمُ(٢).

حديث آخر في ذلك رَواه ابنُ عساكرَ عن أبي عبد الله مولى بني أُميَّة، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة: سَمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن أوَّل شيءٍ خلَقه الله القلمُ، ثم خلق «النُّون» وهي: الدَّواة. ثم قال له: اكتُب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتُب ما يكون ـ أو: ما هو كائنٌ ـ من عَمَلٍ أو رِزْقٍ أو أثَرٍ أو أجَلٍ. فكتبَ ذلك إلى يوم القيامة، فذلك قولُه: ﴿نٓ والقلمِ وما يسطُرون﴾ ثم خُتِم على القلم فلم يتكلَّم إلى يوم القيامة، ثم خلَق العقلَ وقال: وعزَّتي لأُكمِّلنَّك فيمن أحببتُ، ولأنقصنَّك ممَّن أبغضتُ(٣).

وقال ابنُ أبي نجيح: إنَّ إبراهيمَ بن أبي بكر أخبره عن مُجاهدٍ قال: كان يُقال: النونُ الحوتُ الذي تحتَ الأرضِ السابعة.

وقد ذكر البَغَويُّ(٤) وجماعةٌ من المفسرين أنَّ على ظهر هذا الحوتِ صخرةً سمكُها كغِلظِ السموات والأرضِ، وعلى ظهرها ثورٌ له أربعونَ ألف قرنٍ، وعلى متْنِه الأرضُونَ السبعُ وما فيهنَّ وما بينهنَّ، فالله أعلم. ومِنَ العَجيب أن بعضهم حَمَل على هذا المعنى الحديث الذي رَوَاه الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا إسماعيل، حدثنا حُمَيد، عن أنس: أن عبد الله بن سَلام بَلَغه مقدَمَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ المدينةَ فأتاه فسأله عن أشياء، قال: إني سائلُك عن أشياء لا يعلَمها إلا نبيٌّ، قال: ما أولُ أشراط الساعة؟ وما أولُ طعامٍ يأكُله أهلُ الجنة؟ وما بالُ الولدِ ينزِع إلى أبيه؟ والولدُ ينزِع إلى أمِّه؟ قال: أخبَرَني بهنَّ جبريلُ آنِفاً. قال ابن سَلامٍ: فذاكَ عَدُوُّ اليهودِ من الملائكة. قال: أمَّا أولُ أشراطِ الساعةِ فنارٌ تحشُرهم من المشرِق إلى المغرب. وأولُ طعامٍ يأكُله أهلُ الجنة زيادةُ كَبِدِ حُوتٍ. وأمَّا الولدُ فإذا سبق ماءُ الرجلِ ماءَ المرأةِ نَزَعَ الولدُ، وإذا سَبَق ماءُ المرأةِ ماءَ الرجلِ نَزَعت(٥).

ورواه البخاريُّ من طرق عن حُمَيد(٥)، ورواه مسلم، أيضاً، وله(٥) من حديث ثوبان ـ مولى رسول

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٥.
(٢) الجامع الكبير ١١/٤٣٣، وانظر مجمع الزوائد ٧/١٢٨
(٣) الدرّ المنثور عن الحكيم الترمذي ٨/٢٤١.
(٤) تفسير البَغَويّ ٤/٣٧٤.
(٥) مسند الإمام أحمد ٣/١٨٩، وفتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/٢٧٢، ولم يقع لنا في مسلم وقد بين ابن كثير عند تفسير الآية ٩٧ =

الله ـ ﷺ ـ نحوَ هذا. وفي صحيح مُسلمٍ من حديث أبي أسماءَ الرَّحَبي، عن ثوبان: أن حَبراً سأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن مسائل، فكان منها قال: فما تُحفتُهم؟ ـ يعني أهلَ الجنّةِ حين يدخلون الجنةَ ـ قال: زيادةُ كَبِد الحُوتِ. قال: فما غداؤُهم على إثرها؟ قال: يُنحَرُ لهم ثورُ الجنةِ الذي كان يأكل من أطرافها. قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تُسَمَّى سلسبيلا.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿نٓ﴾: لَوحٌ من نُورٍ، قال ابنُ جَرير:

حدثنا الحسن بن شبيب المُكتِبُ، حدثنا محمد بن زياد الجَزَريُّ، عن فُرات بن أبي الفُراتِ، عن مُعاوية بن قُرَّة، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿نٓ والقلمِ وما يسطُرون﴾: لوحٌ من نُورٍ، وقلمٌ من نُورٍ، يَجري بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة[1]. وهذا مُرسَلٌ غريبٌ.

وقال ابن جُرَيجٍ: أُخبِرتُ أنّ ذلك القَلَم من نُورٍ طولُه مائةُ عام.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿نٓ﴾: دواةٌ، ﴿والقلم﴾: القلم. قال ابنُ جَرير:

حَدَّثنا ابنُ عبدِ الأعلى، حدثنا ابنُ ثَور، عن مَعْمَرٍ، عن الحسنِ وقتادة في قولِه: ﴿نٓ﴾، قالا: هي الدَّواةُ.

وقد رُوِي في هذا حديثٌ مرفوعٌ غريبٌ جِدًّا، فقال ابنُ أبي حاتم:

حَدَّثنا أبي، حدثنا هشامُ بن خالد، حدثنا الحسنُ بن يحيى، حدثنا أبو عبد الله مولى بني أُميّةَ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «خَلَق اللهُ النونَ، وهي الدواةُ».

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا ابنُ حُمَيدٍ، حدثنا يَعقُوبُ، حدثنا أخي عيسى بن عبد الله، حدثنا ثابت الثُّماليُّ[2]، عن ابن عباس قال: إن الله خلق النُّونَ، وهي الدَّواةُ، وخَلَق القَلَم، فقال: اكتُب. قال: وما أكتُب؟ قال: اكتُب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامةِ من عملٍ مَعمُولٍ، بِرٍّ أو فُجُورٍ، أو رزقٍ مقسُومٍ، حلالٍ أو حرامٍ. ثم أَلزم كلَّ شيءٍ من ذلك شأنَه: دُخولَه في الدنيا، ومُقامه فيها كم؟ وخروجه منها كيف؟ ثم جعل على العبادِ حَفَظَةً، وللكتابِ خُزّاناً، فالحفظَةُ يَنسَخُون كلَّ يومٍ من الخُزّان عملَ ذلك اليوم، فإذا فَنِي الرزقُ وانقطع الأثرُ وانقضى الأجلُ، أتت الحفظةُ الخزنةَ يَطلبُون عملَ ذلك اليوم، فتقولُ لهم الخزنةُ: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً. فترجِعُ الحَفَظةُ فيَجِدُونَهم قد ماتوا. قال: فقال ابن عباس: ألستم قوماً عَرَباً تسمعُون الحفظة يقولون: ﴿إنا كنا نَستَنسِخُ ما كنتم تعمَلُون﴾؟ وهل يكون الاستنساخُ إلا من أصلٍ[3].

وقوله: ﴿والقَلَمِ﴾، الظاهر أنه جنسُ القلم الذي يُكتَبُ به كقوله: ﴿اقرأ وربُّك الأكرمُ ۝ الذي عَلَّم بالقلم ۝ عَلَّم الإنسانَ ما لم يعلم﴾. فهو قَسَمٌ منه تعالى، وتَنبيهٌ لِخَلْقِه على ما أنعمَ به عليهم من تعليمِ الكتابةِ

من سورة البقرة انفرادُ البخاري به من هذه الطريق. وقد أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ١/١٧٨ ـ ١٧٩، فلعل صواب عبارة ابن كثير: «ورواه النسائي أيضاً» بدل «ورواه مسلم أيضاً». والله أعلم. وقول ابن كثير: «وله من حديث ثوبان» يعني أن يرجع كذلك إلى النسائي كما في تحفة الأشراف للمزّي ٢/٥٩٠، فقد أخرجه النسائي في عشرة النساء من سننه الكبرى، كما رواه مسلم في كتاب الحيض ١/٢٥٢، ٢٥٣، وتقدّم كذلك عند تفسير الآية ٩٧ من سورة البقرة

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٥ ـ ١٦.

(٢) كذا في النسخ: الثمالي. وفي تفسير الطبري: البُناني.

(٣) تفسير الطبري ٢٩/١٥

التي بها تُنالُ العُلوم. ولهذا قال: ﴿وما يسْطُرون﴾، قال ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ، وقتادةُ: يعني وما يكتُبون. وقال أبو الضُّحى، عن ابن عباس: ﴿وما يسْطُرون﴾، أي: وما يعْمَلون. وقال السُّدِّي: ﴿وما يسْطُرون﴾ يعني الملائكةَ وما تكتُبُ من عمل العباد.

وقال آخرون: بل المراد ها هنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلُق السموات والأرضين بخمسين ألف سنةٍ. وأوردُوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكْرِ القلم، فقال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيدٍ يحيى بنُ سعيدٍ القطّان ويونُس بن حبيب قالا: حدثنا أبو داودَ الطيالسي، حدثنا عبد الواحد بن سُليم السُّلميُّ، عن عطاء ـ هو ابنُ أبي رباح ـ حدَّثني الوليد بن عُبادة بن الصَّامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سَمِعْتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن أوَّلَ ما خلق الله القلمُ، فقال له: اكتب. قال: يا ربِّ، ما أكتب؟ قال: اكتب القَدَر وما هو كائنٌ إلى الأبد»[(١)]

وهذا الحديث قد رواه الإمامُ أحمدُ من طُرُقٍ، عن الوليد بن عُبادة، عن أبيه، به. وأخرجه الترمذيُّ من حديث أبي داود الطيالسي، به. وقال: «حسن صحيحٌ غريبٌ». ورواه أبو داود في «كتاب السُّنَّة» من سُنَنه، عن جعفر بن مُسافر، عن يحيى بن حسّان، عن ابن رباح، عن إبراهيمَ بن أبي عبلَة، عن أبي حَفْصَةَ ـ واسْمُه حُبَيش بن شُريحٍ الحبشيُّ الشاميُّ ـ عن عُبادةَ، فذكره[(١)].

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن عبد الله الطُّوسيُّ، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، أنبأنا عبدُ الله بن المبارك، حدثنا رباح بنُ زيدٍ، عن عُمر بن حبيب، عن القاسم بن أبي بزَّة، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، أنه كان يُحدِّث أن رَسُول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أول شيء خلقه الله القلمُ، فأمره فكتَبَ كلَّ شيءٍ» غريب من هذا الوجه، ولم يُخرجوه[(٢)].

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿والقلم﴾ يعني: الذي كُتِب به الذِكْرُ.

وقولُه: ﴿وما يسطُرون﴾، أي: يكتبون، كما تقدَّم.

وقولُه: ﴿ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنُون﴾، أي: لستَ ـ ولله الحمدُ ـ بمجنونٍ، كما قد يقوله الجهلةُ من قومك، والمُكذِّبون بما جئتهم به من الهُدى والحقِّ المبين، فنسبُوك فيه إلى الجُنُون. ﴿وإنَّ لك لأجراً غير ممنُونٍ﴾، أي: بل لك الأجرُ العظيمُ، والثوابُ الجزيلُ الذي لا ينقطع ولا يَبِيدُ، على إبلاغك رسالة ربِّك إلى الخلقِ، وصَبْرِك على أذاهم، ومعنى ﴿غير ممنُونٍ﴾ أي: غير مقطُوعٍ كقوله: ﴿عطاءً غير مجذُوذ﴾، فلهم أجرٌ غيرُ ممنون، أي: غيرُ مقطوعٍ عنهم. وقال مجاهدٌ: ﴿غير ممنون﴾، أي: غير محسوبٍ. وهو يرجع إلى ما قلناه.

وقولُه: ﴿وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عظيمٍ﴾، قال العوفيُّ، عن ابن عباس: أي: وإنك لعلى دينٍ عظيمٍ، وهو الإسلامُ. وكذلك قال مجاهدٌ، وأبو مالك، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، والضَّحَّاك، وابنُ زيدٍ. وقال عطيةُ: لعلى أدَبٍ عظيمٍ. وقال مَعْمَرٌ، عن قتادة: سُئلت عائشةُ عن خُلُق رسُول الله ـ ﷺ ـ قالت: كان خلقه القرآن، تقولُ: كما هو في القرآن[(٣)].

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي ٧٩، ومسند الإمام أحمد ٥/٣١٧، وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١٢/٢١٦ ـ ٢١٧، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/١٦.

(٣) أخرجه الطبري ٢٩/١٨.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة قوله ﴿وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عَظيم﴾، ذُكِر لنا أن سعدَ بنَ هشامٍ سأل عائشة عن خُلُق رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإنَّ خُلُق رسول الله ـ ﷺ ـ كان القرآن.

وقال عبد الرزّاق، عن معمر، عن قتادة، عن زُرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام قال: سألتُ عائشةَ فقلتُ: أخبريني ـ يا أمَّ المؤمنين ـ عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. فقالت: كان خلقُه القرآنَ.

هذا حديث طويلٌ. وقد رواه الإمامُ مسلمٌ في صَحيحِه[(١)]، من حديث قتادةَ بِطُولِه. وسيأتي في «سُورَة المزَّمل»، إن شاء الله تعالى.

وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا إسماعيلُ، حدثنا يونُس، عن الحَسَنِ قال: سُئِلَتْ عائشةُ عن خُلُق رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: كان خُلُقه القرآنَ[(٢)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أسودُ، حدثنا شَرِيكٌ، عن قَيس بن وَهب، عن رجل من بني سُوَاءَةَ قال: سألت عائشة عن خُلُق رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: أما تقرأُ القرآنَ: ﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عَظِيم﴾؟ قال: قلتُ: حَدِّثيني عن ذاك. قالت: صَنَعتُ له طعاماً، وصَنَعت له حفصةُ طعاماً، فقلت لِجاريتي: اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعته قبلُ فاطرَحِي الطعامَ! قالت: فجاءت بالطعام. قالت: فألقتِ الجاريةُ، فوقعت القصعةُ فانكسَرت ـ وكان نِطَعٌ ـ[(٣)] قالت: فَجَمعه رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقال: «اقتصُّوا ـ أو اقتصّي ـ شك أسودُ ـ ظَرفاً مكان ظَرفِكِ». قالت: فما قال شيئاً[(٤)].

وقال ابن جرير: حدثنا عُبَيد بن آدم بن أبي إياس، حدثنا أبي، حدثنا المبارك بن فَضَالةَ، عن الحسن، عن سَعد بن هشام: قال: أتيتُ عائشةَ أم المؤمنين فقلتُ لها: أخبريني بخُلُق النبي ﷺ. فقالت: كان خُلقه القرآن أما تقرأ: ﴿وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عَظيم﴾[(٥)]؟.

وقد رَوَى أبو داودَ والنَّسائيُّ، من حديثِ الحَسَنِ، نحوَه[(٥)].

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني يونُسُ، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني معاويةُ بن صالح، عن أبي الزَّاهِرِيَّةِ، عن جُبَير بن نُفَير قال: حَجَجْتُ فدخلتُ على عائشةَ ـ رَضِيَ الله عنها ـ فسألتُها عن خُلُق رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقالت: كان خُلُقُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ القرآنَ[(٦)].

وهكذا رواه أحمدُ، عن عبد الرحمن بن مَهديٍّ[(٦)]. ورواه النسائيُّ في التفسير، عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرحمن بن مَهديٍّ، عن معاويةَ بنِ صالحٍ، به[(٦)].

---

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥١٢ ـ ٥١٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/٢١٦.

(٣) في المسند «وكان نطعاً» والصواب ما هنا، والمعنى أنه كان يُوجَد نطع جَمَعَ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الطعام عليه، والنِّطَعُ: بساطٌ من أديم، ولفظ ابن ماجه «فانكسرت القصعة، وانتشر الطعام. قالت: فجمعها رسول الله ـ ﷺ ـ وما فيها من الطعام على النِّطَع».

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/١١١، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام ٢/٧٨٢، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن شريك، به نحوه.

(٥) تفسير الطبري ٢٩/١٩، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٤٣ ـ ٤٤، والنسائي في الصلاة أيضاً ٣/٢٢٠ ـ ٢٢١، كما أخرجه في سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١١/٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٦) تفسير الطبري ٢٩/١٩، ومسند الإمام أحمد ٦/١٨٨، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ١١/٣٨٨

ومعنى هذا أنه ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ صار امتثالُ القرآن، أمراً ونهياً، سجيةً له، وخُلقاً تطبّعه، وترك طَبْعه الجِبلّيّ، فمهما أمره القرآنُ فعله، ومهما نهاه عنه تَركه. هذا مع ما جَبله الله عليه من الخُلق العظيم، من الحياءِ والكرمِ، والشجاعةِ، والصَّفحِ، والحِلم، وكلِّ خلقٍ جميل. كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عشر سنين فما قال لي «أُفٍّ» قطّ، ولا قال لشيءٍ فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيءٍ لم أفعله: ألا فعلته؟! وكان رسول الله ـ ﷺ ـ من أحسن الناس خلقاً، ولا مَسِسْتُ خزاً ولا حَريراً ولا شيئاً كان ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممتُ مِسكاً ولا عِطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ[(١)].

وقال البُخاريُّ: [حدثنا أحمدُ بنُ سَعيدٍ أبو عَبدِ الله]، حدثنا إسحاقُ بن منصورٍ، حدثنا إبراهيمُ بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق قال: سمعتُ البراءَ يقول: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ أحسنَ الناس وجهاً وأحسن الناس خُلقاً، ليس بالطويلِ ولا بالقصير[(٢)].

والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ، ولأبي عيسى التِّرمذيِّ في هذا كتابُ «الشمائل».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا مَعمرٌ، عن الزُهريِّ، عن عُرْوة، عن عائشةَ قالت: ما ضربَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيده خادماً له قطُّ، ولا امرأةً، ولا ضربَ بيده شيئاً قطُّ، إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا خُيِّر بين شيئَين قطُّ إلا كان أحبُّهما إليه أيسرَهما حتى يكونَ إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعدَ الناسِ من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيءٍ يُؤتَى إليه إلاّ أن تُنتَهكَ حُرُماتُ الله، فيكونَ هو ينتقِمُ لله عزَّ وجلّ[(٣)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سعيدُ بن منصور، حدَّثنا عبدُ العزيز بن محمد، عن محمَّد بن عَجلان، عن القعقاع بن حَكيم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيْرَة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنما بُعثتُ لأُتمِّم صالح الأخلاق»[(٤)]. تَفرَّد به.

وقولُه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾، أي: فستعلم يا محمدُ وسيعلمُ مخالِفُوك ومُكذِّبوك: من المفتُون الضالُّ مِنكَ ومِنهُم. وهذه كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾، وكقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

قال ابنُ جُرَيج، قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلَمُون يومَ القيامة. وقال العَوْفي، عن ابن عباس: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: الجُنون. وكذا قال مجاهد، وغيره. وقال قتادةُ وغيرُه: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾، أي: أولى بالشيطان[(٥)].

ومعنى المفتونِ ظاهرٌ، أي: الذي قد افْتُتِن عن الحقِّ وضلَّ عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ لتدلَّ على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، وتقديره: فستعلم ويعلمون، أو فستُخْبَر ويُخْبَرون بأيكم المفتُونُ. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم عن قتيبة بن سعيد بإسناده إلى أنس، ولم يذكر لفظه، وقد ذكر الترمذي لفظ قتيبة كما ساقه ابن كثير في أبواب البر والصلة، عارضة الأحوذي ٨/١٧٣، وانظر تحفة الأشراف للمزي ١/١٠٥. وقد ساق البخاري بعضه في جمع الدرر ٦/٥٦٦

(٢) فتح الباري، كتاب المناقب ٦/٥٦٤، وما بين القوسين ساقط من جميع النسخ

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/٢٣٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٣٨١.

(٥) انظر الآثار في تفسير الطبري ٢٩/١٩ ـ ٢٠.

ثم قال تعالى: ﴿إن ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين﴾، أي: هو ـ تعالى ـ يعلم أيُّ الفريقين منكم ومنهم هو المُهتدِي، ويعلَمُ الحِزبَ الضالَّ عن الحقِّ.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

يقول تعالى: كما أنعمنا عليكَ وأعطيناك الشَّرعَ المستقيمَ والخُلُقَ العظيم، ﴿فلا تُطِع المكذبين * وَدُّوا لو تُدهِنُ فيُدهِنون﴾. قال ابن عباس: لو تُرَخِّص لهم فيُرَخِّصُونَ[1]. وقال مجاهد: وَدُّوا لو تَركَن إلى آلهتهم وتترُكُ ما أنت عليه من الحقِّ.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تُطِع كلَّ حلَّافٍ مَهينٍ﴾، وذلك أنَّ الكاذبَ لِضَعفه ومَهانتِه إنما يَتَّقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير مَحلِّها.

قال ابنُ عبَّاس: المهينُ الكاذبُ. وقال مجاهد: هو الضعيفُ القلب. وقال الحسنُ: كُلُّ حلَّافٍ مُكابِرٍ مَهينٍ ضَعيفٍ.

وقوله ﴿هَمَّازٍ﴾، قال ابنُ عباسٍ وقتادةُ: يعني الاغتيابَ. ﴿مَشَّاءٍ بِنَميمٍ﴾، يعني: الذي يَمشي بينَ الناسِ، ويُحرِّش بينهم وينقُل الحديثَ لفَسادِ ذاتِ البَين، وهي الحالقةُ. وقد ثبتَ في الصحيحَين من حديثِ مُجاهدٍ، عن طاوسٍ، عن ابن عباس قال: مَرَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بقبرين فقال: «إنهما لَيُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبيرٍ، أمَّا أحدُهما فكان لا يَستَتِرُ من البولِ، وأما الآخرُ فكان يمشي بالنَّميمَة». الحديث. وأخرجه بقية الجماعة في كُتُبهم، من طُرُقٍ عن مجاهدٍ، به[2].

وقال أحمدُ: حَدَّثنا أبو مُعاوية، حدثنا الأعمشُ، عن إبراهيمَ، عن هَمَّامٍ: أنَّ حُذَيفةَ قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «لا يدخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[3]. رواه الجماعة إلا ابنَ ماجه من طُرُقٍ، عن إبراهيم، به[3].

وحَدَّثنا عبد الرَّزَّاق، حدثنا الثَّوريُّ، عن منصورٍ، عن إبراهيم، عن هَمَّامٍ، عن حُذيفةَ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يدخل الجنة قتات»، يعني نمَّاماً[4].

وحَدَّثنا يحيى بنُ سعيدٍ القَطَّان أبو سعيدٍ الأحولُ، عن الأعمش، حدثني إبراهيم ـ منذ نحو سِتِّين سنةً ـ عن هَمَّام بن الحارث قال: مَرَّ رجلٌ على حُذَيفةَ فقيل: إن هذا يرفَعُ الحديثَ إلى الأمراء. فقال: سَمِعتُ رسولَ

(١) رَخَّص له في الأمر: سَهَّله ويَسَّره، ويقال: رخَّص له في كذا ورخَّصه فيه: أذن له فيه بعد النهي عنه. وقد ذكر الطبري أثر ابن عباس ٢١/٢٩ وفسره بقوله: لو تلين في دينك فيلينون في دينهم.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء، وخرجناه هنالك عن الصحيحين، وأخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه في كتاب الطهارة، سنن أبي داود ٦/١، وعارضة الأحوذي ٩٠/١ ـ ٩٢، وابن ماجه ١٢٥/١، وأخرجه النسائي في كتاب الجنائز ١٠٦/٤ ـ ١٠٧.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٨٢/٥، وفتح الباري، كتاب الأدب ٤٧٢/١٠، ومسلم، كتاب الإيمان ١٠١/١، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٦٨/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب البر ١٨١/٨ ـ ١٨٢، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٥٤/٣ ـ ٥٥. والقتات: النمام.

(٤) مسند الإمام أحمد: ٣٨٩/٥.

الله - ﷺ - يقولُ - أو: قال - قال رسولُ الله - ﷺ - : «لا يدخل الجنَّة قتَّاتٌ»[(١)]

[(٢)- وقال أحمدُ: حدثنا هاشمٌ، حدثنا مهديٌّ، عن واصل الأحدب، عن أبي وائل قال: بَلَغ حُذيفةَ عن رجل أنه ينم الحديث، فقال سمعتُ رسول الله - ﷺ - قال: «لا يدخل الجنة نمام»](٢)

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمرٌ، عن ابن خُثَيم، عن شهرِ بن حَوْشَب، عن أسماءَ بنت يزيدَ بن السَّكن: أن النبيَّ - ﷺ - قال: ألا أخبرُكم بخيارِكُم؟ قالوا: بلى، يا رسولَ الله. قال: الَّذين إذا رُءُوا[(٣)] ذُكِرَ الله عزَّ وجلَّ. ثم قال: ألا أخبرُكم بِشِرارِكم؟ المشَّاءُون بالنميمة، المُفسِدُون بين الأحبَّةِ، الباغون للبُرآء العَنَتَ[(٤)].

ورواه ابنُ ماجه، عن سُوَيدِ بن سعيدٍ، عن يحيى بن سُلَيم، عن ابن خُثَيم، به[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي حُسين، عن شَهْرِ بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم - يبلغُ به النبيَّ - ﷺ - : «خيارُ عبادِ الله الَّذِينَ إذا رُءُوا ذُكِرَ الله، وشرارُ عبادِ الله المشَّاءُون بالنميمَةِ، المفرِّقون بين الأحبَّةِ، الباغون للبُرآءِ العَنَتَ»[(٥)].

وقوله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: يمنَعُ ما عليه وما لَدَيه من الخير، ﴿مُعْتَدٍ﴾ في تناوُلِ ما أحلَّ الله له، يتجاوزُ فيها الحدَّ المشروعَ ﴿أَثِيمٍ﴾، أي: يتناوَلُ المحرَّماتِ.

وقوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، أما العُتُلُّ فهو: الفظُّ الغليظُ الصحيحُ الجَمُوعُ المَنُوعُ.

قال الإمامُ أحمد: حدثنا وكيعٌ وعبدُ الرحمن، عن سفيانَ، عن مَعْبَدِ بن خالد، عن حارثة بن وَهْب قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : ألاَ أُنبِّئكم بأهلِ الجنَّةِ؟ كلُّ ضعيفٍ مُتضعَّفٍ لو أقسَمَ على الله لأبرَّه، ألا أُنبِّئكم بأهلِ النارِ؟ كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستكبرٍ. وقال وكيع: كلُّ جَوَّاظٍ جَعْظَرِيٍّ مُستكبرٍ[(٦)]

أخرجاه في الصحيحَين وبقيَّةُ الجماعةِ، إلا أبا داود، من حديث سُفيانَ الثوريِّ وشعبةَ، كلاهما عن معبد بن خالد[(٦)] به.

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا أبو عبدِ الرحمن، حدثنا موسَى بن عليٍّ قال: سمعتُ أبي يُحدِّث عن عبد الله بن عَمرو بن العاص أن النبيَّ - ﷺ - قال عند ذِكرِ أهلِ النارِ: «كلُّ جعظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُستكبرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ». تفرَّد به أحمد[(٧)].

قال أهلُ اللغةِ: الجَعْظَرِيُّ: الفَظُّ الغَلِيظُ: الجَمُوعُ المَنُوعُ.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٣٨٩

(٢ - ٢) ساقط من بعض النسخ، والحديث في المسند ٥/٣٩١ هذا وقد سقط من السند في المسند «عن أبي وائل» وأبو وائل هو شقيق بن سلمة، يروي عن حذيفة، وعنه واصل الأحدب، تهذيب الكمال ١٢/٥٤٨ - ٥٥١

(٣) أي: بهم من الخشية والخوف من الله، وكثرة ذكره تعالى، بحيث إن الناس يذكرون الله - تعالى - عند حضورهم

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/٤٥٩، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٣٧٩.

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/٢٢٧

(٦) مسند الإمام أحمد ٤/٣٠٦، وفتح الباري، تفسير سورة القلم ٨/٦٢٢، والأدب ١٠/٤٨٩. ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٩٠، وعارضة الأحوذي، أبواب ١٠/٦٧، وابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٣٧٨. وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٣/١١

(٧) مسند الإمام أحمد ٢/١٦٩.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا عبدُ الحَميد، عن شَهر بن حَوشب، عن عبد الرحمن بن غَنْمٍ، قال: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ عن العُتُلِّ الزنيم، فقال: «هو الشديدُ الخلْق المُصَحَّحُ، الأكولُ الشَّروب، الواجدُ للطعامِ والشرابِ، الظلومُ للناسِ، رَحيبُ الجَوف»(١).

وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الجوّاظ الجَعْظَريُّ(٢)، والعُتُلُّ الزَّنيمُ». وقد أرسله أيضاً غيرُ واحدٍ من التابعين، فقال ابنُ جرير:

حدثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا ابنُ ثور، عن مَعْمر، عن زيد بن أسلم قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «تبكي السماء من عبدٍ أصحَّ الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا مقْضماً، فكان للناس ظَلوماً، قال: فذلك العُتُلُّ الزَّنيم»(٢).

وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم من طريقين مُرسلين، ونصَّ عليه غيرُ واحد من السَّلَف، منهم مجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرهم أن العُتُلَّ هو: المُصَحَّحُ الخَلْق، الشديدُ القويُّ في المأكَلِ والمشْرَبِ والمنْكَحِ، وغير ذلك. وأما الزَّنيم فقال البخاري:

حدثنا محمودٌ، حدثنا عُبيد الله، عن إسرائيل، عن أبي حَصِين، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس: ﴿عُتُلٍّ بعد ذلك زَنِيمٍ﴾، قال: رجلٌ من قريش له زَنَمةٌ مثل زَنَمَةِ الشاة(٣).

ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالشر كشُهرة الشاة ذات الزَّنمةِ من بينِ أخواتها. وأما الزنيمُ في لُغَةِ العَرَب فهو الدَّعيُّ في القوم. قاله ابن جرير وغيرُ واحدٍ من الأئمة، قال: ومنه قولُ حسَّان بن ثابت، يعني يذمُّ بعضَ كُفَّارِ قُرَيشٍ(٤):

وأنتَ زنيمٌ نيطَ في آلِ هاشمٍ ... كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكبِ القَدَحُ الفَرْدُ

وقال آخر(٥):

زَنيمٌ، ليْسَ يُعْرَفُ مَن أبُوه ... بغِيُّ الأمِّ، ذُو حَسَبٍ لَئيمُ

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمَّار بن خالد الواسطيُّ، حدثنا أسباط، عن هِشامٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباسٍ في قوله ﴿زَنِيمٍ﴾، قال: الدَّعيُّ الفاحشُ اللئيم. ثم قال ابنُ عباس(٦):

زنيمٌ، تداعاه الرجالُ زِيادَةً ... كَمَا زِيدَ في عَرْضِ الأديمِ الأكارِعُ

وقال العوفي عن ابن عباس: الزنيم: الدَّعيُّ. ويقال: الزَّنيمُ: رجل كانت به زَنَمةٌ، يُعرَف بها. ويقال: هو الأخنسُ بن شَريق الثقفيُّ، حليف بني زُهرة، وزَعَم أناسٌ من بني زُهرة أن الزَّنيم الأسودُ بن عبدِ يَغوثَ الزُّهريُّ، وليس به(٧).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢٢٧/٤

(٢) تفسير الطبري ٢٤/٢٩

(٣) فتح الباري، تفسير سورة القلم ٦٦٢/٨ وللمِعْزى زنمتان، وهما المعلقتان عند حلوقها.

(٤) ديوان حسان ١١٨، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢٦٥/٢، وتفسير الطبري ٢٥/٢٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٥/٢٩.

(٦) نسبه المبرد في الكامل إلى ١١٤٦/٣ إلى حسان بن ثابت، وبيت حسان قد تقدم، وقد عزاه ابن بَرِّي إلى الخطيم التميمي، اللسان، زنم. وانظر معجم المقاييس لابن فارس ٤٩/٣.

(٧) أخرجه الطبري ٢٥/٢٩.

وقال ابنُ أبي نجيح، عن مُجاهِد، عن ابن عباس: أنه زَعَم أن الزَّنيم المُلحقُ النَّسب

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثني يُونُس، حدَّثنا ابن وَهب، حدثني سُليمان بن بلال، عن عبد الرحمن بن حَرملة، عن سعيد بن المُسَيَّب، أنه سَمِعه يقول في هذه الآية ﴿عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم﴾، قال سعيدٌ: هو المُلصَقُ في القوم، ليس منهم

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبو سَعيد الأشَجُّ، حدثنا عُقبة بن خَالِد، عن عامر بن قدامة قال: سُئل عِكْرمَةُ عن الزَّنيم، قال: هو وَلَدُ الزِّنا.

وقال الحكمُ بن أبان، عن عِكْرمة في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بعدَ ذلك زَنيم﴾، قال: يُعرَفُ المؤمنُ من الكافرِ مثلَ الشاة الزَّنماءِ، والزَّنْماءُ التي في عُنُقها هَنَتَان مُعلَّقتان في حَلْقِها[1]

وقال الثَّوريُّ، عن جابر، عن الحسن، عن سَعيد بن جُبَير قال: الزَّنيم الذي يُعرف بالشرِّ كما تُعرفُ الشاة بِزَنَمتها. والزنيم: المُلصَقُ. رواه ابن جرير.

وَرَوى أيضاً من طريق دَاود بن أبي هند، عن عِكرمة، عن ابن عباس أنه قال في الزَّنيم: قال: نُعِتَ، فلم يُعرَف حتى قيل: زَنيم. قال: وكانت له زَنَمَةٌ في عُنقه يُعرَف بها

وقال آخرون: كان دَعِيًّا. وقال ابن جرير:

حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابنُ إدريسَ، عن أبيه، عن أصحابه التفسير قالوا: هو الذي تكون له زَنمةٌ مثل زَنمةِ الشاة.

وقال الضحَّاكُ: كانت له زَنمةٌ في أصْلِ أُذنِه. ويقال: هو اللَّئيم المُلْصَقُ في النَّسب.

وقال أبو إسحاق، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس: هو المُريبُ الذي يُعرَفُ بالشرّ.

وقال مجاهد: الزَّنيم يُعرَف بهذا الوصفِ كما تُعرَف الشاة. وقال أبو رَزين: الزَّنيم: علامةُ الكُفرِ. وقال عكرمة: الزنيم الذي يُعرَف باللؤم كما تُعرَف الشاةُ بزَنَمتِها.

والأقوالُ في هذا كثيرةٌ، وترجع إلى ما قُلناه، وهو أن الزَّنيم هو: المشهورُ بالشرِّ، الذي يُعرَف به من بين الناس، وغالباً يكونُ دعيًّا ولدَ زِناً، فإنه في الغالب يَتَسلَّط الشيطان عليه ما لا يَتسلَّط على غيره، كما جاء في الحديث: «لا يدخُل الجنةَ ولدُ زِناً»[2]. وفي الحديث الآخر: «ولدُ الزِّنا شرُّ الثلاثةِ إذا عَمِل بعَمَل أبَويه»[3].

وقولُه: ﴿أن كان ذا مالٍ وبَنِينَ ۞ إذا تُتلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوَّلين﴾، يقول تعالى: هذا مُقابلة ما أنعم اللهُ عليه من المال والبنين، كَفَر بآيات الله وأعرضَ عنها وزَعَم أنها كَذِبٌ مأخوذٌ من أساطير الأوَّلين، كقوله: ﴿ذَرْني ومَن خلقتُ وَحِيداً ۞ وجعلتُ له مالاً ممدُوداً ۞ وَبنينَ شُهوداً ۞ ومَهَّدتُ له تمهيداً ۞ ثم يَطمَعُ أن أزيدَ ۞ كلا إنه كان لآياتنا عَنيدًا ۞ سأُرهِقُه صَعُودًا ۞ إنه فَكَّر وقَدَّر ۞ فقُتِلَ كيف قَدَّر ۞ ثم قُتِل كيفَ قدَّر ۞ ثم نَظَرَ ۞ ثم عَبَس وَبَسر ۞ ثم أدبرَ واستكبَرَ ۞ فقال إن هذا إلا سِحرٌ يُؤثَرُ ۞ إن هذا إلاَّ قولُ البَشَر﴾، قال الله

---

(١) في النسخ: والتي في عنقها المتعلقتين في حلق الشاة. والمثبت من الطبعات السابقة.
(٢) أخرجه الإمام أحمد ٢/٢٠٣، وتقدَّم عند تفسير الآية ٩١ من سورة المائدة.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/٣١١، ٦/١٠٩، وأبو داود في كتاب العتق ٤/٢٨، والنسائي في العتق من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٩/٣٩٧.

تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾. وقال تعالى هاهنا: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.

قال ابنُ جرير: سنُبيِّن أمرَه بياناً واضحاً، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى السمةُ على الخراطيم[1]. وهكذا قال قتادةُ: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾: شينٌ لا يُفارقه آخرَ ما عليه. وفي روايةٍ عنه: سيما على أنفِهِ. وكذا قال السُّدّي.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ يُقاتل يوم بدر، فيُخطَمُ بالسيف في القتال. وقال آخرون: ﴿سَنَسِمُهُ﴾ سِمةَ أهل النار، يعني نُسوِّد وجهَه يوم القيامة، وعَبَّر عن الوجه بالخُرطوم. حكى ذلك كلَّه أبو جعفر بنُ جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة، وهو متَّجهٌ.

وقد قال ابنُ أبي حاتم في سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتبُ الليث، حدثني الليثُ، حدثني خالدُ بن سعيد، عن عبد الملك بن عبد الله، عن عيسى بن هلال الصَّدَفي، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ العبد يُكتَبُ مؤمناً أحقاباً، ثم أحقاباً، ثم يموتُ والله عليه ساخطٌ. وإنَّ العبد يُكتب كافراً أحقاباً، ثم أحقاباً، ثم يموتُ والله عليه راضٍ. ومَن مات همّازاً لمّازاً مُلقِّباً للناس، كان علامتُه يوم القيامةِ أن يَسِمَه الله على الخرطوم، من كلا الشفتين»[2].

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ
عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾
قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا
إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذا مَثَلٌ ضربه الله لكُفّار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النِّعم الجسيمة، وهو بعثةُ محمدٍ ـ ﷺ ـ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والردّ والمحاربة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾، أي: اختبرناهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، وهي البستانُ المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، أي: حلفوا فيما بينهم ليَجُذُّنَّ ثمرَها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقيرٌ ولا سائلٌ، ليتوفَّر ثمرُها عليهم ولا يتصدَّقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، أي: فيما حلفوا به. ولهذا حنَّثهم الله في أيمانهم، فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، أي: أصابتها آفةٌ سماويةٌ، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، قال ابنُ عباس: أي كالليل الأسود. وقال الثوري، والسُّدّي: مثل الزرع إذا حُصِد، أي: هشيماً يبساً.

وقال ابنُ أبي حاتم: ذُكر عن أحمد بن الصباح، أنبأنا بشير بن زاذان، عن عُمر بن صُبح[3]، عن ليث بن أبي سليم، عن عبد الرحمن بن سابط، عن ابن مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إيّاكم

(١) تفسير الطبري ٢٩/٢٨.
(٢) أخرجه أيضاً الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان. الدر المنثور ٨/٢٥٠.
(٣) في بعض النسخ: صبيح. والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/١١٦.

والمعاصيَ، إنَّ العبدَ ليُذنبُ الذنبَ فيُحرَمُ به رزقاً قد كان هُيِّئ له». ثم تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿فطاف عليها طائفٌ من ربِّك وهم نائمون * فأصبحت كالصَّريم﴾، قد حُرِموا خيرَ جنَّتِهم بذنبِهم[1].

﴿فتنادوا مُصبحين﴾، أي: لما كان وقتُ الصبح نادى بعضُهم بعضاً ليذهبُوا إلى الجداد، ﴿أنِ اغدُوا على حَرْثكم إن كنتم صارمين﴾، أي: تُريدون الصرام[2]. قال مجاهدٌ: كان حرثُهم عنبٌ، ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾، أي: يتناجون فيما بينهم بحيثُ لا يُسمِعُون أحداً كلامَهم. ثم فسَّر الله عالمُ السِّر والنَّجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال: ﴿فانطلقُوا وهم يتخافتُون * أن لا يدخلنَّها اليومَ عليكُم مسكين﴾، أي: يقولُ بعضُهم لبعض: لا تُمكِّنوا اليوم فقيراً يدخلُها عليكم! قال الله تعالى: ﴿وغَدَوا على حَرْدٍ﴾، أي: قُوَّةٍ وشِدَّةٍ. قال مجاهدٌ: ﴿وغدَوا على حَرْدٍ﴾، أي جِدٍّ. وقال عِكرِمةُ: غيظٍ. وقال الشَّعبي: ﴿على حَرْدٍ﴾: على المساكين. وقال السُّدِّي: ﴿على حَرْدٍ﴾، أي: كان اسمُ قريتهم حَرْدًا فأبعدَ السُّدِّي في قوله هذا.

﴿قادرين﴾، أي: عليها، فيما يزعُمون ويَرُومُون ﴿فلمَّا رأوها قالوا إنا لضالُّون﴾، أي: فلمَّا وصلُوا إليها وأشرفُوا عليها، وهي الحالةُ التي قال الله ـ عزَّ وجل ـ قد استحالت عن تلك النضارةِ والزَّهرةِ وكثرةِ الثِّمار إلى أن صارت سوداءَ مُدلَهِمَّةً، لا يُنتفعُ بشيءٍ منها، فاعتقدُوا أنهم قد أخطئُوا الطريقَ ولهذا قالوا: ﴿إنا لضالُّون﴾، أي: قد سلَكنا إليها غيرَ الطريق فتُهنا عنها. قاله ابنُ عباس وغيرُه. ثم رجعُوا عما كانوا فيه، وتيقَّنوا أنها هي فقالُوا: ﴿بل نحنُ محرُومون﴾، أي: بل هي هذه، ولكن نحنُ لا حظَّ لنا ولا نَصيبَ.

﴿قال أوسطُهم﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبير، وعِكْرِمةُ، ومحمد بن كعب، والرَّبيع بن أنس، والضحَّاك، وقتادةُ: أي أعدلُهم وخيرُهم: ﴿ألم أقُل لكم لولا تُسبِّحُون﴾، قال مجاهد، والسُّدِّي، وابن جُريج: ﴿لولا تُسبِّحُون﴾، أي: لولا تستثنون. قال السُّدِّي: وكان استثناؤُهم في ذلك الزمانِ تسبيحاً.

وقال ابنُ جُريج[3]: هو قول القائل: إن شاء الله. وقيل: معناه: ﴿قال أوسطُهم ألم أقُل لكُم لولا تُسبِّحون﴾، أي: هلَّا تُسبِّحون الله وتشكُرونه على ما أعطاكُم وأنعمَ به عليكم. ﴿قالوا سُبحانَ ربِّنا إنا كنا ظالمين﴾، أتَوا بالطاعةِ حيثُ لا تنفعُ، وندِمُوا واعترفُوا حيثُ لا ينجعُ، ولهذا قالوا: ﴿إنا كُنَّا ظالمين * فأقبلَ بعضُهم على بعضٍ يتلاومُون﴾، أي: يلوم بعضُهم بعضاً على ما كانوا أصرُّوا عليه من منعِ المساكين من حقِّ الجِذاذِ، فما كان جوابُ بعضِهم لبعضٍ إلا الاعترافُ بالخطيئة والذنب. ﴿قالوا يا ويلَنا إنا كنا طاغين﴾، أي: اعتدَينا وبَغَينا وطَغَينا وجاوَزْنا الحدَّ حتى أصابنا ما أصابنا، ﴿عسى ربُّنا أن يُبدِلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبُون﴾، قيل: رَغِبوا في بَذلِها لهم في الدنيا. وقيل: احتسَبُوا ثوابَها في الدارِ الآخرة، والله أعلمُ.

ثم قد ذَكَر بعضُ السلفِ أن هؤلاءِ قد كانُوا من أهل اليمن، قال سعيد بن جُبير: كانوا من قريةٍ يقال لها: ضَرَوَانُ، على ستة أميالٍ من صنعاء[4]. وقيل: كانُوا من أهل الحبشة، وكان أبوهُم قد خلَّفَ لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرةً حسنةً، فكان ما يستَغِلُّه منها يَرُدُّ فيها ما يحتاجُ إليه ويدَّخر لعياله قُوتَ سنَتِهم، ويتصدَّق بالفاضل. فلما مات وَوَرِثه بَنُوه قالوا: لقد كان أبونا أحمقَ إذ كان يصرف من هذه

---

(١) أخرجه أيضاً ابن مردويه، الدر المنثور ٨/٢٥٠.

(٢) الصِّرام: جَنيُ الثمار.

(٣) في بعض النسخ: ابن جرير. وقد أخرج ابن المنذر أثر ابن جُريج كما في الدر المنثور ٨/٢٥٣. وكذلك قال الطبري ٢٩/٣٥.

(٤) روي ذلك عن سعيد بن جُبير. الدر المنثور ٨/٢٥١، وقد حُرِّف الاسمُ في الدر، وانظر معجم البلدان لياقوت: ضروان. ومفحمات الأقران للسيوطي ٢٠٠.

شيئاً للفقراء، ولو أنّا منعناهم لتوفّر ذلك علينا. فلما عزموا على ذلك عُوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكُلّية، رأس المال والرِّبح والصدقة، فلم يَبْقَ لهم شيء.

قال الله تعالى ﴿كذلك العذابُ﴾، أي: هكذا عذابُ مَن خالف أمْرَ الله، وبخل مما آتاه الله وأنعمَ به عليه، ومنع حقَّ المسكين والفقير وذوي الحاجات، وبدَّل نعمةَ الله كُفراً ﴿ولعذابُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمُون﴾، أي: هذه عقوبةُ الدنيا كما سمعتُم، وعذابُ الآخرة أشقُّ. وقد وَرَد في حديث رواه الحافظُ البيهقيُّ من طريق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جدِّه أن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن الجِذاذِ بالليل، والحَصادِ بالليل[1].

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنةِ الدنيويَّة، وما أصابهم فيها من النِّقمة حين عَصَوُا الله ـ عزَّ وجل ـ وخالفوا أمره، بيَّن أنَّ لِمَن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جناتِ النعيم، التي لا تَبِيدُ ولا تفرَغ، ولا ينقضي نعيمُها

ثم قال: ﴿أفنجعلُ المُسلمين كالمُجرمين﴾، أي: أفَنُساوي بين هؤلاءِ وهؤلاءِ في الجزاءِ؟ كلاّ وربِّ الأرض والسماء، ولهذا قال: ﴿ما لكم كيف تحكُمون﴾ أي: كيف تظُنُّون ذلك؟!.

ثم قال: ﴿أم لكُم كتاب فيه تدرُسون * إنَّ لكم فيه لَمَا تخيَّرون﴾: يقول: أبأيديكم كتابٌ منزَّل من السماء تدرسُونه وتحفظُونه وتتداولُونه بنَقْل الخلَفِ عن السلف، مُتضمِّنٍ حكماً مُؤكداً كما تدَّعونه؟ ﴿إنَّ لكم فيه لما تخيَّرون * أم لكم أيمانٌ علينا بالغةٌ إلى يوم القيمة إنَّ لكم لما تحكُمون﴾، أي: أمعكم عهودٌ منا ومواثيقُ مؤكَّدةٌ. ﴿إنَّ لكُم لما تحكُمون﴾، أي: إنه سيحصُل لكم ما تُريدون وتشتَهُون، ﴿سَلْهُم أيُّهم بذلك زَعيمٌ﴾، أي: قل لهم: مَن هو المُتضمِّن المُتكفِّل بهذا؟ ﴿أم لهم شُركاء﴾، أي: من الأصنام والأندادِ، ﴿فليأتُوا بشُركائِهم إن كانُوا صادِقين﴾.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

لَمّا ذكر تعالى أنَّ للمُتّقين عنده جناتِ النعيم، بيَّن متى ذلك كائنٌ وواقعٌ، فقال: ﴿يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدعون إلى السُّجود فلا يستطيعون﴾، يعني يومَ القيامة وما يكونُ فيه من الأهوال والزلازِل والبلايا والامتحانِ والأُمورِ العظام، وقد قال البخاريُّ ها هنا:

(١) السنن الكبرى، كتاب الزكاة، ١٣٣/٤، وبعده: «قال جعفر: أراه من أجل المساكين».

حدثنا آدمُ، حدثنا الليثُ، عن خالد بن يزيدَ، عن سعيد بن أبي هلالٍ، عن زيد بن أسلم، عن عطاءِ بن يَسارٍ، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ قال: سمعتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ يقول: «يكشفُ ربّنا عن ساقه، فيسجُد له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقى من كان يسجُد في الدنيا رياءً وسُمعةً، فيذهبُ ليسجُدَ فيعودُ ظهرُه طبَقاً واحداً»[1].

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طُرقٍ، وله ألفاظ، وهو حديث طويلٌ مشهورٌ[1].

وقد قال عبدُ الله بن المبارك، عن أسامةَ بن زيدٍ، عن عِكرمة، عن ابن عباس: ﴿يوم يُكشفُ عن ساقٍ﴾، قال: هو يومُ كَرْبٍ وشِدّةٍ، رواه ابنُ جرير، ثم قال:

حدثنا ابن حُميد، حدّثنا مهران، عن سُفيان، عن المُغيرة، عن إبراهيمَ، عن ابن مسعودٍ أو ابن عباس[2] ـ الشكُّ من ابنِ جرير ـ ﴿يوم يُكشفُ عن ساقٍ﴾، قال: عن أمرٍ عظيمٍ، كقولِ الشاعرِ:

وقامتِ الحربُ بِنَا على ساقٍ[3]

وقال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: ﴿يومَ يُكشفُ عن ساقٍ﴾، قال: شِدّةُ الأمرِ. وقال ابنُ عباس: هي أولُ ساعةٍ تكون في يوم القيامة. وقال ابن جُريج عن مجاهدٍ: ﴿يومَ يُكشفُ عن ساقٍ﴾، قال: شِدّةُ الأمرِ وجدُّه. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس قوله: ﴿يوم يُكشفُ عن ساقٍ﴾، هو: الأمر الشديدُ المُفظِع من الهَولِ يومَ القيامة. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس قوله: ﴿يوم يُكشفُ عن ساقٍ﴾، يقولُ: حين يُكشفُ الأمرُ وتبدُو الأعمال، وكشفُه دخولُ الآخرة وكشفُ الأمرِ عنه. وكذا روى الضحاك، عن ابن عباس. أورد ذلك كلَّه أبو جعفر بنُ جريرٍ[4]، ثم قال:

حدثني أبو زيدٍ عُمَر بن شَبّة، حدثنا[5] هارونُ بن عُمر المخزومي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو سعيد روح بن جَناح، عن مولىً لعُمر بن عبد العزيز، عن أبي بُردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ﴿يومَ يُكشفُ عن ساقٍ﴾، قال: عن نُورٍ عظيمٍ يَخِرُّون له سجداً[6].

وَرواه أبو يَعْلَى، عن القاسم بن يحيى، عن الوليد بن مسلم، به. وفيه رجلٌ مُبْهَمٌ، فالله أعلم[6].

وقولُه ﴿خاشعةً أبصارُهم ترهقُهم ذِلَّة﴾، أي: في الدارِ الآخرة بإجرامهم وتكبُّرِهم في الدنيا، فعُوقبُوا بنقيضِ ما كانوا عليه، ولما دُعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعُوا منه مع صِحّتهم وسلامتهم كذلك عُوقبوا بعدم قُدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلّى الربُّ ـ عزّوجل ـ فسجد له المؤمنون، لا يستطيعُ أحدٌ من الكافرين ولا المُنافقين أن يَسجُدَ، بل يعودُ ظهرُ أحدِهم طبقاً واحداً، كُلّما أراد أحدُهم أن يسجُدَ خرَّ لقفاه، عكسَ السُّجود، كما كانوا في الدنيا، بخلافِ ما عليه المؤمنون.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَرني ومَن يُكذِّبُ بهذا الحديثِ﴾: يعني القرآنَ. وهذا تهديدٌ شديدٌ، أي: دَعني وإيّاه منّي ومنهُ، أنا أعلمُ به كيفَ أستدرِجُهُ، وأُمِدُّه في غَيِّه وأُنْظِرُه، ثم آخذهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقتدرٍ. ولهذا قال:

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة ﴿ن والقلم﴾ ٨/٦٦٣ ـ ٦٦٤، وكتاب التوحيد ١٣/٤٢٠ ـ ٤٢٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٦٧ وما بعدها

(٢) تفسير الطبري ٢٩/٣٨، والمثبت من المطبوعة. وعن إبراهيم، عن ابن عباس، دون شك

(٣) في النسخ. وسالت الحرب. والمثبت عن تفسير الطبري، والأسماء والصفات للبيهقي ٢/٨٠، وفي الأسماء قبل هذا البيت.

اصبر عناق إنه شرٌ باقِ قد شكَّ قومُك ضربَ الأعناق

(٤) تفسير الطبري ٢٩/٣٨ ـ ٣٩.

(٥) سقط من تفسير الطبري: حدثنا هارون بن عُمر المخزومي.

(٦) تفسير الطبري ٢٩/٤٢، ومسند أبي يعلى ٦/٣٠٢، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، بإسناده إلى الوليد بن مسلم، به ٢/٨٣

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أنَّ ذلك من الله كرامةٌ، وهو في نفس الأمر إهانةٌ، كما قال: ﴿أيحسبون أنما نُمدُّهم به من مالٍ وبنين * نُسارِع لهم في الخيراتِ بل لا يشعُرون﴾. وقال: ﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ حتَّى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أخذناهُم بَغتةً فإذا هم مُبلِسُون﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿وأُملِي لهم إنَّ كيدِي متينٌ﴾، أي: وأؤخِّرهم وأُنظِرهم وأمدُّ لهم، وذلك من كيدِي ومَكْرِي بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّ كَيدِي متينٌ﴾، أي: عظيمٌ لمن خالف أمري، وكذَّب رُسُلِي، واجترأ على مَعْصِيتي.

وفي الصَّحيحين عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ الله لَيُملي للظَّالِم حتَّى إذا أخذَه لم يُفلِتْه» ثم قرأ ﴿وكذلك أخذُ ربِّك إذ أخذ القُرى وهي ظالِمةٌ إنَّ أخذَه أليمٌ شديدٌ﴾[1].

وقوله ﴿أم تسألُهم أجراً فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلون * أم عندهم الغيبُ فهم يكتُبون﴾، تقدم تفسيرهما في سورة الطور[2]، والمعنى في ذلك: أنك ـ يا محمد ـ تدعُوهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بلا أجرٍ تأخذه منهم، بل تَرجُو ثوابَ ذلك عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهم يُكذِّبون بما جئتَهم به، بمُجرَّد الجَهْلِ والكُفر والعِناد.

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿فاصبر﴾ ـ يا محمدُ ـ على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإنَّ الله سيحكُم لك عليهم، ويجعلُ العاقبةَ لك ولأتباعك في الدُّنيا والآخرة، ﴿ولا تكُن كصاحِب الحُوتِ﴾، يعني ذا النُّون، وهو يونُس بن متَّى عليه السلامُ، حين ذهب مُغاضِباً على قومه، فكان من أمره ما كان من رُكوبه في البحر والتقام الحُوت له، وشُرودِ الحُوتِ به في البحار وظُلُماتِ غَمراتِ اليَمِّ، وسَماعه تسبيح البحرِ بما فيه للعَلِيِّ القدير، الذي لا يُرَدُّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذٍ نادى في الظُّلُمات: ﴿أن لا إلَه إلا أنتَ سُبحانك إني كنتُ من الظالِمين﴾، قال الله: ﴿فاستجبنا له ونجَّيناه من الغمِّ وكذلك نُنجي المؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المُسبِّحين * لَلَبِثَ في بطنِه إلى يوم يُبعثُون﴾. وقال هاهنا: ﴿إذ نادى وهو مكظُوم﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهد، والسُّدِّي: مغمومٌ. وقال عطاء الخراساني، وأبو مالك: مكروبٌ. وقد قدَّمنا في الحديث أنه لما قال: ﴿لا إلَه إلا أنتَ، سُبحانك إني كنتُ من الظالمين﴾، خرجت الكلمة تَحُفُّ حول العرش، فقالت الملائكة: يا ربِّ، هذا صوتٌ ضَعيفٌ معروفٌ من بلادٍ غريبةٍ. فقال الله: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا يونُس. قالوا: يا ربِّ، عبدُك الذي لا يزالُ يُرفَع له عملٌ صالح ودعوةٌ مجابةٌ؟ قال: نعم. قالوا: أفلا ترحَمُ ما كان يعمَله في الرخاء فتُنجيَه من البلاء؟ فأمر الله الحوتَ فألقاه بالعَراءِ[3]، ولهذا قال تعالى: ﴿فاجتباه ربُّه فجعلَه من الصَّالحين﴾.

وقد قال الإمامُ أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سُفيان، عن الأعمش، عن أبي وائلٍ، عن عبد الله قال: قال

---

(١) تقدَّم الحديث في غير موضع، وتخريجه هنالك. انظر تفسير الآية ١٢٦ من سورة البقرة، ١٩، ١٠٢ من سورة هود، ٣٢ من سورة الرعد، ٤٧ من سورة النحل، ٦ من سورة الإسراء، ٧ من سورة مريم، ٤٤ من سورة الحج.

(٢) انظر تفسير آيتي الطور ٤٠ ـ ٤١.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٨٧ من سورة الأنبياء، من رواية ابن أبي حاتم.

رسولُ الله ـ ﷺ ـ . «لا ينبغي لأحد أن يقولَ: أنا خيرٌ من يونُس بن متَّى»[١]

ورواه البُخاريُّ من حديث سُفيان الثَّوري. وهو في الصحيحَين من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ[١].

وقولُه: ﴿وإن يكادُ الذين كفَرُوا ليُزلِقُونكَ بأبصارهم﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وغيرُهما: ﴿ليُزلِقُونكَ﴾ ليَنفُذونَكَ بأبصارهم أي: ليَعِينُوك بأبصارهم، بمعنى يحسُدونك لِبغضِهم إيَّاك لولا وقايةُ الله لك، وحمايتُهُ إيَّاك منهُم. وفي هذه الآية دليلٌ على أن العين إصابتُها وتأثيرُها حقٌّ، بأمرِ الله ـ عزَّ وجل ـ كما وَرَدت بذلك الأحاديثُ المرويَّةُ من طُرُقٍ مُتعدِّدة كثيرة:

حديثُ أنَسِ بن مالكٍ ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال أبو داود:

حدثنا سُليمان بن داود العتَكي: حدثنا شريك (ح) ـ وحَدَّثنا العباسُ العَنْبَريُّ، حدثنا يزيدُ بنُ هارونَ، أنبأنا شَريك، عن العباس بن ذَريح، عن الشَّعبيِّ ـ قال العباس: عن أنس ـ قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ : «لا رُقيَةَ إلَّا من عينٍ أو حُمَةٍ أو دَمٍ لا يَرْقَأ». لم يذكر العباس العين. وهذا لفظ سليمان[٢].

حديث بُرَيْدَةَ بن الحُصَيب ـ رَضِي الله عنه ـ قال أبو عبد الله بن ماجَه:

حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَيرٍ، حدثنا إسحاقُ بن سُلَيمان، عن أبي جعفر الرازيِّ، عن حُصَين، عن الشَّعبيِّ، عن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «لا رُقيَةَ إلا من عَينٍ أو حُمَةٍ»[٣].

هكذا رواه ابنُ ماجه، وقد أخرجه مُسلِمٌ في صَحيحِه، عن سعيد بن مَنصُور، عن هُشَيم، عن حُصَين بن عبد الرحمن عن عامر الشَّعبيِّ، عن بُرَيدَةَ موقوفاً، وفيه قصَّةٌ[٣]. وقد رواه شعبةُ، عن حُصَين، عن الشَّعبيِّ، عن بُرَيْدَةَ، قاله الترمذي[٣]، وروى هذا الحديث الإمامُ البخاريُّ من حديث محمد بن فُضَيل، وأبو داود من حديث مالك بن مِغْوَلٍ، والترمذي من حديث سُفيان بن عُيَينَةَ، ثلاثتهم عن حُصَينٍ، عن عامرٍ الشَّعبيِّ، عن عمران بن حُصَينٍ موقوفاً[٣].

حديث أبي ذَرٍّ جُندُبَ بن جُنادَةَ، قال الحافظ أبو يعلَى المَوْصِليُّ:

حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرةَ بن البِرِنْدِ السَّاميُّ، حدثنا ديلم بن غَزوان، حدثنا وَهبُ بن أبي دُبَي[٤]، عن أبي حَرْبٍ، عن مِحْجَنٍ، عن أبي ذرٍّ قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ العينَ لَتُولَعُ[٥] الرجل بإذن الله، فيتصاعد حالقاً ثم يتردَّى منه». إسناده غريبٌ، ولم يُخرِجُوه[٦].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٩٠/١، وحديث البخاري في كتاب الأنبياء، فتح الباري ٤٥٠/٦، وتفسير سورة النساء ٢٦٧/٨ وأما حديث أبي هريرة في «الصحيحين» فقد أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، فتح الباري ٤٥١/٦، وسورة الأنبياء، الفتح ٢٩٤/٨، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٤٦/٤.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الطب ١١/٤. والحُمَة السمُّ. لا يَرْقأ لا ينقطع

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الطب ١١٦١/٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١٩٩/١، وعارضة الأحوذي، أبواب الطب ٢١٣/٨، وفتح الباري، كتاب الطب ١٥٥/١٠، وسنن أبي داود، أبواب الطب ١٠/٤.

(٤) كذا في بعض النسخ ومثله في الجرح ٢٢/٩ ـ ٢٣ وفي الجرح ٤٣٥/٣ وكشف الأستار، ومسند أحمد دبي، بالدال المعجمة وانظر تهذيب الكمال ١٣١/٣١.

(٥) كذا في النسخ، وكشف الأستار وفي المسند لتُولع، بالعين المعجمة ولعل المعنى لتحرص على إيذائه، يقال وَلِعَ به إذا لجَّ في أمره وحرص على إيذائه، وقد حذف الجارّ وهو الباء ونصب الاسم وهو «الرجل» على نزع الخافض

(٦) لم يقع لنا حديثٌ لأبي ذر فيما طبع من مسند أبي يعلى. وقد أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٤٦/٥، ١٦٧ بإسناده إلى ديلم وأخرجه ـ

حديثُ حابسٍ التَّميميِّ، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا عبدُ الصمدِ، حدثنا حربٌ، حدثنا يحيى بن أبي كثيرٍ، حدثني حَيَّةُ بن حابس التميميُّ أنَّ أباه أخبره أنه سَمِعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا شيءَ في الهامِ، والعينُ حقٌّ، وأصدقُ الطِّيَرَةِ الفَأْلُ»(١).

وقد رواه التِّرمذيُّ عن عَمرِو بن علي، عن أبي غَسَّان يحيى بن كثير، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، به. ثم قال: غريبٌ، قال: «وروَى شيبانُ، عن يحيى بن أبي كثير، عن حيَّةَ بن حابسٍ، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي ﷺ»(١).

قلت: كذلك رواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى وحُسين بن محمد، عن شيبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن حيَّةَ حدَّثَهُ، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا بأسَ في الهامِ، والعينُ حَقٌّ، وأَصْدَقُ الطِّيَرَةِ الفألُ»(٢).

حديثُ ابنِ عبَّاسٍ، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا عبدُ الله بن الوليد، عن سفيان، عن دُوَيدٍ، حدثني إسماعيلُ بن ثوبانَ، عن جابرِ بن زيدٍ، عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «العينُ حقٌّ، العينُ حقٌّ، تستنزلُ الحالقَ»(٣). غريب.

طريقٌ أخرى، قال مسلم في صَحِيحه:

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارميُّ، أخبرنا مسلمُ بن إبراهيم: حدثنا وُهَيب، عن ابن طاوسٍ، عن أبيه، عن ابن عباسٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سَابَقَ القَدَرَ سَبَقَتْ العينُ، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغسلوا»(٤). انفرد به دُونَ البُخاريِّ.

وقال عبدُ الرزَّاق، عن سُفيان الثوري، عن منصور، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيرٍ، عن ابن عباسٍ قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُعَوِّذُ الحَسَنَ والحُسَينَ، يقول: «أُعِيذُكُما بكلماتِ الله التامَّةِ، من كلِّ شيطانٍ وهَامَّةٍ، ومن كلِّ عينٍ لامَّةٍ»، ويقولُ: «هكذا كان إبراهيمُ يُعوِّذُ إسحاقَ وإسماعيلَ عليهما السلام».

أخرجَه البخاري وأهلُ السُّنَنِ من حديثِ المِنهَالِ، به(٥).

= البزار أيضاً عن مسهر بن عبد الملك، عن ديهم، كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الطب ٣/٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٧٠، وعارضة الأحوذي، أبواب الطب ٨/٢١٥ ـ ٢١٨.

والهام: واحده هامة، وهو طائر يزعم العرب أنه يخرج من هامة القتيل ـ وهي رأسه ـ ويقول: اسقوني، اسقوني. والهامة أيضاً طائر معروف من طير الليل، قيل: هو البومة، كانت إذا سقطت على دار أحدهم رآها ناعية له نفسه أو بعض أهله.

والطِّيَرَةُ: التشاؤم بالشيء، والفأل يكون فيما يسوءُ ويسرُّ، والطِّيَرةُ لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسرّ.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٧٠.

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٢٧٤، ٢٩٤

(٤) مسلم، كتاب السلام ٤/١٧١٩. هذا وكانوا يرون أنه يُؤمَر العائن فيَغسِلُ أطرافه وما تحت الإزار، فتُصبُّ غُسالته على المَعين، يستشفون بذلك. فأمرهم النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ألاَّ يمتنعوا عن الاغتسال إذا أُريد منهم ذلك.

(٥) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٠٨، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٣٥، وعارضة الأحوذي، أبواب الطب ٨/٢١٥، وأخرجه النسائي في كتاب النعوت من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/٤٥١، وابن ماجه في كتاب الطب ٢/١١٦٤ ـ ١١٦٥.

والهامَّة: واحدة الهوامِّ، وهي: الحيات، وكلُّ ذي سُمٍّ يقتُلُ سُمُّه، وأما ما لا يقتُل ويَسُمُّ فهو السوامُّ. واللامَّة: ذوات اللَّمَمِ، واللَّمَمُ كل داءٍ يُلِمُّ، من خَبَلٍ، أو جُنُونٍ أو نحوهما، أي: من كلِّ عينٍ تُصيب بسُوءٍ.

حديثُ أبي أُمامَةَ أسعدَ بنِ سَهلِ بنِ حُنَيفٍ ـ رضي الله عنه ـ قال ابنُ ماجه: حدثنا هشامُ بن عمّار، حدثنا سفيان، عن الزُّهريِّ، عن أبي أُمامةَ بن سهل بن حُنيفٍ قال:

مرَّ عامرُ بن ربيعة بسهل بن حُنيف وهو يغتسلُ فقال: لم أرَ كاليوم ولا جلدَ مُخَبَّأةٍ. فما لبث أن لُبِطَ به، فأُتِيَ به رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقيل له: أدرِكْ سهلاً صريعاً. قال: «من تتهمون به؟» قالوا: عامر بن ربيعة. قال: «علام يقتُلُ أحدُكم أخاه؟ إذا رأى أحدُكم من أخيه ما يُعجبُه فَلْيدعُ له بالبركة». ثم دعا بماءٍ فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسِلَ وجهَه ويدَيه إلى المِرفقَين، وركبتيه، وداخلة إزاره، وأمره أن يَصُبَّ عليه.

قال سفيان: قال معمر، عن الزهري: وأمر أن يكفأَ الإناءَ من خَلْفِه[1].

وقد رواه النسائي، من حديث سفيان بن عُيينَة ومالك بن أنس، كلاهما عن الزُّهريِّ، به. ومن حديث سفيان بن عُيينة أيضاً، عن معمر، عن الزُّهريِّ، عن أبي أمامة. ويكفأ الإناء من خلفه. ومن حديث ابن أبي ذئب عن الزُّهريِّ، عن أبي أمامة أسعدَ بنِ سَهلِ بن حُنيفٍ، عن أبيه، به. ومن حديث مالكٍ أيضاً، عن محمد بن أبي أمامةَ بن سهلٍ، عن أبيه، به[1].

حديثُ أبي سعيد الخُدريِّ، قال ابنُ ماجه:

حدثنا أبو بكر بن أبي شَيبةَ، حدَّثنا سعيدُ بن سليمان، حدثنا عُبَاد، عن الجُريري، عن أبي نضْرَةَ، عن أبي سعيد قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يتعوَّذُ من أعيُنِ الجانِّ وأعيُنِ الإنسِ. فلما نزل المعوِّذتان أخذهما وترَك ما سِوى ذلك[2].

ورواه الترمذي والنسائيُّ، من حديث سَعِيد بن إياس أبي مسعودٍ الجُرَيريِّ، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ»[2].

حديث آخرُ، عنه، قال الإمام أحمد:

حدثنا عبدُ الصَّمدِ بنُ عبد الوارث، حدثني أبي، حدثني عبد العزيز بن صُهَيب، حدثني أبو نضرة، عن أبي سعيد: أنَّ جبريلَ أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: اشتكيتَ يا محمد؟ قال: نعم. قال: باسمِ الله أرقيكَ، من كلِّ شيءٍ يُؤذيكَ، من شرِّ كلِّ نفسٍ وعينٍ يَشفيكَ، باسم الله أرقيكَ[3].

وَرَواه عن عفَّان، عن عبد الوارث، مثله[3]. وَرَواه مُسلِمٌ وأهل السُّنَنِ ـ إلا أبا داود ـ من حديثِ عبد الوارثِ، به[3].

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا عفَّان، حدثنا وُهيب، حدثنا داود، عن أبي نضرةَ، عن أبي سعيد ـ أو: عن جابر بن عبد الله أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ اشتكى، فأتاه جبريلُ فقال: باسم الله أرقيكَ، من كلِّ شيءٍ يُؤذيكَ، من كُلِّ حاسدٍ وعينٍ الله يَشفيكَ[4].

وَرَواه أيضاً، عن محمد بن عبد الرحمن الطُّفَاويِّ، عن داود، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعِيدٍ، به[4]

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الطب ٢/١١٦٠، وأخرجه النَّسائيُّ في كتاب الطب من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ٩٦/١ والمخبأة: الجارية المخبأة في خدرها لم تتزوج بعدُ. ولُبِطَ به: صُرعَ وسقط إلى الأرض.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الطب ٢/١١٦١، وعارضة الأحوذي، أبواب الطب ٨/٢١٤، وأخرجه النسائي في كتاب الاستعاذة ٨/٢٧١

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٢٨، ٥٦ ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧١٨ ـ ١٧١٩، وعارضة الأحوذي، أبواب الجنائز ٤/١٩٦، وأخرجه النسائي في كتاب النعوت من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ٣/٤٦٧، وابن ماجه في كتاب الطب ٢/١١٦٤

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٧٥، ورواية الإمام أحمد عن الطُّفاوي في المسند ٣/٥٨

قال أبو زُرعة الرازيّ: رَوَى عبد الصمد بن عبد الوارث، عن أبيه، عن عبد العزيز، عن أبي نَضْرَةَ، وعن عبد العزيز، عن أنس، في معناه، وكلاهما صحيح[(١)].

حديثُ أبي هُرَيرة، قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزَّاق، أنبأنا معمرٌ، عن هَمَّام بن مُنَبِّهٍ قال: هذا ما حدثنا أبو هُرَيرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن العين حق»[(٢)]. أخرجاه من حديثِ عبدِ الرزَّاق[(٢)].

وقال ابنُ ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، عن الجُرَيري، عن مُضارب بن حزن، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «العينُ حقٌّ» تفرَّد به[(٣)]. ورواه أحمد، عن إسماعيل بن عُلَيَّة، عن سعيد الجُرَيْري[(٣)]، به.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا ابنُ نُمير، حدثنا ثورٌ ـ يعني ابنَ يزيد ـ عن مكحول، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «العينُ حَقٌّ، ويحضُرُها الشيطانُ، وحَسَدُ ابنِ آدَمَ»[(٤)].

وقال أحمدُ: حَدَّثنا خلفُ بنُ الوليد، حدثنا أبو مَعْشَرٍ، عن محمد بن قَيس: سُئل أبو هُرَيرةَ: هل سَمِعتَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: الطِّيَرَةُ في ثلاث: في المسكنِ والفرسِ والمرأةِ؟ قال: قلت: إذاً أقولُ على رسول الله ﷺ ما لم يقل! ولكني سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «أصدَقُ الطِّيَرَةِ الفألُ، والعينُ حَقٌّ»[(٥)].

حديثُ أسماءَ بنتِ عُمَيسٍ، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا سفيانُ، عن عَمرو بن دينار، عن عُروةَ بن عامرٍ، عن عُبيدِ بن رفاعةَ الزُّرَقِيِّ قال. قالت أسماءُ: يا رسولَ الله، إنَّ بني جعفرٍ تُصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيءٌ يسبِقُ القدرَ لسبَقته العينُ»[(٦)].

وكذا رواه التِّرمذيُّ وابنُ ماجه، من حديثِ سُفيان بن عُيَينَةَ، به. ورواه الترمذي أيضاً والنسائيُّ، من حديث عبد الرزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن أيوبَ، عن عَمرو بن دينار، عن عُرْوَةَ بن عامرٍ، عن عُبَيد بن رفاعةَ، عن أسماءَ بنت عُمَيس، به. وقال الترمذي: حسن صحيح[(٦)].

حديث عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قال ابنُ ماجه:

حدثنا علي بن أبي الخَصِيب، حدثنا وكيعٌ، عن سفيانَ ومِسْعَر، عن مَعْبَدِ بن خالدٍ، عن عبد الله بن شَدَّاد، عن عائشة: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ أمَرها أن تَسْتَرقيَ من العَينِ[(٧)].

---

(١) أورد الترمذي قول أبي زرعة في أبواب الجنائز ١٩٧/٤ وكذلك المزي في تحفة الأشراف ٤٦٧/٣، وقد أخرج البخاري وأبو داود في كتاب الطب رواية عبد الوارث، عن عبد العزيز، عن أنس، فتح الباري ٢٠٦/١٠، وسنن أبي داود ١١/٤، كما أخرجه التِّرمذيُّ في أبواب الجنائز ١٩٦/٤، والنسائي في اليوم والليلة كما قال المزي ٤٦٧/٣.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣١٨/٢ ـ ٣١٩، وفتح الباري، كتاب الطب ٢٠٣/١٠، وكتاب اللباس ٣٧٩/١٠، ومسلم، كتاب السلام ١٧١٩/٤

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الطب ١١٥٩/٢، ومسند الإمام أحمد ٤٨٧/٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤٣٩/٢

(٥) مسند الإمام أحمد ٢٨٩/٢

(٦) مسند الإمام أحمد ٤٣٨/٦، وأخرجه الترمذي وابن ماجه في كتاب الطب، عارضة الأحوذي ٢١٤/٨ ـ ٢١٥، وابن ماجه ١١٦٠/٢، وأخرجه النسائي في كتاب الطب من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٢٦١/١١.

(٧) سنن ابن ماجه، كتاب الطب ١١٦١/٢، وفتح الباري، كتاب الطب ١٩٩/١٠، ومسلم، كتاب السلام ١٧٢٥/٤.

ورواه البخاري عن محمد بن كثير، عن سفيان، عن مَعْبَد بن خالد، به. وأخرجه مسلم من حديث سُفيان ومِسعَر، كلاهما عن مَعْبَد، به[1]. ثم قال ابن ماجه:

حَدَّثنا محمد بن بشّار، حَدَّثنا أبو هِشام المخزوميُّ، حدثنا وُهَيب، عن أبي واقِد، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن، عن عائشة قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «استعيذُوا بالله، فإنَّ العينَ حقٌّ». تفرّد به[2].

وقال أبو داود: حدثنا عثمانُ بن أبي شَيبةَ، حدثنا جريرٌ، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشةَ قالت: كان يُؤمَرُ العائن فيَتوضأ ويَغتسلُ منه المَعِينُ[3].

حديث سهلُ بنُ حُنَيف، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا أبو أُوَيس، حدثنا الزُّهريُّ، عن أبي أُمامة بن سَهل بن حُنَيف: أنَّ أباه حَدَّثه أن النبيَّ ـ ﷺ ـ خَرَج وساروا معه نحو مَكَّةَ، حتى إذا كانوا بشِعب الخَرَّار[4] ـ من الجُحفة ـ اغتسل سهل بن حُنَيف ـ وكان رجلاً أبيضَ حَسَن الجسم والجلد ـ فنظر إليه عامرُ بن ربيعة، أخو بني عَديّ بن كعب، وهو يغتسلُ، فقال: ما رأيتُ كاليوم ولا جلدَ مُخبَّأة. فلُبِطَ سهلٌ، فأُتِيَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقيل له: يا رسولَ الله، هل لكَ في سَهلٍ؟ والله ما يرفَعُ رأسَه ولا يُفيقُ!

قال: هل تَتَّهِمُون فيه من أحدٍ؟. قالوا: نَظَر إليه عامرُ بن ربيعة! فدعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عامراً، فتغيَّظَ عليه، وقال: علامَ يقتلُ أحدُكم أخاه، هَلَّا إذا رأيتَ ما يُعجبك بَرَّكت؟! ثم قال له: اغتسِل له. فغسل وجهَه ويَدَيه ومِرفَقيه ورُكبَتَيه وأطرافَ رِجلَيه وداخلةَ إزاره في قَدَح، ثم صُبَّ ذلك الماء ـ عليه ـ يَصُبُّه[5] رجل على رأسه وظهره من خَلْفِه، ثم يُكفِئُ القَدَحَ وراءه. فَفُعِلَ ذلك، فراح سَهلٌ مع الناس، ليسَ به بأسٌ[6].

حديثُ عامرِ بن ربيعةَ، قال الإمام أحمد في مسند عامر:

حدثنا وكيع، حدثنا أبي، حدثنا عبدُ الله بن عيسى، عن أُمية بن هند بن سَهل بن حُنَيف، عن عبد الله بن عامر قال: انطلق عامرُ بن رَبيعةَ وسهلُ بن حُنَيف يريدان الغُسل، قال. فانطلقا يَلتَمِسان الخَمَرَ ـ قال: فوضع عامرٌ جُبَّةً كانت عليه من صُوف، فنظرتُ إليه فأصبتُه بعيني، فنزل الماءَ يَغتسِلُ، قال: فَسَمِعتُ له في الماء فرقعةً، فأتيتُه فناديتُه ثلاثاً، فلم يُجبني. فأتيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فأخبرتُه، قال: فجاء يمشي فخاضَ الماءَ كأني أنظرُ إلى بَياض ساقَيه، قال: فضَرب صدرَه بيده ثم قال: اللهم، اصرف عنه حَرَّها وبَرْدَها وَوَصَبَها. قال: فقام. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا رأى أحدُكم من أخيه، أو من نفسه أو من ماله، ما يُعجبه، فلْيُبَرِّكْ، فإنَّ العينَ حقٌّ»[7].

حديثُ جابر، قال الحافظ أبو بكر البزار في مُسنَده:

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الطب ٢/١١٦١، وفتح الباري، كتاب الطب ١٠/١٩٩، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧٢٥.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الطب ٢/١١٥٩.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الطب ٤/٩.

(٤) الخرّار: موضع بالحجاز يقال: هو قُرب الجُحفة. وقيل: وادٍ من أودية المدينة، وقيل: ماء بالمدينة. وأما الجحفة فيقول ياقوت: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربعة مراحل. وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمرّوا على المدينة.

(٥) في نسخة: يلقي.

(٦) مسند الإمام أحمد ٣/٤٨٦ ـ ٤٨٧.

(٧) مسند الإمام أحمد ٣/٤٤٧. والخَمَرُ: ما سَتَرَ من شجر أو بناء أو غيره. والوَصَب: دوام الوجع ولزومه.

حدثنا محمدُ بن معمر، حدثنا أبو داود، حدثنا طالبُ بن حبيب بن عمرو بن سَهل الأنصاري، يقال له: ابن الضُّجيع، ضجيع[1] حمزة ـ رضي الله عنه ـ حدثني عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أكثرُ من يموتُ من أُمّتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس».

قال البزار: يعني العين. قال: ولا نعلمُ يُروَى هذا الحديثُ عن النبي ـ ﷺ ـ إلا بهذا الإسناد[2].

قلتُ: بل قد رُوِي من وجه آخرَ عن جابر، قال الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهَرَوِيّ ـ المعروف بشكَّر ـ في كتاب العجائب، وهو مشتمل على فوائد جليلة وغريبة:

حدثنا الرَّهوي، حدثنا يعقوبُ بن محمد، حدثنا علي بن أبي علي الهاشميُّ، حدثنا مُحمَّد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «العينُ حقٌّ، لَتُورِدُ الرجلَ القبرَ، والجملَ القِدْرَ، وإنَّ أكثرَ هلاكِ أُمّتي في العين».

ثم رواه عن شُعَيب بن أيوب، عن معاوية بن هشام، عن سُفيانَ، عن محمد بن المُنكَدِر، عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قد تُدخِلُ الرجلَ العينُ في القبر، وتُدخِل الجملَ القِدْرَ».

وهذا إسنادٌ رجالُه كلُّهم ثِقَاتٌ، ولم يخرجوه.

حديث عبد الله بن عَمرو، قال الإمام أحمد:

حدثنا قُتَيبة، حدثنا رِشدينُ بنُ سعد، عن الحسن بن ثوبان، عن هِشام بن أبي رُقَيَّة، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ، ولا هامةَ ولا حَسَدَ، والعينُ حقٌّ». تفرَّد به أحمد[3].

حديثٌ عن عليٍّ، رَوَى الحافظ ابنُ عساكر من طريق خَيْثَمة بن سليمان الحافظ:

حدثنا عُبيد بن محمد الكَشْوَرِيُّ، حدثنا عبْد الله بنُ عبدِ الله بن عبد رَبِّه البصري، عن أبي رَجاءٍ، عن شُعبة، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليٍّ: أن جبريلَ أتى النبي ـ ﷺ ـ فوافقه مُغْتَمًّا، فقال: يا محمدُ، ما هذا الغمُّ الذي أراه في وجهك؟ قال: الحسن والحسينُ أصابتهما عينٌ. قال: صَدِّق بالعين، فإن العينَ حقٌّ، أفلا عوَّذتَهما بهؤلاءِ الكلمات؟ قال: وما هُنَّ يا جبريلُ؟ قال: قال: اللهُمَّ ذا السلطانِ العظيم، ذا المنِّ القديم، ذا الوجه الكريم، وَلِيَّ الكلماتِ التامَّاتِ، والدعواتِ المستجاباتِ، عافِ الحَسَنَ والحُسَينَ، من أنفُسِ الجنِّ، وأعينِ الإنس. فقالها النبيُّ ـ ﷺ ـ فقاما يلعبان بين يَدَيه. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «عوِّذوا أنفُسَكم ونساءكُم وأولادكُم بهذا التعويذ، فإنه لم يتعوذ المتعوِّذون بمثلِه».

قال الخطيبُ البغداديُّ: تفرَّد بروايته أبو رجاء محمد بن عبد الله الحَبَطي من أهل تُسْتَرَ، ذكره ابنُ عساكر في ترجمة طَرَّاد بن الحُسَين، من تاريخه[4].

---

(١) استشهد جده سهل بن قيس بن أبي كعب بن القيق بأحد مع حمزة ـ رضي الله عنهما ـ ودفن بجنبه. انظر المغازي للواقدي ١/١٧٠، ٣١٢، ٣١٣، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٤٩٦.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الطب ٣/٤٠٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٢٢٢.

(٤) تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٧/٥٣ ـ ٥٤. وطرَّاد بن الحسين هو أبو فراس الحمداني الشاعر.

وقوله. ﴿ويقولُونَ إنه لَمجنُونٌ﴾، أي: يَزْدَرُونه بأعينهم ويُؤذونَه بألسنتهم، ويقولُون ﴿إنه لَمجنُونٌ﴾، أي: لِمَجيئه بالقرآنِ. قال الله تعالى: ﴿وما هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾.

آخرُ تفسيرِ سُورة ﴿نٓ﴾ ولله الحمدُ

تفسير

سُورَةُ الحَاقَّة

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى
الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ
بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا
أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾

الحاقةُ من أسماء يوم القيامةِ، لأنَّ فيها يَتحقَّقُ الوَعدُ والوَعيدُ، ولهذا عَظَّم تعالى أمرَها فقال: ﴿وما أدراك ما الحاقةُ﴾.

ثم ذكَر تعالى إهلاكه الأُمَمَ المُكذِّبين بها فقال تعالى: ﴿فأما ثمودُ فأُهلِكُوا بالطَّاغية﴾، وهي الصيحةُ التي أسكَتَتْهم، والزَّلزلة التي أسكنتهم. هكذا قال قتادةُ. الطاغيةُ الصيحةُ. وهو اختيارُ ابن جرير[1].

وقال مجاهد: الطاغيةُ الذنوبُ. وكذا قال الربيعُ بن أنسٍ، وابنُ زيدٍ: إنها الطُّغيانُ، وقرأ ابنُ زيد: ﴿كذبت ثمودُ بطَغواها﴾[1]. وقال السُّدِّي. ﴿فأُهلِكُوا بالطَّاغية﴾، قال: يعني عاقِرَ الناقة.

(١) تفسير الطبري ٢٩/ ٤٩.

﴿وأمَّا عادٌ فأُهلِكُوا بريحٍ صَرْصَرٍ﴾، أي: باردةٍ. قال قتادةُ، والربيعُ، والسُّدِّي، والثوري. ﴿عاتيةٍ﴾، أي: شديدةِ الهُبوبِ. قال قتادةُ: عتت عليهم حتى نَقَبَت[1] عن أفئدتهم.

وقال الضحاكُ: ﴿صَرْصَرٍ﴾: باردةٍ، ﴿عاتيةٍ﴾: عَتَت عليهم بغير رَحمةٍ ولا بركة. وقال عَليٌّ[2] وغيره: عَتَت على الخَزَنَةِ فخرجت بغيرِ حسابٍ.

﴿سَخَّرها عليهم﴾، أي: سَلَّطها عليهم ﴿سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُوماً﴾، أي: كواملَ متتابعاتٍ مشائيمَ.

قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والثوريُّ، وغيرهم ﴿حُسُوماً﴾: متتابعاتٍ.

وعن عِكْرِمةَ والربيعِ بن خُثَيم: مشائيمَ عليهم، كقوله: ﴿في أيامٍ نَحِساتٍ﴾، قال الربيعُ: وكان أوّلُها الجمعةَ. وقال غيره: الأربعاء. ويُقال: إنها التي تُسمِّيها الناسُ الأعجاز، كأنّ الناسَ أخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿فترى القومَ فيها صَرْعَى * كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ﴾. وقيل: لأنها تكون في عَجُزِ الشتاء، ويقال: أيامُ العَجُوزِ؛ لأن عجوزاً من قوم عادٍ دخلت سَرَباً فقتلها الريحُ في اليوم الثامن. حكاه[3] البَغَوِيُّ. والله أعلم.

قال ابنُ عباسٍ: ﴿خاويةٍ﴾: خَرِبة. وقال غيره: باليةٍ. أي: جعلت الريحُ تضربُ بأحدِهم الأرض فيخِرُّ ميِّتاً على أمِّ رأسه، فينشدِخُ رأسُه وتبقى جُثَّته كأنها قائمةُ النخلةِ إذا خَرَّت بلا أغصانٍ وقد ثبت في الصحيحَين: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلكت عادٌ بالدَّبُور»[4]. قال ابنُ أبي حاتمٍ:

حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يحيى بن الضُّرَيس الفَيْديُّ، حدثنا ابنُ فُضَيل، عن مُسلم، عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما فتح الله على عادٍ من الرِّيح التي أُهلِكُوا فيها إلا مثلَ موضعِ الخاتم، فمرَّت بأهل البادية فحملتهم ومواشِيَهم وأموالَهم، فحملتهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهلُ الحاضرةِ من عادٍ الريحَ وما فيها قالوا: هذا عارضٌ مُمطِرُنا. فألقت أهلَ البادية ومواشيَهم على أهل الحاضرة»[5].

وقال الثوريُّ عن لَيْثٍ، عن مجاهدٍ: الريحُ لها جناحانِ وذَنَبٌ.

﴿فهل ترى لهم من باقيةٍ﴾، أي: هل تُحِسُّ منهم من أحدٍ من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم؟ بل بادُوا عن آخِرِهم، ولم يجعلِ الله لهم خَلَفاً.

ثم قال تعالى: ﴿وجاءَ فِرْعَونُ ومن قِبَلَه﴾: قُرِئ بكسر القاف، أي: ومَن عنده ممَّن في زمانِه من أتباعه من كُفَّار القِبطِ. وقرأ آخرون بفتحها، أي: ومن قَبْلَه من الأُمَم المشبهين له.

---

(١) أي: كشفت.
(٢) هو علي بن أبي طالب، وأثره في تفسير الطبري ٢٩/٥٠.
(٣) تفسير البغوي ٤/٣٨٦. والسَّرَبُ: حَفيرٌ تحت الأرض لا مَنْفَذَ له.
(٤) تقدّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٤١ من سورة الذاريات.
(٥) تقدم الحديث من رواية الطبراني عن ابن عباس عند تفسير الآية ٢٥ من سورة الأحقاف.

وقوله ﴿والمؤتفكت﴾، وهم الأمم المكذبون بالرسل ﴿بالخاطئة﴾، أي: بالفعلة الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع: ﴿بالخاطئة﴾، أي: بالمعصية. وقال مجاهد: بالخطايا. ولهذا قال ﴿فعصوا رسول ربهم﴾ وهذا جنس، أي: كل كذب رسول الله إليهم، كما قال: ﴿إن كل إلا كذب الرسل فحق وعيد﴾ ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع، كما قال ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾، ﴿كذبت عاد المرسلين﴾، ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾. وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد، ولهذا قال ها هنا ﴿فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾، أي: عظيمة شديدة أليمة. قال مجاهد: ﴿رابية﴾ شديدة. وقال السدي: مهلكة.

ثم قال الله تعالى: ﴿إنا لما طغا الماء﴾، أي: زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود، قال ابن عباس وغيره: ﴿طغا الماء﴾: كثر، وذلك بسبب دعوة نوح - عليه السلام - على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله. فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن أبي سنان سعيد بن سنان، عن غير واحد، عن علي بن أبي طالب قال: لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان، فطغى الماء على الخزان[1] فخرج، فذلك قول الله: ﴿إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية﴾، ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك، إلا يوم عاد، فإنه أذن لها دون الخزان، فخرجت، فذلك قوله ﴿بريح صرصر عاتية﴾: عتت على الخزان.

ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس: ﴿إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية﴾، وهي السفينة الجارية على وجه الماء، ﴿لنجعلها لكم تذكرة﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار، كما قال: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾. وقال تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾. وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة[2]. والأول أظهر، ولهذا قال: ﴿وتعيها أذن واعية﴾، أي: وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، قال ابن عباس: حافظة سامعة. وقال قتادة: ﴿أذن واعية﴾: عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله، وقال الضحاك: ﴿وتعيها أذن واعية﴾، سمعتها أذن ووعت. أي: من له سمع صحيح وعقل رجيح. وهذا عام في كل من فهم ووعى. وقد قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو زرعة الدمشقي، حدثنا العباس بن الوليد بن صبح الدمشقي، حدثنا زيد بن يحيى، حدثنا علي بن حوشب، سمعت مكحولاً يقول: لما نزل على رسول الله - ﷺ -: ﴿وتعيها أذن واعية﴾، قال رسول الله: «سألت ربي أن يجعلها أذن علي». فكان علي يقول: ما سمعت من رسول الله - ﷺ - شيئاً قط فنسيته.

وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن سهل، عن الوليد بن مسلم، عن علي بن حوشب، عن مكحول[3]، به. وهو حديث مرسل.

---

(١) في تفسير الطبري ٢٩/٥٠: الجبال. وما أثبت هنا موافق لما في الدر المنثور ٨/٢٦٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩/٥٥

(٣) تفسير الطبري ٢٩/٥٥

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا جعفرُ بن محمد بن عامر، حدثنا بشرُ بن آدم، حدثنا عبد الله بن الزبير أبو محمد ـ يعني والد أبي أحمدَ الزبيري ـ حدثني صالح بن هَيْثم، سمعت بُرَيْدَة الأسلميّ يقول. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لعلي: «إني أُمرتُ أن أُدنيكَ ولا أُقصيكَ، وأن أُعلِّمكَ وأن تعي، وحُقَّ لك أن تعي» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وتَعِيَهَا أُذُنٌ واعيةٌ﴾.

ورواه ابن جرير عن محمد بن خلف، عن بشر[1] بن آدم، به. ثم رواه ابنُ جرير من طريق آخر عن [أبي] داود الأعمى، عن بُرَيْدَة، به. ولا يَصِحُّ أيضاً.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهوالِ يوم القيمة، وأوّلُ ذلك نفخةُ الفَزَع، ثم يعقُبها نفخةُ الصَّعْقِ حين يُصعَق مَن في السموات ومَن في الأرض إلا مَن شاء الله، ثم بعدها نفخةُ القيامِ لربِّ العالمين والبعثِ والنُّشورِ، وهي لنفخةُ[2]، وقد أكدها ها هنا بأنها واحدةٌ، لأن أمر الله لا يُخالَف ولا يُمانع، ولا يَحتاجُ إلى تكرارٍ وتأكيدٍ.

وقال الربيع: هي النفخةُ الأخيرةُ، والظاهر ما قلناه، ولهذا قال ها هنا: ﴿وحُمِلتِ الأرضُ والجبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحدةً﴾، أي: فمُدَّت مَدَّ الأديم العُكَاظي، وتَبَدَّلت الأرضُ غيرَ الأرض، ﴿فيومئذٍ وقعتِ الواقعةُ﴾، أي: قامتِ القيامةُ، ﴿وانشقَّتِ السماءُ فهي يومئذٍ واهية﴾، قال سِمَاكٌ، عن شيخٍ من بني أسد، عن علي قال: تَنْشَقُّ السماءُ من المَجَرَّةِ. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابنُ جُرَيجٍ: هي كقوله: ﴿وفُتِحت السماءُ فكانت أبواباً﴾ وقال ابنُ عباس: مُتَخرِّقة، والعرشُ بِحِذائها[3].

﴿والمَلَكُ على أرجائها﴾، المَلَكُ: اسمُ جنسٍ، أي: الملائكة على أرجاءِ السماء. قال ابنُ عباس: على ما لم يَهِ منها. أي: حافَاتِها. وكذا قال سعيدُ بن جُبَير، والأوزاعيُّ. وقال الضحاك: أطرافُها. وقال الحسنُ البصريُّ: أبوابُها. وقال الربيعُ بن أنسٍ في قوله: ﴿والملك على أرجائها﴾، يقول: على ما استدقَّ من السماءِ، يَنظُرون إلى أهلِ الأرض.

وقولُه: ﴿ويَحمِلُ عرشَ ربِّك فوقَهم يومئذٍ ثمانيةٌ﴾، أي: يومَ القيامةِ يحملُ العرشَ ثمانيةٌ من الملائكةِ. ويَحتَمِلُ أن يكون المرادُ بهذا العرشِ العرشَ العظيمَ، أو: العرشَ الذي يُوضَع في الأرضِ يوم القيامة لِفَصْلِ القضاءِ، والله أعلم بالصواب. وفي حديث عبد الله بن عَميرة، عن الأحنفِ بن قيس، عن العبّاس بن عبد المطلب، في ذكر حَمَلة العرش أنهم ثمانيةُ أوعالٍ[4].

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبو سعيد يحيى بنُ سعيدٍ، حدثنا زيدُ بن الحُبَاب، حدثني أبو السَّمح

---

(١) في سند الطبري بعض الاختلاف، انظر ٢٩/٥٦.

(٢) في بعض النسخ: «وهي هذه النفخة».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٨/٢٦٩.

(٤) تقدم عند تفسير الآية السابعة من سورة غافر، وخرجناه هنالك.

المصري، حدثنا أبو قبيل حُيَي بن هانيء: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: حملةُ العرشِ ثمانيةٌ، ما بين مُوق أحدهم إلى مؤخر عينه مَسيرة مائةِ عام.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي قال: كَتَبَ إليَّ أحمدُ بن حفص بن عبد الله النيسابوري: حَدَّثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عُقبة، عن محمد بن المُنكدر، عن جابر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أُذِنَ لي أن أُحَدِّثكم عن مَلَكٍ من حَملةِ العرش، بُعْدُ ما بين شحمةِ أُذُنه وعنقه مَخفقُ الطير سبعمائةِ عام».

وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات. وقد رواه أبو داود في «كتاب السُّنَّة» من سُنَنه:

حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عُقبَة، عن محمد بن المُنكدر، عن جابر بن عبد الله: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أُذِنَ لي أن أُحدِّث عن مَلَكٍ من ملائكةِ الله من حملةِ العرش أنَّ ما بين شَحْمةِ أُذُنه إلى عاتِقِه مَسيرة سَبعمائةِ عام». هذا لفظُ أبي داود[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا يحيى بن المُغيرة، حدثنا جَريرٌ، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جُبير في قوله: ﴿وَيَحمِلُ عرشَ ربِّك فوقهم يومئذٍ ثمانيةٌ﴾. قال: ثمانية صُفُوفٍ من الملائكة. قال: ورُوِيَ عن الشعبيِّ، وعِكْرِمَةَ، والضحاكِ، وابن جُرَيج، مثلُ ذلك. وكذا رَوَى السُّدِّي عن أبي مالكٍ، عن ابن عَبَّاسٍ: ثمانيةُ صفوف، وكذا رَوَى العوفيُّ، عنه.

وقال الضحَّاكُ، عن ابن عباس: الكَرُوبيّون[2] ثمانيةُ أجزاءٍ، كلُّ جزءٍ منهم بقدر الإنس والجن والشياطين والملائكة.

وقولُه: ﴿يومئذٍ تُعرَضُون لا تخفى منكم خافيةٌ﴾، أي: تُعرَضُون على عالم السرِّ والنجوى الذي لا يخفى عليه شيءٌ من أموركم، بل هو عالمٌ بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال: ﴿لا تخفى منكم خافيةٌ﴾.

وقد قال ابنُ أبي الدنيا: أخبرنا إسحاقُ بن إسماعيل، أخبرنا سفيانُ بن عُيينة، عن جَعفر بن بُرْقان، عن ثابت بن الحجاج قال: قال عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: حاسِبُوا أنفسكم قبلَ أن تُحاسَبُوا، وَزِنُوا أنفسَكم قبل أن تُوزَنوا، فإنه أخفُّ عليكم في الحساب غداً أن تُحاسِبوا أنفُسَكم اليومَ، وتَزَيَّنُوا للعرضِ الأكبر: ﴿يومئذٍ تُعرَضُون لا تخفى منكم خافيةٌ﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا علي بن علي بن رِفاعَةَ، عن الحسن، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يُعرَضُ الناسُ يومَ القيامةِ ثلاثَ عَرَضاتٍ، فأما عَرْضتان فجدالٌ ومعاذيرُ، وأما الثالثةُ فعند ذلك تطير الصُّحُفُ في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشماله»[3].

ورواه ابنُ ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبةَ، عن وكيعٍ[3]، به. وقد رواه الترمذيُّ عن أبي كُرَيب، عن وكيع، عن علي بن علي، عن الحسن، عن أبي هُرَيرة، به[3].

وقد رَوَى ابنُ جرير عن مجاهد بن موسى، عن يزيدَ، عن سُليم[4] بن حَيَّان، عن مروان الأصفر، عن

---

(١) سنن أبي داود ٤/٢٣٢

(٢) الكَرُوبيون: سادة الملائكة المقربون.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٤١٤، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٢/١٤٣٠، والترمذي في أبواب القيامة، عارضة الأحوذي ٩/٢٥٧.

(٤) كذا في نسخ: سليم بن حيّان، انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/٢٧١ ترجمة مروان الأصفر، ٤/٣١٤ وفي تفسير الطبري ٢٩/٥٩، سليمان بن حيان، وهو خطأ.

أبي وائل، عن عبد الله قال: يُعرَض الناسُ يومَ القيامةِ ثلاثَ عرَضاتٍ: عَرْضَتان معاذيرُ وخصوماتٌ، والعرضةُ الثالثة تطير الصحف في الأيدي. ورواه سعيدُ بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ مُرسلاً، مثلَه.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن سعادةِ مَن أُوتِي كتابَه يومَ القيامة بيمينه، وفرَحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقولُ لكلِّ من لَقِيَه ﴿هاؤُمُ اقرءوا كِتابِيَهْ﴾، أي: خذوا اقرءُوا كِتابِيه؛ لأنه يعلَمُ أن الذي فيه خير وحسنات محضةٌ، لأنه ممن بَدّل الله سَيِّئاته حسناتٍ.

قال عبدُ الرحمن بن زيدٍ: معنى ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾، أي: ها اقرءُوا كِتابيه، و«ؤم» زائدة. كذا قال، والظاهر أنها بمعنى: هاكم.

وقد قال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا بشرُ بن مَطَرٍ الواسطيُّ، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا عاصمٌ الأحولُ، عن أبي عثمان قال: المؤمنُ يُعطَى كتابَه في سِتْرٍ من الله، فيقرأُ سَيِّئاته، فكلَّما قرأ سيِّئةً تغيَّر لونُه حتى يمر بحسناته فيقرؤُها، فيرجع إليه لونُه. ثم ينظر فإذا سيئاتُه قد بُدِّلت حَسَناتٍ، قال: فعند ذلك يقولُ ﴿هاؤُم اقرءوا كتابيه﴾.

وحدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن الوليد بن سَلَمة، حدثنا رَوح بن عُبادَة، حدثنا موسى بن عُبَيدة، أخبرني عبد الله بن عبد الله بن حنظلةَ ـ غَسِيلِ الملائكة ـ قال: إن الله يَقِفُ عبدَه يومَ القيامة فيُبدِي سَيِّئاته في ظهر صحيفته، فيقول له: أنت عملتَ هذا؟ فيقول: نعم، أيْ ربِّ. فيقول له: إنِّي لم أفضَحْكَ به، وإني قد غفرتُ لك. فيقولُ عند ذلك: ﴿هاؤم اقرءُوا كِتابِيَهْ * إني ظَنَنتُ أني مُلاقٍ حِسابِيه﴾، حين نَجا من فضيحة يوم القيامة.

وقد تقدّم في الصّحيح حديثُ ابن عُمَر حين سُئِل عن النَّجوى، فقال: سَمِعتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ يقول: يُدنِي اللهُ العبدَ يومَ القيامة، فيُقرِّره بذنوبه كلِّها، حتى إذا رأى أنه قد هَلَك قال الله: إني سترتُها عليكَ في الدنيا، وأنا أغفرُها لك اليومَ. ثم يُعطَى كتابَ حَسَناتِه بيَمِينِه. وأما الكافرُ والمنافقُ فيقولُ الأشهادُ: ﴿هؤلاءِ الذين كذبُوا على رَبِّهم ألا لعنةُ الله عَلَى الظالمينَ﴾[1]

وقوله: ﴿إنِّي ظَنَنتُ أنِّي ملاقٍ حِسابِيه﴾، أي: قد كنتُ مُوقِناً في الدُّنيا أن هذا اليومَ كائنٌ لا محالةَ، كما قال: ﴿الذين يَظُنُّون أنهم مُلاقُو ربِّهم﴾. قال الله: ﴿فَهُو في عيشةٍ راضيةٍ﴾، أي: مَرضِيّةٍ، ﴿في جَنّةٍ عاليةٍ﴾، أي: رَفِيعةٍ قصورُها، حسانٍ حُورُها، نَعِيمةٍ دُورُها، دائمٍ حُبورُها.

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدثنا أبو عُتبَةَ الحسنُ بن علي بن مسلم السَّكُوني، حدثنا إسماعيلُ بن عيَّاش، عن سعيدِ بن يوسُفَ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلّامٍ الأسودِ قال: سَمعتُ أبا أمامةَ قال: سأل رجلٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ: هل يتزاورُ أهلُ الجنّةِ؟ قال: نعم، إنه ليهبطُ أهلُ الدرجة العليا إلى أهل الدرجة

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١٨ من سورة هود.

السفلى، فيُحيُّونهم ويُسلِّمون عليهم، ولا يستطيع أهلُ الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلين، تَقْصُر بهم أعمالُهم.

وقد ثبت في الصَّحيح: «إن الجنة مائةُ دَرجةٍ، ما بين كُلِّ درجتين كما بين السماء والأرض»(١)

وقولُه ﴿قطوفُها دانية﴾، قال البراء بن عازب: أي قريبةٌ، يتناولها أحدُهم، وهو نائم على سَريره. وكذا قال غيرُ واحدٍ.

قال الطبراني، عن عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم، عن عطاء بن يسار، عن سلمان الفارسيِّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يدخل الجنةَ أحدٌ إلا بجوازٍ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هذا كتابٌ من الله لفلانِ بن فلانٍ، أدخِلُوه جنةً عاليةً، قطوفُها دانيةٌ»(٢)

وكذا رواه الضياء في صفة الجنة من طريق سَعدان بن سعيد، عن سُليمان التيمي، عن أبي عثمان النَّهديِّ، عن سَلْمان، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يُعطى المؤمن جَوَازاً على الصِّراط: بسم الله الرحمنِ الرحيم، هذا كتابٌ من الله العزيزِ الحكيم لفلانٍ، أدخلُوه جنةً عاليةً، قطوفُها دانيةٌ».

وقولُه: ﴿كُلُوا واشربُوا هَنِيئاً بما أسلفتُم في الأيام الخالية﴾، أي: يُقال لهم ذلك، تَفضُّلاً عليهم، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً. وإلا فقد ثبت في الصحيح، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «اعملُوا وَسَدِّدوا وقارِبُوا، واعلمُوا أن أحداً منكم لن يُدخِله عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يَتغمَّدَني الله برحمةٍ منه وفضلٍ»(٣).

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذا إخبارٌ عن حالِ الأشقياء إذا أُعطي أحدُهم كتابَه في العَرَصاتِ بشماله، فحينئذ يندَمُ غايةَ الندَم، فيقول: ﴿يا ليتني لم أُوتَ كتابيه * ولم أدرِ ما حِسابيه * يا ليتها كانتِ القاضية﴾ قال الضحاك: يعني موتةً لا حياةَ بعدها. وكذا قال محمدُ بن كعب، والربيعُ، والسُّدِّي. وقال قتادةُ: تمنَّى الموتَ، ولم يكن شيءٌ في الدُّنيا أكرَهَ إليه منه.

﴿ما أغنى عنِّي ماليه * هَلَكَ عنِّي سُلطانِيه﴾، أي: لم يَدفَعْ عني مالي ولا جاهي عَذابَ الله وبأسَه، بل خلَص الأمرُ إليَّ وحدي، فلا مُعِينَ لي ولا مُجير. فعندها يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿خُذُوه فغُلُّوه * ثم الجحيم

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٩٦ من سورة النساء.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٦/٢٧٢
(٣) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٥٧ من سورة الدخان.

صَلُّوه﴾، أي: يأمر الزبانية أن تأخُذَه عنفاً من المحشر، فتغُلّه، أي: تضع الأغلال في عُنُقه، ثم تُورِدُه إلى جهنّم فتُصلِيَه إياها، أي: تَغْمُرَه فيها.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سَعيدٍ الأشجُّ، حدَّثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس، عن المنهال بن عَمْرٍو قال: إذا قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿خُذُوه﴾، ابتدره سبعُون ألفَ ملكٍ، إن الملك منهم ليقول[1] هكذا، فيلقي سبعين ألفاً في النار.

وَروى ابنُ أبي الدنيا في «الأهوال»: إنه يَبتَدِرُه أربعُمائة ألفٍ، ولا يبقَى شيء إلا دَقَّه، فيقولُ: ما لي ولَكَ؟ فيقول: إنَّ الربَّ عليك غضبان، فكلُّ شيءٍ غَضبانُ عليك.

وقال الفُضَيل ـ هو ابنُ عياضٍ ـ: إذا قالَ الربُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿خُذوه فَغُلُّوه﴾، ابتدره سبعُون ألفَ مَلَكٍ، أيهم يجعلُ الغُلَّ في عُنُقه.

﴿ثم الجَحِيمَ صَلُّوه﴾، أي: اغمُرُوه فيها.

وقولُه: ﴿ثم في سلسلةٍ ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلُكُوه﴾، قال كعبُ الأحبارِ: كلُّ حَلْقَةٍ منها قَدْرُ حديد الدنيا.

وقال العَوفِيُّ، عن ابن عباس، وابنُ جُرَيج: بذراع المَلَك. وقال ابن جُرَيجٍ، قال ابن عباس: ﴿فاسلُكُوه﴾: تدخل في إستِهِ ثم تخرُج مِنْ فيهِ، ثم يُنظَمُون فيها كما يُنظَم الجَرادُ في العُودِ حين يُشوَى.

وقال العَوفِيُّ، عن ابن عَبَّاس: يُسلَك في دبره حتى يخرج من مِنْخَرِيه، حتى لا يقُوم على رجليه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاقَ، أخبرنا عبد الله، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي السَّمح، عن عيسى بنِ هلالٍ الصَّدَفِيِّ، عَن عَبدِ الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو أن رَصَاصةً مثل هذه ـ وأشار إلى جُمْجُمةٍ ـ أُرسِلَت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائةِ سنةٍ، لَبَلغت الأرضَ قبلَ الليلِ، ولو أنها أُرسِلَت من رأس السلسلة، لسارت أربعين خَرِيفاً الليلَ والنهارَ، قبل أن تبلغ قعرَها أو أصلَها»[2].

وأخرجه الترمذي، عن سُوَيد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، به. وقال: «هذا حديث حسن»[2].

وقولُه: ﴿إنَّه كان لا يُؤمِنُ بالله العَظِيم * ولا يحضُّ على طَعَام المسكين﴾، أي: لا يقومُ بحقِّ الله عليه من طاعته وعبادَتِه، ولا ينفعُ خَلْقَه ويُؤَدِّي حقهم؛ فإن لله على العبادِ أن يُوحِّدُوه ولا يُشرِكُوا به شيئاً، وللعبادِ بعضِهم على بعضٍ حقَّ الإحسانِ والمعاونةِ على البِرِّ والتقوى. ولهذا أمر الله بإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاةِ، وقُبِضَ النبيُّ ـ ﷺ ـ وهو يقول: «الصلاةَ، وما ملكت أيمانُكُم»[3].

وقولُه: ﴿فليس له اليومَ ها هنا حَمِيمٌ * ولا طَعامٌ إلا من غِسْلِينٍ * لا يأكُلُه إلا الخاطئون﴾، أي: ليس له

(١) يطلق القول في اللغة على كل فعل.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/١٩٧، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة جهنم ١٠/٥٧. والجمجمة: قدحٌ صغيرٌ.

(٣) أخرجه النسائي في الوفاة من سُننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ١/٣٢٠، وابن ماجه في الوصايا ٢/٩٠٠ ـ ٩٠١. وسيأتي عند تفسير الآية الثامنة من سورة الإنسان.

اليوم من ينقذه من عذاب الله، لا حميم ـ وهو القريب ـ ولا شفيع يطاع، ولا طعامٌ له ها هنا إلّا من غِسْلِينٍ. قال قتادة: هو شَرُّ طَعَمِ أهلِ النار. وقال الربيعُ، والضحّاكُ: هو شجرة في جَهَنَّم.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثَنا أبي، حدثنا منصورُ بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيدٍ المؤدِّب، عن خُصَيفٍ، عن مجاهدٍ، عن ابن عبّاسٍ قال: ما أدري ما الغسلين؟ ولكني أظنه الزقوم.

وقال شبيب بن بِشرٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبّاسٍ قال: الغِسْلِينُ: الدمُ والماءُ يَسِيلُ من لُحُومِهم. وقال عليُّ بن أبي طلحة، عنه: الغِسْلِين: صَديدُ أهلِ النارِ.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ ﴾

يقولُ تعالى مُقسِماً بخَلْقِهِ بما يُشاهدونه من آياته في مخلُوقاته الدالّة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم ممّا لا يشاهدونه من المُغَيَّبات عنهم: إن القرآن كلامُه ووحيُه وتنزيلُه على عبده ورسُولِهِ، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فلا أُقسِم بما تُبصِرُون * وما لا تُبصِرُون * إنه لقولُ رَسُولٍ كريم﴾، يعني محمداً ـ ﷺ ـ أضافه إليه على معنى التبليغ، لأنَّ الرسُولَ من شأنه أن يُبَلِّغ عن المُرسِل، ولهذا أضافه في سُورةِ التَّكوير إلى الرسول المَلَكِيِّ. ﴿إنه لقول رسولٍ كريم * ذي قُوَّة عند ذي العرش مَكِين * مُطَاعٍ ثَمَّ أمين﴾ وهذا جبريلُ عليه السلام. ثم قال: ﴿وما صاحِبُكُم بمجنونٍ﴾ يعني محمداً ـ ﷺ ـ ﴿ولقد رآه بالأُفُق المُبِين﴾ يعني أن محمداً رأى جبريلَ على صُورَته التي خَلَقَه الله عليها، ﴿وما هُو على الغيب بِظَنِين﴾[1]، أي: بمُتَّهم، ﴿وما هو بقولِ شيطانٍ رَجِيم﴾. وهكذا قال ها هنا: ﴿وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تُؤمِنُون * ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرُون﴾، فأضافه تارةً إلى قولِ الرسولِ المَلَكِيِّ، وتارة إلى الرسول البَشَرِيِّ، لأنَّ كلًّا منهما مُبلِّغٌ عن الله ما استأمنه عليه من وَحْيِه وكَلامِهِ. ولهذا قال: ﴿تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾.

قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوانُ، حدثنا شُرَيح بن عُبَيد قال: قال عُمَر بن الخطاب: خرجتُ أتعرَّضُ رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن أُسلِمَ، فوجدتُه قد سَبَقَنِي إلى المسجِد، فقُمتُ خَلْفَه، فاستفتَحَ سورة الحاقَّة، فجعلتُ أعجَبُ من تأليفِ القرآن، قال: فقلتُ: هذا ـ والله ـ شاعرٌ كما قالت قُرَيشٌ. قال: فقرأ: ﴿إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ * وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تُؤمِنُون﴾، قال: فقلتُ: كاهنٌ. قال: فقرأ: ﴿ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرون * تنزيلٌ من ربِّ العالمين * ولو تَقَوَّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوَتِين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين﴾... إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلامُ في قلبي كلَّ موقع[2].

فهذا من جُملة الأسباب التي جَعَلها الله مُؤثِّرة في هدايةِ عُمَر بنِ الخطّابِ، كما أوردنا كيفيَّة إسلامِهِ في سيرته المُفرَدة، ولله الحمدُ.

---

(١) الآية ٢٤ من سورة التكوير، وقوله ﴿بظنين﴾ هذه قراءة ابن كثير وأبي عَمْرو والكسائي، وقرأ الباقون ﴿بضنين﴾، بالضاد، أي ببخيل.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/١٧ ـ ١٨

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾
وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى ﴿ولو تقوَّل علينا﴾، أي: مُحمَّد ـ ﷺ ـ أو كان كما يزعُمون مُفترياً علينا، فزاد في الرِّسالة أو نقصَ منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجَلْناهُ بالعقوبة. ولهذا قال: ﴿لأخذنا منه باليمين﴾، قيل. معناه لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشدُّ في البَطْش. وقيل: لأخذنا بيَمينه. ﴿ثم لَقَطعنا منه الوتين﴾؛ قال ابنُ عباسٍ: وهو نِياطُ القلب، وهو العِرْقُ الذي القلب مُعلَّق فيه. وكذا قال عكرمة وسَعيد بن جُبَير، والحَكم، وقتادةُ، والضَّحَّاك، ومسلم البَطِين، وأبو صخر حُميد بن زيادٍ. وقال محمد بن كعب: هو القلب ومَرَاقُّه(١) وما يَليه.

وقولُه: ﴿فما مِنكُم من أحدٍ عنه حاجزين﴾، أي: فما يقدِرُ أحدٌ منكم على أن يَحجُزَ بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك. والمعنى في هذا: بل هو صادقٌ بارٌّ راشِدٌ، لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مُقرِّر له ما يُبلغُه عنه، مُؤيِّدٌ له بالمعجزاتِ الباهراتِ والدَّلالاتِ القاطعاتِ.

ثم قال: ﴿وإنه لَتذكِرةٌ للمُتَّقين﴾، يعني: القرآن. كما قال: ﴿قُل هو للذين آمنوا هُدًى وشفاءٌ والذين لا يُؤمِنُون في آذانهم وَقْرٌ وهو عَلَيهم عَمًى﴾.

ثم قال: ﴿وإنَّا لنعلَمُ أنَّ منكم مُكذِّبين﴾، أي: مع هذا البيان والوضوح سَيُوجَدُ منكم من يُكَذِّب بالقرآن.

ثم قال ﴿وإنه لَحَسْرَةٌ على الكافِرينَ﴾، قال ابنُ جرير. وإنَّ التكذيبَ لَحَسرةٌ على الكافرينَ يومَ القيامةِ، وحكاه عن قتادةَ بمثلِه.

ورَوى ابنُ أبي حاتم، من طريق السُّدِّي، عن أبي مالك: ﴿وإنَّه لَحَسْرَةٌ على الكافرين﴾ ـ يقول. لندامةٌ ويَحْتَمِلُ عودَ الضمير على القرآن، أي: وإنَّ القرآن والإيمانَ به لحسرةٌ في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كذلك سَلَكناه في قلوب المجرمين ۞ لا يُؤمِنُون به﴾. وقال تعالى: ﴿وحِيلَ بينَهم وبينَ ما يشتَهُون﴾. ولهذا قال ها هنا: ﴿وإنَّه لحقُّ اليَقين﴾، أي: الخبرُ الصِّدقُ الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه، ولا شكَّ ولا ريبَ.

ثم قال: ﴿فَسَبِّح باسمِ ربِّك العظيم﴾، أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

آخر تفسير سُورَةِ الحاقَّةِ

(١) مَراقُّ القلب: ما سفل من البطن مما تحته من المواضع التي تَرِقُّ جُلُودها، جمع مَرَقٌّ.

تفسير

سُورَةُ المَعَارِج

وَهِيَ مكيّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ ﴾

﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ﴾: فيه تضمينٌ دلَّ عليه حرفُ «الباء»، كأنه مُقدَّر: استعجَلَ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ، كقوله: ﴿ويَسْتعجلونك بالعذابِ ولن يُخلِفَ الله وعدَه﴾، أي: وعذابُه واقعٌ لا محالةَ.

قال النَّسائي: حدثنا بِشْرُ بن خالد، حدثنا أبو أُسامَةَ، حدثنا سفيانُ، عن الأعمش، عن المنهالِ بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿سَأَلَ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ﴾، قال: النضرُ بنُ الحارثِ بن كَلَدَة[(١)].

وقال العَوْفيُّ، عن ابن عباس: ﴿سَأَلَ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ﴾، قال: ذلك سُؤالُ الكُفَّار عن عذابِ الله وهو واقعٌ.

وقال ابنُ أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾: دعا داعٍ بعذابٍ واقعٍ يقعُ في الآخرة، قال: وهو قولهم: ﴿اللهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندِكَ فأمطِرْ علينا حِجارةً من السَّماء أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ﴾.

وقال ابنُ زيد وغيره: ﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ﴾، أي: وادٍ في جَهَنَّم يَسيلُ يومَ القيامةِ بالعذابِ. وهذا القولُ ضعيفٌ بعيدٌ عن المرادِ. والصحيحُ الأوَّلُ لدَلالةِ السِّياقِ عليه.

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/٤٥٢.

وقولُه: ﴿واقعٌ * للكافرين﴾، أي: مُرصدٌ مُعَدٌّ للكافرين. وقال ابن عباس ﴿واقع﴾ جاء. ﴿ليس له دافعٌ﴾، أي: لا دافع له إذا أراد الله كونَه. ولهذا قال: ﴿من الله ذي المَعَارج﴾، قال الثوريُّ، عن الأعمش، عن رَجُلٍ، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عَبّاسٍ في قوله: ﴿ذي المَعَارج﴾، قال: ذو الدَّرَجات. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عبّاس. ﴿ذي المعارجِ﴾، يعني: العُلوّ والفواضلَ. وقال مجاهد: ﴿ذي المعارجِ﴾: معارجِ السماء. وقال قتادة: ذي الفواضلِ والنِّعمِ.

وقولُه: ﴿تَعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه﴾، قال عبد الرزّاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة. ﴿تعرُج﴾. تصعَدُ. وأمّا الروحُ فقال أبو صالح: هم خلقٌ من خَلْقِ الله. يُشبِهُون الناس، وليسوا ناساً.

قلتُ: وَيحتمِلُ أن يكونَ المرادُ به جبريلَ، ويكون من باب عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ. ويَحْتَمِلُ أن يكون اسمَ جنسٍ لأرواح بني آدمَ، فإنها إذا قُبِضت يُصعَد بها إلى السماء، كما دلَّ عليه حديثُ البَرَاء، لمَا في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والنَّسائي، وابنُ ماجه، من حديث المِنهال، عن زاذانَ، عن البَرَاء مرفوعاً الحديث بطوله في قبض الرُّوحِ الطَّيِّبة، قال فيه: «فلا يزال يُصعَد بها من سماءٍ إلى سماءٍ حتى يُنتهَى بها إلى السماء السابعة». والله أعلم بِصِحَّته، فقد تُكُلِّم في بعض رُواته، ولكنه مشهور، وله شاهدٌ في حديثِ أبي هُرَيرة. فيما تَقَدَّم من رواية الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، من طريق ابن أبي ذِئْبٍ، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عنه. وهذا إسناد رجالُه على شَرْطِ الجماعة، وقد بَسَطْنا لفظه عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضِلُّ الله الظالمين ويفعَلُ الله ما يشاءُ﴾[1].

وقولُه: ﴿في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ﴾: فيه أربعةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنّ المراد بذلك مسافةُ ما بين العرش العظيم إلى أسفلِ السافلين، وهو قرارُ الأرضِ السابعة، وذلك مسيرةُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، هذا ارتفاعُ العرش عن المركز الذي في وَسَط الأرض السابعة. وكذلك اتساعُ العرش من قطرٍ إلى قطرٍ مسيرةَ خمسينَ ألفَ سنةٍ، وأنه من ياقوتةٍ حمراءَ، كما ذكره ابنُ أبي شيبة في كتاب صفةِ العرش. وقد قال ابنُ أبي حاتم عند هذه الآية:

حَدَّثنا أحمدُ بن سَلَمة، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم، أخبرنا حَكّامٌ، عن عُمَرَ بن معروفٍ، عن ليثٍ، عن مجاهد، عن ابن عبّاس قوله: ﴿في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ﴾، قال: مُنتهَى أمره من أسفلِ الأرضين إلى منتهى أمرِهِ من فوق السمواتِ مقدارُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، ويومٌ كان مقدارُه ألفَ سنة، يعني بذلك تَنَزُّل[2] الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يومٍ واحدٍ، فذلك مقداره ألف سنة، لأن ما بين السماء والأرض مقدار مسيرةِ خَمْسِمائةِ سنةٍ[3].

وقد رَوَاه ابنُ جَرير عن ابن حُمَيد، عن حَكّام بن سَلْمٍ، عن عُمَرَ بن معروف، عن ليث، عن مجاهد قوله. لم يذكر ابن عباس[3].

قال ابن أبي حاتم: وحَدَّثنا أبي، حَدَّثنا عليُّ بن مُحمَّد الطَّنافسي، حدثنا إبراهيم بن منصور، حدَّثنا نوحُ

---

(١) تقدم الحديثُ وتخريجُه عند تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

(٢) في نسخة: ويعني بذلك منتهى تنزله.

(٣) أخرجه كذلك ابن المنذر. الدر المنثور ٨/٢٧٩.

المضروب، عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن عباس قال: غِلَظُ كُلِّ أرضٍ خمسُمائةِ عامٍ، وبين كلِّ أرضٍ إلى أرضٍ خمسُمائةِ عامٍ، فذلك سبعة آلاف عام. وغِلَظُ كُلِّ سماءٍ خمسُمائةِ عامٍ، وبين السماءِ إلى السماءِ خمسُمائةِ عامٍ، فذلك أربعةَ عشَرَ ألفَ عامٍ، وبين السماءِ السابعةِ وبين العرش مسيرةُ ستةٍ وثلاثينَ ألفَ عامٍ، فذلك قوله: ﴿في يوم كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ﴾.

القولُ الثاني: أن المرادَ بذلك مُدَّةُ بقاءِ الدُّنيا منذ خلق الله هذا العالَمَ إلى قيامِ الساعة، قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبو زُرْعَةَ، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابنُ أبي زائدةَ، عن ابن جُرَيج، عن مجاهدٍ. ﴿في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ﴾، قال: الدنيا عمرُها خمسون ألفَ سنةٍ. وذلك عمرُها يومٌ، سمَّاها الله تعالى يوماً، ﴿تعرجُ الملائكة والروحُ إليه في يوم﴾، قال: اليومُ الدنيا.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا معمرٌ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ ـ وعن الحكم بن أبانَ، عن عِكْرِمَة: ﴿في يومٍ كانَ مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ﴾، قال: الدنيا من أوَّلِها إلى آخرِها مقدارُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، لا يَدْرِي أحدٌ كَمْ مَضَى، ولا كَم بقي إلا الله عزَّ وجلَّ.

القولُ الثالثُ: أنه اليومُ الفاصلُ بين الدُّنيا والآخرةِ، وهو قولٌ غريبٌ جدًّا، قال ابن أبي حاتم:

حَدَّثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سَعيد القطانُ، حدثنا بُهلول بن المُوَرِّق، حدَّثنا موسى بن عُبَيدة، أخبرني محمد بن كعب: ﴿في يومٍ كانَ مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ﴾، قال: هو يومُ الفصلِ بين الدنيا والآخرة.

القولُ الرابع: أنَّ المراد بذلك يومُ القيامةِ، قال ابن أبي حاتم:

حَدَّثنا أحمدُ بن سنان الواسطيُّ، حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدي، عن إسرائيلَ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبَّاسٍ: ﴿في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ﴾، قال: يومُ القيامة.

وهذا إسنادٌ صحيحٌ. ورَواه الثوريُّ عن سِمَاك بن حَرْب، عن عِكْرِمَة: ﴿في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ﴾: يوم القيامة. وكذا قال الضَّحَّاكُ، وابنُ زيدٍ.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿تَعرجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ﴾، قال: فهذا يومُ القيامةِ، جعله الله على الكافرينَ مقدارَ خمسينَ ألفَ سنةٍ.

وقد وَرَدت أحاديثُ في معنى ذلك، قال الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا الحسنُ بن موسى، حدثنا ابن لَهيعةَ، حدَّثنا دَرَّاجٌ، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعيدٍ قال: قيل لرسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿يومٍ كانَ مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ﴾: ما أطولَ هذا اليومَ! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده إنه ليُخفَّفُ على المؤمنِ حتى يكونَ أخفَّ عليه من صَلاةٍ مكتوبةٍ يُصلِّيها في الدُّنيا»(١).

ورَواه ابنُ جَرير، عن يونُسَ، عن ابن وَهْبٍ، عن عمرو بن الحارثِ، عن دَرَّاجٍ، به(١). إلاَّ أن دَرَّاجاً وشيخَه ضعيفان، فالله أعلم.

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٧٥، وتفسير الطبري ٢٩/٧٢

وقال الإمامُ أحمدُ. حدَّثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن قتادة، عن أبي عُمَر الغُدَاني قال: كنتُ عند أبي هُرَيْرة فمرَّ رجلٌ من بني عامر بن صَعْصَعة، فقيل له: هذا أكثرُ عامريٍّ مالاً. فقال أبو هُرَيْرَة: رُدُّوه. فقال: نُبِّئتُ أنك ذو مالٍ كثيرٍ؟ فقال العامريُّ. إيْ والله، إنَّ لي لمائةَ حُمْراً ومائةَ أُدماً ـ حتى عدَّ من ألوان الإبل ـ وأفنان[1] الرَّقيق ورِباطَ الخيل. فقال أبو هُرَيْرَة: إيَّاكَ وأخفافَ الإبل وأظلافَ الغنم ـ يُرَدِّدُ ذلك عليه، حتى جعل لونُ العامريِّ يتغيَّر ـ فقال: ما ذاك يا أبا هُرَيْرة؟ قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول. «من كانت له إبلٌ لا يُعطي حَقَّها في نجدتها ورِسْلِها» ـ قلنا يا رسولَ الله: ما نجدتُها ورِسْلُها؟ قال: «في عُسْرِها ويسرِها ـ فإنها تأتي يومَ القيمة كَأَغذِّ[2] ما كانت وأكثرِه وأسمنِه وآشَرِه[3] حتى يُبطَحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ، فتطؤُه بأخفافها، فإذا جاوزَتْه أُخراها أُعيدت عليه أولاها، في يوم كان مقدارُه خمسين ألفَ سَنَة، حتى يُقضى بين الناس فيرى سبيله. وإذا كانت له بقرٌ لا يُعطي حقها في نجدتها ورِسْلِها فإنها تأتي يوم القيامة كَأَغذِّ ما كانت وأكثرِه وأسمنِه وآشَرِه[3] ثم يُبطَحُ[4] لها بقاعٍ قرقرٍ فتطؤُه كلُّ ذاتِ ظِلْفٍ بظِلْفِها، وتنطحه كلُّ ذاتِ قَرْنٍ بقَرْنِها، إذا جاوزَتْه أُخراها أُعيدت عليه أولاها، في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقضى بين الناس فيرى سبيله. وإذا كانت له غَنَمٌ لا يُعطي حَقَّها في نَجْدَتِها وَرِسْلِها، فإنها تأتي يومَ القيامةِ كأغذِّ ما كانت وأسمنِه، وآشرِه، حتى يُبطَحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ، فتطؤُه كلُّ ذاتِ ظِلْفٍ بِظِلْفِها وتنطَحُه كُلُّ ذاتِ قَرْنٍ بقَرْنِها، ليس فيها عَقصاءُ ولا عَضْباءُ[5]، إذا جاوزَتْه أُخراها أُعيدت عليه أُولاها، في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقضى بين الناس فيرى سبيله». فقال العامري: وما حقُّ الإبلِ يا أبا هُرَيْرَة؟ قال: أن تُعطِيَ الكريمةَ[6]، وتَمنَحَ الغَزِيرةَ، وتُفقِرَ الظهرَ، وتَسقِيَ اللبنَ[7]، وتُطرِقَ الفَحْلَ[8].

وقد رواه أبو داودَ من حديثِ شُعبَةَ، والنَّسائي من حديث سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، كلاهُما عن قتادَةَ، به[8].

طريقٌ أُخرى لهذا الحديثِ، قال الإمامُ أحمدُ:

حدَّثنا أبو كامل، حدَّثنا حَمَّاد، عن سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «ما من صاحبِ كنزٍ لا يُؤَدِّي حقَّه إلا جُعِلَ صفائحَ يُحمَى عليها في نار جَهَنَّم، فتُكوَى بها جَبهتُه وجَنْبُه وظهرُه، حتى يحكمَ الله بين عباده في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سَنَةٍ مما تَعُدُّون، ثم يَرَى سبيله إمَّا إلى الجنةِ وإما إلى النارِ». وذكر بقيَّة الحديث في الغنم والإبل كما تقدَّم، وفيه: «الخيلُ لثلاثةٍ [لرجلٍ أجرٌ، ولرَجُلٍ سِترٌ، وعلى رجلٍ وِزْرٌ]... إلى آخره[9].

ورواه مسلم في صحيحه بتمامه متفرداً به دون البخاري، من حديث سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرة[9]، وموضعُ استقصاءِ طُرُقه وألفاظِه في كتاب الزكاة في «الأحكام»، والغرضُ من إيراده ها هنا قولُه: «حتى يحكُم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسينَ ألفَ سنةٍ».

---

(١) الأفنان: جمع فَنّ، وهو الضَّرب، يريد أن عنده ضروباً من الرقيق.

(٢) أي: كأسرع وأنشط، يقال: أغذَّ السَّير، وفي السَّير: أسْرَع.

(٣) أي: أبطره وأنشطه. ويروى: وأسرَه، من السرور، أو من السِّرِّ وهو لب كلِّ شيء وخوفه، فيكون أسرُه على هذا بمعنى أسمنه.

(٤) أي: يلقى على وجهه. وقاع قرقر: مكان واسع مُستوٍ.

(٥) العقصاء: المُلْتوية القرنين. والعضباء: المكسورة القرن.

(٦) الكريمة: العزيزة على صاحبها. والغزيرة: كثيرة اللبن.

(٧) في بعض النسخ: وتسقي الإبل.

(٨) مسند الإمام أحمد ٢/٤٨٩ ـ ٤٩٠، أخرجه أبو داود والنسائي في كتاب الزكاة، سنن أبي داود ٣/١٢٥، والنسائي ٥/١٢ ـ ١٤

(٩) مسند الإمام أحمد ١/٢٦٢، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٦٨٢ ـ ٦٨٣.

وقد روى ابنُ جرير عن يعقوبَ، عن ابن عُلَيَّة، وعبد الوهاب، عن أيوبَ، عن ابن أبي مُلَيكَةَ قال: سألَ رجلٌ ابن عباس في قوله: ﴿في يوم كان مقدارُه ألفَ سنة﴾، قال: فاتَّهمه فقال: ما يومٌ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ؟ فقال: إنما سألتُكَ لتحدِّثَني. قال: هما يومان ذكرهما الله، الله أعلم بهما، وأكره أن أقولَ في كتاب الله بما لا أعلم[1].

وقولُه: ﴿فاصبر صبرًا جميلاً﴾، أي: اصبر ـ يا محمد ـ على تكذيب قومك، واستعجالهم العذابَ استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحقُّ﴾، ولهذا قال: ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾، أي: وقوعَ العذاب وقيامَ الساعة يراه الكفرة بعيدَ الوقوع، بمعنى مستحيل الوقوع، ﴿ونراه قريباً﴾، أي: المؤمنون يعتقدون كونَه قريباً، وإن كان له أمدٌ لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ، لكن كلُّ ما هو آتٍ فهو قريب وواقع لا محالة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

يقولُ تعالى: العذابُ واقعٌ بالكافرين، ﴿يومَ تكونُ السماءُ كالمُهل﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، وسعيد بن جُبير، وعِكرمة، والسُّدِّي، وغيرُ واحدٍ: كدُرْدِيِّ الزيت، ﴿وتكونُ الجبالُ كالعِهْن﴾، أي: كالصُّوف المنفوش، قاله مجاهدٌ، وقتادةُ، والسُّدِّي. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وتكونُ الجبالُ كالعِهْن المنفُوش﴾.

وقولُه: ﴿ولا يَسْأَلُ حَميمٌ حَميماً * يُبَصَّرُونَهم﴾، أي: لا يسألُ القريبُ قريبَه عن حاله، وهو يراه في أسوإ الأحوال، فتشغَلُه نفسُه عن غيره.

قال العَوفي، عن ابن عباس: يعرفُ بعضُهم بعضاً، ويتعارفُون بينهم، ثم يَفِرُّ بعضُهم من بعضٍ بعد ذلك، يقول: ﴿لِكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾.

وهذه الآيةُ الكريمةُ كقوله: ﴿يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم واخشَوا يوماً لا يَجزي والدٌ عن وَلَدِه ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً إنَّ وَعْدَ الله حقٌّ﴾ وكقوله: ﴿وإن تَدْعُ مُثقلة إلى حِمْلها لا يُحمل منه شيءٌ ولو كان ذا قُربى﴾، وكقوله: ﴿فإذا نُفخ في الصُّورِ فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يَتَساءلُون﴾، وكقوله: ﴿يومَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه * وأمِّه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾.

وقولُه: ﴿يَوَدُّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تُؤويه * ومَن في الأرض جميعاً ثم يُنجيه * كلَّا﴾، أي: لا يُقبلُ منه فداءٌ ولو جاء بأهل الأرض وبأعزِّ ما يَجدُه من المال، ولو بملءِ الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حُشاشة كبده، يودُّ يوم القيامة إذا رأى الأهوالَ أن يَفْتدي من

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/٧٦

عذابِ الله به، ولا يُقبلُ منه، قال مجاهدٌ والسُّدّي: ﴿فَصِيلَتِهِ﴾: قبيلته وعشيرته. وقال عِكْرمةُ: فخذه الذي هو منهم. وقال أشهب، عن مالك: ﴿فَصِيلَتِهِ﴾: أمّه.

وقوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾، يَصِفُ النارَ وشِدَّةَ حَرِّها، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: جِلْدَةَ الرأسِ. وقال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾. الجُلودُ والهامُ. وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم. وقال سعيد بن جُبَير: العَصَب والعَقَب. وقال أبو صالح: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، يعني أطراف اليدين والرجلين. وقال أيضاً: «نزاعة لحمَ الساقين». وقال الحسنُ البصريُّ، وثابت البُنانيُّ: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، أي: مكارمَ وجْهِه. وقال الحسنُ أيضاً: تَحرقُ كُلَّ شيءٍ فيه، ويبقَى فؤادُه يَصيحُ. وقال قتادةُ: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، أي: نَزّاعةً لهامَته ومكارمِ وجْهِه وخَلْقِه وأطرافِه. وقال الضحاك: تَبْري اللحمَ والجِلْدَ عن العظْم، حتى لا تترك منه شيئاً. وقال ابنُ زيدٍ: الشَّوَى الآرابُ العِظامُ[1] فقوله: نزاعة، قال: تقطعُ عظامَهم، ثم يُجدَّد خلقهم وتُبَدَّلُ جلودهم[2].

وقوله: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾، أي: تدعو النارُ إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدَّر لهم أنَّهم في الدار الدُّنيا يعملُون عملها، فتدعُوهم يوم القيامة بلسانٍ طَلْقٍ ذَلْقٍ[3]، ثم تلتقطُهم من بين أهل المحشر كما يَلتَقِطُ الطيرُ الحبَّ. وذلك أنهم كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كانوا ممن ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: كذَّب بقلبه، وترك العملَ بجوارحِه، ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾، أي: جَمع المال بعضَه على بعض فأوعاه، أي: أوكاه[4] ومَنَع حقَّ الله منه من الواجب عليه في النفقاتِ ومن إخراجِ الزكاةِ. وقد وَرَد في الحديث: «ولا توعي فيُوعي الله عليك»[5]. وكان عبد الله بن عُكَيمٍ لا يربط له كيساً ويقولُ: سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾.

وقال الحسنُ البصريُّ: يا ابنَ آدمَ، سمعت وعيدَ الله ثم أوعيتَ الدنيا. وقال قتادةُ في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾، قال: كان جَمُوعاً قَمُوماً للخبيث[6].

﴿ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مَجْبولٌ عليه من الأخلاق الدنيئة. ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، ثم

(١) الآرابُ: جمع إرْب، وهو العضو.
(٢) في النسخ: «ثم تبدل جلودهم وخَلْقهم، وتبدل جلودهم» والمثبت من تفسير الطبري ٢٩/٧٧.
(٣) يقال: لسان ذَلْقٌ: حديد بليغ.
(٤) وكى الصُّرَّةَ وأوكاها: شدَّها بالوكاء، وهو الخيط.
(٥) أخرجه الشيخان في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣/٣٠١، ومسلم ٢/٧١٣.
(٦) أخرجه الطبري ٢٩/٧٨.

مشَره بقوله ﴿إذا مسَّه الشرُّ جَزوعاً﴾، أي: إذا أصابه الضُّرُّ فزع وجزع وانخلع قلبُه من شدَّة الرُّعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خيرٌ، ﴿وإذا مسَّه الخيرُ منُوعاً﴾، أي: إذا حصلت له نعمة من الله بَخِلَ بها على غيره، ومنَع حقَّ الله فيها.

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا موسى بن عُلَيّ بن رَباح، سمعتُ أبي يُحدِّث عن عبد العزيز بن مَرْوان بن الحَكَم قال: سمعت أبا هُرَيْرة يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «شَرُّ ما في رجل: شُحٌّ هالِعٌ، وجُبن خالعٌ»[١].

ورَواه أبو داود عن عبد الله بن الجَرّاح، عن أبي عبد الرحمن المُقرِي، به. وليس لعبد العزيز عنده سواه[١].

ثم قال: ﴿إلَّا المُصلِّين﴾، أي: الإنسانُ من حيثُ هو مُتَّصِف بصفات الذم إلا مَن عَصَمه الله وَوَفَّقه، وهداه إلى الخير ويسَّر له أسبابه، وهم المُصلُّون. ﴿الذين هُم على صَلاتهم دائِمُونَ﴾ قيل: معناه يُحافظُون على أوقاتها وواجباتها، قاله ابن مسعود، ومسروق، وإبراهيم النخعيُّ.

وقيل: المرادُ بالدَّوام ها هنا السُّكونُ والخُشوعُ، كقوله: ﴿قد أفلح المُؤمِنُونَ * الذين هُم في صلاتهم خاشِعُون﴾. قاله عُقبةُ بن عامر. ومنه الماءُ الدائمُ، أي: الساكنُ الراكدُ.

وقيل: المرادُ بذلك الذين إذا عَمِلوا عملاً داوَمُوا عليه وأثبتُوه، كما جاء في الصَّحيح عن عائشةَ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومُها وإن قَلّ»[٢] ـ وفي لفظ: «ما داوم عليه صاحبُه»، قالت: وكان رسول الله ـ ﷺ ـ: إذا عَمِل عملاً داومَ عليه. وفي لفظ: أثبتَه[٣].

وقال قتادةُ في قوله: ﴿الذين هُم على صلاتهم دائمونَ﴾. وَذُكِرَ لنا أن دانيالَ ـ عليه السلامُ ـ نَعت أُمَّةَ محمدٍ ـ ﷺ ـ فقال: يُصلُّون صلاةً لو صلَّاها قومُ نوح ما غَرِقوا، أو قومُ عادٍ ما أُرسِلَت عليهم الريحُ العقيمُ، أو ثمودُ ما أخذتهم الصيحةُ. فعليكم بالصلاةِ فإنها خُلُق للمؤمنين حَسَن»[٤].

وقولُه: ﴿والذين في أموالهم حقٌّ معلومٌ * للسائل والمحروم﴾، أي: في أموالهم نَصِيبٌ مُقرَّر لِذَوِي الحاجات. وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك في «سُورة الذاريات»[٥].

وقولُه: ﴿والذين يُصدِّقون بيوم الدين﴾، أي: يُوقِنُون بالمَعاد والحساب والجَزاء، فهم يعمَلُون عَمَلَ مَن يرجُو الثوابَ ويخافُ العِقابَ. ولهذا قال: ﴿والذين هُم من عذاب ربهم مُشفِقُون﴾، أي: خائِفُون وَجِلُون، ﴿إنَّ عَذابَ ربِّهِم غيرُ مَأمُونٍ﴾، أي: لا يأمنه أحدٌ ممن عَقَل عن الله أَمْرَه إلَّا بأمان منه تبارك وتعالى.

وقولُه: ﴿والذين هُم لفُروجهم حافظون﴾، أي: يَكُفُّونها عن الحرام ويمنَعُونها أن تُوضَع في غير ما أذِن الله. ولهذا قال: ﴿إلَّا على أزواجهم أو ما مَلَكت أيمانُهم﴾، أي: من الإماء، ﴿فإنَّهم غيرُ مَلُومِين * فمن ابتغى وَراء ذلك فأولئك هم العادُون﴾. وقد تَقَدَّم تفسير هذا في أول سورة: ﴿قد أفلحَ المُؤمِنُون﴾ بما أغنى عن إعادَته ها هنا.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٢٠، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ١٢/٣.
(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الإيمان ١٠١/١، وكتاب الرقاق ٢٩٤/١١، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٤٠ ـ ٥٤١.
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب التطوع ٤٨/٢.
(٤) أخرجه الطبري ٧٩/٢٩.
(٥) انظر تفسير الآية ١٩ من سورة الذاريات.

وقولُه: ﴿والذين هم لأماناتهم وعَهْدِهم راعُون﴾ أي: إذا اؤتُمِنوا لم يَخُونوا، وإذا عاهدُوا لم يَغدُروا. وهذه صفات المؤمنين، وضِدُّها صفاتُ المنافقين، كما وَرَد في الحديثِ الصَّحيحِ «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلف، وإذا اؤتُمنَ خان». وفي رواية ـ «إذا حدَّث كذَب، وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصَم فَجَر»[١].

وقولُه ـ ﴿والذين هُم بشهاداتهم قائمون﴾، أي: مُحافِظُون عليها لا يَزيدُون فيها ولا ينقصُون منها، ولا يكتمونها، ﴿ومَن يكتمها فإنه آثمٌ قلبه﴾.

ثم قال: ﴿والذين هُم على صلَوَاتهم يُحافِظُون﴾، أي: على مَواقِيتِها وأركَانِها وواجباتها ومُستحَبَّاتِها، فافتتح الكلام بذكر الصلاةِ واختتَمه بذكرِها، فدلَّ على الاعتناء بها والتنويه بشرَفِها، كما تقدَّم في أول سورة. ﴿قد أفلحَ المؤمنون﴾، سواءً. ولهذا قال هناك: ﴿أولئك هُم الوارثون * الذين يَرِثُون الفِرْدَوسَ هم فيها خالدون﴾، وقال ها هنا. ﴿أولئك في جناتٍ مُكْرَمُون﴾، أي: مُكْرَمُون بأنواع المَلاذِّ والمَسارِّ.

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨)
كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ
يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ
ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾

يقولُ تعالى مُنكِراً على الكُفَّار الذين كانوا في زمان النبي ـ ﷺ ـ وهم مشاهِدُون له، ولما أرسلَه الله به من الهُدى وأيَّده به من المُعجِزات الباهرة، ثم هُم مع هذا كله فارُّون منه، مُتفرِّقُون عنه، شاردين يميناً وشمالاً، فِرَقاً فِرَقاً، وشِيَعاً شِيَعاً، كما قال تعالى: ﴿فما لهم عن التذكِرَة مُعرِضين * كأنهم حُمُرٌ مستنفِرَة * فرت من قَسْوَرَة﴾... الآية، وهذه مثلها، فإنه قال تعالى: ﴿فما للذين كفروا قِبَلَك مُهطِعين﴾، أي: ما لِهؤلاءِ الكُفَّار الذين عندك يا محمَّدُ ﴿مُهطِعين﴾، أي: مُسرِعين نافِرين منك، كما قال الحسنُ البصريُّ: ﴿مهطعين﴾، أي: مُنطَلِقين، ﴿عن اليمين وعن الشمال عِزين﴾، واحدُها عِزَةٌ، أي: متفرقين. وهو حالٌ من مهطعين، أي: في حال تفرقهم واختلافهم، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء: فهم مخالِفُون للكتاب، مُختلِفون في الكِتاب، مُتفِقون على مُخالفةِ الكتاب.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿فما للذين كفَرُوا قِبَلَكَ مُهطِعين﴾، قال: قِبَلكَ يَنظُرون، ﴿عَن اليمين وعن الشمال عِزين﴾، قال: العِزينُ: العُصَبُ من الناس، عن يمينٍ وشمالٍ مُعرِضين يَستهزئون به.

وقال ابنُ جَرير ـ حدَّثنا ابن بَشَّار، حدَّثنا أبو عامر، حدَّثنا قُرَّة، عن الحسن في قوله ﴿عن اليمين وعن الشمال عِزينَ﴾، مُتفرِّقين، يأخذون يميناً وشمالاً يَقُولون. ما قال هذا الرجل[٢]؟.

---

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآيات التالية، ١٧٧، ٢٠٤ من سورة البقرة، ٧٧ من سورة التوبة، ٢٥ من سورة الرعد، ٨ من سورة المؤمنون، والثانية من سورة الصف.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/٨٦.

وقال قتادة: ﴿مُهطعين﴾: عامدين، ﴿عَنِ اليمين وعن الشمال عِزين﴾، أي: فِرقاً حولَ النبيِّ - ﷺ - لا يَرْغَبُون في كتابِ الله، ولا في نَبِيِّه ﷺ.

وقال الثَّوريُّ، وشعبةُ، وعيسى بن يونس، وعَبْثَر بن القاسم، ومحمد بن فُضيل، ووكيع، ويحيى القطان، وأبو مُعاوية، كُلُّهم عن الأعمش، عن المُسَيَّب بن رافع، عن تميم بن طَرَفة، عن جابر بن سَمُرة: أن رسولَ الله - ﷺ - خرَج عليهم وهم حلَقٌ، فقال: ما لي أراكم عِزين؟

رواه أحمدُ، ومسلمٌ، وأبو داود، والنَّسائيُّ، وابنُ جَرير، من حديثِ الأعمش، به[1].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيْرة: أن رسولَ الله - ﷺ - خرَج على أصحابه وهم حِلَقٌ حِلَقٌ، فقال: «ما لي أراكم عِزِينَ؟

وهذا إسنادٌ جَيِّدٌ، ولم أَرَه في شيءٍ من الكُتُب السِّتَّة من هذا الوجه.

وقولُه: ﴿أيطمَعُ كلُّ امرئٍ منهم أن يُدخَل جنَّةَ نعيم * كلَّا﴾، أي: أيطمَعُ هؤلاء - والحالةُ هذه - من فرارِهم عن الرسول ونِفارهم عن الحق أن يدخُلوا جناتِ النعيم؟ بل مأواهم نارُ الجحيم.

ثم قال تعالى مُقرِّراً لوقوع المَعاد والعذاب بهم الذي أنكرُوا كَوْنَه واستبعدُوا وُجودَه، مُستدلاً عليهم بالبَدْأَةِ التي الإعادةُ أهونُ منها وهم مُعترفُون بها، فقال: ﴿إنَّا خلقناهُم مما يعلمُون﴾، أي: من المنيِّ الضعيف، كما قال: ﴿ألم نخلقْكُم من ماءٍ مَهين﴾. وقال: ﴿فلْينظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق * خُلِق من ماءٍ دافقٍ * يخرُج من بين الصُّلب والتَّرائب * إنه على رَجْعِه لقادرٌ * يوم تُبلَى السرائرُ * فما له من قُوَّةٍ ولا ناصرٍ﴾.

ثم قال: ﴿فلا أُقسِمُ بربِّ المشارق والمغارب﴾، أي: الذي خلَق السمواتِ والأرض، وجعل مشرقاً ومغرباً، وسخَّر الكواكبَ تبدُو من مشارقها وتغيبُ في مغاربها. وتقريرُ الكلام: ليس الأمرُ كما تزعمُون أنْ لا معادَ ولا حِسابَ ولا بعثَ ولا نُشُور، بل كلُّ ذلك واقعٌ وكائنٌ لا محالةَ. ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداء القَسَم ليدُلَّ على أن المقسَم عليه نفيٌ، وهو مضمُون الكلام، وهو الردُّ على زعمِهم الفاسد في نَفْيِ يوم القيامة، وقد شاهَدُوا من عظيم قُدْرةِ الله تعالى ما هو أبلغ مِن إقامة القيامة، وهُو خلقُ السمواتِ والأرض، وتسخيرُ ما فيهما من المخلوقات من الحيواناتِ والجمادات، وسائر صُنُوفِ الموجُودات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناس﴾، وقال تعالى: ﴿أوَلم يَرَوا أنَّ الله الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ ولم يَعْيَ بخلقهنَّ بقادرٍ على أن يحييَ الموتى بلى إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾. وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أوَليسَ الذي خلَق السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُق مثلهم بلى وهو الخلاقُ العليم * إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكونُ﴾. وقال ها هنا: ﴿فلا أُقسِمُ بربِّ المشارق والمغارب إنا لقادِرُون * على أن نُبدِّل خيراً منهم﴾، أي: يومَ القيامةِ نُعيدهم بأبدانٍ خيرٍ من هذه، فإنَّ قُدْرَته صالحةٌ لذلك، ﴿وما نحنُ بمَسْبُوقين﴾، أي: بعاجزين. كما قال تعالى: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن لن نجمع عظامَه * بلى قادرين على أن نُسَوِّي بنانَه﴾. وقال تعالى: ﴿نحن قدَّرنا بينكم الموتَ وما نحنُ بمسبُوقين * على أن نُبدِّل أمثالكم ونُنشئَكُم فيما لا تعلمون﴾.

واختار ابنُ جرير: ﴿على أن نُبدِّل خيراً منهم﴾، أي: أُمَّةً تُطيعنا ولا تعصِينا. وجَعَلَها[2] كقوله: ﴿وإن تتولَّوا يستبدل قوماً غيركُم ثم لا يكونُوا أمثالكم﴾. والمعنى الأولُ أظهرُ لدلالة الآياتِ الأُخَر عليه، والله أعلم.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٠١/٥، ومسلم، كتاب الصلاة ٣٢٢/١، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٥٨/٤، وتفسير الطبري ٨٦/٢٩.

(٢) تفسير الطبري ٨٧/٢٩.

ثم قال تعالى: ﴿فذرهم﴾، أي: يا محمد ﴿يخوضوا ويلعبوا﴾، أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم، ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾، أي: فسيعلمون غِبَّ ذلك ويذوقون وباله، ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾، أي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب ـ تبارك وتعالى ـ لموقف الحساب، ينهضون سراعاً كأنهم إلى نُصُب يوفضون.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحّاكُ: إلى عَلَمٍ يسعون. وقال أبو العالية، ويحيى بن أبي كثير: إلى غاية يسعون إليها.

وقد قرأ الجمهور: ﴿نَصْب﴾، بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصوب[1]. وقرأ الحسن البصريُّ: ﴿نُصُب﴾ بضم النون والصاد، وهو الصنمُ، أي: كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يُهَرْوِلُون إلى النُّصُب إذا عاينوه يُوفِضُون، يبتدرون أيهم يستلمه أوّلُ؟ وهذا مرويٌّ عن مجاهد، ويحيى بن أبي كثير، ومسلم البَطِين، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، وأبي صالح، وعاصم بن بَهْدَلَة، وابن زيد، وغيرهم.

وقوله: ﴿خاشعة أبصارهم﴾، أي: خاضعةً ﴿ترهقهم ذلّة﴾، أي: في مُقابلةِ ما استكبَرُوا في الدنيا عن الطاعة، ﴿ذلك اليومُ الذي كانوا يوعدون﴾.

آخر تفسير «سورةِ سَأَلَ سائِلٌ» ولله الحمدُ والمِنَّةُ

---

(١) قرأ ابن عامر وحفص: ﴿نُصُب﴾ بضمتين، والباقون بالفتح والسكون. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٩٣

تفسير

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن نوح ـ عليه السلامُ ـ أنه أرسلَه إلى قومه آمراً له أن يُنذِرَهم بأسَ الله قبل حُلوله بهم، فإن تابوا وأنابُوا رُفِع عنهم، ولهذا قال ﴿أن أنذِرْ قومَكَ من قبل أن يأتيَهُم عذابٌ أليمٌ * قال يا قوم إني لكم نذيرٌ مُبينٌ﴾ أي: بيِّن النِّذارَة، ظاهرُ الأمرِ واضحُه، ﴿أن اعبُدوا الله واتَّقوه﴾، أي: اتركُوا محارِمَه واجتنِبُوا مآثمه، ﴿وأطِيعُونِ﴾ فيما آمرُكم به وأنهاكم عنه، ﴿يغفرْ لكم مِن ذُنوبِكُم﴾، أي: إذا فعلتُم ما أمرتُكم به وصدَّقتم ما أُرسِلتُ به إليكُم غفر الله لكم ذُنوبكم.

و﴿مِنْ﴾ هاهنا قيل: إنها زائدة. ولكن القولَ بزيادتها في الإثباتِ قليل. ومنه قولُ بعض العرب: «قد كان من مطرٍ» وقيل: إنها بمعنى «عن»، تقديرُه يصفح لكم عن ذُنوبكم واختارَه ابنُ جرير. وقيل: إنها للتبعيض، أي يغفر لكم الذنوبَ العِظَام التي وعدكُم على ارتكابكم إياها الانتقام.

﴿ويُؤخِّرْكم إلى أجلٍ مُسمًّى﴾، أي: يَمُدُّ في أعماركم ويدرَأُ عنكم العذابَ الذي إن لم تَنْزجِرُوا عما نهاكُم عنه أوقعه بكُم. وقد يُستَدلُّ بهذه الآية مَن يقولُ: إن الطاعةَ والبرَّ وصلة الرَّحم يُزاد بها في العمر حَقيقةً؛ كما ورد به الحديثُ: «صِلَةُ الرحم تَزيد في العُمُر».[1]

وقولُه ﴿إن أَجَلَ الله إذا جاءَ لا يُؤَخَّر لو كُنتُم تعلمُون﴾، أي: بادِرُوا بالطاعةِ قبلَ حُلولِ النِّقمة، فإنه إذ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة صُدَيّ بن عجلان ٣٦٢/٨، وقال في مجمع الزوائد ١١٥/٣: «إسناده حسن».

أمرَ تعالى بِكَوْنٍ ذلك لا يُرَدُّ ولا يُمانَع، فإنه العظيمُ الذي قَهَر كُلَّ شيءٍ، العزيزُ الذي دانت لعزَّته جميعُ المخلوقاتِ.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ
فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل
لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ
طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ ﴾

يُخبِر تعالى عن عبدِه ورسولِه نوح ـ عليه السلامُ ـ أنه اشتكى إلى ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ ما لقي مِن قَومِه، وما صَبر عليهم في تلك المدَّة الطويلةِ التي هي ألفُ سنةٍ إلا خمسين عاماً، وما بيَّن لقومه ووضَّح لهم ودعاهم إلى الرُّشد والسبيل الأقوَم، فقال: ﴿ربِّ إنِّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً﴾، أي: لم أترك دُعاءَهم في ليلٍ ولا نهارٍ، امتثالاً لأمرِك وابتغاءً لطاعتك، ﴿فلم يَزِدهم دُعائي إلا فِراراً﴾، أي: كُلَّما دعوتُهم ليقتربوا من الحقِّ فَرُّوا منه وحادُوا عنه، ﴿وإنِّي كُلَّما دعوتُهم لتغفر لهم جَعَلوا أصابعهم في آذانهم واستغشَوا ثيابَهم﴾، أي: سَدُّوا آذانَهم لئلا يسمَعُوا ما أدعُوهم إليه. كما أخبرَ تعالى عن كفار قريش: ﴿وقال الذين كَفَروا لا تسمَعُوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلَّكم تغلبون﴾.

﴿واستغشَوا ثيابَهم﴾، قال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: تنكَّروا له لئلا يعرفَهم. وقال سعيد بن جُبَير، والسُّدِّي: غطُّوا رُؤوسَهم لئلا يسمَعُوا ما يقول. ﴿وأَصرُّوا﴾، أي: استمرُّوا على ما هُم فيه من الشِّرك والكُفرِ العظيمِ الفظيعِ، ﴿واستكبَرُوا استكباراً﴾، أي: واستنكفُوا عن اتِّباع الحقِّ والانقيادِ له.

﴿ثم إنِّي دعوتُهم جِهاراً﴾، أي: جهرةً بين الناس: ﴿ثم إنِّي أعلنتُ لهم﴾، أي: كلاماً ظاهراً بصوتٍ عالٍ، ﴿وأسْرَرتُ لهم إسراراً﴾، أي: فيما بيني وبينهم، فنَوَّع عليهم الدعوةَ لتكونَ أنجعَ فيهم، ﴿فقلتُ استغفروا ربَّكم إنه كان غفَّاراً﴾، أي: ارجعُوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتُوبوا إليه من قريب، فإنه مَن تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذُنوبه مهما كان في الكُفر والشِّرك، ولهذا قال: ﴿فقلتُ استغفرُوا ربكم إنه كان غفَّاراً ✽ يُرسِلِ السماءَ عليكُم مِدْراراً﴾، أي: مُتواصِلةَ الأمطارِ. ولهذا يُستحَبُّ قراءةُ هذه السورةِ في صَلاةِ الاستسقاءِ، لأجل هذه الآية. وهكذا رُوي عن أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب أنه صَعِد المنبر لِيَستَسْقِيَ، فلم يَزِد على الاستغفار، وقرأ الآياتِ في الاستغفار. ومنها هذه الآيةُ: ﴿فقلتُ استغفِرُوا ربَّكم إنه كان غفاراً ✽ يُرسِلِ السماءَ عليكُم مِدراراً﴾، ثم قال: لقد طلبتُ الغيثَ بمَجاديحِ[1] السماء التي يُستنزَلُ بها المطر.

وقال ابنُ عباس وغيره: يتبَعُ بعضُه بعضاً.

---

(١) في بعض النسخ: بمجادح. ومجاديح السماء أنواؤها. قال ابن الأثير: الياء زائدة للإشباع، والقياس أن يكون واحدها مجداح، فأما مِجْدَح فجمعه مجادح، والذي يراد من الحديث أنه جعل الاستغفار استسقاءً.

وقوله: ﴿ويُمدِدْكُم بأموالٍ وبنين ۞ ويجْعَل لكم جناتٍ ويَجعل لكم أنهاراً﴾، أي: إذا تُبتم إلى الله واستغفرتُموه وأطعتموه كثَر الرزقُ عليكم، وأسقاكُم من بَركاتِ السماء، وأنبتَ لكُم من بركاتِ الأرض، وأنبتَ لكم الزرعَ، وأدرَّ لكم الضرعَ، وأمدَّكم بأموالٍ وبنين، أي: أعطاكُم الأموال والأولاد، وجعل لكم جناتٍ فيها أنواعُ الثمار، وخلَّلها بالأنهار الجاريةِ بينها.

هذا مقامُ الدعوة بالترغيب، ثم عَدَل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿ما لَكُم لا ترجُون لله وقاراً﴾، أي: عظمةً. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحَّاك. وقال ابنُ عباس: لا تُعظِّمون الله حقَّ عَظَمته أي: لا تخافون من بأسه ونقمته، ﴿وقد خلقكُم أطواراً﴾، قيل: معناه من نُطفةٍ، ثم من علَقةٍ، ثم من مُضغةٍ. قاله ابن عباس، وعكرمةُ، وقتادة، ويحيى بنُ رافع، والسُّدِّي، وابنُ زيد.

وقولُه: ﴿ألم تروا كيفَ خلقَ الله سبعَ سمواتٍ طِباقاً﴾، أي: واحدةً فوقَ واحدةٍ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هو من الأمور المدركَةِ بالحسِّ، مما علم من التسيير والكُسوفات، فإن الكواكبَ السبعةَ السيَّارةَ يكسِفُ بَعضُها بعضاً، فأدناها القمرُ في السماء الدُّنيا وهو يكسِفُ ما فوقه، وعُطارد في الثانية، والزُّهَرةُ في الثالثةِ، والشمسُ في الرابعة، والمرِّيخ في الخامسةِ، والمُشتري في السادسةِ، وزُحَلُ في السابعة. وأما بقية الكواكب ـ وهي الثوابت ـ ففي فَلَكٍ ثامنٍ يُسمُّونه فلكَ الثوابت. والمُتشرِّعون منهم يقولون: هو الكرسي، والفلك التاسع، وهو الأطلسُ. والأثير عندهم الذي حركته على خلاف حركةِ سائر الأفلاك، [وذلك أن حركته مبدأ الحركات، وهي من المغرب إلى المشرق؛ وسائرُ الأفلاكِ] عكسُه من المشرق إلى المغرب، ومعها يدورُ سائرُ الكواكب تبعاً، ولكنَّ للسيَّارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق وكلٌّ يقطعُ فَلَكه بحَسَبه، فالقمرُ يقطع فَلَكه في كل شهر مرَّةً، والشمسُ في كُل سنةٍ مرَّةً، وزُحَلُ في كلِّ ثلاثين سنة مرَّةً، وذلك بحسَب اتِّساع أفلاكها، وإن كان حَركة الجميع في السُّرعةِ متناسبةً. هذا مُلخَّصُ ما يقولُونه في هذا المقام، على اختلافٍ بينهم في مواضعَ كثيرةٍ، لسنا بصَدَدِ بيانها، وإنما المقصُود أن الله سبحانه ﴿خلق سبعَ سمواتٍ طِباقاً ۞ وجَعَل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾، أي: فاوتَ بينهما في الاستنارة، فجعلَ كُلاًّ منهما أُنموذجاً على حدَةٍ، لِيُعرف الليلُ والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدَّر القمرَ منازلَ وبُروجاً، وفاوت نُورَه، فتارةً يزدادُ حتى يتناهى ثم يشرَعُ في النقص حتى يَستتِر، لِيَدُلَّ على مُضيِّ الشُّهورِ والأعوام، كما قال: ﴿هو الذي جَعَل الشمسَ ضياءً والقمرَ نُوراً وقدَّره منازلَ لتعلمُوا عددَ السنين والحسابَ ما خلق الله ذلك إلا بالحقِّ يُفصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمُون﴾.

وقولُه: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾: هذا اسمُ مصدرٍ، والإتيانُ به هاهنا أحسنُ، ﴿ثم يُعِيدُكم فيها﴾، أي: إذا مُتم ﴿ويُخرجُكم إخراجاً﴾، أي: يومَ القيامةِ يُعيدكم كما بدأكم أوَّلَ مرَّةٍ، ﴿والله جَعَل لكم الأرضَ بساطاً﴾، أي: بَسَطها ومَهَّدها وقرَّرها وثبَّتها بالجبال الراسياتِ والشُّمِّ الشامخاتِ، ﴿لتسلُكُوا منها سُبُلاً فِجاجاً﴾، أي: خلَقَها لكم لِتَستقرُّوا عليها وتسلُكوا فيها أين شِئتم، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكلُّ هذا مما يُنبِّههم نوحٌ ـ عليه السلام ـ على قُدْرَةِ الله وعَظَمته في خلْقِ السمواتِ والأرض، ونِعَمِه عليهم فيما جَعَل لهم من المنافع السماويَّة والأرضيَّة، فهو الخالقُ الرازقُ، جَعَل السماءَ بناءً، والأرضَ مهاداً، وأوسَعَ على خَلْقِه من رِزْقِه، فهو الذي يَجبُ أن يُعبَدَ ويُوحَّدَ ولا يُشرَكَ به أحدٌ، لأنه لا نظيرَ له ولا عِدْلَ ولا نِدَّ ولا كُفْءَ، ولا صاحبةَ ولا وَلَدَ، ولا وَزيرَ ولا مُشيرَ، بل هو العليُّ الكبيرُ.

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ

ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نُوحٍ ـ عليه السلامُ ـ أنه أنهى إليه، وهو العليمُ الذي لا يعزُب عنه شيءٌ، أنه مع البيانِ المتقدِّمِ ذكرُه، والدعوةِ المتنوِّعةِ المشتملةِ على الترغيبِ تارةً والترهيبِ أخرى: أنهم عَصَوه وكذَّبوه وخالفُوه، واتبعُوا أبناءَ الدنيا ممن غَفَل عن أمرِ الله، ومُتِّعَ بمالٍ وأولادٍ، وهي في نفسِ الأمرِ استدراجٌ وإنظارٌ لا إكرامٌ. ولهذا قال: ﴿واتَّبَعُوا مَن لم يَزِده مالُه وولدُه إلَّا خساراً﴾. قُرِئ: ﴿وَوُلْدُه﴾ بالضمِ وبالفتحِ، وكلاهما مُتقارِبٌ[١].

وقولُه: ﴿ومكَرُوا مَكراً كُبَّاراً﴾، قال مجاهد: ﴿كُبَّاراً﴾، أي: عظيماً. وقال ابنُ زيدٍ ﴿كُبَّاراً﴾، أي: كبيراً. والعربُ تقولُ: أمر عَجيب وعُجَاب وعُجَّاب. ورجل حُسان وحُسَّان: وجُمَال وجُمَّال، بالتخفيف والتشديد، بمعنى واحد.

والمعنى في قوله ﴿وَمَكَرُوا مكراً كُبَّاراً﴾، أي: بأتْبَاعِهم في تَسوِيلِهم لهم أنهم على الحقِّ والهُدَى، كما يقولُون لهم يومَ القيامة: ﴿بل مكرُ اللَّيلِ والنهارِ إذ تأمرُونَنا أن نكفرَ باللهِ ونجعلَ له أنداداً﴾. ولهذا قال ها هنا: ﴿ومَكَرُوا مكراً كُبَّاراً * وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً﴾. وهذه أسماءُ أصنامِهم التي كانوا يَعبدُونها من دُونِ الله.

قال البُخاري: حدَّثنا إبراهيم، حدثنا هشام، عن ابن جُرَيج، وقال عطاء، عن ابن عبَّاس: صارت الأوثان التي كانت في قومِ نُوحٍ في العربِ بعدُ: أما وَدٌّ فكانت لِكَلْبٍ بدومةِ الجندل؛ وأما سُوَاع فكانت لِهُذَيلٍ، وأما يَغُوثُ فكانت لمرادٍ، ثم لبني غُطَيف بالجُرُف عند سَبَإ، وأما يَعوقُ فكان لِهَمْدانَ، وأما نَسْرٌ فكانت لحِمْيَرٍ لآلِ ذي كَلاعٍ وهي[٢] أسماءُ رجالٍ صالحين من قومِ نوحٍ عليه السلام، فلما هَلَكُوا أوحى الشيطانُ إلى قومِهم أن انصِبُوا إلى مجالسِهم التي كانوا يَجلِسُون أنصاباً وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا. فلم تُعبَد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلمُ عُبِدَت[٣].

وكذا رُوِي عن عِكْرِمةَ، والضحَّاكِ، وقتادةَ، وابنِ إسحاقَ، نحوُ هذا. وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كانت هذه أصناماً تُعبَد في زمن نُوحٍ.

وقال ابنُ جَرير: حدَّثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا مهرانُ، عن سفيانُ، عن مُوسى، عن محمد بن قَيس ﴿ويَعُوقَ ونَسْراً﴾، قال: كانُوا قوماً صالحين بين آدمَ ونُوحٍ. وكانَ لهم أتباعٌ يقتدُون بهم، فلما ماتُوا قال أصحابُهم الذين كانوا يقتدُون بهم: لو صَوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادةِ إذا ذَكَرناهم. فصَوَّرُوهم، فلما ماتُوا وجاء آخرُون دَبَّ إليهم إبليسُ فقال: إنما كانوا يعبدُونهم وبهم يُسقَون المطرَ. فعبدوهم[٤].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو عُمَر الدُّوريّ، حدثني أبو إسماعيل المؤدِّب، عن عبد الله بن

(١) قرأ بفتح الواو واللام نافع وعاصم وابن عامر، وقرأ الباقون بضم الواو وإسكان اللام، وهما لغتان بمعنى الواحد، وليس بجمع، مثل العدم والعُدْم.

(٢) في نسختين: «ونسر أسماء رجال». وانظر فتح الباري ٦٦٩/٨.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة نوح ٦٦٧/٨.

(٤) تفسير الطبري ٩٩/٢٩.

مسلم بن هُرْمز، عن أبي حَزْرة، عن عُرْوَةَ بن الزّبير قال: اشتكى آدمُ ـ عليه السلام ـ وعنده بنوه. وَدٌّ، ويغوثُ، ويعوق، وسُوَاعٌ، ونَسْرٌ، وكان وَدٌّ أكبرَهم وأبرَّهُم به.

وروى الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمةِ شيثٍ ـ عليه السلام ـ من طريق إسحاقَ بن بشرٍ قال. أخْبَرَني جُوَيبر ومقاتِل، عن الضحَّاك، عن ابن عباسٍ أنه قال: وُلِد لآدم عليه السلام أربعون ولداً، عشرون غلاماً وعشرونَ جاريةً، فكان ممن عاش منهم: هَابيلُ، وقَابيلُ، وصَالحٌ، وعبدُ الرحمنِ الذي كان سَمَّاه عبدَ الحارث، ووَدّ، وكان وَدّ يقال له: شيثٌ، ويقال له: هبةُ الله، وكان إخوتُه قد سَوَّدُوه، وَوُلد له سُوَاع ويَغُوثُ ويَعُوقُ ونَسْرٌ.

وقال ابنُ أبي حاتم. حدثنا أحمدُ بن منصور، حدثنا الحسنُ بن موسى، حدثنا يعقوبُ، عن أبي **المطهر** قال: ذكَرُوا عند أبي جعفر، وهو قائم يُصَلِّي، يزيدَ بن المُهَلَّب، قال: فلما انفتَلَ من صلاتِه قال: ذكرتم يزيدَ بن المُهَلَّب، أما إنه قُتِل في أول أرض عُبِدَ فيها غيرُ الله. قال: ثم ذكر [وداً ـ قال: وكان ودّ] رَجُلاً مُسلماً، وكان محبباً في قومه، فلما مات عَسكَرُوا حولَ قبره في أرضِ بابلَ وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جَزَعهم عليه، تَشَبَّه في صُورَةِ إنسان، ثم قال: إني أرى جَزَعَكُم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصوِّر لكم مثله، فيكونَ في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم. فصَوَّر لهم مثله، قال: ووضَعُوه في ناديهم، وجَعَلُوا يذكُرونه. فلما رأى ما بهم من ذِكْرِه قال: هل لكم أن أجعَلَ في منزلِ كُلِّ واحدٍ منكم تمثالاً مثله، فيكونَ له في بيته فتذكُرونه؟ قالوا: نعم. قال: فمَثَّل لكلِّ أهلِ بيتٍ تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلُوا يذكُرونه به، قال: وأدرك أبناؤُهم فجعَلُوا يَرَوْن ما يصنَعُون به، وتناسَلُوا ودَرَسَ أمرُ ذِكْرِهم إيَّاه، حتى اتَّخذُوه إلهاً يعبدُونه من دون الله أولادُ أولادِهم، فكان أولُ ما عُبِدَ غيرَ الله الصنمَ الذي سَمَّوه وَدّاً[1].

وقولُه: ﴿وقد أَضَلُّوا كَثِيراً﴾، يعني الأصنامَ التي اتخذُوها أضلُّوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرَّت عبادتُها في القرونِ إلى زمانِنَا هذا في العَرَبِ والعَجَمِ وسائرِ صُنُوف بني آدَمَ. وقد قال الخليلُ ـ عليه السلام ـ في دعائِه: ﴿واجنُبْني وبنيَّ أن نعبدَ **الأصنام** ۞ ربِّ إنهنَّ أضلَلْنَ كثيراً من الناس﴾.

وقولُه: ﴿ولا تَزِدِ الظالمينَ إلَّا ضلالاً﴾: دعاءٌ منه على قومه لِتَمرُّدِهم وكُفرِهم وعِنادِهم، كما دعا موسى ـ عليه السلام ـ على فِرعونَ ومَلَئِه في قوله: ﴿ربَّنا اطمِسْ على أموالِهم واشدُدْ على قُلُوبِهم فلا يُؤْمِنُوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾. وقد استجاب الله لكلٍ من النبيَّيْنِ في قومه، وأغرقَ أُمَّته بتكذيبِهم لما جاءَهُم به.

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى. ﴿مما خطاياهم﴾ وقرىء: ﴿خَطِيئاتهم﴾[2] ﴿أُغرِقُوا﴾، أي. من كَثْرَةِ ذُنُوبهم وعتوِّهم وإصرارهم على كُفرهم ومخالفتهم رُسُلَهم، ﴿أُغرقُوا فأُدخِلُوا ناراً﴾، أي: نُقِلوا من تَيَّار البحارِ إلى حَرارة

---

(١) الدرّ المنثور عن عبد بن حميد ٨/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) قرأ بجمع التكسير أبو عمرو، والباقون بجمع التأنيث. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/ ٧٩٤

النارِ، ﴿فلم يَجِدُوا لهم من دُونِ الله أنصاراً﴾، أي: لم يكن لهم مُعِينٌ ولا مُغيثٌ ولا مُجيرٌ يُنقذهم من عذاب الله، كقوله: ﴿قال لا عاصمَ اليومَ مِن أمْرِ الله إلاَّ مَن رَحِم﴾.

﴿وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرضِ مِنَ الكافرينَ دَيَّاراً﴾، أي: لا تترك على الأرض منهم أحداً ولا تُومُرِيًّا(١). وهذه من صِيَغِ تأكيدِ النفي. قال الضحَّاكُ: ﴿دَيَّاراً﴾: واحداً. وقال السُّدِّي: الدَّيارُ: الذي يسكن الدارَ فاستجاب الله له فأهلكَ جميعَ مَن على وجه الأرض مِنَ الكافرين حتى وَلَدَ نُوحٍ لِصُلْبِه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: ﴿سآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُني من الماء قال لا عاصمَ اليومَ مِن أمر الله إلَّا مَن رحِم وحال بينهما الموجُ فكانَ من المُغرَقين﴾.

وقال ابن أبي حاتم: قُرِىءَ على يونُسَ بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني شَبيب بن سَعيدٍ، عن أبي الجَوْزاءِ، عن ابن عباسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو رَحِمَ الله مِنْ قومِ نُوحٍ أحداً لَرَحِمَ امرأةً، لمَّا رأتِ الماءَ حَمَلت ولدَها ثم صَعِدت الجبلَ، فلما بلغها الماءُ صَعِدت به مَنْكِبَها، فلما بلغ الماءُ مَنْكِبَها وَضَعَتْ وَلَدَها على رأسِها، فلما بلغ الماءُ رأسَها رَفَعت ولدَها بيدِها. فلو رَحِمَ الله منهم أحداً لَرَحِمَ هذه المرأة»(٢).

هذا حديثٌ غريبٌ، وَرِجَالُه ثقاتٌ. ونَجَّى الله أصحابَ السفينةِ الذين آمنُوا مع نوحٍ ـ عليه السلامُ ـ وهم الذين أمَرَه الله بِحَمْلِهم مَعَه.

وقولُه: ﴿إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادَكَ﴾، أي: إنَّكَ إن أبقيتَ منهم أحداً أضلُّوا عبادَكَ، أي: الذين تخلُقُهم بعدَهم، ﴿ولا يَلِدُوا إلا فاجراً كَفَّاراً﴾، أي: فاجراً في الأعمال كافرَ القلبِ، وذلك لِخِبْرَتِه بهم ومُكْثِهِ بين أظْهُرِهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً.

ثم قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لي ولِوالديَّ ولِمَنْ دَخَل بيتِيَ مُؤْمِناً﴾، قال الضحَّاكُ: يعني مَسْجِدِي. ولا مانعَ من حَمْلِ الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكلِّ مَن دخل منزلَه وهو مؤمنٌ، وقد قال الإمام أحمد:

حَدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَةُ، أنبأنا سالمُ بن غَيْلَانَ: أن الوليدَ بن قيسٍ التُّجِيبيَّ أخبَرَه: أنه سَمِع أبا سَعيد الخُدريَّ ـ أو: عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد: ـ أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا تَصْحَبْ إلا مؤمناً، ولا يأكُلْ طعامَكَ إلا تَقِيٌّ»(٣).

ورَوَاه أبو داود والتِّرمذيُّ، من حديثِ عبد الله بن المبارك، عن حَيْوةَ بن شُرَيح، به. ثم قال الترمذي: «إنما نعرفُه من هذا الوَجْهِ»(٣).

وقولُه: ﴿ولِلْمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ﴾: دعاءٌ لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يَعُمُّ الأحياءَ منهم والأمواتَ، ولهذا يُسْتَحَبُّ مثلُ هذا في الدعاءِ، اقتداءً بِنُوحٍ عليه السلام، وبما جاء في الآثار والأدعية المشْرُوعة.

وقولُه: ﴿ولا تَزِدِ الظالمينَ إلا تَبَاراً﴾، قال السُّدِّي: إلا هلاكاً. وقال مجاهد: إلا خَساراً. أي: في الدنيا والآخرة.

آخِرُ تفسيرِ «سورة نوح» ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

---

(١) في النسخ: ولا دومريا. والمثبت من إصلاح المنطق لابن السكيت ٤٣٣. وفي اللسان مادة تمر: «وما في الدار تامورٌ وتومورٌ ومن بها تُومُريٌّ، أي: ليس بها أحدٌ». وفي مادة دمر: «ويقال ما في الدار عينٌ ولا تَتْمُري ولا تُتْمُري ولا تامُوريٌ ولا تُنِّيٌّ ولا دُبِّيٌّ، بمعنى واحد».
(٢) تقدم الحديث من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم بإسنادهما إلى عائشة رضي الله عنها، عند تفسير الآية ٤١ من سورة هود.
(٣) مسند الإمام أحمد ٣٨/٣، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٥٩/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٢٤١/٩ ـ ٢٤٢.

تفسير

سُورَةُ الجِنّ

وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ ﷺ ـ ان يُخبِرَ قومَه: أنّ الجنّ استمعُوا القُرآن فآمنُوا به وصدّقُوه وانقادُوا له فقال تعالى: ﴿قُل أُوحِيَ إليَّ انه استمَعَ نفرٌ من الجنِّ فقالوا إنا سمعنا قرآناً عَجَباً ● يهدي إلى الرُّشدِ﴾، أي إلى السَّداد والنَّجاح، ﴿فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحداً﴾. وهذا المقامُ شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿وإذ صَرَفنا إليكَ نفراً من الجنِّ يَستَمِعُون القرآن﴾. وقد قدَّمنا الأحاديثَ الواردةَ في ذلك بما أغنى عن إعادتها ها هنا[1].

وقولُه: ﴿وأنّه تعالى جَدُّ ربِّنا﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿جدُّ ربِّنا﴾، أي. فِعلُه وأمرُه وقُدرتُه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: جَدُّ الله: آلاؤُه وقُدرتُه ونِعمتُه على خَلْقِه. ورُوي عن مجاهدٍ وعكْرمَةَ: جلالُ ربِّنا. وقال قتادةُ: تعالى جلالُه وعَظَمتُه وأمرُه. وقال السُّدّي: تعالى أمرُ ربِّنا. وعن أبي الدرداء ومجاهدٍ أيضاً وابن جُرَيج: تعالى ذكرُه. وقال سعيد بن جُبَير ﴿تعالى جدُّ ربِّنا﴾، أي: تعالى ربُّنا. فأمّا ما رواه ابنُ أبي حاتم:

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٩ من سورة الأحقاف.

حدَّثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ[١]، حدَّثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس قال: الجد أبٌ. ولو علمتِ الجنُّ أن في الإنس جدّاً ما قالوا: تعالى جدُّ ربِّنا.

فهذا إسنادٌ جيِّدٌ، ولكن لستُ أفهمُ ما معنى هذا الكلام، ولعلَّه قد سقط شيء، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ما اتَّخذ صاحبةً ولا ولداً﴾، أي: تعالى عن اتخاذِ الصاحبةِ والأولادِ. الجنُّ تنزِّه الربَّ ـ تعالى جلالُه وعظمتُه ـ حين أسلمُوا وآمنُوا بالقرآن عن اتِّخاذِ الصاحبةِ والولَدِ.

ثم قالُوا ﴿وأنه كان يقولُ سفيهُنا على الله شَطَطاً﴾، قال مجاهد، وعكرمةُ، وقتادةُ، والسُّدِّي: ﴿سَفِيهُنَا﴾ يعنون إبليسَ، ﴿شططاً﴾، قال السُّدِّي، عن أبي مالكٍ: ﴿شَطَطاً﴾، أي: جوراً. وقال ابنُ زيدٍ: ظُلماً كبيراً.

ويَحتمِلُ أن يكون المرادُ بقولِهم ﴿سَفِيهنا﴾: اسمَ جنسٍ لكلِّ مَن زعم أن لله صاحبةً أو ولداً. ولهذا قالوا: ﴿وأنه كان يقولُ سَفِيهُنا﴾، أي: قبل إسلامِه ﴿على الله شَطَطاً﴾، أي: باطلاً وزُوراً. ولهذا قالوا: ﴿وأنَّا ظننا أن لن تقولَ الإنسُ والجنُّ على الله كَذِباً﴾، أي: ما حسبنا أن الإنسَ والجنَّ يتمالئُون على الكذِبِ على الله في نِسْبَةِ الصاحبةِ والولَدِ إليه، فلما سَمِعنا هذا القرآنَ وآمنَّا به علمنا أنهم كانوا يكذِبُون على الله في ذلك.

وقولُه: ﴿وأنَّه كان رجالٌ من الإنسِ يعوذُون برجالٍ من الجنِّ فزادُوهم رَهَقاً﴾، أي: كُنَّا نَرَى أن لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يَعُوذون بنا، أي: إذا نَزَلُوا وادياً أو مكاناً مُوحِشاً من البراري وغيرِها، كما كان عادةُ العربِ في جاهليتها، يعوذُون بعظيمِ ذلك المكانِ من الجانِّ، أن يُصيبهم بشيءٍ يَسُوؤهم، كما كان أحدُهم يدخلُ بلادَ أعدائه في جوارِ رجلٍ كبيرٍ وذِمامه وخِفَارته، فلما رأتِ الجنُّ أن الإنسَ يعوذُون بهم من خوفهم منهم ﴿زادُوهم رَهَقاً﴾، أي: خوفاً وإرهاباً وذُعراً، حتى تَبْقُوا أشدَّ منهم مخافةً وأكثر تعوُّذاً بهم، كما قال قتادةُ: ﴿فَزَادُوهم رَهَقاً﴾، أي: إثماً، وازدادت الجنُّ عليهم بذلك جَراءةً. وقال الثوريُّ، عن منصور عن إبراهيم ﴿فزادوهم رَهَقاً﴾ أي: ازدادت الجنُّ عليهم جُرأةً.

وقال السُّدِّي: كان الرجل يخرُج بأهله فيأتي الأرضَ فينزلها فيقولُ: أعوذُ بسيِّدِ هذا الوادي من الجنِّ أن أُضَرَّ أنا فيه أو مالي أو وَلَدي أو ماشِيَتي، قال: فإذا عاذَ بهم من دُونِ الله رَهِقَتْهم[٢] الجنُّ الأذى عند ذلك.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبو سعيد يحيى بن سعيدٍ القطَّان، حدَّثنا وهبُ بن جَرير، حدَّثنا أبي، حدَّثنا الزُّبير بن الخِرِّيت، عن عِكْرِمَةَ قال: كان الجنُّ يَفْرَقُونَ من الإنس كما يفرَقُ الإنسُ منهم أو أشد، فكان الإنسُ إذا نزلوا وادياً هَرَبَ الجنُّ، فيقولُ سيِّدُ القوم: نعوذُ بسيِّد أهلِ هذا الوادي. فقال الجنُّ: نراهم يَفْرَقُون منا كما نفرَقُ منهم. فدَنَوا من الإنس فأصابُوهم بالخَبَلِ والجُنونِ، فذلك قولُ الله: ﴿وأنَّه كان رجالٌ من الإنسِ يعوذُون برجالٍ من الجنِّ فزادُوهم رَهَقاً﴾.

وقال أبو العالية، والربيعُ، وزيدُ بن أسلَمَ: ﴿رَهَقاً﴾، أي: خوفاً. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿فزادُوهم رَهَقاً﴾، أي: إثماً. وكذا قال: قتادةُ. وقال مجاهد: زاد الكُفَّارُ طغياناً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا فَرْوَةُ بن أبي المغْراء الكِنْديُّ، حدثنا القاسم بن مالك ـ يعني

---

(١) في بعض النسخ: الكوفي مكان المقرئ. وانظر ترجمته في الجرح لابن أبي حاتم ٧/٣٠٧.
(٢) أي: غشيتهم بالأذى.

المُزنيُّ ـ عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن أبيه، عن كَرْدَم بن أبي السائب الأنصاريِّ قال: خرجتُ مع أبي من المدينة في حاجةٍ، وذلك أوّلَ ما ذُكِرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بمكّة، فآوانا المبيتُ إلى راعي غَنَم. فلما انتصف الليل جاء ذئبٌ فأخذ حَملاً من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامرَ الوادي، جارُكَ! فنادى منادٍ لا نَراهُ، يقول: يا سِرْحانُ، أرسِلْهُ. فأتى الحَمَلَ يَشْتَدُّ[1] حتى دَخَل في الغنم لم تُصِبه كَدْمَةٌ. وأنزل الله على رسوله بمكّة: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادوهم رهقاً﴾[2].

ثم قال: وروي عن عُبَيد بن عُمَير، ومجاهد، وأبي العالية، والحسن، وسعيد بن جُبَير، وإبراهيم النَّخَعِيِّ، نحوُه.

وقد يكون هذا الذئبُ الذي أخذ الحمَلَ، وهو ولد الشاة، كان جِنِّيًا حتى يُرهِبَ الإنسيُّ ويخافَ منه، ثم رَدّه عليه لما استجار به، لِيُضِلَّه ويُهينَه، ويُخرجه عن دِينه، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وأنهم ظنّوا كما ظننتم أن لن يبعثَ اللهُ أحداً﴾، أي: لن يبعَثَ اللهُ بعدَ هذه المدّةِ رسُولاً. قاله الكلبيُّ وابنُ جرير[3].

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾

يُخبِر تعالى عن الجنّ حين بَعَثَ الله رسوله مُحمّداً ـ ﷺ ـ وأنزلَ عليه القرآن، وكان من حِفْظِه له أنَّ السماء مُلِئَت حَرَساً شديداً، وحُفِظَت من سائر أرجائها، وطُرِدت الشياطينُ عن مقاعدها التي كانت تَقعُد فيها قبل ذلك، لئلا يَسْتَرِقُوا شيئاً من القرآن فيُلقوه على ألسنةِ الكهَنة، فيَلتبِسَ الأمرُ ويختلطَ ولا يُدرى مَن الصادقُ. فكان هذا من لُطفِ الله بخلْقِه، ورحمتِه بعباده، وحفْظِه لكتابه العزيز، ولهذا قالت الجنُّ: ﴿وأنّا لمسنا السماء فوجدناها مُلِئَت حَرَساً شديداً وشهباً ۞ وأنّا كنا نَقعُد منها مقاعِدَ للسمع فمَن يَستَمِعِ الآن يَجِد له شِهاباً رَصَداً﴾، أي: مَن يَرُوم أن يَسْترِقَ السمعَ اليومَ يَجد له شهاباً مُرصَداً له، لا يتخطّاه ولا يتعدّاه، بل يمحقُه ويُهلِكُه. ﴿وأنّا لا ندري أشرٌّ أُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربُّهم رَشَداً﴾ أي: ما نَدري هذا الأمرَ الذي قد حَدَث في السماء، لا نَدري أشَرٌّ أُريد بأهل الأرض، أم أراد بهم ربُّهم رشداً؟ وهذا من أدبهم في العِبارةِ حيث أسنَدُوا الشرَّ إلى غير فاعلٍ، والخيرُ أضافوه إلى الله عزّ وجل. وقد وَرَد في الصحيح: «والشر ليس إليك». وقد كانت الكواكبُ يُرمَى بها قبلَ ذلك، ولكن ليس بكثيرٍ بل في الأحيانِ بعد الأحيانِ، كما في حديث ابن عباس[4]: بينما نحن جلوسٌ مع رسول الله ـ ﷺ ـ إذ رُمِي بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون في هذا؟ فقلنا: كنّا نقولُ: يُولَد عظيمٌ، يَموتُ عظيمٌ. فقال: ليس كذلك، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء... وذكر تمام الحديثِ، وقد أوردناه في سورة سبأ بتمامه. وهذا هو السبب الذي حمَلهم على تطلُّب السببِ في ذلك، فأخذوا يَضرِبُون مشارقَ الأرض ومغاربَها، فوجدُوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقرأُ بأصحابه في الصلاة، فعرَفُوا أن هذا

(١) السِّرحانُ: الذئب، والأسد. ويَشتدُّ: يُسرع.
(٢) أخرجه غير واحد، انظر الدر المنثور ٢٩٨/٨
(٣) تفسير الطبري ١١٠/٢٩
(٤) في النسخ «من حديث العباس»، وقد تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية الثالثة والعشرين من سورة سبأ.

هوالدي حُبطت من أجله السماء، فآمن مَن آمن منهم، وتمرّد في طغيانه من بقي، كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك، عند قوله في «سورة الأحقاف»[١]: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن﴾ . الآية.

ولا شكّ أنه لمّا حَدَث هذا الأمر، وهو كثرةُ الشُّهُب في السماءِ والرميُ بها، هال ذلك الإنس والجنّ وانزعجوا له وارتاعُوا لذلك، وظنُّوا أن ذلك لخرابِ العالم ـ كما قال السُّدّي ـ: لم تكُن السماء تحرَس إلاّ أن يكون في الأرض نَبيٌّ أو دين لله ظاهرٌ، وكانت الشياطينُ قبلَ محمد ـ ﷺ ـ قد اتَّخذت المقاعدَ في السماءِ الدُّنيا، يَستمِعُون ما يحدُث في السماء من أمرٍ. فلما بَعث الله مُحمّداً نبيّاً رُجِمُوا ليلة من الليالي، فَفزِعَ لذلك أهلُ الطائف، فقالوا: هَلَك أهلُ السماء؛ لما رَأوا من شِدَّةِ النار في السماء واختلافِ الشُّهُب، فجعلوا يَعتِقُون أرقّاءهم ويُسَيِّبون مواشِيَهم، فقال لهم عبدُ ياليلَ بن عمرو بن عُمَير: ويحكُم يا معشرَ أهلِ الطائف، أمسِكُوا عن أموالكم، وانظُروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مُستَقِرَّةً في أمكنتها فلم يهْلك أهلُ السماءِ، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشةَ ـ يعني محمداً ﷺ ـ وإن أنتم لم ترَوها فقد هَلَك أهلُ السماء. فنظَروا فرأَوها، فكَفُّوا عن أموالهم. وفَزِعت الشياطينُ في تلك الليلة، فأتوا إبليسَ فحدَّثوه بالذي كان من أمرهم، فقال: ائتوني من كل أرضٍ بقبضةٍ من تراب أشُمُّها. فأتوه فشَمَّ فقال: صاحبُكم بمكَّةَ. فبعث سبعةَ نفرٍ من جنّ نَصيبين، فقدمُوا مَكّةَ فوجدُوا نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قائماً يُصَلّي في المسجد الحرام يقرأُ القرآنَ، فدنَوا منه حِرصاً على القرآن حتى كادت كَلاكِلُهم[٢] تُصيبه، ثم أسلموا. فأنزل الله ـ تعالى ـ أمْرَهم على نَبيِّه ﷺ. وقد ذكرنا هذا الفصلَ مستقصًى في أول البعث من «كتاب السِّيرة» المطول، ولله الحمدُ والمنة.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾
وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ
فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم
مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الجنّ: إنهم قالوا مُخبرين عن أنفُسِهم: ﴿وأنّا منا الصَّالِحُون ومنَّا دُون ذلك﴾، أي، غير ذلك، ﴿كنا طرائق قِـدَداً﴾، أي: طرائقَ متعددةً مختلفةً وآراءً متفرقةً. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحدٍ: ﴿كنا طرائقَ قِـدَداً﴾، أي: منّا المؤمنُ ومنا الكافرُ. وقال أحمد بن سليمان النَّجادُ في أماليه:

حدَّثنا أسلم بن سَهل بَحْشَل[٣]، حدَّثنا علي بن الحسن بن سُلَيمان، وهو أبو الشعثاء الحضرمي، شيخ مسلم، حدَّثنا أبو معاوية قال: سَمِعتُ الأعمشَ يقولُ: تَرَوّح[٤] إلينا جِنّيٌّ، فقلتُ له: ما أحبُّ الطَّعامِ إليكم؟ فقال: الأُرْزُ. قال: فأتيناهُم به، فجعلتُ أرَى اللُّقَم تُرفَع ولا أرى أحداً. فقلت: فِيكُم مِن هذه الأهواءِ التي فينا؟ قال: نعم. قلت: فما الرافضةُ فيكم؟ قال: شرُّنا.

(١) انظر تفسير الآية ٢٩ من سورة الأحقاف.

(٢) الكلاكل: جمع كَلْكَل، وهو الصدر.

(٣) بَحْشَل، بالباء والحاء والشين، وزن جعفر، لقب اثنين: أحمد بن عبد الرحمن بن وهب المصري، وأسلم بن سهل هذا. انظر نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر ١/١١٣.

(٤) تروّح. جاء في الرواح، وهو اسم الوقت من زوال الشمس إلى الليل.

عرضتُ هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجَّاج المِزّي فقال: هذا إسنادٌ صحيحٌ إلى الأعمش.

وذكر الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمة العباس بن أحمدَ الدِّمشقي قال: سمعتُ بعضَ الجنِّ وأنا في منزلي بالليل يُنشد:

قُلوبٌ بَراهـا الحبُّ حتى تعلَّقتْ مَذاهِبُها في كُـلِّ غـربٍ وشـارقِ
تَـهيمُ بحبِّ الله، واللهُ رَبُّـهـا مُـعَـلَّقَـةٌ بـالله دُونَ الـخَـلائـقِ

وقولُه: ﴿وأنا ظَنَنّا أن لن نُعجزَ اللهَ في الأرضِ ولن نُعجِزَه هَرباً﴾، أي: نعلمُ أن قدرةَ الله حاكمةٌ علينا وأنا لا نُعجزه في الأرض، ولو أمعنّا في الهَرَب، فإنه علينا قادرٌ، لا يُعجزه أحدٌ منا.

﴿وأنا لما سَمِعنا الهُدى آمنّا به﴾: يفتخِرون بذلك، وهو مَفخَرٌ لهم، وشَرَفٌ رَفيع، وصِفَةٌ حَسَنةٌ.

وقولُهم: ﴿فمن يؤمن بربِّه فلا يخافُ بخساً ولا رَهَقاً﴾، قال ابنُ عباس، وقتادةُ، وغيرُهما: فلا يخافُ أن يُنقَص من حسناته أو يحمل عليه غيرُ سيِّئاته، كما قال تعالى: ﴿فلا يخافُ ظُلماً ولا هَضْماً﴾.

﴿وأنا منا المسلمُون ومنا القاسِطُون﴾، أي: منا المسلمُ ومنا القاسطُ، وهو: الجائرُ عن الحقِّ الناكِبُ عنه، بخلاف المقسِط فإنه العادلُ، ﴿فمن أسلَمَ فأولئك تحرَّوا رَشَداً﴾، أي: طلبوا لأنفسِهم النجاةَ. ﴿وأما القاسِطُون فكانوا لجهنَّم حَطَباً﴾ أي: وَقُوداً تُسعَّر بهم.

وقولُه: ﴿وألَّوِ استقامُوا على الطريقةِ لأسقيناهُم ماءً غدقاً * لِنَفتِنَهم فيه﴾، اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين:

أحدُهما: وأن لو استقامَ القاسِطُون على طريقةِ الإسلامِ وعَدَلوا إليها واستمرُّوا عليها، ﴿لأسقيناهُم ماءً غدقاً﴾، أي: كثيراً. والمراد بذلك سَعَةُ الرزق، كقوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقامُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزل إليهم من ربِّهم لأكَلُوا من فوقِهم ومن تحتِ أرجُلِهم﴾. وكقوله: ﴿ولو أنَّ أهلَ القُرَى آمنوا واتقوا لفَتَحنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرض﴾. وعلى هذا يكونُ معنى قوله: ﴿لِنَفتِنَهم فيه﴾، أي: لِنختبِرَهم، كما قال مالكٌ، عن زيدِ بن أسلَمَ. ﴿لِنَفتِنَهم﴾: لِنَبتَليَهم مَن يستمرُّ على الهداية ممَّن يرتدُّ إلى الغِواية؟.

ذكرُ من قال بهذا القول:

قال العَوفِيُّ، عن ابن عباس: ﴿وألَّوِ استقامُوا على الطريقةِ﴾: يعني بالاستقامة الطاعةَ. وقال مجاهدٌ: ﴿وألَّوِ استقامُوا على الطريقة﴾، قال: الإسلامُ. وكذا قال سعيد بن جُبَير، وسعيدُ بن المُسَيِّب، وعطاء، والسُّدِّي، ومحمد بن كعب القُرَظي.

وقال قتادةُ: ﴿وألَّوِ استقامُوا على الطريقة﴾، يقول: لو آمنُوا كلُّهم لأوسعنا عليهم من الدُّنيا. وقال مجاهدٌ: ﴿وألَّوِ استقامُوا على الطريقةِ﴾، أي: طريقةِ الحقِّ. وكذا قال الضحاك، واستشهدَ على ذلك بالآيتين اللّتَين ذكرناهما، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله: ﴿لِنَفتِنَهم فيه﴾، أي: لِنَبتَليَهم به. وقال مقاتلٌ: نزلَت في كُفّارِ قُرَيشٍ حين مُنعُوا المطرَ سبعَ سنين.

والقول الثاني: ﴿وألَّوِ استقامُوا على الطريقة﴾، الضلالةِ ﴿لأسقيناهُم ماءً غَدَقاً﴾، أي: لأوسعنا عليهم في الرزق استدراجاً، كما قال: ﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أخذناهُم بغتةً فإذا هم مُبلِسُون﴾. وقوله ﴿أيحسَبُون أنما نُمِدُّهم به من مالٍ وبَنِينَ * نُسارِعُ لهم في الخيرات بل لا يَشعُرُون﴾ وهذا قولُ أبي مِجلَزٍ لاحق بن حُمَيد؛ فإنه قال في قوله: ﴿وألَّوِ استقامُوا على الطَّريقة﴾، أي:

طريقة الضَّلالةِ. رواهُ ابنُ[١] جرير، وابنُ أبي حاتم، وحكاه البَغويُّ عن الربيع بن أنس، وزيد بن أسلَم، والكلبي، وابن كيسان[١] وله اتجاهٌ، ويتأيَّدُ بقوله: ﴿لِنَفتِنَهُم فيه﴾.

وقولُه: ﴿ومن يُعرِض عن ذِكرِ رَبِّهِ يَسلُكه[٢] عذاباً صَعَداً﴾، أي: عذاباً شاقاً شديداً مُوجِعاً مُؤلِماً. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: ﴿عذاباً صَعَداً﴾، أي: مَشَقَّةً لا راحةَ معها. وعن ابنِ عبَّاس: جَبَلٌ في جَهَنَّم. وعن سعيد بن جُبَير: بئرٌ فيها.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤ ﴾

يقولُ تعالى آمِراً عبادَه أن يُوحِّدوه في محالِّ عبادته، ولا يُدعَى معه أحدٌ ولا يُشرَكُ به، كما قال قتادةُ في قوله: ﴿وأن المساجدَ لله فلا تدعُوا مع الله أحداً﴾، قال: كانت اليهودُ والنصارى إذا دخلُوا كنائِسَهم وبِيَعهم أشركُوا بالله، فأمر الله نبيه ـ ﷺ ـ أن يُوحِّدُوه وحدَه[٣].

وقال ابنُ أبي حاتم: ذكر علي بن الحسين: حدَّثنا إسماعيلُ ابن بنت السُّدِّي، أخبرنا رجلٌ سَمَّاه، عن السُّدِّي، عن أبي مالك ـ أو: أبي صالح ـ عن ابن عباس في قوله: ﴿وأن المساجدَ لله فلا تدعُوا مع الله أحداً﴾، قال: لم يكن يومَ نَزَلت هذه الآيةُ في الأرضِ مسجدٌ إلا المسجدَ الحرامِ، ومسجدَ إيلِيَاءَ بيتِ المَقدِس.

وقال الأعمش: قالتِ الجنُّ: يا رسولَ الله، ائذَنْ لنا فنَشهَدَ معك الصلواتِ في مَسجِدك. فأنزل الله: ﴿وأن المساجدَ لله فلا تدعُوا مع الله أحداً﴾، يقول: صَلُّوا، لا تُخالِطُوا الناس[٤].

وقال ابنُ جَرير: حدَّثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا مِهران، حدَّثنا سُفيان، عن إسماعيل بن أبي خالدٍ، عن محمود، عن سَعيد بن جُبَير: ﴿وأنَّ المساجدَ لله﴾ قال: قالت الجنُّ لنبيِّ الله ـ ﷺ ـ: كيف لنا أن نأتيَ المسجدَ ونحن نائُونَ عنك؟ وكيف نشهد الصلاة ونحن نائُون عنك؟ فنزلت: ﴿وأن المساجدَ لله فلا تدعُوا مع الله أحداً﴾[٥].

وقال سفيان، عن خُصَيف، عن عِكْرِمة: نزلت في المساجد كُلِّها.

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/١١٥، وتفسير البغوي ٤/٤٠٤.
(٢) كذا في النسخ ﴿يَسلُكه﴾، بالنون، وقرأ بها غير الكوفيين، وقرأ هؤلاء بالياء، انظر الإقناع لابن البادش ٢/٧٩٥.
(٣) أخرجه الطبري ٢٩/١١٧.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٨/٣٠٦.
(٥) تفسير الطبري ٢٩/١١٧

وقال سعيد بن جُبَير: نزلت في أعضاء السُّجود، أي: هي لله فلا تسجُدوا بها لغيره. وذكَرُوا عند هذا القول الحديث الصحيح، من رواية عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أمِرتُ أن أسجُدَ على سبعةِ أعظُمٍ: على الجبهة ـ أشار بيده إلى أنفه ـ واليدَين والركبتين وأطراف القدمين»[1].

وقولُه: ﴿وأنه لما قام عبدُ الله يدعُوه كادُوا يكونُون عليه لِبَداً﴾، قال العوفي، عن ابن عبَّاسٍ يقولُ: لما سَمِعُوا النبي ـ ﷺ ـ يتلُو القرآن كادُوا يركبونه؛ من الحِرْص، لَمَّا سَمِعوه يتلُو القرآن، ودَنَوا منه فلم يعلَمْ بهم حتى أتاه الرسولُ فجعل يُقرئه: ﴿قل أُوحِيَ إليَّ أنه استمَعَ نفرٌ من الجنِّ﴾، يستمعون القرآن. هذا قول، وهو مَرْوِيٌّ عن الزبير بن العوام، رضي الله عنه.

وقال ابنُ جرير: حدثني محمدُ بن مَعْمَرٍ، حدَّث أبو مُسلِم، عن أبي عوانَةَ، عن أبي بِشرٍ، عن سَعِيد بن جُبَيرٍ، عن ابن عباسٍ قال. قال الجنُّ لقومهم: ﴿لما قام عبدُ الله يدعُوه كادوا يكونُون عليه لِبَداً﴾، قال: لَمَّا رأوه يُصلِّي وأصحابُه يركعون بركوعِه ويسجُدون بسجودِه، قال: عَجِبوا من طواعية أصحابِه له، قال: فقالُوا لقومهم: ﴿لَمَّا قام عبدُ الله يدعوه كادوا يكونُون عليه لِبَداً﴾[2].

وهذا قولٌ ثانٍ، وهو مرويٌّ عن سعيد بن جُبَير أيضاً.

وقال الحسنُ: لما قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «لا إله إلا الله»، ويدعُو الناسَ إلى ربِّهم، كادت العربُ تَلبَّد عليه جميعاً.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿وأنَّه لما قام عبدُ الله يدعُوه كادوا يكونُون عليه لِبَداً﴾، قال: تَلَبَّدت الإنسُ والجنُّ على هذا الأمر لِيُطفِئُوه، فأبى الله إلا أن ينصُرَه ويُمضِيَه ويُظهِرَه على مَن ناوأه.

وهذا قولٌ ثالثٌ، وهو مَرويٌّ عن ابن عباس، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير، وقولُ ابن زيدٍ، واختيارُ ابن جرير، وهو الأظهرُ لقوله بعدَه: ﴿قال[3] إنما أدعُوا ربي ولا أشرِكُ به أحداً﴾، أي: قال لهم الرسولُ لَمَّا آذَوه وخالَفُوه وكذَّبوه وتظاهرُوا عليه، لِيُبطِلُوا ما جاء به من الحقِّ واجتمَعُوا على عَداوته: ﴿إنما أدعُو ربِّي﴾، أي: إنما أعبُد ربِّي وحدَه لا شريكَ له، وأستجيرُ به وأتوكَّلُ عليه. ﴿ولا أُشرِكُ به أحداً﴾.

وقولُه: ﴿قُل إنِي لا أملِكُ لكم ضرّاً ولا رَشَداً﴾، أي: إنما أنا بَشَرٌ مثلُكم يُوحَى إليَّ، وعبدٌ من عباد الله، ليس إليَّ من الأمر شيءٌ في هدايتكم ولا غَوايتكم، بل المرجِعُ في ذلك كلِّه إلى الله عزَّ وجل.

ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يُجيره من الله أحد، أي: لو عصيتُه فإنه لا يَقدِر أحدٌ على إنقاذي من عذابه، ﴿ولن أجِدَ من دُونِه مُلتحَداً﴾، قال مجاهدٌ، وقتادةُ، والسُّدِّي: مَلْجأً. وقال قتادة أيضاً: ﴿قُل إنِّي لن يُجيرني من الله أحدٌ ولن أجِدَ من دُونه مُلتحَداً﴾، أي: لا نَصِير ولا ملجأ. وفي رواية: لا وليّ ولا مَوئِل.

وقولُه تعالى: ﴿إلَّا بلاغاً مِنَ الله ورسالاته﴾، قال بعضُهم: هو مُستثنىً من قوله: ﴿لا أملِكُ لكم ضرًّا ولا رَشَداً. إلا بَلاغاً﴾. ويَحتمِلُ أن يكون استثناءً من قوله: ﴿لن يُجيرني من الله أحدٌ﴾، أي: لا يُجيرني منه

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٩٧، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٥٤.
(٢) تفسير الطبري ٢٩/١١٨.
(٣) كذا في النسخ ﴿قال﴾، وهي قراءة الجمهور، وقرأ عاصم وحمزة ﴿قُلْ﴾ الإقناع لابن الباذش ٢/٧٩٥.

ويُخلِّصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجَبَ أداءها عليَّ، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسُول بلّغ ما أُنزلَ إليكَ من رَبِّكَ وإن لم تفعل فما بَلَّغتَ رِسالَتَه واللهُ يعصِمُكَ من الناس﴾

وقولُه: ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ ورَسُولَه فإنَّ له نارَ جَهَنَّمَ خالدين فيها أبداً﴾، أي: إنما أُبلغكم رسالةَ الله فمن يَعصِ بعدَ ذلك فله جزاءً على ذلك، نارُ جَهَنَّمَ خالدين فيها أبداً، لا محيد لهم عنها، ولا خروجَ لهم منها.

وقولُه: ﴿حتّى إذا رأوا ما يُوعَدُون فَسَيعلمون من أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً﴾، أي: حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجنِّ والإنس ما يُوعَدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذٍ مَن أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً؟ هم أم المؤمنون الموحِّدُون لله عزَّ وجل، أي: بل المشركون لا ناصِرَ لهم بالكُلِّية، وهم أقلُّ عدداً من جُنود الله عزَّ وجل.

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ ﷺ ـ أن يقولَ للناس: إنه لا عِلْمَ له بوقت الساعة، ولا يدري أقريبٌ وقتُها أم بعيدٌ؟ ﴿قل إن أدري أقريبٌ ما تُوعَدُون أم يجعلُ له ربِّي أمداً﴾، أي: مُدَّةً طويلةً.

وفي هذه الآيةِ الكريمةِ دليلٌ على أن الحديثَ الذي يتداوله كثيرٌ من الجَهَلَة من أنه ـ عليه السلام ـ «لا يُؤلِّف(١) تحتَ الأرض»، كَذِبٌ لا أصلَ له، ولم نَرَه في شيءٍ من الكُتُب. وقد كان ـ ﷺ ـ يُسأل عن وقت الساعةِ فلا يُجيب عنها، ولما تَبَدَّى له جبريلُ في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال: يا محمدُ، فأخبرني عن الساعةِ؟ قال: «ما المسئولُ عنها بأعلَمَ من السائل». ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جَهْوَرِيٍّ فقال: يا محمدُ، متى الساعة؟ قال: «ويحك! إنها كائنةٌ، فما أعددت لها؟» قال: أما إني لم أُعِدَّ لها كثير صلاةٍ ولا صيام، ولكني أحبُّ اللهَ ورسُولَه. قال: «فأنت مع مَن أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيءٍ فرحَهُم بهذا الحديث»(٢).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمد بن مُصَفَّى، حدَّثنا محمد بن حِمْيَر، حدَّثني أبو بكر بن أبي مَرْيَم، عن عطاء بن أبي رَباح، عن أبي سعيد الخدْرِيِّ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «يا بني آدمَ، إن كنتم تَعقِلُون فعُدُّوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إنما توعدون لآتٍ»(٣).

وقد قال أبو داود في آخر «كتاب الملاحم»:

حدَّثنا موسى بن سَهل، حدَّثنا حجَّاجُ بن إبراهيم، حدَّثنا ابنُ وهب، حدَّثني مُعاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن أبيه، عن أبي ثعلبة الخُشَنيِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لن يُعجِزَ اللهُ هذه الأمةَ من نِصْفِ يوم»(٤). انفرد به أبو داود، ثم قال أبو داود:

---

(١) أي: لا يبلغ ألف سنة.

(٢) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير آية الأعراف ١٨٧.

(٣) تقدم حديث ابن أبي حاتم عند تفسير الآية ١٣٤ من سورة الأنعام.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١٢٥.

حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثني صفوان، عن شريح بن عبيد، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة عام. انفرد به أبو داود[1].

وقوله: ﴿عالمُ الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً * إلا مَن ارتضى من رسول﴾: هذه كقوله تعالى: ﴿ولا يُحيطون بشيءٍ من علمه إلّا بما شاء﴾. وهكذا قال هاهنا: إنه يعلمُ الغيبَ والشهادة، وإنه لا يَطّلعُ أحدٌ مِن خلقِه على شيءٍ من علمِه إلا مما أطلعه تعالى عليه، ولهذا قال: ﴿فلا يُظهِرُ على غيبه أحداً * إلا مَن ارتضى مِن رَسول﴾، وهذا يعم الرسُولَ المَلكيَّ والبَشري.

ثم قال: ﴿فإنه يَسلُكُ مِن بين يَدَيه ومِن خَلفِه رَصَداً﴾، أي: يَختصُّه بمزيدٍ مُعقِّباتٍ مِن الملائكة يحفظونه من أمرِ الله، ويُساوقونه على ما معه من وَحْيِ الله. ولهذا قال: ﴿لِيعلَمَ أن قد أبلغُوا رسالاتِ رَبِّهم وأحاطَ بما لديهم وأحصَى كلَّ شيءٍ عدداً﴾.

وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله: ﴿لِيَعْلَم﴾، إلى مَن يعُود؟ فقيل: إنه عائدٌ على النبي ﷺ، قال ابن جرير:

حدثنا ابن حُميد، حدثنا يعقوبُ القُمّي، عن جعفر، عن سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿عالم الغَيبِ فلا يُظهر على غيبه أحداً * إلاّ مَن ارتضى مِن رَسولٍ فإنه يسلُك مِن بين يَدَيه ومِن خَلفِه رَصَداً﴾، قال: أربعةُ حفظةٍ من الملائكة مع جبريل، ﴿ليعلم﴾ محمد ـ ﷺ ـ ﴿أن قد أبلغُوا رسالاتِ ربِّهم وأحاطَ بما لَدَيهم وأحصَى كلَّ شيءٍ عَدَدَ﴾[2].

ورواه ابنُ أبي حاتم من حديثِ يعقوبَ القُمّي، به. وهكذا رواهُ الضحّاكُ، والسُّدّي، ويزيدُ بن أبي حَبيب.

وقال عبدُ الرزّاق، عن مَعمَرٍ، عن قتادة ﴿لِيعلَمَ أن قد أبلغُوا رسالاتِ ربِّهم﴾، قال: ليعلمَ نبيُّ الله أن الرسُلَ قد بلّغت عن الله، وأن الملائكة حَفِظتها ودَفَعت عنها. وكذا رواه سعيدُ بن أبي عَروبةَ، عن قتادة. واختاره ابنُ جرير.

وقيل غيرُ ذلك، كما رواه العَوفيُّ عن ابنِ عبّاسٍ في قوله: ﴿إلاّ مَن ارتضَى مِن رسُولٍ فإنه يسلُك من بين يَدَيه ومن خلفِه رَصَداً﴾، قال: هي مُعقِّباتٌ مِن الملائكة يحفَظُون النبيَّ من الشيطانِ، حتى يَتبيَّنَ الذي أُرسِل إليهم، وذلك حين يقولُ: لِيَعْلَم أهلُ الشرك أن قد أبلَغوا رسالاتِ ربِّهم[3].

وكذا قال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿لِيعلَم أن قد أبلَغُوا رِسالاتِ ربِّهم﴾، قال: لِيعلَم من كَذَّب الرُّسُلَ أن قد أبلغوا رسالاتِ ربهم. وفي هذا نظر.

وقال البَغَويُّ: قرأ يعقوبُ: ﴿لِيُعلَم﴾ بالضم، أي: لِيَعلَم الناسُ أن الرسُل قد بلَّغوا[4].

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١٢٥

(٢) تفسير الطبري ٢٩/١٢٣

(٣) أخرجه الطبري ٢٩/١٢٢

(٤) تفسير البغوي ٤/٤٠٦

ويَحْتَمِلُ أن يكون الضميرُ عائداً إلى الله ـ عزَّ وجل ـ وهو قول حكاه ابن الجوزي في «زاد المسير»[١]. ويكونُ المعنى في ذلك: أنه يَحْفَظَ رُسُلَه بملائكته لِيتمكَّنُوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما يُبيِّن[٢] إليهم من الوحي ليعلَمَ أن قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم، ويكونُ ذلك كقوله: ﴿وما جعَلنا القبلة التي كُنتَ عليها إلا لنعلَمَ من يتبع الرسُولَ ممَّن يَنقلِبُ على عقِبَيْهِ﴾، وكقوله ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾، إلى أمثال ذلك، مع العلم بأنه تعالى يعلمُ الأشياء قبل كَوْنها قطعاً لا محالة، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وأحاطَ بما لديهم وأحصَى كُلَّ شيءٍ عَدَداً﴾.

آخر تفسير سورة الجنِّ، ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) زاد المسير ٨/١١٠.
(٢) في نسخة: «ما ينزله».

تفسير

سورة المزمل

وهي مكية

قال الحافظ أبو بكر أحمدُ بن عَمرو بن عبد الخالق البزّار:

حدَّثنا محمد بن موسى القطَّان الواسطي، حدثنا مُعلَّى[1] بن عبد الرحمن، حدَّثنا شريكٌ، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيلٍ، عن جابر قال: اجتمعت قُرَيْشٌ في دار النَّدْوَة فقالوا: سَمُّوا هذا الرجل اسماً تَصُدُّوا[2] الناس عنه. فقالوا: كاهنٌ. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنونٌ. قالوا: ليس بمجنونٍ. قالوا: ساحرٌ. قالوا: ليس بساحرٍ. فتفرَّق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبيَّ ـ ﷺ ـ فتَزمَّلَ في ثِيابِه وتَدَثَّر فيها. فأتاه جبريلُ ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿يا أيها المُزَّمل﴾، ﴿يا أيها المُدَّثِّر﴾.

ثم قال البزار: مُعلَّى بنُ عبد الرحمن قد حَدَّث عنه جماعةٌ من أهل العلم، واحتملُوا حديثَه، لكنَّه تفرَّد بأحاديثَ لا يُتَابَعُ عليها[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾

(١) في نسخة: «حدثنا موسى ومعلى».
(٢) في كشف الأستار: «فصدُّوا».
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٧٧.

يأمر تعالى رسوله ـ ﷺ ـ أن يترك التزمّلَ، وهو التغطّي في الليل، وينهض إلى القيام لربّه ـ عزّ وجل ـ كما قال تعالى. ﴿تتجافى جُنُوبهم عن المضاجع يدعُون ربّهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهُم يُنفِقُون﴾. وكذلك كان رسولَ الله ـ ﷺ ـ مُمتثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحدَه، كما قال تعالى: ﴿ومن اللَّيل فَتهجَّد به نافلةً لك عسى أن يَبعثَ ربُّك مقاماً محمُوداً﴾. وها هنا بيَّن له مقدارَ ما يقُوم فقال تعالى: ﴿يا أيها المُزّمّلُ * قُم الليلَ إلا قليلاً﴾.

قال ابنُ عباس، والضحّاك، والسُّدّي: ﴿يا أيها المُزّمّل﴾، يعني: يا أيها النائمُ. وقال قتادة: المُزّمّلُ في ثيابه. وقاله إبراهيمُ النخعيّ: نَزلت وهو مُتزمّل بقَطيفةٍ. وقال شَبيب بن بِشر، عن عِكرمَةَ، عن ابن عبّاس: ﴿يا أيُّها المزّمّلُ﴾، قال: يا محمدُ، زُمّلْتَ القرآنَ.

وقولُه: ﴿نصفَهُ﴾: بَدَلٌ من الليل. ﴿أو انقُص منه قليلاً * أو زِدْ عليه﴾، أي: أمرناكَ أن تَقُوم نصفَ الليل بزيادةٍ قليلةٍ أو نُقصانٍ قليلٍ، لا حَرَجَ عليك في ذلك.

وقولُه: ﴿وَرَتّل القرآن ترتيلاً﴾، أي: اقرأه على تَمَهُّل، فإنه يكونُ عوناً على فَهْم القرآن وتدبُّره. وكذلك كان يقرأُ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشةُ: كان يقرأُ السورةَ فَيُرتّلُها، حتى تكونَ أطولَ من أطول منها[1]. وفي صحيح البخاري، عن أنَس: أنه سُئل عن قراءة رسُولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: كانت مدّاً، ثم قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، يَمُد ﴿بسم الله﴾، ويمد ﴿الرَّحمن﴾ ويمد ﴿الرَّحيم﴾[2].

وقال ابن جُرَيج، عن ابن أبي مُليكَة عن أُمّ سَلَمَةَ: أنها سُئلَت عن قِراءةِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقالت: كان يقطّع قراءته آيةً آيةً ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * الحمدُ لله ربِّ العالمينَ * الرحمنِ الرحيمِ * مالكِ يومِ الدين﴾. رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي[2].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عبدُ الرحمن، عن سفيانَ، عن عاصمٍ، عن زِرٍّ، عن عبدِ الله بن عَمرو، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يُقَال لصاحِب القرآن: اقرأ وارقَ ورتّل كما كنت تُرتّل في الدنيا، فإنّ منزلَتك عند آخر آية تَقرؤُها»[3]

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث سُفيانَ الثَّوريّ، به. وقال التِّرمذيُّ. «حَسَنٌ صَحِيحٌ»[3].

وقد قدّمت في أول التفسير الأحاديث الدالَّة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديثِ: «زَيِّنُوا القُرآن بأصواتكم»، و«ليس منّا من لم يَتغنَّ بالقرآن»، و«لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود». يعني أبا موسى، فقال أبو موسى: لو كنتُ أعلَمُ أنك كنت تسمَعُ قراءتي لحبَّرتُه لك تحبيراً[4].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث حفصة في كتاب صلاة المسافرين ٥٠٧/١، وكذلك الترمذي في أبواب الصلاة، عارضة الأحوذي ١٦٧/٢، والنسائي في كتاب قيام الليل ٢٢٣/٣، ومالك في الموطأ، كتاب صلاة الجماعة ١٣٧/١

(٢) تقدم الحديث وتخريجه في كتاب فضائل القرآن أول هذا التفسير، عند الحديث عن مد القراءة

(٣) مسند الإمام أحمد ١٩٢/٢، وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٧٣/٢، والترمذي أبواب فضائل القرآن ٣٦/١١، وأخرجه النسائي في فضائل القرآن من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٢٩٠/٦

(٤) انظر هذه الأحاديث في كتاب فضائل القرآن أول التفسير

وعن ابن مسعود أنه قال: لا تنثروه نثر الدَّقَل، ولا تهذُّوه هذَّ الشِّعر، قِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكُن همُّ أحدكم آخِرَ السُّورة. رواه البَغَويُّ[١].

وقال البُخاريُّ: حدَّثنا آدمُ، حدَّثنا شعبةُ، حدَّثنا عَمرو بن مُرَّة. سمعتُ أبا وائلٍ قال: جاء رجلٌ إلى ابن مسعودٍ فقال: قرأتُ المفصَّل الليلةَ في ركعة. فقال: هذًّا كهذِّ الشعر! لقد عرفتُ النظائرَ التي كان رسولُ الله - ﷺ - يقرن بينهنَّ! فذكر عشرين سورةً من المُفصَّل، سُورَتَين في ركعة[٢].

وقولُه: ﴿إنا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾، قال الحسنُ، وقتادةُ: أي العملُ به[٣].

وقيل: ثقيلٌ وقتَ نزوله، من عظَمته. كما قال زيد بن ثابت: أُنزِل على رسول الله - ﷺ - وفَخِذُه على فَخِذي، فكادت تُرَضُّ فَخِذي[٤].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قُتَيبَةُ، حدَّثنا ابنُ لَهيعة، عن يزيدَ بن أبي حَبيب، عن عَمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو قال: سألتُ النبيَّ - ﷺ - فقلتُ: يا رسول الله، هل تُحِسُّ بالوحيِ؟ فقال رسول الله - ﷺ -: أسمعُ صَلاصِلَ، ثم أسكتُ عند ذلك، فما من مرَّةٍ يُوحَى إليَّ إلا ظننتُ أن نفسي تَفيض، تفرد به أحمد[٥].

وفي أوَّل صحيح البخاري عن عبد الله بن يُوسُف، عن مالك، عن هِشام، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله - ﷺ - كيف يأتيكَ الوحيُ؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صَلْصَلةِ الجرَس، وهو أشدُّه عليَّ، فيَفصِمُ[٦] عني وقد وَعَيتُ عنه ما قال. وأحياناً يتمثَّل لي الملك رَجُلاً فيُكلِّمني فأعِي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته يَنزِلُ عليه الوَحْيُ - ﷺ - في اليوم الشديدِ البَرْدِ، فيفصِمُ عنه وإن جَبينه ليَتفصَّدُ عَرَقاً. هذا لفظه[٧].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا سُليمان بن داود، أخبرنا عبدُ الرحمن، عن هشام بن عُروَة، عن أبيه، عن عائشة قالت: إن كان لَيُوحى إلى رسولِ الله - ﷺ - وهو على راحلته، فتضربُ بجرانها[٨].

وقال ابنُ جَرير: حدَّثنا ابنُ عبد الأعلى، حدَّثنا ابنُ ثَور، عن معمَر، عن هِشام بن عُروَة، عن أبيه: أن النبي - ﷺ - كان إذا أُوحِي إليه وهو على ناقته، وَضَعت جِرانها، فما تستطيع أن تَحرَّكَ حتى يُسَرَّى عنه[٩].

وهذا مرسل. الجِرانُ: هو باطن العنق. واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معاً، كما قال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: كما ثَقُل في الدنيا ثَقُل يوم القيامة في الموازين.

وقولُه: ﴿إنَّ ناشئةَ الليل هي أشدُّ وطئاً وأقومُ قيلاً﴾، قال أبو إسحاق، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: نشأ: قام بالحبشيَّة. وقال عُمر، وابنُ عباس، وابن الزُّبير: الليل كلُّه ناشئة. وكذا قال مجاهدٌ، وغيرُ

(١) تفسير البغوي ٤٠٧/٤، والدَّقَل: أرذأ التمر.
(٢) فتح الباري، كتاب الأذان ٢٥٥/٢
(٣) أخرجه الطبري ١٢٧/٢٩
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، وتفسير سورة النساء، فتح الباري ٤٧٨/١، ٢٥٩/٨.
(٥) مسند الإمام أحمد ٢٢٢/٢.
(٦) أي: يُقلِع
(٧) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثالثة من سورة الشورى، وخرجناه هنالك.
(٨) مسند الإمام أحمد ١١٨/٦. والجران: باطن العنق، يريد أنها تثبت في مكانها
(٩) تفسير الطبري ١٢٧/٢٩.

واحد، يقال: نَشَأ: إذا قام من الليل. وفي روايةٍ عن مجاهدٍ: بعدَ العِشاءِ. وكذا قال أبو مِجْلَزٍ، وقتادةُ، وسالم وأبو حازمٍ، ومحمد بن المنكدر.

والغرضُ أنَّ ناشئة الليل هي: ساعاتُه وأوقاتُه، وكل ساعة منه تُسمَّى ناشئةً، وهي الآناتُ، والمقصودُ أنَّ قيام الليل هو أشدّ مواطأةً بين القلبِ واللسانِ، وأجمَعُ على التلاوة. ولهذا قال: ﴿هي أشَدُّ وطئاً وأقوَمُ قِيلاً﴾، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءةِ وتَفَهُّمِها من قيام النهار؛ لأنه وقتُ انتشارِ الناس ولغَطِ الأصواتِ وأوقاتُ المعاش.

وقد قال الحافظ أبو يعلَى الموصلي: حدَّثنا إبراهيم بنُ سعيدٍ الجَوْهريُّ، حدَّثنا أبو أُسامةَ، حدَّثنا الأعمشُ، أن أنس بن مالك قرأ هذه الآيةَ: ﴿إنَّ ناشئةَ الليلِ هي أشدُّ وطئاً وأصوبُ قِيلاً﴾، فقال له رجلٌ: إنما نقرؤها ﴿وأقومُ قِيلاً﴾. فقال له: إن أَصْوَبَ وأقومَ وأهيأ وأشباه هذا واحدٌ[1].

ولهذا قال: ﴿إنَّ لك في النهار سَبْحاً طويلاً﴾، قال ابنُ عباس، وعكرمةُ، وعطاءُ بن أبي مُسلم: الفراغُ والنومُ.

وقال أبو العالية، ومجاهدٌ، وأبو مالك، والضحّاكُ، والحسَنُ، وقتادةُ، والربيعُ بنُ أنسٍ، وسفيان الثَّوريُّ: فراغاً طويلاً، وقال قتادة: فراغاً وبُغيةً ومُنقَلباً. وقال السُّدِّي: ﴿سَبحاً طويلاً﴾: تطَوُّعاً كثيراً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ في قوله: ﴿سبحاً طويلاً﴾، قال: لِحَوائجك، فأفرِغْ لِدِينكَ الليلَ. قال: وهذا حينَ كانت صلاةُ الليل فريضةً، ثم إن الله مَنَّ على العباد فخفَّفها وَوَضعها، وقرأ: ﴿قُم الليلَ إلاَّ قليلاً﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿إن ربَّك يعلمُ أنكَ تقومُ أدنَى من ثُلُثَي الليلِ﴾ حتى بلغ: ﴿فاقرءُوا ما تيسَّر منه﴾، [[2] الليل نصفُه أو ثلثه. ثم جاء أمر أوسَعُ وأفسحُ وَضعُ الفريضة عنه وعن أمته[2]] فقال: وقال: ﴿ومِنَ الليلِ فتهجَّد به نافلةً لك عسى أن يبعثَكَ ربُّك مقاماً محموداً﴾. وهذا الذي قاله كما قاله.

والدليل عليه ما رواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَدِه حيث قال:

حدَّثنا يحيى، حدَّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ، عن زُرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام: أنه طلَّق امرأته ثم ارتحَلَ إلى المدينةِ ليبيع عقاراً له بها ويجعله في الكُرَاعِ[3] والسلاح ثم يُجاهِدَ الرومَ حتى يموتَ. فلقِيَ رَهطاً من قومه فحدَّثوه أن رهطاً من قومه ستَّةً أرادوا ذلك على عهدِ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «أليس لكُم فيَّ أُسوةٌ حَسَنَةٌ؟» فنهاهم عن ذلك، فأشهدَهم على رَجعتها، ثم رَجَعَ إلينا فأخبرنا أنه أتى ابنَ عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أُنبئُك بأعلَمِ أهلِ الأرضِ بوِترِ رسولِ الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: ائتِ عائشةَ فاسألها ثم ارجع إليَّ فأخبرني بردِّها عليكَ. قال: فأتيتُ على حَكِيم بن أفلَحَ فاستلحقتُه[4] إليها، فقال: ما أنا مقاربها[5]؛ إني نهيتها أن تقول في هاتين الشِّيْعَتَين[6] شيئاً، فأبت فيهما إلا مُضِيّاً. فأقسمت عليه، فجاء معي، فدخلنا عليها فقالت: حَكِيم؟ وعرَفَته، قال: نعم. قالت: مَن هذا معك؟ قال: سعدُ بن هشام. قالت: مَن هشامٌ؟ قال: ابنُ عامرٍ.

(١) مسند أبي يعلى ٤/١٢٠ ـ ١٢١.

(٢ ـ ٢) من تفسير الطبري ٢٩/١٣١

(٣) الكُراع: اسمُ الخيل

(٤) أي: طلبتُ منه مرافقته إيّاي في الذهاب إليها.

(٥) أي: لا أُريد قُرْبَها.

(٦) الشِّيْعتان: الفرقتان، يريد شيعة عليٍّ وأصحاب الجمل

قال. فترحمت عليه وقالت. نعم المرءُ كان عامرٌ. قلتُ: يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلتُ. بلى. قالت: فإنَّ خُلُق رسول الله ـ ﷺ ـ كان القرآنَ. فهممتُ أن أقومَ، ثم بدا لي قيامُ رسول الله ﷺ، قلت. يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: ألستَ تقرأ هذه السورة: ﴿يا أيُّها المزمِّلُ﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيامَ الليلِ في أوَّل هذه السورة، فقام رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأصحابُه حَولاً حتى انتفخت أقدامُهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيفَ في آخر هذه السورة، فصار قيامُ الليل تطوُّعاً من بعدِ فريضةٍ. فهممتُ أن أقومَ، ثم بدا لي وِترُ رسول الله ﷺ، قلتُ: يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن وِتر رسول الله ﷺ. قالت: كُنَّا نُعِدُّ له سِواكه وطَهُوره، فيبعثُه[1] الله لما شاء أن يبْعثَه من اللَّيل، فيتسوَّكُ ثم يتوضأ ثم يُصَلِّي ثماني ركعات لا يجلسُ فيهنَّ إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكُر ربَّه ويدعُو [(٢- ويستغفرُ ثم ينهضُ ولا يسلم. ثم يُصَلِّي التاسعة فيقعُد فيحمَد ربَّه ويذكره ويدعو -٢)] ثم يسلم تسليماً يُسمِعنا، ثم يُصَلِّي ركعتين وهو جالسٌ بعد ما يُسَلِّم. فتلك إحدى عشرة ركعةً يا بُنَيَّ. فلما أسنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ وأخذ[3] اللحمَ، أوتر بسبعٍ، ثم صلَّى ركعتين وهو جالسٌ بعد ما يُسَلِّم، فتلك تسع يا بُنَيَّ. وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا صلَّى صلاةً أحبَّ أن يُداوم عليها، وكان إذا شغَله عن قيام الليل نومٌ أو وجَعٌ أو مَرَضٌ، صلَّى من النهار ثنتي عشرةَ ركعةً، ولا أعلَمُ نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قرأ القرآنَ كُلَّه في ليلةٍ [ولا قام ليلة[4]] حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان.

فأتيتُ ابن عباس فحدَّثتُه بحديثها، فقال: صَدَقت، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتُها حتى تشافهني مُشافهةً[4].

هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه. وقد أخرجه مسلمٌ في صَحيحه، من حديث قتادة، بنحوه.

طريقٌ أُخرى عن عائشةَ في هذا المعنى، قال ابنُ جَرير:

حدَّثنا ابنُ وَكيع، حدَّثنا زيدُ بن الحُباب ـ وحدَّثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا مهران، قالا جميعاً، واللفظ لابن وكيع. عن موسى بن عُبيدَة، حدَّثني محمد بن طحلاء، عن أبي سَلَمة، عن عائشةَ قالت. كنتُ أجعلُ لرسول الله ـ ﷺ ـ حَصيراً يُصلِّي عليه من الليلِ، فتسامَعَ الناس به فاجتمَعُوا، فخرج كالمُغضَب، وكان بهم رحيماً، فخشِيَ أن يُكتَبَ عليهم قيامُ الليل، فقال: «أيها الناسُ، اكلَفُوا[5] من الأعمال ما تُطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ من الثوابِ حتى تَملُّوا من العمَل، وخيرُ الأعمال ما ديمَ عليه». ونزل القرآن: ﴿يا أيُّها المزمِّلُ ۞ قُمِ الليلَ إلا قليلاً ۞ نصفَه أو انقُص منه قليلاً ۞ أو زِدْ عليه﴾، حتى كان الرجل يَربِطُ الحبلَ ويَتعلَّق، فمكثُوا بذلك ثمانية أشهرٍ، فرأى الله ما يبتغون من رِضوانِهِ، فرَحِمَهم فردَّهم إلى الفريضةِ، وتَرَك قيامَ الليل[6].

وَرَواه ابنُ أبي حاتم من طريقِ موسى بن عُبيدَة الرَّبَذيِّ، وهو ضعيفٌ. والحديث في الصَّحيح[6] بدُون زيادة نُزولِ هذه السُّورَة، وهذا السياقُ قد يُوهِم أنَّ نزولَ هذه السورةِ بالمدينةِ، وليس كذلك، وإنَّما هي مكيَّةٌ.

---

(١) أي: يوقظه، لأن النوم أخو الموت.

(٢ ـ ٢) سقط من النسخ

(٣) أي: وكثر لحمُه

(٤) مسند الإمام أحمد ٩/٥٤. ومسلم، كتاب الصلاة ١/٥١٢ ـ ٥١٤.

(٥) أي: تحمَّلُوا

(٦) تفسير الطبري ٢٩/١٢٥، وفتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٢٩٤.

وقوله في هذا السياق: إنّ بين نزول أوّلها وآخرها ثمانية أشهرٍ، غريبٌ؛ فقد تقدّم في رواية أحمد أنه كان بينهما سنةٌ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدّثنا أبو سعيد الأشجّ، حدّثنا أبو أُسامة، عن مِسْعَرٍ، عن سِماكٍ الحنفيّ، سمعتُ ابنَ عبّاس يقول: أوّلُ ما نزل أوّلُ المُزَّمّل، كانوا يقومُون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أوّلها وآخِرِها قريبٌ من سنةٍ.

وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كُرَيب، عن أبي أُسامة، به[1].

وقال الثوريُّ ومحمد بن بشر العبدي، كلاهما عن مِسْعَرٍ، عن سِماكٍ، عن ابن عباس: كان بينهما سنةٌ. وروَى ابن جرير، عن أبي كُرَيب، عن وَكيعٍ، عن إسرائيل، عن سِماكٍ، عن عِكْرمة، عن ابن عبّاس، مثله[2].

وقال ابنُ جرير: حدّثنا ابن حُمَيد، حدّثنا مِهران، عن سُفيان، عن قيس بن وهب، عن أبي عبد الرحمن قال: لما نَزَلت: ﴿يا أيُّها المزمِّلُ﴾، قاموا حولاً حتى وَرِمَت أقدامُهم وسُوقُهم، حتى نزلت: ﴿فاقرءُوا ما تيسَّر منه﴾ قال: فاستراح الناسُ[3]. وكذا قال الحسن البصري.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدّثنا أبو زُرعةَ، حدّثنا عُبَيد الله بن عُمَر القواريريُّ، حدّثنا مُعاذُ بن هشام، حدّثنا أبي، عن قتادةَ، عن زُرارة بن أوفَى، عن سعد بن هشام قال. فقلتُ - يعني لعائشة -: أخبريني عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: ألستَ تقرأُ: ﴿يا أيها المزمِّلُ﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإنها كانت قيامَ رسول الله - ﷺ - وأصحابِه حتى انتفخت أقدامُهم، وحُبِس آخرها في السماء ستةَ عشرَ شهراً، ثم نزل.

وقال معمرٌ، عن قتادةَ: ﴿قُمِ الليلَ إلّا قليلاً﴾، قاموا حولاً أو حولَين، حتى انتفخت سُوقُهم وأقدامهم، فأنزل الله تخفيفَها بعدُ في آخر السورة.

وقال ابنُ جرير: حدّثنا ابن حُمَيد، حدّثنا يعقوبُ القُمّي، عن جعفر، عن سعيد - هو ابن جُبير - قال: لما أنزل الله على نَبِيّهِ - ﷺ -: ﴿يا أيها المزمِّل﴾، قال: مكث النبيُّ - ﷺ - على هذه الحال عشر سنين يقومُ الليل، كما أمره، وكانت طائفةٌ من أصحابه يقومُون معه، فأنزل الله عليه بعدَ عشر سنين: ﴿إنّ ربَّك يعلمُ أنك تقومُ أدنى من ثُلُثَي الليلِ ونصفَه وثُلُثَه وطائفةٌ من الذين معكَ﴾ إلى قوله: ﴿وأقيمُوا الصلاة﴾، فخفّف الله عنهم بعدَ عشرِ سنينَ[3].

ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن عَمرو بن رافع، عن يعقوب القُمّي، به.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُمِ الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * [(٤- أو زِدْ عليه ورتّل القرآن ترتيلاً﴾، فأمر الله نبيَّه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً -٤)] فشَقَّ ذلك على المؤمنين، ثم خَفَّف الله عنهم ورَحِمَهم، فأنزل بعدَ هذا: ﴿عَلِمَ أن سيكونُ منكم مرضى وآخَرُون يضربُون في الأرضِ﴾ إلى قوله: ﴿فاقرءُوا ما تيسَّر منه﴾، فوسَّع الله - وله الحمدُ - ولم يُضيِّق

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٢٤ - ١٢٥.
(٢) تفسير الطبري ٢٩/١٢٦.
(٣) تفسير الطبري ٢٩/١٢٥ - ١٢٦. والسُّوق: جمع ساق.
(٤ - ٤) من تفسير الطبري ٢٩/١٢٥.

وقولُه: ﴿واذكر اسم ربِّك وتبتَّل إليه تبتيلاً﴾، أي: أكثر من ذِكره، وانقطِع إليه، وتفرَّغ لعبادته إذا فَرَغت من أشغالك، وما تحتاجُ إليه من أُمور دُنياك، كما قال: ﴿فإذا فرغتَ فانصبْ﴾، أي: إذا تفرَّغتَ من أشغالك[1] فانصَب في طاعته وعبادته، لتكونَ فارغ البال. قاله ابنُ زيد بمعناه أو قريب[2] منه.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وأبو صالح، وعطيةُ، والضحَّاك، والسُّدِّي: ﴿وتبتَّل إليه تبتيلاً﴾، أي: أخلِص له العبادة. وقال الحسن: اجتهد وابتَل[3] إليه نَفْسَك. وقال ابنُ جرير: يُقال للعابد: مُتبتِّل، ومنه الحديث المرويُّ: نَهى عن التبتُّل[4]. يعني الانقطاعَ إلى العبادة وتَرْكَ التزوُّج.

وقولُه: ﴿ربُّ المشرق والمغربِ لا إله إلا هُو فاتَّخِذه وكيلاً﴾، أي: هو المالك المتصرِّفُ في المشارقِ والمغاربِ، الذي لا إلهَ إلا هُو، وكما أفردتَه بالعبادة فأفرِدْهُ بالتوكُّل ﴿فاتخِذْهُ وكيلاً﴾، كما قال في الآيةِ الأخرى ﴿فاعبُده وتوكَّل عليه﴾، وكقوله: ﴿إيَّاكَ نعبُد وإيَّاكَ نستعين﴾، في آياتٍ كثيرةٍ في هذا المعنى، فيها الأمرُ بإفرادِ العبادةِ والطاعةِ لله، وتخصيصِه بالتوكُّل عليه.

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسوله ـ ﷺ ـ بالصبر على ما يقولُه مَن كذَّبه من سُفهاء قومه، وأن يهجُرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتابَ معه. ثم قال له مُتوعِّداً لكفار قومه ومُتهدِّداً ـ وهو العظيم الذي لا يقومُ لغضبه شيءٌ ـ: ﴿وذَرْني والمكذِّبين أولي النَّعمة﴾، أي: دَعني والمكذِّبين المُترَفين أصحابَ الأموال، فإنهم أقدرُ على الطاعة من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، ﴿ومَهِّلهم قليلاً﴾، أي: رُوَيداً، كما قال: ﴿نُمتِّعهم قليلاً ثم نضطرُّهم إلى عذابٍ غليظ﴾. ولهذا قال ها هنا: ﴿إنّ لدينا أنكالاً﴾، وهي: القيودُ. قاله ابنُ عباس، وعِكرمةُ، وطاوسٌ، ومحمدُ بنُ كعب، وعبدُ الله بن بُرَيدة، وأبو عِمران الجَوْني، وأبو مِجلَز، والضحَّاكُ، وحمَّادُ بن أبي سُليمان، وقتادةُ، والسُّدِّي، وابنُ المبارك، والثَّوري، وغير واحد ﴿وجحيماً﴾، وهي السعير المضطرمة. ﴿وطعاماً ذا غُصَّةٍ﴾، قال ابنُ عباس: يَنْشَبُ في الحَلْق فلا يدخُل ولا يخرُج، ﴿وعذاباً أليماً * يوم ترجفُ الأرضُ والجبال﴾، أي: تُزَلزل، ﴿وكانت الجبالُ كثيباً مَهيلاً﴾، أي: تَصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارةً صمَّاء، ثم إنها تُنسَف نسفاً فلا يبقى منها شيءٌ إلا ذَهَب، حتى تَصيرَ الأرضُ ﴿قاعاً صَفصَفاً * لا تَرَى فيها عِوَجاً﴾، أي: وادياً، ﴿ولا أَمْتاً﴾، أي: رابيةً. ومعناه: لا شيءَ ينخفِضُ ولا شيءَ يرتفع.

ثم قال مخاطباً لكفار قُريش، والمرادُ سائرُ الناس: ﴿إنا أرسلنا إليكُم رسولاً شاهداً عليكم﴾، أي:

---

(١) في نسخة الأزهر: فمن مهامتك.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/١٣٣.

(٣) أي: انقطع. يقال: بتله بتلاً: قطعه وفصله عن غيره.

(٤) تفسير الطبري ٢٩/١٣٢

بأعمالكم، ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعونُ الرسولَ فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ والسُّدي، والثوريُّ. ﴿أخذاً وبيلاً﴾، أي: شديداً. أي: فاحذروا أنتم أن تُكذبوا هذا الرسول، فيُصيبكم ما أصابَ فرعونَ، حيثُ أخذَه الله أخذ عزيزٍ مُقتدرٍ، كما قال تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرةِ والأولى﴾، وأنتم أولى بالهلاك والدَّمار إن كذَّبتم؛ لأن رسولكم أشرفُ وأعظمُ من موسى بن عِمْران ويُروَى عن ابن عباس، ومجاهد.

وقولُه ﴿فكيف تتَّقون إن كفرتُم يوماً يجعلُ الولدانَ شِيباً﴾، يَحْتمِلُ أن يكون ﴿يوماً﴾ معمولاً لتتقون، كما حكاه ابنُ جرير عن قراءة ابن مسعودٍ: فكيف تخافون أيها الناسُ يوماً يجعلُ الولدانَ شيباً إن كفرتُم بالله ولم تُصدِّقوا به[1]؟! ويَحْتمِلُ أن يكون معمولاً لكفرتم، فعلى الأول: كيفَ يحصلُ لكم أمانٌ من يومِ هذا الفزَعِ العظيمِ إن كفرتم؟ وعلى الثاني: كيف يحصلُ لكم تقوى إن كفرتم يومَ القيامةِ وجَحدتُموه؟ وكلاهما معنىً حَسَنٌ، ولكن الأوَّلَ أولى، والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿يوماً يجعلُ الولدانَ شيباً﴾، أي: من شِدَّةِ أهوالِه وزلازِله وبَلابِله، وذلك حين يقولُ الله لآدم: ابعَثْ بعثَ النار. فيقول: مِنْ كم؟ فيقول: من كُلِّ ألفٍ تسعُمائة وتسعةٌ وتسعون إلى النار، وواحدٌ إلى الجنة[2].

قال الطبرانيُّ: حدَّثنا يحيى بن أيوب العَلَّاف، حدَّثنا سعيد بن أبي مَرْيَم، حدَّثنا نافع بن يزيدَ، حدَّثنا عثمانُ بن عطاء الخُراساني، عن أبيه، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ: ﴿يوماً يجعلُ الولدانَ شيباً﴾، قال: «ذلك يومُ القيامة، وذلك يومَ يقولُ الله لآدم: قُم فابعث مِن ذُرِّيتك بعثاً إلى النار. قال: مِن كَم يا ربِّ؟ قال: من كل ألفٍ تسعُمائة وتسعةٌ وتسعون، وينجو واحدٌ. فاشتدَّ ذلك على المسلمين، وعَرَفَ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال حين أبصر ذلك في وجوههم: «إنَّ بني آدم كثير، وإنَّ يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وإنه لا يموتُ منهم رجل حتى يَرِثَه[3] لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جُنَّةٌ لكم»[4].

هذا حديثٌ غريبٌ، وقد تقدَّم في أولِ سورة الحجِّ ذكرُ هذه الأحاديث.

وقولُه: ﴿السماءُ منفطرٌ به﴾، قال الحسن، وقتادةُ: أي بسببه من شِدَّتِه وهَوْلِه. ومنهم مَن يُعيدُ الضميرَ على الله عزَّ وجل: ورُوِي عن ابن عبَّاسٍ ومجاهدٍ، وليس بقويٍّ؛ لأنه لم يَجْرِ له ذِكرٌ ها هنا.

وقولُه تعالى: ﴿كان وعدُه مفعولاً﴾، أي: كان وعدُ هذا اليومِ معمولاً، أي: واقعاً لا محالةَ، وكائناً لا مَحِيدَ عنه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٣٧.
(٢) تقدم الحديث وتخريجه عند مفتتح سورة الحج.
(٣) في نسخة: يرى، وفي أخرى: يرى. والمثبت عن المعجم، ومجمع الزوائد ٧/١٣٠.
(٤) أخرجه في المعجم الكبير ١١/٣٦٦.

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿إنَّ هذه﴾، أي: السورةَ ﴿تذكرةٌ﴾، أي: يَتذكّر بها أُولُوا الألباب. ولهذا قال: ﴿فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً﴾، أي: ممن شاء الله هدايتَه، كما قيَّده في السورةِ الأخرى: ﴿وما تشاءُون إلا أن يشاءَ الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

ثم قال: ﴿إن ربَّك يعلَمُ أنك تقومُ أدنى من ثُلُثَي الليلِ ونصفَه وثُلُثه وطائفةٌ من الذين معك﴾، أي: تارةً هكذا، وتارةً هكذا، وذلك كلُّه من غير قصدٍ منكم، ولكن لا تقدِرُون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل، لأنه يَشُقُّ عليكم، ولهذا قال: ﴿والله يُقدِّر الليلَ والنهارَ﴾، أي: تارة يعتدلان، وتارةً يأخذُ هذا من هذا، أو هذا من هذا، ﴿علم أن لن تحصُوه﴾، أي: الفرضَ الذي أوجَبَه عليكم ﴿فاقرءوا ما تَيَسَّر من القرآن﴾، أي: من غير تحديدٍ بوقتٍ، أي: ولكن قومُوا من الليلِ ما تَيسَّر. وعبَّر عن الصلاةِ بالقراءة كما قال في سورة سبحان: ﴿ولا تَجهَر بصلاتك﴾، أي: بقراءتك، ﴿ولا تُخافِت بها﴾.

وقد استدل أصحابُ الإمام أبي حنيفةَ - رَحِمه الله - بهذه الآية، وهي قوله: ﴿فاقرءوا ما تيسَّر من القرآن﴾، على أنه لا يتعيَّن قراءةُ الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية، أجزأه؛ واعتضدُوا بحديث المسيءِ صلاته الذي في الصحيحَين: «ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن»[(١)].

وقد أجابهم الجمهورُ بحديث عُبادة بن الصامت، وهو في الصحيحَين أيضاً: أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[(٢)]. وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «كُلُّ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاج، فهي خِدَاج، فهي خِدَاج: غير تمام»[(٢)]. وفي صحيح ابن خُزَيمة عن أبي هُرَيْرَة مرفوعاً: «لا تُجزىء صلاة مَن لم يقرأ بأم القرآن»[(٣)].

وقولُه: ﴿عَلِم أن سيكونُ منكم مرضَى وآخرون يَضرِبُون في الأرض يبتغُون من فضل الله وآخَرُون يُقاتِلُون في سبيل الله﴾، أي: علم أن سيكونُ من هذه الأمة ذوو أعذارٍ في تَرْكِ قيام الليل، من مرضَى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغُون من فَضل الله في المكاسِب والمتاجر، وآخرين مشغُولين بما هو الأهمُّ في حقهم من الغزو في سبيل الله. وهذه الآية، بل السورةُ كلُّها، مكية، ولم يكن القتال شُرِع بعدُ، فهي من أكبر دلائل النبوّةِ، لأنه من باب الإخبار بالمغيَّبات المستقبَلة. ولهذا قال: ﴿فاقرءُوا ما تَيسَّر منه﴾، أي: قومُوا بما تيسَّر عليكُم منه

قال ابنُ جَرير: حدَّثنا يعقوبُ، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن أبي رَجَاءٍ محمد قال: قلتُ للحسن: يا أبا سَعيد، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كلَّه عن ظهر قلبه، ولا يقومُ به، إنما يُصلِّي المكتوبة؟ قال: يَتوسَّدُ القرآن[(٤)]، لعن الله ذاك، قال الله تعالى للعبدِ الصالح: ﴿وإنه لذُو علم لما علَّمناه﴾، ﴿وعُلِّمتم ما لم تعلَمُوا أنتم ولا آباؤكم﴾. قلتُ: يا أبا سَعيد، قال الله: ﴿فاقرءوا ما تَيَسَّر من القرآن﴾؟ قال: نعم، ولو خمس آيات[(٥)].

---

(١) أخرجه الشيخان: فتح الباري، كتاب الاستئذان ٣٦/١١، ومسلم، كتاب الصلاة ٢٩٨/١.

(٢) تقدم الحديث في مقدمة سورة الفاتحة، وعند الآية الخامسة منها، وخرجناه هناك.

(٣) صحيح ابن خزيمة، كتاب الصلاة ٢٤٨/١.

(٤) أي: ينام الليل عن القرآن ولم يتهجّد به.

(٥) تفسير الطبري ١٤١/٢٩.

وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل، ولهذا جاء في الحديث: أن رسول الله ـ ﷺ ـ سُئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك رَجُلٌ بال الشيطان في أذنه»[(١)] فقيل: معناه: نام عن المكتوبة. وقيل: عن قيام الليل. وفي السُّنن: «أوتِرُوا يا أهل القرآن»[(٢)]. وفي الحديث الآخر: «من لم يُوتِر فليس منا»[(٣)].

وأغرب من هذا ما حكي عن أبي بكر عبد العزيز[(٤)]، من الحنابلة، من إيجابه قيام شهر رمضان، فالله أعلم.

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن سعيد بن فرقد الجُدّي، حدثنا أبو حُمَة[(٥)] محمد بن يوسف الزَّبيدي، حدثنا عبد الرحمن بن طاوس، من ولد طاوس، عن محمد بن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: ﴿فاقرءوا ما تَيَسَّر منه﴾، قال: «مئة آية»[(٦)].

وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا لم أره إلا في مُعجمِ الطبراني رحمه الله.

وقوله: ﴿وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ﴾، أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاةَ المفروضةَ. وهذا يَدُلُّ لمن قال بأنَّ فَرْضَ الزكاةِ نَزل بمكَّة، لكن مقادير النُّصُب والمَخْرَج لم تُبَيَّن إلا بالمدينةِ. والله أعلم.

وقد قال ابنُ عباس، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ من السلف: إن هذه الآيةَ نسخت الذي كان الله قد أوجَبه على المسلمين أولاً من قيام الليل. واختلفوا في المُدَّة التي بينهما على أقوالٍ كما تَقَدَّم. وقد ثبت في الصحيحَين أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لذلك الرجل: «خمسُ صلواتٍ في اليومِ والليلة» قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تَطَوَّع»[(٧)].

وقولُه تعالى: ﴿وأقرِضُوا الله قرضاً حسناً﴾، يعني من الصدقات، فإن الله يُجازي على ذلك أحسنَ الجزاءِ وأوفَرَه، كما قال: ﴿مَن ذَا الذي يُقرِضُ الله قرضاً حسناً فيُضاعفَه له أضعافاً كثيرة﴾.

وقوله: ﴿وما تُقدِّموا لأنفُسِكم من خيرٍ تَجِدُوه عند الله هو خيراً وأعظَمَ أجراً﴾، أي: جميعُ ما تُقدِّموه بين أيديكم فهو لكم حاصلٌ، وهو خيرٌ مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا. قال الحافظ أبو يَعْلَى المَوصِلي:

حدَّثنا أبو خيثمةَ، حدثنا جَريرٌ، عن الأعمش، عن إبراهيمَ، عن الحارث بن سُوَيد قال: قال عبد الله: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أيُّكم مالُه أحبُّ إليه من مالِ وارِثه؟». قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد إلا مالُه

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب التهجد ٢٨/٣، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٣٧/١

(٢) سنن أبي داود، كتاب الوتر ٦١/٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢٤٢/٢، وسنن النسائي، كتاب قيام الليل ٢٢٨/٣ ـ ٢٢٩، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ٣٧٠/١

(٣) سنن أبي داود، كتاب الوتر ٦١/٢

(٤) هو عبد العزيز بن جعفر بن أحمد الحنبلي، شيخ الحنابلة وعالمهم، وصاحب التصانيف، توفي في شوال من سنة ٣٦٣، العبر للذهبي ٣٣٠/٢، والبداية والنهاية ٢٩٩/١١.

(٥) حُمَة: سقط من بعض النسخ، وفي نسخة مكانه: أحمد، والمثبت عن المعجم الكبير، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٢١/٨، والمقتنى للذهبي ٢٠٣/١.

(٦) أخرجه في المعجم الكبير ٢٩/١١

(٧) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤٩ من سورة الطور، وخرجناه هنالك

أحبُّ إليه من مالِ وارثه. قال: «اعلَمُوا ما تقولون». قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحَدِكم ما قَدَّم ومال وارثه ما أَخَّر»[1].

ورواه البخاري من حديث حَفْصِ بن غِياثٍ، والنسائي من حديث أبي معاوية، كلاهما عن الأعمش، به[1].

ثم قال تعالى: ﴿واستغفِرُوا الله إن الله غفورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: أكثِرُوا من ذِكْرِه واستغفاره في أُمُورِكم كُلِّها؛ فإنه غفورٌ رحيمٌ لمن استغفره.

آخرُ تفسيرِ «سورةِ المُزَّمِّل»

---

(١) مسند أبي يعلى ٥/٨٦، وصحيح البخاري، كتاب الرقاق ١١/٢٦٠، والنسائي، كتاب الوصايا ٦/٢٣٧.

تفسيرُ

سُورَةُ المُدَّثِّر

وَهِيَ مَكيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

ثَبَت في صحيح البخاري، من حديث يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن جابر أنه كان يقول: أوَّلُ شيء نَزَل من القرآن: ﴿يا أيها المدَّثِّرُ﴾، وخالفه الجمهورُ فذهبُوا إلى أن أوَّل القرآنِ نزولاً قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم رَبِّك الذي خلق﴾، كما سيأتي ذلك هنالك، قال البُخاري

حدَّثنا يحيى، حدَّثنا وَكيعٌ، عن عليِّ بن المبارك، عن يحيى بن أبي كَثِير قال: سألتُ أبا سَلَمة بن عبد الرحمن عن أوَّل ما نزل من القرآن، قال: ﴿يا أيها المدَّثِّرُ﴾. قلتُ: يقولون: ﴿اقرأ باسم ربِّك الذي خَلَق﴾؟ فقال أبو سَلَمة: سألتُ جابرَ بن عبد الله عن ذلك، وقلتُ له مثلَ ما قلتَ لي، فقال جابر: لا أُحدِّثك إلاَّ ما حدَّثنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: «جاورتُ بحِرَاء، فلما قضيتُ جواري هَبَطتُ فنُوديتُ فنظرتُ عن يميني فلم أرَ شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرتُ أمامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً. فأتيتُ خديجة فقلت: دَثِّروني، وصُبُّوا عليَّ ماءً بارداً. فدَثَّروني وصَبُّوا عليَّ ماءً بارداً قال. فنزلت ﴿يا أيُّها المدَّثِّر * قُمْ فَأَنذِر * وربَّك فَكَبِّر﴾[1].

هكذا ساقه من هذا الوجه، وقد رواه ومسلمٌ من طريق عُقَيل، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال

---

(١) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٦٧٦ - ٦٧٧.

أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يُحدِّث عن فترة[1] الوحي: «فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري قِبَل السماء، فإذا الملكُ الذي جاءني بحراءٍ قاعدٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فجُئِثْتُ[2] منه حتى هويتُ إلى الأرض، فجئتُ أهلي فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني. فزمَّلوني، فأنزل الله ﴿يا أيها المدثِّر * قُم فأنذِرْ﴾ إلى: ﴿فاهجُرْ﴾ ـ قال أبو سلمة: والرُّجز: الأوثانُ ـ ثم حَمِيَ الوحيُ وتتابع»[3].

هذا لفظ البخاري، وهذا السياقُ هو المحفوظ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحيُ قبل هذا، لقوله: «فإذا الملَكُ الذي جاءني بحراءٍ»، وهو جبريلُ حين أتاه بقوله: ﴿اقرأ باسم ربِّك الذي خلق * خلق الإنسانَ من علقٍ * اقرأ وربُّك الأكرمُ * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾. ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا. ووجهُ الجمْع أن أول شيءٍ نزل بعد فترة الوحي هذه السورةُ، كما قال الإمام أحمدُ:

حدَّثنا حجَّاجٌ، حدَّثنا ليثٌ، حدَّثنا عُقَيل، عن ابن شهاب قال: سمعتُ أبا سلَمة بن عبد الرحمن يقول: أخبرني جابرُ بن عبد الله: أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «ثم فتَر الوحيُ عني فترةً، فبينا أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بَصري قِبَل السماء، فإذا المَلَكُ الذي جاءني [بحراء الآن][4] قاعدٌ على كرسي بين السماء والأرض، فجُئِثْتُ منه فرقاً، حتى هَوَيت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلتُ لهم: زَمِّلوني زَمِّلوني. فزَمَّلوني، فأنزل الله: ﴿يا أيها المدثِّر * قُم فأنذِر * وربَّكَ فكبِّر * وثيابك فطهِّر * والرجزَ فاهجُر﴾. ثم حَمِي الوحي [بعدُ][4] وتتابع»[5]. أخرجاه من حديث الزهري، به[5].

وقال الطبراني: حدَّثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار، حدَّثنا الحسنُ بن بِشر البَجَليّ، حدَّثنا المُعافى بن عِمران، عن إبراهيم بن يزيدَ، سمعتُ ابن أبي مُلَيكة يقول: سمعتُ ابن عباس يقول: إنَّ الوَليد بن المغيرة صَنَع لِقُرَيشٍ طعاماً، فلما أكلوا. قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحرٌ. وقال بعضهم: ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهنٌ. وقال بعضهم: ليس بكاهنٍ. وقال بعضهم: شاعرٌ. وقال بعضهم: ليس بشاعر. وقال بعضهم: سحرٌ يُؤثَر. فأجمعَ رأيهم على أنه سحرٌ يؤثر. فبلغ ذلك النبيَّ ـ ﷺ ـ فحزِن وقنَّع رأسَه[6]، وتدثَّر، فأنزل الله ﴿يا أيها المدثِّر * قم فأنذِر * وربَّك فكبِّر * وثيابَك فطهِّر * والرُّجزَ فاهجُر * ولا تمنُن تستكثِرُ * ولربك فاصبِر﴾[7].

فقولُه: ﴿قُم فأنذِرْ﴾، أي: شمِّر عن ساقِ العَزْمِ، وأنذِر الناس. وبهذا حَصَل الإرسالُ كما حَصَل بالأوَّلِ النُّبوَّةُ. ﴿وربَّك فكبِّر﴾، أي: عظِّم.

وقوله: ﴿وثيابَك فطهِّر﴾، قال الأجلحُ الكِنديُّ، عن عِكْرمةَ، عن ابن عباس: أنه أتاه رجلٌ فسأله عن هذه الآية: ﴿وثيابَك فطهِّر﴾، قال: لا تلبسها على معصيةٍ ولا على غَدْرة. ثم قال: أما سمعتَ قول غيلانَ بن سلَمة الثَّقفيِّ[8]:

---

(١) أي: احتباسه وعدم تتابعه وتواليه في النزول.
(٢) أي: فزعتُ ورُعبتُ. ويروى: فجُثِثْتُ، بالهمز مكان الثاء الأولى، وهو بمعناه.
(٣) فتح الباري، كتاب التفسير ٦٧٨/٨ ـ ٦٧٩، ومسلم، كتاب الإيمان ١٤٣/١.
(٤) عن المسند.
(٥) مسند الإمام أحمد ٣٢٥/٣، وفتح الباري، كتاب بدء الخلق ٣١٤/٦، ومسلم، كتاب الإيمان ١٤٣/١.
(٦) أي: غطاه.
(٧) أخرجه في المعجم الكبير ١٢٥/١١ ـ ١٢٦. وانظر مجمع الزوائد ١٣١/٧.
(٨) شاعر مُخضرم أدرك الإسلام، عده ابن سلام من شعراء الطائف، والبيت في تفسير الطبري ١٤٥/٢٩، ولسان العرب: ثوب.

فَـإنِّي بِحَمْـدِ اللهِ لَا ثَـوبَ فَـاجِـرٍ لَبِسْـتُ، ولا مِـن غَـدْرَةٍ أَتَقَنَّـعُ

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وثيابك فطهر﴾، قال: في كلام العرب: نقِيُّ الثياب. وفي رواية بهذا الإسناد: فَطَهِّر من الذنوب. وكذا قال إبراهيمُ، والشعبيُّ، وعطاءٌ.

وقال الثوريُّ، عن رَجُلٍ، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وثيابَكَ فطهِّر﴾، قال: من الإثم. وكذا قال إبراهيمُ النخعيّ.

وقال مجاهدٌ: ﴿وثيابَكَ فَطَهِّر﴾، قال: نفسك، ليس ثيابه. وفي رواية عنه: ﴿وثيابَكَ فطهِّر﴾: عَمَلك فأصلِحْ. وكذا قال أبو رَزِين. وقال في رواية أخرى: ﴿وثيابَكَ فطهِّر﴾، أي: لست بكاهنٍ ولا ساحرٍ، فأعرض عما قالوا. وقال قتادة: ﴿وثيابَكَ فَطَهِّر﴾، أي: طهرها من المعاصي، وكانت العربُ تُسمِّي الرجل إذا نكث ولم يَفِ بعهدِ الله: إنه لَدَنِسُ الثيابِ، وإذا وفى وأصلح: إنه لَمُطَهَّرُ الثيابِ. وقال عكرمة، والضحاكُ: لا تلبسها على معصية. وقال الشاعر[1]:

إذا المرءُ لم يَدْنَس مِنَ اللُّؤمِ عِرْضُه فَـكُـلُّ رِداءٍ يَرْتَـديـه جَـمِـيـلُ

وقال العَوفي، عن ابن عباسٍ: ﴿وثيابَكَ فطهِّر﴾، يعني لا تَكُ ثيابُكَ التي تلبَسُ من مكسب غير طائب، ويقال: لا تَلْبَسْ ثيابَكَ على مَعصِيَةٍ. وقال محمد بن سيرينَ: ﴿وثيابَكَ فطهِّر﴾، أي: اغسِلها بالماء. وقال ابنُ زيدٍ: كان المشركون لا يَتَطهَّرون، فأمره الله أن يَتطهَّر وأن يُطَهِّر ثيابه. وهذا القول اختاره ابنُ جريرٍ، وقد تشمل الآية جميعَ ذلك مع طهارةِ القلبِ، فإنَّ العربَ تُطلِق الثيابَ عليه، كما قال امرؤ القيس[2]:

أفاطِمَ مَهلاً بعضَ هـذا التَـدَلُّـلِ وَإن كُنتِ قَد أزْمَعْتِ هَجْري فأجْمِلي

وَإن تَـكُ قـد سَـاءَتـكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَـابي مِن ثِيَـابِـكِ تَنْـسُـلِ

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿وثيابَكَ فَطَهِّر﴾: وقلبَكَ ونيَّتك فطهِّر. وقال محمد بن كعب القُرَظي، والحسن البصريُّ: وخُلُقَكَ فَحَسِّن.

وقولُه: ﴿والرُّجزَ فاهجُر﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿والرُّجزَ﴾ وهو الأصنامُ فاهجُر. وكذا قال مجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وقتادةُ، والزهريُّ، وابنُ زيدٍ: إنها الأوثان. وقال إبراهيمُ، والضحَّاكُ: ﴿والرجز فاهجر﴾، أي: اتركِ المعصيةَ. وعلى كل تقدير فلا يلزمُ تَلَبُّسه بشيءٍ من ذلك، كقوله: ﴿يا أيها النبيُّ اتقِ الله ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقين﴾، ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلُفني في قومي وأصلحْ ولا تتبع سبيل المُفسدين﴾.

وقولُه: ﴿ولا تَمنُن تستكثرُ﴾، قال ابن عباس: لا تُعطِ العَطِيَّةَ تلتمِسُ أكثرَ منها. وكذا قال عِكرِمةُ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، وطاوسٌ، وأبو الأحوص، وإبراهيمُ النخعيُّ، والضحَّاك، وقتادةُ، والسُّدِّي، وغيرُهم. ورُوِي عن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿ولا تمنن أن تستكثر﴾[3]. وقال الحسن البصري: لا تمنُن بعملك على ربِّك تستكثره. وكذا قال الربيعُ بن أنس، واختاره ابنُ جرير. وقال خُصَيف، عن مجاهد في قوله: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾، قال: لا تَضعُف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب: تضعف[4]. وقال ابنُ زيدٍ: لا

---

(١) دُكين بنُ رجاء، شاعر وراجز أمويّ، انظر أخباره في الشعر والشعراء لابن قتيبة، والبيت في الشعر أيضاً ٦١٢/٢.

(٢) من معلقته، انظر ديوانه ١٢ ـ ١٣.

(٣) تفسير الطبري ١٥٠/٢٩.

(٤) تفسير الطبري ١٤٩/٢٩.

تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا. فهذه أربعة أقوال، والأظهرُ القولُ الأول، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ولربك فاصبر﴾، أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قاله مجاهد. وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: اصبر عَطِيَّتَكَ لله عزَّ وجلَّ.

وقولُه: ﴿فإذا نُقر في الناقور * فذلك يومئذ يومٌ عسير * على الكافرين غيرُ يسير﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والشعبيُّ، وزيدُ بن أسلمَ، والحسنُ، وقتادة، والضحَّاك، والربيعُ بن أنس، والسُّدِّي، وابنُ زيدٍ: ﴿الناقور﴾: الصُّورُ، قال مجاهد: وهو كهيئة القرن.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا أسباطُ بن محمد، عن مُطَرِّف، عن عَطِيَّةَ العَوفِيِّ، عن ابن عباس: ﴿فإذا نُقر في الناقور﴾، فقال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كيف أنعمُ وصاحِبُ القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، ينتظرُ متى يُؤمر فينفخ؟»، فقال أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»[1].

وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ عن أسباط، به[1]. ورواه ابنُ جرير عن أبي كُرَيب، عن ابن فُضَيلٍ وأسباطٍ، كلاهما عن مُطَرِّف، به. ورواه من طريقٍ أخرى، عن العَوفي، عن ابن عباس، به[1].

وقولُه: ﴿فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ﴾، أي: شديدٌ، ﴿على الكافرين غيرُ يسير﴾، أي: غيرُ سهلٍ عليهم. كما قال تعالى: ﴿يقولُ الكافرون هذا يوم عَسِر﴾.

وقد روينا عن زُرارة بن أوفى قاضي البصرة أنه صلَّى بهم الصُّبح، فقرأ هذه السورة، فلمَّا وصلَ إلى قوله: ﴿فإذا نُقر في الناقور * فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ * على الكافرين غيرُ يسير﴾، شهق شهقةً، ثم خرَّ ميِّتاً رحمه الله[2].

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُتَوعِّداً لهذا الخبيث الذي أنعمَ اللهُ عليه بنِعَمِ الدُّنيا، فكفر بأنعُمِ الله، وبدَّلها كُفراً، وقابلها بالجُحودِ بآيات الله والافتراءِ عليها، وجعلها من قول البشر. وقد عدَّد الله نِعَمه حيثُ قال: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾، أي: خرج من بطن أُمِّه وحدَه لا مالَ له ولا ولد، ثم رزقه الله ﴿مالاً ممدوداً﴾، أي: واسعاً كثيراً. قيل: ألف دينار. وقيل: مائة ألف دينار. وقيل: أرضاً يستغلها. وقيل غيرُ ذلك. وجعل له ﴿بنينَ شُهوداً﴾، قال

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١١٠، ١٧٣ من سورة آل عمران، ٩٩ من سورة الكهف، ٢٠ من سورة ﴿ق﴾. وخرجناه هنالك. وانظر تفسير الطبري ٢٩/١٥١.

(٢) نظر العبر للذهبي ١/١٠٩

مجاهد: لا يَغيبُون، أي: حُضوراً عنده لا يسافرون في التجارات، بل مَوَاليهم وأُجراؤهم يَتولَّون ذلك عنهم وهم قُعودٌ عند أبيهم، يتمتع بهم ويَتملَّى بهم. وكانوا ـ فيما ذكر السُّدِّي، وأبو مالك، وعاصمُ بن عُمَر بن قتادة ـ ثلاثة عشر. وقال ابن عباس، ومجاهدٌ: كانوا عَشَرةً. وهذا أبلغ في النعمة [وهو إقامتهم عنده][1].

﴿ومهَّدت له تَمهيداً﴾، أي: مكَّنته من صُنوف المالِ والأثاثِ وغير ذلك، ﴿ثم يطمَعُ أن أزيد * كلَّا إنه كان لآياتنا عنيداً﴾، أي: مُعانداً، وهو الكفرُ على نِعَمِه بعد العلم. قال الله: ﴿سأُرهِقُه صَعُوداً﴾، قال الإمام أحمد:

حَدَّثنا حسن، حَدَّثنا ابن لهيعة، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسُول الله ـ ﷺ ـ قال: «ويل: وادٍ في جَهنَّم، يَهوي فيه الكافرُ أربعين خريفاً قبل أن يبلُغ قعرَه، والصَّعُود جَبَلٌ من نارٍ يصعَدُ فيه سبعين خريفاً، ثم يَهوي به كذلك فيه أبداً»[2].

وقد رواه الترمذي عن عبد بن حُمَيد، عن الحسن بن موسى الأشيب، به. ثم قال: «غريبٌ، لا نعرفه إلَّا من حديث ابن لهيعةَ عن دَرَّاج»[2]. كذا قال. وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج. وفيه غرابة ونكارة[2].

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبو زُرعَة وعلي بن عبد الرحمن ـ المعروف بعلَّان المصري[3] ـ قال: حَدَّثنا مِنجابٌ، أخبرنا شَريك، عن عمار الدُّهنيّ، عن عَطِيَّة العَوفي، عن أبي سعيد، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿سأُرهِقُه صَعُوداً﴾، قال: «هو جبلٌ في النار من نارٍ يُكَلَّف أن يصعَده، فإذا وضَع يده ذابت، وإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجلَه ذابت، وإذا رفعَها عادت».

ورواه البزار وابن جرير، من حديث شَريك، به[4].

وقال قتادة، عن ابن عباس: صَعُودٌ صخرَة عظيمة يُسحب عليها الكافر على وجهه. وقال السُّدِّي: صعودٌ صخرةٌ ملساءُ في جهنم، يُكَلَّف أن يصعَدَها. وقال مجاهد: ﴿سأُرهِقه صَعُوداً﴾، أي: مشقةً من العذاب. وقال قتادة: عذاباً لا راحةَ فيه. واختاره ابنُ جَرير[4].

وقوله: ﴿إنَّه فكَّر وقدَّر﴾، أي: إنما أرهقناه صَعُوداً، أي: قرَّبناه من العذاب الشاق؛ لِبُعده عن الإيمان، لأنه فكَّر وقدَّر، أي: تَرَوَّى ماذا يقولُ في القرآن حين سُئِل عن القرآن، ففكَّر ماذا يختلق من المَقال، ﴿وقدَّر﴾، أي: تَرَوَّى، ﴿فَقُتِل كيف قدَّر * ثم قُتِل كيف قدَّر﴾، دعاءٌ عليه، ﴿ثم نَظَر﴾، أي: أعاد النَّظر والتروِّي، ﴿ثم عَبَس﴾، أي: قَبَض بين عينيه وقطَّب، ﴿وبَسَر﴾، أي: كَلَحَ وكره، ومنه قولُ توبة بن الحُمَير الشاعر[5]:

وَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا صُدُودٌ رَأَيْتُه ... وإعراضُها عن حاجَتِي وبُسُورُها

---

(١) عن الطبعات السابقة، وغير ثابت في النسخ.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٧٥، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المدثر ١٢/٢٢٥ ـ ٢٢٦، وتفسير الطبري ٢٩/١٥٥. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٧٩ من سورة البقرة.

(٣) في النسخ: البصري، والمثبت عن الجرح لابن أبي حاتم ٦/١٩٥.

(٤) تفسير الطبري ٢٩/١٥٥.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/٢٧٥، وتفسير الطبري ٢٩/١٥٦.

وقولُه: ﴿ثم أدبَرَ واستكبر﴾، أي: صُرِف عن الحقِّ ورَجَع القهقرى مُستكبراً عن الانقيادِ للقرآنِ، ﴿فقال إن هذا إلا سحرٌ يُؤثَرُ﴾، أي: هذا سحرٌ ينقلُه محمدٌ عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال: ﴿إن هذا إلا قولُ البَشَرِ﴾، أي: ليس بكلامِ الله.

وهذا المذكورُ في هذا السياقِ هو الوليدُ بنُ المغيرة المخزوميُّ، أحد رؤساء قُرَيشٍ ـ لعنه الله ـ وكان من خبره في هذا ما رواه العَوفي، عن ابن عبَّاس قال: دخل الوليدُ بنُ المغيرة على أبي بكر بن أبي قُحافة فسأله عن القرآن، فلمَّا أخبره خرج على قُرَيشٍ فقال: يا عجباً لما يقولُ ابنُ أبي كبشة! فوالله ما هو بشعرٍ ولا بسحرٍ ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سَمِع بذلك النفرُ من قُرَيشٍ ائتمروا فقالوا: والله لئن صبأ الوليدُ لَتصبُوَنَّ قُرَيشٌ. فلما سَمِع بذلك أبو جَهل بنُ هشام قال: أنا والله أكفيكُم شأنه. فانطلق حتى دَخَل عليه بيته فقال للوليدِ: ألم تَرَ قومَكَ قد جمعُوا لك الصدَقة؟ فقال: ألستُ أكثرَهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يَتحدَّثون أنك إنما تدخُل على ابن أبي قُحافة لِتُصيبَ من طَعامه. فقال الوليدُ: أقد تحدَّثَ به عشيرتي؟! فلا والله لا أقربُ ابنَ أبي قُحافة، ولا عُمَرَ، ولا ابنَ أبي كبشة، وما قولُه إلا سحرٌ يُؤثَر. فأنزل الله على رَسُوله ـ ﷺ ـ: ﴿ذَرْني ومن خلقتُ وَحيداً﴾ إلى قوله: ﴿لا تُبقِي ولا تَذَرُ﴾[1].

وقال قتادةُ: زعمُوا أنه قال: والله لقد نظرتُ فيما قال الرجُل فإذا هو ليس بشعرٍ، وإن له لحلاوةً، وإن عليه لطلاوةً، وإنه ليعلُو وما يُعلى، وما أشكُّ أنه سحرٌ. فأنزل الله: ﴿فقُتِلَ كيفَ قدَّر﴾... الآية، ﴿ثم عَبَس وبَسَر﴾: قبَض ما بين عينيه وكَلَحَ[1].

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابنُ عبد الأعلى، أخبرنا محمد بن ثور، عن معمرٍ، عن عَبَّاد بن منصور، عن عِكْرِمة: أنَّ الوليدَ بنَ المُغيرة جاء إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له. فبلغ ذلك أبا جهل بنَ هشام، فأتاه فقال: أَي عَمِّ، إنَّ قومك يُريدون أن يجمعُوا لك مالاً. قال: لِمَ؟ قال: يُعطونكَهُ، فإنك أتيت محمداً تتعرَّضُ لما قِبَله. قال: قد عَلِمت قُرَيشٌ أني أكثرُها مالاً. قال: فقُل فيه قولاً يعلَمُ قومُك أنك مُنكِرٌ لما قال، وأنك كارهٌ له. قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجلٌ أعلَمُ بالأشعارِ مني، ولا أعْلَمُ برَجَزِه ولا بقصيدِه ولا بأشعار الجِنِّ، والله ما يُشبه الذي يقولُ شيئاً من ذلك. والله إن لقوله الذي يقولُ لحلاوةً، وإنه لَيَحطِمُ ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعلَى. قال: والله لا يَرضى قومُك حتى تقولَ فيه. قال: فدَعني حتى أُفكِّرَ فيه. فلما فكَّر قال: هذا سحرٌ يأثُره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرْني ومَن خلقتُ وَحيداً﴾ [قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيداً]، حتى بلغ: ﴿تِسعةَ عشرَ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيرُ واحدٍ نحواً من هذا. وقد زعم السُّدِّي أنهم لمَّا اجتمعُوا في دار الندوة لِيُجمِعُوا رأيهم على قولٍ يقولونه فيه، قبل أن يَقدَمَ عليهم وفودُ العرب للحجِّ ليصدُّوهم عنه، فقال قائلون: شاعرٌ. وقال آخرون: ساحرٌ. وقال آخرون: كاهنٌ. وقال آخرون: مجنونٌ. كما قال تعالى: ﴿انظُر كيف ضربُوا لكَ الأمثالَ فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾، كلُّ هذا والوليد يُفكِّر فيما يقولُه فيه، ففكَّر وقدَّر، ونَظَر وعَبَس وبَسَر، فقال: ﴿إن هذا إلا سحرٌ يُؤثَر • إن هذا إلا قولُ البشر﴾، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿سأُصليه سَقَر﴾، أي: سأغمره فيها من جميع جهاته. ثم قال: ﴿وما أدراكَ ما سَقَرُ﴾، وهذا تهويلٌ لأمرها وتفخيمٌ. ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿لا تُبقي ولا تذَرُ﴾، أي: تأكلُ لحومهم وعُروقهم وعَصَبهم وجُلُودَهم، ثم تُبدَّل غيرَ ذلك، وهم في ذلك لا يموتُون ولا يَحْيَون، قاله ابن بُرَيدة وأبو سِنانٍ وغيرهما.

---

(١) أخرجهما الطبري ٢٩/١٥٥. وكلح فلان كُلوحاً: عَبَس وزاد عبوسُه.

وقولُه: ﴿لوّاحةٌ للبَشَرِ﴾، قال مجاهد: للجلد، وقال أبو رزين: تلفَحُ الجلدَ لفحةً فتدَعُه أسودَ من الليل. وقال زيدُ بن أسلمَ: تَلُوح أجسادُهم عليها. وقال قتادة: ﴿لَوّاحةٌ للبشرِ﴾، أي: حَرّاقةٌ للجلد. وقال ابنُ عباس: تحرِقُ بَشَرةَ الإنسانِ.

وقولُه: ﴿عليها تسعةَ عَشَرَ﴾، أي: من مُقَدَّمي الزبانيةِ، عَظيمٌ خَلقُهم، غليظٌ خُلُقُهم.

وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرعةَ، حدَّثنا إبراهيمُ بن موسى، حدَّثنا ابن أبي زائدةَ، أخبرني حُرَيثٌ، عن عامر، عن البَرَاء في قوله: ﴿عليها تسعةَ عَشَرَ﴾، قال: إن رهطاً من اليَهودِ سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ عن خَزَنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم. فجاء رجلٌ فأخبر النبيَّ ـ ﷺ ـ فنزل عليه ساعتئذ ﴿عليها تسعةَ عَشَرَ﴾. فأخبر أصحابه وقال: «ادعهُم، أما إني سائلُهم عن تُربَة الجنة إن أتوني، أما إنها دَرْمَكَة[1] بيضاء». فجاءوا فسألوه عن خَزَنة جَهنَّم، فأهوى بأصابع كَفّيه مرَّتين وأمسك الإبهام في الثانية، ثم قال: «أخبروني عن تُربةِ الجنّة». فقالوا: أخبرهُم يا ابنَ سَلام. فقال: كأنها خُبزَة بيضاء. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أما إن الخُبزَ إنما يكون من الدَّرمَك».

هكذا وقَع عند ابن أبي حاتم عن البرَاء، والمشهُور عن جابر بن عبد الله، كما قال الحافظ أبو بكر البزّار في مُسنَدِه:

حدَّثنا أحمد بن عَبْدَةَ، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم، حدَّثنا سفيان، عن مجالدٍ، عن الشعبيِّ، عن جابر بن عبد الله قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: يا محمدُ، غُلِبَ أصحابُك اليومَ. فقال: «بأيِّ شيء؟» قال: سألتهم يهودُ هل أعلمكم نبيُّكم عِدّة خَزَنةِ أهل النار؟ قالوا: لا نعلمُ حتى نسألَ نبيَّنا ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «أفغُلِبَ قومٌ سُئلوا عما لا يَدْرُون فقالوا: لا ندري حتى نسأل نبيَّنا؟ عليَّ بأعداءِ الله، لكن قد سألوا نبيَّهم أن يُريهم الله جَهرةً!» فأرسَلَ إليهم فدعاهُم قالوا: يا أبا القاسم، كم عِدّةُ خزنةِ أهل النار؟ قال: هكذا، وطَبّق كَفَّيه، ثم طَبّق كَفَّيه، مرّتين، وعَقَد واحدةً، وقال لأصحابه: «إن سُئلتم عن تُربةِ الجنة فهي الدَّرمَك». فلما سألُوه فأخبرهم بعِدّةِ خَزَنةِ أهل النار قال لهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما تُربَةُ الجنة؟» فنظر بعضُهم إلى بعض، فقالوا: خُبزَةٌ يا أبا القاسم. فقال: «الخبزُ من الدَّرمَك».

وهكذا رواه الترمذيُّ عند هذه الآية عن ابن أبي عُمَر، عن سُفيانَ، به. وقال هو والبزار: «لا نعرِفه إلا من حديث مجالد»[2] وقد رواه الإمامُ أحمد، عن علي بن المديني، عن سفيان، بقصّةِ الدَّرمَك فقط[3].

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ
وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَٱلْقَمَرِ (٣٢) وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا
لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾

يقولُ تعالى: ﴿وما جَعَلنا أصحابَ النار﴾ أي: خُزّانها ﴿إلا ملائكةً﴾، أي: زبانيةً غلاظاً شداداً. وذلك

---

(١) الدَّرْمَكُ: الدقيق الحُوّارى، وهو الذي نُخل مرةً بعد أخرى.
(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة المدثر ١٢/٢٢٦، ومسند الإمام أحمد ٣/٣٦١.

رَدٌّ على مشركي قُرَيش حين ذكَر عدد الحزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قُريش، أما يستطيعُ كلُّ عشرةٍ منكم بواحد منهم فتغلبوهم؟ فقال الله: ﴿وما جَعلنا أصحاب النار إلا ملائكةً﴾، أي: شديدي الخَلْق لا يُقاوَمون ولا يُغالَبون. وقد قيل: إن أبا الأشدَّين ـ واسمُه: كلدة بن أسِيد بن خَلَف ـ قال: يا معشرَ قُريش، اكفُوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعةَ عَشَر، إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القُوَّة ـ فيما يزعُمون ـ أنه كان يَقِف على جلد البقر ويُجاذِبه عشرةٌ لينتزعُوه من تحت قدميه، فيتمزَّق الجلدُ ولا يَتزحزحُ عنه. قال السهيلي: وهو الذي دعا رسولَ الله ـ ﷺ ـ إلى مُصارعته وقال: إن صَرَعتني آمنتُ بك. فصَرعه النبيُّ ـ ﷺ ـ مراراً، فلم يُؤمِن. قال: وقد نسب ابنُ إسحاق خبر المصارعة إلى رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب[1].

قلت: ولا منافاة بين ما ذكراه، والله أعلم.

﴿وما جعلنا عِدَّتهم إلا فتنةً للذين كفروا﴾، أي: إنما ذكرنا عِدَّتهم أنهم تسعة عشرَ اختباراً منّا للناس، ﴿ليَستيقنَ الذين أوتوا الكتاب﴾، أي: يعلمون أن هذا الرسولَ حَقٌّ؛ فإنه نَطَق بمطابقة ما بأيديهم من الكُتُب السماويَّة المنزَّلة على الأنبياء قبله.

﴿ويَزدادَ الذين آمنُوا إيماناً﴾، أي: إلى إيمانهم، أي: بما يشهدُون من صدقِ إخبار نَبيِّهم محمد ـ ﷺ ـ ﴿ولا يرتابَ الذين أوتُوا الكتابَ والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبهم مَرضٌ﴾، أي: من المنافقين ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي يقولون: ما الحكمةُ في ذكْر هذا هاهنا؟ قال الله تعالى: ﴿كذلك يُضلُّ الله مَن يشاء ويهدي مَن يشاء﴾، أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكَّدُ الإيمانُ في قلوبِ أقوامٍ، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمةُ البالغةُ، والحجَّةُ الدامغةُ.

وقولُه: ﴿وما يعلَمُ جنودَ ربِّك إلا هو﴾، أي: ما يعلَمُ عددَهُم وكثرتَهُم إلا هو تعالى، لئلا يَتوهَّم مُتوهِّم أنما هم تسعة عشر فقط كما قد قاله طائفةٌ من أهل الضَّلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملَّتين الذين سَمعوا هذه الآية، فأرادوا تنزيلها على العُقول العشرة والنفوس التسعة، التي اخترعوا دعواها وعَجزُوا عن إقامةِ الدلالة على مقتضاها، فأفهمُوا صدرَ الآية وقد كفرُوا بآخرها، وهو قوله: ﴿وما يعلَمُ جنودَ ربِّك إلا هو﴾. وقد ثبت في حديث الإسراءِ المَروي في الصحيحَين وغيرهما، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال في صِفة البيتِ المعمُورِ الذي في السماء السابعة: «فإذا هو يدخله في كلِّ يوم سبعون ألف ملك، لا يعودُون إليه آخرَ ما عليهم»[2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أسوَدُ، حدَّثنا إسرائيلُ، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن مُوَرِّق، عن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني أرى ما لا تَرَون، وأسمَعُ ما لا تسمَعون، أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تئِطَّ، ما فيها موضع أربع أصابعَ إلا عليه مَلَكٌ ساجدٌ، لو علمتم ما أعلم لضحكتُم قليلاً ولبكَيتم كثيراً، ولا تلذَّذتم النساء على الفُرُشات، ولخرجتم إلى الصُّعُدات، تجأرون إلى الله عزَّ وجلَّ». فقال أبو ذر: والله لودِدتُ أني شجرة تُعضَد[3].

---

(١) انظر هذا الخبر في الروض الأنف للسهيلي ١/٢٠٠، ودلائل النبوة للبيهقي ٦/٢٥٠

(٢) انظره في مفتتح سورة الإسراء، وأول سورة الطور.

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/١٧٣، وأخرجه الترمذي وابن ماجه في كتاب الزهد من سننهما، عارضة الأحوذي ٩/١٩٤، وابن ماجه ٢/١٤٠٢ والأطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي: إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها، وهذا مثل بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثمّ أطيط. والصُّعُدات: الطرق، وهي جمع صُعُد، وصُعُد: جمع صعيد.

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: «حسنٌ غريبٌ، ويُروى عن أبي ذرٍّ موقوفاً».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا جبر بن عرفة[1] المصري، حدثنا عُرْوَة بن مروان الرَّقِّي، حدَّثنا عُبيد الله بن عَمرو، عن عبد الكريم بن مالك، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما في السموات السبع موضعُ قدَمٍ ولا شبرٍ ولا كفٍّ إلا وفيه ملكٌ قائمٌ، أو ملكٌ ساجدٌ، أو ملكٌ راكعٌ، فإذا كان يومُ القيامة قالوا جميعاً: سبحانَكَ! ما عَبَدناكَ حقَّ عبادتكَ إلا أنا لم نُشرك بك شيئاً»[2].

وقال محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة»: حدَّثنا عمرو بن زُرارة، أخبرنا عبدُ الوهاب بن[3] عطاء، عن سَعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحرِزٍ، عن حكيم بن حِزامٍ قال: بينما رسولُ الله ـ ﷺ ـ مع أصحابه إذ قال لهم: هل تسمَعُون ما أسمعُ؟ قالوا: ما نسمعُ من شيء؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أطيطُ السماء وما تُلَام أنْ تَئِطَّ، ما فيها موضِعُ شبرٍ إلا وعليه مَلَكٌ راكعٌ أو ساجدٌ».

وقال أيضاً: حدَّثنا محمد بن عبد الله بن قُهْزاذَ، حدَّثنا أبو معاذ الفضلُ بن خالد النحوي، حدَّثنا عبيد بن سليمان الباهلي، سَمِعتُ الضحَّاكَ بن مزاحم يُحدِّث عن مسروق بن الأجدع، عن عائشةَ أنها قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما في السماء الدنيا موضعُ قَدَمٍ إلا عليه ملكٌ ساجدٌ أو قائم، وذلك قول الملائكة: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم ۞ وإنا لنحن الصافون ۞ وإنا لنحن المسبّحون﴾[4]».

وهذا مرفوعاً غريبٌ جدًّا، ثم رواه عن محمود بن آدمَ، عن أبي معاويةَ، عن الأعمش، عن أبي الضُّحَى، عن مسروقٍ، عن ابن مسعودٍ أنه قال: إن من السموات سماءً ما فيها موضعُ شبرٍ إلا وعليه جبهةُ ملكٍ أو قدماه قائماً، ثم قرأ: ﴿وإنا لنحن الصافون ۞ وإنا لنحنُ المُسبّحون﴾.

ثم قال: حَدَّثنا أحمد بن سيار، حدَّثنا أبو جعفر محمدُ بنُ خالد الدمشقي المعروفُ بابن أَمَة، حدثني المغيرة بن عمر بن عَطية من بني عَمرو بن عوف، حدَّثني سليمان بن أيُّوبَ من بني سالم بن عوف، حدَّثني عطاءُ بن زيد بن مسعود من بني الحُبْلَي، حدَّثني سليمان بن عمرو بن الربيع من بني سالم، حدَّثني عبد الرحمن بن العلاء من بني ساعدةَ، عن أبيه العلاء بن سعد، وقد شَهِد الفتح وما بعده: أن النبي ـ ﷺ ـ قال يوماً لجلسائه: «هل تسمعون ما أسمع؟ قالوا: وما تسمَعُ يا رسول الله؟ قال: أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، إنه ليس فيها موضعٌ قَدَم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد، وقالت الملائكة: ﴿وإنا لنحنُ الصافُّون ۞ وإنا لنحن المُسبِّحون﴾». وهذا إسنادٌ غريبٌ جداً.

ثم قال: حدَّثنا إسحاق بن محمد بن إسماعيل الفَرَويّ، حدَّثنا عبدُ الملك بن قدامةَ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينارٍ، عن أبيه، عن عبد الله بن عُمَر: أن عمر جاء والصلاةُ قائمةٌ، ونَفَرٌ ثلاثةٌ جلوسٌ، أحدُهم أبو جَحشٍ الليْثي، فقال: قوموا فصلُّوا مع رسول الله. فقام اثنان وأبى أبو جَحشٍ أن يقوم، وقال: لا

---

(١) في النسخ: حسين بن عرفة. والمثبت عن المؤتلف والمختلف للدارقطني ٢/ ٣٨٠، والمعجم الكبير
(٢) أخرجه في المعجم الكبير ٢/ ١٨٤، وانظر مجمع الزوائد ١/ ٥٢.
(٣) في النسخ: عبد الوهاب عن عطاء. والمثبت عن سند ابن أبي حاتم في روايته لهذا الحديث عند تفسير آية التوبة ١١٦، والأنبياء ٢٠ وانظر ترجمة عبد الوهاب بن عطاء في الجرح ٦/ ٧٢
(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٦٥ من سورة الصافات.

أقوم حتى يأتي رجلٌ هو أقوى مني ذراعين، وأشدُّ مني بطشاً فيصرعَني، ثم يدسَّ وجهي في التراب. قال عمر: فصرعته ودسست وجهه في التراب، فأتى عثمانُ بنُ عفَّان فحجزني عنه، فخرج عُمر مغضباً حتى انتهى إلى رسولِ الله - ﷺ - فقال: ما رابَكَ يا أبا حَفْص؟ فذكر له ما كان منه، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ رضي عُمَر رَحْمَةٌ، والله لَوَدِدْتُ أنَّك جئتني برأس الخبيث. فقام عمر فوَجَّه[1] نحوه، فلما أبعد ناداه فقال: اجلس حتى أُخبِرَكَ بغنَى الربِّ - عزَّ وجلَّ - عن صلاة أبي جَحْش، إن لله في السماء الدنيا ملائكةً خُشوعاً لا يرفعُون رُءُوسَهم حتى تقومَ الساعةُ، فإذا قامت رَفَعُوا رُءُوسَهم، ثم قالوا: رَبَّنا، ما عبدناك حَقَّ عبادَتِك، وَإنَّ لله في السماءِ الثانيةِ ملائكةً سُجُوداً لا يرفعُون رُءوسهم حتى تقوم الساعة، فإذا قامت رَفعُوا رُءُوسَهم، وقالوا[2]: سُبحانَكَ ما عبَدناك حَقَّ عِبادتِك. وإن لله في السماء الثالثة ملائكةً ركوعاً لا يرفعون رءوسهم حتى تقومَ الساعةُ، فإذا قامت الساعةُ رفعوا رءُوسهم وقالوا: سبحانك! ما عَبَدنك حقَّ عبادتك. فقال له عُمَر: وما يقولون يا رسولَ الله؟ فقال: أما أهلُ السماءِ الدُّنيا فيقولُون: سبحانَ ذِي المُلك والمَلَكُوت. وأما أهلُ السماءِ الثانية فيقولون: سبحانَ ذِي العِزَّةِ والجَبَرُوتِ. وأما أهل السماء الثالثة فيقولون: سبحان الحيِّ الذي لا يَمُوت. فَقُلها يا عُمَر في صلاتك. فقال عُمَر: يا رسول الله، فكيف بالذي كُنتَ عَلَّمتني وأمرتني أن أقوله في صلاتي؟ فقال: قل هذا مَرَّةً وهذا مرَّةً، وكانَ الذي أمره به أن يقولَه: أعوذ بعَفْوِكَ من عِقابِكَ، وأعوذُ بِرِضَاكَ من سَخَطِكَ، وأعوذ بِكَ مِنْكَ، جَلَّ وجهُكَ.

هذا حديثٌ غريبٌ جداً[3]، بل مُنكر نكارةً شَديدةً، وإسحاقُ الفَرْوِي روى عنه البخاريُّ، وذكَرَه ابنُ حِبَّان في الثقات وضَعَّفه أبو داود والنسائي والعُقَيلي والدارَقُطنيّ. وقال أبو حاتم الرازي: «كان صَدُوقاً إلا أنه ذَهَب بصرُه فرُبَّما لُقِّن وكتبه صحيحة»[4] وقال مرةً: هو مُضطربٌ، وشيخُه عبدُ الملك بن قُدَامة أبو قتادَة الجُمَحيُّ تُكُلِّم فيه أيضاً. والعَجَبُ من الإمام محمدُ بن نصر كيف رَوَاه ولم يَتكلَّم عليه، ولا عرَّف بحالِه، ولا تَعرَّض لِضَعفِ بعضِ رجالِه؟! غير أنه رَوَاه من وجهٍ آخَرَ عن سعيد بن جُبَير مُرسَلاً بنحوه. ومن طريق أخرى عن الحسن البصري مُرسَلاً قريباً منه.

ثم قال محمد بن نصر:

حدَّثنا محمد بن عبد الله بن قهزاذ، أخبرنا النضرُ، أخبرنا عَبَّاد بن منصور قال: سَمِعتُ عَدِيَّ بن أرطاةَ وهو يخطُبنا على مِنبَر المدائن قال: سَمِعتُ رَجُلاً من أصحاب النبيِّ - ﷺ - عن رسولِ الله - ﷺ - قال: إن لله ملائكةً تُرعَد فرائِصُهم من خِيفته، ما منهم مَلَكٌ تقطُر منه دمعةٌ من عَينِه إلا وَقَعت مَلَكاً يُصَلِّي، وإنَّ منهم ملائكةً سُجوداً منذ خَلَق الله السمواتِ والأرض لم يرفعُوا رُءوسهم ولا يرفعُونها إلى يومِ القيامة. وإن منهم ملائكةً ركوعاً لم يَرفعُوا رءوسهم منذ خَلَق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفَعُوا رُءُوسهم نظروا إلى وجه الله - عزَّ وجلَّ - قالوا: سبحانَكَ! ما عبدناك حق عبادتك. وهذا إسنادٌ لا بأسَ به.

وقولُه: ﴿وما هِيَ إلَّا ذِكرى للبَشَر﴾، قال مجاهدٌ وغيرُ واحدٍ: ﴿وما هِيَ﴾، أي: النارُ التي وصفتُ، ﴿إلا ذِكرى للبَشَر﴾.

---

(١) أي: اتجه.

(٢) في نسخة: فقالوا. وفي أخرى: ثم قالوا.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة ٣/٨٧ - ٨٨، بإسناده إلى إسحق الفَرْوي.

(٤) الجرح والتعديل ٢/٢٣٣

ثم قال: ﴿كلاّ والقمر * والليلِ إذ أدبر﴾، أي: ولّى، ﴿والصّبحِ إذا أسفَرَ﴾، أي: أشرقَ، ﴿إنها لإحدى الكُبرِ﴾، أي: العظائم، يعني النار، قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضحّاكُ، وغيرُ واحدٍ من السلف: ﴿نذيراً للبشر * لِمَن شاء منكُم أن يتقدَّمَ أو يتأخّرَ﴾، أي: لمن شاء أن يقبلَ النِّذارة ويهتديَ للحقِّ، أو يتأخَّر عنها ويُولِّيَ ويَرُدَّها.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً أن كُلَّ نفس بما كسبت رَهينةٌ، أي: مُعتَقَلةٌ بعملها يومَ القيامة، قاله ابنُ عبّاس وغيرُه، ﴿إلا أصحابَ اليمين﴾ فإنهم ﴿في جناتٍ يتساءلون * عن المجرمين﴾، أي: يسألون المجرمين وهم في الغُرُفات وأولئك في الدَّرَكات قائلين لهم: ﴿ما سَلَكَكُم في سقر * قالوا لم نَكُ من المُصلّين * ولم نَكُ نُطعِم المسكين﴾، أي: ما عبدنا ربَّنا ولا أحسنَّا إلى خَلْقِه من جِنْسِنا، ﴿وكُنّا نخوضُ مع الخائضين﴾، أي: نتكلم فيما لا نعلمُ. وقال قتادةُ: كُلّما غَوَى غاوٍ غَوَينا معه، ﴿وكُنّا نكذّب بيوم الدِّين * حتى أتانا اليقينُ﴾، يعني الموتَ. كقوله: ﴿واعبُد ربَّك حتى يأتيك اليقين﴾، وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أمّا هو ـ يعني عثمانَ بن مَظعُونٍ ـ فقد جاءه اليقينُ من ربِّه»[1].

قال الله تعالى: ﴿فما تنفعُهم شفاعةُ الشافعين﴾، أي: مَن كان مُتّصِفاً بمثل هذه الصفاتِ فإنه لا تنفعُه يومَ القيامةِ شفاعةُ شافعٍ فيه؛ لأن الشفاعةَ إنما تنجَعُ إذا كان المحلُّ قابلاً، فأما مَن وافى الله كافراً يومَ القيامةِ فإنَّ له النارَ لا محالةَ، خالداً فيها.

ثم قال تعالى: ﴿فما لهم عن التذكرةِ مُعرِضين﴾، أي: فما لهؤلاء الكفرةِ الذين قِبَلَكَ عما تدعُوهم إليه وتُذكِّرهم به مُعرِضين، ﴿كأنهم حُمُرٌ مُستنفِرَةٌ * فرَّت من قَسْوَرَة﴾، أي: كأنّهم في نِفارهم عن الحقِّ وإعراضِهم عنه حُمُرٌ من حُمُر الوحش إذا فرَّت ممّن يُريد صيدها من أسدٍ، قاله أبو هُرَيرة، وابن عباس ـ في رواية عنه ـ وزيدُ بن أسلَمَ، وابنه عبد الرحمن. أو: رامٍ، وهو روايةٌ عن ابنِ عبّاسٍ، وهو قول الجمهور.

وقال حمّاد بن سَلَمة، عن علي بن زَيدٍ، عن يوسفَ بنِ ماهك، عن ابن عباس: الأسد بالعربية، ويقال له بالحبشية قَسْوَرَةٌ، وبالفارسية شيرٌ، وبالنبطية أويا.

وقولُه: ﴿بل يُريد كلُّ امرىء منهم أن يُؤتَى صُحفاً مُنشّرةً﴾، أي: بل يُريد كلُّ واحدٍ من هؤلاء المشركين أن يُنزَّلَ عليه كتابٌ كما أنزل على النبي. قاله مجاهدٌ وغيرُه، كقوله: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نُؤمن حتى نُؤتَى

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير آية الحجر المتقدمة ٩٩

مثل ما أوتي رُسُل الله الله أعلم حيث يجعل رسَالاتِه﴾[1] وفي رواية عن قتادة: يُريدون أن يُؤتَوا براءة بغير عَمَل[2].

فقولُه: ﴿كلَّا بل لا يخافُون الآخرةَ﴾، أي: إنما أفسدَهُم عدمُ إيمانِهم بها، وتكذيبُهم بوقُوعها.

ثم قال تعالى: ﴿كلَّا إنه تَذكِرَة﴾، أي: حقًّا إن القرآنَ تذكِرةٌ ﴿فمن شاء ذَكَره * وما يذكُرون إلا أن يشاء الله﴾ كقوله: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾.

وقوله: ﴿هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفِرَة﴾، أي: هو أهلٌ أن يُخافَ منه، وهو أهلٌ أن يَغفر ذنبَ من تابَ إليه وأناب. قاله قتادةُ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيدُ بن الحباب، أخبرني سُهيل أخو حَزْم، حدثنا ثابت البُناني، عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة﴾، وقال: قال ربكم: أنا أهل أن أُتَّقى فلا يُجعَلَ معي إلَه، فمن اتقى أن يجعَلَ معي إلَهاً كان أهلاً أن أغفِرَ له[3].

ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث زيدِ بن الحباب، والنسائي من حديث المعافَى بن عِمران، كلاهما عن سُهيل بن عبد الله القُطَعِيِّ، به. وقال الترمذي: «حسن غريبٌ، وسُهيل ليس بالقوي» ورواه ابنُ أبي حاتم عن أبيه، عن هُدبَة بن خالد، عن سُهَيل، به. وهكذا رواه أبو يعلَى والبزَّار والبَغَوي، وغيرهم، من حديث سُهَيل القُطَعي، به[3].

آخرُ تفسيرِ سُورةِ المدَّثِّر، ولله الحمدُ والمنَّة

(١) كذا في نسختنا: ﴿رسالاته﴾، بالجمع. انظر تفسير الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩/١٧١.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/١٤٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المدثر ١٢/٢٢٨ ـ ٢٢٩، وابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٣٧، ومسند أبي يعلى ٣/٣٤٠، وتفسير البغوي ٤/٤٢٠.

تفسير

سورة القيامة

وهي مكيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ
بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ
الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤)
وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾

قد تقدَّم غيرَ مرَّةٍ أن المقسَمَ عليه متى كان منفياً جاز الإتيانُ بلا قبل القسم لتأكيد النفي. والمُقْسَمُ عليه ها هنا هو إثبات المعادِ، والردُّ على ما يزعمه الجَهَلةُ من العباد من عدم بَعثِ الأجسادِ، ولهذا قال تعالى: ﴿لا أُقسِمُ بيوم القيامة * ولا أُقسِمُ بالنفس اللوَّامة﴾، قال الحسن: أقسَمَ بيوم القيامةِ ولم يُقسِم بالنفس اللوّامةِ. وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً. هكذا حكاه ابن أبي حاتم. وقد حكى ابنُ جريرٍ، عن الحسن والأعرج أنهما قرآ: ﴿لأقسم﴾[1]. وهذا يُوجِّه قولَ الحسن؛ لأنه أثبتَ القَسَم بيومِ القيامة ونَفَى القَسَم بالنفس اللوّامة. والصحيحُ أنه أقسَمَ بهما جميعاً كما قاله قتادة، رحمه الله. وهو المرويُّ عن ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، واختاره ابن جرير.

فأما يومُ القيامةِ فمعروفٌ، وأما النفسُ اللوّامة فقال قُرَّةُ بن خالدٍ، عن الحسن البصريِّ في هذه الآية: إنَّ

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٧٢

المؤمن ـ والله ـ ما نراه إلا يلومُ نفسَه: ما أردتُ بكلمتي؟ وما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ وإنَّ الفاجرَ يَمضِي قُدُماً ما يُعاتِبُ نفسه.

وقال جُوَيبرٌ: بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿ولا أُقسِمُ بالنفس اللوَّامة﴾، قال: ليس أحد من أهل السموات والأرَضين إلا يلومُ نفسه يوم القيامة.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا عبد الله بنُ صالح بن مسلم، عن إسرائيلَ، عن سماكٍ: أنه سأل عكرمة عن قوله: ﴿ولا أُقسِمُ بالنفس اللوامة﴾، قال: يلومُ على الخير والشر: لو فعلتُ كذا وكذا!

ورواه ابنُ جرير، عن أبي كُرَيب، عن وكيع، عن إسرائيل، به.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا محمد بن بَشَّار، حدَّثنا مُؤمَّل، حدَّثنا سفيان، عن ابن جُرَيج، عن الحسن بن مُسلِم، عن سعيد بن جُبَير في: ﴿ولا أُقسِمُ بالنفس اللوَّامة﴾، قال: تلومُ على الخير والشر[1].

ثم رواه من وجه آخرَ عن سعيدٍ أنه سألَ ابنَ عباس عن ذلك، فقال: هي النفس اللَّؤوم.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: تندمُ على ما فات وتلومُ عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿اللوَّامة﴾ المذمومةُ. وقال قتادةُ: ﴿لوامة﴾ الفاجرةُ.

قال ابنُ جرير: وكلُّ هذه الأقوال متقاربةُ المعنى، والأشبهُ بظاهرِ التنزيل أنها التي تلومُ صاحبَها على الخيرِ والشرِ، وتندَمُ على ما فاتَ.

وقولُه: ﴿أيحسَبُ الإنسانُ ألَّنْ نجمع عظامه﴾، أي: يومَ القيامة، أيظنُّ أنا لا نقدِرُ على إعادة عظامِه وجَمْعِها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿بلى قادرين على أن نُسَوِّيَ بَنانه﴾، قال سعيد بن جُبَير والعَوفيُّ، عن ابن عباس: أن نجعله خفَّاً أو حافراً. وكذا قال مجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، والضحَّاك، وابنُ جَرِيرٍ. ووجهَه ابنُ جرير بأنه تعالى لو شاء لجعَلَ ذلك في الدنيا.

والظاهرُ من الآية أن قوله ﴿قادرين﴾ حال من قوله: ﴿نجمع﴾، أي: أيظنُّ الإنسان أنا لا نجمَعُ عظامه؟ بل سنجمعُها قادرين على أن نُسَوِّيَ بنانه، أي: قُدرَتنا صالحةٌ لِجَمْعِها، ولو شئنا لبعثناه أزيدَ مما كان، فنجعل بنانَه، وهي أطرافُ أصابعه، مستويةً. وهذا معنى قول ابن قُتَيبة، والزجَّاج[2].

وقولُه: ﴿بل يُريد الإنسانُ لِيَفجُرَ أمامه﴾، قال سعيد، عن ابن عباس: يعني يمضي قُدُماً.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ليفجُرَ أمامَه﴾، يعني الأمل، يقول الإنسان: أعملُ ثم أتوبُ قبلَ يوم القيامة، ويقال: هو الكُفر بالحقِّ بين يَدَي القيامة.

وقال مجاهدٌ ﴿ليفجُرَ أمامه﴾: يمضي أمامه راكباً رأسه. وقال الحسن: لا يُلفَى ابنَ آدم إلا تَنزِعُ نفسُه إلى مَعْصِيةِ الله قُدُماً قُدُماً، إلا من عَصَمه الله. ورُوي عن عِكْرِمة، وسعيد بن جُبَير، والضحَّاك، والسُّدِّي، وغيرِ واحدٍ من السَّلَف: هو الذي يُعَجِّل الذُّنوبَ ويُسَوِّف التوبة.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: هو الكافرُ يُكَذِّب بيوم الحساب. وكذا قال ابنُ زيدٍ، وهذا هو الأظهر من المراد، ولهذا قال بعده: ﴿يسأل أيَّانَ يومُ القيامة﴾، أي: يقولُ متى يكونُ يومُ القيامة؟ وإنما سؤاله

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٧٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/٢٥١.

سؤالُ استبعاد لوقوعه وتكذيبٌ لوجوده، كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين * قل لكم ميعادُ يوم لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدِمُون﴾.

وقال تعالى ها هنا: ﴿فإذا بَرِق البصرُ﴾، قال أبو عمرو بنُ العلاء: ﴿بَرِق﴾ ـ بكسر الراء ـ أي: حارَ[1]. وهذا الذي قاله شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿لا يرتدُّ إليهم طرفُهم﴾، بل ينظرون من الفَزَع هكذا وهكذا، لا يستقرُّ لهم بصرٌ على شيءٍ، من شدَّة الرُّعب.

وقرأ آخرون: ﴿برق﴾ بالفتح، وهو قريبٌ في المعنى من الأول. والمقصودُ أنَّ الأبصار تنبهرُ يومَ القيامة وتخشعُ وتحارُ وتذل من شِدَّة الأهوالِ ومن عِظَم ما تشاهِدُه يومَ القيامةِ من الأمور.

وقولُه: ﴿وخَسَفَ القمر﴾، أي: ذهَب ضوؤه، ﴿وجُمِع الشمسُ والقمرُ﴾، قال مجاهد: كُوِّرا. وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية: ﴿إذا الشمس كُوِّرت * وإذا النجومُ انكدرت﴾ ورُوي عن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿وجُمع بين الشمس والقمر﴾[2].

وقولُه: ﴿يقول الإنسانُ يومئذ أين المفرُّ﴾، أي: إذا عاينَ ابنُ آدمَ هذه الأهوالَ يومَ القيامةِ حينئذ يُريد أن يفرَّ ويقول: أين المفرُّ؟ أي: هل من ملجأ أو مَوْئِل؟ قال الله تعالى ﴿كلا لا وَزَر * إلى ربِّك يومئذ المستقر﴾، قال ابنُ مسعود، وابنُ عباس، وسعيد بن جُبير، وغير واحد من السَّلف: أي لا نجاة. وهذه كقوله: ﴿ما لكم من ملجإٍ يومئذٍ وما لكم من نَكير﴾، أي: ليس لكم مكانٌ تتنكَّرون فيه. وكذا قال ها هنا. ﴿لا وَزَر﴾، أي: ليس لكم مكانٌ تعتصِمُون فيه. ولهذا قال ﴿إلى ربِّك يومئذٍ المستقرُّ﴾، أي: المرجع والمصير.

ثم قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤا الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر﴾، أي يُخبَر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أوَّلها وآخرها، صَغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿ووَجدُوا ما عملوا حاضراً ولا يظلِمُ ربُّك أحداً﴾. وهكذا قال ها هنا. ﴿بل الإنسانُ على نفسه بَصيرةٌ * ولو ألقى معاذيرَه﴾، أي: هو شهيدٌ على نفسِه، عالمٌ بما فعَله ولو اعتذر وأنكَرَ، كما قال تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بل الإنسانُ على نفسه بَصيرةٌ﴾، يقول: سمعُه وبَصَرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه.

وقال قتادة: شاهدٌ على نفسه. وفي روايةٍ قال: إذا شئتَ ـ والله ـ رأيتَه بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم غافلاً عن ذُنوبه، وكان يقال: إنَّ في الإنجيلِ مكتوباً يا ابن آدمَ، تُبصر القَذاة في عينِ أخيكَ، وتترك الجِذْعَ[3] في عينك لا تبصره.

وقال مجاهدٌ. ﴿ولو ألقى معاذيره﴾، ولو جادَل عنها فهو بَصيرةٌ عليها. وقال قتادةُ: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾: ولو اعتذَرَ يومئذ بباطل لا يُقبل منه. وقال السُّدِّي: ﴿ولو ألقى مَعاذِيرَهُ﴾: حُجَّته. وكذا قال ابنُ زيد، والحسنُ البصريُّ، وغيرُهم. واختاره ابنُ جَرير. وقال قتادةُ، عن زُرارَةَ، عن ابن عباس: ﴿ولو ألقى معاذِيرَه﴾، يقول: لو ألقَى ثيابَه، وقال الضحَّاك: ولو أرخى سُتُورَه، وأهلُ اليمن يُسمُّون الستر: المِعْذار[4]

---

(١) أخرجه الطبري ٢٩/١٧٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/١٨٠.

(٣) كذا في نسختنا، وفي تفسير الطبري: الجِذْل، باللام. وهو أصل الشجرة

(٤) تفسير الطبري ٢٩/١٨٦.

والصحيحُ قولُ مجاهدٍ وأصحابه، كقوله: ﴿ثُمَّ لم تكن فتنتُهم إلا أن قالُوا والله ربِّنا ما كنا مشركين﴾، وكقوله ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلِفُون له كما يَحلِفُون لكم ويحسَبُون أنهم على شيء ألا إنَّهم هم الكاذبون﴾.

وقال العوفي، عن ابن عباس ﴿ولو ألقى معاذِيرَه﴾، هي الاعتذار، ألم تسمع أنه قال: ﴿لا ينفع لظالمين مَعذِرَتُهم﴾، وقال ﴿وألقوا إلى الله يومئذٍ السَّلَم﴾، ﴿[فألقوا السلَم] ما كنا نعمَلُ من سوءٍ﴾[1] وقولهم: ﴿والله ربِّنا كُنَّا مشرِكين﴾

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

هذا تعليمٌ من الله ـ عزّ وجلّ ـ لرسوله ـ ﷺ ـ في كيفيَّة تَلَقِّيه الوحيَ من المَلَك، فإنه كان يُبادِر إلى أخْذِه ويُسابق المَلَكَ في قراءته، فأمره الله ـ عزّ وجلّ ـ إذا جاءه المَلَكُ بالوحي أن يستمعَ له، وتكفَّل له أن يجمَعه في صدره، وأن يُيَسِّره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يُبيِّنه له ويُفسِّره ويُوضِّحه. فالحالة الأولى جَمْعُه في صدره، والثانية تلاوتُه، والثالثة تفسيرُه وإيضاحُ معناه. ولهذا قال: ﴿لا تُحرِّك به لسانَك لتعجَلَ به﴾، أي: بالقرآن، كما قال: ﴿ولا تَعجل بالقرآن من قبل أن يُقضَى إليك وحيُه وقل رَبِّ زدني علماً﴾.

ثم قال: ﴿إنَّ علينا جمعه﴾، أي: في صَدرك، ﴿وقرآنه﴾، أي: أن تقرأه، ﴿فإذا قرأناه﴾، أي: إذا تلاه عليك المَلَكُ عن الله عزّ وجلّ ﴿فاتَّبِع قرآنه﴾، أي: فاستمعْ له ثم اقرأه كما أقرأك. ﴿ثم إنَّ علينا بيانه﴾، أي: بعد حِفْظِه وتلاوته نُبيِّنه لك ونُوَضِّحه، ونُلهِمُك معناه على ما أردنا وشرعنا.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن، عن أبي عوانة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُعالِجُ من التنزيل شِدَّةً، فكان يُحرِّكُ شفتيه ـ قال: فقال لي ابنُ عباس: أنا أُحَرِّك شفتي كما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُحرِّكُ شفتيه. وقال لي سعيد: وأنا أُحَرِّك شفتيَّ كما رأيتُ ابن عباس يُحرِّك شفتيه ـ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿لا تُحرِّك به لسانك لتعجَلَ به إنَّ علينا جمعه وقرآنه﴾، قال: جَمْعَه في صدرك، ثم تقرؤه، ﴿فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنه﴾. فاستمع له وأنصِت، ﴿ثم إنَّ علينا بيانَه﴾، فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريلُ قرأه كما أقرأه[2].

وقد رواه البخاريُّ ومسلمٌ، من غير وَجْهٍ، عن موسى بن أبي عائشة، به. ولفظُ البخاريِّ: فكان إذا أتاه جبريلُ أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وَعَده الله عزّ وجلّ[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا أبو يحيى التيميُّ، حدَّثنا موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا نزل عليه الوحيُ يَلقى منه شدَّةً، وكان إذا نزل عليه عُرِف في تحريكه شفتَيه، يتلقَّى أوَّله ويحرِّك شفتَيه خشيةَ أن يَنسَى أوَّله قبل أن يفرُغَ من آخره، فأنزل الله: ﴿لا تُحرِّك به لسانك لتعجل به﴾.

---

(١) في النسخ وتفسير الطبري ٢٩/١٨٥ والقوا إلى الله يومئذ السلم ما كنا نعمل من سوء وهما آيتان لا آيةٌ واحدةٌ، الأولى الآية ٨٧ من سورة النحل، والثانية الآية ٢٨ من السورة نفسها

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٣٤٣ وقد تقدم الحديث عند تفسير آية طه ١١٤، وخرجناه هنالك من الصحيحين.

وهكذا قال الشعبيُّ، والحسنُ البصريُّ، وقتادةُ، ومجاهدٌ، والضحَّاك، وغيرُ واحدٍ: إن هذه الآية نزلت في ذلك.

وقد روى ابنُ جرير من طريق العَوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿لا تُحرِّكْ به لسانَكَ لتعجَلَ به﴾، قال: كان لا يفتُر من القراءة مخافة أن ينساه، فقال الله: ﴿لا تُحرِّكْ به لسانك لتعجل به إنَّ علينا﴾ أن نجمعه لك، ﴿وقرآنه﴾، أن نُقرئكَ فلا تنسى(١).

وقال ابنُ عباس وعطيَّة العَوفيُّ: ﴿ثم إنَّ علينا بيانه﴾، تَبيينَ حلالِه وحرامِه. وكذا قال قتادةُ.

وقولُه: ﴿كلَّا بل تُحبُّون العاجلة * وتذرون الآخرة﴾، أي: إنما يحملُهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفةِ ما أنزله الله ـ على رسوله ـ ﷺ ـ من الوحي الحقِّ والقرآنِ العظيم أنَّهم إنما هِمَّتُهم إلى الدار الدُّنيا العاجلة، وهم لاهُون متشاغِلُون عن الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ﴾، من النَّضارة، أي: حسنة بهيَّة مشرقة مسرورة ﴿إلى ربِّها ناظرة﴾، أي: تراه عِياناً، كما رَوَاه البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه: «إنكم سترون ربَّكم عِياناً»(٢). وقد ثبتت رؤيةُ المؤمنين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طُرُقٍ متواترةٍ عند أئمة الحديث، لا يُمكنُ دفعُها ولا منعُها؛ لحديثِ أبي سعيدٍ وأبي هُريرة ـ وهما في الصحيحين ـ أن ناساً قالوا: يا رسولَ الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُضارُّون في رُؤيةِ الشمس والقمر ليس دونهما سحابٌ؟» قالوا: لا. قال: «فإنَّكم تَرَون ربَّكم كذلك»(٣). وفي الصحيحين عن جَريرٍ قال: نظر رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى القمر ليلة البدْر فقال: «إنكم تَرَون ربَّكم كما تَرَون هذا القمرَ، فإن استطعتم ألَّا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعَلُوا»(٤). وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «جنَّتان من ذهبٍ آنيتُهما وما فيهما، وجنَّتان من فضة آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظُروا إلى الله إلا رداءُ الكبرياء على وَجْهه في جنة عَدْنٍ»(٥). وفي أفراد مسلم، عن صُهَيب، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنةَ قال: يقولُ الله تعالى: تُريدون شيئاً أزيدكُم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وُجُوهنا؟ ألم تُدخِلنا الجنَّة وتُنجنا من النار؟ قال: فيُكشَفُ الحجابُ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنُوا الحسنى وزيادة﴾(٥). وفي أفراد مسلم، عن جابر في حديثه: «إن الله يتجلَّى للمؤمنين يضحكُ»(٦) ـ يعني في عَرَصات القيامة ـ ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ـ عزَّ وجلَّ ـ في العَرَصات، وفي رَوضات الجنات.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدَّثنا عبدُ الملك بن أبجرَ، حدَّثنا ثُوَير بن أبي فاختةَ، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أدنى أهل الجنَّة منزلةً لَيَنظُر في مُلكه ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخَدَمه. وإن أفضلَهم منزلةً لَيَنظُر في وجه الله كلَّ يوم مرَّتين»(١).

ورَواه التِّرمذي عن عبد بن حُمَيد، عن شَبابة، عن إسرائيل، عن ثُوَير قال: «سمعتُ ابنَ عُمَر..

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٨٨.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٣٠ من سورة طه، وخرجناه هنالك.
(٣) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٤١٩ ـ ٤٢٠، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٦٣ ـ ١٧١.
(٤) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١٣٠ من سورة طه.
(٥) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٧٢ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.
(٦) مسلم، كتاب الإيمان ١/١٧٧ ـ ١٧٨.

مذكره، قال: «ورواه عبدُ الملك بن أبجر، عن ثُوير، عن مجاهِد، عن ابن عُمَر، قوله». وكذلك رَواه الثَّوريّ، عن ثُوير، عن مُجاهِدٍ، عن ابن عُمَر، ولم يرفعه.

ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديثَ بطُرُقها وألفاظِها من الصِّحاح والحِسان والمسانيد والسُّنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضِعَ من هذا التفسير، وبالله التوفيقُ. وهذا بحمد الله مُجمَعٌ عليه بينَ الصحابة والتابعين وسَلَفِ هذه الأمة، كما هو مُتَّفق عليه بين أئمة الإسلام. وهُدَاة الأنام. ومن تأوَّل ذلك بأن المراد: ﴿إلى﴾ مفرد الآلاء ـ وهي النِّعم ـ كما قال الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿إلى ربِّها ناظرة﴾، فقال: تنتظر الثواب من رَبِّها. رواه ابنُ جرير من غير وَجْهٍ عن مجاهد[1] وكذا قال أبو صالح أيضاً ـ فقد أبعد هذا القائل النُّجعة، وأبطل فيما ذَهَب إليه. وأين هُو من قوله تعالى: ﴿كلا إنَّهم عن رَبِّهم يومئذٍ لمحجُوبون﴾، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ ما حَجب الفجار إلا وقد عَلِم أن الأبرار يَرونه عزَّ وجلَّ. ثم قد تواترتِ الأخبارُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ بما دلَّ عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إلى ربها ناظرة﴾.

قال ابن جرير: حدَّثنا محمد بن إسماعيلَ البُخاري، حدَّثنا آدم، حدَّثنا المبارك، عن الحَسَن: ﴿وجُوه يومئذٍ ناضرةٌ﴾، قال: حَسَنةٌ، ﴿إلى ربِّها ناظرة﴾، قال: تنظُر إلى الخالق، وحُقّ لها أن تَنضُرَ وهي تنظُر إلى الخالق[2].

وقولُه: ﴿ووجُوهٌ يومئذ باسِرَةٌ * تظن أن يُفعَلَ بها فاقرةٌ﴾: هذه وجوهُ الفُجَّار تكونُ يوم القيامة باسِرةً. قال قتادة: كالحةٌ. وقال السُّدّي: تَغَيَّر ألوانُها. وقال ابن زيد ﴿باسرة﴾، أي: عابِسَةٌ.

﴿تظُنُّ﴾، أي: تَستيقِنُ ﴿أن يُفعَل بها فاقرةٌ﴾، قال مجاهدٌ: داهيةٌ. وقال قتادة: شرٌّ. وقال السُّدّي: تَستيقِنُ أنها هالكةٌ. وقال ابنُ زيدٍ: تظن أن ستدخُل النار.

وهذا المقامُ كقوله: ﴿يوم تَبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ﴾، وكقوله: ﴿وجوهٌ يومئذٍ مُسفِرَةٌ * ضاحكةٌ مُستبشِرَةٌ * ووجوهٌ يومئذ عليها غَبَرةٌ * ترهَقُها قترةٌ * أولئك هم الكفَرةُ الفَجَرةُ﴾. وكقوله: ﴿وجوهٌ يومئذ خاشعةٌ * عاملةٌ ناصبةٌ * تصلى ناراً حامية﴾ إلى قوله: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناعمةٌ * لسعيها راضيةٌ * في جنَّةٍ عاليةٍ﴾، في أشباهِ ذلك من الآياتِ والسِّياقاتِ.

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ـ ثبَّتنا الله هناك بالقول الثابت ـ فقال تعالى: ﴿كلَّا إذا بلَغتِ التراقي﴾، إن جعلنا ﴿كلَّا﴾ رادعةً فمعناهـا: لستَ يا ابنَ آدمَ تكذِبُ هناك بما أُخبِرتَ به، بل صار ذلك عِندك عِياناً. وإن جعلناها بمعنى «حقّ» فظاهر، أي: حقًّا ﴿إذا بلغتِ التراقيَ﴾، أي: انتزعت روحُك

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٩٢ ـ ١٩٣.
(٢) تفسير الطبري ٢٩/١٩٢.

من جَسَدِك وبلَغت تراقيك، والتراقي: جمعُ ترقوة، وهي العظامُ التي بين ثُغرَة النحر والعاتق، كقوله ﴿فلولا إذا بلغَتِ الحلقومَ * وأنتم حينئذٍ تنظرون * ونحنُ أقربُ إليه منكم ولكن لا تُبصرون * فلولا إن كنتم غير مَدينين * ترجِعُونها إن كنتم صادقين﴾. وهكذا قال ها هنا: ﴿كلَّا إذا بلغتِ التراقي﴾، ويُذكَرُ ها هنا حديث بُسْر بن جِحَاش الذي تقدَّم في سورة ﴿يسٓ﴾[1] والتراقي: جمعُ تَرقُوة، وهي قريبةٌ من الحُلقوم. ﴿وقيل من راق﴾، قال عِكْرمةُ، عن ابن عباس. أي مَن راقٍ يَرقِي؟ وكذا قال أبو قِلابةَ: ﴿وقيل من راق﴾، أي: من طَبيبٍ شافٍ؟ وكذا قال قتادةُ، والضحَّاك، وابنُ زيد.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا نصر بن علي، حدَّثنا رَوحُ بن المسيَّب أبو رجاءٍ الكَلْبيُّ، حدَّثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجَوزاءِ، عن ابن عبَّاسٍ ﴿وقيل مَن راقٍ﴾، قال: قيل: من يَرْقى بِرُوحِه، ملائكةُ الرحمة أم ملائكة العذابِ[2]؟

فعلى هذا يكونُ من كلامِ الملائكة.

وبهذا الإسنادِ، عن ابن عباس في قوله: ﴿والتفَّتِ الساقُ بالساقِ﴾، قال: التفت عليه الدنيا والآخرةُ. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿والتفَّتِ الساقُ بالساقِ﴾، يقول: آخرَ يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدَّةُ بالشدَّةِ إلا مَن رحم الله.

وقال عكرمةُ: ﴿والتفَّتِ الساقُ بالساقِ﴾: الأمر العظيمُ بالأمر العظيم. وقال مجاهدٌ: بلاءٌ ببلاءٍ. وقال الحسنُ البصريُّ في قوله: ﴿والتفَّتِ الساقُ بالساقِ﴾: هما ساقاك إذا التفَّتا. وفي روايةٍ عنه: ماتت رجلاه فلم تحمِلاه، وقد كان عليهما جَوَّالاً. وكذا قال السُّدِّي، عن أبي مالك. وفي رواية عن الحسن: هو لَفُّهما في الكَفَن. وقال الضحَّاك: ﴿والتفَّتِ الساقُ بالساقِ﴾، اجتمع عليه أمرانِ: الناسُ يُجهِّزون جسده، والملائكة يُجهِّزون رُوحَه.

وقولُه: ﴿إلى ربِّك يومئذٍ المساقُ﴾، أي: المرجعُ والمآبُ، وذلك أنَّ الروحَ تُرفَعُ إلى السموات، فيقولُ الله: رُدُّوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرجُهم تارةً أخرى. كما ورد في حديثِ البراء الطويل[3]. وقد قال الله تعالى: ﴿وهو القاهرُ فوقَ عبادِه ويُرسِلُ عليكم حَفَظةً حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفَّته رُسُلنا وهم لا يُفرِّطون * ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ ألا له الحكمُ وهو أسرعُ الحاسبين﴾.

وقولُه: ﴿فلا صَدَّق ولا صلَّى * ولكن كذَّب وتولَّى﴾ هذا إخبارٌ عن الكفر الذي كان في الدار الدُّنيا مُكذِّباً للحقِّ بقَلبه، مُتولِّياً عن العمل بقالَبِه، فلا خيرَ فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال: ﴿فلا صدَّق ولا صلَّى * ولكن كذَّب وتولَّى * ثم ذَهَب إلى أهله يتمطَّى﴾، أي: جَذِلاً أشِراً بَطِراً كَسْلانَ لا هِمَّةَ له ولا عَمَل، كما قال: ﴿وإذا انقلبُوا إلى أهلهم انقلبُوا فَكِهين﴾، وقال: ﴿إنه كان في أهلِه مَسروراً * إنه ظنَّ أن لن يحورَ﴾، أي: يرجِعَ، ﴿بلى إنَّ ربه كان به بصيراً﴾.

قال الضحَّاك، عن ابن عباس: ﴿ثم ذَهَب إلى أهله يتمطَّى﴾: يختال. وقال قتادةُ وزيد بن أسلم يَتبختَر.

---

(١) انظر تفسير الآية ٧٧ من سورة يسٓ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/٩٥ بإسناده إلى عمرو بن مالك.

(٣) تقدم حديث البراء ـ رضي الله عنه ـ عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأعراف.

قال الله تعالى: ﴿أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى﴾: وهذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ منه تعالى للكافر به المتبختر في مشيته، أي: يحقُّ لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يُقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد، كقوله: ﴿ذُقْ إنك أنت العزيزُ الكريم﴾. وكقوله. ﴿كلُوا وتمتَّعُوا قليلاً إنكم مُجرِمُون﴾. وكقوله: ﴿فاعبدوا ما شِئتم من دونه﴾، وكقوله: ﴿اعمَلُوا ما شِئتُمْ﴾ إلى غير ذلك

وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدَّثنا عبد الرحمن ـ يعني ابنَ مَهدِيّ ـ عن إسرائيل، عن موسى بن أبي عائشةَ قال: سألتُ سعيدَ بن جُبَير قلت: ﴿أولَى لَكَ فأولى * ثم أولى لك فأولى﴾، قال: قال النبي ـ ﷺ ـ لأبي جَهْلٍ، ثم نزل به القرآن

وقال أبو عبد الرحمن النَّسائي، حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا أبو النُّعمان، حدَّثنا أبو عَوانة ـ (ح) وحدَّثنا أبو داود حدَّث محمد بن سليمان، حدَّثنا أبو عَوانة ـ عن موسَى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَير قال: قلتُ لابن عباس: ﴿أولَى لَكَ فأولَى * ثم أولى لك فأولى﴾، قال: قاله رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثم أنزله الله عزَّ وجلَّ[1].

قال ابن أبي حاتم: وحدَّثنا أبي، حدَّثنا هشامُ بن خالد، حدَّثنا شُعَيب بن إسحاق، حدَّثنا سعيدٌ، عن قتادةَ قولُه: ﴿أولى لك فأولى * ثم أولَى لك فأولى﴾، وعيدٌ على أثر وعيدٍ، كما تسمعون، وزعمُوا أن عَدُوَّ الله أبا جهلٍ أخذَ نبيُّ الله بمجامع ثيابه، ثم قال: ﴿أولَى لكَ فأولى * ثم أولى لك فأولَى﴾. فقال عدو الله أبو جهل: أتوعِدُني يا محمد؟! والله لا تستطيع أنت ولا ربُّك شيئاً، وإني لأعزُّ مَن مشى بين جَبَليها

وقولُه: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدًى﴾، قال السُّدّي: يعني لا يُبعَثُ. وقال مجاهدٌ، والشافعيُّ، وعبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بن أسلم: يعني لا يُؤمَر ولا يُنهَى.

والظاهر أن الآية تعُمُّ الحالين، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مُهملاً لا يُؤمَر ولا يُنهَى، ولا يُترك في قبره سُدًى لا يُبعَث، بل هو مأمورٌ منهيٌّ في الدنيا، محشورٌ إلى الله في الدار الآخرة. والمقصودُ هنا إثباتُ المَعَاد، والردُّ على مَن أنكره من أهل الزَّيغ والجهل والعِناد، ولهذا قال مُستدلاً على الإعادةِ بالبداءةِ فقال. ﴿ألم يَكُ نطفةً من منيٍّ يُمنَى﴾، أي: أما كان الإنسانُ نطفةً ضعيفةً من ماءٍ مَهينٍ، ﴿يُمْنَى﴾، يُرَاق من الأصلاب في الأرحام. ﴿ثم كان علقةً فخلق فسوّى﴾، أي فصار علقةً، ثم مُضغةً، ثم شُكِّل ونفخ فيه الروحُ، فصار خَلقاً آخرَ سَوِياً سليم الأعضاء، ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره. ولهذا قال ﴿فجعَل منه الزوجَين الذكرَ والأنثى﴾.

ثم قال: ﴿أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيي الموتى﴾، أي: أما هذا الذي أنشأ هذا الخَلقَ السويَّ من هذه النطفة الضعيفة بقادرٍ على أن يُعيده كما بدأه؟ وتناوُلُ القدرةِ للإعادةِ إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البَدَاءةِ، وإما مساويةٌ، على القولين في قوله ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده وهو أهونُ عليه﴾. والأول أشهر كما تقدَّم في «سورة الروم» بيانُه وتقريرُه،[2] والله أعلم.

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا الحسنُ بن محمد بن الصبَّاح، حدَّثنا شَبَابَةُ، عن شُعبة، عن موسى بن أبي عائشة، عن آخر أنه كان فوق سطح يقرأ ويرفعُ صوتَه بالقرآن، فإذا قرأ ﴿أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتى﴾ قال: سبحانك اللهُمَّ فبَلى. فسُئِل عن ذلك فقال سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول ذلك

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/٤٥٣.

(٢) انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة الروم

وقال أبو داود ـ رحمه الله ـ : حدثنا مُحمَّد بن المثنى، حدثنا مُحمَّد بن جعفر، حدثنا شُعبة، عن موسى بن أبي عائشةَ قال: كان رجلٌ يُصَلِّي فوق بيته، فكان إذا قرأ ﴿أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحييَ الموتى﴾، قال: سُبحانَكَ، فبلى فسألوه عن ذلك فقال: سَمِعته من رسول الله ﷺ[1].

تَفرَّد به أبو داود، ولم يُسَمِّ هذا الصحابيَّ، ولا يَضُرُّ ذلك.

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا عبد الله بن محمد الزهريُّ، حدثنا سفيانُ، حدثني إسماعيلُ بن أميةَ: سمعتُ أعرابياً يقول: سَمِعت أبا هُرَيرة يقولُ. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ منكُم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾، فَلْيَقُل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ فانتهى إلى: ﴿أليس ذلك بقادرٍ على أن يحييَ الموتى﴾، فليَقُل: بلى. ومَن قرأ ﴿والمرسلاتِ﴾ فبَلَغ: ﴿فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون﴾، فليَقُلْ: آمنّا بالله»[2].

ورواه أحمد، عن سفيان بن عُيينَة. ورواه الترمذيُّ عن ابن أبي عُمَر، عن سفيان بن عُيَينة. وقد رواه شُعبةُ، عن إسماعيل بن أمية قال: قلت له: مَن حدَّثك؟ قال رجُل صدق، عن أبي هُريرة[2].

وقال ابنُ جَرِير: حدثنا بشرٌ، حدثنا يزيدُ، حدثنا سَعيدٌ، عن قتادةَ قوله: ﴿أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحييَ الموتَى﴾، ذُكِرَ لنا أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان اذا قرأها قال: «سُبحانك وَبَلى»[3].

ثم قال ابنُ أبي حاتم. حدثنا أحمدُ بن سِنانٍ الواسطي، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيريُّ، حدثنا سُفيانُ، عن أبي إسحاقَ، عن مُسلمٍ البَطِين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس أنه مَرَّ بهذه الآية. ﴿أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتى﴾، قال: سبحانك، فَبَلى.

آخرُ تفسير سورةِ القيامةِ، ولله الحمدُ والمنَّة

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٣٤، ومسند أحمد ٢/٢٤٩، وعارضة الأحوذي تفسير سورة التين ١٢/٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٣) تفسير الطبري ٢٩/٢٠١.

تفسير

سُورَةُ الإنسَانِ

وهي مكيَّة

قد تقدَّم في صحيح مسلم[١]: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ في صلاة الصُّبح يومَ الجُمُعة ﴿الٓمٓ * تنزيلُ﴾ السجدةَ، و﴿هل أتى على الإنسانِ﴾.

وقال عبدُ الله بن وَهْب: أخبرنا ابنُ زيدٍ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ هذه السورةَ: ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر﴾، وقد أُنزِلَت عليه وعنده رجلٌ أسودُ، فلما بلغ صفةَ الجِنَانِ زَفَر زفرةً فخرجت نفسُه. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أخرجَ نفسَ صاحبِكم ـ أو قال: أخيكم ـ الشوقُ إلى الجنة» مُرسَلٌ غريب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الإنسانِ أنه أوجده بعدَ أن لم يكن شيئاً يُذكَر، لحقارتِهِ وضَعفِه، فقال: ﴿هل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكُوراً﴾.

ثم بيَّن ذلك فقال: ﴿إنا خلقنا الإنسانَ من نُطفةٍ أمشاجٍ﴾، أي: أخلاطٍ. والمَشْجُ والمَشِيجُ: الشيءُ المختلطُ بعضُه في بعض.

(١) في بعض النسخ: «قد تقدَّم في صحيح مسلم عن ابن عباس». والذي تقدم في أول السجدة هو حديث أبي هريرة. فأما حديث ابن عباس ففي مسلم، كتاب الجمعة ٢/٥٩٩.

قال ابنُ عباس في قوله: ﴿من نُطفةٍ أمشاجٍ﴾، يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقلُ بعدُ من طورٍ إلى طورٍ، وحالٍ إلى حالٍ، ولونٍ إلى لونٍ. وهكذا قال عِكْرمة، ومجاهدٌ، والحسنُ، والربيعُ بن أنس: الأمشاجُ هو اختلاط ماءِ الرجل بماء المرأة.

وقولُه: ﴿نَبْتليه﴾، أي: نَختَبِرُه، كقوله: ﴿ليبلُوكم أيكم أحسنُ عملاً﴾. ﴿فجعلناهُ سَميعاً بَصيراً﴾، أي: جَعلنا له سَمْعاً وبَصَراً يتمكَّن بهما من الطاعةِ والمعصية.

وقولُه: ﴿إنَّا هديناهُ السَّبيل﴾، أي: بيَّناه له ووضَّحناه وبَصَّرناه به، كقوله: ﴿وأما ثمودُ فهديناهُم فاستحبُّوا العمى على الهُدَى﴾، وكقوله: ﴿وهديناهُ النجدين﴾، أي: بيَّنا له طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ. وهذا قولُ عِكْرمةَ، وعَطيَّةَ، وابنِ زيد، ومجاهدٍ ـ في المشهور عنه ـ والجمهورِ.

ورُوِي عن مجاهدٍ، وأبي صالحٍ، والضَّحَّاك، والسُّدِّي أنهم قالوا في قوله: ﴿إنا هديناهُ السبيل﴾: يعني خروجَه من الرحِمِ. وهذا قولٌ غريبٌ، والصحيحُ المشهورُ الأول.

وقولُه: ﴿إما شاكراً وإما كَفُوراً﴾ منصوب على الحال من «الهاء» في قوله: ﴿إنَّا هديناهُ السبيلَ﴾، تقديرُه: فهو في ذلك إما شقيٌّ وإما سَعيدٌ[1]، كما جاء في الحديث الذي رواه مُسلِمٌ، عن أبي مالك الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه فَمُوبِقُها أو مُعتِقُها»[2]. وتقدَّم في «سورة الروم»، عند قوله: ﴿فطرةَ الله التي فَطَر الناسَ عليها﴾، من روايةِ جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ مولود يُولَدُ على الفِطرَةِ حتى يُعرِبَ عنه لسانُه، فإذا أعربَ عنه لسانه إما شاكراً وإما كَفُوراً»[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا أبو عامر، حدَّثنا عبدُ الله بن جعفر، عن عثمانَ بن محمد، عن المقبريِّ، عن أبي هُرَيرة عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «ما من خارجٍ يخرجُ إلا ببابه رايتان: رايةٌ بيدِ مَلَك، ورايةٌ بيدِ شيطان، فإن خرج لما يُحِبُّ الله اتَّبعه المَلَك برايته، فلم يزلْ تحتَ رايةِ المَلَك حتى يرجعَ إلى بيته. وإن خرج لما يُسخط الله اتبعه الشيطانُ برايته، فلم يزَل تحتَ رايةِ الشيطانِ حتى يرجع إلى بيته»[4].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزّاق، حدَّثنا معمَرٌ، عن ابن خُثَيم، عن عبد الرحمن بن سابطٍ، عن جابر بن عبد الله: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ قال لكعب بن عُجْرَةَ: «أعاذكَ الله من إمارةِ السُّفهاء» قال: وما إمرة السفهاء؟ قال: «أمراء يكونون من بعدي، لا يهتدُون بهُداي، ولا يستنُّون بسُنّتي، فمن صدَّقهم بكَذِبهم وأعانهم على ظُلمهم فأولئك ليسُوا منّي ولستُ منهم، ولا يرِدُون على حَوضي. ومن لم يُصدِّقهم بكَذِبهم ولم يُعِنْهم على ظُلمهم فأولئك منّي وأنا منهم، وسَيَرِدُون على حوضي. يا كعبَ بن عُجْرَةَ، الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تطفِئُ الخطيئة، والصلاةُ قُربانٌ ـ أو قال: بُرهَانٌ ـ يا كعبَ بنَ عُجْرَةَ، إنه لا يدخُل الجنةَ لحمٌ نبَتَ من سُحتٍ، النار أولى به. يا كعب: الناسُ غَاديان، فمبتاعٌ نفسَه فمُعتِقها، وبائعٌ نفسه فمُوبِقها»[5].

ورواه عن عفَّانَ، عن وُهَيبٍ، عن عبد الله بن عُثمانَ بن خُثَيم، به.

---

(١) ذكر ذلك الطبري في تفسيره ٢٩/٢٠٦.
(٢) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٣٠ من سورة الأعراف.
(٣) تقدم كذلك عند تفسير الآية ٣٠ من سورة الروم، وخرجناه أيضاً
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٣٢٣
(٥) مسند الإمام أحمد ٣/٣٢١

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا
كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ
حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عمّا أرصدَه للكافرين من خَلْقِه به من السلاسل والأغلال والسَّعير، وهو اللهيبُ والحريقُ في نار جهنَّم، كما قال: ﴿إذ الأغلالُ في أعناقهم والسلاسلُ يُسحبون * في الحميم ثم في النارِ يُسْجَرُون﴾.

ولمَّا ذكر ما أعدَّه لهؤلاء الأشقياء من السَّعير قال بعده: ﴿إن الأبرار يَشربُون من كأسٍ كان مزاجُها كافوراً﴾، وقد عُلِم ما في الكافور من التبريدِ والرائحةِ الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذةِ في الجنَّة.

قال الحسن: بَرْدُ الكافورِ في طيب الزَّنجبيل. ولهذا قال: ﴿عيناً يشربُ بها عبادُ الله يُفجِّرونها تفجيراً﴾، أي: هذا الذي مُزِج لهؤلاء الأبرار من الكافورِ هو عينٌ يشربُ بها المقرَّبُون من عباد الله صِرفاً بلا مَزْجٍ ويَرْوَوْن بها؛ ولهذا ضمَّن يَشرَب «يَرْوَى» حتى عدَّاه بالباء، ونَصَبَ ﴿عيناً﴾ على التمييز.

قال بعضُهم: هذا الشرابُ في طيبه كالكافور. وقال بعضُهم: هو من عَينِ كافورٍ. وقال بعضُهم: يجوزُ أن يكونَ منصوباً بـ﴿يشرب﴾. حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير[1].

وقولُه: ﴿يُفجِّرونها تفجيراً﴾، أي: يَتصرَّفون فيها حيثُ شاءوا وأين شاءوا، من قُصورهم ودُورهم ومجالسهم ومَحالِّهم. والتفجيرُ هو الإنباعُ، كما قال تعالى: ﴿وقالوا لن نُؤمن لك حتى تَفجُر لنا من الأرض يَنْبُوعاً﴾، وقال: ﴿وفجَّرنا خِلالَهما نهراً﴾.

قال مجاهد: ﴿يُفجِّرونها تفجيراً﴾: يقُودونها حيث شاءوا. وكذا قال عِكْرِمَةُ، وقتادةُ. وقال الثوريُّ: يُصرِّفُونها حيث شاءوا.

وقولُه: ﴿يُوفون بالنَّذر ويخافُون يوماً كان شرُّه مُستَطِيراً﴾، أي: يَتعبَّدُون لله فيما أوجبه عليهم من الطاعاتِ الواجبةِ بأصل الشرع، وما أوجبُوه على أنفسهم بطريق النذر.

قال الإمام[2] مالك، عن طلحةَ بن عبد الملك الأَيْليِّ، عن القاسم بن مالك، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «مَنْ نَذَر أن يُطيع الله فَلْيُطِعه، ومَن نَذَر أن يَعصيَ الله فلا يَعْصِه». رواه البُخاري، من حديث مالك[3].

ويتركُون المحرَّماتِ التي نهاهُم عنها خِيفةً من سُوءِ الحساب يوم المَعاد، وهو اليومُ الذي شرُّه مستطيرٌ، أي: منتشرٌ عام على الناس إلَّا مَن رَحِمَ الله.

(١) الأقوال الثلاثة في إعراب ﴿عيناً﴾ على الترتيب الذي ذكره ابن كثير هي: الأول: حال. والثاني: بدل من كافور، والثالث: مفعول يشرب. وأجاز الطبري وجهاً رابعاً أن تكون منصوبة على المدح، انظر تفسيره ٢٠٧/٢٩.

(٢) في نسخة: «قال الإمام أحمد: حدثنا مالك». والحديث في المسند ٣٦/٦ وفيه يرويه الإمام أحمد عن عبد الرحمن عن مالك، بإسناده، مثله.

(٣) فتح الباري، كتاب الأيمان ٥٨١/١١.

قال ابنُ عباس: فاشياً. وقال قتادة: استطار ـ والله ـ شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض.

قال ابن جرير. ومنه قولهم: استطار الصَّدعُ في الزُّجاجة واستطالَ[1]. ومنه قول الأعشى[2]:

فَبَانَتْ وَقَدْ أَسْأَرَتْ فِي الفُؤَا ... دِ صَدْعاً، على نَأْيِها، مُسْتَطِيراً

يعني: ممتدًّا فاشياً.

وقولُه: ﴿ويُطعِمُون الطعام على حُبِّه﴾، قيل: على حُبِّ الله تعالى. وجعلُوا الضميرَ عائداً إلى الله ـ عزَّ وجلّ ـ لِدَلالة السياقِ عليه. والأظهرُ أن الضميرَ عائدٌ إلى الطعام، أي: ويُطعِمُون الطعامَ في حالِ محبَّتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتلٌ، واختاره ابنُ جرير، كقوله تعالى: ﴿وآتى المالَ على حُبِّه﴾. وكقوله تعالى: ﴿لن تنالُوا البرَّ حتى تُنفِقُوا مما تحبُّون﴾.

[[3] وروى البيهقي، من طريق الأعمش، عن نافع قال: مَرِض ابنُ عُمَر فاشتهى عِنَباً، أول ما جاء العنبُ، فأرسلت صَفِيَّةُ ـ يعني امرأته ـ فاشترت عُنقوداً بدرهم، فاتبع الرسولَ السائلُ، فلما دخل به قال السائلُ: السائلُ. فقال ابن عُمَر: أعطوه إيَّاه. فأعطوه إياه. ثم أرسلَت بدرهم آخَرَ فاشترت عنقوداً فاتبع الرسولَ السائلُ، فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صَفِيَّةُ إلى السائل فقالت: والله إن عُدتَ لا تُصِيبُ منه خيراً أبداً. ثم أرسلت بدرهمٍ آخَرَ فاشترت به[3]].

وفي الصحيح: «أفضلُ الصدقة أن تَصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شَحيحٌ، تأمُلُ الغِنَى وتخشَى الفقر»[4]، أي: في حال مَحَبَّتِك للمال، وحِرْصِك عليه وحاجتِك إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ويُطعِمُون الطعام على حُبِّه مِسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾، أما المسكينُ واليتيمُ فقد تقدَّم بيانُهما وصِفَتُهما[5]. وأما الأسيرُ فقال سعيد بن جُبَير، والحسنُ، والضحَّاك: الأسير من أهل القِبلة. وقال ابن عباس: كان أُسَراؤهم يومئذ مشركين. ويشهَدُ لهذا أن رسول الله ـ ﷺ ـ أَمَرَ أصحابه يوم بَدْرٍ أن يُكرِمُوا الأسارى، فكانوا يُقَدِّمُونهم على أنفسِهم عند الغَداء. وهكذا قال سعيد بن جُبَير، وعطاء، والحسنُ، وقتادةُ. وقد وَصَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالإحسانِ إلى الأرِقَّاء في غير ما حديثٍ، حتى إنه كان آخرُ ما أوصَى أن جَعَل يقُول: «الصلاةَ وما ملكت أيمانكم»[6].

وقال عِكْرِمةُ: هم العبيدُ، واختاره ابنُ جَرِير، لعُمومِ الآية للمسلم والمشرِك. وقال مجاهدٌ: هو المحبوسُ. أي: يُطعِمُون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبُّونه، قائلين بلِسانِ الحال: ﴿إنما نُطعِمكم لوجه الله﴾، أي: رجاءَ ثوابِ الله ورِضاه، ﴿لا نُرِيد منكم جزاءً ولا شُكوراً﴾، أي: لا نطلبُ منكم مجازاةً تُكافِئُونا بها، ولا أن تشكرونا عند الناس.

قال مجاهد وسعيد بن جُبَير: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به لِيَرْغَبَ في ذلك راغبٌ.

﴿إنا نخافُ من رَبِّنا يوماً عبوساً قَمطريراً﴾، أي: إنما نفعل هذا لعلَّ الله أن يرحَمنا ويَتَلقَّانا بلُطفه، في اليوم العَبُوس القَمطرير.

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/٢٠٩، وتمامه: «إذا امتدَّ، ولا يقال ذلك في الحائط، ومنه قول الأعشى».

(٢) ديوانه ٩٣، وفيه: «وبانت وقد أورثت». وأسارت: أبقت وتركت.

(٣ ـ ٣) ساقط من بعض النسخ. وقد أخرجه البيهقي في كتاب الزكاة من سُنَنه الكبرى ٤/١٨٥

(٤) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ١٧٧ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك

(٥) انظر تفسير الآية ٨٣ من سورة البقرة، ٣٦ من سورة النساء

(٦) تقدَّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٣٤ من سورة الحاقة

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس. ﴿عبوساً﴾: ضيِّقاً، ﴿قمطريراً﴾: طويلاً وقال عِكْرِمةُ وغيره، عنه، في قوله: ﴿يوماً عبوساً قمطريراً﴾، أي: يَعبسُ الكافر يومئذٍ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثلُ القطرانِ وقال مجاهد ﴿عبوساً﴾، العابس الشفتين ﴿قمطريراً﴾، قال. تقبيضُ الوجهِ بالبُسُور. وقال سعيد بن جُبَير، وقتادةُ: تَعبِس فيه الوجوه من الهول، ﴿قمطريراً﴾: تقليصُ الجبين وما بين العَينين، من الهول. وقال ابنُ زيدٍ: العَبوس: الشرُّ. والقمطرير: الشديدُ.

وأوضحُ العباراتِ وأجلاها وأحلاها، وأعلاها وأولاها قولُ ابن عباس، رضي الله عنه

قال ابن جرير والقمطريرُ هو. الشديدُ؛ يقال. هو يومٌ قَمْطَريرٌ ويومٌ قُمَاطِرٌ، ويوم عَصِيب وعَصَبْصَب، وقد اقمطرَّ اليوم يَقْمَطِرُّ اقمطراراً، وذلك أشدُّ الأيام وأطولُها في البَلاءِ والشدَّة، ومنه قول بعضهم[1].

بَنِي عَمِّنا، هل تذكُرونَ بَلاءَنا عَلَيكُمْ إذَا ما كانَ يَومٌ قُماطِرُ

قال الله تعالى: ﴿فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقَّاهم نضرةً وسروراً﴾، وهذا من باب التجانُس البليغ، ﴿فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم﴾، أي آمنهم مما خافوا منه، ﴿ولقاهم نضرةً﴾، أي: في وجوههم، ﴿وسُروراً﴾، أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري، وقتادةُ، وأبو العالية، والربيعُ بن أنس. وهذه كقوله تعالى: ﴿وجوهٌ يومئذ مُسفرة * ضاحكةٌ مستبشرة﴾، وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجهُ، قال كعبُ بن مالك في حديثه الطويل: «وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنه فِلْقَةُ قَمَر»[2]. وقالت عائشةُ: «دخل عَلَيَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ مَسْروراً تَبرقُ أَساريرُ وَجْهِه»[3]. . الحديث.

وقولُه ﴿وجزاهم بما صبرُوا﴾، أي. بسبب صَبْرِهم أعطاهم ونوّلهم وبوّأهم ﴿جنةً وحريراً﴾، أي: مَنزِلاً رَحباً، وعيشاً رَغَداً، ولباساً حَسَناً.

وروى الحافظُ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سُليمان الدّاراني قال: قُرِئ على أبي سُليمان الداراني سورة. ﴿هل أتى على الإنسان﴾، فلما بلغ القارئ إلى قوله: ﴿وجزاهم بما صَبرُوا جنّةً وحريراً﴾، قال: بما صبروا على تَرْكِ الشهوات في الدنيا، ثم أنشد:

كَمْ قَتيلٍ بشَهوةٍ وأسيرٍ أُفٍّ مِنْ مُشْتَهي خِلافَ الجَميلِ
شَهَواتُ الإنْسانِ تُورِثُهُ الذُّلَّ وَتُلْقيهِ في البَلاءِ الطَّويلِ

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(١) تفسير الطبري ٢٩/٢١١.
(٢) تقدّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١١٨ من سورة براءة.
(٣) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب المناقب ٦/٥٦٥، ومسلم، كتاب الرضاع ٢/١٠٨١ ـ ١٠٨٢.

يُخبر تعالى عن أهل الجنّةِ وما هُم فيه من النعيم المقيم، وما أُسبغ عليهم من الفضل العَميم فقال ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾. وقد تقدّم الكلام على ذلك في «سورة الصافات»[1]، وذِكر الخلاف في الاتكاء هل هو الاضطجاعُ، أو التمرفق، أو التربُّع، أو التمكُّن في الجلوس؟ وأن الأرائكَ هي السُّرُر تحت الحِجال.

وقولُه: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾، أي: ليس عندهم حَرٌّ مُزعِجٌ، ولا بَرْدٌ مؤلمٌ، بل هي مزاجٌ واحدٌ دائمٌ سَرْمَدِيّ، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾، أي: قريبةً إليهم أغصانُها، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾، أي: متى تعاطاه دَنا لقطْفُ إليه وتدلَّى من أعلى غُصنه، كأنه سامعٌ طائعٌ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾. وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾.

قال مجاهدٌ: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾: إن قام ارتفعَت بقَدْرِه[2]، وإن قَعَد تَدَلَّتْ[2] له حتى ينالها، وإن اضطجع تَدَلَّت[2] له حتى ينالها، فذلك قوله: ﴿تَذْلِيلًا﴾.

وقال قتادةُ: لا يَرُدُّ أيدِيَهم عنها شوكٌ ولا بُعدٌ.

وقال مجاهدٌ: أرضُ الجنةِ وَرِقٌ، وتُرابها المسكُ، وأصولُ شجرها من ذَهبٍ وفضّةٍ، وأفنانُها من اللؤلؤ الرَّطبِ والزَّبرجَدِ والياقوتِ، والوَرَقُ والثمرُ بين ذلك. فمن أكلَ منها قائماً لم يُؤذِه، ومن أكل منها قاعداً لم يُؤذِه، ومن أكل منها مُضطجعاً لم يُؤذِه.

وقولُه: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾، أي: يطوفُ عليهم الخَدَم بأواني الطعامِ، وهي من فضّةٍ، وأكوابِ الشرابِ، وهي الكيزان التي لا عُرى لها ولا خراطيمَ.

وقولُه: ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾، فالأول منصوب بخبر «كان»: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾، والثاني منصوب إما على البدلية، أو تمييزاً؛ لأنه بيَّنه بقوله: ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ البصريُّ، وغيرُ واحدٍ: بياضُ الفضّةِ في صفاءِ الزُّجاجِ، والقواريرُ لا تكون إلاَّ من زُجاجٍ. فهذه الأكوابُ هي من فِضّةٍ، وهي مع هذا شفّافةٌ يُرى ما في باطنِها من ظاهرِها، وهذا مما لا نظيرَ له في الدنيا.

قال ابنُ المبارك، عن إسماعيلَ، عن رجُلٍ، عن ابن عباس: ليس في الجنّةِ شيءٌ إلا قد أُعطِيتم في الدنيا شبهه إلا قواريرَ من فِضّةٍ. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقولُه: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾، أي: على قدر رِيِّهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي مُعَدَّةٌ لذلك، مُقدَّرةٌ بحسب رِيِّ صاحبِها. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبير، وأبي صالح، وقتادة، وابن أبزى، وعبد الله بن عُبَيد بن عُمير، وقتادةَ، والشعبيِّ، وابن زيدٍ. وقاله ابنُ جرير وغيرُ واحدٍ. وهذا أبلغُ في الاعتناء والشرفِ والكرامَةِ.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾، قُدِّرت للكفِّ. وهكذا قال الربيعُ بن أنَسٍ. وقال الضحّاكُ: على قدر أكُفِّ الخُدَّام. وهذا لا ينافي القولَ الأولَ، فإنها مُقدَّرة في القدْرِ والرِّيِّ.

(١) كذا، وقد تقدّم عند تفسير آية الكهف ٣١.
(٢) في النسخ: بقدر، تدللت. والمثبت من تفسير الطبري ٢٩/٢١٥.

وقوله. ﴿وَيُسقَون فيها كأساً كان مِزَاجُها زَنجبيلاً﴾، أي. ويُسقَون ـ يعني الأبرارَ أيضاً ـ في هذه الأكوابِ ﴿كأساً﴾، أي: خمراً، ﴿كان مزاجُها زَنجبيلاً﴾، فتارة يُمزَج لهم الشرابُ بالكافُور وهو باردٌ، وتارة بالزنجبيلِ وهو حارٌ، ليعتدلَ الأمرُ، وهؤلاء يُمزَج لهم من هذا تارةً ومن هذا تارةً. وأما المقرَّبون فإنهم يشرَبُون من كلٍّ منهما صِرْفاً، كما قاله قتادةُ وغيرُ واحدٍ. وقد تقدَّم قوله: ﴿عيناً يشرَبُ بها عبادُ الله﴾، وقال ها هنا: ﴿عيناً فيها تُسَمَّى سَلسبيلاً﴾. أي: الزنجبيلُ عينٌ في الجنة تُسمَّى سلسبيلاً. قال عكرمة: اسمُ عين في الجنة. وقال مجاهد: سُمِّيت بذلك لسلاسة سَيْلها وحِدَّة جَرْيِها. وقال قتادةُ: ﴿عيناً فيها تُسمَّى سلسبيلاً﴾: عين سَلِسَةٌ مُستَقِيد[1] ماؤها. وحكى ابنُ جُرير عن بعضِهم أنها سُمِّيت بذلك لسلاستها في الحَلْق. واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كلَّه[2]، وهو كما قال.

وقوله تعالى: ﴿ويطوفُ عليهم ولدانٌ مخلَّدُون * إذا رأيتَهم حَسِبتَهم لؤلؤاً منثوراً﴾، أي: يطوفُ على أهل الجنة للخدمة وِلْدانٌ من وِلْدانِ الجنة ﴿مُخلَّدون﴾، أي: على حالةٍ واحدةٍ مُخلَّدُون عليها، لا يَتغيَّرون عنها، لا تَزيد أعمارُهم عن تلك السنِّ. ومن فَسَّره بأنهم مُخَرْصُونَ[3] في آذانهم الأقرطة فإنما عبَّر عن المعنى بذلك، لأن الصغير هو الذي يليقُ له ذلك دُونَ الكبير.

وقوله: ﴿إذا رأيتَهم حَسِبتَهم لؤلؤاً منثوراً﴾، أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكَثْرَتهم، وصباحةِ وجُوههم، وحُسنِ ألوانهم وثيابهم وحُلِيِّهم، حَسِبتهم لؤلؤاً منثوراً. ولا يكون في التشبيه أحسنُ من هذا، ولا في المنظر أحسنُ من اللؤلؤ المنثور على المكانِ الحسن

قال قتادةُ، عن أبي أيُّوبَ، عن عبد الله بن عَمْرو: ما مِن أهلِ الجنةِ من أحدٍ إلا يسعَى عليه ألفُ خادمٍ، كلُّ خادمٍ على عَمَلٍ ما عليه صاحبُه.

وقوله ﴿وإذا رأيتَ﴾، أي: وإذا رأيتَ يا محمدُ ﴿ثَمَّ﴾، أي: هناك، يعني الجنَّةَ ونعيمَها وسَعَتَها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور، ﴿رأيتَ نعيماً ومُلكاً كبيراً﴾، أي: مملكةً لله هُناكَ عظيمةً وسُلطاناً باهراً.

وثبتَ في الصحيح أن الله تعالى يقولُ لآخرِ أهلِ النارِ خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: إن لك مثلَ الدنيا وعشرةَ أمثالها[4].

وقد قَدَّمنا في الحديث المَرويّ من طريق ثُوَير بن أبي فاختةَ، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً لَمَنْ ينظر في مُلكه مسيرةَ ألفَي سنةٍ ينظُر إلى أقصاه كما ينظُر إلى أدناه»[5]. فإذا كان هذا عطاءَه تعالى لأدنى مَن يكون في الجنة، فما ظنُّك بما هو أعلى منزلةً، وأحظى عنده تعالى. [[6]- وقد رَوَى الطبراني ها هنا حديثاً غريباً جدًّا فقال:

حدَّثنا علي بن عبد العزيز، حدَّثنا محمد بن عَمَّار الموصلي، حدَّثنا عُقبة بن سالم، عن أيوب بن عُتبة،

---

(١) انقاد الشيء واستقاد: إذا كان سلس القياد.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/٢٢٠.

(٣) أي: في آذانهم الأخراص، وهي جمع خرص، وهي القُرط بحبَّةٍ واحدةٍ. ولم يقع في النسخ من هذا.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ١/١٧٧ ـ ١٧٨.

(٥) تقدَّم الحديث من قريب عند تفسير الآية ٢٣ من سورة القيامة.

(٦ ـ ٦) سقط حديث الطبراني من بعض النسخ. وقد تقدَّم الحديث وتخريجه عند آية النساء ٦٩.

عن عطاء، عن ابن عُمر قال: جاء رجلٌ من الحبشة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له رسولُ الله: «سل واستفهم». فقال: يا رسولَ الله، فُضِّلتُم علينا بالصُّور والألوانِ والنُّبوَّة، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنتَ به وعملتُ بمثل ما عملتَ به، إني لكائنٌ معكَ في الجنة؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إنه ليُرى بياضُ الأسودِ في الجنة في مسيرة ألف عام. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من قال: لا إلٰه إلا الله، كان له بها عهدٌ عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، كُتِبَ له مائة ألف حسنة، وأربعةٌ وعشرونَ ألفَ حسنة. فقال رجل: كيفَ نهلِكُ بعد هذا يا رسولَ الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: إن الرجُل ليأتي يومَ القيامة بالعمل لو وُضِعَ على جَبل لأثقله، فتقوم النعمةُ ـ أو: نِعَمُ الله ـ فتكاد تَستنفِدُ ذلك كُلَّه، إلا أن يَتغمَّده الله برحمته. ونزلت هذه السورة: ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر﴾ إلى قوله: ﴿مُلكاً كبيراً﴾، فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عيناكَ في الجنة؟ قال: نعم. فاستبكى حتى فاضت نفسُه. قال ابن عُمَر: فلَقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يُدْلِيه في حُفرته بيده]

وقولُه: ﴿عاليَهم ثيابُ سُندسٍ خُضرٌ وإستبرَقٌ﴾، أي: لباسُ أهل الجنَّة فيها الحريرُ، ومنه سُندسٌ، وهو رفيعُ الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بَريقٌ ولَمَعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللُّبس، ﴿وحُلُّوا أساورَ من فضةٍ﴾ وهذه صفةُ الأبرار، وأما المُقرَّبون فكما قال: ﴿يُحلَّون فيها من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حَريرٌ﴾.

ولما ذكر تعالى زينةَ الظاهر بالحرير والحُليِّ قال بعده: ﴿وسقاهم ربُّهم شراباً طَهوراً﴾، أي: طَهَّر بواطنهم من الحَسَد والغِلِّ والأذى وسائر الأخلاق الرديَّة، كما رُوِّينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: إذا انتهى أهلُ الجنة إلى باب الجنة وَجدوا هنالك عينين، فكأنما أُلهِمُوا ذلك، فشربوا من إحداهما فأذهبت ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلُوا من الأخرى فَجرت عليهم نَضْرَةُ النعيم[1].

وقولُه: ﴿إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيُكم مشكُوراً﴾، أي: يُقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كقوله: ﴿كُلُوا واشرَبُوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيامِ الخالية﴾، وكقوله: ﴿ونُودوا أن تِلكُم الجنة أُورِثتُموها بما كنتم تعمَلُون﴾.

وقولُه: ﴿وكان سعيُكم مشكوراً﴾، أي: جَزاكم الله على القليلِ بالكثير.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى مُمتنًّا على رسوله ـ ﷺ ـ مما نزَّله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً: ﴿فاصبر لحُكم ربِّك﴾، أي: كما أكرمتُكَ بما أنزلتُ عليك فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيُدبِّرك بحُسن تدبيره، ﴿ولا تُطع منهم آثماً أو كَفُوراً﴾، أي: لا تطِع الكافرين والمنافقين إن أرادُوا صدَّك عما أُنزلَ إليك، بل بلِّغ ما أُنزل إليك من

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وقد تقدم عند تفسير آية الأعراف ٤٣، والزمر ٧٣

رَبّك، وتوكّل على الله؛ فإن الله يَعصِمُك من الناس. فالآثم هو الفاجرُ في أفعاله، والكفورُ هو الكافر بقلبه.

﴿واذكر اسمَ رَبّك بُكرةً وأصيلاً﴾، أي: أولَ النهار وآخِرَه. ﴿ومن الليل فاسجُد له وسَبِّحه ليلاً طويلاً﴾، كقوله: ﴿ومن الليل فتهجّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً﴾، وكقوله: ﴿يا أيها المزّمِّل * قم الليلَ إلا قليلاً * نصفَه أو انقُص منه قليلاً * أو زِدْ عليه ورتّل القرآن ترتيلاً﴾.

ثم قال تعالى منكراً على الكُفّار ومَن أشبههم في حُبِّ الدنيا والإقبال عليها والانصبابِ إليها، وتَرْكِ الدار الآخرة وراء ظُهورهم: ﴿إن هؤلاء يُحِبُّون العاجلة * ويَذَرُون وراءهم يوماً ثَقِيلاً﴾، يعني يوم القيامة.

ثم قال: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أَسْرَهم﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد: يعني خَلْقَهم. ﴿وإذا شئنا بَدّلنا أمثالهم تبديلاً﴾، أي: وإذا شئنا بعثناهم يومَ القيامة، وبَدّلناهم فأعدناهم خَلْقاً جديداً. وهذا استدلال بالبَدْأَةِ على الرجعة.

وقال ابنُ زيد، وابنُ جرير: ﴿وإذا شئنا بَدّلنا أمثالهم تبديلاً﴾: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غَيرهم[١]. كقوله: ﴿إن يَشأْ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾، وكقوله: ﴿إن يشأ يُذهبكم ويأت بخلق جديدٍ * وما ذلك على الله بعزيز﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إنَّ هذه﴾، يعني السورةَ ﴿تذكرةٌ فمن شاء اتخذ إلى ربِّه سبيلاً﴾، أي: طريقاً ومسلكاً، أي: مَن شاء اهتدى بالقرآن كقوله: ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً﴾.

ثم قال: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاءَ الله﴾، أي: لا يقدر أحدٌ أن يَهدِيَ نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجرُّ لنفسه نفعاً، ﴿إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾، أي: عليم بمن يستحق الهدايةَ فَيُيَسّرها له، ويُقَيِّض له أسبابها، ومن يستحقُّ الغَواية فيصرفُه عن الهدى، وله الحِكمَةُ البالغة، والحجَّةُ الدامغة، ولهذا قال: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

ثم قال: ﴿يُدخِل من يشاء في رحمته والظالمين أعدَّ لهم عذاباً أليماً﴾، أي: يهدي مَن يشاء ويُضِلُّ مَن يشاء، ومن يَهدِه فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادِيَ له.

آخر سُورَةِ الإنسانِ ولله الحمدُ والمنّة

(١) تفسير الطبري ٢٩/ ٢٢٧

تفسير

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

وهي مَكيَّة

قال البخاري، حدَّثنا[١] عمر بن حفص بن غِياثٍ، [حدَّثنا أبي][٢]، حدَّثنا الأعمش، حدَّثني إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: بينما نحنُ مع النبي ـ ﷺ ـ في غارٍ بمنى، إذ نَزَلت عليه ﴿والمُرْسَلاتِ﴾، فإنه ليتلوها وإني لأتلقَّاها مِن فيه، وإنَّ فاه لَرَطْبٌ بها، إذ وثبت علينا حيَّةٌ، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «اقتلوها». فابتدرناها فذهَبَت. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «وُقِيَتْ شَرَّكُم كما وُقِيتُم شَرَّها»[٣].

وأخرجه مسلم أيضاً، من طريق الأعمش[٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان بن عُيَينة، عن الزُّهريّ، عن عُبَيد الله، عن ابن عباس، عن أُمِّه: أنها سَمِعَت النبيّ ـ ﷺ ـ يقرأ في المغرب بـ ﴿المُرسَلَاتِ عُرفاً﴾[٤].

وفي رواية مالك، عن الزُّهري، عن عُبَيد الله، عن ابن عباس: أن أُمَّ الفضل سَمِعته يقرأ: ﴿والمُرسلاتِ عُرفاً﴾. فقالت: يا بُنَيَّ، ذكَّرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخِرُ ما سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقرأ بها في المغرب.

أخرجاه في الصحيحين، من طريق مالك، به[٤].

---

(١) في النسخ: «قال البخاري: حدثنا أحمد، حدثنا عمر» وما أثبتناه من صحيح البخاري، وتحفة الأشراف للمزي ٦/٧

(٢) سقط من النسخ.

(٣) فتح الباري، كتاب جزاء الصيد ٤/٣٥، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧٥٥

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/٣٣٨، وفتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٤٦، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا زكريا بن سهل المَرْوَزيُّ، حدثنا علي بن الحسن بن شَقِيق، أخبرنا الحُسين بن واقد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة: ﴿والمرسلاتِ عُرفاً﴾، قال: الملائكةُ.

قال: وروي عن مسروقٍ، وأبي الضحى، ومجاهدٍ ـ في إحدى الروايات ـ والسُّدّي، والربيعِ بن أنس، مثلُ ذلك.

وروي عن أبي صالح أنه قال: هي الرُّسُل. وفي روايةٍ عنه: هي الملائكةُ. وهكذا قال أبو صالح في ﴿العاصفات﴾ و﴿الناشرات﴾ و﴿الفارقات﴾، و﴿المُلقيات﴾: إنها الملائكة.

قال الثوري، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن مُسلم البَطين، عن أبي العُبَيدَين قال: سألتُ ابنَ مسعود عن ﴿المرسلات عُرفاً﴾، قال: الريح[1]. وكذا قال في: ﴿العاصفاتِ عصفاً * والناشراتِ نشراً﴾: إنها الريح. وكذا قال ابن عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وأبو صالح ـ في رواية عنه ـ وتوقف ابنُ جَرير في ﴿المرسلات عُرفاً﴾: هل هي الملائكة أرسلت بالعُرْف[2]، أو كعُرْف الفَرَس يتبع بعضُهم بعضاً[3]؟ أو: هي الريح إذا هَبَّت شيئاً فشيئاً؟ وقطع بأن العاصفاتِ عصفاً هي الرياحُ، كما قاله ابنُ مسعود ومَن تابعه. وممن قال ذلك في العاصفاتِ أيضاً: عليُّ بن أبي طالب، والسُّدّي، وتوقف في ﴿الناشرات نشراً﴾، هل هي الملائكة أو الريح؟ كما تقدم. وعن أبي صالحٍ: أن ﴿الناشراتِ نشراً﴾ المطر.

والأظهر أن ﴿المُرسلات﴾ هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياحَ لواقِحَ﴾ وقال تعالى: ﴿وهو الذي يُرسِل الرياح بُشراً بين يَدَي رحمته﴾. وهكذا العاصفات هي: الرياح، يقال: عَصَفَت الريحُ إذا هَبَّت بتصويت، وكذا الناشرات هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاءُ الربُّ عزَّ وجلَّ.

وقولُه: ﴿فالفارقات فَرْقاً * فالمُلقيات ذكراً * عُذراً أو نُذراً﴾، يعني: الملائكة. قاله ابنُ مسعود، وابنُ عباس، ومسروق، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والربيعُ بن أنس، والسُّدّي، والثَّوري. ولا خلاف ها هنا، فإنها تنزلُ بأمر الله على الرسل، تُفرِّق بين الحقِّ والباطل، والهدى والغَيِّ، والحلالِ والحرامِ، وتُلقي إلى الرسل وَحياً فيه إعذارٌ إلى الخلق، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره.

وقولُه: ﴿إنما تُوعدُون لواقع﴾: هذا هو المُقسَم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وُعدتم به من قيام الساعة،

(١) أخرجه الطبري ٢٩/٢٢٨

(٢) تفسير الطبري ٢٩/٢٢٩

(٣) لعل الطبري يعني بقوله ﴿عرفاً﴾ متتابعاً كعُرْف الفرس، كما قالت العرب: الناس إلى فلانٍ عُرْفٌ واحدٌ إذا توجهوا إليه فأكثروا.

والنفخ في الصُور، وبَعث الأجساد، وجَمع الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد، ومجازاة كُلِّ عاملٍ بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إنَّ هذا كله ﴿لواقع﴾، أي: لكائنٌ لا محالة.

ثم قال: ﴿فإذا النجومُ طُمِست﴾، أي: ذهب ضوؤها، كقوله: ﴿وإذا النجومُ انكدرت﴾ وكقوله ﴿وإذا الكواكبُ انتثرت﴾.

﴿وإذا السماءُ فُرِجت﴾، أي: انفطرت وانشقَّت، وتدلَّت أرجاؤها، ووَهَت أطرافها. ﴿وإذا الجبال نُسِفت﴾، أي: ذُهِبَ بها، فلا يبقى لها عينٌ ولا أثَرٌ، كقوله: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسِفُها ربي نسفاً * فيذرُها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عِوجاً ولا أمتاً﴾، وقال تعالى: ﴿ويوم نُسيِّر الجبال وترى الأرض بارزةً وحشرناهم فلم نُغادر منهم أحداً﴾.

وقوله: ﴿وإذا الرُّسل أُقِّتت﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: جُمِعت. وقال ابنُ زيدٍ[1]: وهذه كقوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾. وقال مجاهد: ﴿أُقِّتت﴾: أجلت.

وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿أُقِّتت﴾: أُوعدت. وكأنه يجعلُها كقوله: ﴿وأشرقت الأرضُ بنور ربِّها ووُضِعَ الكتاب وجيءَ بالنبيِّين والشهداء وقُضي بينهم بالحقِّ وهم لا يظلمون﴾.

ثم قال: ﴿لأيِّ يومٍ أُجِّلت * ليوم الفصلِ * وما أدراك ما يومُ الفصلِ * ويلٌ يومئذٍ للمُكذِّبين﴾، يقول تعالى: لأيِّ يومٍ أُجِّلت الرسُل وأُرجِيءَ أمرها؟ حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿فلا تحسبنَّ الله مُخلِفَ وعدِهِ رُسُلَه إن الله عزيزٌ ذو انتقام * يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات وبرزُوا لله الواحدِ القهَّار﴾ وهو يومُ الفصلِ، كما قال: ﴿ليوم الفصل﴾.

ثم قال مُعظِّماً لشأنه: ﴿وما أدراكَ ما يومُ الفصلِ * ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾، أي: وَيلٌ لهم من عذابِ الله غداً. وقد قدَّمنا في الحديث أن «ويل»: وادٍ في جهنم[2] ولا يصحُّ.

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ألم نُهلِك الأولين﴾، يعني من المكذِّبين للرُّسل المخالفين لما جاؤوهم به، ﴿ثم نُتبِعهم الآخِرين﴾، أي: ممَّن أشبههم. ولهذا قال: ﴿كذلك نفعلُ بالمجرمين * ويلٌ يومئذ للمكذِّبين﴾. قاله ابن جرير[3].

ثم قال ممتنًّا على خَلقِه ومُحتجًا على الإعادة بالبَداءة: ﴿ألم نخلقكم من ماءٍ مَهين﴾؛ أي: ضعيفٍ حقير

(١) أخرجه الطبري ٢٩/٢٣٤.
(٢) انظر تفسير الآية ٧٩ من سورة البقرة.
(٣) تفسير الطبري ٢٩/٢٣٥.

بالنسبة إلى قُدرةِ الباري عزَّ وجلَّ، كما تقدم في سورة ﴿يسٓ﴾ في حديث بُسْر بن جحّاش. «ابنَ آدم، أنَّى تُعجِزُني وقد خلقتُك من مثل هذه؟!»(١).

﴿فجعلناه في قرارٍ مكينٍ﴾، يعني: جمعناه في الرَّحِم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرَّحِم مُعَدٌّ لذلك، حافظٌ لما أُودِعَ فيه من الماء.

وقولُه: ﴿إلى قدرٍ معلومٍ﴾، يعني إلى مُدَّةٍ مُعيَّنة من ستةِ أشهُرٍ أو تسعةِ أشهُرٍ. ولهذا قال: ﴿فقدرنا فنعمَ القادِرُون * ويلٌ يومئذٍ للمُكذِّبين﴾.

ثم قال: ﴿ألم نجعل الأرضَ كفاتاً * أحياءً وأمواتاً﴾، قال ابنُ عباس: ﴿كفاتاً﴾: كِنّاً(٢). وقال مجاهدٌ: يُكفَتُ المَيِّتُ فلا يُرَى منه شيء. وقال الشعبيُّ: بطنها لأمواتكم، وظهرُها لأحيائكم. وكذا قال مجاهد وقتادة.

﴿وجعلنا فيها رواسيَ شامخاتٍ﴾، يعني: الجبالَ أرسى بها الأرضَ لئلا تَميدَ وتضطربَ. ﴿وأسقيناكم ماءً فُراتاً﴾: عذباً زُلالاً من السحاب، أو مما أنبعه الله من عُيُونِ الأرض. ﴿ويلٌ يومئذ للمكذبين﴾، أي: ويلٌ لمن تأمَّل هذه المخلوقاتِ الدالَّةِ على عظَمة خالقِها، ثم بعد هذا يستمرُّ على تكذيبه وكفره.

﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٩) ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) ﴾

يقولُ تعالى مخاطباً للكُفّار المكذِّبين بالمعاد والجزاء والجنَّة والنار، أنهم يُقال لهم يومَ القيامة: ﴿انطلِقُوا إلى ما كنتم به تُكذِّبون * انطلِقُوا إلى ظلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ﴾، يعني لَهَبَ النار إذا ارتفع وصَعِدَ معه دُخانٌ، فمِن شدَّته وقوَّته أن له ثلاثَ شُعَبٍ، ﴿لا ظليلٍ ولا يُغني من اللَّهَب﴾، أي: ظلُّ الدُّخان المقابل لِلَّهبِ لا ظَليلٌ هو في نفسه، ولا يُغني من اللَّهَب، يعني ولا يَقِيهم حرَّ اللَّهَب.

وقولُه: ﴿إنها تَرْمِي بشَرَرٍ كالقَصْر﴾، أي: يتطاير الشررُ من لَهَبِها كالقصر. قال ابن مسعود: كالحصُون، وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادةُ، ومالك عن زيد بن أسلم، وغيرهم: يعني أصولَ الشَّجَر.

﴿كأنه جمالات(٣) صُفرٌ﴾، أي: كالإبل السُّود. قاله مجاهد، والحسن، وقتادةُ، والضحَّاك. واختاره ابنُ جرير(٤).

وعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير: ﴿جِمَالات صُفر﴾، يعني: حبال السفن. وعنه ـ أعني ابنَ عباس ـ: ﴿جِمالاتٌ صُفرٌ﴾: قطعُ نُحاسٍ.

وقال البخاري: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا يحيى، أخبرنا سفيان، عن عبد الرحمن بن عابسٍ قال:

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٧٧ من سورة ﴿يسٓ﴾.
(٢) أخرجه الطبري ٢٩/٢٣٧.
(٣) كذا في نسخنا ﴿جمالات﴾ بالجمع، وقرأ بها من السبعة غير حفص وحمزة والكسائي، الإقناع لابن الباذش ٢/٨٠١.
(٤) تفسير الطبري ٢٩/٢٤٢.

سمعتُ ابن عباس: ﴿إنها ترمي بشررٍ كالقصر﴾، قال: كنا نعمدُ إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك، فنرفعه للشتاء، فنسميه القصر[1]، ﴿كأنه جمالاتٌ صفر﴾: حبالُ السفن، تجمع حتى تكون كأوساط الرجال[2].

﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾، ثم قال تعالى ﴿هذا يومُ لا ينطقون﴾، أي: لا يتكلمون ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾، أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحُجّة ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون. وعرصات القيامة حالاتٌ، والربُّ تعالى يخبر عن هذه الحالة تارةً، وعن هذه الحالة تارةً؛ ليدل على شدّة الأهوال والزلازل يومئذٍ. ولهذا يقولُ بعدَ كلِّ فصلٍ من هذا الكلام: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾.

وقولُه: ﴿هذا يومُ الفصلِ جمعناكُم والأولين * فإن كان لكم كيدٌ فكيدُون﴾: وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقولُ لهم: ﴿هذا يومُ الفصلِ جمعناكم والأولين﴾، يعني أنه جَمَعهم بقدرته في صعيدٍ واحدٍ، يُسمِعهم الداعي ويَنفُذُهم البصر[3].

وقولُه: ﴿فإن كانَ لكم كيدٌ فكيدُون﴾: تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حُكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال: ﴿يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطانٍ﴾. وقد قال تعالى: ﴿ولا تضرُّونه شيئاً﴾. وفي الحديث: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضرِّي فتضروني»[4].

وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا علي بن المنذر الطَّرِيقي الأودي، حدثنا محمد بن فضيل، حدَّث حُصين بن عبد الرحمن، عن حسَّان بن أبي المخارق، عن أبي عبد الله الجَدَلي قال: أتيتُ بيتَ المقدس، فإذا عُبادة بنُ الصامتِ وعبدُ الله بن عمرو وكعبُ الأحبار يتحدثون في بيت المقدس، فقال عبادة: إذا كان يومُ القيامة جَمَع الله الأولين والآخرين بصعيدٍ واحدٍ، ينفذهم البصر ويُسمعهم الداعي، ويقول الله: ﴿هذا يومُ الفصل جمعناكُم والأولين * فإن كان لكم كيدٌ فكيدون﴾، اليوم لا ينجو مني جبارٌ عنيدٌ، ولا شيطانٌ مريدٌ. فقال عبد الله بن عمرو: فإنا نُحدَّث يومئذٍ أنه يخرج عُنُق[5] من النار فتنطلق حتى إذا كانت بين ظهراني الناس نادت: أيها الناسُ، إني بُعثتُ إلى ثلاثةٍ أنا أعرفُ بهم من الأب بولده ومن الأخ بأخيه، لا يُغيِّبهم عني وزرٌ، ولا تُخفيهم عني خافية: الذي جَعَل مع الله إلهاً آخر، وكلِّ جبَّارٍ عنيدٍ، وشيطانٍ مريدٍ. فتنطوي عليهم، فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة[6].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(١) القصر، بسكون الصاد وفتحها، وهو على الفتح جمع قصرة، أي: كأعناق الإبل، وقيل: أعناق النخل.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة المرسلات ٦٨٨/٨.

(٣) هذا اقتباس من حديث تقدم تخريجه وتفسير غريبه عند تفسير آية الإسراء ٧٩.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب البر ٤/١٩٩٤ ـ ١٩٩٥.

(٥) أي: طائفة.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب ذكر النار ١٣/١٧٠ ـ ١٧١، بإسناده إلى محمد بن فضيل، به بنحوه. كما أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر كما في الدر المنثور ٣٨٧/٨ ـ ٣٨٨.

يقولُ تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدُوه بأداء الواجبات، وترْكِ المحرمات، أنهم يوم القيامة يكونون في جناتٍ وعيونٍ، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياءُ فيه، من ظلِّ اليحمُوم، وهو: الدُّخان الأسودُ المُنتِنُ.

﴿وفواكه مما يشتهُون﴾، أي: ومن سائر أنواع الثمار، مهما طلبُوا وجدُوا، ﴿كُلوا واشربُوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾، أي: يُقال لهم ذلك على سبيل الإحسانِ إليهم.

ثم قال تعالى مُخبراً خبراً مستأنفاً: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾، أي: هذا جزاؤُنا لمن أحسن العمَل، ﴿ويلٌ يومئذٍ للمُكذِّبين﴾.

وقولُه: ﴿كُلوا وتمتَّعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾، خِطاب للمكذِّبين بيوم الدين، وأمرَهم أمْرَ تهديدٍ ووَعيدٍ فقال تعالى: ﴿كُلو وتمتَّعوا قليلاً﴾، أي: مُدَّةً قليلةً قريبةً قصيرةً، ﴿إنكُم مجرمُون﴾، أي: ثم تُساقُون إلى نار جَهنَّم التي تقدَّم ذكرها، ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾، كما قال تعالى: ﴿نُمتِّعهم قليلاً ثم نضطرُّهم إلى عذابٍ غليظٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذبَ لا يفلحون * متاعٌ في الدنيا ثم إلينا مرجعُهم ثم نذيقهم العذابَ الشديدَ بما كانوا يكفرون﴾.

وقولُه: ﴿وإذا قيل لهم اركعُوا لا يركعُون﴾، أي: إذا أُمِرَ هؤلاء الجهلةُ من الكفار أن يكونُوا من المصلِّين مع الجماعة امتنعُوا من ذلك واستكبَرُوا عنه. ولهذا قال: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾.

ثم قال: ﴿فبأيِّ حديثٍ بعده يُؤمنُون﴾، أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآنِ فبأيِّ كلامٍ يُؤمنُون به؟! كقوله تعالى: ﴿فبأيِّ حديث بعدَ الله وآياته يُؤمنُون﴾.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدَّثنا سفيانُ، عن إسماعيلَ بن أُميَّة: سمعتُ رجلاً أعرابيًّا بدويًّا يقول: سَمعتُ أبا هُرَيْرةَ يَرْويه: «إذا قرأ: ﴿والمرسلات عُرْفًا﴾، فقرأ: ﴿فبأيِّ حديثٍ بعدَه يؤمنون﴾ فليقل: آمنتُ بالله وبما أنزلَ».

وقد تقدم هذا الحديث في «سورة القيامة»[1].

آخرُ تفسيرِ سورة ﴿والمُرْسَلاتِ﴾، ولله الحمد والمنَّة

(١) تقدَّم الحديث وتخريجه آخر سورة القيامة.

تفسير

سُورَةُ النَّبَإِ

وهي مكيَّة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ
مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١
وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥
وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦ ﴾

يقولُ تعالى مُنكِراً على المشركين في تساؤُلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقُوعِه. ﴿عَمَّ يتساءلون * عن النبإ العَظِيم﴾، أي: عن أي شيء يتساءلون؟ عن أمر القيامة، وهو النبأ العظيم، يعني الخبر الهائلَ المُفظع الباهرَ.

قال قتادةُ، وابنُ زيدٍ: النبأ العظيم: البعثُ بعدَ الموت. وقال مجاهدٌ: هو القرآن. والأظهر الأول لقوله: ﴿الذي هُم فيه مُختلِفُون﴾، يعني الناس فيه على قولَين مُؤمنٍ به وكافر.

ثم قال تعالى مُتوعِّداً لِمُنكِري القيامة: ﴿كَلَّا سيعلَمُون * ثم كَلَّا سيعلَمُون﴾، وهذا تهديدٌ شديدٌ ووَعيدٌ أكيدٌ.

ثم شرع تعالى يُبيِّن قُدرتَه العظيمةَ على خَلْق الأشياء الغَريبة والأمورِ العجيبة الدالة على قُدرته على ما يشاءُ من أمر المَعَاد وغيره، فقال: ﴿ألم نجعل الأرْضَ مِهاداً﴾، أي: مُمَهَّدة للخلائق ذَلُولاً لهم، قارَّةً ساكنةً

ثابتةً، ﴿والجبالَ أوتاداً﴾، أي: جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبَّتها وقرَّرها، حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها.

ثم قال ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾، يعني: ذكراً وأُنثى، يستمتع كلٌّ منهما بالآخر، ويحصُل التناسُل بذلك، كقوله. ﴿ومِن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لِتسكُنوا إليها وجعل بينكم مودَّةً ورحمةً﴾

وقولُه: ﴿وجعلنا نومكُم سُباتاً﴾، أي: قطْعاً للحركة لِتحصُلَ الراحةُ مِن كثرةِ التَّرداد والسَّعي في المعاشِ في عَرْضِ النهار. وقد تقدَّم مثل هذه الآية في «سورة الفرقان»[1].

﴿وجعلنا الليل لِباساً﴾، أي: يغشى الناسَ ظلامُه وسوادُه، كما قال. ﴿والليلِ إذا يغشاها﴾، وقال الشاعر:[2]

فلمَّا لَبِسْنَ الليلَ، أو حِين نَصَّبَتْ لَهُ مِن خَذَا آذانِها وَهْوَ جانِحُ

وقال قتادةُ في قوله ﴿وجعلنا الليلَ لِباساً﴾، أي. سَكَناً.

وقولُه: ﴿وجعلنا النهارَ معاشاً﴾، أي: جعلناه مُشرِقاً مُنيراً مُضيئاً، ليتمكَّن الناسُ من التصرُّفِ فيه والذَّهاب والمجيء للمعاش والتكسُّب والتجارات، وغير ذلك.

وقولُه ﴿وبَنينا فوقكُم سَبعاً شِداداً﴾، يعني: السمواتِ السبعَ، في اتِّساعها وارتفاعها، وإحكامها وإتقانها، وتَزْيينها بالكواكب الثوابت والسيَّارات. ولهذا قال: ﴿وجعلنا سِراجاً وهَّاجاً﴾، يعني: الشمسَ المنيرةَ على جميع العالم التي يتوهَّجُ ضوؤها لأهل الأرضِ كُلِّهم.

وقولُه ﴿وأنزلنا من المعصرات ماءً ثَجَّاجاً﴾، قال العوفي، عن ابن عباس. ﴿المُعصِرات﴾: الريحُ

وقال ابنُ أبي حاتم. حدَّثنا أبو سعيد، حدَّثنا أبو داود الحَفَرِيُّ، عن سفيانَ، عن الأعمش، عن المِنهال، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وأنزلنا مِن المُعصِرات﴾، قال: الرياحُ. وكذا قال عِكرِمةُ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، ومقاتلٌ، والكَلبيُّ، وزيدُ بن أسلَمَ، وابنُه عبدُ الرحمن: إنها الرياحُ. ومعنى هذا القولِ أنها تستدرُّ المطَرَ من السَّحاب.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿من المعصرات﴾، أي: مِن السحابِ، وكذا قال عِكْرِمة أيضاً، وأبو العالية، والضَّحَّاك، والحسن، والربيعُ بن أنس، والثوريُّ. واختاره ابن جرير[3]

وقال الفرَّاء: هي السحاب التي تَتحلَّبُ بالمطر ولم تُمطر بعدُ، كما يُقال: امرأةٌ مُعصِرٌ: إذا دنا حَيضُها ولم تَحِض[4]. وعن الحسن، وقتادة: ﴿من المعصرات﴾: يعني السمواتِ. وهذا قولٌ غريبٌ.

والأظهرُ أن المرادَ بالمُعصِرات السحابُ، كما قال تعالى: ﴿الله الذي يُرسِل الرياح فتُثير سحاباً فيَبسُطه في السماء كيف يشاءُ ويجعله كِسَفاً فترى الوَدْقَ يخرجُ من خِلاله﴾، أي: من بينه.

---

(١) انظر تفسير الآية ٤٧ من سورة الفرقان

(٢) هو ذو الرُّمَّة، ديوانه ٢/ ٨٩٧ ولبس الليل: دخل فيه. نصَّبت له من خذا آذانها، يريد: كانت خفضت آذانها لبرد الليل، كأنها مُكَّبات الرؤوس، ثم رفعتها ونصبت آذانها في ذلك الوقت. والخذا: الاسترخاء.

(٣) تفسير الطبري ٣٠/ ٥.

(٤) لم يخرِّج الطبري ٣٠/ ٥ نسبته إلى الفرَّاء، بل قال «وقال آخرون». وانظره في تفسير القرطبي ١٩/ ١٧٢

وقوله: ﴿ماءً ثَجَّاجاً﴾، قال مجاهدٌ، وقتادةُ، والربيعُ بن أنس: ﴿ثَجَّاجاً﴾: مُنصبًّا. وقال الثوري: مُتتابعاً. وقال ابنُ زيدٍ: كثيراً.

قال ابن جرير: ولا يُعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثجُّ، وإنما الثجُّ: الصبُّ المتتابع. ومنه قول النبي ـ ﷺ ـ: «أفضلُ الحجِّ العجُّ والثجُّ». يعني: صبَّ دماءِ البُدْنِ[1]. هكذا قال.

قلتُ: وفي حديثِ المستحاضة حين قال لها رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أنعتُ لكِ الكُرسُفَ» ـ يعني أن تحتشي بالقُطن ـ قالت: يا رسولَ الله، هو أكثرُ من ذلك، إنما أثُجُّ ثَجّاً[2]. وهذا فيه دَلالة على استعمالِ الثَّجِّ في الصَّبِّ المتتابع الكثير، والله أعلم.

وقولُه: ﴿لِنُخرجَ به حبًّا ونباتاً * وجناتٍ ألفافاً﴾، أي: لِنُخرِجَ بهذا الماءِ الكثيرِ الطيِّبِ النافعِ المُباركِ ﴿حبًّا﴾ يُدَّخر للأناسيِّ والأنعام، ﴿ونباتاً﴾، أي: خضِراً يُؤكل رَطْباً، ﴿وجنَّاتٍ﴾، أي: بساتينَ وحدائقَ من ثمراتٍ مُتنوِّعةٍ، وألوانٍ مختلفةٍ، وطُعومٍ وروائحَ متفاوتةٍ، وإن كان ذلك في بقعةٍ واحدةٍ من الأرض مجتمعاً، ولهذا قال: ﴿وجناتٍ ألفافاً﴾، قال ابنُ عباسٍ، وغيرُه: ﴿ألفافاً﴾: مُجتمعةً. وهذه كقوله تعالى: ﴿وفي الأرض قِطَعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعنابٍ وزرْعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ يُسقى بماءٍ واحدٍ ونُفضِّل بعضها على بعضٍ في الأُكُل﴾... الآية.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا (١٩) وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا (٢٢) لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَآءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا (٢٩) فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو يومُ القيامة، أنه مُؤقَّتٌ بأجلٍ معدودٍ، لا يُزاد عليه ولا يُنقص منه، ولا يَعلم وقتَه على التعيين إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، كما قال: ﴿وما نُؤخِّره إلا لأجلٍ معدودٍ﴾.

﴿يومَ يُنفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾، قال مجاهد: زُمَراً. قال ابنُ جرير: يعني تأتي كلُّ أمةٍ مع رسُولها، كقوله: ﴿يوم ندعُو كلَّ أناسٍ بإمامهم﴾.

وقال البُخاريُّ: ﴿يوم يُنفخُ في الصُّورِ فتأتون أفواجاً﴾، حدَّثنا محمدٌ، حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما بين النَّفختَين أربعونَ». قالوا: أربعون يوماً؟ قال: «أبيتُ». قالوا: أربعونَ شهراً؟ قال: «أبيتُ». قال: أربعون سنةً؟ قال: «أبيتُ». قال: «ثم يُنزِلُ الله من السماء ماءً فيَنبُتون كما ينبتُ البقلُ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلى، إلا عظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذنَبِ، ومنه يُركَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة»[3].

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٦

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه في كتاب الطهارة، سنن أبي داود ٧٦/١، وعارضة الأحوذي ٢٠١/١، وسنن ابن ماجه ٢٠٣/١ ـ ٢٠٤

(٣) فتح الباري، تفسير سورة ﴿عَمَّ يتساءلون﴾ ٦٨٩/٨ ـ ٦٩٠

﴿وفُتحت السماءُ فكانت أبواباً﴾، أي. طُرُقاً ومسالكَ لنزول الملائكة، ﴿وسُيِّرت الجبالُ فكانت سراباً﴾ كقوله: ﴿وتَرَى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السحاب﴾، وكقوله: ﴿وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفوش﴾.

وقال ها هنا: ﴿فكانت سراباً﴾، أي. يُخيَّل إلى الناظر أنها شيءٌ، وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكُلِّيَّة، فلا عينَ ولا أثَر، كما قال: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسِفُها ربِّي نسفاً * فيذرُها قاعاً صفصفاً * لا تَرَى فيها عِوَجاً ولا أمتاً﴾. وقال. ﴿ويوم نُسَيِّر الجبال وترى الأرض بارزة﴾.

وقولُه. ﴿إنَّ جهنَّم كانت مرصاداً﴾، أي: مُرْصَدةً ﴿للطَّاغين﴾، وهم: المَرَدة العُصاة المخالِفُون للرُّسُل، ﴿مآباً﴾، أي: مَرْجِعاً ومُنْقَلَباً ومَصيراً ونُزُلاً. وقال الحسنُ، وقتادة في قوله: ﴿إنَّ جهنَّم كانت مِرْصاداً﴾، يعني. أنه لا يدخل أحدٌ الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جوازٌ نجا وإلا احتُبس. وقال سفيان الثوريُّ: عليها ثلاث قَنَاطر.

وقوله: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾، أي. ماكِثين فيها أحقاباً، وهي جمعُ «حُقُب»، وهو: المُدَّة من الزمان. وقد اختلفُوا في مقداره، فقال ابنُ جَرير، عن ابن حُمَيد، عن مِهرانَ، عن سفيان الثوري، عن عمَّار الدُّهنيِّ، عن سالم بن أبي الجَعد قال: قال عليُّ بن أبي طالب لِهلال الهَجَريِّ: ما تجدونَ الحُقُبَ في كتاب الله المُنزَّل؟ قال: نجده ثمانينَ سنةً، كل سنةٍ اثنا عشرَ شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألفَ سنة[1].

وهكذا رُوِيَ عن أبي هُرَيرة، وعبد الله بن عَمرو، وابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وعَمرو بن ميمُون، والحَسَن، وقتادة، والربيع بن أنس، والضحَّاك. وعن الحسن، والسُّدِّي أيضاً: سبعون سنةً كذلك. وعن عبد الله بن عَمرو: الحُقُبُ أربعون سنةً. كل يوم منها كألف سنة مما تعدون. رواهما ابنُ أبي حاتم.

وقال بُشَير بنُ كعب: ذُكِر لي أن الحُقُبَ الواحد ثلاثمائةِ سنة، كلُّ سنةٍ ثلاثمائةٍ وستُّون يوماً، كلُّ يوم ألفُ سنةٍ. رواه ابن جرير[1]، وابن أبي حاتم.

ثم قال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن عُمَر بن علي بن أبي بكر الأسْفَذْنيّ: حدَّثنا مَرْوان بن معاوية الفَزَاري، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾، قال: فالحُقُبُ شهرٌ، الشهرُ ثلاثون يوماً، والسنةُ اثنا عشر شهراً، والسنةُ ثلاثمائة وستون يوماً، كلُّ يوم منها ألفُ سنةٍ مما تعدون، فالحُقب ثلاثون ألفَ ألفِ سنةٍ.

وهذا حديثٌ منكرٌ جدًّا، والقاسمُ والراوي عنه، وهو جعفرُ بنُ الزبير، كلاهما متروكٌ.

وقال البزَّار: حدَّثنا محمد بن مِرْدَاس، حدَّثنا سليمان بن مسلم أبو المُعَلَّى قال: سألتُ سليمانَ التيميَّ هل يخرج من النار أحدٌ؟ فقال: حدَّثني نافعٌ، عن ابن عُمَر، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال: «والله لا يخرُجُ من النارِ أحدٌ حتى يمكُثَ فيها أحقاباً». قال: والحُقُب: بضعٌ وثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستُّون يوماً مما تعدُّون.

ثم قال: سليمان بن مسلم بصريٌّ مشهورٌ[2].

وقال السُّدِّي: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾: سبعمائة حُقب، كل حُقب سبعون سنة، كلُّ سنةٍ ثلاثمائةٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ كألفِ سنةٍ مما تعدُّون.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/ ١١

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب صفة جهنم ٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

وقد قال مُقاتل بن حَيّان: إن هذه الآيةَ منسوخةٌ بقوله ﴿فذُوقوا فلن نَزِيدَكُم إلَّا عذاباً﴾. وقال خالد بن مَعْدَانَ هذه الآية وقوله ﴿إلا ما شاء ربُّك﴾ في أهل التوحيد. رواهما ابنُ جرير[1].

ثم قال: وَيَحتمِلُ أن يكون قولُه: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ مُتعلِّقاً بقوله ﴿لا يَذُوقون فيها برداً ولا شراباً﴾، ثم يُحدِثُ الله لهم بعدَ ذلك عذاباً من شكلٍ آخَرَ ونوعٍ آخرَ. ثم قال والصحيحُ أنها لا انقضاءَ لها كما قال قتادةُ والربيعُ بن أنس. وقد قال قبل ذلك:

حدَّثني محمدُ بن عبد الرحيم البَرْقي، حدَّثنا عمرو بن أبي سَلَمة، عن زُهَير، عن سالم: سمعتُ الحسنَ يسألُ عن قوله: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾، قال: أما الأحقاب فليس لها عِدَّةٌ إلا الخلودُ في النار، ولكن ذكروا أن الحُقبَ سبعُون سنةً، كلُّ يومٍ منها كألفِ سنةٍ مما تعدُّون.

وقال سعيد، عن قتادةَ قال الله تعالى: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾، وهو: ما لا انقطاعَ له، وكلَّما مضى حُقُبٌ جاء حُقُبٌ بعدَه، وذكر لنا أن الحُقُبَ ثمانون سنة.

وقال الربيع بن أنس: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾: لا يَعلم عِدَّةَ هذه الأحقاب إلا الله، ولكن الحُقُب الواحدَ ثمانون سنة، والسنةُ ثلاثمائة وستُّون يوماً، كلُّ يوم كألفِ سنةٍ مما تعدون. رواهما أيضاً ابنُ جرير.

وقولُه: ﴿لا يذوقُون فيها برداً ولا شراباً﴾، أي: لا يَجدُون في جَهنَّم برداً لِقُلوبهم، ولا شراباً طَيِّباً يَتغذَّون به. ولهذا قال: ﴿إلا حَميماً وغَسّاقاً﴾، قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميمَ ومن الشراب الغَسّاق وكذا قال الربيعُ بن أنس.

فأما الحميمُ فهو الحارُّ الذي قد انتهى حَرُّه وحُمُوُّه. والغَسّاق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعَرَقهم ودُمُوعِهم وجُرُوحِهم، فهو بارد لا يُستَطاع من برده ولا يُواجَه من نَتنه. وقد قدَّمنا الكلامَ على الغَسّاقِ في سورة ﴿صٓ﴾ بما أغنى عن إعادته[2]، أجارنا الله من ذلك، بمنِّه وكَرَمِه.

قال ابنُ جَريرٍ: وقيلَ: المرادُ بقوله: ﴿لا يذُوقون فيها برداً﴾، يعني: النومَ، كما قال الكِنديُّ[3]:

بَرَدَت مَراشِفُها عَلَيَّ فَصَدَّني عنها وعَنْ قُبُلاتِها البَرْدُ

يعني بالبرد: النُّعاسَ والنومَ. هكذا ذكره ولم يَعْزُه إلى أحدٍ. وقد رَوَاه ابن أبي حاتم، من طريق السُّدِّي، عن مُرَّة الطَّيِّب، ونَقَله عن مُجاهدٍ أيضاً. وحكاه البَغَويُّ عن أبي عُبَيدة، والكِسائيِّ أيضاً[4].

وقولُه: ﴿جزاءً وِفاقاً﴾، أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العُقوبة وَفْقَ أعمالِهم الفاسدةِ التي كانوا يعملُونها في الدنيا. قاله مجاهدٌ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ.

ثم قال: ﴿إنَّهم كانوا لا يرجُون حساباً﴾، أي: لم يكونوا يعتقدون أنَّ ثَمَّ داراً يُجازون فيها ويُحاسَبُون، ﴿وكَذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً﴾، أي: وكانوا يُكذِّبون بِحُجَجِ الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رُسُله، فيقابلُونها بالتكذيب والمعاندةِ.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/١٢.
(٢) انظر تفسير الآية ٥٧ من سورة ﴿صٓ﴾.
(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ٣٣١، وتفسير الطبري ٣٠/١٢، وإعراب القرآن للنحاس ٥/١٣١ والمراشف: الشِّفاه.
(٤) تفسير البغوي ٤/٤٣٨.

وقوله: ﴿كِذَّاباً﴾، أي: تكذيباً، وهو مصدرٌ من غير الفعل. قالوا: وقد سُمع أعرابي يستفتي الفرّاء[1] على المروة: الحلقُ أحبُّ إليك أو القصّارُ؟ وأنشد بعضهم[1]:

لَقَد طَالَ ما ثَبَّطتني عن صَحَابَتِي وعن حوجٍ قِضَّاؤُهَا من شِفَائِيَا

وقوله: ﴿وكلَّ شيءٍ أحصيناه كتاباً﴾، أي: وقد عَلِمنا أعمالَ العبادِ كلِّهم، وكتبناها عليهم، وسَنجزيهم على ذلك، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

وقوله: ﴿فذُوقوا فلن نزيدكم إلاّ عذاباً﴾، أي: يقال لأهل النار: ذُوقوا ما أنتم فيه، فلن نَزيدكم إلاّ عذاباً من جِنسه، ﴿وآخرُ من شَكْلِه أزواجٌ﴾ .

قال قتادةُ، عن أبي أيّوبَ الأزديّ، عن عبد الله بن عَمرو قال: لم ينزل على أهل النار آيةٌ أشدُّ من هذه: ﴿فذُوقوا فلن نزيدكم إلاّ عذاباً﴾. قال: فَهُم في مَزيدٍ من العذاب أبداً[2].

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا محمد بن محمد بن مُصعَب الصُّوري، حَدَّثنا خالد بن عبد الرحمن، حدَّثنا جِسر بن فَرقد، عن الحَسَن قال: سألتُ أبا بَرْزَة الأسلميَّ عن أشدِّ آيةٍ في كتاب الله على أهل النار. قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ: ﴿فذُوقوا فلن نَزيدكُم إلاّ عذاباً﴾، فقال: «هَلَك القوم بمعاصيهم الله عزَّ وجلَّ».

جِسْرُ بن فَرقَدٍ ضعيفُ الحديثِ بالكليّة.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦ ﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً عن السُّعَداء وما أعدَّ لهم تعالى من الكرامة والنعيم المُقيم، فقال: ﴿إنَّ للمتقين مفازاً﴾. قال ابنُ عباس، والضحّاكُ: مُتنزَّهاً. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ: فازوا فنَجوا من النار. والأظهر ها هنا قولُ ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حدائقَ﴾، وهي البساتين من النخيل وغيرها ﴿وأعناباً * وكواعبَ أتراباً﴾، أي: وحُوراً كَواعب. قال ابن عباس ومجاهدٌ، وغيرُ واحدٍ: ﴿كواعِبَ﴾، أي: نَوَاهِد، يعنُون أن ثُدِيَّهُنَّ نواهِدُ لم يتدلَّين لأنهن أبكارٌ عُرُبٌ أترابٌ، أي: في سِنٍّ واحدةٍ، كما تقدَّم بيانُه في «سورة الواقعة»[3].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا[4] عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن الدَّشتكي، حدَّثني أبي، عن أبي سفيان عبدِ الرحمن بن عبد الله بن تيْم، حدَّثنا عطيةُ بن سليمان أبو الغيث، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن أبي القاسم الدِّمَشقي، عن أبي أُمامةَ: أنه سَمِعه يُحدِّث عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ قُمُص أهلِ الجَنَّة لَتبدُو من رِضوانِ الله، وإن السحابةَ لَتمرُّ بهم فتُناديهم. يا أهل الجنةِ، ماذا تُريدون أن أُمطِرَكم؟ حتى إنها لَتُمطِرُهم الكواعبَ الأترابَ».

وقولُه: ﴿وكأساً دهاقاً﴾، قال ابنُ عباس: مملوءةً متتابعةً. وقال عكرمةُ: صافيةً. وقال مجاهدٌ والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: ﴿دِهاقاً﴾: المَلأى المُترعَةُ. وقال مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير: هي المُتَتابعة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/٢٢٩، والبيت من شواهده كذلك وتفسير الطبري ٣٠/١٦، وهو للأحوص بن براء الكلابي.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٧.
(٣) انظر تفسير الآية ٣٧ من سورة الواقعة.
(٤) كذا، ولعله عبد الرحمن بن عبد الله، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٥/٢٥٤، وتهذيب الكمال ١٧/٢١٥ والله أعلم

وقولُه: ﴿لا يسمعُون فيها لغواً ولا كذَّاباً﴾ كقوله: ﴿لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ﴾، أي: ليس فيها كلامٌ لاغٍ عارٍ عن الفائدةِ، ولا إثمٌ كذبٍ، بل هي دار السلام، وكلُّ كلام فيها سالم من النَّقص.

وقولُه: ﴿جزاءً من ربِّك عطاءً حساباً﴾، أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهُموه، بفضله ومنِّه وإحسانِه ورحمتِه؛ ﴿عطاءً﴾ حِساباً، أي: كافياً وافراً شاملاً كثيراً؛ تقولُ العربُ: «أعطاني فأحسبني»، أي: كفاني. ومنه «حَسْبي الله»، أي: الله كافيَّ.

﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن عظَمته وجلاله، وأنه ربُّ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمنُ الذي شَمِلت رحمتُه كلَّ شيءٍ.

وقولُه: ﴿لا يَملِكُون منه خطاباً﴾، أي: لا يَقدرُ أحدٌ على ابتداءِ مُخاطبته إلَّا بإذنه، كقوله: ﴿مَن ذا الذي يَشفَع عنده إلَّا بإذنه﴾، وكقوله: ﴿يوم يأتِي لا تَكلَّم نفسٌ إلا بإذنِه﴾.

وقولُه: ﴿يوم يقومُ الروحُ والملائكةُ صفًّا لا يتكلَّمون﴾: اختلف المفسِّرون في المراد بالرُّوح ها هنا، ما هو؟ على أقوال:

أحدها: رواه العَوفيُّ، عن ابن عباس: أنهم أرواح بني آدم. الثاني: هم بنو آدمَ. قاله الحسنُ، وقتادةُ. وقال قتادة: هذا مما كان ابنُ عباس يكتمُه. الثالث: أنهم خَلْقٌ من خَلْق الله، على صُوَرِ بني آدمَ، وليسُوا بملائكةٍ ولا بِبَشَرٍ، وهم يأكُلون ويشربُون. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وأبو صالح، والأعمش. الرابع: هو جبريل. قاله الشعبي، وسعيد بن جُبَير، والضحَّاك. ويُستشهَدُ لهذا القولِ بقوله: ﴿نَزَل به الروحُ الأمينُ ● على قلبكَ لتكونَ من المنذِرين﴾. وقال مقاتل بن حيَّان: الروحُ أشرفُ الملائكة، وأقربُ إلى الربِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ وصاحبُ الوحي. والخامس: أنه القرآن. قاله ابنُ زيد، كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا﴾... الآية. والسادس: أنه مَلَكٌ من الملائكة بقَدْرِ جميعِ المخلوقات؛ قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿يومَ يقومُ الروحُ﴾، قال: هو مَلَكٌ من أعظَمِ الملائكة خَلْقاً.

وقال ابنُ جرير: حدَّثني محمد بن خلَف العسقلاني، حدَّثنا رَوَّاد بن الجَرَّاح، عن أبي حمزة، عن الشعبيِّ، عن عَلْقَمة، عن ابن مسعودٍ قال: «الروحُ في السماء الرابعةِ هو أعظَمُ من السمواتِ ومن الجبالِ ومن الملائكةِ، يُسبِّح كلَّ يوم اثنَي عشرَ ألفَ تسبيحةٍ، يَخلُق الله من كلِّ تسبيحةٍ مَلَكاً من الملائكةِ يَجيء يومَ القيامةِ صفًّا وحدَه»[(1)]، وهذا قولٌ غريبٌ جدًّا.

[[(2)] وقد قال الطَّبَراني: حدَّثنا محمد بن عبد الله بن عُرْس المِصري، حدَّثنا وهبُ الله بن رِزق أبو هريرة[(3)]، حدَّثنا بشرُ بن بَكر، حدَّثنا الأوزاعيُّ، حدَّثني عطاءٌ، عن عبد الله بن عباس: سمعتُ رسولَ

(1) تفسير الطبري ٣٠/٢٢.
(٢ ـ ٢) سقط من إحدى النسخ.
(٣) في النسخ: أبو هبيرة. والمثبت من المعجم، والمقتنى للذهبي ٢/١٢٥.

الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن لله مَلَكاً لو قيل له: الْتقِمِ السموات السبع والأرضين بِلُقمةٍ واحدةٍ لَفعَل، تسبيحُه. سبحانَك حيثُ كنت»[1].

وهذا حديثٌ غريبٌ جداً، وفي رفْعِه نَظَر، وقد يكون موقوفاً على ابن عباس، ويكونُ مما تلقاه من الإسرائيليّاتِ، والله أعلم-[2]].

وتَوَقّفَ ابنُ جرير فلم يَقطَع بواحد من هذه الأقوال كُلِّها، والأشبه ـ والله أعلم ـ أنهم بنو آدَمَ

وقولُه: ﴿إلَّا مَن أذِنَ له الرحمن﴾، كقوله: ﴿لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه﴾. وكما ثَبَت في الصحيح: «ولا يَتَكلَّم يومئذٍ إلا الرسلُ»[2].

وقولُه: ﴿وقال صواباً﴾، أي: حقًّا، ومن الحقِّ: «لا إلَه إلا الله»، كما قاله أبو صالح، وعِكْرِمةُ.

وقولُه: ﴿ذلك اليومُ الحقُّ﴾، أي: الكائنُ لا محالةَ، ﴿فمن شاء اتَّخذ إلى ربِّه مآباً﴾، أي: مَرْجِعاً وطريقاً[3] يهتدي إليه، ومنهجاً يمرُّ به عليه.

وقولُه: ﴿إنا أنذرناكم عذابً قريباً﴾، يعني: يومَ القيامة، لتأكُّد وقُوعه صار قريباً، لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ آتٍ.

﴿يومَ ينظُر المرءُ ما قَدَّمت يداه﴾، أي: يُعرضُ عليه جميعُ أعمالِه، خيرِها وشرِّها، قديمِها وحَديثِها، كقوله: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾، وكقوله: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّم وأخَّرَ﴾.

﴿ويقولُ الكافر يا ليتني كنتُ تُراباً﴾، أي: يَودُّ الكافرُ يومئذٍ أنه كان في الدار الدنيا تُراباً، ولم يكن خُلِقَ، ولا خَرَجَ إلى الوجود. وذلك حين عايَن عذابَ الله، ونَظَر إلى أعماله الفاسدةِ قد سُطِّرت عليه بأيدي الملائكةِ السَّفَرةِ الكرامِ البَرَرةِ. وقيل: إنما يَوَدُّ ذلك حين يحكُم الله بين الحيواناتِ التي كانت في الدنيا، فيَفصِلُ بينها بحُكمِه العَدْلِ الذي لا يَجُورُ، حتى إنه ليَقتصُّ للشاةِ الجَمّاءِ من القَرْناء[4]. فإذا فَرَغ من الحكم بينها قال لها: كُوني تُراباً، فتَصير تُراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنتُ تراباً﴾، أي: كنتُ حيواناً فأرجِعَ إلى التراب. وقد وَرَد معنى هذا في حديثِ الصُّور المشهور[4]، وَوَرد فيه آثارٌ عن أبي هُرَيرة، وعبد الله بن عَمرو، وغيرِهما.

آخر تفسيرُ سورة النَّبأ

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٨٥ من سورة الإسراء، وخرجناه هنالك.
(٢) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير آية هود ١٠٥.
(٣) في نسخة: «أي سبيلاً، أي طريقاً».
(٤) انظر حديث الصور عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام، وأول سورة الحج.

تفسير

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

وهي مكيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ
الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا
كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾

قال ابنُ مسعود، وابنُ عباس، ومسروقٌ، وسعيد بن جُبَير، وأبو صالح، وأبو الضُّحى، والسُّدِّي: ﴿النازعاتِ غَرْقاً﴾: الملائكةُ، يعنُون حين تَنزِعُ أرواحَ بني آدم، فمنهم من تأخذ رُوحَه بعُسْرٍ فتُغرِق في نَزْعها، ومَن تأخذ رُوحه بسهولة وكأنما حَلَّته من نِشاطٍ[1]، وهو قولُه: ﴿والناشطاتِ نشطاً﴾ قاله ابن عباس.

وعن ابن عباس: ﴿والنازعاتِ﴾: هي أنفُس الكُفّار، تُنزَع ثم تُنشَطُ، ثم تُغرَق في النار. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقال مجاهدٌ: ﴿والنازعاتِ غَرْقاً﴾: الموتُ. وقال الحسن، وقتادة: ﴿والنازعاتِ غَرقاً * والناشطاتِ نشطاً﴾: هي النجومُ.

وقال عَطَاءُ بن أبي رَباح في قوله: ﴿والنازعاتِ﴾ و﴿الناشطاتِ﴾: هي القِسِيُّ في القتال. والصحيح الأول، وعليه الأكثرون.

---

(١) نشط الحبل نَشْطاً: عقَده، ونشطه بالأُنشُوطة: عقده.

وأما قوله. ﴿والسابحاتِ سَبْحاً﴾ فقال ابنُ مسعود: هي الملائكة. ورُوي عن عليٍّ، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير، وأبي صالح مثلُ ذلك.

وعن مجاهدٍ: ﴿والسابحاتِ سَبْحاً﴾: الموتُ. وقال قتادةُ: هي النجومُ. وقال عطاءُ بن أبي رباح. هي السُّفن.

وقوله: ﴿فالسابقاتِ سبقاً﴾، رُوي عن علي، ومسروقٍ، ومجاهدٍ، وأبي صالح، والحسن البصريِّ: يعني الملائكةَ؛ قاله الحسنُ: سَبَقت إلى الإيمانِ والتصديق به. وعن مجاهدٍ: الموت. وقال قتادةُ. هي النجومُ. وقال عطاء: هي الخيلُ في سبيل الله.

وقولُه: ﴿فالمدبِّرات أمراً﴾، قال علي، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، وأبو صالح، والحسنُ، وقتادةُ، والربيعُ بن أنس، والسُّدِّي: هي الملائكة ـ زاد الحسن: تُدَبِّر الأمرَ من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربِّها عزَّ وجلَّ. ولم يختلفوا في هذا، ولم يقطع ابنُ جرير بالمراد في شيء من ذلك، إلا أنه حَكَى في ﴿المدبرات أمراً﴾ أنها الملائكةُ، ولا أثبتَ ولا نَفَى.

وقولُه. ﴿يومَ ترجُف الراجفة * تتبعُها الرادفة﴾، قال ابن عباس. هما النَّفختان الأُولى والثانية. وهكذا قال مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وغيرُ واحد.

وعن مجاهدٍ. أما الأُولى، وهي قولُه: ﴿يوم ترجُف الراجفة﴾، فكقوله جَلَّت عظمتُه: ﴿يومَ ترجُفُ الأرضُ والجبالُ﴾، والثانية، وهي الرادفة، فهي كقوله: ﴿وحُمِلَت الأرضُ والجبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحدةً﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا وكيعٌ، حدَّثنا سفيانُ، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطُّفَيل بن أُبيِّ بن كعب، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «جاءت الراجفَةُ، تَتْبَعُهَا الرادفةُ، جاء الموتُ بما فيه». فقال رجل: يا رسولَ الله، أرأيت إن جعلتُ صلاتي كلَّها عليك؟ قال: «إذاً يكفيكَ الله ما أهمَّك من دُنياك وآخرتك»(١)

وقد رواه الترمذيُّ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من حديث سُفيانَ الثوري، بإسناده مثلَه، ولفظُ الترمذي وابن أبي حاتم: «كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا ذَهَب ثُلُثا الليلِ قام فقال: «يا أيُّها الناسُ، اذكُروا الله، جاءت الراجفةُ تتبعها الرادفةُ، جاء الموت بما فيه»(١).

وقولُه: ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ﴾، قال ابن عباس: يعني خائفةٌ. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ. ﴿أبصارُها خاشعةٌ﴾، أي: أبصارُ أصحابِها وإنما أُضيفَ إليها، للملابسة. أي: ذليلةٌ حَقِيرةٌ؛ مما عايَنَت من الأهوال.

وقولُه: ﴿يقولون أئِنّا لَمردُودون في الحافرة﴾، يعني مشركي قُرَيش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد، يَستبعِدُون وُقُوعَ البعثِ بعد المصير إلى الحافِرة وهي القُبور، قاله مجاهدٌ. وبعدَ تمزُّق أجسادهم وتفتُّتِ عِظامهم ونُخُورِها، ولهذا قالوا: ﴿أئذا كُنَّا عظاماً نخرة﴾. وقرىء: ناخرة(٢).

قال ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ، وقتادةُ: أي بالية. قال ابن عباس: وهو العظم إذا بَلِي ودَخَلت الريحُ فيه. ﴿قالوا تلك إذاً كرَّةٌ خاسِرةٌ﴾.

---

(١) تقدَّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

(٢) قرأ بالألف أبو بكر وحمزة والكسائي من السبعة، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٨٠٣.

وعن ابن عباس، ومحمد بن كعب، وعكرمةَ، وسعيد بن جُبير، وأبي مالك، والسُّدّي، وقتادةَ: الحافرة الحياة بعد الموت. وقال ابنُ زيد: الحافرة: النارُ. وما أكثرَ أسماءها! هي النار، والجحيم، وسَقَر، وجهنَّم، والهاوية، والحافرةُ، ولَظَى، والحُطَمَةُ.

وأمَّا قولُهم: ﴿تلك إذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ﴾، فقال محمد بن كعب: قالت قُرَيشٌ: لَئِن أحيانا الله بعدَ أن نموتَ لنَخسَرَنَّ.

قال الله تعالى: ﴿فإنما هي زَجرةٌ واحدةٌ * فإذا هُم بالساهرة﴾، أي: فإنما هو أمرٌ من الله لا مَثْنَوِيَّة فيه ولا تأكيدَ، فإذا الناسُ قيامٌ ينظرون، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ فيَنفُخ في الصُّور نفخةَ البعث، فإذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يَدَي الربِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ ينظرون، كما قال: ﴿يوم يدعُوكم فتستجيبون بحمده وتظُنُّون إن لَبِثْتم إلَّا قليلاً﴾، وقال تعالى: ﴿وما أمرُنا إلا واحدةٌ كلَمْحٍ بالبَصَر﴾، وقال تعالى: ﴿وما أمرُ الساعةِ إلا كلَمْحِ البَصَرِ أو هو أقرَبُ﴾. قال مجاهد: ﴿فإنما هي زجرةٌ واحدةٌ﴾: صيحةٌ واحدةٌ. وقال إبراهيم التَّيمِيُّ: أشدُّ ما يكون الربُّ غَضَباً على خَلْقِه يومَ يبعثُهم. وقال الحسن البصري: زَجْرَةٌ من الغَضَب. وقال أبو مالك، والربيعُ بن أنس: ﴿زَجرةٌ واحدةٌ﴾: هي النفخةُ الآخرة.

وقولُه: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾، قال ابنُ عباس: ﴿الساهرةُ﴾ الأرضُ كلُّها. وكذا قال سعيد بن جُبَير، وقتادةُ، وأبو صالح. وقال عِكْرِمةُ، والحسنُ، والضحَّاك، وابنُ زيد: ﴿الساهِرَةُ﴾ وجهُ الأرض. وقال مجاهدٌ: كانوا بأسفلها فأُخرِجُوا إلى أعلاها، قال: و﴿الساهِرَة﴾: المكان المستوي. وقال الثَّورِيُّ: ﴿الساهِرةُ﴾ أرضُ الشام. وقال عثمانُ بن أبي العاتكة: ﴿الساهِرَةُ﴾: أرضُ بيت المقدس. وقال وهب بن مُنَبِّه: ﴿الساهِرةُ﴾: جبلٌ إلى جانب بيت المقدس. وقال قتادة أيضاً ﴿الساهِرةُ﴾: جهنَّم. وهذه أقوالٌ كلُّها غريبةٌ، والصحيحُ أنها الأرضُ، وجهُها الأعلى.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحُسَين، حدَّثنا حَرَزٌ[1] بن المبارك الشيخُ الصالحُ، حدَّثنا بِشْرُ بن السَّرِيّ، حدَّثنا مُصعَبُ بنُ ثابت، عن أبي حازم، عن سَهل بن سعد الساعديِّ: ﴿فإذا هُم بالساهرة﴾، قال: أرضٌ بيضاءُ عفراءُ كالخُبزَة النَّقِيِّ.

وقال الربيعُ بن أنس: ﴿فإذا هُم بالساهِرة﴾، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يوم تُبَدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ وبَرَزُوا لله الواحدِ القهَّار﴾. ويقول: ﴿ويسألونك عن الجبال فقُل يَنسِفُها ربِّي نسفاً * فيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً * لا تَرَى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً﴾. وقال: ﴿ويوم نُسَيِّر الجبالَ وتَرَى الأرضَ بارزةً﴾. وبَرَزت الأرضُ التي عليها الجبالُ، وهي لا تُعَدُّ من هذه الأرض، وهي أرض لم يُعمَل عليها خطيئةٌ، ولم يُهرَق عليها دمٌ.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) حَرَز ـ بزاي ثم راء ـ هو: يوسف بن المبارك المقرئ، انظر نزهة الألقاب لابن حجر ١/٢٢٨، والإكمال لابن ماكولا ٢/٤٥٥، والجرح لابن أبي حاتم ٣/٢٠٦.

يُخبِرُ تعالى رسوله محمداً ـ ﷺ ـ عن عَبدِه ورَسُوله موسى ـ عليه السلام ـ أنه ابتعثه إلى فِرعَونَ، وأيَّده بالمعجزاتِ، ومع هذا استمرَّ على كُفره وطُغيانه، حتى أخذه الله أخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ. وكذلك عاقبةُ مَن خالفك وكذَّب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إن في ذلك لعبرةً لمن يخشى﴾.

فقولُه: ﴿هل أتاك حديثُ موسى﴾ أي: هل سَمِعت بخبره؟ ﴿إذ ناداه ربُّه﴾، أي: كلَّمه نِداءً، ﴿بالوادِ المقدَّس﴾، أي: المُطهَّر ﴿طُوًى﴾، وهو اسم الوادي على الصحيح، كما تقدَّم في سُورَةِ ﴿طه﴾[1]. فقال له: ﴿اذهَب إلى فِرعَون إنه طغى﴾، أي: تَجبَّر وتَمرَّد وعَتَا، ﴿فقل هل لك إلى أن تزكَّى﴾، أي: قل له: هل لك أن تُجيب إلى طريقةٍ ومسلكٍ تَزكَّى به، أي: تُسْلِم وتُطيعُ. ﴿وأهدِيَكَ إلى ربِّكَ﴾، أي: أدلُّك إلى عبادةِ ربِّك، ﴿فتخشَى﴾، أي: فيصيرَ قلبُك خاضعاً له مُطيعاً خاشعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير. ﴿فأراه الآية الكُبرى﴾، يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوةِ الحقِّ حُجَّةً قويةً ودليلاً واضحاً على صِدْقِ ما جاءه به من عند الله، ﴿فكذَّب وعصَى﴾، أي: فكذَّب بالحقِّ وخالف ما أمره به من الطاعة. وحاصِلُه أنه كَفَر قلبُه فلم يَنْفعِل لِمُوسى باطنُه ولا ظاهره، وعِلْمُهُ بأنَّ ما جاء به أنه حقٌّ لا يَلْزَم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفةَ علمُ القلب، والإيمانَ عملُه، وهو الانقيادُ للحقِّ والخضُوع له.

وقوله: ﴿ثم أدبر يسعى﴾، أي: في مقابلة الحق بالباطل، وهو جَمْعُهُ السحرةَ ليقابلُوا ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ من المعجزةِ الباهرة، ﴿فحشر فنادى﴾، أي: في قومه ﴿فقال أنا ربُّكم الأعلى﴾. قال ابن عباس، ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فِرْعَون بعد قوله: ﴿ما علمتُ لكم من إلَهٍ غيري﴾، بأربعين سنة[2].

قال الله تعالى: ﴿فأخذه الله نَكال الآخرةِ والأولى﴾، أي: انتقم منه انتقاماً جَعَله به عِبرةً ونَكالاً لأمثاله من المُتمرِّدين في الدنيا ﴿ويومَ القيامة بئس الرِّفد المرفود﴾، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمةً يدعُون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصَرون﴾. هذا هو الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿نكال الآخرة والأولى﴾، أي: الدنيا والآخرة. وقيل: المراد بذلك كَلِمتاه الأولى والثانية. وقيل: كُفره وعِصيانُه. والصحيحُ الذي لا شكَّ فيه الأول.

وقولُه: ﴿إن في ذلك لعبرةً لمن يخشى﴾، أي: لمن يَتَّعظ ويَنْزجر.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى محتجًا على مُنكِري البعثِ في إعادةِ الخَلق بعدَ بَدئه: ﴿ءأنتم﴾ أيها الناسُ ﴿أشدُّ خلقاً أم السماء﴾؟ يعني: بل السماءُ أشدُّ خلقاً منكم، كما قال تعالى: ﴿لخلقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خلقِ الناس﴾. وقال: ﴿أوَ ليس الذي خلَق السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاّقُ العليمُ﴾. فقوله: ﴿بناها﴾ فسَّره بقوله: ﴿رفع سَمْكَها فَسوَّاها﴾، أي: جعلها عالية البِناءِ، بعيدةَ الفِناءِ، مُستَويةَ الأرجاءِ، مُكلَّلةً بالكواكبِ في الليلة الظَّلماء.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٢ من سورة ﴿طه﴾

(٢) أخرجه الطبري ٣٠/٤١

وقولُه: ﴿وأغطَشَ ليلَها وأخرجَ ضُحاها﴾، أي: جَعل ليلها مُظلماً أسودَ حالكاً، ونهارَها مُضيئاً مُشرقاً نيِّراً واضحاً. قال ابنُ عباس: أغطش ليلَها: أظلَمَهُ. وكذا قال مجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وسعيد بن جُبير، وجماعةٌ كثيرون.

﴿وأخرج ضُحَاها﴾، أي: أنار نَهَارَها.

وقولُه: ﴿والأرضَ بعد ذلك دَحَاها﴾، فسَّره بقوله: ﴿أخرجَ منها ماءها ومَرْعَاها﴾، وقد تقدَّم في سورة ﴿حمۤ﴾، السجدة[1] أن الأرض خُلِقت قبل السماء، ولكن إنما دُحِيت بعد خلْقِ السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقُوَّة إلى الفعل. وهذا معنى قولِ ابن عباس، وغيرِ واحد، واختاره ابنُ جرير[2].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن جَعْفرٍ الرَّقي، حدَّثنا عُبَيد الله - يعني ابن عَمْرٍو - عن زيد بن أبي أُنَيسة، عن المنهال بن عَمْرو، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿دَحاها﴾: وَدَحْيُها أن أخرجَ منها الماء والمرعى، وشَقَّق فيها الأنهار، وجَعَل فيها الجبالَ والرمالَ والسُّبُلَ والآكام، فذلك قولُه: ﴿والأرض بعد ذلك دَحَاها﴾، وقد تقدَّم تقريرُ ذلك هنالك.

وقولُه: ﴿والجِبالَ أرساها﴾، أي: قَرَّرها وأثبتها وأكَّدها في أماكنها، وهو الحكيمُ العليمُ، الرؤوف بخلقه الرحيمُ.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيدُ بن هارون، أخبرنا العَوَّام بن حَوْشب، عن سُليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: لما خلَق الله الأرضَ جعلت تَمِيد، فخلَق الجبالَ فألقاها عليها، فاستقرَّت، فتعجَّبت الملائكةُ من خَلق الجبالِ فقالت: يا ربِّ، فهل مِن خلقك شيءٌ أشدُّ من الجبال؟ قال: نعم، الحديدُ. قالت: يا ربِّ، فهل من خلْقِك شيءٌ أشدُّ من الحديد؟ قال: نعم، النارُ. قالت: يا ربِّ، فهل مِن خَلْقِك شيءٌ أشدُّ من النار؟ قال: نعم، الماءُ. قالت: يا ربِّ، فهل من خَلْقِك شيءٌ أشدُّ من الماء؟ قال: نعم، الريحُ. قالت: يا ربِّ، فهل من خَلْقِك شيءٌ أشدُّ من الريح؟ قال: نعم، ابنُ آدم، يَتَصدَّق بيمينه يُخفيها مِن شماله[3].

وقال أبو جعفر بن جَرير: حدَّثنا ابنُ حميد، حدَّثنا جرير، عن عطاءٍ، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي، عن علي قال: لَما خلَق الله الأرض قَمَصت[4] وقالت: تخلُق عليَّ آدم وذُرِّيته، يُلقون عليَّ نَتَنهم ويعملون عليَّ بالخطايا. فأرساها الله بالجبال، فمنها ما تَرَون، ومنها ما لا تَرون، وكان أولُ قَرارِ الأرض كَلَحمِ الجزور إذا نُحِر، يَختَلِجُ لَحمُهُ. غريبٌ[5].

وقولُه: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾، أي: دحَا الأرضَ فأنْبَع عُيونَها، وأظهرَ مكنونَها، وأجْرَى أنهارَها، وأنبتَ زُرُوعها وأشجارها وثمارها، وثبَّت جبالَها لتستقرَّ بأهلها ويَقِرَّ قرارُها، كلُّ ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجُون إليه من الأنعام التي يأكلُونها ويركَبُونها مدَّةَ احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهيَ الأمدُ، وينقضيَ الأجلُ

---

(١) انظر تفسير الآية ٩ من سورة فُصِّلت.

(٢) تفسير الطبري ٣٠/٤٦.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/١٢٤. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٧١ من سورة البقرة.

(٤) قمصت الدابة قَمْصاً وقِماصاً: نَفَرت وضربت برجليها، وعَدَت في مرح ونشاط.

(٥) تفسير الطبري ٣٠/٤٧.

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿فإذا جاءتِ الطامَّةُ الكُبرى﴾، وهو يومُ القيامة. قاله ابنُ عباس، سُمِّيت بذلك لأنها تَطُمُّ على كلِّ أمرٍ هائلٍ مُفظِعٍ، كما قال تعالى: ﴿والساعةُ أدهى وأمَرُّ﴾.

﴿يوم يتذكَّرُ الإنسانُ ما سَعَى﴾، أي: حينئذٍ يتذكرُ ابنُ آدم جَميعَ عمله خَيرِه وشَرِّه، كما قال: ﴿يومئذٍ يتذكَّرُ الإنسانُ وأنَّى له الذِّكرى﴾.

﴿وبُرِّزت الجَحيمُ لمن يَرَى﴾، أي: أُظهرت للناظرين فرآها الناس عِياناً. ﴿فأما مَن طَغَى﴾، أي: تَمرَّد وعَتا، ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾، أي: قدَّمها على أمر دينه وأُخراه، ﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾، أي: فإنَّ مصيرَه إلى الجَحيم، وإنَّ مطعمه من الزَّقوم ومَشرَبه من الحَميم. ﴿وأما من خاف مقامَ ربِّه ونهى النفسَ عن الهَوَى﴾، أي: خاف القِيامَ بين يَدَي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحُكمَ الله فيه، ونَهَى نفسه عن هواها، وردَّها إلى طاعةِ مولاها، ﴿فإن الجنَّة هي المأوى﴾ أي: مُنقلَبه ومَصيره ومَرجِعُه إلى الجنَّة الفيحاءِ.

ثم قال تعالى: ﴿يسألونَك عن الساعةِ أيانَ مُرساها * فيم أنتَ من ذِكراها * إلى ربِّك مُنتهاها﴾، أي: ليس علمُها إليكَ ولا إلى أحدٍ من الخَلق، بل مَردُّها ومَرجِعُها إلى الله عزَّ وجلَّ، فهو الذي يعلَمُ وقتَها على التعيين؛ ﴿ثقُلت في السمواتِ والأرض لا تأتيكم إلا بغتةً يسئلونَكَ كأنك حَفِيٌّ عنها قل إنما عِلمُها عند الله﴾ وقال ها هنا ﴿إلى ربِّك منتهاها﴾. ولهذا لما سأل جبريلُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن وقتِ الساعةِ قال: ما المسئولُ عنها بأعلم من السائل[1].

وقولُه: ﴿إنما أنت مُنذِرُ مَن يخشاها﴾، أي: إنما بعثتُكَ لِتُنذِر الناسَ وتُحذِّرَهم من بأسِ الله وعذَابِه، فمن خَشِي الله وخافَ مقامه ووَعيدَه، اتبعك فأفلحَ وأنجحَ، والخيبةُ والخَسار على مَن كذَّبك وخالَفك.

وقولُه ﴿كأنهم يومَ يَرَونها لم يلبثوا إلاَّ عَشيَّةً أو ضُحاها﴾، أي: إذا قاموا من قُبورهم إلى المحشرِ يَستقصِرُون مُدَّة الحياةِ الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشيةً من يومٍ أو ضُحًى من يوم.

قال جُويبر، عن الضحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿كأنَّهم يومَ يرونها لم يلبثوا إلا عشيَّةً أو ضُحَاها﴾، أما عَشيَّةٌ فما بين الظُّهر إلى غُروبِ الشمس، ﴿أو ضُحاها﴾، ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار. وقال قتادةُ: دَقَّتِ الدنيا في أعيُنِ القوم حين عايَنُوا الآخرة[2].

آخرُ تفسيرِ سورةِ النازعاتِ، ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير آية الأعراف المتقدمة ١٣٨.
(٢) أخرجه الطبري ٣٠/٥٠

تفسير

سُورَةُ عَبَسَ

وهي مكّيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ
تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ⑫ فِى
صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ⑭ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ⑮ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ⑯ ﴾

ذَكَر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يوماً يُخاطبُ بعضَ عُظماء قُرَيش، وقد طَمِع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أُمِّ مكتوم ـ وكانَ ممن أسلم قديماً ـ فجعل يسألُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن شيءٍ ويُلِحُّ عليه، ووَدَّ النبيُّ ـ ﷺ ـ أن لو كفَّ ساعته تلك ليتمكَّنَ من مخاطبة ذلك الرجل، طَمَعاً ورغبةً في هدايته. وعَبَس في وَجْهِ ابن أم مكتوم وأعرضَ عنه، وأقبلَ على الآخر، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿عَبَس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يُدريك لعله يزَّكى﴾ أي. يحصُل له زكاةٌ وطهارةٌ في نفسه، ﴿أو يذَّكر فتنفعَه الذكرى﴾، أي: يحصُل له اتِّعاظ وانزجار عن المحارم، ﴿أمَّا من استغنى * فأنت له تصدَّى﴾، أي: أما الغنيّ فأنت تَتعرَّض له لعلَّه يهتدي، ﴿وما عليك ألاَّ يزَّكى﴾؛ أي. ما أنت بمُطالَبٍ به إذا لم يحصُل له زكاةٌ ﴿وأما مَن جاءك يسعى * وهو يخشى﴾، أي. يَقصِدُك ويؤمُّك ليهتديَ بما تقولُ له ﴿فأنت عنه تلهَّى﴾، أي تَتشاغلُ. ومن ها هنا أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ رسولَه ـ ﷺ ـ ألاَّ يَخُصَّ بالإنذار أحداً، بل يُساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغنيّ، والسادةِ والعبيدِ، والرجالِ والنساءِ، والصغار والكبار. ثُمَّ الله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم، وله الحكمةُ والحُجَّةُ.

قال الحافظ أبو يَعْلَى في مُسْنَدِه: حدَّثنا محمد ـ هو ابن مهديّ ـ حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمرٌ، عن

قتادة، عن أنس في قوله ﴿عَبَس وتولَّى﴾، جاء ابنُ أم مكتوم إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ وهو يُكلِّم أُبَيَّ بنَ خَلَف، فأعرض عنه، فأنزل الله ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى﴾، فكان النبيُّ ـ ﷺ ـ بعد ذلك يُكرِمُه.

قال قتادة: وأخبرني أنس بن مالك قال: رأيتُه يوم القادسيَّة وعليه دِرْعٌ ومعه رايةٌ سوداءُ، يعني ابن أمِّ مكتوم[(١)].

وقال أبو يَعْلَى وابنُ جرير: حدَّثنا سَعيد بن يحيى الأُمَوي، حدَّثني أبي، عن هشام بن عُرْوَة مما عَرَضَه عليه، عن عُرْوة، عن عائشة قالت: أُنزلت ﴿عَبَس وتولَّى﴾ في ابن أمِّ مكتومٍ الأعمى، أتى إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فجَعَل يقول: أرْشِدْني ـ قالت: وعند رسول الله ـ ﷺ ـ من عُظَماء المشركين ـ قالت: فجعل النبيُّ ـ ﷺ ـ يُعرِض عنه ويُقبِلُ على الآخر، ويقول: «أترى بما أقولُ بأساً؟». فيقول: لا. ففي هذا أُنزلت: ﴿عَبَس وتَوَلَّى﴾[(٢)].

وقد رَوى الترمذيُّ هذا الحديث، عن سَعيد بن يحيى الأموي، بإسناده، مثلَه، ثم قال: «وقد رَوَاه بعضُهم عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: «أُنزِلت ﴿عَبَس وتولَّى﴾ في ابن أم مكتوم، ولم يُذْكَر فيه عن عائشة»[(٢)].

قلت: كذلك هو في الموطأ[(٢)].

ثم روى ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم أيضاً من طريق العَوْفِيِّ، عن ابن عباس قولَه: ﴿عَبَس وتولى * أن جاءه الأعمى﴾، قال: بينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يناجي عُتْبةَ بنَ ربيعةَ، وأبا جهل بنَ هشامٍ، والعباسَ بن عبد المطلب ـ وكان يتصدَّى لهم كثيراً، ويَحرِصُ عليهم أن يُؤمِنُوا ـ فأقبل إليه رجلٌ أعمى ـ يقال له: عبد الله بن أمِّ مكتوم ـ يمشي وهو يُناجيهم، فجعل عبدُ الله يستقرئُ النبيَّ ـ ﷺ ـ آيةً من القرآن، وقال: يا رسولَ الله، عَلِّمني مما عَلَّمك الله. فأعرض عنه رسُول الله ـ ﷺ ـ وعَبَس في وجهه، وتَوَلَّى وكَرِهَ كلامَه، وأقبل على الآخرين، فلما قضَى رسولُ الله ـ ﷺ ـ نجواه وأخَذ يَنْقَلِب إلى أهله أمسك الله بعضَ بَصَره، ثم خَفَق برأسه، ثم أنزل الله: ﴿عبس وتولَّى * أن جاءه الأعمى * وما يُدريك لعلَّه يَزَّكَّى * أو يَذَّكَّر فتَنفَعَه الذكرى﴾. فلما نزل فيه ما نزل، أكرمه رسولُ الله ـ ﷺ ـ وكلَّمه وقال له النبيُّ ـ ﷺ ـ: «ما حاجتُك؟ هل تُريد من شيءٍ؟ وإذا ذَهَب مِن عنده قال: «هل لك حاجةٌ في شيءٍ؟». وذلك لما أنزل الله تعالى: ﴿أمَّا من استغنى * فأنت له تصدَّى * وما عليك ألاَّ يَزَّكَّى﴾[(٣)].

فيه غرابةٌ ونكارة، وقد تُكُلِّم في إسناده.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن منصور الرَّمادي، حدَّثنا عبدُ الله بن صالح، حدَّثنا الليثُ، حَدَّثني يونُس، عن ابن شهاب قال: قال سالمُ بن عبد الله، عن عبد الله بن عُمَر: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن بلالاً يُؤذِّن بليل، فكُلوا واشرَبُوا حتى تسمَعُوا أذانَ ابن أمِّ مكتوم». وهو الأعمى الذي أنزل الله فيه: ﴿عَبَس وتولَّى * أن جاءه الأعمى﴾، وكان يُؤذِّن مع بلال، قال سالم: وكان رَجُلاً ضَريرَ البصرِ، فلم يَكُ يُؤذِّن حتى يقول له الناس ـ حين ينظرون إلى بُزُوغ الفجر: أَذِّن.

(١) مسند أبي يعلى ٣/٢٨٦
(٢) مسند أبي يعلى ٤/٤١٦، وتفسير الطبري ٣٠/٥٠ وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١٢/٢٣٠ ـ ٢٣١ وتفسير القرطبي عن مالك ١٩/٢١١
(٣) تفسير الطبري ٣٠/٥١

وهكذا ذكر عروةُ بن الزُّبير، ومجاهدٌ، وأبو مالك، وقتادةُ، والضحّاك، وابنُ زيدٍ، وغيرُ واحدٍ من السلف والخلَف. أنّها نزلت في ابن أم مكتوم. والمشهورُ أن اسمه عبد الله، ويقال: عمرو. والله أعلم.

وقولُه: ﴿كلَّا إنها تذكرة﴾، أي: هذه السورةُ، أو الوصيةُ بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم.

وقال قتادةُ والسُّدِّي: ﴿كلَّا إنها تذكِرةٌ﴾، يعني القرآن. ﴿فمن شاء ذكَره﴾، أي: فمن شاء ذكر الله في جميع أُموره. ويَحْتمِل عودُ الضمير على الوحي؛ لدلالة الكلام عليه.

وقولُه: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾، أي: هذه السورةُ أو العِظةُ، وكلاهُما متلازمٌ، بل جميع القرآن ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾، أي: مُعَظَّمة مُوقَّرة. ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾، أي: عاليةِ القَدْر، ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ أي: من الدَّنس والزيادة والنقص.

وقولُه: ﴿بأيدي سَفَرةٍ﴾. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحاكُ، وابنُ زيدٍ: هي الملائكة. وقال وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ. وقال قتادةُ: هم القُرَّاء. وقال ابن جُرَيجٍ، عن ابن عباس: السَّفرة بالنَّبَطية: القُرَّاء. وقال ابنُ جَريرٍ: الصحيح أن السفرة الملائكةُ، والسَّفرةُ يعني بين الله وبين خلْقِه، ومنه يُقال: السفيرُ الذي يسعَى بين الناسِ في الصُّلح والخير، كما قال الشاعر[1]:

وَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَمْشِي بِغِشٍّ إِنْ مَشَيْتُ

وقال البخاريُّ: «سَفَرةُ الملائكة. سَفَرتُ: أصلحتُ بينهم. وجُعِلتِ الملائكةُ إذا نزَلَت بوَحْي الله وتأديته كالسفير الذي يُصْلِح بين القوم»[2].

وقولُه: ﴿كرامٍ بَرَرةٍ﴾، أي: خُلُقهم كريم حَسَنٌ شريف، وأخلاقُهم وأفعالُهم بارَّة طاهرةٌ كاملة. ومن ها هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السَّداد والرَّشاد.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيلُ، حدَّثنا هشامٌ، عن قتادة، عن زُرارة بن أوفى، عن سَعْدِ بن هشام، عن عائشةَ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «الذي يقرأ القرآن ـ وهو ماهِرٌ به ـ مع السفَرة الكرامِ البررة، والذي يقرؤه ـ وهو عليه شاقٌّ ـ له أجران»[3]. أخرجه الجماعة من طريق قتادة، به[3].

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝٣٢﴾

يقولُ تعالى ذامًّا لمن أنكَرَ البعثَ والنُّشُور من بني آدم ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَه﴾، قال الضحّاك، عن ابن

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٥٤.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة عبس ٨/٦٩١. وهو كلام الفراء في معانيه ٣/٢٣٦.

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/٤٨، وفتح الباري، تفسير سورة ﴿عبس﴾ ٨/٦٩١، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٤٩ ـ ٥٥٠، وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٧٠ ـ ٧١، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/٢٩، وأخرجه النسائي في كتب فضائل القرآن والتفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١١/٤٠٥ ـ ٤٠٦، وابن ماجه في كتاب الأدب ٢/١٢٤٢.

عباس. ﴿قُتِلَ الإنسانُ﴾: لُعِنَ الإنسان. وكذا قال أبو مالك. وهذا لجنسِ الإنسانِ المكذِّب؛ لكثرةِ تكذيبه بلا مُستنَدٍ، بل بمُجرَّدِ الاستبعادِ وعَدَمِ العلم.

قال ابن جُرَيج[1]: ﴿ما أكفره﴾: ما أشدَّ كُفرَه! وقال ابنُ جَريرٍ: ويَحتَمِلُ أن يكون المراد أيُّ شيءٍ جعله كافراً؟ أي: ما حَمَله على التكذيبِ بالمَعادِ[2].

وقال قتادةُ، وقد حكاه البَغَويُّ عن مُقاتِلٍ والكَلْبيِّ: ﴿ما أكفره﴾ ما ألعَنَه![3].

ثم بَيَّن تعالى له كيف خَلَقه اللهُ من الشيءِ الحقير، وأنه قادرٌ على إعادته كما بَدَأه، فقال: ﴿مِن أيِّ شيءٍ خلقه * من نُطفة خلَقه فقدَّره﴾، أي: قدَّر أجله ورزقَه وعَمَله وشقيٌّ أو سعيدٌ. ﴿ثم السبيلَ يسَّره﴾، قال العَوفي، عن ابن عباس: ثم يَسَّر عليه خروجَه من بَطنِ أمه. وكذا قال عِكْرِمةُ، والضحّاك، وأبو صالح، وقتادةُ، والسُّدِّي، واختاره ابنُ جرير.

وقال مجاهدٌ: هذه كقوله: ﴿إنا هَديناه السبيلَ إمّا شاكراً وإما كَفوراً﴾. أي: بيَّناه له ووضَّحناه وسهَّلنا عليه علمه، وهكذا قال الحسنُ وابنُ زيد. وهذا هو الأرجحُ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ثم أماته فأقبَرَه﴾، أي: إنه بعد خلْقِه له ﴿أماتَه فأقبَرَه﴾، أي: جَعَله ذا قبرٍ، والعربُ تقول: «قبرتُ الرجلَ»: إذا وَلِيَ ذلك منه، وأقبره الله. وعَضَبْتُ قَرْنَ الثور، وأعضبه الله، وبترتُ ذَنَبَ البعيرِ وأبتره الله، وطردتُ عني فلاناً، وأطرده الله. أي: جعله طريداً، قال الأعشى[4]:

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إلى صَدْرِها   عاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إلى قابِرِ

وقولُه: ﴿ثم إذا شاء أنشَره﴾، أي: بَعَثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، ﴿ومِن آياته أن خلَقكم من تُراب ثم إذا أنتم بشر تنتَشِرون﴾، ﴿وانظُر إلى العظام كيف نُنشِزُها[5] ثم نكسوها لحماً﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أصبغُ بنُ الفَرَج، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني عَمرو بن الحارث: أن دَرّاجاً أبا السَّمْح أخبرَه، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعيد، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يأكُلُ الترابُ كلَّ شيءٍ من الإنسانِ إلا عَجْبَ ذَنَبه». قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبَّة خردل منه تنشأون».

وهذا الحديث ثابتٌ في الصحيح من رواية الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة، بدون هذه الزيادة، ولفظه: «كلُّ ابنِ آدم يبلَى إلا عَجْبُ الذَّنَبِ، منه خُلِق وفيه يُرَكَّب»[6].

وقولُه: ﴿كلّا لَمّا يَقْضِ ما أمَرَه﴾، قال ابنُ جَرير: يقول: كلّا، ليس الأمرُ كما يقول هذا الإنسانُ الكافرُ؛ من أنه قد أدّى حقَّ الله عليه في نفسه وماله، ﴿لَمّا يَقْضِ ما أمرَه﴾، يقول: لم يُؤَدِّ ما فُرِض عليه من الفرائض لربِّه عزَّ وجلَّ.

(١) في مخطوطة الأزهر: ابن جرير. وقد أخرجه ابن المنذر عن ابن جُرَيج، انظر الدر المنثور ٨/٤١٩.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٥٤.
(٣) تفسير البغوي ٤/٤٤٨، ولفظه: «وقال الكلبي ومقاتل: هو «ما» الاستفهام، يعني: أيُّ شيء حمله على الكفر؟».
(٤) ديوانه ١٣٩.
(٥) قرأ الكوفيون وابن عامر ﴿ننشِزُها﴾ بالزاي، والباقون من السبعة بالراء المهملة، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦١١.
(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٤ من سورة المؤمنون، ٩ من سورة فاطر، وخرجناه هنالك.

ثم رَوَى هو وابنُ أبي حاتم من طريق ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ قوله: ﴿كلا لما يقضِ ما أمره﴾، قال: لا يقضي أحدٌ أبداً كلَّ ما افترض عليه. وحكاه البَغَوِيُّ عن الحسن البصري، نحوٍ من هذا[1]. ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا. والذي يَقَعُ لي في معنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن المعنى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾، أي: بَعَثه، ﴿كلاَّ لما يقض ما أمره﴾. لا يفعله الآن حتى تنقضي المُدَّةُ، ويفرغ القَدَرُ من بني آدم ممن كتب تعالى أن سيُوجَدُ منهم ويخرُج إلى الدنيا، وقد أمَر به تعالى كوناً وقَدَراً، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشرَ الله الخلائقَ وأعادَهُم كما بدأهم.

وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم، عن وَهْب بن مُنَبِّه قال. قال عُزَير ـ عليه السلام ـ. قال الملك الذي جاءني: فإن القبور هي بطنُ الأرض، وإن الأرضَ هي أمُّ الخلق، فإذا خلق الله ما أراد أن يَخلُقَ وتمّت هذه القبورُ التي مَدَّ الله لها، انقطعتِ الدنيا وماتَ مَن عليها، ولَفَظَت الأرضُ ما في جوفها، وأخرجتِ القبورُ ما فيها. وهذا شبيهٌ بما قلناه من معنى الآية، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالصواب.

وقولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طعامه﴾: فيه امتنانٌ وفيه استدلالٌ بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً باليةً وتُراباً مُتَمزِّقاً. ﴿أنا صَبَبنا الماءَ صَبًّا﴾، أي: أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثم شققنا الأرضَ شقًّا﴾، أي: أسكنَّاه فيها فَدَخل في تُخُومها وتَخَلَّل في أجزاء الحَبِّ المُودَع فيها، فَنَبت وارتفع وظهر على وَجْهِ الأرض، ﴿فأنبتنا فيها حَبًّا * وعنباً وقَضْباً﴾، فالحبُّ: كلُّ ما يُذكر من الحبوب، والعِنَبُ معروفٌ، والقَضْبُ هو: الفِصْفِصَة التي تأكلها الدوابُّ رَطْبَةً. ويقال لها: القَتُّ أيضاً. قال ذلك ابنُ عباس، وقتادةُ، والضَّحَّاك، والسُّدِّي. وقال الحسنُ البصري: القَضْب العَلَفُ.

﴿وزيتوناً﴾، وهو معروف، وهو أُدْمٌ وعَصِيره أُدْمٌ، ويُسْتَصْبَحُ به، ويُدَّهن به ﴿ونخلاً﴾ يُؤكَلُ بَلَحاً بُسْراً ورُطَباً، وتمراً، ونيئاً، ومَطبوخاً، ويُعتَصَرُ منه رُبٌّ وخَلٌّ. ﴿وحدائق غُلْباً﴾: أي بساتين. قال الحسنُ، وقتادةُ: ﴿غُلباً﴾: نخلٌ غلاظٌ كِرامٌ. وقال ابنُ عباس، ومجاهد ﴿الحدائق﴾: كل ما التَفَّ واجتمع. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿غُلباً﴾: الشجرُ الذي يُستظَلُّ به. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وحدائقَ غُلباً﴾، أي: طِوالٌ. وقال عِكْرِمَةُ: ﴿غُلباً﴾، أي: غِلاظُ الأوساط. وفي رواية: غِلاظ الرِّقاب، ألم تَرَ إلى الرَّجُلِ إذا كان غَلِيظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلَبُ. رواهُ ابن أبي حاتم، وأنشد ابنُ جرير للفرزدق[2]:

عَوَى فأثارَ أغلَبَ ضَيْغَمِيّا فوَيْلُ ابن المَراغةِ ما استثارا

وقولُه: ﴿وفاكهةً وأبّاً﴾، أما الفاكهة فهو ما يَتفكَّه به من الثمار. قال ابنُ عباس: الفاكهة كُلُّ ما أُكِل رَطْباً والأَبُّ ما أنبتتِ الأرضُ مما تأكُله الدوابُّ ولا يأكُله الناس. وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وأبو مالك: الأبُّ. الكَلأ. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: الأبُّ للبهائم كالفاكهة لبني آدمَ. وعن عطاءٍ: كلُّ شيءٍ نَبَت على وجهِ الأرضِ فهو أبٌّ. وقال الضَّحَّاكُ. كلُّ شيءٍ أنبته الأرض سِوَى الفاكهةِ فهو أبٌّ.

وقال ابنُ إدريسَ، عن عاصم بن كُلَيب، عن أبيه، عن ابن عباس. الأبُّ. نبتُ الأرضِ مما تأكُله الدوابُّ ولا يأكله الناس. ورواه ابنُ جرير من ثلاث طُرُق، عن ابن إدريس، ثم قال.

---

(١) تفسير البغوي ٤/٤٤٨.

(٢) تفسير الطبري ٣٠/٥٧، وديوان الفرزدق ٣٥٥

حدَّثنا أبو كُرَيب وأبو السائب قالا: حدَّثنا ابنُ إدريس، حدَّثنا عبدُ الملك، عن سعيد بن جُبَير قال: عَدَّ[1] ابن عباس وقال: الأبُّ ما أنبتت الأرضُ للأنعام. هذا لفظ أبي كُرَيب. وقال أبو السائب: ما أنبتت الأرضُ مما يأكل الناس وتأكل الأنعام[2].

وقال العَوفي، عن ابن عباس: الأبُّ الكلأ والمرعى. وكذا قال مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، وغير واحد[2].

وقال أبو عُبَيد القاسم بن سلام: حدَّثنا محمد بن يَزيد، حدَّثنا العوام بن حَوشَب، عن إبراهيم التَّيميّ قال: سُئِل أبو بكر الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه- عن قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وأبًّا﴾ فقال: أيُّ سماء تُظِلُّني وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني إن قلتُ في كتابِ الله ما لا أعلم.

وهذا منقطع بين إبراهيمَ التَّيميِّ والصدِّيق. فأما ما رواه ابنُ جَرير حيث قال:

حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا ابن أبي عديّ، حدَّثنا حُميد، عن أنس قال: قرأ عُمَر بنُ الخطاب ﴿عَبَسَ وتَوَلَّى﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وفاكهةً وأبًّا﴾، قال: عرفنا ما الفاكهةُ، فما الأبُّ؟ فقال: لَعَمْرُك يا ابنَ الخطاب إنَّ هذا لهو التكلف[3].

فهو إسناد صحيحٌ، وقد رَواه غيرُ واحدٍ عن أنس، به. هو محمولٌ على أنه أراد أن يَعرفَ شكلَه وجِنْسَه وعَيْنَه، وإلَّا فهو وكلُّ مَن قرأ هذه الآية يعلَمُ أنه مِن نباتِ الأرضِ، لقوله: ﴿فأنبتنا فيها حبًّا * وعِنبًا وقَضْبًا * وزيتونًا ونخلًا * وحدائقَ غُلبًا * وفاكهةً وأبًّا﴾.

وقوله: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾، أي: عيشةٌ لكم ولأنعامكم في هذه الدارِ إلى يوم القيامة.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

قال ابنُ عباس: ﴿الصاخَّة﴾: اسمٌ من أسماء يوم القيامة، عَظَّمه الله، وحذَّره عبادَه.

قال ابنُ جَرير: لعلَّه اسمٌ للنفخةِ في الصُّور[4]. وقال البَغَويّ: ﴿الصاخَّة﴾: يعني صيحةَ القيامةِ، سُمِّيت بذلك لأنها تَصُخُّ الأسماعَ، أي: تُبالغ في إسماعها حتى تكادُ تُصِمُّها[5].

﴿يوم يفرُّ المرءُ من أخيه * وأمِّه وأبيه * وصاحِبَته وبَنِيه﴾، أي: يَراهم، ويفرُّ منهم، ويَبتعِدُ عنهم، لأنَّ الهولَ عظيمٌ، والخَطْبَ جليلٌ.

قال عِكْرِمةُ: يَلْقَى الرجُل زوجتَه فيقولُ لها: يا هذه، أيَّ بعلٍ كُنتُ لكِ؟ فتقول: نعم البعلُ كنتَ! وتُثني

(١) في رواية سابقة على هذه في تفسير الطبري: وعدّ سبعاً، جعل رزقه في سبعٍ، وجعله من سبعه، وقال في آخر ذلك: الأب ما أنبتت الأرض، مما لا يأكل الناس.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٦٠.
(٣) تفسير الطبري ٣٠/٥٩.
(٤) تفسير الطبري ٣٠/٦١.
(٥) تفسير البغوي ٥/٤١٩.

بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلبُ إليكِ اليومَ حسنةً واحدةً تَهَبيها لي لعلّي أنجو مما تَرَين. فتقول له: ما أيسَرَ ما طلبتَ! ولكني لا أُطيق أن أُعطيكَ شيئاً، أتخوّفُ مِثْلَ الذي تخاف. قال: وإنَّ الرجلَ لَيَلْقى ابنَه فيتعلّق به فيقول: يا بُنيَّ، أيَّ والدٍ كنتُ لك؟ فيُثني بخير. فيقولُ له: يا بُنيَّ، إني احتجتُ إلى مثقال ذرّةٍ من حسناتِك لعلّي أنجو بها مما ترَى. فيقول وَلَدُه: يا أبتِ، ما أيسَرَ ما طلبتَ! ولكني أتخوّفُ مثلَ الذي تتخوّفُ، فلا أستطيعُ أن أُعطيَكَ شيئاً. يقول الله تعالى: ﴿يوم يَفِرُّ المرءُ من أخيه * وأمِّه وأبيه * وصاحِبَتِه وبنيه﴾.

وفي الحديثِ الصحيح(١) في أمر الشفاعة: أنه إذا طُلِبَ إلى كُلٍّ من أُولي العزم أن يشفَع عند الله في الخلائق، يقول: نَفْسِي نَفْسِي، لا أسأله اليومَ إلا نفسي. حتى إن عيسى ابن مَرْيَمَ يقولُ: لا أسأله اليومَ إلا نَفْسِي، لا أسأله مَرْيم التي ولدتني. ولهذا قال تعالى: ﴿يوم يَفِرُّ المرءُ من أخيه * وأُمِّه وأَبيه * وصاحِبَتِه وبَنيه﴾.

قال قتادةُ: الأحبُّ فالأحبُّ، والأقربَ فالأقربَ، من هَوْلِ ذلك اليوم.

وقولُه: ﴿لِكُلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾، أي: هو في شُغُلٍ شاغلٍ عن غيرِه.

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا محمد بن عمّار بن الحارث، حدَّثنا الوليدُ بن صالح، حدَّثنا ثابتُ أبو زيد العَبّاداني، عن هلال بن خَبّاب، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «تُحشَرُون حُفاةً عُراةً مُشاةً غُرلاً»(٢). قال: فقالت زوجتُه: يا رسولَ الله، أوَ يرى بعضُنا عورةَ بعضٍ؟ قال: ﴿لِكُلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾. أو قال: «ما أشغَلَه عن النظرِ».

وقد رواه النسائي مُنفرداً به، عن أبي داود، عن عارم، عن ثابت بن يَزِيد ـ وهو أبو زيد الأحولُ البصريُّ، أحد الثقات ـ عن هلال بن خَبّاب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس(٣)، به. وقد رواه الترمذي عن عبدِ بن حُمَيد، عن محمد بن الفضل، عن ثابت بن يزيدَ، عن هلال بن خَبّاب، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «تُحشَرُون حفاةً عُراةً غُرلاً». فقالت امرأةٌ: أيُبصِرُ ـ أو: يَرَى ـ بعضُنا عورةَ بعضٍ؟ قال: «يا فلانةُ، ﴿لِكُلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾. ثم قال الترمذيُّ: وهذا حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقد رُوي من غير وجه عن ابن عباس، رضي الله عنه»(٣).

وقال النَّسائي: أخبرني عَمرو بن عثمان، حدَّثنا بَقِيَّةُ، حدَّثنا الزُّبيدي، أخبرني الزُّهري، عن عُرْوَة، عن عائشة: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يُبعَثُ الناسُ يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرلاً». فقالت عائشةُ: يا رسولَ الله، فكيف بالعوراتِ؟ فقال: ﴿لِكُلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾. انفرد به النسائي من هذا الوجه(٤).

ثم قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أزهرُ بن حاتم، حدَّثنا الفضلُ بن موسى، عن عائذ بن شُرَيح، عن أنس بن مالك قال: سألت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقالت: يا رسولَ الله، بأبي أنتَ وأمّي، إني سائِلَتُكَ عن حديثٍ فتُخبِرُني أنتَ به. قال: «إن كان عندي منه علمٌ». قالت: يا نبيَّ الله، كيف يُحشَر الرجالُ؟ قال: «حفاةً عُراةً». ثم انتظرت ساعةً فقالت: يا نبيَّ الله، كيف يُحشَر النساء؟ قال: «كذلك حفاةً عُراةً». قالت: واسوأتاه من يوم القيامة! قال: «وعن أيِّ ذلك تسألين؟ إنه قد نزل عليَّ آيةٌ لا يَضُرُّكِ كان

(١) تقدّم الحديث وتخريجه عند تفسير آية الإسراء ٧٩.

(٢) غُرْلاً: جمع أغرل، وهو غير المختون.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤٤١/٤، والترمذي في تفسير سورة ﴿عبس﴾، عارضة الأحوذي ٢٣٢/١٢ ـ ٢٣٣.

(٤) النسائي، كتاب الجنائز ١١٤/٤.

عليك ثيابٌ أو لا يكونُ» قلت: أيةُ آيةٍ هي يا نبيَّ الله؟ قال: ﴿لكلِّ امرئٍ منهم يومئذ شأن يُغنيه﴾

وقال البَغَويُّ في تفسيره: أخبرنا أحمدُ بن إبراهيم الشُّريحي، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثَّعلبي، أخبرني الحُسَين بن محمد بن عبد الله، حدَّثنا عبد الله بنُ عبد الرحمن، حدَّثنا محمد بنُ عبد العزيز، حدَّثنا ابنُ أبي أُوَيس، حدَّثنا أبي، عن محمد بن أبي عَيَّاش، عن عطاء بن يَسَار، عن سَوْدَة زوج النبيِّ ـ ﷺ ـ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُبعثُ الناسُ حُفاةً عُراةً غُرلاً قد ألجمَهُم العرقُ، وبلَغ شُحُومَ الآذان». فقلت: يا رسولَ الله، واسوأتاه!ينظر بعضنا إلى بعض؟! فقال: «قد شُغِلَ الناسُ، ﴿لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾»[(١)].

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه جداً، وهكذا رواه ابنُ جَرير، عن أبي عمار الحُسَين بن حريث المروزي، عن الفضل بن موسى، به. ولكن قال أبو حاتم الرازيُّ: «عائذ بن شُرَيح ضعيفٌ، في حديثه ضعفٌ»[(٢)].

وقولُه: ﴿وجُوهٌ يومئذٍ مُسفِرَةٌ * ضاحكةٌ مُستبشِرَةٌ﴾، أي: يكونُ الناسُ هنالك فريقَين ﴿وُجُوهٌ مُسفِرةٌ﴾، أي: مُستَنيرةٌ ﴿ضاحِكةٌ مستبشرة﴾، أي: مسرورةٌ فَرِحةٌ من سُرور قلوبهم، قد ظَهَر البشرُ على وُجُوهِهِم، وهؤلاءِ أهل الجنة، ﴿ووجوهٌ يومئذ عليها غَبَرةٌ * ترهَقُهَا قَتَرةٌ﴾، أي: يعلُوها ويغشاها قترة، أي: سَوَادٌ.

قال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدَّثنا سهل بن عثمان العسكري، حدَّثنا أبو علي محمد مولى جعفر بن محمد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جَدِّه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُلجِمُ الكافرَ العرقُ ثم تَقَعُ الغَبَرةُ على وجوههم». قال فهو قوله: ﴿ووجوهٌ يومئذ عليها غَبَرةٌ﴾.

وقال ابن عباس: ﴿ترهَقُهَا قترةٌ﴾، أي: يَغْشَاها سوادُ الوجوه.

وقولُه ﴿أولئك هُمُ الكَفَرةُ الفَجَرةُ﴾، أي: الكَفَرةُ قلوبُهم، الفَجَرةُ في أعمالِهم، كما قال تعالى: ﴿ولا يَلِدُوا إلا فاجراً كفَّاراً﴾.

آخر تفسير سورة ﴿عبس﴾، ولله الحمدُ والمِنَّةُ

(١) تفسير البغوي ٤/٤٤٩ ـ ٤٥٠

(٢) تفسير الطبري ٣٠/٦١ ـ ٦٢

تفسير

سُورَةُ التَّكْوِير

وهي مكيَّةٌ

قال الإمامُ أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا عبد الله بن بَحِير القاصُّ أنَّ عبد الرحمن بن يَزِيد الصَّنْعانيَّ أخبره: أنه سَمِع ابن عُمَر يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن سرَّه أن ينظُر إلى يوم القيامة كأنه رأْيُ عَين فلْيقرأ: ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾، و﴿إذا السماءُ انفطرت﴾، و﴿إذا السماءُ انشقَّت﴾»[١].

وهكذا رواه الترمذي، عن العباس بن عبد العظيم العنبريُّ، عن عبد الرزَّاق، به[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾

قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾، يعني: أظلمت. وقال العَوفي، عنه: ذَهبت. وقال مجاهدٌ: اضمحلَّت وذهبت. وكذا قال الضحَّاك. وقال قتادةُ: ذهبَ ضوؤُها. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿كُوِّرت﴾: غُوِّرَتْ. وقال الربيع بن خُثَيم: ﴿كُوِّرت﴾: يعني رُمِي بها. وقال أبو صالح ﴿كُوِّرت﴾: أُلقِيت. وعنه أيضاً: نُكِّست. وقال زيد بن أسلَمَ: تَقَع في الأرض.

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٧، ٣٦، ١٠٠، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾ ١٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤

قال ابنُ جَرير: والصوابُ من القول عندنا في ذلك أن التكوير جَمْعُ الشيءِ بعضِه على بعضٍ، ومنه تكويرُ العِمامة [(١)- وهو لفُّها على الرأس، وكتكوير الكارة(١)] وهي[(١)] جَمْعُ الثياب بعضِها إلى بعض، فمعنى قوله: ﴿كُوِّرت﴾: جُمع بعضُها إلى بعضٍ، ثم لُفَّت فرُمي بها، وإذا فُعل بها ذلك ذهب ضوؤُها.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ وعَمرو بن عبد الله الأوديُّ، حدَّثنا أبو أسامةَ، عن مجالدٍ، عن شيخٍ من بَجيلةَ، عن ابن عباس: ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾، قال: يُكَوِّر اللهُ الشمسَ والقمرَ والنجومَ يومَ القيامة في البحر، ويبعثُ الله ريحاً دَبوراً فتضرمها ناراً. وكذا قال عامرٌ الشعبيُّ. ثم قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو صالح، حدَّثني معاويةُ بن صالح، عن ابن يزيدَ بن أبي مَرْيم، عن أبيه أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال في قول الله: ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾، قال: «كُوِّرت في جَهَنَّم».

وقال الحافظُ أبو يَعْلَى في مُسْنَدِه: حدَّثنا موسى بن محمد بن حَيَّان، حدَّثنا دُرُسْتُ بنُ زيادٍ، حدَّثنا يزيدُ الرَّقاشيُّ، حدَّثنا أَنسٌ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الشمسُ والقمرُ ثوران عقيران في النار»[(٢)].

هذا حديثٌ ضعيفٌ، لأن يزيد الرَّقاشيَّ ضعيفٌ، والذي رواه البخاري في الصحيح بدون هذه الزيادة، ثم قال البخاري:

حدَّثنا مُسَدَّد، حدَّثنا عبد العزيز بنُ المختار، حدَّثنا عبد الله الداناجُ، حدَّثني أبو سلمة بنُ عبد الرحمن، عن أبي هُرَيْرة، عن النبي ـ ﷺ ـ: «الشمسُ والقمرُ يُكَوَّران يومَ القيامة»[(٣)].

انفرد به البخاري وهذا لفظُه، وإنما أخرجه في كتاب «بَدْءِ الخلق»، وكان جديراً أن يذكُره ها هنا أو يُكَرِّره، كما هي عادته في أمثاله. وقد رواه البزَّار فجَوَّد إيراده، فقال:

حدَّثنا إبراهيم بن زياد البغداديُّ، حدَّثنا يونس بن محمد، حدَّثنا عبدُ العزيز بن المختار، عن عبد الله الداناج قال: سمعتُ أبا سَلَمة بنَ عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القَسريِّ في هذا المسجدِ مسجدِ الكوفة، وجاء الحسنُ فجلس إليه فحدَّث قال: حدَّثنا أبو هُرَيرة أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الشمسَ والقمرَ ثورانِ في النار يوم القيامة». فقال الحسن: وما ذنبُهما؟ فقال: أُحدِّثك عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ وتقولُ ـ أحسبه قال ـ: وما ذَنْبُهما؟

ثم قال: لا يُروَى عن أبي هُرَيرة إلا من هذا الوجه، ولم يرو عبد الله الداناجُ عن أبي سلمة سوى هذا الحديث.

وقولُه: ﴿وإذا النجومُ انكدرت﴾، أي: انتثرت، كما قال تعالى: ﴿وإذا الكواكبُ انتثرت﴾، وأصل الانكدار الانصبابُ.

قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيِّ بن كعب قال: ستُّ آيات قبل يومِ القيامة، بينا الناسُ في أسواقهم إذ ذهبَ ضوءُ الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجومُ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه

(١) من تفسير الطبري ٣٠/٦٤ ـ ٦٥، والكارة: الصرة التي تكون فيها الأمتعة وغيرها.

(٢) مسند أبي يعلى ٤/١٥٠، وقال أبو موسى المديني في المجموع المغيث ٢/٤٨١ وقد ذكر هذا الحديث: «قيل: لما وصفهما الله تعالى بالسباحة في قوله عز وجل: ﴿كل في فلك يسبحون﴾، ثم إنه يجمعهما في النار، يعذب بهما أهلها بحيث لا يبرحانها صارا كأنهما زمنان عقيران». وكأن ابن الأثير في النهاية لم يرتض هذا التفسير، فقد نقل ما قال أبو موسى ثم قال: «وهو كما تراه».

(٣) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٢٩٧.

الأرض، فتحركت واضطربت واختلطت. فَفَزعت الجنُّ إلى الإنسِ والإنسُ إلى الجنِّ، واختلطت الدوابُّ والطيرُ والوحوشُ، فماجوا بعضُهم في بعض. ﴿وإذا الوحوشُ حُشِرت﴾، قال: اختلطت، ﴿وإذا العشارُ عُطِّلت﴾، قال: أهملها أهلُها، ﴿وإذا البحارُ سُجِّرت﴾، قال. قالت الجنُّ: نحن نأتيكم بالخبر. قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجّجُ، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدَّعتِ الأرضُ صَدْعةً واحدةً إلى الأرضِ السابعةِ السُّفلى وإلى السماء السابعة العُليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريحُ فأماتتهم.

رواه ابن جرير[1] ـ وهذا لفظه ـ وابن أبي حاتم، ببعضه، وهكذا قال مجاهدٌ، والربيعُ بن خُثَيم، والحسنُ البصري، وأبو صالح، وحمّاد بن أبي سليمان، والضحّاك في قوله: ﴿وإذا النجومُ انكدرت﴾، أي: تناثرت.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿وإذا النجومُ انكدرت﴾، أي: تغيَّرت. وقال يزيدُ بن أبي مَرْيم، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿وإذا النجومُ انكدرت﴾، قال: «انكدَرت في جهنّم، وكلُّ مَن عُبِد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمِّه، ولو رَضِيا أن يُعبَدا لدخلاها». رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المتقدم.

وقولُه: ﴿وإذا الجبالُ سُيِّرت﴾، أي: زالت عن أماكنها ونُسِفت، فتركتُ الأرضَ قاعاً صَفْصَفاً.

وقولُه: ﴿وإذا العشارُ عُطِّلت﴾، قال عِكْرِمةُ، ومجاهدٌ: عِشارُ الإبل. قال مجاهد: ﴿عُطِّلت﴾: تُركت وسُيِّبت. وقال أُبيُّ بن كعب، والضحّاك: أهملها أهلُها. وقال الربيع بن خُثَيم: لم تُحْلَب ولم تُصَرّ[2]، تخلّى منها أربابها. وقال الضحاك: تُرِكت لا راعِيَ لها.

والمعنى في هذا كلِّه متقاربٌ. والمقصود أن العشار من الإبل ـ وهي: خيارُها والحواملُ منها التي قد وَصَلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدُها: عُشَراء، ولا يزال ذلك اسمَها حتى تضع ـ قد اشتغل الناسُ عنها وعن كَفالَتِها والانتفاعِ بها، بعد ما كانوا أرغبَ شيءٍ فيها، بما دَهَمهم من الأمرِ العظيمِ المُفظِعِ الهائل، وهو أمرُ القيامةِ وانعقادُ أسبابها، ووقُوعِ مُقدِّماتها.

وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابُها كذلك ولا سبيلَ لهم إليها. وقد قيل في العِشارِ: إنها السحابُ يُعطَّل عن المسير بين السماءِ والأرضِ، لخرابِ الدُّنيا. وقيل: إنها الأرضُ التي تُعشَّر[3]. وقيل: إنها الديارُ التي كانت تسكن تُعطَّل لذهاب أهلها. حكى هذه الأقوالَ كلَّها الإمامُ أبو عبد الله القُرطبيُّ في كتابه «التذكِرة»، ورَجَّح أنها الإبلُ، وعَزاه إلى أكثر الناس.

قلتُ: بل لا يعرف عن السلفِ والأئمةِ سواهُ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وإذا الوحوشُ حُشِرَت﴾، أي: جُمِعت. كما قال تعالى: ﴿وما من دابَّةٍ في الأرضِ ولا طائرٍ يطير بجناحَيه إلا أُممٌ أمثالُكم ما فرَّطنا في الكتابِ من شيءٍ ثم إلى ربِّهم يُحشَرُون﴾، قال ابن عباس: يُحشَرُ كلُّ شيءٍ حتى الذُّباب. رواه ابنُ أبي حاتم. وكذا قال الربيعُ بن خُثَيم والسُّدِّي، وغيرُ واحد. وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية: إن هذه الخلائقَ موافِيةٌ فيقضي اللهُ فيها ما يشاءُ. وقال عِكرِمةُ: حَشْرُها موتُها.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٦٣ ـ ٦٤.

(٢) كان من عادة العرب أن تصُرَّ ضروع الحلوبات إذا أرسلوها إلى المرعى، ويسمّون ذلك الرباط صِراراً، فإذا راحت حُلّت تلك الأصرة وحُلبت.

(٣) قال القرطبي في التذكرة ٢١٢ ـ ٢١٣: «وقيل: الأرض التي يُعَشَّر زرعها تُعطّل فلا تُزرع».

وقال ابنُ جرير: حدَّثني علي بن مسلمٍ الطوسيُّ، حدَّثنا عبَّاد بن العَوَّام، أخبرنا حُصين، عن عِكْرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا الوُحوشُ حُشِرت﴾، قال: حَشْرُ البهائمِ موتُها، وحشْرُ كلِّ شيءٍ الموتُ، غيرَ الجنِّ والإنسِ فإنهما يُوقَفان يوم القيامة.

حَدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا وكيعٌ، عن سُفيانَ، عن أبيه، عن أبي يَعْلَى، عن الربيع بن خُثَيم: ﴿وإذا الوحوشُ حُشِرت﴾، قال: أتَى عليها أمرُ الله. قال سفيانُ: قال أبي: فذكرته لعِكْرِمةَ، فقال: قال ابنُ عباس: حَشْرُها مَوْتُها.

وقد تَقدَّم عن أُبَيِّ بن كعب أنه قال: ﴿وإذا الوحُوش حُشرت﴾: اختلطت.

قال ابنُ جَرير: والأولى قولُ من قال: ﴿حُشِرت﴾ وجُمِعت، قال الله تعالى: ﴿والطيرَ مَحشُورَةً﴾، أي: مجموعةً.

وقولُه: ﴿وإذا البحارُ سُجِّرت﴾، قال ابن جَرير:

حدَّثني يعقوبُ، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن داودَ، عن سعيد بن المُسَيَّب قال: قال عليٌّ - رضي الله عنه - لرجُل من اليهود: أينَ جهنَّم؟ قال: البحرُ. فقال: ما أراه إلا صادقاً، ﴿والبحر المسجور﴾، ﴿وإذا البحار سُجِرت﴾ [مُخفَّفة][1].

وقال ابن عباس وغيرُ واحدٍ: يُرسِل الله عليها الدَّبُور فتَسْعَرُها، فتصيرُ ناراً تأجَّجُ. وقد تقدَّم الكلام على ذلك عند قوله: ﴿والبحر المسجُور﴾[2].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدَّثنا أبو طاهر، حَدَّثني عبد الجبار بن سليمان أبو سُليمان النفاطُ - شيخ صالح يُشبه مالك بن أنس - عن مُعَاوية بن سعيد قال: إن هذا البحرَ بركةٌ - يعني بحرَ الرُوم - وَسْطَ الأرض، والأنهارُ كلُّها تَصُبُّ فيه، والبحرُ الكبيرُ يَصُبُّ فيه، وأسفله آبارٌ مُطْبَقةٌ بالنحاس، فإذا كان يومُ القيامة أُسجِرَ.

وهذا أثر غريب عجيب. وفي سنن أبي داود: «لا يركبُ البحرَ إلا حاجٌّ أو مُعتَمِرٌ أو غازٍ، فإن تحتَ البحرِ ناراً، وتحت النارِ بحراً» . الحديث، وقد تقدم الكلام عليه في «سورة فاطر»[3].

وقال مجاهدٌ، والحسنُ بن مسلم: ﴿سُجِّرت﴾: أُوقِدَت. وقال الحسنُ: يَبِسَت. وقال الضحَّاكُ، وقتادةُ: غاضَ ماؤُهـا فذَهب فلم يبقَ فيها قطرةٌ. وقال الضحَّاك أيضـاً: ﴿سُجِّرت﴾ فُجِّرت. وقال السُّدِّي: فُتِحت وسُيِّرت. وقال الربيع بن خُثَيم: ﴿سُجِّرت﴾: فاضت.

وقولُه: ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾، أي: جُمِع كلُّ شكل إلى نَظِيره، كقوله: ﴿احشُروا الذين ظَلَمُوا وأزواجَهُم﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدَّثنا محمد بن الصباح البزَّار، حدَّثنا الوليدُ بنُ أبي ثور، عن سِمَاك،

---

(١) تفسير الطبري، ٣٠/٦٧. وما بين القوسين سقط من النسخ، وبالتخفيف قرأ ابن كثير وأبو عمرو من السبعة، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٨٠٥.

(٢) انظر تفسير الآية السادسة من سورة الطور.

(٣) بل تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٤٨ من سورة إبراهيم.

عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾، قال: الضُرَبَاءُ، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحابُ الميمنة ما أصحابُ الميمنة * وأصحابُ المشأمة ما أصحابُ المشأمة * والسابقون السابقون﴾، قال: هم الضُرباء.

ثم رواه ابن أبي حاتم من طُرُق أخر، عن سِمَاك بن حرب، عن النعمان بن بشير أن عُمر خطب الناس فقرأ: ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾، فقال: تزوُّجُها أن تُؤلَّفَ كلُّ شيعةٍ إلى شيعتهم. وفي رواية: هما الرجلان يعملان العملَ فيدخلان به الجنّة أو النار.

وفي رواية عن النعمان قال: سُئل عُمر عن قوله تعالى: ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾، فقال: يُقرن بين الرجلِ الصالح مع الرجل الصالح، ويقرَنُ بين الرجل السُّوء مع الرجل السُّوء في النار، فذلك تزويجُ الأنفس[١].

وفي رواية عن النُعمان أن عُمَر قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية: ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾؟ فسكتوا. قال: ولكنْ أعلَمُه، هو الرجلُ يُزوَّج نظيره من أهل الجنّة، والرجلُ يُزوَّج نظيره من أهل النار، ثم قرأ ﴿احشروا الذين ظلَموا وأزواجَهم﴾[١].

وقال العوفيُّ، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾، قال: ذلك حين يكون الناسُ أزواجاً ثلاثةً.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾، قال: الأمثالُ من الناس جُمع بينهم. وكذا قال الربيعُ بن خُثَيم والحسن، وقتادةُ. واختاره ابنُ جرير، وهو الصحيح[٢].

قولٌ آخر في قوله: ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدَّثني أبي، عن أبيه، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: يسيلُ وادٍ من أصل العرش من ماءٍ فيما بين الصيحتَين، ومقدارُ ما بينهما أربعون عاماً، فينبُت منه كلُّ خَلْقٍ بَلي، من الإنسان أو طيرٍ أو دابّة، ولو مرَّ عليهم مارٌّ قد عرَفهم قبل ذلك لعَرفهم على وجه الأرض قد نَبَتوا، ثم تُرسَل الأرواحُ فتزوَّج الأجساد، فذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾.

وكذا قال أبو العالية، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، والشَّعبي، والحسنُ البصري أيضاً في قوله: ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجت﴾، أي: زُوِّجت بالأبدان. وقيل: زُوِّج المؤمنون بالحُورِ العين، وزُوِّج الكافرون بالشياطين. حكاه القرطبي في «التذكرة»[٣].

وقولُه: ﴿وإذا الموءودةُ سُئِلت * بأيِّ ذنبٍ قُتِلت﴾: هكذا قرأه الجمهور ﴿سُئِلت﴾[٤]. والموءودةُ هي التي

(١) أخرجه أيضاً الحاكمُ وصحَّحه، وقال: ولم يُخرجاه. المستدرك، كتاب التفسير ٢/٥١٥ ـ ٥١٦، كما أخرج حديث النعمان غير واحد. انظر الدر المنثور ٨/٤٢٩.

(٢) تفسير الطبري ٣٠/٧٠ ـ ٧١.

(٣) التذكرة ٢١٣.

(٤) قرأ بالبناء للفاعل ﴿سألت﴾ أُبَيٌّ، وابن مسعود وأبو الضحى مسلم بن صبيح وغير واحد. انظر تفسير الطبري ٣٠/٧١، وروح المعاني ٣٠/٥٣.

كان أهلُ الجاهلية يدُسُّونها في التراب كراهيةً للبنات، فيومَ القيامة تسألُ الموءودةُ على أيّ ذنبٍ قُتِلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سُئِل المظلومُ فما ظَنُّ الظالِم إذاً؟!

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿وإذا الموءودةُ سألت﴾، وكذا قال أبو الضُّحَى ﴿سألت﴾، أي طلبت بدمها. وعن السُّدّي، وقتادة، مثله. وقد وردت أحاديثُ تتعلّق بالموءودة، فقال الإمامُ أحمدُ:

حدَّثنا عبد الله بن يزيد، حدَّثنا سعيدُ بن أبي أيّوبَ، حدَّثني أبو الأسود ـ وهو: محمد بنُ عبدِ الرحمن بن نَوْفل ـ عن عُروة، عن عائشة، عن جُدامة بنتِ وهب ـ أخت عُكّاشة ـ قالت: حَضَرتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في ناسٍ وهو يقولُ: «لقد هَمَمتُ أن أنْهى عن الغيلَةِ[1]، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يُغيلُون أولادهم، ولا يضرُّ أولادَهم ذلك شيئاً». ثم سألُوه عن العَزْل، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ذلك الوأدُ الخَفيُّ، وهو الموءودة سُئِلَت»[2].

ورواه مسلم من حديث أبي عبد الرحمن المقرىء ـ وهو عبد الله بن يزيد ـ عن سعيد بن أبي أيوب. ورواه أيضاً ابنُ ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن إسحاق السَّيلحيني، عن يحيى بن أيّوب. ورواه مسلم أيضاً وأبو داود والترمذي والنسائيُّ، من حديث مالك بن أنس، ثلاثتهم عن أبي الأسود، به[2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا ابن أبي عَديّ، عن داودَ بن أبي هند، عن الشَّعبي، عن عَلْقَمة، عن سَلَمة بن يزيدَ الجُعْفيِّ قال: انطلقتُ أنا وأخي إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقلنا: يا رسولَ الله، إن أمَّنا مُلَيكة كانت تَصِل الرَّحِمَ وتَقْري الضيف، وتفعل [وتفعل][3]. هلكت في الجاهلية، فهل ذلك نافعُها شيئاً؟ قال: لا. قلنا: فإنها كانت وأدت أختاً لنا في الجاهلية، فهل ذلك نافعُها شيئاً؟ قال: «الوائدةُ والموءودةُ في النار، إلا أن يُدرِكَ الوائدةَ الإسلامُ، فيَعفُوَ الله عنها»[4].

ورواه النَّسائي، من حديث داودَ بن أبي هند، به[4].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدَّثنا أبو أحمدَ الزُّبيري، حدَّثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاق، عن علقمةَ وأبي الأحوص، عن ابن مسعودٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الوائدةُ والموءودةُ في النار».

وقال أحمد أيضاً: حدَّثنا إسحاقُ الأزرق، أخبرنا عوفٌ، حدَّثتني خَنْساء ابنة معاوية الصُّرَيميَّةُ، عن عمِّها قال: قلتُ. يا رسولَ الله، مَن في الجنة؟ قال: «النبيُّ في الجنةِ، والشهيدُ في الجنَّةِ، والمولودُ في الجنة، والموءودةُ في الجنة»[5].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا قُرَّة قال: سَمِعتُ الحسن يَقولُ: قيلَ: يا رسول الله، مَن في الجنة؟ قال: «الموءودةُ في الجنة».

---

(١) الغيلة: أن يجامع الرجل زوجته وهي تُرضع.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤٣٤/٦، ومسلم، كتاب النكاح ١٠٦٦/٢ ـ ١٠٦٧، وابن ماجه، كتاب النكاح ٦٤٨/١، وسنن أبي داود، كتاب الطب ٩/٤، وعارضة الأحوذيّ، أبواب الطب ٢٣٢/٨، وسنن النسائي، كتاب النكاح ١٠٦/٦ ـ ١٠٧.
(٣) من المسند.
(٤) مسند الإمام أحمد ٤٧٨/٣، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزّي ٥٥/٤.
(٥) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١٥ من سورة الإسراء.

هذا حديث مُرسَلٌ من مراسيل الحسن، ومنهم مَن قَبله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الطِّهْرانيُّ، حدثنا حفصُ بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبانَ، عن عِكْرِمَة قال: قال ابنُ عباس: أطفالُ المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وإذا الموءُودة سُئِلت * بأيِّ ذنبٍ قُتِلت﴾، قال ابن عباس: هي المدفونة.

وقال عبد الرزّاق: أخبرنا إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير، عن عُمر بن الخطاب في قوله: ﴿وإذا الموءودةُ سُئِلت﴾، قال: جاء قيس بنُ عاصم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، إني وَأَدتُ بناتٍ لي في الجاهلية، فقال: «أعتِق عن كلِّ واحدةٍ منهنّ رقبةً». قال: يا رسول الله، إني صاحبُ إبل؟ قال: «فانحر عن كلِّ واحدةٍ منهن بَدَنةً».

قال الحافظ أبو بكر البزّار: خُولِف فيه عبد الرزاق، ولم يكتبه إلا عن الحسين بن مهدي، عنه[1].

وقد رواه ابنُ أبي حاتم فقال: أخبرنا أبو عبد الله الطِّهراني، فيما كتب إليّ، قال: حدثنا عبد الرزّاق فذكره بإسناده مثله، إلا أنه قال: «وأدت ثمانَ بناتٍ لي في الجاهلية»، وقال في آخره: «فأهدِ إن شئت عن كلِّ واحدةٍ بدنةً». ثم قال:

حدَّثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا قيس بن الربيع، عن الأغرِّ بن الصباح، عن خليفة بن حُصَين قال: قدم قيسُ بن عاصم على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، إني وأدتُ اثنتي عشرة ابنةً لي في الجاهلية ـ أو: ثلاثَ عشرَة ـ قال: «أعتق عَددهنّ نَسَماً». قال: فأعتق عَدَدَهُنَّ نسماً، فلما كان في العام المقبل جاء بمائة ناقةٍ، فقال: يا رسول الله، هذه صدقةُ قومي على أثر ما صَنَعتُ بالمسلمين. قال علي بن أبي طالب: فكنا نُرِيحها، ونسميها القَيْسِيّة.

وقولُه: ﴿وإذا الصحفُ نشرت﴾، قال الضحّاك: أُعطي كلُّ إنسانٍ صَحيفته بيَمينه أو بشماله.

وقال قتادة: [صحيفتك][2] يا ابنَ آدمَ، تُملي فيها، ثم تُطوَى، ثم تُنشرُ عليك يوم القيمة، فلينظر رجلٌ ماذا يُملي في صحيفته.

وقولُه: ﴿وإذا السماءُ كُشِطت﴾، قال مجاهد: اجتُذِبت. وقال السُّدّي: كُشِفت. وقال الضحّاك: تنكشِطُ فتذهَبُ.

وقولُه: ﴿وإذا الجحيمُ سُعِّرت﴾، قال السُّدّي: أُحمِيت. وقال قتادة: أُوقِدت. قال: وإنما يُسعِّرُها غَضَبُ الله وخطايا بني آدم.

وقولُه: ﴿وإذا الجنةُ أُزلِفت﴾، قال الضحّاكُ، وأبو مالك، وقتادةُ، والربيعُ بن خُثَيم: أي قُرِّبت إلى أهلها.

وقولُه: ﴿عَلِمت نفسٌ ما أحضرت﴾، هذا هو الجوابُ، أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذٍ تعلَمُ كلُّ نفسٍ ما عَمِلت وأُحضِرَ ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يوم تَجِد كلُّ نفسٍ ما عَمِلت من خيرٍ محضراً وما عمِلت من سوءٍ

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/٧٨ ـ ٧٩، ولفظُ البزّار هو: «لا نعلمه يُروى عن عُمر إلا من هذا الوجه، ولم يسنده عنه إلا عبد الرزاق، عن إسرائيل. ولم نَسْمَعه إلا من الحُسَين، وقد خُولِف عبدُ الرزّاق في إسناده عن إسرائيل».

(٢) عن تفسير الطبري ٣٠/٧٣

تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾. وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر﴾

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبدةُ، حَدَّثنا ابنُ المبارك، أخبرنا محمدُ بن مُطرِّف، عن زيدِ بن أسلمَ، عن أبيه قال: نزلت: ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾، قال عُمر: لما بلغَ ﴿عَلِمت نفسٌ ما أحضرتْ﴾، قال: لهذا أُجريَ الحديثُ.

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

روى مسلم في صَحيحه، والنسائيُّ في تفسيره عند هذه الآية، من حديث مِسعَر بن كِدَام، عن الوليد بن سَريع، عن عَمْرو بن حُرَيث قال: صَلَّيتُ خَلفَ النبيِّ ـ ﷺ ـ الصُّبحَ، فَسَمِعتُه يقرأ: ﴿فلا أُقسِمُ بالخُنَّس * الجوار الكُنَّس * والليلِ إذا عَسْعَسَ * والصبحِ إذا تنفَّس﴾[1]

ورَواه النسائي عن بُندار[2]، عن غُندَر، عن شُعبةَ، عن الحجَّاجِ بن عاصمٍ، عن أبي الأسودِ، عن عَمْرو بن حُرَيث، به نحوه[3].

قال ابنُ أبي حاتم وابنُ جَرير، من طريق الثَّوري، عن أبي إسحاقَ، عن رَجُلٍ من مُرادٍ، عن علي: ﴿فلا أُقسِم بالخُنَّس﴾، قال: هي النجومُ تخنِسُ بالنهار، وتظهَرُ بالليل.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابن المثنى، حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شعبةُ، عن سِماكِ بن حَرب، سَمِعتُ خالدَ بن عَرْعَرةَ، سَمِعتُ عليًّا وسُئِل عن ﴿لا أُقسِم بالخُنَّس * الجوارِ الكُنَّس﴾، فقال: هي النجومُ، تخنِسُ بالنهار وتكنِس بالليل[4].

وحدَّثنا أبو كُريب، حدَّثنا وَكيع، عن إسرائيل، عن سِماك، عن خالد، عن عَليٍّ قال: هي النجومُ.

وهذا إسناد جَيِّدٌ صحيح إلى خالد بن عَرْعَرةَ، وهو السهميُّ الكوفي، قال أبو حاتم الرازيُّ: «رَوى عن عليٍّ، ورَوى عنه سِماكٌ والقاسم بن عوف الشيباني»[5] ولم يذكر فيه جَرْحاً ولا تعديلاً، فالله أعلم.

ورَوى يونُس، عن أبي إسحقَ، عن الحارث، عن عليٍّ: أنها النجوم. رواه ابنُ أبي حاتم. وكذا رُوي عن ابن عباس، ومجاهدٍ، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم: أنها النجومُ.

---

(١) مسلم، كتاب الصلاة ١/٣٣٦، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٨/١٤٥.

(٢) كذا في النسخ، والذي في تحفة الأشراف: عن محمد بن مُثنى، عن غُندر.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٨/١٤٦

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٧٤.

(٥) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/٣٤٣.

(٦) تفسير الطبري ٣٠/٧٥

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا محمد بن بَشَّار، حدَّثنا هَوذَة بن خليفة، حدَّثنا عَوفٌ، عن بكر بن عبد الله في قوله: ﴿فلا أقسم بالخنس * الجوارِ الكُنَّس﴾، قال: هي النجومُ الدَّراريُّ، التي تجري تستقبل المشرق.[1]

وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم «الخُنَّس»، أي: في حال طُلُوعها، ثم هي جَوارٍ في فلكها، وفي حال غيبوبتها يقال لها «كُنَّس»، من قول العرب: أوى الظبيُ إلى كِنَاسِهِ: إذا تغيَّب فيه.

وقال الأعمشُ، عن إبراهيمَ قال: قال عبد الله ﴿فلا أُقسِم بالخُنَّس﴾، قال: بَقَرُ الوَحْش.

وكذا قال الثَّوريُّ، عن أبي إسحاق، عن أبي مَيْسَرَة[2]، عن عبد الله ﴿فلا أُقسِم بالخُنَّس * الجوارِ الكُنَّس﴾، ما هي يا عمرو؟ قلت: البقر. قال: وأنا أرى ذلك. وكذا رَوَى يونُس بنُ أبي إسحاق، عن أبيه.

وقال أبو داود الطَّيالسي، عن عَمرو، عن أبيه، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس. ﴿الجَوار الكُنَّس﴾، قال: البقر تكنِسُ إلى الظلّ. وكذا قال سعيد بن جُبَير.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: هي الظِّباء. وكذا قال سعيد أيضاً، ومجاهدٌ، والضحَّاك. وقال أبو الشعثاء جابرُ بن زيدٍ: هي الظباء والبَقَر.

وقال ابنُ جَرير: حدَّثنا يعقوبُ، حدَّثنا هُشَيم، أخبرنا مُغيرةُ، عن إبراهيمَ ومجاهدٍ: أنهما تذاكرا هذه الآية: ﴿فلا أُقسِمُ بالخُنَّس * الجَوَارِ الكُنَّس﴾، فقال إبراهيمُ لمجاهد: قل فيها بما سَمِعت. قال: فقال مجاهدٌ: كنا نَسمَعُ فيها شيئاً، وناسٌ يقولون: إنها النجومُ. قال: فقال إبراهيمُ: قل فيها بما سَمِعتَ. قال: فقال مجاهدٌ: كنا نسمَعُ أنها بَقَر الوحش حين تكنِسُ في جِحَرَتها[3]. قال: فقال إبراهيم: إنهم يكذبون على عليٍّ، هذا كما رَوَوا عن عَليٍّ أنه ضمن الأسفل الأعلى، والأعلى الأسفل.[4]

وتوقَّفَ ابنُ جرير في المراد بقوله: ﴿الخُنَّس * الجَوَارِ الكُنَّس﴾: هل هو النُّجوم، أو الظِّباء وبَقَرُ الوَحْش؟ قال: ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الجميعُ مراداً.

وقولُه: ﴿والليل إذا عَسْعَس﴾، فيه قولان:

أحدهُما: إقبالُهُ بظلامِه. قال مجاهدٌ: أظلَمَ. وقال سعيد بن جُبَير: إذا نشأ. وقال الحسن البصريُّ: إذا غَشِيَ الناس. وكذا قال عطية العوفيُّ.

وقال علي بن أبي طلحةَ والعوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿إذا عَسْعَس﴾: إذا أَدْبَرَ. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وكذا قال زيدُ بن أسلَمَ، وابنُه عبدُ الرحمن: ﴿إذا عَسْعَس﴾، أي: إذ ذهَب فتَولَّى.

وقال أبو داود الطيالسي. حدَّثنا شعبةُ، عن عَمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَري سَمِع أبا عبد الرحمن السُّلَميَّ قال: خَرَج علينا عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ حين ثَوَّبَ المُثوِّبُ بصلاةِ الصُّبح فقال: أين السائلون عن الوَتْرِ: ﴿والليل إذا عَسْعَس * والصُّبح إذا تَنَفَّس﴾، هذا حينُ وَتْرٍ حَسَن.

وقد اختار ابنُ جرير أن المراد بقوله: ﴿إذا عَسْعَس﴾ إذا أَدْبَرَ. قال لقوله: ﴿والصُّبحِ إذا تَنفَّس﴾، أي أضاء، واستشهدَ بقولِ الشاعر أيضاً:[5]

(١) تفسير الطبري ٣٠/٧٥.

(٢) أبو مَيْسَرة هو عَمْرو بن شُرَحْبيل

(٣) الجِحَرَة: جمع جُحر، وهو كل شيء تحفره الهوام والسباع لأنفسها

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٧٦

(٥) هو علقمة بن قرط، والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/٢٨٨، وتفسير الطبري ٣٠/٧٩

حتّى إذا الصُّبحُ لـه تَنفَّسا ... وانجاب عنها لَيلُها وعَسْعَسا

أي: أدبر. وعندي أن المراد بقوله: ﴿عَسْعَس﴾: إذا أقبلَ، وإن كان يصحُّ استعمالُه في الإدبار أيضاً، لكن الإقبالَ هاهنا أنسبُ؛ كأنه أقسم تعالى بالليلِ وظلامِه إذا أقبلَ، وبالفجر وضيائه إذا أشرقَ، كما قال: ﴿والليلِ إذا يغشَى * والنهارِ إذا تجلَّى﴾. وقال: ﴿والضُّحى * والليلِ إذا سَجَى﴾. وقال: ﴿فالِقُ الإصباحِ وَجَاعِلُ الليلِ[1] سكناً﴾، وغير ذلك من الآيات.

وقال كثير من عُلماءِ الأصول: إن لفظة ﴿عَسْعَس﴾ تستعمل في الإقبالِ والإدبارِ على وجه الاشتراكِ، فعلى هذا يصحُّ أن يُرَادَ كلٌّ منهما، والله أعلمُ.

قال ابنُ جرير: وكان بعضُ أهلِ المعرفةِ بكلامِ العربِ يزعُم أن ﴿عَسْعَس﴾: دنا من أوَّله وأظلَم. وقال الفرَّاء: كان أبو البلاد النحوي يُنشد بيتاً:

عَسْعَسَ حتّى لو يشاءُ ادَّنا ... كانَ لـه مِن ضَوئِه مَقْبِسُ

يريد: لو يشاء إذ دنا، أدغم الذالَ في الدالِ. وقال الفرَّاء: وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع[2].

وقولُه: ﴿والصُّبحِ إذا تَنفَّس﴾، قال الضحاك: إذا طَلَع. وقال قتادةُ: إذا أضاء وأقبلَ. وقال سعيد بن جُبير: إذا نشأ. وهو المروي عن عليٍّ رضي الله عنه. وقال ابن جرير: يعني: وضوءِ النهار إذا أقبلَ وتَبيَّن.

وقولُه: ﴿إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ﴾، يعني: إن هذا القرآن لتبليغُ رسولٍ كريمٍ، أي: مَلَكٍ شريفٍ حَسَنِ الخَلْقِ، بَهِيِّ المنظرِ، وهو جبريلُ عليه الصلاةُ والسلامُ. قاله ابنُ عباس، والشعبيُّ، وميمونُ بن مِهرانَ، والحسنُ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، والربيعُ بن أنسٍ، وغيرُهم.

﴿ذي قُوَّةٍ﴾ كقوله: ﴿علَّمه شديدُ القُوَى * ذو مِرَّةٍ﴾، أي: شديدُ الخَلْقِ، شديدُ البطشِ والفعلِ، ﴿عند ذي العرش مكينٍ﴾، أي: له مكانةٌ عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومنزلةٌ رفيعةٌ.

قال أبو صالح في قوله: ﴿عند ذي العرش مكينٍ﴾، قال: جبريلُ يدخُل في سبعين حِجَاباً من نُورٍ بغير إذنٍ. ﴿مُطاعٍ ثَمَّ﴾، أي: له وجاهةٌ، وهو مسموعُ القولِ مُطَاعٌ في الملأ الأعلى.

قال قتادة: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾، أي: في السمواتِ، يعني: ليس هو من أفناءِ[3] الملائكةِ، بل هُو من السادة والأشراف، مُعْتَنًى به، انتُخِبَ لهذه الرسالة العظيمة.

وقولُه: ﴿أمينٍ﴾: صفةٌ لجبريل بالأمانة، وهذا عظيمٌ جدًّا أن الربَّ ـ عزَّ وجلَّ ـ يُزَكِّي عبدَه ورسولَه المَلَكيَّ جبريلَ، كما زَكَّى عبده ورسولَه البشريَّ محمداً ـ ﷺ ـ بقوله: ﴿وما صاحِبُكم بمجنونٍ﴾.

قال الشعبي، وميمون بن مِهران، وأبو صالح، ومن تَقدَّم ذكرهُم: المرادُ بقوله: ﴿وما صاحِبُكم بمجنُونٍ﴾، يعني: محمداً ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ولقد رآه بالأفقِ المبينِ﴾، يعني: ولقد رأى محمدٌ جبريلَ الذي يأتيه بالرسالةِ عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستُّمائةِ جناحٍ، ﴿بالأفقِ المُبينِ﴾، أي: البَيِّنِ، وهي الرؤيةُ

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأنعام، قرأ الكوفيون ﴿وجعل﴾، وقرأ باقي السبعة ﴿وجاعلُ﴾، على زنة فاعل. الإقناع لابن الباذش ٢/٦٤١.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٧٩، ومعاني القرآن للفراء ٣/٢٤٢.
(٣) يقال: هذا رجل من أفناء الناس، أي: لا يُعلم من هو؟

الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمه شديد القُوى * ذو مِرَّةٍ فاستوى * وهو بالأُفق الأعلى * ثم دنا فَتَدلَّى * فكان قابَ قوسَين أو أدنى * فأوحَى إلى عبده ما أوحَى﴾، كما تقدَّم تفسيرُ ذلك[1] وتقريره، والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل عليه السلام. والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكُر فيها إلاَّ هذه الرؤيةَ وهي الأولى، وأما الثانيةُ وهي المذكورةُ في قوله: ﴿ولقد رآه نزلةً أُخرى * عندَ سِدْرَةِ المُنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشَى السِّدرةَ مايغشَى﴾. فتلك إنما ذُكِرت في «سورة النجم»[2]، وقد نزلت بعد الإسراء.

وقوله: ﴿وما هو على الغَيبِ بظَنِين﴾[3]، أي: وما محمدٌ على ما أنزله الله إليه بظَنِين، أي: بمُتَّهم، ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي: ببخيلٍ، بل يبذلُه لكلِّ أحدٍ.

قال سفيان بن عُيَينة: ظَنِينٌ وضَنين سواء، أي: ما هو بكاذبٍ، وما هو بفاجرٍ. والظنينُ: المُتَّهم، والضَّنين: البخيل.

وقال قتادة: كان القرآنُ غيباً، فأنزله الله على محمد، فما ضَنَّ به على الناس. وكذا قال عكرمة، وابن زيد، وغير واحد، بل بَلَّغه ونَشَره وبَذَله لكل من أراده. واختار ابنُ جرير قراءة الضاد[4].

قلت: وكلاهما متواتر، ومعناه صحيحٌ كما تقدَّم.

وقولُه: ﴿وما هو بقول شيطانٍ رجيمٍ﴾، أي: وما هذا القرآن بقول شيطانٍ رجيمٍ، أي: لا يقدرُ على حمله، ولا يُريده، ولا ينبغي له. كما قال: ﴿وما تنزَّلت به الشياطينُ * وما ينبغي لهم وما يستطيعُون * إنهم عن السمعِ لمعزولون﴾.

وقولُه: ﴿فأين تذهَبُون﴾، أي: فأين تَذْهَب عقولُكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظُهُوره ووضُوحه، وبيان كونه حقًّا من الله عزَّ وجلَّ، كما قال الصديق ـ رضي الله عنه ـ لوفد بني حنيفة حين قَدِمُوا مسلمين، وأمرهم فَتَلوا عليه شيئاً من قرآن مُسَيلمة الذي هو في غاية الهذيان والركاكة، فقال: ويحكُم! أين يُذهَب بعُقُولكم؟! والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ، أي: من إلَه.

وقال قتادةُ: أي عن كتاب الله وعن طاعته.

وقولُه: ﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾، أي: هذا القرآنُ ذكرٌ لجميع الناس، يتذكَّرون به ويتَّعظون، ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾، أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاةٌ له وهدايةٌ، ولا هدايةَ فيما سواه ﴿وما تشاءون إلا أن يَشاء الله ربُّ العالمين﴾، أي: ليست المشيئةُ موكولةً إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضلَّ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ربِّ العالمين.

قال سفيان الثوريُّ، عن سَعيد بن عبد العزيز، عن سُلَيمان بن موسى: لما نزلت هذه الآية ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾، قال أبو جهل: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم. فأنزل الله: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربُّ العالمين﴾.

آخر تفسير سورة التكوير، ولله الحمد والمنَّة

(١) انظر تفسير الآيات ٥ ـ ١٠ من سورة النجم.

(٢) انظر تفسير الآيات ١٣ ـ ١٦ من سورة النجم.

(٣) قرأ بالظاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي. وقرأ باقي السبعة بالضاد. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٨٠٥.

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٨٣.

تفسير

سورة الانفطار

وهي مكية

قال النسائي: أخبرنا محمد بن قُدامة، حدَّثنا جريرٌ، عن الأعمش، عن مُحارب بن دِثارٍ، عن جابر قال: قام معاذٌ فصلَّى العِشاء الآخرة فطوَّلَ، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أفتَّان يا معاذُ؟، [أفتَّان يا معاذ؟!]، أين كُنت عن ﴿سَبِّح اسم ربِّك الأعلى﴾، ﴿والضُّحى﴾، و ﴿إذا السماءُ انفطرت﴾؟!»[1]

وأصلُ الحديث مخرَّج في الصحيحَين[1] ولكن ذِكْرَ ﴿إذا السماءُ انفَطرت﴾ من أفراد النَّسائي. وتقدم[2] من رواية عبد الله بن عُمَر، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من سَرَّه أن يَنظُرَ إلى القيامةِ رأيَ عَينٍ فليقرأ. ﴿إذا الشمسُ كُوِّرتْ﴾، و ﴿إذا السماءُ انفَطَرَتْ﴾ و ﴿إذا السماء انشقَّت﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ
مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ
رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) سنن النسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٧٢، وما بين القوسين منه. وفتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٥١٥، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٣٩-٣٤٠.

(٢) تقدم الحديث أول سورة التكوير.

يقول تعالى: ﴿إذا السماءُ انفطرت﴾، أي: انشقَّت كما قال: ﴿السماءُ مُنفطرٌ بِهِ﴾. ﴿وإذا الكواكبُ انتثرتْ﴾، أي: تساقطت ﴿وإذا البحار فُجِّرت﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض. وقال الحسنُ: فجّر الله بعضها في بعض، فذهب ماؤُها. وقال قتادةُ: اختلط مالحها بعذبها. وقال الكلبي: مُلِئَتْ.

﴿وإذا القبورُ بُعثِرَت﴾، قال ابنُ عباس: بُحِثَت. وقال السُّدي: تُبعثر: تُحرَّكُ فيخرُج مَن فيها.

﴿عَلِمت نفسٌ ما قَدَّمت وأخَّرت﴾، أي: إذا كان هذا حَصلَ هذا.

وقولُه: ﴿يا أيّها الإنسانُ ما غرَّك بربِّك الكريم﴾: هذا تهديدٌ، لا كما يتوهَّمه بعضُ الناس من أنه إرشادٌ إلى الجواب؛ حيث قال: ﴿الكريم﴾، حتى يقول قائلهم: غرَّه كَرَمُه. بل المعنى في هذه الآية: ما غرَّك ـ يا ابنَ آدمَ ـ بِرَبِّك الكريم ـ أي: العظيم ـ حتى أقدَمْتَ على مَعْصِيته، وقابلته بما لا يَليق؟ كما جاء في الحديث: «يقولُ الله يومَ القيامة: ابنَ آدم، ما غرَّك بي؟ ابنَ آدمَ، ماذا أجبتَ المرسلين؟»[1].

قال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدَّثنا ابنُ أبي عُمَرَ، حدَّثنا سفيان: سَمِع عُمَرُ رجلاً يقرأ: ﴿يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّك بربِّك الكريم﴾، فقال عُمَر: الجهلُ.

وقال أيضاً: حدَّثنا عُمَر بن شَبَّة، حدَّثنا أبو خَلَف، حدَّثنا يحيى البكَّاء، سَمِعتُ ابنَ عُمَر يقولُ وقرأ هذه الآية: ﴿يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّك بربِّك الكريم﴾، قال ابنُ عُمَر: غرَّه ـ والله ـ جهلُه.

قال: ورُوي عن ابن عباس، والربيع بن خُثَيم، والحسن، مثلُ ذلك.

وقال قتادة: ﴿ما غرَّك بربِّك الكريم﴾: شيء ما غرَّ ابنَ آدمَ، وهذا العَدُوُّ الشيطانُ[2]. وقال الفُضَيل بن عِياض: لو قال لي: «ما غرَّك بي»، لقلت: سُتُورك المُرْخَاةُ.

وقال أبو بكر الورَّاق: لو قال لي: ﴿ما غرَّك بربِّك الكريم﴾، لقلت: غرَّني كرمُ الكريم[3]. قال البَغَويُّ. وقال بعضُ أهلِ الإشارةِ: إنما قال: ﴿بربِّك الكريم﴾ دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لَقَّنه الإجابة[3].

وهذا الذي تَخيَّله هذا القائلُ ليس بطائلٍ، لأنه إنما أتى باسمه ﴿الكريم﴾، لِيُنَبِّه على أنه لا ينبغي أن يُقابِلَ الكريمَ بالأفعال القبيحة، وأعمالِ السُّوء.

وحكى البَغَويُّ، عن الكلبي ومُقاتل أنهما قالا: نَزَلت هذه الآيةُ في الأسود[4] بن شَرِيق، ضَرَبَ النبيَّ ـ ﷺ ـ ولم يُعاقَب في الحالةِ الراهنة، فأنزل الله: ﴿ما غرَّك بربِّك الكريم﴾.

وقولُه: ﴿الذي خَلَقك فَسوَّاك فَعَدَلك﴾، أي: ما غرَّك بالربِّ الكريم ﴿الذي خَلَقك فسوَّاك﴾، أي: جعلك سوياً مستقيماً معتدلَ القامةِ مُنتصِبَها، في أحسنِ الهيئاتِ والأشكالِ.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٩/٢٠٥ ـ ٢٠٦ موقوفاً على ابن مسعود. وقال في مجمع الزوائد ١٠/٣٤٧: «رواه الطبراني في الكبير موقوفاً، وروى بعضه في الأوسط مرفوعاً: عبدي ما غرَّك بها؟ ماذا أجبت المرسلين».

(٢) أخرجه الطبري ٣٠/٨٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/٤٥٦.

(٤) كذا في النسخ، ولم نجد الأسود بن شريق. والذي في تفسير البغوي ٤/٤٥٥: «أبي الشريق». وقال القرطبي في تفسيره ١٩/٢٤٥: «نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدة الجُمَحيّ». ومثله في ١٥/٦٨.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة[(١)]، حدثنا حَرِيزٌ، حدثني عبد الرحمن بن مَيْسَرة، عن جُبَير بن نُفَير، عن بُسْر بن جِحَاش القُرشي: أن رسول الله ـ ﷺ ـ بَصَق يوماً في كَفِّه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: ابنَ آدم، أنَّى تُعجزني وقد خلقتُك من مثل هذه؟ حتى إذا سَوَّيتك وعَدَلْتُك مشيتَ بين بُرْدَين وللأرض منك وَئِيدٌ، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلتَ: أتصدَّقُ، وأنَّى أوانُ الصدقة»[(٢)].

وكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارونَ، عن حَرِيز بن عثمان، به[(٣)].

قال شيخُنا الحافظُ أبو الحجاج المِزِّي: وتابعه يحيى بن حَمْزَة، عن ثَور بن يزيد، عن عبد الرحمن بن مَيْسَرَة[(٣)].

وقوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، قال مجاهد: في أي شَبَه أبٍ أو أمٍّ أو خالٍ أو عَمٍّ؟

وقال ابنُ جَرير: حدثني محمد بن سنان القَزَّاز، حدثنا مُطَهَّر بن الهيثم، حدثنا مُوسَى بنُ عُلَيِّ بن رَباح، حَدَّثني أبي، عن جدِّي: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ قال له: «ما وُلِد لك؟» قال: يا رسولَ الله، ما عَسَى أن يُولَد لي؟ إما غلامٌ وإما جاريةٌ. قال: «فمن يُشبِه؟» قال: يا رسولَ الله، مَن عَسى أن يُشبِه؟ إما أباه وإما أُمَّه. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ عندها: «مَه، لا تقولَنَّ هكذا، إنَّ النُّطفة إذا استقرَّت في الرحم أحضرَها الله كلَّ نَسَبٍ بينها وبين آدم؟ أَمَا قرأتَ هذه الآيةَ في كتاب الله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، قال: سَلَكَكَ»[(٤)].

وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم والطَّبَراني[(١)]، من حديث مُطَهَّر بن الهَيْثَم، به. وهذا الحديث لو صحَّ لكان فيصلاً في هذه الآية، ولكنَّ إسناده ليس بالثابت، لأن «مُطَهَّرَ بن الهيثم» قال فيه أبو سعيد بن يُونُس: كان متروكَ الحديثِ، وقال ابنُ حِبَّان: يَرْوي عن موسى بن عُلَيّ وغيره ما لا يُشبِهُ حَديثَ الأثبات. ولكن في الصحيحين عن أبي هُرَيرة أن رَجُلاً قال: يا رسولَ الله، إنَّ امرأتي وَلَدت غُلاماً أسودَ؟! قال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «فما ألوانها؟». قال: حُمرٌ. قال: «فيها من أورَق؟» قال: نعم. قال: «فأنَّى أتاها ذلك؟» قال: عسى أن يكون نَزَعه عِرْقٌ. قال: «وهذا عَسَى أن يكون نَزَعه عِرقٌ»[(٥)].

وقد قال عِكْرِمة في قوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾. إن شاء في صورةِ قِرْدٍ، وإن شاء في صورة خِنْزير. وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صُورَةِ كَلْبٍ، وإن شاء في صورة حمارٍ، وإن شاء في صورة خِنْزِيرٍ.

وقال قتادة: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، قال: قادرٌ ـ والله ـ رَبُّنا على ذلك. ومعنى هذا القولِ عند هؤلاء: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قادرٌ على خَلْقِ النُّطفةِ على شكلٍ قبيحٍ من الحيوانات المُنكرةِ الخَلْقِ، ولكن بقدرته ولُطفِه وحِلْمِه يَخلُقه على شكلٍ حَسَنٍ مُستقيمٍ مُعتدلٍ تامٍّ، حَسَنِ المنظر والهيئة.

وقولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾، أي: بل إنما يحمِلُكم على مواجَهةِ الكريم ومُقَابلتِه بالمعاصي تكذيبٌ في قلوبكم بالمَعَاد والجَزاء والحِساب.

---

(١) كذا في نسخنا. وفي المسند: حدثنا أبو النضر. وأبو المغيرة هو: عبد القدوس بن الحجاج الخولاني، يروي عن حريز بن عثمان، ويروي عن الإمام أحمد. انظر تهذيب الكمال ٥٧١/٥، والجرح ٥٦/٦.

(٢) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية الرابعة من سورة النحل.

(٣) تحفة الأشراف للمزّي ٩٧/٢.

(٤) تفسير الطبري ٨٧/٣٠، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٧٥/٥، وانظر مجمع الزوائد ١٣٥/٧.

(٥) فتح الباري، كتاب الطلاق ٤٤٢/١٠، ومسلم، كتاب اللعان ١١٣٧/٢.

وقولُه تعالى: ﴿وإنَّ عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمُون ما تفعلون﴾، يعني: وإنَّ عليكُم لملائكةً حَفَظَةً كِراماً فلا تقابِلُوهم بالقبائح، فإنهم يكتُبون عليكم جميعَ أعمالكم.

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن محمد الطَّنافِسي، حدَّثنا وكيعٌ، حدَّثنا سُفيانُ ومِسْعَر، عن علقمةَ بن مرْثَدٍ، عن مجاهد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أكرِمُوا الكرامَ الكاتبين الذين لا يُفارِقُونكم إلا عند إحدى حالَتَين: الجَنابة والغائط. فإذا اغتسَل أحدُكم فليَسْتَتِرْ بجِرْمِ حائطٍ أو ببَعيره، أو ليَسْتُرْه أخوه».

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار، فوَصَله بلفظ آخر، فقال:

حدَّثنا محمد بن عثمان بن كَرامة، حدَّثنا عُبَيد الله بن موسى، عن حَفْص بن سُلَيمان، عن علقمة بن مَرْثَد، عن مُجاهِدٍ، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله ينهاكم عن التعرِّي، فاستحيُوا من ملائكة الله الذين مَعَكم، الكرامِ الكاتبين، الذين لا يُفارِقُونكم إلا عند إحدى ثلاثِ حالاتٍ: الغائطِ، والجَنَابة، والغُسْلِ. فإذا اغتسل أحدُكم بالعَراء فليَسْتَتِر بثوبه، أو بِجِذْمِ حائطٍ، أو ببعيره».

ثم قال: حفصُ بن سليمان ليِّن الحديث، وقد رُوي عنه، واحتُمل حديثه(١).

وقال الحافظُ أبو بكر البزَّار: حدَّثنا زيادُ بن أيوبَ، حدَّثنا مُبَشِّر بن إسماعيلَ الحَلَبي، حدَّثنا تمَّام بن نَجيح، عن الحسن ـ يعني البصريَّ ـ عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من حافِظَين يرفَعان إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما حَفِظا في يوم فيَرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى: قد غفرتُ لعبدي ما بين طَرَفي الصَّحِيفة».

ثم قال: تفرَّد به تمَّام بن نَجيح، وهو صالح الحديث(٢).

قلتُ: وثَّقه ابنُ مَعين وضعَّفه البُخاري، وأبو زُرعَة، وابنُ أبي حاتم(٣)، والنَّسائي، وابن عَديٍّ. ورماه ابن حبان بالوضع. وقال الإمام أحمد: لا أعرف حقيقة أمره.

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدَّثنا إسحاقُ بن سليمان البغداديُّ المعروف بالقَلُوسِيِّ، حدَّثنا بيان بن حُمران، حدَّثنا سلام، عن منصور بن زاذان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن ملائكةَ الله يعرفون بني آدم ـ وأحسِبُه قال: ويعرفُون أعمالهم ـ فإذا نظرُوا إلى عبدٍ يَعْمَلُ بطاعة الله ذكروه بينهم وسمَّوه، وقالوا: أفلح الليلةَ فلانٌ، نجا الليلةَ فلانٌ. وإذا نظرُوا إلى عبدٍ يَعْمَلُ بمعصيةِ الله ذكَرُوه بينهم وسمَّوه، وقالوا: هَلَك الليلة فلانٌ».

ثم قال البزَّارُ: سَلام هذا، أحسبه سلام المدائني، وهو ليِّن الحديث(٣).

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

يُخبِر تعالى عما يَصِيرُ الأبرارُ إليه من النعيم، وهم الذين أطاعُوا الله عزَّ وجلَّ، ولم يقابِلُوه بالمعاصي.

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الطهارة ١/١٦٠ ـ ١٦١، وجِذْمُ الحائط: بقيته.

(٢) كشف الأستار، كتاب التوبة ٤/٨٣.

(٣) كشف الأستار، كتاب المواعظ ٤/٦٧.

وقد رَوَى ابن عساكر في ترجمة «مُوسَى بن محمد»، عن هِشَام بن عَمَّارٍ، عن عيسى بن يُونُسَ بن أبي إسحاقَ، عن عُبَيد الله، عن مُحارِبٍ، عن ابن عُمَر، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إنما سَمَّاهم الله الأبرار لأنهم بَرّوا الآباء والأبناء».

وذكر ما يَصِير إليه الفُجَّارُ من الجحيم والعذاب المقيم، ولهذا قال: ﴿يَصْلَوْنها يوم الدين﴾، أي: يومَ الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وما هم عنها بغائبين﴾، أي: لا يَغِيبون عن العذاب ساعةً واحدةً، ولا يُخَفَّف عنهُم من عَذابها، ولا يُجَابُون إلى ما يسألونَ من الموتِ أو الراحةِ، ولو يوماً واحداً.

وقولُه: ﴿وَمَا أدراك ما يومُ الدين﴾ تعظيمٌ لشأن يوم القيامة، ثم أكَّده بقوله: ﴿ثم ما أدراك ما يومُ الدين﴾. ثم فَسَّره بقوله: ﴿يوم لا تَملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً﴾، أي: لا يقدِرُ واحِدٌ على نفع أحدٍ ولا خَلاصِه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاءُ ويرضَى.

ويُذكَرُ ها هنا حديث: «يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، لا أملك لكم من الله شيئاً». وقد تقدَّم في آخر تفسير سورة الشعراء[1]. ولهذا قال: ﴿والأمرُ يومئذٍ لله﴾، كقوله: ﴿لمن الملكُ اليومَ لله الواحدِ القَهَّار﴾، وكقوله: ﴿الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن﴾، وكقوله: ﴿مالكِ يوم الدين﴾.

قال قتادة: ﴿يوم لا تملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله﴾، والأمر ـ والله ـ اليومَ لله، ولكنه يومئذٍ لا يُنازِعُه أحدٌ.

آخر تفسير سورة الانفطار، ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

تفسير

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

وهي مَدَنيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

قال النَّسائي وابنُ ماجه: أخبرنا محمد بن عَقيل ـ زاد ابن ماجه: وعبدُ الرحمن بن بشر ـ قالا: حدَّثنا علي ابن الحُسين بنُ واقد، حدَّثني أبي، عن يزيدَ ـ هو ابن أبي سعيدٍ النحويُّ، مولى قريش ـ عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس قال: لما قَدِم نبيُّ الله ـ ﷺ ـ المدينةَ كانوا من أخبثِ الناس كيلاً فأنزل الله: ﴿ويلٌ للمُطفِّفين﴾، فحَسَّنُوا الكيلَ بعد ذلك[1].

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدَّثنا جعفرُ بن النضر بن حماد، حدَّثنا محمد بن عُبَيد، عن الأعمش، عن عَمرو بن مُرَّة، عن عبد الله بن الحارث، عن هلالِ بن طلق قال: بينا أنا أسيرُ مع ابن عُمَر فقلتُ: مَن أحسنُ الناسِ هيئةً وأوفاه كيلاً؟ أهلُ مكَّة والمدينة؟ قال: حق لهم، أما سَمِعت الله يقولُ: ﴿ويلٌ للمُطفِّفين﴾.

وقال ابنُ جَرير: حدَّثنا أبو السائب، حدَّثنا ابن فُضَيل، عن ضِرارٍ، عن عبد الله المُكتِب، عن رجل، عن عبد الله قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة ليوفون الكيلَ. قال: وما يمنعُهم أن يوفُوا الكيل وقد قال الله: ﴿ويلٌ للمُطفِّفين﴾، حتى بلغ: ﴿يومَ يَقُومُ الناسُ لربِّ العالمين﴾[2].

(١) أخرجه النَّسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٥/١٧٩ ـ ١٨٠، وابن ماجه في كتاب التجارات ٢/٧٤٨.

(٢) تفسير الطبري ٣٠/٩٠ ـ ٩١.

فالمرادُ بالتطفيف هاهنا: البخسُ في المكيال والميزان، إمَّا بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنُّقصان إن قَضَاهم،ولهذا فَسَّر تعالى المُطفِّفين الذين وَعَدهم بالخَسَار والهَلاك وهو الويلُ، بقوله: ﴿الذين إذا اكتالُوا على الناس﴾، أي: من الناسِ ﴿يَستوفُون﴾، أي: يأخُذون حَقَّهم بالوافي والزائد، ﴿وإذا كالُوهم أو وَزَنُوهم يُخسِرُون﴾، أي: ينقصون.

والأحسنُ أن يُجعَل «كالوا» و«وزنوا» مُتعدِّياً، ويكون هم في محل نصب: ومنهم مَن يجعلُها ضميراً مُؤكِّداً للمستتر في قوله «كالوا» و«وزنوا»، ويحذف المفعولَ لدلالة الكلام عليه، وكلاهما مُتقارب.

وقد أمر الله ـ تعالى ـ بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: ﴿وأوفوا الكيل إذا كِلتُم وزِنُوا بالقِسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾، وقال: ﴿وأوفوا الكيل والميزانَ بالقِسط لا نُكلِّف نفساً إلا وُسعَها﴾، وقال ﴿وأقيموا الوزنَ بالقِسطِ ولا تُخسِروا الميزان﴾. وأهلك الله قومَ شُعيبٍ ودمَّرهم على ما كانوا يَبْخَسُون الناس في المِكيالِ والمِيزان.

ثم قال تعالى متوعداً لهم: ﴿ألا يَظنُّ أولئك أنهم مبعوثُون ۞ ليوم عظيم﴾، أي: أما يخافُ أولئك من البعثِ والقِيام بَين يَدَي من يعلَمُ السرائر والضمائر، في يومٍ عظيمِ الهولِ، كثيرِ الفَزَعِ، جَليلِ الخَطْبِ، مَن خَسِر فيه أُدخِلَ ناراً حامية؟

وقولُه: ﴿يوم يقومُ الناسُ لربِّ العالمين﴾، أي: يقومُون حُفاةً عُراةً غُرلاً، في موقفٍ صعبٍ حَرِجٍ ضَيِّقٍ ضَنكٍ على المُجرمِ، ويَغشاهم مِن أمر الله ما تَعجزُ القُوَى والحواسُّ عنه.

قال الإمام مالك، عن نافع، عن ابن عمر أن النبيَّ ـ ﷺ ـ قال: ﴿يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين﴾ حتى يَغيبَ أحدُهم في رَشْحِه إلى أنصافِ أُذنيه».

رواه البخاري، من حديث مالك وعبد الله بن عَون، كلاهما عن نافعٍ، به[1]. ورواه مسلمٌ من الطريقين أيضاً. وكذلك رواه أيوبُ وصالح بن كيسان، وعبد الله وعُبَيد الله ابنا عُمَر، ومحمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عُمَر، به[1].

ولفظُ الإمامِ أحمدَ: حدَّثنا يزيدُ، أخبرنا ابنُ إسحاقَ، عن نافع، عن ابن عُمَر: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: ﴿يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين﴾: لِعظَمةِ الرحمن ـ عزَّ وجلَّ ـ يوم القيامة، حتى إن العرقَ لَيُلجِمُ الرجالَ إلى أنصافِ آذانهم[2].

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدَّثنا إبراهيمُ بن إسحاق، حدَّثنا ابنُ المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيدَ بن جابر، حَدَّثني سُليم بن عامر، حدَّثني المقدادُ ـ يعني ابنَ الأسود الكِنديَّ ـ قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول. «إذا كان يومُ القيامةِ أُدنِيَت الشمس من العبادِ، حتى تكون قِيدَ مِيلٍ أو مِيلين. قال: فَتَصْهَرُهم الشمسُ، فيكونون في العَرَق كَقَدْرِ أعمالهم، منهم مَن يأخذُه إلى عَقِبَيه، ومنهم مَن يأخذُه إلى رُكبَتَيه، ومنهم من يأخذُه إلى حَقْوَيه، ومنهم من يُلجِمُه إلجاماً[3].

(١) فتح الباري، تفسير سورة ﴿ويل للمطفّفين﴾ ١٩٦/٨، وكتاب الرقاق ٣٩٢/١١، وأخرج مسلم في كتاب الجنة ٢١٩٥/٤ ـ ٢١٩٦ رواية أيوب وصالح بن كيسان وعبد الله بن عُمر. وأخرج الطبري رواية ابن إسحق ٩٢/٣٠، وستأتي في مسند الإمام أحمد، كما أخرج رواية عبد الله، عن نافع ٩٣/٣٠

(٢) مسند الإمام أحمد ٣١/٢.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٦ ـ ٤، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٩٦/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٢٥٥/٩. والحَقْوُ. معقد الإزار

رواه مسلم، عن الحكم بن موسى، عن يحيى بن حَمْزَة ـ والترمذي، عن سُوَيد، عن ابن المبارك ـ كلاهُما عن ابن جابر، به .

حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ حدَّثنا الحسن بن سَوَّار، حدَّثنا الليثُ بن سعد، عن معاوية بن صالح: أن أبا عبد الرحمن حدَّثه، عن أبي أُمامة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «تدنُو الشمسُ يومَ القيامة على قَدْر ميل، ويُزاد في حَرّها كذا وكذا، تغلي منها الهَوَامُّ كما تَغْلِي القُدور، يَعْرَقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلُغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلُغ إلى ساقيه، ومنهم مَن يبلُغ إلى وَسَطه، ومنهم من يُلجمُه العرقُ». انفرد به أحمد[١] .

حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ. حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا أبو عُشّانة حَيّ بن يُؤمن، أنه سمع عُقبة بن عامر يقول: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «تدنُو الشمسُ من الأرض فيَعْرَق الناسُ، فمن الناس مَن يبلغ عَرَقُه عَقِبَيه، ومنهم مَن يبلُغ إلى نصفِ الساق، ومنهم مَن يبلُغ إلى رُكبَتَيه، ومنهم مَن يبلُغ العَجُزَ، ومنهم مَن يبلُغ الخاصرةَ، ومنهم مَن يبلُغ مَنْكِبَيه، ومنهم من يبلُغ وَسَطَ فيه ـ وأشار بيده فألجمها فاه ـ رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يُشير هكذا ـ ومنهم من يُغطيه عرقُه». وضرب بيده إشارة[٢] انفرد به أحمد

وفي حديث أنهم يقومُون سبعينَ سنةً لا يتكلمون. وقيل: يقومون ثلاثمائة سَنة. وقيل: يقومُون أربعين ألف سنةٍ، ويُقضى بينهم في مقدارِ عشرة آلاف سنةٍ، كما في صحيح مُسلم عن أبي هُرَيْرة مرفوعاً. «في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألف سنة»[٣].

وقد قال ابن أبي حاتم. حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو عونٍ الزِّياديّ، أخبرنا عبد السلام بن عَجلان، سمعت أبا يزيد المَدَنيّ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لِبَشِير الغِفَارِيّ: «كيف أنت صانعٌ في يوم يقومُ الناس فيه ثلاثمائة سنةٍ لربِّ العالمين، من أيامِ الدنيا، لا يأتيهم فيه خبرٌ من السماءِ ولا يُؤمَر فيه بأمرٍ؟» قال بشير: المستعانُ اللهُ. قال: «فإذا أويت إلى فِراشك فتعوَّذ بالله من كَرْبِ يوم القيامةِ، وسُوءِ الحساب».

ورواه ابنُ جرير من طريق عبد السلام، به[٤].

وفي سنن أبي داود: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يتعوَّذ بالله من ضيقِ المُقَام يوم القيامة[٥].

وعن ابن مسعود: يقومُون أربعينَ سنةً رافعي رُءُوسهم إلى السماءِ، لا يُكلِّمهم أحدٌ، قد ألجم العرقُ بَرَّهم وفاجرَهُم. وعن ابن عُمَر: يقومُون مائةَ سنةٍ. رواهُما ابنُ جرير[٦]

وفي سنن أبي داود والنَّسائي وابن ماجه، من حديث زَيد بن الحُباب، عن معاوية بن صالح، عن أزهَر بن سعيد الحَرَازيّ، عن عاصم بن حُميد، عن عائشة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يفتتح قيام الليل. يُكَبِّر عشراً،

---

(١) نفس المصدر السابق
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٥٤
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٥٧.
(٤) تقدم الحديث عند تفسير ٣٥ من سورة براءة
(٥) تفسير الطبري ٣٠/٩٣
(٦) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٠٣ ـ ٢٠٤

ويحمَد عشراً، ويُسبِّح عشراً، ويستغفر عشراً، ويقولُ: «اللهمَّ اغفِر لي واهدِني، وارزُقني وعافِني». ويتعوَّذ من ضيق المقام يوم القيامة[1].

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ ﴾

يقول: حقًّا ﴿إنَّ كتابَ الفُجّار لفي سِجّين﴾، أي: إن مَصيرهم ومأواهم لفي سِجِّين، فِعِّيلٌ من السِّجن، وهو الضيقُ ـ كما يقال: فِسِّيقٌ وشِرِّيبٌ وخِمِّيرٌ وسِكِّيرٌ، ونحو ذلك. ولهذا عظَّم أمره فقال: ﴿وما أدراكَ ما سِجِّينٌ﴾ أي: هو أمرٌ عظيمٌ، وسِجنٌ مُقيمٌ وعذابٌ أليمٌ.

ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرضِ السابعة. وقد تقدَّم في حديث البَرَاء بن عازب، في حديثه الطويل: يقول الله عزّ وجلّ في رُوح الكافر: اكتبوا كتابه في سِجِّين[2].

وسِجِّين: هي تحت الأرض السابعة. وقيل: صخرةٌ تحتَ السابعةِ خضراءُ. وقيل: بئرٌ في جهنَّم.

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثاً غَريباً مُنكراً لا يَصِحُّ فقال:

حدَّثنا إسحاق بن وهب الواسطي، حدَّثنا مسعودُ بن موسى بن مُشكان الواسطي، حدَّثنا نصر بن خُزَيمة الواسطي، عن شُعَيب بن صفوان، عن محمد بن كعب القُرَظي، عن أبي هُرَيْرَة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «الفَلَقُ: جُبٌّ في جَهنَّم مُغطًّى، وأما سِجِّينٌ فمفتوح»[3].

والصحيحُ أن «سِجِّيناً» مأخوذ من السِّجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كلُّ ما تسافل منها ضاق، وكلُّ ما تعالى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعةَ كلُّ واحد منها أوسَعُ وأعلى من الذي دُونه، وكذلك الأرضون كلُّ واحدةٍ أوسعُ من التي دُونها، حتى ينتهي السفولُ المطلق والمَحَل الأضيقُ إلى المركز في وسط الأرضِ السابعةِ، ولما كان مَصيرُ الفُجّار إلى جَهنَّم وهي أسفلُ السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثم رددناه أسفلَ سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. وقال ها هنا: ﴿كلاّ إن كتاب الفُجّار لفي سِجِّين * وما أدراكَ ما سِجِّينٌ﴾، وهو يجمعُ الضِّيقَ والسُّفولَ، كما قال: ﴿وإذا أُلقُوا منها مكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنين دَعَوا هنالك ثُبوراً﴾.

وقولُه: ﴿كتابٌ مَرْقُوم﴾ ليس تفسيراً لقوله، ﴿وما أدراكَ ما سِجِّينٌ﴾، وإنما هو تفسير لما كُتِب لهم من المصير إلى سِجِّين، أي: مرقُومٌ مكتوب مفروغٌ منه، لا يُزاد فيه أحدٌ ولا يُنقَصُ منه أحدٌ؛ قاله محمد بن كعب القرظيّ.

ثم قال: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمُكَذِّبين﴾، أي: إذا صارُوا يومَ القيامة إلى ما أوعَدَهُم الله من السِّجن والعذاب المُهين. وقد تقدَّم الكلامُ على قولِـه﴿ويل﴾[4] بما أغنى عن إعادته، وأنَّ المراد من ذلك الهلاكُ والدمارُ، كما

(١) أخرجوه في كتاب الصلاة، سنن أبي داود، ١/٢٠٣ ـ ٢٠٤، والنسائي ٣/٢٠٨ ـ ٢٠٩، وابن ماجه ١/٤٣١.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢٨٧ ـ ٢٨٨، وقد تقدّم عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأعراف، ٢٧ من سورة إبراهيم
(٣) تفسير الطبري ٣٠/٩٥ ـ ٩٦.
(٤) انظر تفسير الآية ٧٩ من سورة البقرة.

يقال: ويلٌ لفلان. وكما جاء في المُسنَدِ والسُّنن من رواية بَهْز بن حكيم بن مُعاوية بن حيْدة، عن أبيه، عن جدِّه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ويلٌ للذي يُحَدِّث فيكذبُ، ليُضحِكَ الناس، ويلٌ له، ويلٌ له»(١).

ثم قال تعالى مُفسِّراً للمُكذِّبين الفُجّار الكَفَرة: ﴿الذين يُكذِّبون بيوم الدين﴾، أي: لا يُصَدِّقون بوقوعه، ولا يعتقدُون كونَه ويَستبعدُون أمْرَه. قال الله تعالى: ﴿وما يُكذِّب به إلا كلُّ مُعتدٍ أثيمٍ﴾، أي: مُعتدٍ في أفعاله؛ مِن تعاطي الحرام، والمُجاوزة في تناول المُباح، والأثيم في أقواله إن حدَّث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصَم فَجَر.

وقولُه: ﴿إذا تُتلَى عليه آياتنا قال أساطيرُ الأولين﴾، أي: إذا سَمِع كلامَ الله من الرسول، يُكذِّبُ به، ويظُنُّ به ظَنَّ السُّوءِ، فيعتقد أنه مُفتعلٌ مجمُوعٌ من كُتُب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربُّكم قالوا أساطيرُ الأولين﴾ وقال: ﴿وقالوا أساطيرُ الأوَّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلاً﴾. قال الله تعالى: ﴿كلَّا بل رانَ على قُلوبهم ما كانوا يَكسِبُون﴾، أي: ليس الأمر كما زَعَمُوا ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطيرُ الأولين، بل هو كلامُ الله وَوَحْيُه وتنزيلُه على رسوله ـ ﷺ ـ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّيْنِ الذي قد لَبِسَ قُلوبهم مِن كثْرة الذُّنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿كلَّا بل ران على قُلوبهم ما كانوا يكسِبون﴾. والرينُ يَعتري قلوبَ الكافرين، والغَيْمُ للأبرار، والغَيْنُ للمقرَّبين.

وقد رَوَى ابنُ جرير والتِّرمذي والنَّسائي وابنُ ماجه من طُرُقٍ، عن محمد بن عَجْلان، عن القعقاع بن حَكيم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيْرَة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إنّ العبد إذا أذنبَ ذنباً كانت نكتةٌ سوداءُ في قلبه، فإن تاب منها صُقِل قلبُه، وإن زاد زادت، فذلك قولُ الله: ﴿كلَّا بل ران على قُلوبهم ما كانوا يكسِبون﴾».

وقال الترمذي: «حسن صحيح». ولفظ النَّسائي: «إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةً نُكِت في قلبه نكتةٌ، فإن هو نَزَع واستغفر وتاب صُقِل قلبُه، فإن عاد زِيدَ فيها حتَّى يعلُو قلبَه، فهو الرانُ الذي قال الله: ﴿كلَّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسِبون﴾»(٢).

وقال أحمدُ: حدَّثنا صفوانُ بن عيسى، أخبرنا ابن عَجْلانَ، عن القعقاع بن حَكيم، عن أبي صالحٍ، عن أبي هُرَيْرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتةٌ سوداءُ في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِل قلبه، فإن زاد زادت حتى يعْلُوَ قلبَه، وذاك الرانُ الذي ذكر الله في القرآن: ﴿كلَّا بل ران على قُلوبهم ما كانوا يكسبونَ﴾»(٣).

وقال الحسن البصري: هو الذنبُ على الذنب، حتى يَعمى القلبُ فيموتَ. وكذا قال مجاهد بن جَبْر، وقتادةُ، وابنُ زيد، وغيرُهم.

وقوله: ﴿كلَّا إنهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجُوبون﴾، أي: لهم يوم القيامة منزلٌ ونُزُلُ سِجِّين، ثم هم مع ذلك محجُوبون عن رُؤية ربِّهم وخالقهم.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٥ ـ ٧، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٩٧ ـ ٢٩٨، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/١٩٥ ـ ١٩٦، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٨/٤٢٨

(٢) تفسير الطبري ٣٠/٩٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة ﴿ويل للمطففين﴾ ١٢/٢٣٤، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف ٩/٤٤٣، وابن ماجه في كتاب الزهد ٢/١٤١٨

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٩٧. وتقدّم الحديث عند تفسير الآية ٧ من سورة البقرة

قال الإمام أبو عبد الله الشافعي. وفي هذه الآية دليلٌ على أن المؤمنين يَرونه ـ عزَّ وجلَّ ـ يومئذٍ[١].

وهذا الذي قاله الإمام الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ في غاية الحسن، وهو استدلالٌ بمفهوم هذه الآية، كما دلّ عليه منطوقُ قوله: ﴿وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ * إلى ربها ناظرةٌ﴾. وكما دلَّت على ذلك الأحاديثُ الصِّحاحُ المتواترة في رُؤية المؤمنين ربَّهم ـ عزَّ وجلَّ ـ في الدار الآخرة، رُؤية بالأبصار في عَرَصات القيامة، وفي روضات الجِنَان الفاخرة.

وقد قال ابن جرير [حدَّثنا محمد بن[٢] عمار الرازي]: حدَّثنا أبو معمر المِنْقَريّ، حدَّثنا عبد الوارث بن سعيد، عن عمرو بن عُبَيد، عن الحسن في قوله: ﴿كلا إنهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجُوبون﴾، قال: يَكْشِفُ الحِجابَ، فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يُحجَبُ عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون كُلَّ يومٍ غُدوةً وعَشِيَّةً. أو كلاماً هذا معناه.

وقوله: ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾، أي: ثم هم مع هذا الحرمانِ عن رُؤية الرحمنِ من أهل النيرانِ، ﴿ثم يُقال هذا الذي كنتم به تُكذِّبون﴾، أي: يُقال لهم ذلك على وجه التقريعِ والتوبيخ، والتصغيرِ والتحقير.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى: حقّاً ﴿إنَّ كتابَ الأبرارِ﴾، وهم بخلاف الفُجّار، ﴿لفي عِلِّيين﴾، أي: مَصيرُهم إلى عِلِّيين، وهو بخلاف سِجِّين.

قال الأعمش، عن شِمْر بن عطية، عن هلال بن يِساف قال: سأل ابنُ عباس كعباً وأنا حاضرٌ عن سِجّين، قال: هي الأرضُ السابعة، وفيها أرواحُ الكُفّار. وسأله عن عِلِّيين فقال: هي السماءُ السابعةُ، وفيها أرواحُ المؤمنين. وهكذا قال غيرُ واحد: إنها السماءُ السابعةُ.

وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كلاّ إن كتابَ الأبرارِ لفي عِلِّيين﴾، يعني: الجنةَ. وفي رواية العوفي، عنه: أعمالُهم في السماءِ عند الله. وكذا قال الضحّاك. وقال قتادةُ: عِلِّيون: ساقُ العرش اليُمنى. وقال غيره: عِلِّيون عند سِدْرَة المُنتهى.

والظاهر أن عِلِّيين مأخوذٌ من العُلُوّ، وكُلّما علا الشيءُ وارتفع عَظُم واتَّسَع، ولهذا قال تعالى مُعَظِّماً أمره ومُفَخِّماً شأنه: ﴿وما أدراك ما عِلِّيون﴾. ثم قال مؤكِّداً لما كُتِب لهم: ﴿كتابٌ مرقومٌ * يشهده المُقرَّبون﴾، وهم الملائكة، قاله قتادة. وقال العَوفي، عن ابن عباس: يشهدُه من كلِّ سماءٍ مُقَرَّبوها.

ثم قال تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾، أي: يوم القيامة هم في نعيم مُقيم، وجَنّاتٍ فيها فضلٌ عَميمٌ. ﴿على الأرائك﴾، وهي السُّرُرُ تحت الحِجال، ﴿ينظرون﴾، قيل: معناه ينظرُون في مُلْكِهم وما أعطاهم الله

(١) انظر تفسير القرطبي ١٩/٢٦١، ومعاني القرآن للزجاج ٥/٢٩٩.
(٢) عن تفسير الطبري ٣٠/١٠٠

من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد. وقيل: معناه ﴿على الأرائك ينظرون﴾ إلى الله عز وجلّ. وهذا مقابل لما وُصِف به أولئك الفجّار. ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، فذكر عن هؤلاء أنهم يُبَاحُون النظرَ إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وهم على سُرُرِهم وفُرُشِهم، كما تقدّم في حديث ابن عُمَر «إنّ أدنى أهل الجنة منزلة لَمَن ينظر في مُلْكِه مسيرةَ ألفي سنة، يَرَى أقصاه كما يرى أدناه، وإنّ أعلاه لمن ينظر إلى الله في اليوم مرّتين»[1].

وقوله: ﴿تعرف في وُجُوههم نضرَةَ النَّعيم﴾، أي: تَعرف إذا نظرت إليهم في وُجُوههم نضرَة النعيم، أي صِفَةَ التَرافة والحِشْمَةِ والسُرور والدّعة والرِّياسةِ، مما هُم فيه من النعيم العظيم.

وقوله: ﴿يُسقَون من رَحيقٍ مختوم﴾، أي: يُسقَون من خمرٍ من الجنة، والرَّحيقُ من أسماءِ الخمرِ، قاله ابنُ مسعود، وابنُ عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ زيد.

قال الإمامُ أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا زُهَير، عن سعد أبي المُجاهد الطائي، عن عَطِيَّة بن سعد العَوفي، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ـ أراه قد رَفَعه إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «أيما مُؤمنٍ سَقَى مُؤمناً شَربةً على ظَمَإٍ سقاه الله يومَ القيامة من الرَّحيق المختُوم. وأيما مؤمنٍ أطعمَ مُؤمناً على جُوعٍ أطعمَه الله من ثِمَار الجنّة. وأيما مؤمنٍ كَسَا مُؤمناً ثوباً على عُرْيٍ كَساه الله من خُضْرِ الجنة»[2].

وقال ابن مسعود في قوله: ﴿ختامُه مِسكٌ﴾، أي: خَلْطُه مِسْكٌ. وقال العَوفيُّ، عن ابن عبّاس: طيَّب الله لهم الخمرَ، فكان آخرَ شيءٍ جُعِل فيها مسكٌ، خُتِم بمسْك. وكذا قال قتادةُ، والضَّحَّاكُ. وقال إبراهيمُ والحسن: ﴿ختامُه مِسْكٌ﴾، أي: عاقبتُه مِسْكٌ.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا يحيى بن واضح، حدَّثنا أبو حمزةَ، عن جابر، عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي الدرداء: ﴿ختامُه مِسكٌ﴾، قال: شرابٌ أبيضُ مثل الفضّةِ، يَختِمُون به شرابَهم. ولو أن رَجُلاً من أهل الدنيا أدخل إصبَعَه فيه ثم أخرجها لم يبقَ ذُو رُوحٍ إلا وَجَد طِيبَها[3].

وقال ابنُ أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿ختامُه مِسكٌ﴾. قال: طِيبُه مِسْكٌ.

وقولُه: ﴿وفي ذلك فَلْيتنافَسِ المُتنافِسُون﴾، أي: وفي مثل هذا الحال فَلْيتفاخَرِ المتفاخرون، وَلْيتَباهى ويُكاثِرْ ويَستَبِقْ إلى مثله المُستَبِقُون. كقوله: ﴿لمثل هذا فَلْيعمَلِ العامِلُون﴾.

وقولُه: ﴿ومِزَاجُه من تَسْنِيم﴾، أي: ومِزَاجُ هذا الرحيقِ الموصوفِ من تَسْنِيم، أي من شرابٍ يقال له تَسْنِيمٌ، وهو أشرفُ شرابِ أهلِ الجنّةِ وأعلاه. قاله أبو صالح والضحّاك. ولهذا قال: ﴿عيناً يَشربُ بها المقرَّبُون﴾، أي: يَشْرَبُها المُقرَّبون صِرْفاً، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين. قاله ابنُ مسعود، وابنُ عباس، ومسروقٌ، وقتادةُ، وغيرُهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١٣٠ من سورة طه، ٢٣ من سورة القيامة، ٢٠ من سورة الإنسان.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/١٣ ـ ١٤.

(٣) تفسير الطبري ٣٠/١٠٧.

انقلبوا فكهين ﴿٣١﴾ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴿٣٢﴾ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴿٣٣﴾ فاليوم الذين آمنوا من
الكفار يضحكون ﴿٣٤﴾ على الأرائك ينظرون ﴿٣٥﴾ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴿٣٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي: يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي: محتقرين لهم، ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾(١)، أي: وإذا انقلب، أي: رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فاكهين، أي: مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم، ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾، أي: لكونهم على غير دينهم، قال الله تعالى: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾، أي: وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم، فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟! كما قال تعالى: ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون * إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾.

ولهذا قال هاهنا: ﴿فاليوم﴾ يعني يوم القيامة ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾، أي: في مقابلة ما ضحك بهم أولئك، ﴿على الأرائك ينظرون﴾، أي: إلى الله - عز وجل - في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته.

وقوله: ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾، أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

آخر تفسير سورة المطففين، ولله الحمد والمنة

---

(١) هذه قراءة جمهور السبعة، وقرأ حفص وحده ﴿فكهين﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٨٠٦/٢.

تفسير

سُورَةُ الانشِقَاق

وهي مكيَّةٌ

قال مالكٌ، عن عبد الله بن يزيدَ، عن أبي سَلَمة: أنّ أبا هُريرة قرأ بهم: ﴿إذا السماءُ انشقّت﴾، فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهُم أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ سَجَد فيها. رواه مسلم والنسائيُّ، من طَريق مالك، به[1]

وقال البخاريُّ: حدَّثنا أبو النُّعمان، حدَّثنا مُعتمِر، عن أبيه، عن بَكْرٍ، عن أبي رافعٍ قال: صَلَّيت مع أبي هُرَيرة العَتَمَةَ فقرأ: ﴿إذا السماءُ انشقّت﴾، فَسَجد، فقلتُ له، قال: سجدت خلفَ أبي القاسم ـ ﷺ ـ فلا أزال أسجُد بها حتى ألقاه[2].

ورواه أيضاً عن مُسَدَّد، عن مُعتَمِرٍ[3]، به. ثم رواه عن مُسَدَّدٍ، عن يزيدَ بن زُرَيع، عن التَّيميِّ، عن بكر، عن أبي رافع، فذكره[2]. وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من طُرُق، عن سُليمان بن طَرْخان التَّيمي، به. وقد رَوَى مسلم وأهل السنن من حديث سُفيان بن عُيَينة ـ زاد النَّسائيّ. وسفيان الثَّوري ـ كلاهُما عن أيُّوبَ بن مُوسَى، عن عطاء بن ميناءٍ، عن أبي هُرَيْرَة قال. سَجَدنا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في ﴿إذا السماءُ انشقّت﴾، و: ﴿اقرأ باسم رَبِّك الذي خَلَق﴾[4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾

---

(١) مسلم، كتاب المساجد ١/٤٠٦، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٦١.
(٢) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٥٠ ـ ٢٥١. والعتمةُ. ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق، وهي وقت صلاة العشاء الآخرة
(٣) فتح الباري، كتاب سجود القرآن ٢/٥٥٩.
(٤) مسلم، كتاب المساجد ١/٤٠٧، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٥٩، والنسائي. كتاب الافتتاح ٢/١٦٢

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ
مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿إذا السماءُ انشقَّت﴾، وذلك يومَ القيامة، ﴿وأَذِنت لربِّها﴾، أي: استمعت لربِّها وأطاعت أمْرَه فيما أمرَها به من الانشقاق ﴿وحُقَّت﴾، أي: وحُقَّ لها أن تُطِيعَ أمرَه، لأنه العظيمُ الذي لا يمانَعُ ولا يُغالَبُ، بل قد قهر كلَّ شيء وذَلَّ له كلُّ شيء.

ثم قال: ﴿وإذا الأرضُ مُدَّت﴾، أي: بُسِطت وفُرِشت ووُسِّعت، قال ابنُ جرير رحمه الله:

حدَّثنا ابنُ عبد الأعلى، حدَّثنا ابنُ ثور، عن مَعْمَر، عن الزُّهريِّ، عن علي بن الحسين: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ القيامةِ مَدَّ الله الأرض مَدَّ الأديم، حتى لا يكونَ لبَشرٍ من الناس إلا موضعُ قدَمَيه، فأكونَ أوَّلَ مَن يُدعَى، وجبريلُ عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلَها، فأقول: يا ربِّ، إن هذا أخبرني أنك أرسلتَه إليَّ؟ فيقولُ الله عزَّ وجلَّ: صدق. ثم أشفعُ فأقولُ: يا ربِّ، عبادُك عَبَدُوك في أطرافِ الأرض. قال: وهو المقامُ المحمودُ»[1].

وقولُه: ﴿وألقت ما فيها وتَخلَّت﴾، أي: ألقت ما في بطنها من الأمواتِ، وتَخلَّت منهم. قاله مجاهدٌ، وسعيدٌ، وقتادة. ﴿وأَذِنت لربِّها وحُقَّت﴾. كما تقدَّم.

وقولُه: ﴿يا أيُّها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلى ربِّك كَدْحاً﴾، أي: ساعٍ إلى ربِّك سعياً، وعاملٌ عملاً ﴿فملاقيه﴾، ثُم إنَّك ستلقى ما عَمِلتَ من خيرٍ أو شر. ويشهد له ما رَوَاه أبو داودَ الطيالسيُّ، عن الحسن بن أبي جعفر، عن أبي الزُّبَير، عن جابر قال: قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قال جبريلُ: يا محمدُ، عِشْ ما شِئتَ فإنك ميِّت، وأَحبِبْ ما شِئتَ فإنك مُفارِقه، واعمل ما شئتَ فإنك ملاقيه»[2].

ومن الناس من يُعيد الضمير على قوله: ﴿ربك﴾، أي: فملاقٍ ربَّك، ومعناه: فيُجازيك بِعَمَلِك ويُكافِئُك على سَعْيك. وعلى هذا فكلا القولين متلازمٌ.

قال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿يا أيُّها الإنسان إنَّك كادحٌ إلى ربِّك كَدْحاً﴾، يقول: تعمَلُ عملاً تلقى الله به، خيراً كان أو شراً.

وقال قتادةُ: ﴿يا أيُّها الإنسان إنَّك كادح إلى ربِّك كَدحاً﴾: إنَّ كَدْحَكَ ـ يا ابنَ آدمَ ـ لَضَعِيفٌ، فمن استطاع أن يكون كدحُه في طاعة الله فَلْيَفعَلْ، ولا قُوَّةَ إلا بالله.

ثم قال: ﴿فأما مَن أُوتِي كتابه بيمينه فسوف يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً﴾، أي: سهلاً بلا تَعْسِير، أي: لا يُحقَّق عليه جميعُ دقائقِ أعماله؛ فإنَّ مَن حوسب كذلك يَهلِكُ لا محالة.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/١١٤ ـ ١١٥.
(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٢٤٢.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل، أخبرنا أيُّوبُ، عن عبد الله بن أبي مُلَيكة، عن عائشة قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «من نُوقِشَ الحساب عُذِّب». قالت: فقلتُ: أليس قال الله: ﴿فسوف يُحاسب حساباً يسيراً﴾؟ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرضُ، من نُوقش الحساب يومَ القيامة عُذِّب»[(١)].

وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنَّسائي، وابنُ جرير، من حديث أيُّوب السَّختياني، به[(١)].

وقال ابنُ جَرير: حدَّثنا ابن وكيع، حدَّثنا رَوح بن عُبادة، حدَّثنا أبو عامر الخَزَّاز، عن ابن أبي مُلَيكة، عن عائشة قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «إنه ليس أحدٌ يحاسَبُ يومَ القيامة إلا مُعَذَّباً». فقلت: أليس اللهُ يقولُ: ﴿فسوف يُحاسَب حساباً يسيراً﴾، قال: «ذاك العرضُ، إنه من نُوقش الحساب عُذِّب»، وقال[(٢)] بيده على إصبعه كأنه يَنْكُتُ[(٢)].

وقد رواه أيضاً عن عمرو بن علي، عن ابن أبي عدي، عن أبي يونس القُشَيري، عن ابن أبي مُلَيكة، عن القاسم، عن عائشة ـ فذكر الحديث[(٢)]. أخرجاه من طريق أبي يونس القُشَيري، واسمه حاتم بن أبي صَغِيرة، به[(٢)].

قال ابنُ جرير: وحدَّثنا نصر بن علي الجَهضمي، حدَّثنا مسلم، عن الحريش بن الخِرِّيت أخي الزُّبير، عن ابن أبي مُلَيكة، عن عائشة قالت: من نُوقش الحسابَ ـ أو: من حُوسِب ـ عُذِّبَ. قال: ثم قالت: إنما الحسابُ اليسيرُ عرض على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو يراهم[(٢)].

وقال أحمد: حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا محمد بن إسحاق، حدَّثني عبد الواحد بنُ حمزة بن عبد الله بن الزُّبير، عن عَبَّاد بن عبد الله بن الزُّبير، عن عائشة قالت: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً». فلما انصرف قلتُ: يا رسولَ الله، ما الحسابُ اليسير؟ قال: «أن يُنظَر في كتابه فيُتجاوَزَ له عنه، إنه من نُوقش الحسابَ ـ يا عائشةُ ـ يومئذ هَلَك»[(٣)]. صحيح على شرط مسلم.

وقولُه: ﴿وينقلبُ إلى أهله مسروراً﴾، أي: ويَرجِع إلى أهله في الجنة. قاله قتادة، والضَّحاك، ﴿مسروراً﴾، أي: فرحان مُغتَبِطاً بما أعطاه الله عزَّ وجلَّ.

وقد رَوَى الطبراني عن ثوبانَ ـ مولى رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: إنكم تعملُون أعمالاً لا تُعرَف، ويُوشِك العازبُ أن يثوب إلى أهله، فمسرور ومكظوم[(٤)].

وقولُه: ﴿وأما مَن أوتِي كتابه وراءَ ظهره﴾، أي: بشماله من وراء ظَهْره، تُثْنَى يدُه إلى ورائه ويُعطَى كتابَهُ بها كذلك، ﴿فسوف يَدعُو ثُبوراً﴾، أي: خَساراً وهَلاكاً، ﴿ويَصلى سعيراً ❁ إنه كان في أهله مسروراً﴾، أي: فرحاً لا يُفكِّر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرحُ اليسيرُ الحزنَ الطويلَ، ﴿إنه ظنَّ أن لن يحورَ﴾، أي: كان يعتقد أنه لا يرجِع إلى الله ولا يُعيده بعد موته. قاله ابن عباس، وقتادةُ، وغيرهما. والحَوْرُ: هو الرجوع. قال الله: ﴿بلى إن ربَّه كان به بصيراً﴾، يعني: بلى سَيُعيده الله كما بدأه، ويُجازيه على أعماله خيرِها وشرِّها، فإنه كان به بصيراً، أي: عليماً خبيراً.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤٧/٦، وفتح الباري، تفسير سورة ﴿إذا السماء انشقت﴾ ٦٩٧/٨، ومسلم، كتاب الجنة ٢٢٠٤/٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة ﴿إذا السماء انشقت﴾ ٢٣٦/١٢.

(٢) تفسير الطبري ١١٦/٣٠. وفتح الباري، تفسير سورة ﴿إذا السماء انشقت﴾ ٦٩٧/٨، ومسلم، كتاب الجنة ٢٢٠٥/٤وقال: أشار

(٣) مسند الإمام أحمد ٤٨/٦.

(٤) أخرجه في المعجم الكبير ٩٤/٢. والعازب: الذاهب في الأرض.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾ ﴾

رُوِي عن علي، وابن عباس، وعُبادةَ بن الصامت، وأبي هُرَيْرة، وشدّاد بن أوس، وابن عُمَر، ومحمد بن علي بن الحُسَين، ومكحول، وبكر بن عبد الله المُزَني، وبُكير بن الأشجّ، ومالك، وابن أبي ذئب، وعبد العزيز بن أبي سَلَمة الماجِشُون أنهم قالوا: الشفق: الحُمرة.

وقال عبدُ الرزاق، عن معمر، عن ابن خُثَيم، عن ابن لبيبة، عن أبي هُريرة قال: الشفقُ البياضُ.

فالشفق هو حمرةُ الأُفق إما قبل طُلوع الشمس ـ كما قاله مجاهد ـ وإما بعد غُروبها ـ كما هو معروف عند أهل اللغة. قال الخليل بن أحمد: الشفق: الحمرةُ من غروب الشمس إلى وقت العِشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفقُ. وقال الجوهري: الشفق: بقيةُ ضوء الشمس وحُمرتُها في أول الليل إلى قريب من العَتَمةِ. وكذا قال عكرمة: الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء. وفي صحيح مُسلمٍ، عن عبد الله بن عَمْرٍو، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «وقتُ المغربِ ما لم يَغِبِ الشَّفَق»(1).

ففي هذا كلِّه دليلٌ على أن الشفَقَ هو كما قاله الجوهري والخليلُ. ولكن صحّ عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿فلا أُقسم بالشفق﴾: هو النهار كلُّه. وفي روايةٍ عنه أيضاً أنه قال: الشفقُ الشمسُ. رواهما ابن أبي حاتم. وإنما حمله على هذا قَرْنُه بقوله تعالى: ﴿والليلِ وما وَسَق﴾، أي: جَمَع. كأنه أقسم بالضياء والظلام.

وقال ابنُ جرير: أقسم الله بالنهار مدبراً، وبالليل مقبلاً. قال ابن جرير: وقال آخرون: الشفق اسم للحُمرة والبياض. وقالوا: هو من الأضداد(2).

قال ابن عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ: ﴿وما وَسَق﴾: وما جَمَع(3). قال قتادة: وما جَمَع من نجم ودابة(3). واستشهدَ ابنُ عباس بقولِ الشاعر(4):

مُسْتَوسِقاتٍ لو يَجِدْنَ سائقاً

وقال عِكْرِمةُ: ﴿والليل وما وَسَق﴾، يقول: ما ساقَ من ظُلْمَةٍ، إذا كان الليلُ ذَهَب كلُّ شيءٍ إلى مأواه.

وقولُه: ﴿والقمرِ إذا اتَّسق﴾، قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى. وكذا قال عِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، ومسروقٌ، وأبو صالح، والضَّحّاك، وابنُ زيد: ﴿والقمرِ إذا اتَّسق﴾: إذا استوى. وقال الحسنُ: إذا اجتمَعَ، إذا امتلأ. وقال قتادةُ: إذا استدار.

ومعنى كلامهم: أنه إذا تكامل نُورُه وأبدَرَ، جعله مقابلاً للَّيل وما وَسَق.

وقولُه: ﴿لتركبُنّ(5) طَبَقاً عن طَبَقٍ﴾، قال البخاري: أخبرنا سعيد بنُ النصر، أخبرنا هُشَيم، أخبرنا أبو

(1) مسلم، كتاب المساجد ٤٢٧/١.
(2) تفسير الطبري ١١٩/٣٠.
(3) تفسير الطبري ١٢٠/٣٠.
(4) نسب إلى العجاج وطرفه. وانظر الرجز في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢٩١/٢، والكامل للمبرد ١١٤٥/٣، وتفسير الطبري ١٢٠/٣٠.
(5) قرأ بفتح الباء ﴿لتركبَنّ﴾ ابن كثير وحمزة والكسائي، وباقي السبعة بضمها. انظر الإقناع لابن الباذش ٨٠٧/٢.

بشر، عن مجاهدٍ قال: قال ابنُ عباس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقٍ﴾: حالاً بعد حالٍ، قال هذا نبيُّكم ﷺ[1].

هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ، وهو مُحتَمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبيِّ ـ ﷺ ـ كأنه قال: سمعت هذا من نبيِّكم ﷺ، فيكون قوله «نبيكم» مرفوعاً على الفاعلية من «قال» وهو الأظهر، والله أعلم، كما قال أنس: لا يأتي عام إلا والذي بعده شرٌّ منه، سمعتُه من نبيِّكم ﷺ.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوبُ بن إبراهيم، حدَّثنا هُشَيم، أخبرنا أبو بشر، عن مجاهد: أن ابن عباس كان يقولُ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طبَقٍ﴾، قال: يعني نَبِيَّكم ﷺ، يقول: حالاً بعد حال. هذا لفظه[2].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿طبقاً عن طبقٍ﴾: حالاً بعد حالٍ. وكذا قال عكرمة، ومُرَّة الطَّيِّبُ، ومجاهد، والحسنُ، والضحَّاك.

ويَحْتَمل أن يكون المراد: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقٍ﴾: حالاً بعد حال. قال: هذا... يعني المراد بهذا نبيُّكم ـ ﷺ ـ فيكون مرفوعاً على أن «هذا» و «نبيُّكم» يكونان مبتدأ وخبراً، والله أعلم. ولعلَّ هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرُّواة، كما قال أبو داود الطيالسي وغُندر: حدَّثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس ﴿لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طبقٍ﴾، قال: محمد ﷺ.

ويُؤيِّد هذا المعنى قراءةُ عُمر، وابنِ مسعود، وابن عباس، وعامَّة أهل مكة والكوفة: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفتح التاء والباء.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا أبو أُسامة، عن إسماعيلَ، عن الشعبيِّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طبقٍ﴾، قال: لتركَبَنَّ يا محمدُ سماءً بعدَ سماءٍ.

هكذا رُوِي عن ابن مسعودٍ، ومسروقٍ، وأبي العاليةِ. ﴿طبقاً عن طبَقٍ﴾: سَماءً بعدَ سماءٍ[3]. قلتُ: يعنون ليلةَ الإسراء.

وقال أبو إسحاق، والسُّدِّي، عن رَجُلٍ، عن ابن عباس. ﴿طبقاً عن طَبَقٍ﴾، منزلاً على منزلٍ، وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس مثله، وزادَ: «ويقال: أمراً بعد أمرٍ، وحالاً بعد حالٍ»[2].

وقال السُّدِّي نفسُه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طبقٍ﴾: أعمالَ مَن قبلكم مَنزلاً عن منزلٍ.

قلت: كأنه أراد معنى الحديث الصحيح: لَتَرْكَبُنَّ سَنَن من كان قبلكم، حذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتُموه. قالوا: يا رسول الله، اليهودَ والنصارى؟ قال: «فمن»[4]؟ وهذا مُحتَمل.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشامُ بن عمَّار، حدَّثنا صدقةُ، حدَّثنا ابنُ جابر: أنه سمع مكحولاً يقولُ في قول الله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طَبَقٍ﴾، قال: في كلِّ عشرين سنةً تُحدِثُون أمراً لم تكونوا عليه.

وقال الأعمش: حدَّثني إبراهيم قال: قال عبدُ الله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طَبَقٍ﴾، قال: السماءُ تنشقُّ ثم تَحْمَرُّ، ثم تكون لوناً بعد لونٍ.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة ﴿إذا السماء انشقت﴾ ٨/٦٩٨.

(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٢٢.

(٣) أخرجه الطبري ٣٠/١٢٤.

(٤) تقدَّم الحديث وتخريجه وشرح غريبه عند تفسير الآية ٣٤ من سورة التوبة

وقال الثوري، عن قيس بن وهب، عن مرة، عن ابن مسعود: ﴿طبقاً عن طبقٍ﴾، قال: السماء مرة كالدهان، ومرة تنشق[1].

وروى البزار من طريق جابر الجعفي، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود ﴿لتركبن طبقاً عن طبقٍ﴾، يا محمد، يعني حالاً بعد حال. ثم قال: ورواه جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس.

وقال سعيد بن جبير: ﴿لتركبن طبقاً عن طبقٍ﴾، قال: قومٌ كانوا في الدنيا خسيسٌ أمرهم، فارتفعوا في الآخرة. وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا، فاتضعوا في الآخرة.

وقال عكرمة: ﴿طبقاً عن طبقٍ﴾: حالاً بعد حال، فطيماً بعد ما كان رضيعاً، وشيخاً بعد ما كان شاباً.

وقال الحسن البصري: ﴿طبقاً عن طبقٍ﴾، يقول: حالاً بعد حال، رخاءً بعد شدةٍ، وشدةً بعد رخاءٍ، وغنًى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحةً بعد سقمٍ، وسقماً بعد صحةٍ.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن عبد الله بن زاهر: حدثني أبي، عن عمرو بن شمر، عن جابر - هو الجعفي - عن محمد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «إن ابنَ آدم لفي غفلةٍ مما خُلِقَ له؛ إن الله إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه، اكتب أجله، اكتب أثره، اكتب شقيًّا أو سعيداً. ثم يرتفع ذلك الملكُ ويبعثُ الله إليه ملكاً فيحفظه حتى يُدرك، ثم يرتفعُ ذلك الملكُ، ثم يُوكِّل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا حضره الموتُ ارتفع ذانك الملكان، وجاءه ملكُ الموتِ فقبض روحه، فإذا دخل قبره ردَّ الروح في جسده، ثم ارتفع ملكُ الموتِ وجاءه ملكا القبر فامتحناه. ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعةُ انحطَّ عليه ملكُ الحسناتِ وملكُ السيئاتِ، فانتشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه: واحداً سائقاً وآخرَ شهيداً. ثم قال الله عز وجل: ﴿لقد كنت في غفلةٍ من هذا﴾. قال رسولُ الله ﷺ: ﴿لتركبن طبقاً عن طبقٍ﴾. قال: «حالاً بعد حالٍ». ثم قال النبي ﷺ: «إن قُدَّامكم لأمراً عظيماً لا تقدرونه، فاستعينوا بالله العظيم».

هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعفاء، ولكنَّ معناه صحيحٌ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوالَ الناس في هذه الآية من القُرّاء والمفسرين: والصوابُ من التأويل قولُ من قال: لتركبنَّ أنت - يا محمدُ - حالاً بعدَ حالٍ وأمراً بعدَ أمرٍ من الشدائد. والمرادُ بذلك - وإن كان الخطابُ إلى رسول الله - ﷺ - جميعُ الناسِ أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً[2].

وقوله: ﴿فما لهم لا يؤمنون * وإذا قُرِئ عليهم القرآنُ لا يسجدونَ﴾، أي: فماذا يمنعهم من الإيمانِ بالله ورسوله واليوم الآخر؟! وما لهم إذا قُرئت عليهم آياتُ الرحمنِ وكلامُه - وهو هذا القرآنُ - لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً؟!

وقوله: ﴿بل الذين كفروا يكذِّبون﴾، أي: من سجيتهم التكذيبُ والعنادُ والمخالفةُ للحقّ. ﴿والله أعلم بما يوعون﴾، قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم. ﴿فبشرهم بعذابٍ أليم﴾، أي: فأخبرهم - يا محمد - بأن الله - عز وجل - قد أعدَّ لهم عذاباً أليماً.

وقوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: هذا استثناء منقطع، يعني لكن الذين آمنوا، أي:

---

(١) أخرجه الطبري ٣٠/١٢٤

(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٢٥

بقلوبهم، وعملوا الصالحاتِ بجوارحهم، ﴿لهم أجر﴾، أي: في الدار الآخرة. ﴿غير ممنون﴾، قال ابنُ عباس: غير مَنقُوصٍ. وقال مجاهدٌ، والضحَّاكُ: غيرُ محسُوبٍ.

وحاصِلُ قولهما أنه غيرُ مقطوعٍ، كما قال تعالى: ﴿عطاءً غيرَ مَجذُوذٍ﴾. وقال السُّدِّي: قال بَعضُهم ﴿غير مَمنُون﴾: غير مَنقُوصٍ. وقال بعضُهم: ﴿غير مَمنُون﴾ عليهم.

وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غيرُ واحد؛ فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له المنَّةُ على أهل الجَنَّة في كل حالٍ وآنٍ ولحظةٍ، وإنما دخولها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المِنَّةُ دائماً سَرمَداً، والحمدُ لله وَحْدَه أبداً، ولهذا يُلهَمُون تَسبِيحه وتَحمِيده كما يلهمُون النَّفَس. ﴿وآخر دعواهُم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾.

آخر تفسير سورة الانشقاق

تفسير

سُورَةُ البُرُوج

وهي مكيَّة

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الصمد، حدثنا رُزَيق بن أبي سَلْمَى، حدثنا أبو المُهَزِّم، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذاتِ البُروج، والسماءِ والطارق[1].

وقال أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا حَمَّاد بن عباد السُّدُوسي، سَمِعتُ أبا المُهَزِّمِ يحدِّث عن أبي هُرَيرة: أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء[1]. تفرد به أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥)
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾

يُقسم تعالى بالسماء وبُروجها، وهي: النجومُ العظامُ. كما تقدَّم بيان ذلك في قوله: ﴿تبارك الذي جَعَل في السماء بُروجاً وجعل فيها سِراجاً وقمراً مُنيراً﴾.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٢٦ ـ ٣٢٧.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحَّاك، والحسنُ، وقتادةُ، والسُّدِّي: البُروج النجومُ. وعن مجاهد أيضاً: البُروج التي فيها الحرسُ.

وقال يحيى بن رافع: البروج: قُصُورٌ في السماء. وقال المنهال بن عمرو: ﴿والسماء ذاتِ البُروج﴾: الخلْقِ الحسن.

واختار ابنُ جرير أنها منازلُ الشمسِ والقَمَر، وهي اثنا عَشَر بُرجاً، تَسيرُ الشمسُ في كلِّ واحدٍ منها شهراً، ويسيرُ القمرُ في كلِّ واحدٍ يومين وثُلثاً، فذلك ثمانيةٌ وعشرون منزلةً، ويَسْتَسِرُّ ليلتين[1].

وقولُه: ﴿واليومِ الموعُودِ * وشاهدٍ ومشهودٍ﴾ اختلف المفسِّرون في ذلك، وقد قال ابن أبي حاتم حدَّثنا عبدُ الله بن محمد بن عَمرو الغَزِّي، حدَّثنا عُبَيد الله ـ يعني ابنَ موسى ـ حدَّثنا موسى بن عُبَيدة، عن أيُّوبَ بن خالدٍ بن صفوانَ بن أوسٍ الأنصاريِّ، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿واليوم الموعود﴾: يوم القيامة، ﴿وشاهِدٍ﴾: يوم الجُمُعة. وما طَلَعت شمسٌ ولا غَربَت على يومٍ أفضلَ من يومِ الجُمُعة، وفيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مسلمٌ يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إيَّاه، ولا يستعيذُ فيها من شرٍّ إلا أعاذَه، ﴿ومشهُودٍ﴾: يوم عَرَفَة.

وهكذا رَوَى هذا الحديث ابن خُزَيمة من طُرُقٍ، عن مُوسَى بن عُبَيدة الرَّبَذِيِّ ـ وهو ضعيفُ الحديثِ ـ وقد رُوِي موقوفاً على أبي هُرَيرة، وهو أشبهُ.

[(2) ـ وقال الإمامُ أحمد: حدَّثنا محمد، حدَّثنا شعبة، سمعت علي بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمَّار ـ مولى بني هاشم ـ عن أبي هُرَيْرَة ـ أما علي فرفَعَه إلى النبيِّ ﷺ، وأما يونُس فلم يَعْدُ أبا هُرَيْرَة ـ أنه قال في هذه الآية: ﴿وشاهد ومشهود﴾، قال: ـ يعني ـ الشاهدُ يومُ الجمعة، ويوم مشهود يوم القيامة[3].

وقال أحمد أيضاً: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن يونس، سمعتُ عماراً مولى بني هاشم يُحدِّث عن أبي هُرَيرة أنه قال في هذه الآية: ﴿وشاهدٍ ومشهُودٍ﴾، قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يومُ عَرَفة، والموعود[4] يوم القيامة (2)].

فقد رُوِي عن أبي هريرة أنه قال: اليومُ الموعودُ يوم القيامة. وكذلك قال الحسنُ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ. ولم أرَهم يختلفون في ذلك، ولله الحمدُ.

ثم قال ابنُ جرير: حدَّثنا محمد بن عَوف، حدَّثنا محمد بن إسماعيلَ بن عَيَّاش، حدَّثني أبي، حدَّثنا ضَمْضَمُ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «اليومُ الموعُود يومُ القيامة، وإنَّ الشاهدَ يومُ الجُمُعة، وإنَّ المشهودَ يومُ عَرَفة، ويومُ الجمعةِ ذَخَره الله لنا»[5].

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا سهل بن موسى الرازيُّ، حدَّثنا ابن أبي فُدَيك، عن ابن حَرْمَلَة، عن سعيد بن المُسَيَّب أنه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ سيِّدَ الأيامِ يومُ الجُمُعة، وهو الشاهدُ، والمشهودُ يوم عَرفة»[6].

(1) تفسير الطبري ٣٠/١٢٧ ـ ١٢٨.
(٢ ـ ٢) سقط من بعض النسخ.
(3) مسند الإمام أحمد ٢/٢٩٨، ولفظه: «الشاهد يوم عرفة، والموعود يوم القيامة».
(4) المسند ٢/٢٩٨ ـ ٢٩٩.
(5) تفسير الطبري ٣٠/١٢٨.
(6) تفسير الطبري ٣٠/١٢٩.

وهذا مُرسَلٌ من مراسيل سَعيد بن المُسَيِّب، ثم قال ابنُ جَرير:

حدَّث أبو كُرَيب، حدثنا وكيعٌ، عن شُعبَة، عن عليّ بن زيد، عن يُوسف المكيّ، عن ابن عباس قال: الشاهدُ هو مُحمّدٌ ﷺ، والمشهودُ يومُ القيامة، ثم قرأ: ﴿ذلك يوم مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهودٌ﴾[1]

وحدَّثنا ابن حُمَيد، حدثنا جَرير، عن مُغيرة، عن شِبَاك قال. سأل رجلٌ الحسنَ بنَ عليٍّ عن: ﴿وشاهدٍ ومشهُودٍ﴾ قال سألت أحداً قبلي؟ قال. نعم، سألتُ ابنَ عُمر وابنَ الزبير، فقالا: يومُ الذبح ويومُ الجُمُعة. فقال لا، ولكن الشاهدُ محمدٌ ﷺ ثم قرأ. ﴿فكيف إذا جئنا من كلِّ أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، والمشهودُ يومُ القيامة، ثم قرأ: ﴿ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهود﴾[1].

وهكذا قال الحسن البصري. وقال سفيان الثَّوريُّ، عن ابن حَرْملة، عن سعيد بن المُسَيِّب: ﴿ومشهودٍ﴾: يوم القيامة وقال مجاهد، وعكرمةُ، والضحَّاك: الشاهدُ ابنُ آدم، والمشهود يومُ القيامة. وعن عِكْرِمة أيضاً: الشاهد محمدٌ ـ ﷺ ـ والمشهودُ يومُ الجمعة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. الشاهد اللهُ، والمشهود يومُ القيامة.

وقال ابن أبي حاتم. حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو نُعَيم الفضلُ بن دُكَين، حدَّثنا سُفيان، عن أبي يحيى القَتَّات، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس: ﴿وشاهدٍ ومشهودٍ﴾ قال: الشاهدُ الإنسانُ. والمشهودُ يومُ الجمعة. هكذا رواه ابنُ أبي حاتم.

وقال ابنُ جرير. حدثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا مِهران، عن سُفيان، عن [ابن أبي نَجِيح][2] عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وشاهدٍ ومشهودٍ﴾، الشاهدُ: يومُ عرفة، والمشهودُ يوم القيامة.

وبه عن سفيان ـ هو الثَّوري ـ عن مُغيرةَ، عن إبراهيم قال: يومُ الذبح، ويومُ عرفة، يعني الشاهدَ والمشهود.

قال ابن جرير: وقال آخرون: المشهودُ يومُ الجمعة. ورَوَوا في ذلك ما حَدَّثنا أحمدُ بن عبد الرحمن، حدَّثني عَمِّي عبدُ الله بن وهب، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن سَعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عُبادَة بن نُسَيّ، عن أبي الدرداء قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أكثِرُوا عليَّ من الصلاة يومَ الجُمُعة، فإنه يومٌ مشهودٌ، تَشْهدُه الملائكة»[3].

وعن سعيد بن جُبَير: الشاهد اللهُ، وتلا ﴿وكفى بالله شهيداً﴾، والمشهودُ نحن. حكاه البَغَويُّ[4]، وقال: الأكثرون على أن الشاهد يومُ الجُمُعة، والمشهودُ يومُ عرفة[4].

وقوله. ﴿قُتل أصحابُ الأخدود﴾، أي: لُعِن أصحابُ الأخدود، وجمعُه أخاديد، وهي الحفيرُ في الأرض وهذا خبرٌ عن قوم من الكفّار عمَدوا إلى مَن عندهم من المؤمنين بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأجَّجوا فيه ناراً، وأعدُّوا لها وقوداً

---

(١) تفسير الطبري ١٣٠/٣٠

(٢) أثر ابن جرير ساقط من إحدى النسخ، وفي الأخريين مكان ما بين القوسين [أبي يحيى القتات]. والمثبت من تفسير الطبري ١٣١/٣٠.

(٣) تفسير الطبري ١٣١/٣٠

(٤) تفسير البغوي ٤٦٦/٤ ـ ٤٦٧

يسعَّرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ * النارِ ذاتِ الوقودِ * إذ هُم عليها قُعودٌ * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهودٌ﴾، أي: مُشاهِدون لما يُفعَل بأولئك المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿وما نَقَمُوا منهم إلا أن يُؤمِنُوا بالله العزيزِ الحميد﴾، أي: وما كان لهم عندهُم ذنبٌ إلا إيمانُهم بالله العزيزِ الذي لا يُضامُ مَن لاذ بجنابه، المَنيع الحميدِ في جميع أفعاله وأقواله وشرْعه وقدَره، وإن كان قد قدّر على عباده هؤلاء هذا الذي وقَع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيزُ الحميدُ، وإن خَفي سببُ ذلك على كثيرٍ من الناس.

ثم قال: ﴿الذي له ملكُ السمواتِ والأرض﴾، من تمام الصفة أنه المالكُ لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ﴿والله على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾، أي: لا يَغيب عنه شيءٌ في جميع السمواتِ والأرضِ، ولا تخفى عليه خافية.

وقد اختلف أهلُ التفسير في أهل هذه القصّة، مَن هم؟ فعَن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنهم أهلُ فارس حين أراد مَلِكُهم تحليل تزويجِ المحارم، فامتنع عليه علماؤُهم، فعَمد إلى حَفْر أخدودٍ فقذَف فيه مَن أنكر عليه منهم، واستمرَّ فيهم تحليلُ المحارم إلى اليوم. وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنُوهم ومشركُوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلبَ الكفار المؤمنين، فخَدُّوا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها. وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة، واحدُهم حَبَشيّ.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿قُتِل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود﴾، قال: ناسٌ من بني إسرائيل، خَدُّوا أُخدوداً في الأرض، ثم أوقدُوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدودِ رجالاً ونساءً، فعُرِضُوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه. وهكذا قال الضحّاك بن مُزاحم، وقيل غير ذلك. وقد قال الإمام أحمد.

حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد بن سَلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صُهَيب أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كان ملك فيمَن كان قبلكم، وكان له ساحرٌ، فلما كَبِر الساحرُ قال للملك: إني قد كَبِرت سِنّي وحَضر أجلي، فادفع إليَّ غلاماً فأُعلِّمه السحر. فدفع إليه غلاماً فكان يُعلِّمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهبٌ، فأتى الغلامُ على الراهب فسمع من كلامه، فأعجَبه نَحوُه وكلامُه، وكان إذا أتى الساحر ضربَه وقال: ما حَبَسك؟ وإذا أتى أهله ضَربُوه وقالوا: ما حَبَسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يَضْرِبك فقُلْ: حَبَسني أهلي. وإذا أراد أهلك أن يضرِبُوك فقل: حبسني الساحر.

قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابّةٍ فظيعةٍ عظيمةٍ، قد حَبَست الناس فلا يستطيعون أن يَجُوروا، فقال: اليوم أعلَمُ أمر الراهب أَحبُّ إلى الله أم أمرُ الساحر؟ قال: فأخذ حَجَراً فقال: اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك وأرضى من أمْرِ الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يَجُوزَ الناس. وَرَماها فقتلها، ومضى الناسُ. فأخبر الراهبَ بذلك، فقال: أيْ بُنَيّ، أنت أفضل مِنّي، وإنك سَتُبْتَلى، فإن ابتُلِيت فلا تَدُلَّ عليَّ. فكان الغلام يُبرِئُ الأكمه والأبرصَ وسائر الأدواءِ ويَشْفِيهم، وكان جليسٌ للملك فعَمِيَ، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفِني ولك ما ها هنا أجمعُ. فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يَشْفي الله عزَّ وجل، فإن آمنت به دعوتُ الله فشفاك. فآمن فدَعا الله فشَفاه. ثم أتى الملكَ فجَلَس منه نحوَ ما كان يجلس، فقال له المَلِكُ: يا فلان، مَن رَدّ عليك بَصَرَك؟ فقال: ربِّي، فقال: أنا؟ قال: لا، ربِّي وربُّك الله. قال: ولك ربٌّ غيري؟ قال: نعم، ربِّي وربُّك الله. فلم يزل يُعَذِّبه حتى دلَّ على الغلام، فبعث إليه فقال: أيْ بُنَي، بَلَغ من سحرك أن تُبرِئ الأكمه

والأبرصَ وهذه الأدواء؟! قال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يَشفي الله عزَّ وجلَّ قال. أنا؟ قال: لا. قال: أَوَ لك ربٌّ غيري؟ قال. ربي وربُّك الله. فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دلَّ على الراهب، فأُتِي بالراهب فقال: ارجع عن دينك. فأبى، فوضع المنشار في مَفْرق رأسه حتى وَقَع شِقَّاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مَفرق رأسه حتى وقع شِقَّاه إلى الأرض. وقال للغلام. ارجع عن دينك. فأبى، فَبَعث به مع نَفَرٍ إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذِروته فإن رَجَع عن دينه وإلاَّ فَدَهْدِهُوه[1] فذهبوا به، فلما عَلَوا به الجبَلَ قال: اللهُمَّ، اكفِنيهم بما شئتَ. فَرُجِف بهم الجبلُ فَتَدَهْدَهُوا أجمعُون. وجاء الغلامُ يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابُك؟ فقال: كفانيهم الله. فَبَعث به مع نَفَرٍ في قُرقُور[2] فقال: إذا لَجَجتم به البحرَ فإن رجع عن دينه وإلا فغرِّقوه في البحر فَلَجَّجوا به البحرَ فقال الغلام: اللهُمَّ، اكفيهم بما شئتَ. فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فَعَل أصحابُك؟ فقال: كَفانِيهُم الله. ثم قال للملك: إنك لستَ بقاتلي حتى تفعلَ ما آمُرُك به، فإن أنت فعلتَ ما آمُرُك به قَتَلتني، وإلا فإنك لا تستطيعُ قتلي قال: وما هو؟ قال تجمعُ الناس في صعيدٍ واحدٍ ثم تَصْلِبني على جِذْعٍ، وتأخذ سهماً من كِنانتي ثم قل: «باسم الله ربِّ الغلام»، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. ففعل، ووضع السهم في كَبِد[3] قوسه ثم رماه، وقال: «باسم الله رب الغلام»، فوقع السهم في صُدْغِه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنّا بربِّ الغلام. فقيل للملك: أرأيتَ ما كُنتَ تحذر؟ فقد - والله - نَزَل بك، قد آمن الناسُ كُلُّهم. فأمر بأفواه السِّكك فَخُدَّت فيها الأخاديدُ، وأُضرِمت فيها النيرانُ، وقال: من رَجَع عن دينه فدَعُوه وإلا فأَقحِمُوه فيها. قال. فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها تُرضِعه، فكأنها تقاعسَت أن تَقع في النار، فقال الصبي: اصبِري يا أُماه، فإنك على الحقِّ[4].

وهكذا رواه مسلمٌ في آخر الصحيح عن هُدْبَة بن خالدٍ، عن حَمّاد بن سَلَمة، به نحوه[5] ورواه النَّسائي عن أحمد بن سَلمان، عن عفَّان، عن حمَّاد بن سلمة، ومن طريق حمَّاد بن زيد، كلاهما عن ثابتٍ، به واختصرُوا أوله[5].

وقد جَوّده الإمام أبو عيسى التِّرمذي، فرواه في تفسير هذه السُّورة عن محمود بن غَيلانَ وعَبْدِ بن حُمَيد - المعنى [واحدٌ] - قالا: أخبرنا عبد الرزّاق، عن مَعْمَر، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي لَيْلى، عن صُهيب قال: كان رسولُ الله - ﷺ - إذا صلَّى العصر هَمَس - والهَمسُ في بعض قولهم: تحريكُ شفتيه كأنه يتكلَّم - فقيل له. - يا رسول الله - إذا صليت العصر هَمَسْتَ؟ قال: «إنَّ نبياً من الأنبياء كان أُعجِبَ بأُمَّتِهِ فقال: من يقوم لهؤلاء؟! فأوحى الله إليه أن خَيِّرهم بين أن أنتقم منهم، وبين أن أُسلِّط عليهم عَدُوَّهم. فاختاروا النقمة، فَسَلَّط عليهم الموتَ، فمات منهم في يوم سبعُون ألفاً. قال: وكان إذا حَدَّث بهذا الحديث، حَدَّث بهذا الحديث الآخر قال: كان مَلِكٌ من الملوك، وكان لذلك المَلِك كاهنٌ يتكهَّن له، فقال الكاهن: انظروا لي غلاماً فَهِماً - أو قال. فَطِناً لَقِناً - فأعلِّمه علمي هذا»... فذكر القصَّة بتمامها، وقال في آخره: «يقول الله

(١) أي: دحرجوه.
(٢) القرقور: السفينة العظيمة أو الطويلة.
(٣) كبد القوس: ما بين طرفي علاقتها.
(٤) مسند الإمام أحمد ٦/١٦-١٨.
(٥) مسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٩٩-٢٣٠١، والنسائي في كتابي التفسير والسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٤/١٩٩.

عزَّ وجلَّ: ﴿قُتِل أصحابُ الأخدود * النارِ ذاتِ الوقود﴾ حتى بلغ: ﴿العزيزِ الحميد﴾. قال. فأما الغلامُ فإنه دفن، قال فيذكر أنه أُخرج في زمانِ عُمرَ بن الخطاب، وإصبعُه على صُدغه كما وَضَعها حين قُتِل. ثم قال الترمذي: «حسن غريب»[1].

وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصّة من كلام النبيِّ ـ ﷺ ـ قال شيخُنا الحافظ أبو الحجاج المِزّي فيَحتملُ أن يكون من كلام صُهَيب الرُّوميِّ، فإنه كان عنده علمٌ من أخبار النصارى، والله أعلم

وقد أورد محمد بن إسحاق بن يَسار هذه القصة في السيرة بسياق آخر، فيها مخالفةٌ لما تقدم، فقال:

حَدّثني يزيدُ بن زياد، عن محمد بن كعب القُرظي ـ وحَدّثني أيضاً بعضُ أهل نجران، عن أهلها ـ : أن أهل نجران كانوا أهل شركٍ يعبُدون الأوثان، وكان في قرية من قُراها قريباً من نَجران ـ ونجرانُ هي القرية العُظمى التي إليها جِمَاعُ أهل تلك البلاد ـ ساحر يُعَلِّم غلمانَ أهلِ نجرانَ السحرَ، فلما نَزَلها فَيْمِيُونُ ـ ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه ابنُ مُنَبّه، قالوا: رَجُلٌ نزلها ـ فابتنى خيمةً بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحرُ، وجعل أهلُ نجران يُرسِلُون غلمانهم إلى ذلك الساحر يُعَلِّمهم السحر، فبعث الثامرُ ابنَه عبد الله بنَ الثامر مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مرَّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يَرى من عبادته وصَلاته، فجعل يجلِس إليه ويسمع منه، حتى أسلم فوحّد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فَقِه فيه جَعَل يسألُه عن الاسم الأعظم، وكان يَعلَمُه، فكتَمه إياه وقال له: يا ابنَ أخي، إنك لن تحمِلَه؛ أخشى ضَعْفَك عنه. والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلِفُ إلى الساحر كما يَختلف الغلمانُ، فلما رأى عبدُ الله أن صاحبه قد ضَنّ به عنه، وتخوّف ضَعْفَه فيه، عَمَد إلى أقداح[2] فَجمعها، ثم لم يُبقِ لله اسماً يَعلَمُه إلا كتبه في قِدْح، وكلُّ اسم في قِدْح، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يَقذِفها فيها قِدْحاً قِدْحاً، حتى إذا مَرّ بالاسم الأعظم قذف فيها بقِدْحه، فوثب القِدْح حتى خرج منها لم يضرُّه شيء، فأخذه ثم أتى به صاحبه، فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذي كَتَمه فقال: وما هو؟ قال: هو كذا وكذا. قال: وكيف عَلِمته؟ فأخبره بما صنع. قال: أيِ ابنَ أخي، قد أصبتَه فأمسِكْ على نفسك، وما أظنُّ أن تفعَلَ.

فجعل عبدُ الله بن الثامر إذا دَخَل نجران لم يلقَ أحـداً به ضُرٌّ إلا قال: يا عبدَ الله، أتوحّدُ الله وتدخلُ في ديني وأدعو الله لك فيُعافيكَ مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول. نعم فيُوحّد الله ويُسلم، فيدعُو الله له فيُشفَى، حتى لم يبق بنجران أحدٌ به ضُرٌّ إلا أتاه، فاتبعه على أمره ودَعَا له فعُوفي، حتى رُفِع شأنه إلى مَلِك نجرانَ، فدعاه فقال له: أفسدتَ عليَّ أهل قريتي، وخالفتَ ديني ودينَ آبائي، لأُمَثِّلَنَّ بك. قال: لا تقدِرُ على ذلك. قال: فجعل يُرسِل به إلى الجبل الطويل، فيُطرح على رأسه، فيقع إلى الأرض ما به بأسٌ، وجعل يبعثُ به إلى مياه بنجران، بُحورٍ لا يُلقَى فيها شيءٌ إلا هَلَك، فيُلقَى به فيها، فيخرُج ليس به بأس. فلما غلبه قال له عبدُ الله بن الثامر: إنك ـ والله ـ لا تقدِرُ على قتلي حتى تُوَحِّدَ الله فتؤمن بما آمنتُ به؛ فإنك إن فعلتَ سُلِّطتَ عليَّ فقتلتني. قال: فوحّدَ الله ذلك الملكُ، وشهد شهادةَ عبدِ الله بن الثامر، ثم ضربه بعصاً في يده فشجّه شجّةً غير كبيرة، فقتله، وهَلَكَ الملك مكانَه. واستجمع أهلُ نجرانَ على دين عبد الله بن الثامر ـ وكان على ما جاء به عيسى ابنُ مريم ـ عليه السلام ـ من الإنجيل وحُكمِه ـ ثم أصابهم ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداث، فمن هنالك كان أصلُ دينِ النصرانيّة بنجرانَ.

---

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة البروج ١٢/٢٣٨ ـ ٢٤٢

(٢) الأقداح: جمع قِدْح، وهو السهم.

قال ابن إسحاق: فهذا حديثُ محمدِ بنُ كعب القُرَظي وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر، والله أعلم أيُّ ذلك كان.

قال: فسار إليهم ذُو نواس بجُنده، فدعاهم إلى اليهوديَّة، وخيَّرهم بين ذلك أو القتل، فاختارُوا القتل، فخدَّ الأخدود، فحرقَ بالنار وقتل بالسيف ومثَّل بهم، حتى قَتل منهم قريباً من عشرين ألفاً، ففي ذِي نُواس وجُنده أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله ـ ﷺ ـ ﴿قُتِل أصحابُ الأخدودِ * النار ذات الوقُود * إذ هُم عليها قعودٌ * وهُم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهودٌ * وما نقَموا منهم إلا أن يُؤمنُوا بالله العزيز الحميد * الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ والله على كل شيء شهيد﴾[1].

هكذا ذكر محمد بن إسحاق في السيرة أن الذي قتل أصحابَ الأخدود هو ذو نُواس، واسمه: زُرْعَةُ، ويسمَّى في زمان مملكته بيوسُف، وهو ابن تُبانِ أسعدَ أبي كَرِب، وهو تُبَّع الذي غزا المدينة وكَسَا الكعبة، واستصحب معه حَبْرين من يهودِ المدينة، فكان تَهوُّدُ مَن تَهوَّدَ من أهل اليمن على يدَيهما، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطاً، فقتل ذُو نواس في غداةٍ واحدةٍ في الأخدود عشرين ألفاً، ولم ينجُ منهم سوى رجلٍ واحدٍ يقال له: دَوْسُ ذو ثُعبان، ذهب فارساً، وطردُوا وراءه فلم يُقْدَر عليه، فذهب إلى قيصر ملك الشام، فكَتب إلى النجاشيِّ ملكِ الحبشة، فأرسلَ معه جيشاً من نصارى الحبشةِ يقدُمهم أرياط وأبرهةُ، فاستنقذوا اليمنَ من أيدي اليهود، وذهب ذُو نواس هارباً فلَجَج في البحر فغَرِق واستمر مُلْكُ الحبشة في أيدي النصارى سبعينَ سنة، ثم استنقذه سيفُ بن ذي يَزَن الحِمْيَريُّ من أيدي النصارى، لما استجاش بكسرى ملك الفرس، فأرسل معه مَن في السجون، وكانوا قريباً من سبعمائة، ففتح بهم اليمنَ، ورجع الملكُ إلى حِمْيَر. وسنذكر طرفاً من ذلك ـ إن شاء الله ـ في تفسير سورة: ﴿ألم ترَ كيف فعل رَبُّك بأصحابِ الفيل﴾.

وقال ابن إسحاق: وحدَّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عَمْرو بن حَزْم، أنه حُدِّث: أن رَجُلاً من أهل نجران كان في زمان عُمر بن الخطاب، حَفر خربةً من خَرِب نجران لبعض حاجته، فوَجد عبد الله بن الثامر تحت دفنٍ فيها قاعداً، واضعاً يدَه على ضَرْبةٍ في رأسه، مُمسِكاً عليها بيده، فإذا أخذت يده عنها تَنْثَعِبُ[2] دماً، وإذا أرسلَت يده رُدَّت عليها، فأمسكت دمَها، وفي يده خاتمٌ مكتوب فيه: رَبِّي الله. فكُتِبَ فيه إلى عُمَر بن الخطاب يُخبره بأمره، فكتب عُمَر إليهم: أن أقِرُّوه على حاله، ورُدُّوا عليه [الدَّفْنَ][3] الذي كان عليه. ففعلوا[4].

وقد قال أبو بكر عبدُ الله بنُ محمد بن أبي الدنيا ـ رحمه الله ـ: حدَّثنا أبو بلال الأشعري، حدَّثنا إبراهيمُ بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، حدَّثني بعضُ أهل العلم: أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطاً من حيطان المدينة قد سَقط، فبناه فسَقط، ثم بناه فسَقط، فقيل له: إن تحته رجُلاً صالحاً. فحفر الأساس فوجد فيه رجلاً قائماً معه سيفٌ، فيه مكتوبٌ: أنا الحارث بن مُضاضٍ، نَقِمْتُ على أصحابِ الأخدود. فاستخرجه أبو موسى، وبَنى الحائط، فثَبَت[5].

قلت: هو الحارث بن مُضاض بن عمرو بن مُضاض بن عَمْرو الجُرهمي، أحدُ ملوك جُرْهُم الذين وَلُوا

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٤ ـ ٣٦.

(٢) أي: تنفجر.

(٣) من سيرة ابن هشام.

(٤) سيرة ابن هشام ١/٣٦ ـ ٣٧.

(٥) في النسخ: ثابت. والمثبت

أَمْرَ الكعبة بعد ولد نابت[1] بن إسماعيل بن إبراهيم، وَوَلَدُ الحارث هذا هو عَمْرو بن الحارث بن مُضاض هو آخر ملوك جُرهم بمكّة، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليَمَن، وهو القائل في شِعْره الذي قال ابن هشام[2] إنه أوّلُ شعرٍ قاله العربُ:

كأن لم يكُنْ بَيْن الحَجُون إلى الصّفا ... أنيسٌ، ولَم يَسْمُرْ بمكّة سَـامِـرُ
بَلَى، نحنُ كُنّـا أهلَهَـا فَـأبَـادَنَـا ... صُروفُ الليالي والجُدودُ العَوَاثِـرُ

وهذا يَقتضي أنَّ هذه القصَّةَ كانت قديماً بعدَ زمان إسماعيلَ ـ عليه السلامُ ـ بقريب من خمسمائة سنةٍ أو نحوها، وما ذكره ابنُ إسحاقَ يقتضي أن قِصَّتهم كانت في زمان الفترة التي بين عيسى ومحمد ـ عليهما من الله السلامُ ـ وهو أشبَهُ، والله أعلم. وقد يَحْتَمِلُ أن ذلك قد وَقَع في العالم كثيراً، كما قال ابنُ أبي حاتم:

حَدَّثنا أبي: حَدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا صفوانُ، عن عبد الرحمن بن جُبَير قال: كان الأخدودُ في اليمن زَمَانَ تُبَّع، وفي القُسطَنطِينية زمانَ قُسطَنْطِين حين صَرَفَ النصارى قِبْلَتَهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتُوناً، وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد. وفي العراق في أرض بابل بُخْتَنَصَّر، حين صَنَعَ الصَّنَم وأمَرَ الناس أن يسجُدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه: عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أتُوناً وألقى فيه الحَطَب والنار، ثم ألقاهما فيه، فَجَعلها الله عليهما برداً وسلاماً، وأنقذهُما منه، وألقى فيها الذين بَغَوا عليه وهُم تسعةُ رَهْطٍ، فأكلتهم النارُ.

وقال أسباطٌ، عن السُّدِّي في قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾، قال: كانت الأخدودُ ثلاثةً: خدٌّ بالشام وخدٌّ بالعراق، وخدٌّ باليمن. رواه ابنُ أبي حاتم.

وعن مُقاتِل قال: كانت الأخدودُ ثلاثةً: واحدةٌ بنجرانَ باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس، حُرِقوا بالنار أما التي بالشام فهو انطناموس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصر، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس. فأما التي بفارس والشام فلم يُنزِل الله فيهم قرآناً، وأنزل في التي كانت بنجران.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا أحمدُ بن عبد الرحمن الدَّشْتَكِيُّ، حدَّثنا عبدُ الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع ـ هو ابن أنس ـ في قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾، قال: سَمِعنا أنهم كانوا قوماً في زمان الفترة، فلما رَأَوا ما وقع في الناس من الفتنة والشرِّ وصاروا أحزاباً، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، اعتزلوا إلى قريةٍ سَكَنُوها، وأقاموا على عبادة الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾، وكان هذا أمرَهم حتى سَمِع بهم جَبَّارٌ من الجبَّارين، وحُدِّث حديثَهم، فأرسلَ إليهم فأمرهم أن يعبُدوا الأوثان التي اتّخذوا، وأنهم أَبَوا عليه كلُّهم وقالوا: لا نعبُد إلا الله وحده، لا شريكَ له. فقال لهم: إن لم تعبُدوا هذه الآلهة التي عَبدتُ فإني قاتِلُكم. فأَبَوا عليه، فَخَدَّ أخدوداً من نار، وقال لهم الجبار ـ ووَقَفهم عليها ـ: اختاروا هذه أو الذي نحن فيه. فقالوا: هذه أحبُّ إلينا. وفيهم نساءٌ وذُرِّيةٌ، ففزعت الذرِّيةُ، فقالوا لهم: لا نارَ من بعد اليوم فَوَقَعُوا فيها، فَقُبِضت أرواحهم من قبل أن يَمسّهم حَرُّها، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين، فأحرقهم الله بها، ففي ذلك أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ • النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ • إِذْ هُمْ عَلَيْهَا

(١) يقال له أيضاً: نَبت.
(٢) سيرة ابن هشام ١/١١٥.

قُعُودٌ * وهُم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهُودٌ * وما نَقَمُوا منهم إلا أن يُؤمِنُوا بالله العَزيزِ الحَميد * الذي له مُلكُ السمواتِ والأرضِ والله على كلِّ شيء شهيدٌ﴾.

ورواه ابن جرير: حُدِّثتُ عن عمَّار، عن عبد الله بن أبي جعفر، به نحوه(١).

وقولُه: ﴿إن الذين فَتَنوا المؤمنين والمؤمنات﴾، أي: حَرَّقُوا. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضحَّاك، وابن أبزى. ﴿ثم لم يَتُوبوا﴾، أي: لم يُقلِعُوا عما فَعَلُوا، ويندَمُوا على ما أسلَفُوا، ﴿فلهم عذابُ جهنَّم ولهم عذابُ الحريق﴾، وذلك أنَّ الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصريُّ: انظروا إلى هذا الكَرَم والجُود، قتلوا أولياءه وهو يدعُوهم إلى التَّوبة والمغفِرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۢ ﴿٢٢﴾ ﴾

يُخبِر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿لهم جناتٌ تَجري من تحتها الأنهارُ﴾، بخلاف ما أعدَّ لأعدائه من الحريقِ والجَحيم، ولهذا قال: ﴿ذلك الفَوزُ الكبيرُ﴾.

ثم قال: ﴿إنَّ بَطشَ ربِّك لَشديدٌ﴾، أي: إنَّ بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذَّبوا رُسُلَه وخالفُوا أمْرَه لشديدٌ عظيمٌ قويٌّ؛ فإنه تعالى ذو القُوَّة المتينُ، الذي ما شاء كان كمَا يشاءُ في مثلِ لَمحِ البصر، أو هو أقربُ، ولهذا قال: ﴿إنه هو يُبدِىء ويُعيدُ﴾، أي: من قُوَّته وقُدرته التامة يُبدِىءُ الخلق ثم يُعيده كما بداه، بلا مُمانعٍ ولا مُدافع. ﴿وهو الغفور الوَدُود﴾، أي: يغفِر ذنبَ مَن تاب إليه وخَضَع لديه، ولو كان الذنبُ مِن أيِّ شيءٍ كان. والوَدُود، قال ابنُ عباس وغيره: هو الحبيبُ. ﴿ذُو العرش﴾، أي: صاحبُ العرشِ المُعظَّم العالي على جميع الخلائق. والمجيد: فيه قراءتان(٢)، الرفعُ على أنه صفة للربِّ - عزَّ وجلَّ - والجرُّ على أنه صِفةٌ للعرش، وكلاهما معنًى صحيح.

﴿فعَّالٌ لما يُريد﴾، أي: مَهمَا أراد فعَله، لا مُعقِّب لحكْمِه، ولا يُسأل عما يَفعَلُ؛ لعظمته وقَهْره وحِكْمَته وعَدْله، كما رَوينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له وهو في مَرَضِ الموت: هل نظر إليك الطبيبُ؟ قال: نعم. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إنِّي فعالٌ لما أُريدُ.

وقولُه: ﴿هل أتاك حديثُ الجنود * فِرعَونَ وثَمُودَ﴾، أي: هل بلَغَك ما أحلَّ الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النِّقمة التي لم يرُدَّها عنهم أحدٌ؟

وهذا تقريرٌ لقوله: ﴿إنَّ بطش ربِّك لشديدٌ﴾، أي: إذا أخذ الظالم أخذَه أخذاً أليماً شديداً، أخذَ عزيزٍ مُقتدرٍ.

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا علي بن محمد الطَّنافسيُّ، حدَّثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن أبي

(١) تفسير الطبري ٣٠/١٣٤ - ١٣٥.

(٢) قرأ بالجر من السبعة حمزة والكسائي، والباقون بالرفع. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٨٠٧.

إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: مرَّ النبي ـ ﷺ ـ على امرأةٍ تقرأ: ﴿هل أتاك حديث الجُنود﴾، فقام يستمعُ، فقال: نعم، قد جاءني.

وقولُه: ﴿بل الذين كفَرُوا في تكذيب﴾، أي: هم في شكٍّ وريبٍ وكُفرٍ وعِنادٍ، ﴿والله من ورائهم مُحيطٌ﴾، أي: هو قادرٌ عليهم، قاهرٌ لا يفُوتُونَه ولا يُعجزونه، ﴿بل هو قرآنٌ مجيدٌ﴾، أي: عظيمٌ كريمٌ، ﴿في لوحٍ محفوظٍ﴾، أي: هو في الملأ الأعلى محفوظٌ من الزيادةِ والنقص والتحريف والتبديل.

قال ابنُ جرير: حدَّثنا عَمرو بن علي، حدَّثنا قُرَّةُ بن سليمان، حدَّثنا حرب بن سُرَيْج، حدَّثنا عبد العزيز بن صُهَيب، عن أنس بن مالك في قوله: ﴿بل هو قرآنٌ مجيدٌ * في لوحٍ محفوظٍ﴾، قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذَكَر الله: ﴿بل هو قرآن مجيد * في لوحٍ محفوظٍ﴾، في جَبْهة إسرافيل[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو صالح، حدَّثنا معاويةُ بن صالح: أن أبا الأعْيَس ـ هو عبد الرحمن بن سَلْمان ـ قال: ما من شيءٍ قَضَى الله ـ القرآن فما قبله وما بعده ـ إلا وهُو في اللّوح المحفوظ واللوحُ المحفوظُ بين عيني إسرافيل، لا يُؤذَن له بالنظر فيه.

وقال الحسن البصريُّ: إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوحٍ محفوظٍ، يُنزل منه ما يشاءُ على من يشاءُ من خَلْقِه.

وقد روى البَغَوي من طريق إسحاق بن بشر: أخبرني مقاتل وابن جُريج، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن في صَدْرِ اللوح: لا إلَه إلا الله وحدَه، دينُه الإسلامُ، ومحمدٌ عبدُه ورسولُه، فمن آمن بالله وصدَّق بوعده واتبع رُسُلَه، أدخله الجنة. قال: واللوحُ لوحٌ من دُرَّةٍ بيضاء، طولُه ما بين السماء والأرض، وعرضُه ما بين المشرق والمغرب، وحافَّتاه الدرُّ والياقوتُ، ودَفَّتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامُه معقودٌ بالعرش، وأصله في حِجْرِ مَلَكٍ[2].

قال مُقاتِلٌ: اللوح المحفوظ عن يمين العرش.

وقال الطَّبراني: حدَّثنا محمد بن عثمان بن أبي شَيْبة، حدَّثنا مِنْجاب بنُ الحارث، حدَّثنا إبراهيم بن يوسف، حدَّثنا زيادُ بن عبد الله، عن لَيْث، عن عبد الملك بن سعيد بن جُبير، عن أبيه، عن ابن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله خَلق لوحاً محفوظاً من دُرَّةٍ بيضاء، صفحاتُها من ياقوتةٍ حمراء، قلمُه نورٌ، وكتابُه نورٌ، لله فيه في كلِّ يومٍ ستُّون وثلاثُمائةِ لحظةٍ، يَخلُق ويرزُق، ويُميت ويُحيي، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويفعل ما يشاء»[3].

آخرُ تفسير سورة البروج، ولله الحمدُ والمنَّة

(١) تفسير الطبري ٣٠/١٤٠.
(٢) تفسير البغوي ٤/٤٧٢.
(٣) المعجم الكبير ١٢/٧٢.

تفسير

سُورَةُ الطَّارِقِ

وهي مَكِّيَّةٌ

قال عبدُ الله ابن الإمام أحمد: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبدُ الله بن محمد ـ قال: عبد الله وسمعتُه أنا منه ـ حدَّثنا مَرْوانُ بن معاويةَ الفَزَاريُّ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفيِّ، عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جَبَل العَدْوانيِّ، عن أبيه: أنه أبصَرَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في مُشْرِقِ ثَقيف[1] وهو قائم على قَوسٍ ـ أو: عصاً ـ حين أتاهم يبتغي عندهُم النصرَ، فسمعتُه يقول: ﴿والسماءِ والطارق﴾، حتى خَتَمها ـ قال. فوعيتُها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتُها في الإسلام ـ قال. فدَعَتني ثقيفُ فقالوا: ماذا سَمِعتَ من هذا الرجل؟ فقرأتُها عليهم. فقال مَن معَهم من قُريشٍ: نحن أعلَمُ بصاحِبنا، لو كنا نعلم ما يقول حَقًّا لاتَّبعناه[2].

وقال النَّسائي: حدَّثنا عَمرو بن منصور، حدَّثنا أبو نُعيم، عن مِسْعرٍ، عن مُحارب بن دِثَارٍ، عن جابر قال: صلَّى معاذٌ المغربَ، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أفتّانٌ يا معاذ؟! ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماءِ والطارِق، والشمسِ وضُحاها، ونحوِ هذا[3]؟!»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ

---

(١) المُشْرِق: سوق ثقيف

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٣٣٥

(٣) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٢/٢٦٧. وأخرجه من غير هذه الطريق في كتاب الافتتاح من سننه ٢/١٦٨

مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

يُقسِم تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيِّرة، ولهذا قال: ﴿والسماءِ والطارق﴾، ثم قال: ﴿وما أدراك ما الطارق﴾، ثم فسَّره بقوله: ﴿النجمُ الثاقبُ﴾.

قال قتادةُ وغيره: إنما سُمِّي النجم طارقاً لأنه إنما يُرى بالليل ويختفي بالنهار. ويُؤيِّده ما جاء في الحديث الصحيح: نُهي أن يطرُقَ الرجل أهلَه طُروقاً(١)، أي: يأتيهم فجأةً بالليل. وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء: «إلا طارقاً يطرقُ بخير يا رحمنُ»(٢).

وقولُه: ﴿الثاقبُ﴾، قال ابن عباس: المضيء. وقال السُّدِّي: يثقُب الشياطين إذا أُرسل عليها. وقال عِكْرِمةُ: هو مضيء مُحرِق للشيطان.

وقولُه: ﴿إن كلُّ نفسٍ لَمَّا عليها حافظٌ﴾، أي: كلُّ نفسٍ عليها من الله حافظٌ يحرُسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿له مُعقِّبات مِن بَين يَدَيه ومن خَلفه يحفظُونه من أمرِ الله﴾... الآية.

وقولُه: ﴿فلينظرِ الإنسان ممَّ خلق﴾، تنبيهٌ للإنسان على ضَعف أصلِه الذي خُلق منه، وإرشادٌ له إلى الاعترافِ بالمَعادِ؛ لأنَّ من قدر على البَدْأة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال: ﴿وهو الذي يبدأ الخَلْقَ ثم يُعيده وهو أهونُ عليه﴾.

وقولُه: ﴿خُلِق من ماءٍ دافقٍ﴾، يعني المنيَّ؛ يخرج دَفقاً من الرجُل ومن المرأة، فيتولَّد منهما الولدُ بإذن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولهذا قال: ﴿يخرُج من بين الصُّلبِ والترائبِ﴾، يعني صُلبَ الرجلِ وترائبَ المرأة، وهو صَدرُها.

قال شَبيبُ بن بُشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يخرُج من بين الصُّلب والترائب﴾: صلب الرجل وترائب المرأة، أصفرُ رقيقٌ، لا يكون الولدُ إلا منهما. وكذا قال سعيد بن جُبير، وعِكْرِمةُ، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرُهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا أبو أسامة، عن مِسْعر: سمعتُ الحكم ذكر عن ابن عباس: ﴿يخرج من بين الصُّلبِ والترائبِ﴾، قال: هذه الترائبُ. ووضع يدَه على صَدْرِه.

وقال الضحَّاك وعطيةُ، عن ابن عباس: تَريبةُ المرأة موضعُ القِلادة. وكذا قال عكرمةُ، وسعيد بن جُبير.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الترائبُ: بين ثَدْيَيها. وعن مجاهد: الترائبُ ما بين المَنْكِبين إلى الصدر. وعنه أيضاً: الترائب أسفلُ من التَّراقي. وقال سفيانُ الثوريُّ: فوق الثديين. وعن سعيد بن جُبير: الترائبُ أربعةُ أضلاعٍ من هذا الجانب الأسفل. وعن الضحَّاك: الترائبُ بين الثديين والرِّجلين والعَينين. وقال الليثُ بن سعد، عن معمر بن أبي حَبيبة المَدَنيِّ: أنه بلَغه في قولِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يخرُج من بين الصُّلبِ والترائب﴾، قال: هو عُصارة القلبِ، من هناك يكون الولد. وعن قتادة: ﴿يخرُج من بين الصلب والترائب﴾، من بين صُلبه ونَحْرِه.

وقولُه: ﴿إنه على رجعه لقادر﴾، فيه قولان:

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب النكاح ٩/٣٣٩، ومسلم، كتاب الإمارة ٣/١٥٢٧ ـ ١٥٢٨.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤١٩.

أحدهما: على رَجْعِ هذا الماء الدافق إلى مقرِّه الذي خرج منه لقادرٌ على ذلك. قاله مجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وغيرُهما.

والقول الثاني: إنه على رَجْعِ هذا الإنسان المخلوقِ من ماءٍ دافقٍ، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة، لقادرٌ؛ لأن مَن قدر على البداءة قَدَر على الإعادة.

وقد ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع، وهذا القولُ قال به الضحَّاك، واختاره ابن جرير. ولهذا قال: ﴿يوم تُبلى السرائرُ﴾، أي: يومَ القيامة تُبلى فيه السرائرُ، أي: تظهر وتَبدُو، ويبقى السرُّ علانيةً والمكنونُ مشهوراً. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن عُمر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يُرفع لكل غادرٍ لواءٌ عند استِه، يقال: هذه غَدْرَةُ فلانِ بن فلانٍ»[1].

وقوله: ﴿فما له﴾، أي: الإنسانِ يومَ القيامةِ ﴿من قُوَّةٍ﴾، أي: في نفسه، ﴿ولا ناصرٍ﴾، أي: من خارجٍ منه، أي: لا يقدرُ على أن يُنقذ نفسَه من عذابِ الله، ولا يستطيعُ له أحدٌ ذلك.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾

قال ابنُ عباس: الرَّجْعُ المطرُ. وعنه: هو السحابُ فيه المطرُ. وعنه: ﴿والسماءِ ذاتِ الرَّجعِ﴾، تُمطِر ثم تُمطِرُ. وقال قتادةُ: ترجعُ رزقَ العبادِ كلَّ عامٍ، ولولا ذلك لَهَلكوا، وهَلَكت مواشيهم. وقال ابنُ زيدٍ: ترجعُ نجومَها وشمسَها وقمرَها، يأتين من ها هنا.

﴿والأرضِ ذاتِ الصدعِ﴾، قال ابنُ عباس: هو انصداعُها عن النباتِ. وكذا قال سعيد بن جُبَيرٍ، وعكرمةُ، وأبو مالك، والضحَّاك، والحسنُ، وقتادةُ، والسُّدِّي، وغيرُ واحدٍ.

وقوله: ﴿إنه لقولٌ فصلٌ﴾، قال ابن عباس: حقٌّ. وكذا قال غيره. وقال آخرُ: حُكمٌ عَدْلٌ.

﴿وما هو بالهزل﴾، أي: بل هو جِدٌّ حقٌّ.

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يُكذِّبُون به ويَصُدُّون عن سبيله، فقال: ﴿إنهم يكيدُون كيداً﴾، أي: يمكُرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن.

ثم قال: ﴿فمهِّل الكافرين﴾، أي: أنظِرْهم ولا تَستعجِل لهم، ﴿أمهِلهُم رُويداً﴾، أي: قَليلاً. أي: وسترى ماذا أُحِلُّ بهم من العذاب والنَّكال والعُقوبة والهَلاك، كما قال: ﴿نُمتِّعُهم قليلاً ثم نَضطرُّهم إلى عذابٍ غليظٍ﴾.

آخر تفسير «سورة الطارق» ولله الحمدُ والمنَّة

(١) تقدم الحديث وتخريجه وشرح غريبه عند تفسير الآية ٤٩ من سورة الكهف.

تفسير

سُورَةُ الأَعْلَى

وهي مَكِّيَّةٌ

والدليلُ على ذلك ما رَوَاه البُخاري: حدَّثنا عَبْدَانُ، حدَّثنا أبي، عن شُعبة، عن أبي إسحاق، عن البَراء بن عازبٍ قال: أولُ مَن قدم علينا من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ مُصعَب بن عمير وابنُ أم مكتوم، فجعلا يُقرئاننا القرآن، ثم جاء عَمَّار وبلالٌ وسعدٌ. ثم جاء عُمَر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبيُّ ـ ﷺ ـ فما رأيتُ أهلَ المدينة فَرِحوا بشيءٍ فَرَحَهم به، حتى رأيتُ الولائدَ والصِّبيان يقولُون: هذا رسولُ الله قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبِّح اسم ربك الأعلى﴾ في سُوَرٍ مِثْلِها[1].

وقال الإمامُ أحمد: حدَّثنا وكيعٌ، حدَّثنا إسرائيلُ، عن ثُوَير بن أبي فاختة، عن أبيه، عن علي قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُحِبُّ هذه السورة: ﴿سَبِّح اسمَ ربِّكَ الأعلى﴾. تفرَّد به أحمدُ[2].

وثبت في الصحيحَين: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لمعاذ: «هلا صَلَّيت بسَبِّح اسمَ ربِّكَ الأعلى. والشمس وضُحاها. والليل إذا يغشى»[3]؟

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا سفيان، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن أبيه، عن النعمان بن بَشِير: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ في العيدين: ﴿سَبِّح اسمَ ربِّكَ الأعلى﴾، و ﴿هل أتاك حديثُ الغاشية﴾، وإن وافق يوم الجُمُعة قَرَأهما جميعاً[4].

هكذا وقع في مُسنَدِ الإمام أحمد إسنادُ هذا الحديث. وقد رواه مسلم ـ في صحيحه ـ وأبو داود والترمذي والنَّسائي، من حديث أبي عَوانة وجَرير وشُعبَة، ثلاثتهم، عن [إبراهيم بن[1]]، محمد بن المنتشر، عن أبيه، عن

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة ﴿سَبِّح اسم ربك الأعلى﴾ ٨/٦٩٩ ـ ٧٠٠.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٩٦.

(٣) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٠٠، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٤٠.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/٢٧١، ومسلم، كتاب الجمعة ٢/٥٩٨، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٩٣، وتحفة الأحوذي، أبواب العيدين ٣/٥ ـ ٦، وسنن النسائي، كتاب الجمعة ٣/١١٢، وما بين القوسين من مصادر التخريج.

حَبِيب بن سالم، عن النُّعمان بن بَشِير، به. قال الترمذي: وكذا رواه الثوري ومِسْعَرٌ، عن إبراهيم - قال: ورواه سفيان بن عُيينة عن إبراهيم - عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن أبيه، عن النعمان. ولا يعرف لحبيب روايةٌ عن أبيه.

وقد رواه ابنُ ماجه عن محمد بن الصبَّاح، عن سُفيان بن عُيينة، عن إبراهيم بن المُنتشر، عن أبيه، عن حَبيب بن سالم، عن النُّعمان[1] به. كما رواه الجماعةُ، والله أعلم.

ولفظُ مسلم وأهل السُّنن: كان يقرأ في العيدين ويوم الجُمُعة بـ ﴿سبِّح اسم ربك الأعلى﴾، و ﴿هل أتاك حديثُ الغاشية﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما.

وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ في مُسنده من حديث أُبيِّ بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن أَبْزَى، وعائشة أُمِّ المؤمنين: أنَّ رسولَ الله - ﷺ - كان يقرأ في الوَتر بـ ﴿سبِّح اسم ربِّك الأعلى﴾، و ﴿قل يا أيُّها الكافرون﴾، و ﴿قل هو الله أحد﴾، زادت عائشة: والمُعوِّذتين.

وهكذا رُوِي هذا الحديث من طريق جابر وأبي أُمامة صُدَيِّ بن عَجلان، وعبد الله بن مسعود، وعمرانَ بن حصين، وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - ولولا خشيةُ الإطالةِ لأوردنا ما تَيَسَّر لنا من أسانيدِ ذلك ومُتُونه، ولكن في الإرشاد بهذا الاختصار كفاية، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝٨ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝١٣ ﴾

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا موسى - يعني ابن أيُّوبَ الغافقي - حدَّثنا عَمِّي إياس بن عامر، سَمعتُ عُقبة بن عامر الجُهني لما نزلت: ﴿فسبِّح باسم ربِّك العظيم﴾، قال لنا رسولُ الله - ﷺ -: اجعلوها في ركوعكم. فلما نزلت: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، قال: اجعلوها في سجودكم[2].

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث ابن المبارك، عن موسى بن أيوب، به[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيعٌ، حدَّثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٤٠٨.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٥٥، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٣٠، وسنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ١/٢٨٧.

جُبير، عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى﴾، قال: «سبحان ربِّي الأعلى»(١).

وهكذا رواه أبو داود عن زُهير بن حرب، عن وَكيع، به. وقال: «خُولِف فيه وكيعٌ، رواه أبو وكيع وشعبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، موقوفاً»(١).

وقال الثَّوري، عن السُّدِّي، عن عبدِ خَيرٍ قال: سَمِعتُ عليًا قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى﴾، فقال: سُبحان ربِّي الأعلى.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابنُ حُميد، حدَّثنا حَكَّام، عن عَنْبسة، عن أبي إسحاق الهَمْداني: أنَّ ابن عباس كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى﴾، يقول: سُبحانَ ربِّي الأعلى، وإذا قرأ: ﴿لا أُقسِمُ بيوم القيامة﴾ فأتى على آخِرها: ﴿أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحييَ الموتى﴾، يقول: سُبحانَك وبلى(٢).

وقال قتادةُ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى﴾: ذُكِرَ لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ كان إذا قرأها قال: سبحان ربِّي الأعلى.

وقوله: ﴿الذي خَلَقَ فسوَّى﴾، أي: خَلَق الخليقة وسوَّى كُلَّ مخلوقٍ في أحسنِ الهيئات.

وقولُه: ﴿والذي قَدَّرَ فَهَدى﴾، قال مجاهدٌ: هَدَى الإنسانَ للشقاوة والسعادةِ، وهَدَى الأنعام لمراتِعِها.

وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هَدَى﴾، أي: قَدَّر قدراً، وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في صحيح مُسلِم، عن عبد الله بن عَمْرو: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله قَدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلُق السمواتِ والأرضَ بخمسين ألفَ سنةٍ، وكان عرشُه على الماء»(٣).

وقولُه: ﴿والذي أخْرَجَ المرعى﴾، أي: من جميع صُنوفِ النباتات والزُّروع، ﴿فجعله غُثاءً أحوى﴾، قال ابن عباس: هَشِيماً مُتغيِّراً. وعن مجاهد، وقتادة، وابن زيد، نحوه.

قال ابنُ جرير: وكان بعضُ أهل العلم بكلام العرب يَرَى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحْوَى، أي: أخضر إلى السواد، فجعله غُثاءً بعد ذلك. ثم قال ابنُ جرير: وهذا وإن كان مُحتَمِلاً إلا أنه غيرُ صَوابٍ، لمخالفته أقوالَ أهلِ التأويل(٤).

وقولُه: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، أي: يا محمدُ ـ ﴿فلا تَنسى﴾. وهذا إخبارٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ووعدٌ منه له: بأنه سَيُقرِئه قراءةً لا ينساها، ﴿إلا ما شاء الله﴾. وهذا اختيار ابن جرير(٥).

وقال قتادةُ: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ لا يَنسى شيئاً إلاَّ ما شاء الله.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٢٣٢. وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٣٣.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٥١.
(٣) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١٧٩ من سورة الأعراف، ٧ من سورة هود، ٧٠ من سورة الحج
(٤) تفسير الطبري ٣٠/١٥٣.
(٥) تفسير الطبري ٣٠/١٥٤.

وقيل: المرادُ بقوله ﴿فلا تَنسى﴾ طلبٌ، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النَّسْخ، أي: لا تَنْسَ ما نُقرئك إلا ما يشاء الله رَفْعَه، فلا عليك أن تَتْرُكَه.

وقولُه: ﴿إنه يعلمُ الجَهْرَ وما يخفى﴾ أي: يعلم ما يجهر به العبادُ وما يُخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وقولُه تعالى ﴿ونُيَسِّرك لليُسرى﴾، أي: نُسَهِّل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرعُ لك شرعاً سهلاً سَمْحاً مستقيماً عَدْلاً، لا اعوجاجَ فيه ولا حَرَج ولا عُسْر.

وقولُه: ﴿فذكِّر إن نفعت الذِّكرى﴾، أي: ذَكِّر حيث تنفعُ التذكرةُ. ومن هاهنا يُؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يَضعُهُ عند غير أهله، كما قال أميرُ المؤمنين علي - رضي الله عنه -: ما أنت بمُحدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلُغه عقولُهم إلاَّ كان فتنةً لبعضهم. وقال: حَدِّث الناس بما يَعْرفون، أتحبون أن يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه.

وقولُه ﴿سَيذَّكَّرُ من يخشى﴾، أي: سيَتَّعظ بما تُبلِّغه - يا محمدُ - مَن قلبه يخشى الله ويعلَم أنه مُلاقِيه، ﴿ويتجنَّبها الأشقى * الذي يصلى النارَ الكُبرى * ثم لا يموتُ فيها ولا يحيى﴾، أي: لا يموتُ فيستريح ولا يحيى حياةً تنفعُه، بل هي مَضرَّةٌ عليه، لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب، وأنواع النَّكال.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا ابنُ أبي عَدِيّ، عن سُلَيمان - يعني التيميّ - عن أبي نَضْرَة، عن أبي سَعيد قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «أما أهلُ النار الذين هم لا يَموتون ولا يحيَون، وأما أناسٌ يُريد الله بهم الرحمةَ فَيُميتُهم في النار فيدخُل عليهم الشُّفعاء، فيأخذ الرجل الضُّبارة فَيُنبتهم - أو قال: يَنبتُون - في نهر الحياء - أو قال: الحياة - أو قال: الحيوان - أو قال: نهر الجنة، فينبتون نبات الحِبَّة في حَميل السيل» - قال: وقال النبي - ﷺ -: «أما تَرَون الشجرة تكونُ خضراء، ثم تكون صفراء، [أو قال: تكون صفراء] ثم تكون خضراء؟». - قال: فقال بعضُهم: كأن النبيَّ - ﷺ - كان بالبادية [(١)].

وقال أحمدُ أيضاً: حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا سعيدُ بن يَزيد، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد الخُدْريّ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «أما أهلُ النار الذين هم أهلُه فإنهم لا يَموتون فيها ولا يَحْيَون، ولكن أناسٌ - أو كما قال - تُصيبهم النارُ بذُنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فيُميتُهم إماتةً، حتى إذا صاروا فحماً أُذِن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، فيُقال: يا أهلَ الجنة، أفيضُوا عليهم، فينبُتون نباتَ الحِبَّة تكون في حَميل السيل» قال. فقال رجلٌ من القوم حينئذٍ: كأنَّ رسولَ الله - ﷺ - كان بالبادية[(٢)].

ورواه مسلمٌ من حديث بِشْر بن المُفضَّل وشُعبةَ، كلاهما عن أبي مَسْلَمة سعيد بن يَزيد، به مثله[(٢)].

ورواه أحمد أيضاً عن يزيد، عن سعيد بن إياس الجُرَيري، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سَعيد، عن النبي - ﷺ - قال: «إن أهل النار الذين لا يُريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يَحْيَون، وإنَّ أهل النار الذين يُريد الله إخراجهم يُميتهم فيها إماتةً حتى يصيرُوا فحماً، ثم يخرجون ضَبائِرَ فَيُلقَون على أنهار الجنة، فَيُرَشُّ عليهم من أنهار الجنة، فينبُتون كما تنبُت الحِبَّة في حَميل السَّيل»[(٣)].

---

(١) المسند ٣/٥: والضُّبارة: الجماعة. والحِبَّة: بذور البقول. والحميل: ما يجيء به السيل من طين أو غُثاء إذا اتفقت فيه حِبَّة واستقرّت على شط مجرى السيل فإنها تنبت في يوم وليلة. شبَّه به سُرْعَة عود أجسامهم.

(٢) تقدم الحديث وتخريجه وشرح غريبه عند تفسير الآية ٧٤ من سورة طه، ٣٦ من سورة فاطر.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٢٠

وقد قال الله إخباراً عن أهل النار: ﴿ونادوا يا مالكُ لِيَقضِ علينا ربُّك قال إنكم ماكِثُون﴾، وقال تعالى: ﴿لا يُقضَى عليهم فيَمُوتوا ولا يُخَفَّف عنهم من عذابها﴾... إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿قد أفلح من تزكَّى﴾، أي: طَهَّر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابَعَ ما أنزله الله على الرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ ﴿وذكر اسم ربِّه فصلَّى﴾، أي: أقام الصلاة في أوقاتها؛ ابتغاء رضوان الله وطاعةً لأمر الله وامتثالاً لشرع الله. وقد قال الحافظ أبو بكر البزَّار:

حدَّثنا عَبَّاد بن أحمد العَرْزَميُّ، حدَّثنا عمِّي محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عَطاء بن السائب، عن عبد الرحمن بن سابطٍ، عن جابر بن عبد الله، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿قد أفلح من تزكَّى﴾، قال: من شَهِد أن لا إله إلا الله، وخَلَع الأنداد، وشَهِد أنِّي رسولُ الله، ﴿وذكر اسم ربِّه فصلَّى﴾، قال: وهي الصلواتُ الخمسُ والمحافظةُ عليها والاهتمامُ بها.

ثم قال: لا يُروَى عن جابر إلا من هذا الوجه[1].

وكذا قال ابنُ عباس: إنَّ المرادَ بذلك الصلواتُ الخمسُ. واختاره ابنُ جرير

وقال ابنُ جرير: حدَّثني عَمرو بن عبد الحميد الآملي[2]، حدَّثنا مَرْوان بن مُعاوية، عن أبي خَلْدَةَ قال: دخلت على أبي العالية فقال لي: إذا غَدَوْتَ غداً إلى العيد فَمُرَّ بي. قال: فمررتُ به فقال: هل طَعِمتَ شيئاً؟ قلتُ: نعم. قال: أفَضْتَ على نفسك من الماء؟ قلتُ: نعم. قال: فأخبرني ما فَعَلَت زكاتُك؟ قلت: قد وَجَّهتُها. قال: إنما أردتُك لهذا. ثم قرأ: ﴿قد أفلح من تزكَّى * وذَكَر اسمَ ربِّه فصلَّى﴾. وقال: إن أهلَ المدينةِ لا يرون صدقةً أفضلَ منها ومن سِقَايةِ الماء[3].

قلت: وكذلك رَوَينا عن أمير المؤمنين عُمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناسَ بإخراج صَدَقة الفطر، ويتلو هذه الآية: ﴿قد أفلح من تزكَّى * وذكر اسم ربِّه فصلَّى﴾.

وقال أبو الأحْوَص: إذا أتى أحَدَكُم سائلٌ وهو يريدُ الصلاة فَلْيُقدِّم بين يَدَي صلاتِه زكاتَه، فإن الله يقول: ﴿قد أفلح من تَزَكَّى * وذكر اسم ربه فصلَّى﴾.

وقال قَتادةُ في هذه الآية: ﴿قد أفلح من تَزَكَّى * وذَكَر اسم ربِّه فصلَّى﴾: زَكَّى ماله، وأَرْضَى خالِقَه.

ثم قال تعالى: ﴿بل تُؤثِرُون الحياةَ الدُّنيا﴾، أي: تُقدِّمونها على أمر الآخرة، وتُبَدُّونها على ما فيه نفعُهم وصلاحُهم في معاشهم ومعادهم، ﴿والآخرةُ خيرٌ وأبقى﴾، أي: ثوابُ الله في الدار الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى، فإنَّ الدنيا دَنِيَّةٌ فانية، والآخرة شَرِيفة باقية، فكيف يُؤثِرُ عاقلٌ ما يفنَى على ما يبقى، ويهتَمُّ بما يزولُ عنه قريباً، ويتركُ الاهتمامَ بدارِ البقاءِ والخُلْد.

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٨٠.

(٢) في النسخ: الأيلي. والمثبت من تفسير الطبري، وطبعة المعارف ٩/١٥٩

(٣) تفسير الطبري ٣٠/١٥٦

قال الإمامُ أحمد: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا دُوَيد، عن أبي إسحاق، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الدنيا دارُ مَن لا دار له، ومالُ من لا مال له، ولها يجمعُ مَن لا عقلَ له»[1].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا أبو حمزة، عن عطاء، عن عَرْفجة الثقفي قال: استقرأتُ ابن مسعودٍ ﴿سبّح اسم ربك الأعلى﴾ فلما بلغ ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ ترك القراءة، وأقبل على أصحابه فقال: آثرنا الدنيا على الآخرة. فسكت القومُ، فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتَها ونساءَها وطعامَها وشرابَها، وزُوِيت عنا الآخرةُ، فاخترنا هذا العاجلَ وتركنا الآجل[2].

وهذا منه على وجه التواضُع والهضم، أو هو إخبارٌ عن الجنس من حيثُ هو، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سُليمان بن داود الهاشميُّ، حدثنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن المُطَّلب بن عبد الله، عن أبي موسى الأشعريِّ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من أحب دُنياه أضرَّ بآخرته، ومَن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، فآثِرُوا ما يبقَى على ما يفنَى». تفرَّد به أحمدُ[3].

وقد رواه أيضاً عن أبي سلمة الخُزاعيِّ، عن الدَّراوَرْديِّ، عن عمرو بن أبي عمرو، به مثله سواءً[3].

وقولُه: ﴿إنَّ هذا لفي الصُّحُفِ الأولى * صُحُفِ إبرهيمَ وموسى﴾، قال الحافظ أبو بكر البزّارُ:

حدثنا نصرُ بن علي، حدثنا مُعْتَمرُ بن سُلَيمان، عن أبيه، عن عطاء بن السائب، عن عِكْرِمة، عن ابن عبّاس قال: لما نزلت: ﴿إن هذا لفي الصُّحُفِ الأولى * صُحُفِ إبرهيمَ وموسى﴾، قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «كان كلُّ هذا ـ أو: كان هذا ـ في صُحُف إبراهيمَ وموسى»[4].

ثم قال: لا نعلم أسند الثقاتُ عن عطاء بن السائب، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس غيرَ هذا، وحديثاً آخر أوردَه قبل هذا.

وقال النَّسائي: أخبرنا زكريا بن يحيى، أخبرنا نصرُ بن علي، حدثنا المُعْتَمر بن سليمان، عن أبيه، عن عطاء بن السائب، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿سَبّح اسم ربك الأعلى﴾، قال: كلُّها في صُحُف إبراهيم وموسى. فلما نزلت ﴿وإبراهيم الذي وَفّى﴾، قال: وفّى ﴿ألا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرَى﴾[5].

يعني أن هذه الآية كقوله في «سورة النجم»: ﴿أم لم يُنبأ بما في صُحُف موسى * وإبراهيم الذي وَفّى * ألا تزرُ وازرةٌ وِزْر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سَعْيَه سوف يُرى * ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى * وأنَّ إلى ربِّك المُنتهى﴾ ... الآيات إلى آخرهن. وهكذا قال عِكْرِمةُ، فيما رواه ابنُ جرير، عن ابن حُمَيد، عن مهران، عن سفيان الثَّوريّ، عن أبيه، عن عِكْرِمةَ في قوله: ﴿إن هذا لفي الصُّحُف الأولى * صُحُف إبراهيمَ وموسى﴾، يقول: الآياتُ التي في سَبّح اسم ربك الأعلى.

وقال أبو العالية: قِصّةُ هذه السورةِ في الصُّحُف الأولى.

واختار ابنُ جرير أن المراد بقوله: ﴿إن هذا﴾ إشارةٌ إلى قوله: ﴿قد أفلح من تزكّى * وذكر اسم ربّه

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآيات ٢١٢ من سورة البقرة، ١٨ من سورة الإسراء، ٢٩ من سورة النجم.

(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٥٧

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٤١٢

(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٨٠.

(٥) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٥/١٥١.

فصلّى * بل تُؤثِرُون الحياة الدنيا * والآخرة خيرٌ وأبقى﴾، ثم قال: ﴿إن هذا﴾، أي. مضمُون هذا الكلام ﴿لَفِي الصُّحف الأولى * صُحُف إبراهيم وموسى﴾[١].

وهذا الذي اختاره حسنٌ قويٌّ، وقد رُوِي عن قتادة وابنِ زَيدٍ نحوُه. والله أعلم.

آخر تفسير «سورة سبِّح»، ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) تفسير الطبري ٣٠/١٥٨

تفسير

سورة الغاشية

وهي مكية

قد تقدَّم عن النعمان بن بشير أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ بـ ﴿سَبِّح اسمَ ربِّك الأعلى﴾، والغاشيةِ، في صلاةِ العيد ويوم الجُمُعة.

وقال الإمام مالك، عن ضَمْرَة بن سعيد، عن عُبَيد الله بن عبد الله: أن الضحَّاك بن قيس سأل النُّعمان بن بَشير: بِمَ كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقرأ في الجمعة مع سُورة الجُمُعة؟ قال: ﴿هل أتاك حديثُ الغاشية﴾[1].

رَوَاه أبو داود عن القَعْنَبي، والنَّسائيُّ عن قُتَيبة، كلاهُما عن مالكٍ، به. وَرَواه مسلمٌ وابنُ ماجه، من حديثِ سُفْيان بن عُيَيْنة، عن ضَمْرَة بن سَعِيد، به[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ ﴾

الغاشيةُ: من أسماء يوم القيامة. قاله ابنُ عباس، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ؛ لأنها تغشَى الناسَ وتَعُمُّهم. وقد قال ابن أبي حاتم:

---

(١) الموطأ، كتاب الجمعة ١/١١١، وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ١/٢٩٣، والنسائي في كتاب الجمعة ٣/١١٢، ومسلم في كتاب الجمعة ٢/٥٩٨، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٣٥٥.

حدّثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو بكر بن عيّاش، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: مرّ النبيّ ـ ﷺ ـ على امرأةٍ تقرأ: ﴿هل أتاك حديثُ الغاشيةِ﴾، فقام يستمعُ ويقول: «نعم، قد جاءني».

وقولُه: ﴿وجوهٌ يومئذ خاشعةٌ﴾، أي: ذليلةٌ. قاله قتادةُ. وقال ابنُ عباس: تخشعُ ولا ينفعُها عملُها.

وقولُه: ﴿عاملةٌ ناصبةٌ﴾، أي: قد عمِلت عملاً كثيراً، ونصبت فيه، وصليتْ يومَ القيامةِ ناراً حاميةً.

وقال الحافظ أبو بكر البَرْقانيُّ: حدّثنا إبراهيم بن محمد المُزكّي، حدّثنا محمد بن إسحاق السراجُ، حدّثنا هارون بن عبد الله، حدّثنا سيّار، حدّثنا جعفر قال: سمعتُ أبا عمران الجَوْني يقول: مرّ عمرُ بنُ الخطاب ـ رَضِي الله عنه ـ بدير راهب، قال: فناداه: يا راهبُ، يا راهبُ، فأشرفَ، قال: فجعل عُمَر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، ما يُبكيك من هذا؟ قال: ذكرتُ قولَ الله ـ عزّ وجلّ ـ في كتابه: ﴿عاملةٌ ناصبةٌ * تصلى ناراً حاميةً﴾، فذاك الذي أبكاني(١).

وقال البخاري: قال ابن عباس: ﴿عاملةٌ ناصبةٌ﴾، النصارى(٢). وعن عِكْرمةَ، والسُّدّي: ﴿عاملةٌ﴾ في الدنيا بالمعاصي، ﴿ناصبةٌ﴾ في النار بالعذاب والأغلال. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: ﴿تصلى ناراً حاميةً﴾، أي: حارّة شديدة الحرّ، ﴿تُسقى من عينٍ آنيةٍ﴾، أي: قد انتهى حرُّها وغليانُها. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ، والسُّدّي.

وقولُه: ﴿ليس لهم طعامٌ إلا من ضَريع﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: شجرٌ من نار. وقال سعيد بن جُبَير: هو الزقّوم. وعنه: إنها الحجارةُ. وقال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو الجوزاء، وقتادةُ: هو الشِّبْرِقُ. قال قتادةُ: قريشٌ تُسمّيه في الربيع الشِّبْرِق، وفي الصيف الضّريع. قال عكرمةُ: وهو شجرةٌ ذات شَوْكٍ لاطئةٌ بالأرض. وقال البخاريُّ: قال مجاهدٌ: الضَّريعُ نبتٌ يقال له: الشِّبرق، يُسمّيه أهلُ الحجاز الضريع إذا يَبِس، وهو سُمٌّ(٢). وقال معمرٌ، عن قتادةَ: ﴿إلا من ضَريع﴾ هو الشِّبرق، إذا يبس سُمّي الضريع. وقال سعيدٌ، عن قتادةَ: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضَريع﴾: من شرّ الطعام وأبشعِه وأخبثِه. وقولُه: ﴿لا يُسمِنُ ولا يُغني من جُوعٍ﴾، يعني: لا يحصُل به مقصودٌ، ولا يندفعُ به محذورٌ.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

لما ذكر حالَ الأشقياء ثنّى بذكر السُّعداء فقال: ﴿وجوهٌ يومئذٍ﴾، أي: يومَ القيامة ﴿ناعمةٌ﴾، أي: يعرف النعيم فيها. وإنما حَصَل لها ذلك بسَعيها. وقال سفيان: ﴿لسعيها راضيةٌ﴾، قد رَضِيت عَملها.

وقولُه: ﴿في جَنّةٍ عاليةٍ﴾، أي: رفيعةٍ بَهِيّةٍ في الغُرُفات آمنون، ﴿لا تسمعُ فيها لاغيةً﴾، أي: لا يُسمع

(١) قال السيوطي في الدر ٨/٤٩١: وأخرجه عبد الرزاق وابن المنذر والحاكم، وقد أخرجه الحاكم بإسناده إلى سيّار بن حاتم في تفسير سورة الغاشية ٢/٥٢١ ـ ٥٢٢ وقال: وهذه حكاية في وقتها، فإن أبا عمران الجوني لم يدرك زمن عمر.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ ٨/٧٠٠.

في الجنة التي هم فيها كلمةُ لغوٍ. كما قال: ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ وقال: ﴿لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ﴾ وقال: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾.

﴿فيها عينٌ جاريةٌ﴾، أي: سارحةٌ. وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المرادُ بها عيناً واحدةً، وإنما هذا جنسٌ، يعني: فيها عيونٌ جارياتٌ.

وقال ابن أبي حاتم: قُرِئ على الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابنُ ثوبان، عن عطاء بن قُرَّة، عن عبد الله بن ضَمْرَة، عن أبي هُرَيرة قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أنهارُ الجنةِ تُفَجَّر من تحتِ تِلالِ ـ أو: من تحتِ جبالِ ـ المِسْكِ».

﴿فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ﴾، أي: عاليةٌ ناعمةٌ كثيرةُ الفُرُش مرتفعةُ السَّمْك، عليها الحورُ العينُ. قالوا: فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس على تلك السُّرُر العالية تواضعَتْ له، ﴿وأكوابٌ موضوعةٌ﴾، يعني: أواني الشراب مُعَدَّةٌ مُرصدةٌ لمن أرادها من أربابها، ﴿ونمارقُ مصفوفةٌ﴾، قال ابن عباس: النمارق الوسائد. وكذا قال عكرمةُ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، والسُّدِّي، والثوريُّ، وغيرهم.

وقوله: ﴿وزرابيُّ مبثوثةٌ﴾، قال ابنُ عباس: الزرابيُّ البُسُط. وكذا قال الضحَّاك، وغيرُ واحد. ومعنى ﴿مبثوثة﴾، أي: هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها. ونذكر هاهنا الحديث الذي رواه أبو بكر بن أبي داود:

حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبي، عن محمد بن مُهاجر، عن الضحَّاك المَعافريِّ، عن سليمان بن موسى: حدثني كُرَيب أنه سمع أسامةَ بن زيد يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ألا هل مُشَمِّرٌ للجنة فإن الجنة لا خطر(١) لها؟ هي وربِّ الكعبةِ نورٌ يتلألأ، وريحانة تهتزُّ، وقصرٌ مَشِيدٌ، ونهرٌ مُطَّرِد، وثمرة نَضِيجة، وزوجةٌ حسناءُ جميلةٌ، وحُلَل كثيرةٌ، ومقام في أبد في دارٍ سليمةٍ، وفاكهةٍ وخُضْرةٍ، وحَبْرةٍ ونَعْمةٍ، في محلّةٍ عالية بهيَّة». قالوا: نعم، يا رسول الله، نحن المشمِّرون لها. قال: «قولوا إن شاء الله». قال القوم: إن شاء الله.

ورواه ابنُ ماجه، عن العباس بن عثمان الدِّمشقي، عن الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، به(٢).

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالَّة على قُدْرته وعظَمته: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت﴾، فإنها خَلْقٌ عجيبٌ، وتركيبها غريبٌ، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تَلينُ للحِمْل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتُؤكل، ويُنتفعُ بوبرها، ويُشرب لبنُها. ونُبِّهوا بذلك لأن العرب غالبُ دوابِّهم كانت الإبل، وكان شُريح القاضي يقول: اخرُجوا بنا حتى ننظُرَ إلى الإبل كيف خُلِقت، وإلى السماء كيف رُفِعت؟

(١) أي: لا مثل لها.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٥٧ من سورة ﴿يس﴾.

أي: كيف رَفَعها الله - عزَّ وجلَّ - عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أفلم ينظُروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّناها وما لها من فُرُوج﴾.

﴿وإلى الجبال كيف نُصبت﴾، أي: جُعلت منصوبةً قائمةً ثابتةً راسيةً لئلا تَميدَ الأرضُ بأهلها، وجَعَل فيها ما جَعَل من المنافع والمعادن.

﴿وإلى الأرض كيف سُطِحت﴾، أي: كيف بُسطت ومُدَّت ومُهِّدت، فنبَّه البدويَّ على الاستدلال بما يشاهده من بَعيره الذي هو راكبٌ عليه، والسماءِ التي فوقَ رأسه، والجَبَل الذي تُجاهه، والأرض التي تحته، على قُدرةِ خالقِ ذلك وصانِعه، وأنه الربُّ العظيمُ الخالقُ المتصرِّف المالكُ، وأنه الإله الذي لا يستحقُّ العبادة سِواه. وهكذا أقسم «ضِمَام» في سُؤاله على رسول الله - ﷺ - كما رواه الإمام أحمد حيثُ قال.

حدَّثنا هاشمُ بن القاسم، حدَّثنا سُلَيمان بن المُغِيرة، عن ثابت، عن أنس قال: كُنَّا نُهينا أن نسأل رسول الله - ﷺ - عن شيءٍ، فكان يُعجبنا أن يجيء الرجُل من أهل البادية العاقلُ فيسأله ونحنُ نسمعُ، فجاء رجلٌ من أهل البادية فقال: يا محمدُ، إنه أتانا رَسولُك فزعَمَ لنا أنك تَزعُم أن الله أرسلَك؟ قال: صَدَق. قال: فمن خلق السماءَ؟ قال: الله. قال: فمن خلق الأرضَ؟ قال: الله. قال: فمن نَصَب هذه الجبال وجَعَل فيها ما جعَل؟ قال: الله. قال: فالذي خَلَق السماءَ والأرضَ ونصب هذه الجبالَ، آللَّهُ أرسلَك؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولُكَ أن علينا خمسَ صَلَوات في يومنا وليلتنا؟ قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك، آللَّهُ أمرَكَ بهذا؟ قال: نعم. قال: وزعَم رسولُك أن علينا زكاةً في أموالنا؟ قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك، آللَّهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولُك أن علينا حَجَّ البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: صدق. قال: ثم ولَّى فقال: والذي بعثك بالحقِّ لا أزيدُ عليهنَّ شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً. فقال النبي - ﷺ -: إن صَدَقَ لَيَدْخُلنَّ الجنة[1].

وقد رواه مسلم، عن عَمرو الناقد، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، به. وعلَّقه البخاريُّ، ورواه الترمذيُّ والنَّسائيُّ، من حديث سليمان بن المغيرة، به. ورواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد، عن سعيد المقبُري، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمِر، عن أنسٍ، به بطوله، وقال في آخره: «وأنا ضمامُ بن ثعلبةَ أخُو بني سَعد بن بكر»[1].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدَّثنا إسحاقُ، حدَّثنا عبدُ الله بن جعفر، حدَّثني عبدُ الله بن دينار، عن ابن عُمَر قال: كان رسول الله - ﷺ - كثيراً مِمَّا كان يحدِّث عن امرأة في الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها ترعى غنماً، فقال لها ابنها: يا أُمَّه، مَن خلقك؟ قالت: الله. قال: فمن خَلَق أبي؟ قالت: الله. قال: فمن خلقني؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلَق الأرضَ؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: فإني لأسمع لله شأناً. وألقى نفسه من الجبل فتقطع.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٤٣/٣، ١٦٨، ومسلم، كتاب الإيمان ٤١/١ - ٤٢، وفتح الباري، كتاب العلم ١٤٨/١ - ١٤٩، وعارضة الأحوذي، أبواب الزكاة ٩٨/٣ - ١٠٠، والنسائي، كتاب الصيام ١٢١/٤ - ١٢٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ٤٤٩/١ - ٤٥٠.

قال ابن عُمر: كان رسول الله ـ ﷺ ـ كثيراً ما يُحدِّثنا هذا. قال ابنُ دينار: كان ابن عُمَر كثيراً ما يحدثنا بهذا(١).

في إسناده ضَعفٌ، وعبد الله بن جعفر هذا هو المديني صحّحه ولَدُه الإمام علي بن المديني وغيرُه.

وقولُه ﴿فذكر إنما أنت مُذكِّر * لستَ عليهم بِمُسَيطِرٍ﴾، أي: فذكِّر ـ يا محمد ـ الناسَ بما أُرسِلتَ به إليهم، فإنما عليك البلاغُ وعليك الحسابُ. ولهذا قال: ﴿لستَ عليهم بمسيطر﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهد، وغيرُهما: ﴿لست عليهم بجبار﴾.

وقال ابنُ زيدٍ: لست بالذي تُكرِهُهم على الإيمان.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا وكيعٌ، عن سفيانَ، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أُمِرت أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولُوا. لا إلَه إلا الله، فإذا قالوها عَصَموا مِنّي دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله عزّ وجلّ. ثم قرأ: ﴿فذكِّر إنما أنت مُذكِّر * لستَ عليهم بِمُسَيطِرٍ﴾(٢).

وهكذا رواه مسلم في كتاب «الإيمان»، والترمذيُّ والنسائي في كتاب «التفسير» من سُنَنَيهما، من حديث سفيان بن سعيد الثَّوري، به بهذه الزيادة. وهذا الحديثُ مخرَّج في الصحيحَين من رواية أبي هُرَيرة، بدون ذِكرِ هذه الآية(٣).

وقولُه: ﴿إلا مَن تولّى وكَفَر﴾، أي: تولّى عن العمل بأركانه، وكَفَر بالحقّ بجَنانِهِ ولسانه. وهذه كقوله: ﴿فلا صَدَّق ولا صلّى * ولكن كَذَّب وتولّى﴾. ولهذا قال: ﴿فَيُعذِّبه الله العذابَ الأكبر﴾، قال الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا قُتيبة، حدَّثنا ليثٌ، عن سَعِيد بن أبي هلال، عن علي بن خالد: أن أبا أُمامة الباهليَّ مَرّ على خالد بن يزيد بن معوية، فسأله عن ألينِ كَلِمة سَمِعها من رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ألا كُلُّكُم يدخلُ الجنةَ، إلا من شَرَد على الله شِرَاد البعيرِ على أهله»(٣).

تفرَّد بإخراجه الإمامُ أحمدُ، وعليُّ بن خالد هذا ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه، ولم يَزِد على ما ها هنا: «روى عن أبي أُمامة، وعنه سعيدُ بن أبي هلال»(٣).

وقولُه: ﴿إنَّ إلينا إيابَهم﴾، أي: مَرْجِعَهم ومُنْقَلَبَهم، ﴿ثم إن علينا حِسَابَهم﴾، أي: نحن نحاسِبُهم على أعمالهم ونُجازِيهم بها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

آخر تفسير سورة الغاشية، ولله الحمدُ والمِنّةُ

---

(١) تقدم بحديث عند تفسير الآية ٨٧ من سورة «المؤمنون» من رواية أبي بكر بن أبي الدنيا، عن إسحق بن إبراهيم به مثله.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٣٠٠، ومسلم، كتاب الإيمان ١/٥٣، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الغاشية ١٢/٢٤٣، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٢/٣٠٢ ـ ٣٠٣. فأما رواية أبي هريرة فقد تقدمت عند تفسير الآية ٣٥ من سورة الصافات، ٢٦ من سورة الفتح

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/٢٥٨. وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/١٨٤.

تفسير

سورة الفجر

وهي مكيّةٌ

قال النَّسائيُّ: أخبرنا عبدُ الوهاب بنُ الحكم، أخبرني يحيى بنُ سعيد، عن سُليمان، عن محاربِ بن دثار وأبي صالح، عن جابر قال: صلّى معاذٌ صلاةً، فجاء رجلٌ فصلّى معه فطوّلَ، فصلّى في ناحية المسجد ثم انصرفَ، فبلغ ذلك معاذاً فقال: مُنافِقٌ. فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فسأل الفتى، فقال: يا رسولَ الله، جئتُ أصلّي معه فطوّل عليّ، فانصرفتُ وصليتُ في ناحية المسجد، فَعَلفتُ ناضحي. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أفتّانٌ يا مُعاذ؟ أين أنتَ مِنْ ﴿سبّح اسم ربّك الأعلى﴾، و﴿الشمس وضُحاها﴾، و﴿الفجر﴾ و﴿الليل إذا يغشى﴾»(١)؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

أما الفجرُ فمعروفٌ، وهو: الصبحُ. قاله عليٌّ، وابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والسُّدّي وعن

(١) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٢/٢٦٧ والناضح: الدابة يُسقى عليها

مسروق، ومجاهد، ومحمد بن كعب. المراد به فجرُ يومِ النحر خاصةً، وهو خاتمة الليالي العشر. وقيل: المراد بذلك الصلاةُ التي تُفعل عنده، كما قاله عكرمةُ. وقيل: المُرادُ به جميعُ النهار. وهو رواية عن ابن عباس.

والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة كما قاله ابنُ عباس، وابنُ الزبير، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد من السلف والخلف. وقد ثبت في صحيح البخاري، عن ابن عباس مرفوعاً «ما من أيام العملُ الصالحُ أحبُّ إلى الله فيهنَّ العملُ من هذه الأيام» ـ يعني عشر ذي الحجّة ـ قالوا: ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهادُ في سبيل الله، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»[٢]

وقيل: المرادُ بذلك العشرُ الأولُ من المحرم، حكاه أبو جعفر بنُ جرير، ولم يَعزُه إلى أحد.

وقد روى أبو كُدينة، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وليالٍ عشر﴾، قال: هو العشرُ الأولُ من رمضان.

والصحيح القولُ الأول؛ قال الإمام أحمد:

حدَّثنا زيدُ بن الحباب، حدَّثنا عيَّاش بن عُقبة، حدَّثني خير بن نُعيم، عن أبي الزُّبير، عن جابر، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن العشر عشرُ الأضحى، والوتر يومُ عرفة، والشفعُ يوم النحر»[٣]

ورواه النَّسائي عن محمد بن رافع وعَبْدة بن عبد الله، كلٌّ منهما عن زيد بن الحباب[٣]، به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث زيد بن الحُباب، به[٣]. وهذا إسناد رجالُه لا بأسَ بهم، وعندي أن المتن في رَفْعِه نَكارةٌ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿والشَّفع والوتر﴾، قد تقدَّم في هذا الحديث أنّ الوتر يومُ عرفة، لكَوْنه التاسعَ، وأن الشفعَ يومُ النحر لكَوْنه العاشر. وقاله ابنُ عباس، وعكرمة، والضحَّاك أيضاً.

قولٌ ثانٍ، قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثني عُقْبةُ بن خالد، عن واصل بن السائب قال: سألتُ عطاءً عن قوله: ﴿والشفع والوتر﴾، قلتُ: صلاتنا وَتْرُنا هذا؟ قال: لا، ولكن الشفعُ يومُ عرفة، والوَتْرُ ليلةُ الأضحى.

قولٌ ثالث، قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهانيُّ، حدَّثني أبي، عن النعمان ـ يعني ابن عبد السلام ـ عن أبي سعيد بن عوف، حدَّثني بمكَّة قال: سمعتُ عبدَ الله بن الزُّبير يخطبُ الناسَ، فقام إليه رجلٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخبرني عن الشَّفع والوتر. فقال: الشفع قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فمن تعجَّل في يومين فلا إثم عليه﴾، والوتر قولُه: ﴿ومن تأخَّر فلا إثْمَ عليه﴾.

وقال ابنُ جريج: أخبرني محمد بن المرتفع أنه سَمع ابن الزُّبير يقولُ: الشفعُ أوسط أيام التشريق، والوترُ آخر أيام التشريق.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦٨/٣٠

(٢) فتح الباري، كتاب العيدين ٤٥٧/٢

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٢٧/٣، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٢٩٦/٢، وهو في تفسير الطبري ١٦٩/٣٠، ١٧٢

[(١ - ورواه ابنُ أبي حاتم وابنُ جرير من طريق ابن جُريج، ثم قال ابنُ جرير: ورُوِي عن النبي - ﷺ - خَبَرٌ يُؤيِّد القول الذي ذكرناه عن ابن الزُّبير:

حدَّثني عبد الله بن أبي زياد القَطَواني، حدَّثنا زيد بن الحُباب، أخبرني عيَّاشُ بن عقبة، حدَّثني خير بن نُعَيم، عن أبي الزُّبير، عن جابر أن رسول الله - ﷺ - قال: الشفعُ اليومان، والوَتْرُ الثالث(٢).

هكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ، وهو مخالف لما تقدَّم من اللفظ في رواية أحمد والنَّسائيّ وابن أبي حاتم، وما رواه هو أيضاً، والله أعلم- ١)].

وفي الصحيحَين من رواية أبي هُرَيرة، عن رسول الله - ﷺ -: «إن لله تسعة وتسعينَ اسماً، مائةً إلا واحداً، مَن أحصاها دَخَل الجنَّةَ، وهو وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتر»(٣).

قولٌ رابعٌ، قال الحسنُ البصري، وزيدُ بن أسلَمَ: الخلقُ كلُّهم شفعٌ وَوَتْرٌ، أقسم تعالى بخلقه. وهو رواية عن مجاهد، والمشهور عنه الأول.

وقال العَوفيّ، عن ابن عباس: ﴿والشفعِ والوَتْرِ﴾، قال: الله وَتْرٌ واحدٌ، وأنتم شَفْعٌ. ويقال: الشفعُ صلاة الغَدَاة، والوترُ صلاة المغرب.

قولٌ خامس، قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد: ﴿والشفعِ والوَتْرِ﴾، قال: الشفعُ الزوج، والوتر: الله عزَّ وجل. وقال أبو عبد الله عن مجاهد: اللهُ الوترُ، وخلقُه الشفع، الذكرُ والأنثى. وقال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهد قولَه: ﴿والشَّفعِ والوَتْرِ﴾: كلُّ شيء خَلَقه الله شَفْعٌ، السماءُ والأرضُ، والبرُّ والبحرُ، والجنُّ والإنسُ، والشمسُ والقمرُ، ونحو هذا. ونحا مجاهدٌ في هذا ما ذَكروه في قوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زَوْجَين لعلَّكم تَذَكَّرون﴾، أي: لِتَعلَموا أنَّ خالق الأزواج واحدٌ.

قولٌ سادس، قال قتادةُ، عن الحسن: ﴿والشَّفعِ والوَتْرِ﴾: هو العددُ، منه شفعٌ ومنه وَتْرٌ.

[(٣- قولٌ سابعٌ في الآية الكريمة-٣)] قال أبو العالية، والربيعُ بن أنس، وغيرهما: هي الصلاة، منها شفعٌ كالرُّباعية والثُّنائية، ومنها وتر كالمغرب، فإنها ثلاث، وهي وتر النهار. وكذلك صلاة الوَتر في آخر التهجُّد من الليل.

وقد قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة، عن عِمران بن حُصَين: ﴿والشَّفعِ والوَتْرِ﴾، قال: هي الصلاة المكتوبة، منها شَفعٌ ومنها وَتْرٌ. وهذا منقطع وموقوف، ولفظه خاصٌّ بالمكتوبة. وقد رُوِي متصلاً مرفوعاً إلى النبي - ﷺ - ولفظه عام؛ قال الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو داود - هو الطيالسي - حدَّثنا هَمَّام، عن قتادة، عن عِمران بن عِصَام: أن شيخاً حدَّثه من أهل البصرة، عن عمران بن حُصَين: أن رسولَ الله - ﷺ - سُئِل عن الشَّفعِ والوَتْرِ، فقال: «هي الصلاةُ، بعضُها شَفعٌ، وبعضُها وَتْرٌ»(٤).

(١ - ١) وضع هذا النص في بعض النسخ بعد القول السادس، وكذلك هو في الطبعات السابقة.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٧٢.
(٣ - ٣) عن إحدى النسخ.
(٤) مسند الإمام أحمد ٤/٤٣٧.

هكذا وقع في المسند، وكذا رواه ابنُ جرير عن بُندار، عن عفان، وعن أبي كُريب، عن عُبيد الله بن موسى، كلاهما عن همّام ـ وهو ابنُ يحيى ـ عن قتادةَ، عن عمْران بن عِصام، عن شَيخٍ، عن عمران بن حُصين[١]. وكذا رواه أبو عيسى الترمذي، عن عمرو بن علي، عن ابن مهدي وأبي داود، كلاهما عن همّام، عن قتادة، عن عمران بن عِصام، عن رجل من أهل البصرة، عن عمران بن حُصين، به. ثم قال: «غريب، لا نعرفه إلا من حديث قتادةَ. وقد رواه خالد بن قيس أيضاً عن قتادة»[١]. وقد رُوي عن عمران بن عصام، عن عِمْرانَ نفسِه، والله أعلم[٢].

قلت: ورواه ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمدُ بن سنان الواسطي، حدَّثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا همّام، عن قتادة، عن عمرو بن عِصام الضُّبعي، شيخٍ من أهل البصرة ـ عن عمران بن حُصَين، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ فذكره، هكذا رأيته في تفسيره، فجعل الشيخ البصري هو عِمْران بن عِصام.

وهكذا رواه ابنُ جرير: حدَّثنا نصر بن علي، حدَّثني أبي، حدَّثني خالد بن قيس، عن قتادةَ، عن عمران ابن عصام، عن عمران بن حُصَين، عن النبي ـ ﷺ ـ في الشفع والوتر قال: «هي الصلاةُ، منها شفع، ومنها وتر»[٢]

فأسقط ذكر الشيخ المُبهَم، وتفرَّد به عمران بن عِصام الضُّبَعي أبو عُمارة البصري، إمامُ مسجد بني ضُبيعة وهو والد أبي جَمْرة نصر بن عمران الضُّبَعي. روى عنه قتادةُ، وابنُه أبو جَمْرة، والمثنى بن سَعيد، وأبو التيَّاح يزيدُ بن حُميد[٣]. وذكره ابن حبّان في كتاب الثقات، وذكره خليفة بن خيّاط في التابعين من أهل البصرة، وكان شريفاً نبيلاً خطيبًا عند الحجاج بن يوسف، ثم قتَله يوم الزّاوية سنة ثلاث وثمانين، لخروجه مع ابن الأشعث، وليس له عند الترمذي سوى هذا الحديث الواحد. وعندي أن وَقْفَهُ على عمران بن حُصَين أشبهُ، والله أعلم.

ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشَّفع والوتر.

وقوله: ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾، قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: أي إذا ذهب. وقال عبد الله بن الزبير: ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾: حتى يُذهِب بعضُه بعضاً.

وقال مجاهد، وأبو العالية، وقتادة، ومالك، عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿والليلِ إذا يَسْرِ﴾، إذا سار.

وهذا يمكن حَمْلُه على ما قال ابن عباس، أي: ذَهَب. ويَحْتَمِلُ أن يكون المرادُ إذا سار، أي: أقبل. وقد يقال: إن هذا أنسبُ، لأنه في مقابلة قوله ﴿والفجر﴾، فإنَّ الفجر هو إقبالُ النهار وإدبارُ الليل، فإذا حُمِل قوله ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾، على إقباله كان قَسَماً بإقبال الليل وإدبار النهار، وبالعكس، كقوله: ﴿والليل إذا عَسْعَس * والصبح إذا تنفَّس﴾. وكذا قال الضحّاك: ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾، أي: يجري. وقال عِكْرِمة: ﴿والليل إذ يَسْرِ﴾، يعني: ليلة جمعٍ[٤]. رواه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، ثم قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أحمد بن عصام، حدَّثنا أبو عامر، حدَّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ محمد بن كعب القُرظيَّ يقول في قوله: ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾، قال: اسْرِ يا سارِ ولا تَبِيتَنَّ إلا بجَمْع.

وقوله: ﴿هل في ذلك قسمٌ لذي حجْرٍ﴾، أي: لذي عَقْلٍ ولُبٍّ وحِجاً، وإنما سُمي العقل حِجْراً لأنه

---

(١) تفسير الطبري ١٧٢/٣٠. وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الفجر ٢٤٣/١٢ ـ ٢٤٤.
(٢) أخرجه الطبري ١٧٢/٣٠
(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/٣٠٠
(٤) أي: ليلة المزدلفة

يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يَليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حِجْرُ البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشاميّ. ومنه حِجْرُ اليمامة، وحَجَرَ الحاكم على فلان: إذا منعه التصرفَ، ﴿ويقولون حِجْراً محجوراً﴾، كل هذا من قَبِيلٍ واحِدٍ، ومعنىً متقارب، وهذا القَسَمُ هو بأوقاتِ العبادة، وبنفس العبادة من حجٍّ وصلاة وغير ذلك من أنواع القُرَبِ التي يتقرّب بها إليه عبادُه المتقون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لَدَيه، الخاشعون لوجهه الكريم.

ولما ذكر هؤلاءِ وعبادتَهم وطاعتَهم قال بعده: ﴿ألم تَرَ كيف فَعَل ربُّكَ بعاد﴾، وهؤلاء كانوا متمرِّدين عُتاةً جَبّارين، خارجين عن طاعته مُكذِّبين لِرُسُلِه، جاحدين لِكُتُبه، فذكر تعالى كيف أهلكَهُم ودمَّرهم، وجعلهم أحاديثَ وعِبَراً، فقال: ﴿ألم تر كيفَ فَعَل ربُّك بعاد * إرمَ ذاتِ العمادِ﴾. وهؤلاء عادُ الأولى، وهم أولادُ عادِ بن إرَمِ بن عَوْصِ بن سام بن نوح، قاله ابن[1] إسحاق. وهم الذين بَعَثَ فيهم رسوله هوداً ـ عليه السلام ـ فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهُرِهم ومَن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صَرْصَرٍ عاتية، ﴿سخَّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانيةَ أيام حُسُوماً * فترى القوم فيها صَرْعَى * كأنهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ * فهل ترى لهم من باقية﴾. وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضعٍ، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون.

فقوله: ﴿بعاد * إرَمَ ذات العماد﴾: عطف بيانٍ؛ زيادةَ تعريفٍ بهم

وقولُه: ﴿ذاتِ العماد﴾، لأنهم كانوا يسكنون بُيُوتَ الشعر التي تُرفَع بالأعمدة الشِّداد، وقد كانوا أشدَّ الناس في زمانهم خِلْقَةً وأقواهم بَطْشاً، ولهذا ذكَّرهم هودٌ بتلك النِّعمة وأرشدَهم إلى أن يَستعملوها في طاعةِ ربِّهم الذي خلقهم، فقال: ﴿واذكروا إذ جَعَلكم خُلَفاء من بعد قوم نُوحٍ وزادكم في الخلق بَسْطَةً فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوا في الأرض مفسدين﴾: وقال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحقِّ وقالوا مَن أشدُّ منا قوةً أوَلم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوة﴾. وقال هاهنا: ﴿التي لم يُخلَق مثلُها في البلاد﴾، أي: القَبِيلَةُ التي لم يُخلَق مثلُها في بلادِهم، لِقُوَّتهم وشدَّتهم وعِظَمِ تركيبهم.

قال مجاهد: إرمُ أُمَّةٌ قديمةٌ. يعني عاداً الأولى، كما قال قتادةُ بنُ دِعامةَ، والسُّدِّي. إن إرَمَ بيتُ مَمْلكةِ عادٍ. وهذا قول حسنٌ جيِّدٌ قويٌّ. وقال مجاهد، وقتادةُ، والكلبيُّ في قوله: ﴿ذاتِ العِمَاد﴾ كانوا أهلَ عَمُودٍ لا يُقيمون. وقال العَوْفيُّ، عن ابن عباسٍ: إنما قيل لهم ﴿ذاتِ العِمَادِ﴾ لِطُولِهم. واختار الأولَ ابنُ جرير، وردَّ الثاني فأصاب[2].

وقوله: ﴿التي لم يُخلَق مثلُها في البلاد﴾: أعاد ابنُ زيدٍ الضميرَ على العمادِ لارتفاعها، وقال: بَنوا عُمُداً بالأحقاف لم يُخلَق مثلُها في البلاد. وأما قتادة وابن جَرير فأعاد الضمير على القبيلة، أي: لم يُخلَق مثلُ تلك القبيلةِ في البلاد، يعني في زمانهم: وهذا القولُ هو الصواب، وقولُ ابن زيدٍ ومَن ذهب مَذْهَبَه ضعيفٌ، لأنه لو كان أرادَ ذلك لقال: التي لم يُعمَل مثلُها في البلاد، وإنما قال: ﴿لم يُخلَق مثلها في البلاد﴾

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتبُ الليث، حدَّثني معاويةُ بنُ صالح، عمّن حدثه، عن المقدام، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه ذَكَرَ إرَمَ ذاتَ العِمَادِ فقال: «كان الرجل منهم يأتي على الصخرةِ فَيَحمِلُها على الحيِّ فيُهلكهم».

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/١٧٦. وانظر سيرة ابن هشام ١/٧.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٧٧.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو الطاهر، حدثنا أنس بن عياض، عن ثور بن زيد الدِّيلي، قال: قرأتُ كتاباً ـ قد سمّى حيث قرأه ـ: أنا شدَّادُ بنُ عاد، وأنا الذي رفعتُ العماد، وأنا الذي شددتُ بذراعي بطن وادٍ واحد، وأنا الذي كنزتُ كنزاً على سبعة أذرع لا يُخرجه إلا أمّة محمد ﷺ.

قلتُ: فعلى كلِّ قولٍ سواءٌ كانت العمادُ أبنيةً بنَوها، أو أعمدةَ بُيوتهم للبدو، أو سلاحاً يُقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلةٌ وأُمّة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما هـ هنا، والله أعلم. ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ مدينة إما دمشق، كما رُوي عن سعيد بن المسيِّب وعكرمة ـ أو إسكندرية كما رُوِيَ عن القُرَظي[2] ـ أو غيرهما ـ ففيه نظرٌ، فإنه كيف يلتئمُ الكلام على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾، إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلامُ حينئذ. ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحلَّ الله بهم من بأسه الذي لا يُرَدُّ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم.

وإنما نبَّهت على هذا لئلا يُغترَّ بكثير مما ذَكَره جماعةٌ من المفسِّرين عند هذه الآية، من ذكر مدينةٍ يقال لها ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾، مبنيّةٍ بلَبِن الذهب والفضّة، قصورُها ودورُها وبساتينُها، وأن حصباءها لآلئُ وجواهرُ، وترابَها بنادقُ المسك، وأنهارَها سارحةٌ، وثمارَها ساقطةٌ، ودُورها لا أنيسَ بها، وسورَها وأبوابها تصفِرُ، ليس بها داعٍ ولا مُجيبٌ. وأنها تنتقلُ فتارةً تكونُ بأرض الشام، وتارةً باليمن، وتارةً بالعراق، وتارةً بغير ذلك من البلاد. فإن هذا كلَّه من خُرافات الإسرائيليِّين، من وَضْعِ بعضِ زَنادقتهم، ليختبروا بذلك القول عُقولَ الجَهَلةِ من الناس إنْ صَدَّقَهم في جميع ذلك.

وذكَرَ الثَّعلبي وغيرُه أن رجلاً من الأعراب، وهو عبد الله بن قِلَابَة، في زمان معاوية، ذهَبَ في طلب أباعر له شَردت، فبينما هو يَتيه في ابتغائها، إذ اطلع على مدينة عظيمةٍ لها سورٌ وأبوابٌ، فدَخلها فوجَدَ فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدَّم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس، فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً.

وقد ذكر ابنُ أبي حاتم قصةَ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ها هنا مُطوَّلةً جدًّا، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادُها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوعٌ من الهَوَس والخَبَال، فاعتقد أن ذلك له حقيقةٌ في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع بعدم صِحَّته. وهذا قريب مما يُخبِر به كثيرٌ من الجَهَلة والطامعين والمتحيِّلين، من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة، وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسيرُ الكبيرُ، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذِ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضَّعَفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخيرَ وعقاقيرَ ونحو ذلك من الهذيانات، ويَطْنِزُون[3] بهم. والذي نجزمُ به أن في الأرض دفائن جاهليَّة وإسلاميَّة وكنوزاً كثيرة، من ظَفِرَ بشيء منها أمكنه تحويلُها، فأما على الصفة التي زعمُوها فكذبٌ وافتراءٌ وبهتٌ، ولم يصحَّ في ذلك شيءٌ مما يقولونه إلا عن نَقْلِهم أو نقل من أخَذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب.

---

(١) كذا في النسخ. وقد أخرجه القرطبي في تفسيره ٢٠/٤٧، وفيه: «شددتُ بذراعي بطن الوادِ».
(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٧٥، والدر المنثور ٨/٥٠٦.
(٣) أي: يسخرون منهم.

وقولُ ابن جرير. يَحْتَمِل أن يكون المراد بقوله ﴿إِرَمَ﴾ قبيلةً أو بلدةً كانت عاد تسكُنها فلذلك لم تُصرَف[1] - فيه نظر؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبارُ عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وثمودَ الذين جابُوا الصخر بالواد﴾، يعني يقطعون الصخر بالوادي. قال ابن عباس: ينحتُونها ويخرقُونها. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، والضحاكُ، وابنُ زيدٍ، ومنه يقال: «مُجْتابي النِّمار». إذا خرقوها، واجتاب الثوب: إذا فتحه. ومنه الجيبُ أيضاً. وقال الله تعالى: ﴿وتنحتُون من الجبالِ بيوتاً فارهين﴾.

وأنشد ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم ها هنا قولَ الشاعر:

ألا كُلّ شيءٍ - ما خَلا الله - بائدٌ كَما بَادَ حَيٌّ من شنيقٍ[2] ومارِدِ
هُمُ ضَرَبُوا في كُلِّ صَمَّاءَ صَعْدَةً بِأَيدٍ شِدَادٍ أَيِّداتِ السَّواعِدِ

وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً، وكان منزلُهم بوادي القُرَى. وقد ذكرنا قصَّته مُسْتقْصاةً في سورة «الأعراف»، بما أغنى عن إعادته.

وقولُه: ﴿وفِرْعَون ذي الأوتادِ﴾، قال العَوفي، عن ابن عباس: الأوتادُ الجنودُ الذين يَشُدُّون له أمره، ويقال: كان فرعون يُوتِّدُ أيديَهم وأرجُلَهم في أوتاد من حديدٍ يُعلِّقهم بها. وكذا قال مجاهدٌ: كان يُوتِّد الناس بالأوتادِ، وهكذا قال سعيد بن جُبَير، والحسن، والسُّدِّي. قال السُّدِّي: كان يَربطُ الرجلَ، كلُّ قائمةٍ من قوائمه في وَتِدٍ، ثم يُرسِلُ عليه صخرةً عظيمةً فتشدَخُه. وقال قتادة: بَلَغنا أنه كانت له مَظالُّ ومَلاعِبُ يُلعَب له تحتَها، من أوتادٍ وحبالٍ. وقال ثابت البُناني، عن أبي رافع: قيل لِفِرْعَون: ﴿ذي الأوتادِ﴾ لأنه ضَرَب لامرأته أربعةَ أوتادٍ، ثم جَعَل على ظَهْرِها رحىً عظيمةً حتى ماتت.

وقولُه: ﴿الذين طَغَوا في البلاد * فأكثَرُوا فيها الفَسادَ﴾، أي: تَمرَّدوا وعَتَوا وعاثُوا في الأرض بالإفسادِ والأذيَّة للناس، ﴿فصَبَّ عليهم ربُّك سَوْطَ عذابٍ﴾، أي: أنزل عليهم رجزاً من السماءِ، وأحلَّ بهم عقوبةً لا يَرُدُّها عن القوم المجرمين.

وقولُه: ﴿إنَّ ربَّك لبالمِرْصادِ﴾، قال ابنُ عباس: يَسْمَعُ ويَرَى. يعني: يَرصُد خَلْقه فيما يعملون، ويُجازي كلاًّ بسَعيه في الدنيا والأخرى، وسيُعرَض الخلائقُ كُلُّهم عليه، فيحكُم فيهم بعَدْلِه، ويُقابِل كلاًّ بما يَستحقُّه. وهو المُنزَّه عن الظُّلم والجُور. وقد ذكر ابنُ أبي حاتم ها هنا حديثاً غريباً جدًّا - وفي إسناده نظرٌ في صحَّته - فقال:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ، حدَّثنا يونُس الحذَّاء، عن أبي حَمْزَةَ البَيْسانيِّ، عن مُعاذِ بن جَبَلٍ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «يا معاذُ، إنَّ المؤمن لَدَى الحقِّ أسيرٌ. يا معاذُ، إن المؤمنَ لا يَسكُن رَوعُه ولا يأمنُ اضطرابَه حتى يُخلف جِسْرَ جهنم خَلْفَ ظهره. يا معاذُ، إن المؤمن قَيَّدهُ القرآنُ عن كثير من شَهَواته، وعن أن يَهْلِكَ فيها هو بإذن الله - عزَّ وجلَّ - فالقرآن دليلُه، والخوفُ مَحَجَّته، والشوقُ مَطيَّته، والصلاةُ كهفُه، والصومُ جُنَّته، والصدقةُ فَكاكُه، والصدقُ أميرُه، والحياءُ وَزيرُه، وربُّه - عزَّ وجلَّ - من وراء ذلك كله بالمرصادِ».

(١) تفسير الطبري ٣٠/١٧٦.
(٢) كذا في النسخ. وفي تفسير الطبري، ٣/١٧٩: شنق.

قال ابن أبي حاتم: يونس الحذاء، وأبو حمزة مجهولان، وأبو حمزة عن معاذ مرسلٌ، ولو كان عن أبي حمزة لكان حسناً، أي: لو كان من كلامه لكان حسناً. ثم قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا صفوانُ بن صالح، حدثنا الوليدُ بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أيفع بن عَبْدٍ الكلاعيّ: أنه سمعه وهو يَعظُ الناس يقول: إن لجهنم سبع قناطر، قال: والصراط عليهنّ، قال: فتُحبس الخلائقُ عند القنطرة الأولى، فيقول: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾، قال: فيُحاسَبون على الصلاة ويُسألون عنها، قال: فيهلكُ فيها من هلك، وينجُو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حُوسبوا على الأمانة كيف أدّوها، وكيف خانوها؟ قال: فيهلكُ من هلك وينجو من نجا. فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سُئلوا عن الرحم كيف وَصلُوها وكيف قطعُوها؟ قال: فيهلكُ من هلك وينجُو من نجا. قال: والرحم يومئذٍ مُتدلِّية إلى الهُويّ في جَهَنّم تقول: اللهُمَّ من وصلني فصِلْه، ومن قطعني فاقطعْهُ. قال: وهي التي يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إن ربَّك لبالمرصاد﴾.

هكذا أورد هذا الأثر، ولم يذكر تمامه.

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وَسَّع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقدُ أن ذلك من الله إكرامٌ له وليس كذلك، بل هو ابتلاءٌ وامتحانٌ. كما قال تعالى: ﴿أيحسبون أنما نُمِدُّهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه فامتحنه وضيّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: ﴿كلا﴾، أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا؛ فإن الله يعطي المال من يُحبُّ ومن لا يُحبُّ، ويُضيِّق على من يُحبُّ ومن لا يُحبُّ[1]، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كلٍّ من الحالين، إذا كان غنيًّا بأن يشكُر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبِرَ.

وقولُه: ﴿بل لا تُكرمون اليَتيم﴾، فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه عبدُ الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي أيوب، عن يحيى بن سليمان، عن زيد بن أبي عَتّاب، عن أبي هُرَيْرَة، عن النبي ـ ﷺ ـ: «خيرُ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسَنُ إليه، وشرُّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُسَاء إليه. ثم قال بإصبَعَيه: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»[2].

وقال أبو داود: حدثنا محمدُ بن الصباح بن سفيان، أخبرنا عبد العزيز ـ يعني ابنَ أبي حازم ـ حدَّثني أبي، عن سهل ـ يعني ابن سَعْدٍ ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «أنا وكافلُ اليتيم كهاتَين في الجنة». وقرن بين إصبعيه: الوُسطى والتي تلي الإبهام[3].

﴿ولا تَحُضُّون[4] على طَعَام المسكين﴾، يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفُقراء والمساكين، ويحثُّ

(١) من حديث تقدم تخريجه عند تفسير آية «المؤمنون».
(٢) أخرجه في الزهد والرقائق ٢٣٠. وقد أخرجه ابن ماجه عن يحيى بن آدم، عن عبد الله بن المبارك في كتاب الأدب ٢/١٢١٣.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٣٨.
(٤) قرأ الكوفيون: ﴿تحاضّون﴾ بالألف. وباقي السبعة بغيرها. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٨١٠.

بعضهم على بعض في ذلك، ﴿وتأكلون التُّراث﴾، يعني الميراث، ﴿أكلاً لمًّا﴾، أي: من أيّ جهةٍ حصل لهم، من حلالٍ أو حرام، ﴿وتحبّون المال حُبًّا جمًّا﴾، أي: كثيراً، زاد بعضهم: فاحشاً.

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

يُخبر تعالى عما يقع يومَ القيامة من الأهوال العظيمة، فقال: ﴿كلّا﴾، أي: حقًّا ﴿إذا دُكَّتِ الأرضُ دكًّا﴾، أي: وُطِئت ومُهِّدت وسُوِّيت الأرضُ والجبالُ، وقام الخلائق من قبورهم لربّهم، ﴿وجاء ربُّك﴾، يعني لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيِّدِ ولد آدم على الإطلاق محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بعد ما يسألون أُولي العزم من الرُّسل واحداً بعد واحدٍ، فكلّهم يقول: لستُ بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النَّوبةُ إلى محمد ـ ﷺ ـ فيقول: «أنا لها، أنا لها». فيَذْهَبُ فيَشفَعُ عند الله في أن يأتي لفصل القضاء، فيُشفِّعه الله في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقامُ المحمودُ، كما تقدَّم بيانُه في سورة ﴿سُبحان﴾[1]، فيجيء الربُّ تعالى لفصل القضاءِ كما يشاءُ، والملائكةُ يجيئون بين يَدَيه صُفوفاً صُفوفاً.

وقولُه: ﴿وجيء يومئذٍ بجهنَّم﴾، قال الإمامُ مسلمُ بن الحجّاج في صَحيحه:

حدَّثنا عُمر بنُ حفص بن غِياث، حدَّثنا أبي، عن العلاء بن خالد الكاهلي، عن شَقيق، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُؤتى بجهنم يومئذٍ لها سَبعون ألف زِمام، مع كل زِمام سبعون ألف مَلَك يَجرُّونها»[2].

وهكذا رواه الترمذيُّ عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارميِّ، عن عُمر بن حَفْص، به. ورواه أيضاً عن عبد بن حُميد عن أبي عامر، عن سُفيان الثوريِّ، عن العلاء بن خالد، عن شَقيق بن سَلَمة ـ وهو أبو وائل ـ عن عبد الله بن مسعود، قولَه ولم يرفعه[2]. وكذا رواه ابنُ جرير، عن الحسن بن عرفة، عن مَرْوان بن معاوية الفَزَاريِّ، عن العلاء بن خالد، عن شَقيقٍ، عن عبد الله، قوله[3].

وقولُه: ﴿يومئذٍ يتذكَّر الإنسانُ﴾، أي: عَمَله وما كان أسلَفَه في قديم دَهره وحَديثه، ﴿وأنّى له الذكرى﴾، أي: وكيف تنفعهُ الذكرى؟! ﴿يقول يا ليتني قدَّمتُ لحياتي﴾، يعني يندمُ على ما كان سَلَف منه من المعاصي ـ إن كان عاصياً ـ ويَوَدُّ لو كان ازداد من الطاعاتِ ـ إن كان طائعاً ـ كما قال الإمام أحمدُ بن حنبل:

حدَّثنا علي بن إسحاق، حدَّثنا عبد الله ـ يعني ابنَ المبارك ـ حدَّثنا ثورُ بن يزيدَ، عن خالد بن مَعْدان، عن جُبَير بن نُفَير، عن محمد بن أبي عَميرةَ ـ وكان من أصحابِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «لو أن عبداً خرَّ على وَجْهه من يوم وُلِد إلى أن يَموت[3] في طاعة الله لَحَقِرَه يومَ القيامة، ولَوَدَّ أنه يُرَدُّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب»[4].

(١) انظر تفسير الآية ٩٩ من سورة الإسراء.
(٢) مسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٤، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة جهنم ١٠/٤٣ ـ ٤٤ وتفسير الطبري ٣٠/١٨٨
(٣) في المسند. إلى أن يموت هَرِماً.
(٤) مسند الإمام أحمد ٤/١٨٥.

[(١) - ورواه بحيرُ بنُ سَعد، عن خالد بن معْدان، عن عتبة بن عبد، عن رسول الله ﷺ (١)]

قال الله تعالى: ﴿فيومئذٍ لا يُعذِّب عذابَه أحَدٌ﴾، أي: ليس أحدٌ أشدَّ عذاباً من تعذيب الله من عَصاه، ﴿ولا يُوثِق وثاقَه أحد﴾، أي: وليس أحدٌ أشدَّ قبضاً ووَثْقاً من الزبانية لمن كفر بربِّهم عزَّ وجلَّ، هذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين، فأما النفسُ الزكيَّةُ المُطمئنَّةُ وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحقِّ فيقال لها: ﴿يا أيتها النفسُ المطمئنة * ارجعي إلى ربِّك﴾، أي: إلى جواره وثوابه وما أعدَّ لعباده في جنته، ﴿راضيةً﴾، أي: في نفسها ﴿مَرْضيَّةً﴾، أي: قد رضيت عن الله ورَضي عنها وأرضاها، ﴿فادخُلي في عبادي﴾، أي: في جُملتهم، ﴿وادخلي جنتي﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يُبشِّرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، وكذلك ها هنا.

ثم اختلف المفسِّرون فيمن نزلت هذه الآية. فروى الضحَّاك، عن ابن عباس: نَزَلت في عثمانَ بن عفَّان. وعن بُرَيدة بن الحُصَيب: نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وقال العَوفي، عن ابن عباس: يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة: ﴿يا أيتها النفسُ المطمئنة * ارجعي إلى ربِّك﴾، يعني صاحبك، وهو بَدنُها الذي كانت تعمُره في الدنيا ﴿راضيةً مرضيَّةً﴾.

ورُوي عنه أنه كان يَقرؤها(٢): ﴿فادخلي في عَبْدي وادخلي جنَّتي﴾. وكذا قال عكرمةُ والكلبيُّ، واختاره ابنُ جرير(٢)، وهو غريب، والظاهر الأول لقوله: ﴿ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ﴾، ﴿وأن مَرَدَّنا إلى الله﴾، أي: إلى حكمه والوقوف بين يديه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكيُّ، حدَّثني أبي، عن أبيه، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيتها النفسُ المطمئنة * ارجعي إلى ربِّك راضيةً مَرْضيَّةً﴾، قال: نزلت وأبو بكر جالسٌ، فقال: يا رسول الله، ما أحسنَ هذا! فقال: «أما إنه سيُقال لك هذا».

ثم قال: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا ابنُ يمان، عن أشعث، عن سعيد بن جُبَير قال: قرأتُ عند النبي - ﷺ -: ﴿يا أيتها النفسُ المطمئنة * ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيةً﴾، فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: إن هذا لَحَسَنٌ! فقال له النبي - ﷺ -: «أما إن المَلَكَ سيقول لك هذا عند الموت».

وكذا رواه ابنُ جرير، عن أبي كُرَيب، عن ابن يَمان، به. وهذا مرسل حسن(٣).

ثم قال ابن أبي حاتم: وحدَّثنا الحسنُ بن عرفة، حدَّثنا مَروان بن شُجاع الجَزريُّ، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جُبَير قال: مات ابنُ عباس بالطائف، فجاء طيرٌ لم يُرَ على خَلْقه، فدخل نَعْشَه، ثم لم يُرَ خارجاً منه، فلما دُفن تُليت هذه الآية على شَفير القبر، لا يُدرى مَن تلاها: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيةً * فادخلي في عبادي وادخلي جنَّتي﴾.

(١ - ١) ساقط من بعض النسخ. وفي مخطوطة الأزهر: «وقال» وبعده بياض «عن خالد بن معدان». وانظر الحديث أيضاً في المسند ١٨٥/٤

(٢) تفسير الطبري ١٩٢/٣٠ - ١٩٣

(٣) تفسير الطبري ١٩١/٣٠

رَوَاه الطَّبَرانِي عن عبد الله بن أحمد، عن أبيه، عن مَرْوَانَ بن شجاعٍ، عن سالم بن عجلانَ الأفطسِ، به فذكره(١).

وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهرويُّ ـ المعروف بشَكَّرَ ـ في كتاب العجائب بسنده عن فُنَاث بن رَزِين أبي هاشم قال. أُسِرتُ في بلاد الروم، فجمعنا المَلِكُ وعَرَضَ علينا دينَه، على أنَّ من امتنع ضُرِبت عنقُه. فارتدَّ ثلاثةٌ، وجاء الرابع فامتنعَ، فَضُرِبت عنقه، وأُلقِي رأسُه في نهر هناك، فَرَسب في الماء ثم طَفَا على وجه الماء، ونَظَر إلى أولئك الثلاثة فقال: يا فلانُ، ويا فلانُ، ويا فلان ـ يُناديهم بأسمائهم ـ قال الله تعالى في كتابه: ﴿يا أيتها النفسُ المطمئنة * ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيةً * فادخُلي في عبادي وأدخُلي جَنَّتي﴾. ثم غاص في الماء، قال: فكادت النصارى أن يُسلِمُوا، وَوَقع سَرِيرُ المُلكِ، ورجَعَ أولئك الثلاثة إلى الإسلام ـ قال: وجاء الفداء من عند الخليفة أبي جَعفرٍ المنصُور فَخَلَصنا.

وروى الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمة رَوَاحةَ بنت أبي عمرو الأَوْزَاعي، عن أبيها: حَدَّثني سليمان بن حَبيب المُحاربي، حدَّثني أبو أُمامة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لرجلٍ: «قُل: اللهُمَّ، إني أسألك نفساً بك مُطْمَئِنَّةً، تُؤمِن بلقائك، وترضَى بقَضائك، وتقنَع بعطائك».

ثم رَوَى عن أبي سليمان بن زَبْر أنه قال: حَدِيث رواحةَ هذا واحدُ أُمِّه(٢).

آخرُ تفسيرِ سُورَةِ الفَجْرِ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ

(١) أخرجه في المعجم الكبير ١٠/٢٩٠
(٢) أي. لا مِثْلَ له ولا نَظِيرَ

تفسيرُ

سُورَةُ البَلَدِ

وهي مكيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾

هذا قسمٌ من الله ـ عزّ وجلّ ـ بمكّة أمِّ القُرى في حالِ كونِ الساكنِ فيها حَلالاً؛ لينبه على عَظَمة قَدرها في حال إحرام أهلها.

قال خُصَيف، عن مجاهد ﴿لا أُقسِم بهذا البلدِ﴾: لا: ردٌّ عليهم، أُقسِم بهذا البلد.

وقال شَبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لا أُقسِم بهذا البلدِ﴾، يعني مَكّةَ، ﴿وأنت حِلٌّ بهذا البَلَدِ﴾، قال: أنت ـ يا محمد ـ يحل لك أن تُقاتِل به. وكذا رُوِي عن سعيد بن جُبَير، وأبي صالح، وعطية، والضحّاك، وقتادَة، والسُّدّي، وابنِ زيد.

وقال مجاهد: ما أصبتَ فيه فهو حلالٌ لك. وقال قتادة: ﴿وأنت حِلٌّ بهذا البلدِ﴾، قال: أنت به من غير حَرَجٍ ولا إثم. وقال الحسنُ البصريُّ: أحلَّها الله له ساعةً من نهار.

وهذا المعنى الذي قالوه قد وَرَد به الحديثُ المُتَّفقُ على صِحّته: «إن هذا البلد حَرّمه الله يوم خَلَق السموات والأرض، فهو حَرام بِحُرمَة الله إلى يومِ القيامة، لا يُعضَد شَجَرُه ولا يُختَلى خلاه، وإنما أحلت لي

ساعة من نهار، وقد عادت حُرمتُها اليوم كحُرمتها بالأمس، ألا فَلْيُبلِّغ الشاهدُ الغائبَ». وفي لفظ: «فإنْ أحدٌ ترخَّص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذِن لرسُوله ولم يأْذَن لكم»[1].

وقولُه: ﴿ووالِدٍ وما وَلَد﴾، قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُريب، حدثنا ابنُ عطيةَ، عن شَريكٍ، عن خُصَيفٍ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ووالِدٍ وما وَلَد﴾، الوالدُ: الذي يَلِدُ، وما وَلَد: العاقر الذي لا يولد له[2].

ورواهُ ابنُ أبي حاتم، من حديث شَريك ـ وهو ابن عبد الله القاضي ـ به. وقال عِكْرِمةُ: الوالِدُ: العاقِرُ، وما ولد: الذي يَلِدُ. رواه ابن أبي حاتم. وقال مُجاهدٌ، وأبو صالح، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وسُفيان الثوريُّ، وسعيد بن جُبير، والسُّدي، والحسنُ البصريُّ، وخُصَيف، وشُرحبيل بنُ سعد، وغيرهم: يعني بالوالد آدمَ، وما وَلَد ولدَه.

وهذا الذي ذَهَب إليه مجاهدٌ وأصحابُه حَسَنٌ قوي؛ لأنه تعالى لما أقسم بأمِّ القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن، وهو آدم أبو البشر وولدُه.

وقال أبو عِمْرانَ الجَوْنيُّ: هو إبراهيم وذُرِّيته. رواهُ ابن جَرير، وابن أبي حاتم. واختار ابن جرير أنه عامٌّ في كل والدٍ وَوَلَدِه. وهو مُحتَمِلٌ أيضاً.

وقولُه: ﴿لقد خلقنا الإنسانَ في كَبَدٍ﴾: رُوِي عن ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمةَ، ومجاهدٍ، وإبراهيم النَّخعي، وخَيْثَمة، والضحَّاكِ، وغيرِهم: يعني مُنتصِباً ـ زاد ابن عباس في رواية عنه ـ في بطن أمِّه.

والكَبَدُ: الاستواءُ والاستقامةُ. ومعنى هذا القول: لقد خلقنا الإنسان سَوِيًّا مُستقيماً كقوله: ﴿يا أيها الإنسانُ ما غرَّك بربِّك الكريم * الذي خلقك فسوَّاك فعَدَلك﴾، وكقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسانَ في أحسَنِ تقويم﴾.

وقال ابنُ جُريج، عن عطاءٍ، عن ابن عباس: ﴿في كَبَدٍ﴾ قال: في شدَّةِ خَلْقٍ، ألم تر إليه. وذكر مَوْلِدَه ونبات أسنانه[3].

وقال مجاهدٌ: ﴿في كَبَدٍ﴾: نُطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، يتكبَّد في الخلق، قال مجاهد: وهو كقوله: ﴿حملته أمه كُرهاً ووَضعته كرهاً﴾، وأرضعته كُرهاً، ومعيشتُه كرهٌ، فهو يُكابِدُ ذلك.

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿لقد خلقنا الإنسانَ في كَبَدٍ﴾: في شِدَّةٍ وطَلَبِ معيشةٍ. وقال عِكْرِمةُ: في شِدَّةٍ وطُولٍ. وقال قتادة: في مشقَّةٍ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عِصَام، حدَّثنا أبو عاصم، أخبرنا عبدُ الحميد بنُ جعفر، سَمِعتُ محمد بن علي أبا جعفر الباقرَ سأل رَجُلاً من الأنصار عن قول الله: ﴿لقد خلقنا الإنسانَ في كَبَدٍ﴾، قال: في قيامِه واعتدالِه. فلم يُنكِر عليه أبو جعفر.

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه وشرح غريبه عند تفسير الآية ١٢٦، ١٩١ من سورة البقرة. وانظر تفسير الآية ٩٧ من سورة آل عمران، ٣٦ من سورة التوبة، ٩١ من سورة النحل.

(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٩٥.

(٣) تفسير الطبري ٣٠/١٩٧.

وروى من طريق أبي مودودٍ: سمعتُ الحسن قرأ هذه الآية: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبدٍ﴾، قال: يُكابِدُ أمراً من أمر الدنيا، وأمراً من أمر الآخرة. وفي روايةٍ: يُكابدُ مضايق الدنيا وشدائد الآخرة. وقال ابنُ زيد: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبدٍ﴾، قال: آدمُ خُلق في السماء، فسُمّي ذلك الكبد. واختار ابنُ جريرٍ أن المراد بذلك مكابدةُ الأمور ومشاقُّها.

وقوله: ﴿أيحسبُ أن لن يقدر عليه أحدٌ﴾، قال الحسن البصري: يعني ﴿أيحسبُ أن لن يقدر عليه أحدٌ﴾ يأخذ ماله.

وقال قتادةُ: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحدٌ﴾، قال: ابنُ آدم يظنُّ أن لن يُسأل عن هذا المال: مِن أين كسبه؟ وأين أنفقه؟ وقال السُّدّي: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحدٌ﴾، قال: الله عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿يقول أهلكتُ مالاً لُبداً﴾، أي: يقول ابنُ آدم: أنفقتُ مالاً لُبداً، أي: كثيراً. قاله مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، والسُّدّي، وغيرُهم.

﴿أيحسبُ أن لم يره أحدٌ﴾، قال مجاهدٌ: أي: أيحسبُ أن لم يره الله عزَّ وجلَّ. وكذا قال غيرُه من السَّلف.

وقولُه: ﴿ألم نجعل له عينين﴾، أي: يُبصرُ بهما. ﴿ولساناً﴾، أي: ينطقُ به، فيُعبِّر عما في ضميره، ﴿وشفتين﴾ يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه.

وقد روى الحافظ ابنُ عساكر في ترجمة أبي الربيع الدِّمشقي، عن مكحولٍ قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «يقولُ الله تعالى: يا ابن آدم، قد أنعمتُ عليك نعماً عظاماً لا تُحصي عددها ولا تُطيق شُكرها، وإنَّ مما أنعمتُ عليك أن جعلتُ لك عينين تنظُر بهما، وجعلت لهما غِطاءً، فانظر بعينيك إلى ما أحللتُ لك، وإن رأيت ما حَرَّمت عليك فأطبِق عليهما غطاءهما. وجعلتُ لك لساناً، وجعلتُ له غلافاً، فانطق بما أمرتُك وأحللتُ لك، فإن عرض لك ما حرَّمت عليك فأغلِق عليك لسانك. وجعلت لك فَرْجاً، وجعلت لك ستراً، فأصب بفرجك ما أحللتُ لك، فإن عرض لك ما حرَّمت عليك فأرخ عليك سِتْرَك. يا ابن آدم، إنك لا تحمل سَخطي، ولا تُطيق انتقامي»[1].

﴿وهديناه النَّجدين﴾، قال سفيانُ الثَّوري، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله ـ هو ابنُ مسعود ـ: ﴿وهديناه النجدين﴾، قال: الخير والشرّ. وكذا رُوي عن عليٍّ، وابن عباسٍ، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، وأبي وائلٍ، وأبي صالحٍ، ومحمد بن كعبٍ، والضَّحَّاك، وعطاءٍ الخُراساني في آخرين.

وقال عبدُ الله بن وهبٍ: أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سِنانِ بن سَعد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «هما نجدان، فما جعل نجد الشرِّ أحبَّ إليكم من نَجْدِ الخير»[2].

تفرَّد به سنانُ بن سعد ـ ويقال: سعد بن سنانٍ ـ وقد وثّقه ابن معين. وقال الإمام أحمدُ والنسائي والجُوزجاني: منكر الحديث. وقال أحمدُ: تركتُ حديثه لاضطرابه. ورَوى خمسةَ عشرَ حديثاً منكرةً كلُّها، ما أعرفُ منها حديثاً واحداً، يشبهُ حديثه حديثَ الحسن ـ يعني البصريَّ ـ لا يُشبه حديثَ أنس[3].

---

(١) الدر المنثور عن ابن عساكر ٨/٥٢١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٨/٥٢٢.
(٣) انظر تهذيب الكمال ١٠/٢٦٧.

وقال ابنُ جرير: حدَّثني يعقوبُ، حدَّثنا ابن عُلَيَّةَ، عن أبي رجاءٍ قال: سمعتُ الحسنَ يقول: ﴿وهديناه النَّجدين﴾، قال: ذُكِر لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ كان يقولُ: «يا أيُّها النَّاسُ، إنهما النجدانِ، نجدُ الخيرِ ونجدُ الشرِ، فما جُعِلَ نَجدُ الشرِّ أحبَّ إليكم من نجد الخير».

وكذا رواه حَبيبُ بن الشَّهيد، ويونُسُ بن عُبَيْد، وأبو وَهب، عن الحسن مُرسلاً. وهكذا أرسله قتادةُ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عصام الأنصاريُّ، حدَّثنا أبو أحمد الزُّبَيريُّ، حدَّثنا عيسى بن عِقَالٍ، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وهديناهُ النَّجدَيْنِ﴾، قال: الثَّديَين.

ورُوِيَ عن الربيع بن خُثَيم، وقتادة، وأبي حازم، مثلُ ذلك. ورواهُ ابنُ جَريرٍ عن أبي كُرَيب، عن وَكيع عن عيسى بن عِقَال، به ثم قال: والصواب القول الأول[1].

ونظيرُ هذه الآية قولُه: ﴿إنا خلقنا الإنسانَ من نُطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناهُ سَميعاً بَصيراً * إنا هديناهُ السبيلَ إمَّا شاكراً وإمَّا كَفُوراً﴾.

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾

قال ابنُ جَرير: حدَّثني عُمَرُ بن إسمعيل بن مُجالد، حدَّثنا عبدُ الله بن إدريسَ، عن أبيه، عن عَطِيَّةَ، عن ابن عُمَر في قوله: ﴿فلا اقتَحم العقَبَةَ﴾، قال: جَبَلٌ في جَهَنَّم آزَلُ[2].

وقال كعب الأحبار: ﴿فلا اقتحم العَقَبة﴾، هو سبعون درجةً في جهنَّم. وقال الحسن البصري: ﴿فلا اقتحم العَقَبةَ﴾، قال: عقبةٌ في جَهَنَّم. وقال قتادةُ: إنها قُحْمَةٌ[3] شديدةٌ فاقتحِمُوها بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ. وقال قتادة في قوله: ﴿وما أدراك ما العقبةُ﴾، ثم أخبر عن اقتحامها فقال: ﴿فكُّ رقبةٍ * أو إطعامٌ﴾.

وقال ابنُ زيدٍ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَة﴾، أي: أفلا سَلَك الطريقَ التي فيها النجاةُ والخير؟! ثم بيَّنه فقال: ﴿وما أدراك ما العقبة * فكُّ رقبة * أو إطعامٌ﴾.

قُرِىء ﴿فكُّ رقبةٍ﴾ بالإضافة، وقُرِىء على أنه فِعلٌ، وفيه ضميرُ الفاعِل، والرقبةُ[4] مفعولُه. وكلتا القراءتين معناهما متقارِبٌ.

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا علي بن إبراهيم، حدَّثنا عبدُ الله ـ يعني ابن سعيد بن أبي هند ـ عن إسماعيلَ بن أبي حكيم ـ مولى آل الزُّبير ـ عن سعيدِ بن مَرجانَةَ: أنه سَمِعَ أبا هُرَيْرَةَ يقول: قال رسولُ

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٠١.

(٢) كذا في نسختنا، وليست هذه الكلمة وأزلّ ثابتةً في تفسير الطبري ٣٠/٢٠٢، ولعلّ الصواب ما رسمناها به وتكون وصفاً من أزل المكان يأزِل أزْلاً: إذا ضاق.

(٣) القُحْمة: الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحدٌ.

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿فَكَّ رقبةً * أو أَطْعَمَ﴾ انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٨١٢.

الله - ﷺ - «من أعتق رقبةً مؤمنةً أعتقَ الله بكل إِرْبٍ[1] منها إرْباً منه من النار، حتى إنه لَيُعتِقُ باليدِ اليدَ، وبالرجل الرجلَ، وبالفرج الفرجَ». فقال عليُّ بنُ الحُسين: أنتَ سَمعتَ هذا من أبي هُرَيْرة؟ فقال سعيدٌ: نعم. فقال علي بن الحسين لغلامٍ له أفرَه[2] غلمانه: ادعُ مِطْرَفاً. فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حُرٌّ لِوَجْهِ الله[3].

وقد رواه البخاريُّ ومسلم والترمذي والنسائي، من طُرُق، عن سعيد بن مَرجانة، به. وعند مُسلمٍ أن هذا الغلام الذي أعتقه عليُّ بن الحسين زينُ العابدين كان قد أُعطي فيه عشرة آلاف درهمٍ[3].

وقال قتادةُ، عن سالم بن أبي الجَعد، عن مَعْدان بن أبي طلحة، عن أبي نَجيح قال: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «أيُّما مُسلمٍ أعتقَ رجُلاً مُسلماً فإن الله جاعلٌ وِقاءَ كلِّ عَظْمٍ من عظامِه عَظْماً من عِظام مُحرِّره من النار، وأيُّما امرأة مُسلِمَة أعتقت امرأة مسلمةً فإن الله جاعل وِقاء كلِّ عظم من عظامِها عظماً من عظامها من النار».

رواه ابنُ جرير هكذا[4]. وأبو نَجيح هذا هو عمرو بن عَبَسة السُّلَميُّ، رضي الله عنه.

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا حيوةُ بن شُرَيح، حدَّثنا بقيَّةُ، حدَّثني بَحير بن سَعدٍ، عن خالد بن مَعْدان، عن كثير بن مُرَّة، عن عمرو بن عَبَسَة: أنه حدَّثهم: أن النبيَّ - ﷺ - قال: «من بَنى مَسجداً لِيُذكَر اللهُ فيه بَنَى الله له بيتاً في الجنة. ومن أعتقَ نفساً مُسلمةً كانت فديتَه من جهنَّم. ومن شاب شيبةً في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[5].

طريق أخرى، قال أحمد: حدَّثنا الحكم بن نافع، حدَّثنا حَريز، عن سُليم بن عامر. أن شُرَحْبيل بن السِّمط قال لِعَمْرو بن عَبَسة: حَدِّثنا حديثاً ليس فيه تَزَيُّدٌ ولا نِسْيَانٌ. قال عمرو: سَمِعت رسولَ الله - ﷺ - يقول: «من أعتق رقبةً مُسلمةً كانت فكاكه من النار، عُضواً بِعُضوٍ. ومن شاب شيبةً في سبيل الله كانت له نُوراً يوم القيامة. ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ كان كمُعتِقِ رقبةٍ من بني إسماعيل»[6].

وَروى أبو داود، والنسائيُّ بعضه[6].

طريقٌ أخرى، قال أحمدُ: حدَّثنا هاشمُ بن القاسم، حدَّثنا الفَرَجُ، حدَّثنا لقمانُ، عن أبي أُمامَة، عن عَمْرو بن عبسة السُّلَميِّ، قلت له: حَدِّثنا حديثاً سمعتَه من رَسُول الله - ﷺ - ليس فيه انتقاصٌ ولا وَهْم. قال: سَمِعتُه يقول: «من وُلد له ثلاثة أولادٍ في الإسلام فماتُوا قبل أن يبلُغوا الحِنْثَ، أدخله الله الجنةَ بِفَضْلِ رحمته إياهم. ومن شاب شيبةً في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رَمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدوَّ،

---

(١) الإرْبُ: العُضو.

(٢) فَرُهَ فراهة وفَرُوهَةً: حَذِقَ وحَسُن، وخفَّ ونشط، وحذق ومهر.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤٢٢/٢، وفتح الباري، كتاب الكفارات ٥٩٩/١١، ومسلم، كتاب العتق ١١٤٧/٢ - ١١٤٨، وعارضة الأحوذي، أبواب النذور ٢٤/٧ - ٢٦. وأخرجه النسائي في كتاب العتق من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٥٠٥/٩. وأخرجه أبو داود في كتاب العتق ٢٩/٤ - ٣٠.

(٤) تفسير الطبري ٢٠٢/٣٠.

(٥) مسند الإمام أحمد ٣٨٦/٤.

(٦) مسند الإمام أحمد ١١٣/٤، وسنن أبي داود، كتاب العتق ٣٠/٤. وأخرجه النسائي في كتاب العتق من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٦٠/٨.

أصابَ أو أخطأ، كان له عِتقُ رَقبةٍ. ومن أعتق رَقبةً مؤمنةً أعتق الله بكلِّ عُضوٍ منه عضواً منه من النار، ومن أعتق زَوْجين في سبيل الله فإنَّ للجنة ثمانيةَ أبوابٍ يُدخِلُه الله من أيِّ بابٍ شاء منها»[1].

وهذه أسانيدُ جَيِّدةٌ قويةٌ، ولله الحمد.

حديث آخر، قال أبو داود. حدَّثنا عيسى بن محمد الرَّملي، حدَّثنا ضَمْرَة، عن ابن أبي عَبلة، عن الغَريف بن الدَّيلمي قال: أتينا واثلة بن الأسقَع فقلنا له: حَدِّثنا حديثاً ليس فيه زيادةٌ ولا نُقصانٌ. فغضب وقال: إنّ أحدَكم ليقرأ ومصحفُه مُعلَّقٌ في بيته، فيَزيد وينقُص. قلنا. إنما أردنا حديثاً سمِعتَه من رسول الله ﷺ. قال أتينا رسولَ الله ـ ﷺ ـ في صاحبٍ لنا قد أوجَبَ ـ يعني النار ـ بالقتل، فقال: «أعتِقُوا عنه يُعتِقُ الله بكلِّ عضوٍ منه عُضواً منه من النار»[2].

وكذا رواه النَّسائي من حديث إبراهيم بن أبي عبلَة، عن الغَريف بن عيَّاش الدَّيلمي، عن واثلة، به[2].

حديث آخر، قال أحمد. حدَّثنا عبدُ الصمد، حدَّثنا هِشَام، عن قتادة، عن قيس الجُذامي، عن عقبة بن عامر الجُهَني أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «من أعتق رقبةً مسلمةً فهو فداؤه من النار»[3].

وحدَّثنا عبد الوهاب الخفاف، عن سَعيد، عن قتادة قال: ذُكر أن قيساً الجُذاميَّ حدَّث عن عُقْبة بن عامرٍ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «من أعتق رقبةً مُؤمنةً فهي فَكاكُه من النار»[4].

تفرَّد به أحمد من هذا الوجه.

حديث آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد قالا. حدَّثنا عيسى بن عبد الرحمن البَجَليُّ ـ من بني بَجيلَة ـ من بني سُلَيم ـ عن طلحة ـ قال أبو أحمد: حدَّثنا طلحةُ بن مُصرِّف ـ عن عبد الرحمن بن عوسَجَة، عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابيٌّ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، علِّمني عملاً يُدخِلني الجنة. فقال. «لئن كُنتَ أقصرتَ الخطبةَ لقد أعرضتَ المسألةَ، أعتقِ النَّسمة، وفُكَّ الرقبة» فقال يا رسولَ الله، أوَ ليستا بواحدةٍ؟ قال: «لا، إن عِتْقَ النَّسَمَةِ أن تفرد بعِتقِها، وفكَّ الرقبة أن تُعين في عُتقها. والمِنْحَةَ الوكوفَ[5]، والفيء على ذي الرحم الظالم؛ فإن لم تُطِق ذلك فأطعم الجائعَ، واسق الظمآن وأمُرْ بالمعروفِ وانْه عن المُنكَر، فإن لم تطق ذلك فكُفَّ لسانك إلا من الخير»[6].

وقولُه: ﴿أو إطعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبةٍ﴾ قال ابنُ عباس: ذي مَجاعةٍ. وكذا قال عِكْرمةُ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ. والسَّغَبُ: هو الجُوع. وقال إبراهيم النَّخعيُّ: في يومٍ الطعامُ فيه عزيزٌ. وقال قتادة: في يومٍ يُشتَهى فيه الطعامُ.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٣٨٦.

(٢) سنن أبي داود، كتاب العتق ٤/٢٩. وأخرجه النسائي في كتاب العتق من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٩/٧٩

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٥٠.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/١٤٧.

(٥) المِنْحَةُ: الدابة تُعيرها أخاك ينتفع بها زماناً ثم يردّها عليك. والوكوف من الوَكْف: الغزيرة اللبن.

(٦) مسند الإمام أحمد ٤/٢٩٩

وقوله ﴿يتيماً﴾، أي أطعم في مثل هذا اليوم يتيماً، ﴿ذا مقربة﴾، أي ذا قرابة منه. قاله ابنُ عباس، وعكْرِمةُ، والحسنُ، والضحَّاكُ، والسُّدِّي كما جاء في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ

حدثنا يزيدُ، أخبرنا هشامٌ، عن حفصة بنت سيرين، عن سلْمان بن عامر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول «الصدقةُ على المسكين صدقةٌ، وعلى ذي الرَّحم اثنتان، صدقة وصِلَةٌ»[1]

وقد رواه الترمذي والنسائيُّ، وهذا إسنادٌ صحيحٌ[1].

وقوله ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾، أي: فقيراً مُدقعاً لاصقاً بالتراب، وهو الدقعاء أيضاً

قال ابن عباس ﴿ذا متربة﴾ هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له، ولا شيء يقيه من التراب وفي رواية هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة، ليس له شيء وفي رواية عنه هو البعيدُ التُّربة قال ابن أبي حاتم يعني الغريب عن وطنه. وقال عكْرِمة: هو الفقير المديُون المحتاجُ. وقال سعيد بن جُبير هو الذي لا أحدَ له. وقال ابن عباس، وسعيدٌ، وقتادة، ومُقاتِل بن حيَّان هو ذُو العيال وكلُّ هذه قريبةُ المعنى

وقوله ﴿ثُمَّ كان من الذين آمنوا﴾، أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه، مُحتسِبٌ ثواب ذلك عند الله عزَّ وجلَّ. كما قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرةَ وسعى لها سعْيها وهو مؤمن فأولئكَ كان سعيهم مشكوراً﴾. وقال: ﴿مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾. . . الآية.

وقوله: ﴿وتواصوا بالصَّبر وتواصوا بالمرحمة﴾، أي. كان من المؤمنين العاملين صالحاً، المُتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمةِ بهم. كما جاء في الحديث «الراحمُون يرحَمُهم الرحمنُ، ارحمُوا مَن في الأرض يَرْحمْكُم من في السماء»[2]. وفي الحديث الآخر: «لا يرْحم الله مَن لا يَرْحمُ الناسَ»[3].

وقال أبو داود: حدَّثنا ابن أبي شَيْبَةَ، حدَّثنا سفيانُ، عن ابن أبي نَجيح، عن ابن عامرٍ، عن عبد الله بن عَمْرو يرويه، قال: «من لم يرحم صَغِيرنا ويَعرفْ حَقَّ كبيرنا فليس منا»[4].

وقوله: ﴿أولئك أصحابُ الميمنة﴾ أي. المُتَّصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين.

ثم قال ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحابُ المشأمة﴾، أي: أصحابُ الشمال، ﴿عليهم نار مُؤْصَدةٌ﴾، أي. مُطبقةٌ عليهم، فلا محيد لهم عنها، ولا خُروج لهم منها.

قال أبو هُريْرة، وابن عباس، وعِكْرِمةُ، وسعيد بن جُبير، ومجاهدٌ، ومحمد بن كعب القُرَظي، وعَطيَّة العوفيُّ، والحسنُ، وقتادةُ، والسُّدِّي ﴿مُؤْصدَةٌ﴾، أي مُطبقةٌ، قال ابنُ عباس: مُغلَقةُ الأبواب. وقال مجاهدٌ أصد الباب بلغة قريش: أي أغلقه. وسيأتي في ذلك حديثٌ في سورة: ﴿ويلٌ لكلِّ هُمزةٍ لُمَزَةٍ﴾.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢١٤/٤، وأخرجه الترمذي والنسائي في كتاب الزكاة، عارضة الأحوذي ١٦٠/٣ ١٦١، والنسائي ٩٢/٥.

(٢) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٢٢ من سورة محمد

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ١٨٠٩/٤، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير ٤١/٩.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الأدب ٢٨٦/٤

وقال الضحاك: ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾: حيط[1] لا بابٌ له. وقال قتادة: ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾: مُطبَقةٌ فلا ضوء فيها ولا فُرَج، ولا خُروج منها آخر الأبد.

وقال أبو عمران الجَوْنيُّ: إذا كان يومُ القيامة أمَرَ الله بكلِّ جبارٍ وكلِّ شيطانٍ وكلِّ مَن كان يَخافُ الناسُ في الدنيا شرَّه، فأُوثِقُوا في الحديد، ثم أمر بهم إلى جَهَنَّم، ثم أوصَدُوها عليهم ـ أي: أطبَقوها ـ قال: فلا والله لا تَستَقِرُّ أقدامهم على قَرارٍ أبداً، ولا والله لا يَنظُرون فيها إلى أديم سماءٍ أبداً، ولا والله لا تَلتقي جفونُ أعينهم على غَمْضِ نومٍ أبداً، ولا والله لا يَذُوقون فيها باردَ شرابٍ أبداً. رواه ابن أبي حاتم.

آخر تفسير سورة البلد، ولله الحمدُ والمنّةُ

---

(١) كذا، ولعلّ الصواب: حائط.

تفسير

سورة الشمس

وهي مكيَّةٌ

تقدَّم حديثُ جابرٍ الذي في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لمعاذٍ: «هلاَّ صلَّيتَ بـ ﴿سبِّح اسم ربِّك الأعلى﴾، و﴿والشمس وضُحَاها﴾، و﴿والليل إذا يَغْشى﴾؟».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠ ﴾

قال مجاهدٌ: ﴿والشمس وضُحاها﴾، أي: وَضَوْئِها. وقال قتادةُ: ﴿وضُحاها﴾، النهارُ كلُّه. قال ابنُ جرير: والصوابُ أن يُقال: أقسم الله بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهرَ النهارُ[1]. ﴿والقمر إذا تلاها﴾، قال مجاهدٌ: تبعها. وقال العوفيُّ، عن ابن عباسٍ: ﴿والقَمَرِ إذا تلاها﴾، قال: يتلُو النهارَ. وقال قتادةُ: ﴿إذا تلاها﴾ ليلة الهلال، إذا سقَطتِ الشمسُ رُؤِيَ الهلالُ. وقال ابنُ زيدٍ: هو يتلُوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلُوه وهو يتقدَّمها في النصفِ الأخيرِ من الشهر. وقال مالك، عن زيد بن أسلَمَ: ﴿إذا تلاها﴾ ليلةَ القدرِ.

وقوله: ﴿والنهار إذا جلَّاها﴾، قال مجاهدٌ: أضاءَ. وقال قتادةُ: ﴿والنهار إذا جَلَّاها﴾، إذا غَشِيها النهارُ

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٠٨

قال ابنُ جرير. وكان بعضُ أهلِ العربية يتأوَّل ذلك بمعنى: والنهار إذا جلَّى الظُّلمةَ، لدلالة الكلامِ عليها.

قلتُ: ولو أن هذا القائل تأول بمعنى ﴿والنهار إذا جلَّاها﴾، أي: البسيطةَ، لكان أولى ولصحَّ تأويلُه في قوله: ﴿والليل إذا يغْشاها﴾، فكان أجودَ وأقوى، والله أعلم. ولهذا قال مجاهد: ﴿والنهار إذا جلَّاها﴾ إنه كقوله: ﴿والنهار إذا تجلَّى﴾. وأما ابنُ جرير فاختار عودَ الضمير في ذلك كلِّه على الشمس، لجريان ذكرها وقالوا في قوله: ﴿والليل إذا يغشاها﴾، يعني إذا يغْشَى الشمسَ حين تغيبُ فتُظلِمُ الآفاقُ.

وقال بَقيَّةُ بن الوليد، عن صفوانَ، حدَّثني يزيد بن ذي حمامةَ قال: إذا جاء الليلُ قال الربُّ جلَّ جلالُه: غشِي عبادي خَلْقي العظيمُ، فالليلُ يَهابُه، والذي خَلقه أحقُّ أن يُهابَ. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُه: ﴿والسماءِ وما بناها﴾: يَحْتَمِل أن تكون «ما» هاهنا مصدريةً، بمعنى: والسماء وبنائِها، وهو قولُ قتادةَ. ويَحْتَمِل أن تكون بمعنى «مَن» يعني: والسماء وبانيها. وهو قولُ مجاهدٍ، وكلاهما متلازمٌ، والبناءُ هو الرفع، كقوله: ﴿والسماءَ بنيناها بأيدٍ﴾، أي: بقُوة، ﴿وإنا لَموسِعُون * والأرض فرشناها فنعم الماهدُون﴾.

وهكذا قولُه: ﴿والأرضِ وما طَحاها﴾، قال مجاهدٌ: ﴿وطحاها﴾ دَحَاها. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿وما طحاها﴾، أي: خلَق فيها. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿طَحَاها﴾ قَسَمها.

وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، والسُّدِّي، والثَّوري، وأبو صالح، وابنُ زيد: ﴿طحاها﴾: بَسَطها. وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثرُ من المفسِّرين، وهو المعروفُ عند أهل اللغة، قال الجوهريُّ: طَحَوته مثل دَحَوتُه، أي: بسطتُه.

وقولُه: ﴿ونفسٍ وما سوَّاها﴾، أي: خلقها سويَّةً مستقيمةً على الفطرةِ القويمةِ، كما قال تعالى: ﴿فأقِم وجْهكَ للدين حنيفاً فطرةَ الله التي فطَر الناس عليها لا تبديلَ لخَلْقِ الله﴾. وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ مولود يُولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه، كما تُولَدُ البهيمةُ بهيمةً جَمعاء هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء؟». أخرجاه من رواية أبي هُرَيرة[1].

وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حِمار المُجاشِعي، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله عزَّ وجلَّ: إني خلقتُ عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم»[2].

وقولُه: ﴿فألْهَمَها فُجُورَها وتَقْواها﴾، أي: فأرشَدها إلى فُجُورها وتقواها، أي: بيَّن لها ذلك، وهداها إلى ما قُدِّر لها. قال ابن عباس: ﴿فألهمها فُجُورها وتَقْواها﴾: بيَّن لها الخيرَ والشرَّ. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، والضَّحَّاكُ، والثوريُّ. وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخيرَ والشرَّ، وقال ابنُ زيد: جعل فيها فُجُورها وتَقْواها.

وقال ابنُ جرير: حَدَّثنا ابنُ بَشَّار، حدَّثنا صفوانُ بن عيسى وأبو عاصم النبيل قالا: حدَّثنا عَزْرَةُ بن ثابت، حدَّثني يحيى بن عَقِيل، عن يحيى بن يعمَر، عن أبي الأسود الدِّيلي قال: قال لي عمران بن حُصَين: أرأيتَ ما يعمَلُ فيه الناسُ ويتكادَحُون فيه، أشيءٌ قُضِي عليهم ومَضَى عليهم من قَدَرٍ قد سَبَق، أو فيما يُستَقبَلُون مما أتاهم به نبيُّهم ـ ﷺ ـ وأكدت عليهم الحجَّة؟ قلت: بل شيءٌ قُضِي عليهم. قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزِعتُ منه فزعاً شديداً، قال: قلت له: ليس شيءٌ إلا وهو خلقُه ومِلْكُ يدِه، لا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون،

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه وشرح غريبه عند تفسير الآية ١١٩ من سورة النساء، ٧٩ من سورة الأنعام، ٣٠، ١٠٢، ١٧٢ من سورة الأعراف، ١٧ من سورة هود، ١٥ من سورة الإسراء، ٣٠ من سورة الروم، ٣ من سورة الإنسان.

(٢) تقدم كذلك عند تفسير الآية ١٥ من سورة الإسراء، ١٥ من سورة الروم.

قال: سدَّدك الله، إنما سألتُ لأحزر عقلك، إنَّ رجلاً من مُزينة ـ أو جُهينة ـ أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحُون، أشيء قُضِي عليهم ومضى عليهم من قَدر قد سَبَق، أم شيء مما يستقبلُون مما أتاهم به نبيُّهم وأُكِّدتَ به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قد قُضِي عليهم». قال: ففيم نعملُ؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يُهَيِّئُه لها، وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿ونفسٍ وما سوَّاها * فألهمها فُجُورَها وتقواها﴾»[1].

رواه أحمد ومسلم، من حديث عَزْرَة بن ثابت، به[1].

وقولُه: ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسَّاها﴾ يحتملُ أن يكون المعنى: قد أفلح من زكّى نفسَه، أي: بطاعة الله ـ كما قال قتادة ـ وطهَّرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. ويُروى نحوُه عن مجاهدٍ، وعِكْرمة، وسعيد بن جُبير. وكقوله: ﴿قد أفلح من تزكَّى * وذكر اسم ربِّه فصلَّى﴾.

﴿وقد خاب من دسَّاها﴾، أي: دسَّسها، أي: أخملها ووضع منها بخِذْلانه إيّاها عن الهُدى، حتى رَكِب المعاصي، وترك طاعة الله عزَّ وجلَّ. وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكَّى اللهُ نفسه، وقد خاب من دَسَّى الله نَفْسَه، كما قال العوْفيُّ وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي وأبو زُرعة قالا: حدَّثنا سهلُ بن عثمان، حدَّثنا أبو مالك ـ يعني عَمْرو[2] بن هاشم ـ عن جُويبر، عن الضحَّاك، عن ابن عباس قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ في قول الله: ﴿قد أفلح من زكَّاها﴾، قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أفلحت نفسٌ زكَّاها الله».

ورواه ابنُ أبي حاتم من حديث أبي مالك، به. وجُويبر هو ابن سعيد، متروكُ الحديث، والضحَّاك لم يلق ابن عباس.

وقال الطبراني: حدَّثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابنُ لهيعة، عن عَمْرو بن دينار، عن ابن عباس قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا مرَّ بهذه الآية: ﴿ونفسٍ وما سوَّاها * فألهمها فُجُورَها وتقواها﴾، وقف، ثم قال: «اللهم آتِ نفسي تقواها، أنت وليُّها ومولاها، وخير من زكَّاها»[3].

حديثٌ آخر: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعة، حدَّثنا يعقوبُ بن حُمَيد المدنيُّ، حدَّثنا عبد الله بن عبد الله الأُمويُّ، حدَّثنا معنُ بن محمد الغِفاريُّ، عن حنظلة بن علي الأسلميِّ، عن أبي هُرَيْرة قال: سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقرأ: ﴿فألهمها فُجُورها وتقواها﴾، قال: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها». لم يُخَرِّجوه من هذا الوجه.

وقال الإمامُ أحمد: حدَّثنا وكيعٌ، عن نافع بن عُمر، عن صالح بن سَعيد، عن عائشة: أنها فَقَدت النبيَّ ـ ﷺ ـ من مضجعه، فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجدٌ، وهو يقولُ: «ربِّ، أعطِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومَوْلاها»[4]. تفرَّد به.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢١١، ومسند الإمام أحمد ٤/٤٣٨، ومسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٤١ـ٢٠٤٢.
(٢) في النسخ: يعني عمرو بن الحرث عن عمر بن هشام، وانظر ترجمة أبي مالك عمرو بن هاشم الجَنْبي في الجرح والتعديل ٦/٢٦٧ وترجمة جويبر بن سعيد الأزدي في تهذيب الكمال ٥/١٦٨.
(٣) أخرجه في المعجم الكبير ١١/١٠٦.
(٤) مسند الإمام أحمد ٦/٢٠٩.

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عفّان، حدَّثنا عبدُ الواحد بن زياد، حدَّثنا عاصمُ الأحولُ، عن عبد الله بن الحارث، عن زيد بن أرقم قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: «اللهُمَّ، إني أعوذ بك من العَجْز والكسل والهرم، والجُبن والبُخل وعذابِ القبر. اللهُمَّ، آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكّاها، أنت وليُّها ومولاها. اللهُمَّ، إني أعوذ بك من قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تَشْبَعُ، وعلمٍ لا ينفعُ، ودعوةٍ لا يُستجابُ لها». قال زيدٌ: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُعَلِّمُناهُنَّ ونحن نُعلِّمُكُوهُنَّ[1].

رواه مسلمٌ من حديث أبي مُعاوية، عن عاصم الأحولِ، عن عبد الله بن الحارث ـ وأبي عثمان النَّهديِّ، عن زيد بن أرقم، به[1].

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عن ثمودَ أنهم كذّبوا رُسُلَهم بسبب ما كانوا عليه من الطُّغيان والبَغي. وقال محمد بن كعب: ﴿بِطَغْوَاهَا﴾، أي: بأجمَعِها. والأول أولى، قاله مجاهدٌ، وقتادةُ، وغيرهما. فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولُهم من الهُدى واليقين.

﴿إذ انبعثَ أشقاها﴾، أي: أشقى القبيلةِ، وهو قُدار بنُ سالف عاقرُ الناقة، وهو أُحيمر ثمود، وهو الذي قال تعالى: ﴿فنادوا صاحِبَهم فتعاطى فعَقر * فكيف كان عذابي ونُذُر﴾. وكان هذا الرجلُ عزيزاً فيهم، شريفاً في قومه، نَسيباً رئيساً مُطاعاً، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا ابنُ نمير، حدَّثنا هشام، عن أبيه، عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال: خطب رسولُ الله ـ ﷺ ـ فذكر الناقةَ، وذكر الذي عَقرها، فقال: ﴿ إِذِ انبعثَ أشقاها﴾، انبعثَ لها رجلٌ عارمٌ عزيزٌ منيعٌ في رَهطِه، مثل أبي زَمْعَة[2].

وَرَواه البخاري في التفسير، ومُسلم في صفةِ النار، والترمذيُّ والنَّسائي في التفسير من سُننهما، وكذا ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، عن هشام بن عروة، به[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا إبراهيمُ بن موسى، حدَّثنا عيسى بن يونُس، حدَّثنا محمد بن إسحاق، حدَّثني يزيدُ بن محمد بن خُثَيم، عن محمد بن كعب القُرَظيِّ، عن محمد بن خُثَيم أبي يزيدَ، عن عمَّار بن ياسرٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لعليٍّ: «ألا أُحدِّثُك بأشقى الناس؟» قال: بلى. قال: «رَجُلان، أُحَيمِرُ ثمودَ الذي عَقَر الناقة، والذي يَضرِبُك يا عليُّ عَلَى هذا ـ يعني قَرْنَه ـ حتى تَبْتَلَّ منه هذه» يعني لِحْيَتَه.

وقولُه: ﴿فقال لهم رسولُ الله﴾: يعني: صالحاً ـ عليه السلام ـ ﴿ناقةَ الله﴾، أي: احذرُوا ناقةَ الله أن تَمَسُّوها بسُوءٍ ﴿وسُقياها﴾، أي: لا تَعتدُوا عليها في سُقياها، فإن لها شِربَ يومٍ ولكم شِربُ يومٍ معلومٍ.

قال الله: ﴿فكذَّبوه فعَقروها﴾، أي: كذَّبوه فيما جاءهم به فأعقبَهم ذلك أن عَقَرُوا الناقة التي أخرجها من

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٣٧١، ومسلم، كتاب الذكر ٤/٢٠٨٨.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/١٧، وفتح الباري، تفسير سورة ﴿والشمس وضحاها﴾ ٨/٧٠٥، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤/٢١٩١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة ﴿والشمس وضحاها﴾ ١٢/٢٤٤ ـ ٢٤٥، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير وعشرة النساء من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٤/٣٣٥، وتفسير الطبري ٣٠/٢١٤.

الصخرة آيةً لهم وحُجَّةً عليهم، ﴿فدمدم عليهم ربُّهم بذنبهم﴾، أي: غضب عليهم، فدمَّر عليهم، ﴿فسوَّاها﴾، أي: فجعل العُقوبة نازلةً عليهم على السواء.

قال قتادة: بلغنا أن أُحيمرَ ثمودَ لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرُهم وكبيرُهم، وذَكَرُهم وأُنثاهم، فلما اشترك القومُ في عَقْرها دمدم الله عليهم بذنبهم فسوَّاها.

وقولُه: ﴿ولا يخافُ عُقباها﴾. وقُرِئ: ﴿فلا يَخافُ عقباها﴾[1]. قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحَدٍ تبعةً. وكذا قال مجاهدٌ، والحسنُ، وبكر بن عبد الله المُزنيُّ، وغيرُهم. وقال الضحَّاك والسُّدِّي: ﴿ولا يخاف عقباها﴾، أي: لم يَخَفِ الذي عقرها عاقبةَ ما صَنَع[2].

والقولُ الأولُ أولى لدلالة السياقِ عليه، والله أعلم.

آخر تفسير «والشمس وضحاها» ولله الحمدُ والمنَّةُ

---

(١) قرأ بالفاء نافع وابن عامر. انظر الإقناع لابن الباذش ٨١٣/٢، وتفسير الطبري ٢١٦/٣٠.

(٢) أخرجه الطبري ٢١٥/٣٠ - ٢١٦.

تفسير

سُورَةُ الليل

وهي مكيّةٌ

تَقدَّم قولُه ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ لمعاذٍ: «فهلاَّ صلَّيت بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى﴾، و﴿الشمسِ وضُحَاها﴾، و﴿الليلِ إذا يَغْشَى﴾»؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ ﴾

قال الإمامُ أحمد: حدَّثنا يزيدُ بن هارونَ، حدَّثنا شعبةُ، عن مُغيرة، عن إبراهيم، عن علْقمةَ: أنه قَدِم الشام فدخلَ مَسجدَ دِمَشْق، فصلى فيه ركعتَين وقال: اللهُمَّ، ارزقني جليساً صالحاً. قال: فجلس إلى أبي الدَّرداءِ، فقال له أبو الدَّرداء: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة. قال: كيف سَمِعت ابن أُمِّ عبدٍ يقرأ ﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى﴾؟ قال علقمةُ: ﴿والذكر والأنثى﴾، فقال أبو الدرداء: لقد سَمِعتُها من رسول الله ـ ﷺ ـ فما زَال هؤلاء حتى شكَّكوني. ثم قال: ألم يكُن فيكم صاحبُ الوِساد[1] وصاحب السِّرِّ الذي لا يعلمه أحدٌ غيره، والذي أُجِير من الشيطان على لسان النبي ﷺ[2].

(١) ورد في المسند بعد ما ساقه ابن كثير: وصاحب الوساد ابن مسعود، وصاحبُ السرِّ حُذيفة، والذي أُجير من الشيطان عمَّار.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٤٩/٦، وفتح الباري، تفسير سورة ﴿والليل إذا يغشى﴾ ٧٠٧/٨، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٦٥/١ ـ ٥٦٦

وقد رواه البخاري ههنا ومسلمٌ، من طريق الأعمش، عن إبراهيم قال: قدم أصحابُ عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم، فقال: أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟ قالوا: كُلُّنا، قال: أيُّكم أحفظُ؟ فأشاروا إلى علقمة، فقال: كيف سمعته يقرأ ﴿والليل إذا يغشى﴾؟ قال: ﴿والذكر والأنثى﴾. قال: أشهدُ أني سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ هكذا، وهؤلاء يُريدوني أن أقرأ ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾، والله لا أتَّبعهم

هذا لفظُ البُخاريِّ. هكذا قرأ ذلك ابنُ مسعود، وأبو الدرداء ـ ورفعه أبو الدَّرداء ـ وأما الجمهورُ فقرءُوا ذلك كما هو مُثبتٌ في المُصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾، فأقسم تعالى ﴿والليل إذا يغشى﴾، أي: إذا غشي الخليقة بظلامه، ﴿والنهار إذا تجلى﴾، أي: بضيائه وإشراقه، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾، كقوله ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾، وكقوله ﴿ومن كلِّ شيء خلقنا زوجين﴾

ولما كان القسمُ بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضاداً، ولهذا قال ﴿إن سعيكم لشتى﴾، أي: أعمالُ العباد التي اكتسبوها متضادةٌ أيضاً ومتخالفة، فمن فاعلٍ خيراً ومن فاعلٍ شرًّا، قال تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أي: أعطى ما أُمر بإخراجه، واتقى الله في أُموره، ﴿وصدَّق بالحُسنى﴾، أي: بالمجازاة على ذلك، قاله قتادةُ. وقال خُصيف: بالثَّواب. وقال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو صالح، وزيدُ بن أسلم ﴿وصدَّق بالحُسنى﴾ أي: بالخلف. وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي، والضحَّاك ﴿وصدَّق بالحسنى﴾، أي: بلا إله إلا الله. وفي روايةٍ عن عكرمة ﴿وصدَّق بالحُسنى﴾، أي: بما أنعم الله عليه. وفي رواية عن زيد بن أسلم ﴿وصدَّق بالحُسنى﴾، قال: الصلاةُ والزكاةُ والصومُ. وقال مُرَّةُ: وصدقةُ الفطر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوانُ بن صالح الدمشقي، حدثنا الوليدُ بن مسلم، حدثنا زُهير بن محمد، حدثني من سمع أبا العالية الرِّياحي يُحدِّث عن أُبيِّ بن كعب قال: سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ عن الحُسنى قال: «الحسنى: الجنةُ».

وقوله: ﴿فسنُيَسِّرُه لليُسرى﴾، قال ابن عباس: يعني للخير. وقال زيدُ بن أسلَمَ: يعني للجنة. وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنةُ بعدها، ومن جزاءِ السيئةِ السيئةُ بعدها. ولهذا قال تعالى: ﴿وأما من بخل﴾، أي: بما عنده، ﴿واستغنى﴾، قال عكرمةُ، عن ابن عباسٍ، أي بَخِل بماله واستغنى عن ربِّه عزَّ وجلَّ. رواه ابنُ أبي حاتم.

﴿وكذَّب بالحُسنى﴾، أي: بالجزاء في الدار الآخرة، ﴿فسنُيَسِّرُه للعُسرى﴾، أي: لطريق الشرِّ، كما قال تعالى: ﴿ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوَّل مرَّةٍ ونذرهم في طُغيانهم يعمهون﴾. والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ دالَّةٌ على أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُجازي من قصد الخير بالتوفيقِ له، ومَن قصد الشرَّ بالخِذلان. وكلُّ ذلك بقَدَرٍ مُقدَّرٍ، والأحاديثُ الدالَّة على هذا المعنى كثيرةٌ.

روايةُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال الإمام أحمد:

حدثنا علي بن عيَّاش، حدثني العطَّاف بن خالد، حدثني رجلٌ من أهل البصرة، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أبيه قال: سمعتُ أبي يذكُر أن أباه سَمع أبا بكرٍ وهو يقولُ:

(١) المصدر السابق

قلتُ لرسول الله ـ ﷺ ـ: يا رسولَ الله، أنعمل على ما فُرِغَ منه أو على أمرٍ مُؤتَنَفٍ؟ قال: «بل على أمرٍ قد فُرِغ منه». قال: فَفِيمَ العملُ يا رسولَ الله؟ قال: «كُلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِق له»(١).

روايةُ عليٍّ رضي الله عنه، قال البخاري:

حدَّثنا أبو نُعَيم، حدَّثنا سفيان، عن الأعمش، عن سَعْدِ بن عُبَيْدَةَ، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي، عن عليِّ بن أبي طالب قال: كُنَّا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في بقيعِ الغَرْقدِ في جَنازةٍ، فقال: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعدُه من الجنة ومقعدُه من النار». فقالوا: يا رسولَ الله، أفلا نَتَّكِلُ(٢)؟ فقال: «اعمَلُوا، فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ(٣) له». قال: ثم قرأ: ﴿فأمَّا مَن أعطى واتَّقى ۝ وصَدَّقَ بالحُسنى ۝ فَسَنُيَسِّرُه لليُسرى﴾ إلى قوله ﴿للعُسرى﴾(٣).

وكذا رواه من طريق شُعبة ووكيعٍ، عن الأعمشِ، بنحوه(٣). ثم رواه عن عُثمانَ بن أبي شيبةَ، عن جَرِيرٍ، عن منصورٍ، عن سعد بن عُبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: كنا في جَنازةٍ في بَقيعِ الغَرْقَدِ، فأتى رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقَعَد وقَعَدْنا حولَه، ومعه مِخْصَرَةٌ(٤) فنكَّس فجعل ينكُت بمِخْصَرَتِه، ثم قال: «ما منكم من أحدٍ ـ أو: ما من نفسٍ منفوسةٍ(٤) إلا كُتِبَ مكانُها من الجَنَّة والنارِ، وإلاَّ قد كُتِبَت شقيةً أو سعيدةً». فقال رجُل: يا رسولَ الله، أفلا نَتَّكِلُ على كتابِنا ونَدَعُ العَمَلَ؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصيرُ إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصيرُ إلى أهل الشقاء؟ فقال: «أما أهلُ السعادة فيُيَسَّرُون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فيُيَسَّرون إلى عمل أهل الشقاء». ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتَّقى ۝ وصدَّق بالحُسنى﴾... الآية(٥).

وقد أخرجه بقية الجماعة من طُرُقٍ، عن سَعد بن عُبَيدة، به(٥).

روايةُ عبد الله بن عُمَر، قال الإمامُ أحمد:

حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا شعبةُ، عن عاصم بن عُبَيد الله قال: سَمِعتُ سالم بنَ عبد الله يُحدِّث عن ابن عُمر: قال: قال عُمَر: يا رسولَ الله أرأيت ما نعملُ فيه؟ أفي أمرٍ قد فُرِغ أو مبتدأٍ أو مُبْتَدعٍ؟ قال: «فيما قد فُرِغ منه، فاعمل يا ابنَ الخطاب فإن كُلاًّ مُيَسَّرٌ، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاءِ فإنه يعملُ للشقاء»(٦).

ورواه الترمذيُّ في القَدَرِ، عن بُندارٍ، عن ابن مَهديٍّ، به وقال: «حَسَنٌ صَحيحٌ»(٦).

حديثٌ آخَرُ من رِوَايةِ جابِرٍ، قال ابنُ جَرِيرٍ:

حدَّثني يونُس، أخبرنا ابنُ وهبٍ، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن أبي الزُّبَير، عن جابر بن عبد الله أنه

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٥ ـ ٦.
(٢) أي: أنعتمد على ما قُدِّر علينا؟ وانظر فتح الباري، كتاب القدر ١١/٤٩٧.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة ﴿والليل إذا يغشى﴾ ٨/٧٠٨.
(٤) المخصرة: ما أخذه الإنسان بيده من عصاً أو عكازة أو مِقْرَعة. ونَكَّس: خفض رأسه على هيئة المهموم. ومنفوسة: مولودة.
(٥) فتح الباري، تفسير سورة ﴿الليل إذا يغشى﴾ ٨/٧٠٩، ومسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٣٩ ـ ٢٠٤٠، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٢٢ ـ ٢٢٣، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٣٠٠، وتفسير سورة ﴿والليل إذا يغشى﴾ ١٢/٢٤٥ ـ ٢٤٦، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٧/٣٩٩، وسنن ابن ماجه، المقدمة ١/٣٠ ـ ٣١.
(٦) مسند الإمام أحمد ٢/٥٢، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٢٩٩ ـ ٣٠٠.

قال: يا رسول الله، أنعمَلُ لأمر قد فُرِغ منه أو لأمر نَستأنِفُه؟ فقال «لأمر قد فُرِغ منه» فقال سراقة[١]: فَفِيم العملُ إذاً؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «كلُّ عاملٍ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِه».

ورواه مُسلِمٌ عن أبي الطاهر، عن ابن وَهبٍ، به[٢].

حديث آخر، قال ابنُ جرير:

حدَّثني يُونُس، حدَّثنا سُفيان، عن عَمرو بن دينار، عن طَلْق بن حبيب، عن بَشير بن كعب العَدَويِّ قال: سأل غلامان شابَّان النبيَّ ـ ﷺ ـ فقالا: يا رسولَ الله، أنعملُ فيما جَفَّت به الأقلامُ وجرَت به المَقادير، أو في شيءٍ يُستأنَف؟ فقال: بل فيما جَفَّت به الأقلام وجرَت به المقادير. قالا: ففيم العمل إذاً؟ قال: اعملوا فكلّ عامل مُيَسَّر لعمله الذي خُلق له. قالا: فجدُّ ونعمَلُ[٣].

روايةُ أبي الدرداء، قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا هَيْثَم بن خارجة، حدَّثنا أبو الربيع سُليمان بن عُتبةَ السُّلَمِي، عن يُونُس بن مَيْسَرة بن حَلْبَس، عن أبي إدريسَ، عن أبي الدرداءِ قال. قالوا: يا رسول الله، أرأيتَ ما نعمل، أمرٌ قد فُرِغ منه أم شيء نَستأنِفه؟ قال: بل أمرٌ قد فُرِغ منه. قالوا: فكيف بالعملِ يا رسولَ الله؟ قال: «كل امرىءٍ مُهيّأٌ لما خُلِقَ له»[٤].

تفرَّد به أحمدُ من هذا الوجه.

حديث آخر، قال ابن جرير:

حدَّثني الحسنُ بن سَلَمة بن أبي كَبْشَة، حدَّثنا عبد الملك بن عَمرو، حدَّثنا عباد بن راشد، عن قتادة، حدَّثني خُلَيد العَصَريُّ، عن أبي الدرداء قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما من يوم غَربت فيه شمسُه إلا وبجَنْبَتَيْها ملَكان يُناديان يَسْمَعه خلقُ الله كلُّهم إلا الثقلين: اللهم أعْطِ منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً. وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فأمّا مَن أعطى واتّقى * وصدَّق بالحُسنى * فَسَنُيَسِّره لليُسرى * وأما من بَخِل واستغنى * وكَذَّب بالحُسنى * فَسَنُيَسِّرُه للعسرى﴾[٥].

ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن أبي كَبْشَة، بإسناده مثله.

حديثٌ آخر، قال ابن أبي حاتم: حدَّثني أبو عبد الله الطِّهراني، حدَّثنا حفص بن عُمَر العَدَنيُّ، حدَّثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رجلاً كان له نخل، ومنها نخلةٌ فرعُها في دار رجل صالح فقير ذي عيال، فإذا جاء الرجُل فدخل دارَه فيأخذُ الثمر من نخلته، فتسقط الثمرةُ فيأخذُها صبيان الفقير، فينزل من نخلته فينزعُ الثمرة من أيديهم، وإن أُدخِل الثمرةُ في فم أحدهم أدخل إصبَعَه في حَلْقِ الغلام ونَزَع الثمرة من حَلْقِه. فشكا ذلك الرجلُ إلى النبي ـ ﷺ ـ وأخبَرَه بما هو فيه من صاحب النخلة، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: اذهب. ولقي النبيُّ ـ ﷺ ـ صاحبَ النخلة، فقال له النبي ـ ﷺ ـ «أعطني نخلتك التي فَرْعُها في دار فُلان ولَكَ بها نخلة في الجنة. فقال له: لقد أعطيتَ، ولكن يُعجبني ثمرُها، وإنَّ لي لنخلاً كثيراً ما فيها نخلة أعجبُ إليَّ

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٢٤ وقد سقط من نص الطبري: «فقال: لأمر قد فُرِغَ منه. فقال سراقة: ففيم العمل إذاً؟».
(٢) مسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٤١.
(٣) تفسير الطبري ٣٠/٢٢٤ ـ ٢٢٥.
(٤) مسند الإمام أحمد ٦/٤٤١.
(٥) تفسير الطبري ٣٠/٢٢١.

تَمْرَةً من ثَمَرها. فذهب النبيُّ ـ ﷺ ـ فتبعه رجلٌ كان يسمَعُ الكلامَ من رسول الله ـ ﷺ ـ ومن صاحب النخلة، فقال الرجُل: يا رسول الله، إن أنا أخذتُ النخلةَ فصارت لي النخلةُ فأعطيتُها أتُعطيني بها ما أعطيته بها نخلةً في الجنَّة؟ قال: نعم. ثم إن الرجل لَقِيَ صاحب النخلة، ولكلاهما نخلٌ، فقال له: أخبِرُك أن محمداً أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنة، فقلت له: قد أعطيت ولكن يُعجِبُني ثمرُها. فسكت عنه الرجل فقال له: أتُراك إذاً بِعْتَها؟ قال: لا، إلا أن أعطى بها شيئاً، ولا أظُنُّني أعطاه. قال: وما مُناك بها؟ قال: أربعون نخلةً. فقال الرجل: لقد جئتَ بأمرٍ عظيم، نخلتك تَطلُب بها أربعينَ نخلةً؟! ثم سكتا وأنشأا في كلام آخر، ثم قال: فأنا أُعطيك أربعين نخلة، فقال: أشْهِدْ لي إن كنتَ صادقاً. فأمر بأناس فدعاهم فقال: اشهدُوا أني قد أعطيتُه من نخلي أربعينَ نخلةً بنخلتِه التي فَرْعُها في دار فلانِ بن فلانٍ. ثم قال: ما تقولُ؟ فقال صاحبُ النخلة: قد رَضِيتُ. ثم قال بعدُ: ليس بيني وبينك بيعٌ لم نفترق. قال له: قد أقالك[1] الله، ولستُ بأحمق حين أعطيتك أربعينَ نخلةً بنخلتك المائلة. فقال صاحبُ النخلة: قد رضيتُ على أن تعطيني الأربعين على ما أُريد، قال: تُعطينيها على ساق[2]. ثم مكثَ ساعةً ثم قال: هي لك على ساقٍ. وأوقف له شُهوداً، وعدَّ له أربعين نخلة على ساقٍ، فتفرَّقا، فذهب الرجل إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إن النخلة المائلة في دار فلانٍ قد صارت لي، فهي لكَ. فذهب رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى الرجُل صاحب الدار فقال له: النخلةُ لك ولعيالك. قال عكرمةُ: قال ابن عباس: فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿والليل إذا يغشَى﴾ إلى قوله: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدَّق بالحسنى * فَسَنُيَسِّرُه لليُسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحُسنى * فسَنُيَسِّرُه للعُسرى﴾ . . . إلى آخر السورة.

هكذا رواه ابنُ أبي حاتم، وهو حديثٌ غريبٌ جداً.

قال ابنُ جرير: وذُكِر أن هذه الآية نَزَلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

حدَّثني هارون بن إدريس الأصمُّ، حدَّثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، حدَّثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن عامر بن عبد الله بن الزُّبير قال: كان أبو بكر يُعتق على الإسلام بمكَّة، فكان يُعتِق عجائزَ ونساءً إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني، أراك تُعتِق أناساً ضُعفاء، فلو أنك تُعتِق رجالاً جُلداء[3] يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك؟! فقال: أيْ أبَت، إنما أُريدُ ـ أظنه قال ـ ما عند الله. قال: فحدَّثني بعضُ أهل بيتي أن هذه الآية أُنزِلت فيه ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدَّق بالحسنى * فَسَنُيسِّرُه لليُسْرى﴾[4].

وقولُه: ﴿وما يُغني عنه مالُه إذا تَرَدَّى﴾، قال مجاهد: أي: إذا مات. وقال أبو صالح ومالك، عن زيد بن أسلم: إذا تَرَدَّى في النار.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ

(١) أقال البيع أو العهد: فسخه.
(٢) الساق من النخلة: جذعها. يريد ـ والله أعلم ـ أنها نخل تام قد اكتمل.
(٣) أي: أقوياء.
(٤) تفسير الطبري ٣٠/٢٢١.

وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

قال قتادةُ: ﴿إنَّ علينا للهُدى﴾، أي: نُبيِّن الحلالَ والحرام. وقال غيره: من سلك طريقَ الهُدى وصَل إلى الله. وجَعله كقوله تعالى: ﴿وعلى الله قصدُ السبيل﴾. حكاه ابنُ جرير[1].

وقولُه: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾، أي: الجميعُ ملكٌ وأنا المتصرِّف فيهما. وقولُه: ﴿فأنذرتُكم ناراً تلظّى﴾، قال مجاهدٌ: أي توَهَّجُ.

قال الإمام أحمد: حَدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شعبةُ، عن سِماك بن حرب، سمعتُ النعمانَ بن بَشير يخطُب يقول: سَمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يَخطب يقولُ «أنذرتُكم النار، [أنذرتُكم النار، أنذرتُكم النار] حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمِعه من مقامي هذا، قال: حتى وقعت خَمِيصة كانت على عاتقه عند رِجْلَيه»[2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شعبةُ، حدَّثني أبو إسحاق: سَمعتُ النعمانَ بن بَشير يخطُب ويقول: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنَّ أهونَ أهل النارِ عذاباً يومَ القيامةِ رَجُلٌ يُوضَع في أخْمَص قَدَمَيه جمرتان يغلي منها دِماغُه»[3]. رواه البخاري[3].

وقال مسلمٌ: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ، حدَّثنا أبو أسامَةَ، عن الأعمش، عن أبي إسحاقَ، عن النُّعمان بن بَشير قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن أهونَ أهل النارِ عذاباً من له نعلان وشِراكان من نار يَغْلي منهما دماغُه كما يَغْلي المِرْجل، ما يرى أن أحداً أشدُّ منه عذاباً، وإنه لأهونُهُم عذاباً»[4].

وقولُه: ﴿لا يصْلاها إلا الأشقى﴾، أي: لا يدخُلها دخولاً تُحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى. ثم فسَّره فقال: ﴿الذي كذَّب﴾، أي: بقلبِه، ﴿وتولّى﴾، أي: عن العمل بجوارحِه وأركانِه.

قال الإمام أحمد: حَدَّثنا حسن بن موسى، حدَّثنا ابنُ لَهِيعة، حدَّثنا عبد رَبِّه بن سعيد، عن المقبُريِّ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يدخُل النارَ إلا شَقيٌّ». قيل: ومَن الشقي؟ قال: «الذي لا يعمل بطاعةٍ، ولا يترُك لله معصيةً»[5].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس وسُرَيج قالا: حدَّثنا فُلَيح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ أمتي يدخُل الجنةَ يومَ القيامة إلا مَن أبى». قالوا: ومن يأبى يا رسولَ الله؟ قال: «من أطاعني دَخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[6].

ورواه البخاري عن محمد بن سِنان، عن فُلَيح، به[6].

وقولُه: ﴿وسيُجنَّبها الأتقى﴾، أي: وسيُزحزحُ عن النار التَّقي النقيُّ الأتقى. ثم فسره بقوله: ﴿الذي يُؤتي

(١) تفسير الطبري ٢٢٦/٣٠، وحكاه عن بعض أهل العربية، يعني بذلك أبا زكريا الفرّاء، انظر معاني القرآن له ٢٧١/٣٠.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢٧٢، وما بين القوسين عنه. والخميصة: ثوب من خزٍّ أو صوف. وقيل: لا تكون خميصة حتى يكون سوداء.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٢٧٤، وفتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٤١٧.
(٤) مسلم، كتاب الإيمان ١/١٩٦
(٥) مسند الإمام أحمد ٢/٣٤٩
(٦) مسند الإمام أحمد ٢/٣٦١، وفتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٢٤٩.

ماله يتزكّى﴾ أي: يصرف ماله في طاعة ربه، ليُزكّي نفسه وماله وما وهبه الله من دينٍ ودنيا، ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى﴾، أي: ليس بذلُه ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفاً، فهو يُعطي في مقابلة ذلك، وإنما دفعه ذلك ﴿ابتغاء وَجه ربّه الأعلى﴾، أي: طمعاً في أن يحصُلَ له رُؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿ولَسوف يَرْضى﴾، أي: ولسوف يرضى من اتّصف بهذه الصفات.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ حتى إن بعضهم حكى الإجماعَ من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخلٌ فيها، وأَوْلى الأمة بعُمومها، فإن لفظها لفظُ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وسيُجَنَّبُها الأتقى * الذي يُؤتي ماله يتزكّى * وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى﴾، ولكنه مُقدَّمُ الأمة وسابقُهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صدِّيقاً تقياً كريماً جَواداً بذّالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونُصرةِ رَسُولِ الله، فكم من درهمٍ ودينارٍ بذله ابتغاء وجه ربِّه الكريم، ولم يكن لأحدٍ من الناس عنده مِنّةٌ يحتاج إلى أن يُكافِئه بها، ولكن كان فضله وإحسانُه على السادات والرُّؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عُروة بن مسعود ـ وهو سيِّد ثقيف، يوم صُلح الحديبية ـ «أما والله لولا يدٌ لك كانت عندي لم أُجزك بها لأجبتُك»[1]. وكان الصدِّيقُ قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورُؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال: ﴿وما لأحدٍ عندَه من نعمةٍ تُجزَى * إلا ابتغاء وجه ربّه الأعلى * ولسوف يَرْضَى﴾. وفي الصحيحَين أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «مَن أنفق زوجين[2] في سبيل الله دعته خزنةُ الجنة: يا عبدَ الله، هذا خيرٌ. فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، ما على من يُدعى منها ضرورة[3]، فهل يُدعى منها كلِّها أحدٌ؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم»[4].

آخرُ تفسيرِ سُورةِ الليل، ولله الحمدُ والمنّةُ

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣١٣

(٢) قال الهروي في تفسير هذا الحديث: قيل: ما زوجان؟ قال: فرسان أو عبدان أو بعيران. وقال ابن عرفة: كل شيء قرن بصاحبه فهو زوجٌ، يقال: زَوَّجت بين الإبل، إذا قرنت بعيراً ببعير. وقيل: درهم ودينار، أو درهم وثوب.

(٣) أي: ليست هناك ضرورة تدعو إلى أن ينادى منها كلّها.

(٤) فتح الباري، كتاب فضائل الصحابة ٧/١٩، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٧١١ ـ ٧١٢

تفسير

سُورَةُ الضُّحَى

وهي مكيَّةٌ

روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بَزَّة المُقرىء قال: قرأتُ على عِكْرِمة بن سُليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قُسطَنطين وشِبْل بن عَبَّاد، فلما بلغتُ ﴿والضُّحَى﴾ قالا لي: كَبِّر حتى تختم مع خاتِمة كُلِّ سُورة، فإنَّا قرأنا على ابن كثير فأمَرنا بذلك. وأخبرنا أنه قرأ على مُجاهدٍ فأمَره بذلك. وأخبره مجاهدٌ أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابنُ عباسٍ أنه قرأ على أُبيِّ بنِ كعبٍ فأمره بذلك، وأخبره أنه قرأ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأمره بذلك[1].

فهذه سُنَّةٌ تفرَّد بها أبو الحسن أحمدُ بن محمد بن عبد الله البَزِّي، من ولد القاسم بن أبي بَزَّة، وكان إماماً في القراءات. فأمَّا في الحديث فقد ضَعَّفَه أبو حاتم الرازي وقال: لا أُحدِّث عنه[2]. وكذلك أبو جعفر العُقَيلي قال: هو مُنكر الحديث. [لكن حكَى الشيخ شهابُ الدين أبو شامة في شَرح الشاطبية عن الشافعيِّ أنه سَمِع رجلاً يُكبِّرُ هذا التكبير في الصلاة، فقال له: أحسنتَ وأصبتَ السُّنَّة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث].

ثم اختلَف القراءُ في موضع هذا التكبير وكيفيَّتِه، فقال بعضُهم: يُكَبِّر من آخِرِ ﴿والليلِ إذا يغشَى﴾. وقال آخرون: من آخر ﴿والضُّحَى﴾: وكيفيَّةُ التكبيرِ عند بعضِهم أن يقول: الله أكبر. ويقتصِرُ، ومنهم مَن يقول: الله أكبرُ، لا إلهَ إلا الله، الله أكبرُ.

وذكر القُرَّاء في مُناسَبَة التكبير من أوَّل «سورة الضُّحَى»: أنه لما تأخَّر الوحيُ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ وفَتَر تلك المدَّة ثمّ جاء المَلَكُ فأوحى إليه. ﴿والضُّحَى * والليل إذا سَجَى﴾... السورة بتمامها ـ كَبَّر فَرَحاً وسُروراً. ولم يُرْوَ ذلك بإسنادٍ يُحكَمُ عليه بصحَّةٍ ولا ضَعفٍ، فالله أعلم.

---

(١) أخرجه الحاكم، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». المستدرك، كتاب معرفة الصحابة ٣/٣٠٤، وكذلك أخرجه ابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، الدر المنثور ٨/٥٣٩. وانظر تفسير البغوي، خاتمة سورة الضحى ٤/٥٠٠ ـ ٥٠١. وتفسير القرطبي ٢٠/١٠٣.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

قال الإمامُ أحمد: حدَّثنا أبو نُعيم، حدَّثنا سُفيان، عن الأسود بن قيس قال: سمعتُ جُندباً يقول: اشتكى النبي ـ ﷺ ـ فلم يقُم ليلةً أو ليلتَين، فأتت امرأةٌ فقالت: يا محمدُ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿والضُّحَى * والليلِ إذا سَجى * ما ودَّعك ربُّك وما قلى﴾[1].

رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، والترمذيُّ، والنَّسائي، وابنُ أبي حاتم، وابنُ جرير، من طُرُقٍ، عن الأسود بن قيسٍ، عن جُندَبٍ هو ابن عبد الله البَجَليُّ ثم العلَقيُّ به، وفي رواية سفيان بن عُيَينة، عن الأسود بن قيس: سمع جُنْدَباً قال: أبطأ جبريلُ على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال المشركون: وُدِّع محمدٌ. فأنزل الله: ﴿والضُّحى * والليل إذا سَجى * ما وَدَّعك ربُّك وما قَلَى﴾[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ وعمرو بن عبد الله الأَوْدِيُّ قالا: حدَّثنا أبو أُسامة، حدَّثني سفيانُ، حدَّثني الأسودُ بن قيس، أنه سَمِع جُندُباً يقول: رُمِيَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بحجرٍ في إصبعه فقال: هل أنت إلا إصبَعٌ دَميتِ * وفي سبيل الله ما لقيتِ. قال: فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت له امرأةٌ: ما أرى شيطانَكَ إلا قد تركَكَ. فنزلت: ﴿والضُّحى * والليل إذا سَجَى * ما وَدَّعك ربُّك وما قَلَى﴾ والسياقُ لأبي سعيد.

قيل: إن هذه المرأةَ هي أُمُّ جميل امرأة أبي لهب، وذِكر أن إصبعه ـ عليه السلام ـ دَميتْ. وقولُه هذا الكلامَ الذي اتفق أنه موزونٌ ثابتٌ في الصحيحين[2]، ولكن الغريب ها هنا جعلُه سبباً لتَركِه القيام، ونزول هذه السورة. فأما ما رواه ابنُ جرير:

حدَّثنا ابنُ أبي الشوارب، حدَّثنا عبدُ الواحد بن زياد، حدَّثنا سُليمان الشَّيباني، عن عبد الله بن شدَّاد أن خَديجة قالت للنبيِّ ـ ﷺ ـ: ما أرى ربَّك إلا قد قلاك. فأنزل الله: ﴿والضُّحى * والليلِ إذا سَجَى * ما ودَّعك ربُّك وما قَلَى﴾[3].

وقال أيضاً: حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا وَكيعٌ، عن هشام بن عُروَة، عن أبيه قال: أبطأ جبريلُ على

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٣١٢ ـ ٣١٣ وفتح الباري، تفسير سورة الضحى ٨/٧١٠ وكتاب التهجد ٣/٨، وكتاب فضائل القرآن ٩/٣، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٤٢١ ـ ١٤٢٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الضحى ١٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧. وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٢/٤٣٩، وتفسير الطبري ٣٠/٢٣١

(٢) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٦٩ من سورة ﴿يس﴾

(٣) تفسير الطبري ٣٠/٢٣١ ـ ٢٣٢

النبيُّ ـ ﷺ ـ فجزع جزعاً شديداً، فقالت خديجة: إني أرى ربَّك قد قلاك مما نرى من جَزَعِكَ. قال: فنزلت: ﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما ودَّعك ربُّك وما قلى﴾... إلى آخرها[1].

فإنه حديث مرسل من هذين الوجهين، ولعلَّ ذِكْر خديجة ليس محفوظاً، أو قالته على وجهِ التأسُّف والتحزُّن، والله أعلم.

وقد ذكر بعضُ السلف ـ منهم ابنُ إسحاق ـ أن هذه السورةَ هي التي أوحاها جبريلُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حين تبدَّى له في صورته التي خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلَّى مُنهبطاً عليه وهو بالأبطحِ، ﴿فأوحى إلى عَبْدِه ما أوحى﴾، قال: قال له هذه السورة: ﴿والضُّحى * والليل إذا سَجَى﴾.

قال العوفيّ، عن ابن عباس: لما نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ القرآنُ، أبطأ عنه جبريلُ أياماً، فتغيَّر بذلك، فقال المشركون: ودَّعه ربُّه وقلاه. فأنزل الله: ﴿ما وَدَّعك ربُّك وما قلى﴾[1].

وهذا قسمٌ منه تعالى بالضُّحى وما جعل فيه من الضياء، ﴿والليلِ إذا سَجَى﴾، أي: سَكَن فأظلم وادْلَهمَّ. قاله مجاهدٌ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وابنُ زيدٍ، وغيرُهم. وذلك دليلٌ ظاهرٌ على قُدرَةِ خالقِ هذا وهذا، كما قال: ﴿والليلِ إذا يغشى * والنهارِ إذا تجلَّى﴾. وقال: ﴿فالقُ الإصباحِ وجاعلُ[2] الليلِ سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسباناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليم﴾.

وقولُه: ﴿ما ودَّعك ربُّك﴾، أي: ما تَرَكك، ﴿وما قَلَى﴾ أي: وما أبْغَضَك. ﴿وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى﴾، أي: وللدارُ الآخرةُ خيرٌ لك من هذه الدار. ولهذا كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ أزهَدَ الناس في الدنيا، وأعظمَهم لها اطِّراحاً، كما هو معلومٌ بالضرورة من سيرته. ولما خُيِّرَ ـ عليه السلام ـ في آخر عُمره بين الخُلْد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنَّة، وبين الصَّيْرُورة إلى الله عزَّ وجلَّ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنيَّةِ.

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يزيدُ، حدَّثنا المسعوديُّ، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن إبراهيم النَّخَعيِّ، عن عَلْقَمةَ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: اضطجع رسولُ الله ـ ﷺ ـ على حَصيرٍ، فأثَّر في جنبه، فلما استيقظ جَعَلْتُ أمسح جنبه وقلتُ: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نَبْسُطَ لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثلُ الدنيا كراكبٍ ظَلَّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها[3].

ورواه الترمذي وابنُ ماجه، من حديث المسعودي، به. وقال الترمذي: حسن صحيح[3].

وقولُه: ﴿ولسوف يُعطيك ربُّك فترضى﴾ أي: في الدار الآخرة يُعطيه حتى يُرضيَه في أُمَّته، وفيما أعدَّه له من الكرامة، ومن جُملتِه نهرُ الكوثر الذي حافتاه قبابُ اللؤلؤ المُجَوَّف، وطينُه مسكٌ أذفَر، كما سيأتي[4].

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعيُّ، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزوميّ، عن عليِّ بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: عُرِض على رسول الله ـ ﷺ ـ ما هو مَفْتوح على أُمَّته من بعده كنزاً كنزاً، فسُرَّ بذلك، فأنزل الله: ﴿ولسوف يُعطيك ربُّك فترضى﴾ فأعطاه في الجنة ألفَ ألفِ قَصْرٍ، في كل قَصْرٍ ما ينبغي له

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٢) قرأ الكوفيون: ﴿وجعل الليل﴾ وباقي السبعة: ﴿جاعلُ الليل﴾ انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٤١، والآية هي ٩٦ من سورة الأنعام.
(٣) مسند الإمام أحمد ١/٣٩١، وأخرجه الترمذي وابن ماجه في كتاب الزهد، عارضة الأحوذي ٩/٢٢٣، وابن ماجه ٢/١٣٧٦.
(٤) انظر تفسير سورة الكوثر.

من الأرواحِ والخُدّامِ. رواه ابنُ جرير وابن أبي حاتم من طريقه(١)، وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابن عباس، ومثلُ هذا ما يُقالُ إلا عن توقيفٍ.

وقال السُّدِّي، عن ابن عباس: مِنْ رضى محمدٍ ـ ﷺ ـ ألاَّ يدخُلَ أحدٌ من أهلِ بيته النار. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة. وهكذا قال أبو جعفر الباقرُ.

وقال أبو بكر بن أبي شيبَةَ: حدَّثنا معاويةُ بن هشام، عن علي بن صالح، عن يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيمَ، عن علقَمةَ، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أهلَ بيتٍ اختارَ الله لنا الآخرة على الدنيا، ﴿ولسوف يُعطِيكَ ربُّكَ فَترْضَى﴾(٢).

ثم قال تعالى يُعَدِّدُ نِعَمَه على عبده ورسوله محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ ﴿ألم يَجدْكَ يتيماً فآوى﴾، وذلك أن أباه تُوفي وهو حَمْلٌ في بطن أمِّه، وقيل: بعد أن وُلد عليه الصلاة والسلام. ثم تُوفِّيت أمه آمنة بنتُ وهبٍ وله من العُمرِ ستُّ سنينَ. ثم كان في كفالة جَدِّه عبد المطلب، إلى أن تُوفِّي وله من العُمر ثمان سنين، فكفَلهُ عَمُّه أبو طالب. ثم لم يزل يَحُوطه وينصُره ويَرفع من قدره ويُوقِّره، ويكفُّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعينَ سنةً من عُمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسْن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبلَ الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاءُ قُرَيش وجُهَّالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهُرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم الأكمل. فلما وَصَلَ إليهم آوَوْه ونَصروه وحاطُوه وقاتلوا بين يَدَيه، رضي الله عنهم أجمعين، وكلُّ هذا من حِفْظ الله له وكِلَاءته وعنايته به.

وقوله: ﴿وَوَجدكَ ضالاً فَهَدَى﴾ كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك رُوحاً مِن أمرِنا ما كُنتَ تَدْري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نُوراً نهدي به من نشاءُ من عبادِنا وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾، ومنهم من قال: إنَّ المرادَ بهذا أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ضَلَّ في شعاب مكَّةَ وهو صغير، ثم رجع. وقيل: إنه ضلَّ وهو مع عَمِّه في طريق الشام، وكان راكباً ناقةً في الليل، فجاء إبليسُ فعَدل بها عن الطريق، فجاء جبريلُ فنفخ إبليسَ نفخةً ذَهَب منها إلى الحبشة، ثم عَدَل بالراحلة إلى الطريق. حكاهما البغوي(٣).

وقوله: ﴿وَوَجدكَ عائلاً فأغنى﴾، أي: كُنتَ فقيراً ذا عِيالٍ، فأغناك الله عَمَّن سواه، فجمَع له بين مَقَامَي الفقير الصابر والغنيِّ الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿ألَم يجدكَ يتيماً فآوى * وَوَجدكَ ضالاً فهدى * ووجدكَ عائلاً فأغنى﴾، قال: كانت هذه منازلَ رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يبعثَه الله عزَّ وجلَّ. رواه ابنُ جَرير(٤)، وابن أبي حاتم

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٣٢.
(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢/١٣٦٦ عن أبي الحسن عثمان بن أبي شيبة، عن معاوية بن هشام، بإسناده.
(٣) تفسير البغوي ٤/٤٩٩.
(٤) تفسير الطبري ٣٠/٢٣٣.

وفي الصحيحين من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همّام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغِنى غِنى النفس»[(١)].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قد أفلح من أسلم، ورُزِق كفافاً، وقَنّعه الله بما آتاه»[(٢)].

ثم قال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي: كما كنتَ يتيماً فآواك الله فلا تقهَرِ اليتيم، أي: لا تُذِلَّه وتَنْهَره وتُهِنه، ولكن أحْسِن إليه، وتَلَطَّفْ به. قال قتادة: كُن لليتيم كالأب الرحيم.

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾، أي: وكما كُنت ضالاً فهداك الله، فلا تنهر السائلَ في العلم المسترشِدَ. قال ابن إسحاق: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾، أي: فلا تكن جَبَّاراً، ولا متكبِّراً، ولا فحّاشاً، ولا فظّاً على الضُّعَفاء من عباد الله. وقال قتادة: يعني رُدَّ المِسكين برحمةٍ ولين.

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾، أي: وكما كُنتَ عائلاً فقيراً فأغناك الله، فَحَدِّث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مُثنين بها، قابليها، وأَتِمَّها علينا»[(٣)].

وقال ابنُ جرير: حدثني يعقوبُ، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا سعيد بن إياس الجُرَيرِيُّ، عن أبي نَضْرة قال: «كان المسلمون يَرَون أن من شكر النِّعم أن يُحَدَّث بها»[(٤)].

وقال عبد الله بنُ الإمام أحمد: حدثنا منصور بن أبي مُزاحم، حدثنا الجرّاح بن مُلَيح، عن أبي عبد الرحمن، عن الشعبي، عن النعمان بن بَشير قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ على المنبر: «من لم يشكر القليلَ لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناسَ لم يشكرِ الله. والتحدُّث بنعمةِ الله شكرٌ، وتركُها كفرٌ. والجماعةُ رحمةٌ، والفرقةُ عذابٌ»[(٥)]. إسنادُه ضعيفٌ.

وفي الصحيح، عن أنس، أن المهاجرين قالوا: يا رسولَ الله، ذَهَبَ الأنصارُ بالأجر كلِّه. قال: «لا، ما دعوتُم الله لهم، وأثنيتُم عليهم»[(٦)].

وقال أبو داود: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الربيعُ بن مسلم، عن محمد بن زيادٍ، عن أبي هُرَيْرَة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا يشكر الله من لا يُشكر الناسَ»[(٧)].

ورواه الترمذي عن أحمد بن محمد، عن ابن المبارك، عن الربيع بن مسلم، وقال: صحيحٌ[(٧)].

وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن الجراح، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من أُبلي بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كَفَره». تفرَّد به أبو داود[(٨)].

---

(١) هذه طريق الإمام أحمد في مسنده ٢/٣١٢ ـ ٣١٥، وهو في الصحيحين من غير هذه الطريق، انظر فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٢٧١، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٧٢٦

(٢) مسلم، كتاب الزكاة ٢/٧٣٠

(٣) أخرجه أبو داود ١/٢٥٤

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٢٣٤

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/٢٧٨، ٣٧٥ وفي المسند قال عبد الله: «حدثنا أبي، حدثنا منصور...».

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ٤/٢٥٥، والنسائي في اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف للمزي ١/١٣٣

(٧) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٥٥، وعارضة الأحوذي، أبواب البر ٨/١٣٢ ـ ١٣٣

(٨) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٥٦

وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا بشر، حدثنا عُمارة بن غَزِيَّة، حدثني رجلٌ من قومي، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من أُعطِيَ عطاءً فوَجَدَ فلْيَجْزِ به، فإن لم يجد فلْيُثْنِ به، فمن أثنى به فقد شكَرَه، ومن كتَمَه فقد كفَرَه» قال أبو داود: «ورواه يحيى بنُ أيُّوب، عن عُمارَةَ بن غَزِيَّة، عن شُرَحبيل، عن جابر. كرهوه فلم يُسَمُّوه». تفرَّد به أبو داود[1].

وقال مجاهد: يعني النبوَّة التي أعطاك ربُّك. وفي رواية عنه: القرآن.

وقال ليثٌ، عن رَجُلٍ، عن الحسن بن علي: ﴿وأما بنعمةِ ربِّك فحدث﴾، قال: ما عَمِلت من خَير فحدِّث إخوانَكَ.

وقال محمدُ بن إسحاقَ: ما جاءك الله من نعمةٍ وكَرَامةٍ من النبوَّة فَحَدِّث بها واذكُرها، وادعُ إليها. وقال: فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ «يذكُر ما أنعم الله به عليه من النُّبوَّة سِرًّا إلى من يَطْمَئِنُّ إليه من أهله، وافتُرِضت عليه الصلاة، فصلَّى»[2].

آخر تفسير سورة الضحى، ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٤٣.

تفسير

سورة الشرح

وهي مكيّةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ألم نَشْرَح لَكَ صَدْرَكَ﴾، يعني أما شرحنا لك صَدْرك؟ أي: نوّرناه وجعلناه فَسيحاً رَحِيباً واسعاً كقوله: ﴿فمن يُرد الله أن يهديَه يشْرح صَدْره للإسلام﴾، وكما شرَح الله صَدْرَه كذلك جَعَل شَرْعَه فَسيحاً واسعاً سَمْحاً سهلاً لا حَرَجَ فيه ولا إِصْرَ ولا ضِيق.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿ألم نَشْرَح لك صَدْرَك﴾ شرْحُ صَدْرِه ليلة الإسراء، كما تقدّم من رواية مالك بن صَعْصعة[١]، وقد أورده التِّرمذي ها هنا، وهذا وإن كان واقعاً، ولكن لا منافاةَ، فإن من جُملة شَرْحِ صَدْرِه الذي فُعل بصَدْره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشَّرْحِ المعنويّ أيضاً، والله أعلم.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثني محمد بن عبد الرحيم أبو يحيى البزّاز، حدَّثنا يونس بن محمد، حدَّثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن محمد بن أبي بن كعب، حدَّثني أبي محمد بن معاذ، [عن معاذ][٢] عن محمد، عن أُبيّ بن كعب: أن أبا هُرَيْرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن أشياء لا يسألُه عنها غيرُه،

(١) انظر مفتتح سورة الإسراء.
(٢) سقط من النسخ.

فقال: يا رسولَ الله، ما أوّلُ ما رأيتَ من أمر النُّبوّة؟ فاستوى رسولُ الله ـ ﷺ ـ جالساً وقال: ولقد سألتَ يا أبا هُريرة، إني لفي الصحراء ابنَ عشر سنينَ وأشهُر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجلٌ يقول لرجل: أهُو هُو؟ [قال: نعم][(١)] فاستقبلاني بوجوه لم أرها [لخلق][(١)] قطُّ، وأرواح لم أجدها من خَلْقٍ قطُّ، وثياب لم أرها على أحدٍ قطُّ. فأقبلا إليَّ يمشيان، حتى أخذ كلُّ واحدٍ منهما بعَضُدي، لا أجدُ لأحدهما مسّاً، فقال أحدُهما لصاحبه: أضْجِعْهُ. فأضجعاني بلا قَصْرٍ ولا هَصْر[(٢)]. فقال أحدُهما لصاحبه: افلق صَدْرَه. فهوى أحدهما إلى صَدْري فَفَلقه فيما أرى بلا دَم، ولا وَجَعٍ، فقال له: أخرج الغِلَّ والحَسَدَ. فأخرج شيئاً كهيئة العلَقَة ثم نَبَذها فَطَرحها، فقال له: أدْخِل الرأفةَ والرحمةَ، فإذا مثلُ الذي أخرج شِبهُ الفِضَّة، ثم هَزَّ إبهامَ رِجْلي اليُمنَى فقال اغدُ واسلم. فرجعت بها أغدُو، رِقةً على الصغير، ورحمة للكبير[(٣)].

وقولُه: ﴿وَوَضَعنا عنكَ وِزْرَكَ﴾ بمعنى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذَنْبِكَ وما تأخَّر﴾، ﴿الذي أنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الإنقاض: الصوتُ. وقال غير واحد من السَّلَف في قوله: ﴿الذي أنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثقلكَ حَمْلُه.

وقولُه: ﴿وَرَفَعنا لكَ ذِكْرَكَ﴾، قال مجاهدٌ: لا أُذكَرُ إلا ذُكِرت معي: أشهد أن لا إلّه إلا الله، وأشهدُ أن محمداً رسول الله.

وقال قتادةُ: رَفَع اللهُ ذكرَه في الدنيا والآخرة، فليس خطيبٌ ولا مُتشهِّدٌ ولا صاحبُ صلاةٍ إلا يُنادي بها: أشهدُ أن لا إلّه إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله.

قال ابنُ جَرير: حدَّثني يونُسُ، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرنا عَمرو بنُ الحارث، عن دَرّاج، عن أبي الهَيْثم، عن أبي سعيدٍ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: وأتاني جبريلُ فقال: إنَّ ربِّي وربَّك يقولُ: كيفَ رفعتُ ذِكرَك؟ قال: الله أعلمُ. قال: إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معي[(٤)].

وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن يونُسَ بن عبد الأعلى، به. ورواه أبو يعلى من طريق ابن لَهيعة، عن دَرّاج[(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرعَة، حدَّثنا أبو عُمَر الحَوضي، حدَّثنا حَمَّاد بن زيد، حدَّثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: وسألتُ ربِّي مسألةً وَدِدتُ أني لم أكُن سألتُه، قلت: قد كانت قبلي أنبياءُ، منهم من سُخِّرت له الريحُ، ومنهم مَن يحيي الموتى. قال: يا محمدُ، ألم أجِدْك يتيماً فآويتُك؟ قلت: بلى يا ربِّ. قال: ألم أجِدك ضالاًّ فهديتُك؟ قلت: بَلَى يا ربِّ. قال: ألم أجِدْكَ عائلاً فأغنيتُكَ؟ قال: قلت: بلى يا ربِّ. قال: ألم أشرَحْ لك صَدْرَك؟ ألم أرْفَعْ لك ذِكرَك؟ قلت: بلى يا ربِّ».

وقال أبو نُعَيم في دلائل النبوة: حدَّثنا أبو أحمد الغِطْريفي، حدَّثنا مُوسى بن سهل الجَوني، حدَّثنا أحمد بن القاسم بن بهرام الهِيتي، حدَّثنا نصر بن حَمَّاد، عن عثمان بن عطاء، عن الزُّهريِّ، عن أنس قال قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ولما فَرَغتُ مما أمرني الله به من أمر السمواتِ والأرضِ قلتُ: يا ربِّ، إنه لم يكُن نبيٌ

---

(١) سقط من النسخ.

(٢) القَصْر: القهر والغلبة، من القَسْر، أبدلت السين صاداً. والهَصْرُ: الجذْبُ.

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/١٣٩.

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٢٣٥، ومسند أبي يعلى ٢/١٣١.

علي إلاَّ وقد كرَّمته، جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخّرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى، فما جعلت لي؟ قال: أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله، أني لا أُذكر إلا ذُكرت معي، وجعلتُ صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً، ولم أعطها أمةً، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي، لا حولَ ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم»[١].

وحكى البغويُّ، عن ابن عبّاس ومجاهدٍ: أن المراد بذلك: الأذانَ. يعني ذِكْره فيه، وأورد من شعر حسّان بن ثابت[٢]:

أغرُّ، عليه للنبوة خاتمٌ ... من الله من نورٍ يلوحُ ويشهدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ
وشقّ لهُ مِن اسمه ليُجلّه ... فذو العرش محمودٌ، وهذا محمّدُ

وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين، ونوّه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته فلا يُذكرُ الله إلا ذُكر معه. وما أحسن ما قال الصرصريُّ رحمه الله:

لا يصحُّ الأذانُ في الفرض إلا ... باسمه العذب في الفم المرضيِّ

وقال أيضاً:

ألم ترَ أنّا لا يصحُّ أذانُنا ... ولا فرضُنا إنْ لم نُكرّرْه فيهما

وقوله: ﴿فإن مع العُسر يسراً * إن مع العسر يُسراً﴾، أخبر تعالى أن مع العسر يُوجَدُ اليسرُ، ثم أكد هذا الخبر، قال ابن أبي حاتم:

حدّثنا أبو زُرعة، حدّثنا محمود بن غَيلان، حدّثنا حُميد بن حماد بن أبي خُوار أبو الجهم، حدّثنا عائذُ بن شُريح قال: سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ جالساً وحياله حَجَرٌ، فقال: «لو جاء العُسر فدخل هذا الحجَر لجاء اليُسر حتى يدخل عليه فيُخرجَه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾».

ورواه أبو بكر البزّار في مسنده عن محمد بن معمر، عن حُميد بن حمّاد، به ولفظه: «لو جاء العسرُ حتى يدخلَ هذا الحجَر لجاء اليسرُ حتى يُخرجه ثم قال: ﴿فإنَّ مع العُسرِ يُسراً * إنَّ مع العُسرِ يسراً﴾»، ثم قال البزار: لا نعلمُ رواه عن أنس إلا عائذُ بن شُريح[٣].

قلت: وقد قال فيه أبو حاتم الرازيُّ: في حديثه ضعف[٤]، ولكن رواه شُعْبَةُ عن معاوية بن قُرّة، عن رَجُلٍ، عن عبد الله بن مسعود، موقوفاً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدّثنا الحسن بن مُحمّد بن الصباح، حدّثنا أبو قَطَنٍ، حدّثنا المبارك بن فَضالة، عن الحسن قال: كانوا يقولون: لا يغلبُ عسرٌ واحدٌ يُسرين اثنين[٥].

---

(١) لم يقع لنا في طبعتي الدلائل، والحديث في الدر المنثور ٨/٥٤٩ عن أبي نُعيم وحده.
(٢) تفسير البغوي ٤/٥٠٢. وانظر ديوان حسان ٣٣٨ ـ ٣٣٩.
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٨١ وأخرجه الحاكم بإسناده إلى محمود بن غيلان، وقال ٢/٢٥٥ وهذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح» وانظر الجرح والتعديل، ترجمة عائذ بن شريح ٧/١٦.
(٤) أخرجه مالك بإسناده إلى عمر بن الخطاب من قوله لأبي عُبيدة بن الجراح، انظر الموطأ، كتاب الجهاد ٢/٤٤٦.

وقال ابنُ جَرير: حدَّثنا ابنُ عبد الأعلى، حدَّثنا ابنُ ثَور، عن مَعْمَر، عن الحسن قال: خرج النبيُّ ـ ﷺ ـ يوماً مسروراً فَرِحاً وهو يضحَكُ، وهو يقول: «لن يغلِبَ عُسرٌ يُسرَين، لن يَغلِبَ عُسْرٌ يُسرين، إنّ مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً»[١].

وكذا رواه من حديث عَوفٍ الأعرابي، ويونس بن عُبيد، عن الحسن مرسلاً[١].

وقال سعيد، عن قتادَةَ: ذُكِر لنا أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ بَشَّر أصحابَه بهذه الآية فقال: «لن يَغلِبَ عُسْرٌ يُسرين».

ومعنى هذا أن العسرَ مُعرَّفٌ في الحالين، فهو مفردٌ، واليُسْر منكَّرٌ فتعدَّدَ، ولهذا قال: «لن يغلب عسرٌ يُسرَين»، يعني قوله: ﴿فإنَّ مع العُسرِ يُسراً * إن مع العسرِ يُسراً﴾، فالعسرُ الأولُ هو الثاني، واليُسر تعدَّد.

وقال الحسن بن سُفيان: حدَّثنا يزيدُ بن صالح، حدَّثنا خارجةُ، عن عباد بن كثير، عن أبي الزِّناد، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «نَزَلَ المعونةُ من السماءِ على قَدْرِ المَئونةِ، ونَزَلَ الصبرُ على قَدْرِ المُصيبة». ومما يروى عن الشافعيِّ أنه قال[٢]:

صَبراً جَميلاً ما أقْرَبَ الفَرَجا ... مَن رَاقَبَ اللهَ في الأمورِ نَجا
مَن صَدَقَ اللهَ لَم يَنَلْه أذَى ... وَمَن رَجاه يَكونُ حَيْثُ رَجا

وقال ابنُ دُرَيد: أنشدني أبو حاتم السِّجِستانيُّ:

إذا اشتَمَلت عَلَى اليأسِ القُلوبُ ... وضَاقَ لما به الصدْرُ الرَّحِيبُ
وأوطَاتِ المَكَارِه واطمأنَّت، ... وأرسَتْ في أمَاكِنِها الخُطوبُ
ولَم تَرَ لانكشافِ الضرِّ وجْهاً ... ولا أغنَى بحيلَتِهِ الأريبُ
أتاكَ على قُنوطٍ منكَ غَوثٌ ... يَمُنُّ به اللطيفُ المُستَجيبُ
وكلُّ الحادثاتِ إذا تَناهَتْ ... فَموصُولٌ بها الفرجُ القريبُ

وقال آخر:

ولَرُبَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفَتَى ... ذَرْعاً، وعندَ الله منها المَخْرَجُ
كَمُلَت، فلما استحكمَت حلقاتُها ... فُرِجت، وكان يَظُنُّها لا تُفرَجُ

وقولُه: ﴿فإذا فَرَغت فانصَبْ * وإلى ربِّكَ فارْغَبْ﴾، أي: إذا فَرَغت من أُمور الدنيا وأشغالها وقَطعت علائقها، فانصَبْ في العبادة، وقم إليها نَشيطاً فارغَ البالِ، وأخلِصْ لربِّك النيَّةَ والرغبةَ. ومن هذا القبيل قولُه ـ ﷺ ـ في الحديث المتفق على صِحَّتِه: «لا صلاةَ بحضرة طعامٍ، ولا وهو يُدافِعُه الأخبثان»[٣] وقوله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاةُ وحَضَر العَشاء فابدؤوا بالعَشاء»[٤].

قال مجاهد في هذه الآية: إذا فَرَغت من أمر الدنيا فَقُمتَ إلى الصلاة، فانصَبْ لربك. وفي روايةٍ عنه:

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٣٦.

(٢) البيتان في مناقب الشافعي للبيهقي منسوبين إلى الربيع بن سليمان مع خلاف يسير ٢/٣٦٧

(٣) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ١/٣٩٣، وأبو داود في كتاب الطهارة ١/٢٢، والإمام أحمد في مسنده ٦/٤٣، ٥٤، ٧٣ والأخبثان البول والغائط.

(٤) أخرجه الشيخان. فتح الباري، كتاب الأذان ٢/١٥٩، ومسلم، كتاب المساجد ١/٣٩٢

إذا قمتَ إلى الصلاة فانصبْ في حاجَتك. وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصَب في قيام الليل. وعن ابن عياض نحوه. وفي رواية عن ابن مسعود: ﴿فانصبْ * وإلى ربِّك فارغبْ﴾، بعد فراغك من الصَّلاة وأنتَ جالسٌ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فإذا فرغت فانصبْ﴾، يعني في الدعاء. وقال زيد بن أسلم، والضحَّاك: ﴿فإذا فرغت﴾، أي: من الجهاد ﴿فانصبْ﴾، أي: في العبادة.
﴿وإلى ربِّك فارغب﴾، قال الثَّوريُّ: اجعل نيَّتك ورغْبتك إلى الله عزَّ وجلَّ.

آخر تفسير سُورَة ﴿أَلَم نَشْرَح﴾، ولله الحمدُ والمنَّةُ

تفسير

سورة التين

وهي مكيّة

قال مالكٌ وشُعبةُ، عن عَديِّ بن ثابتٍ، عن البَرَاء بن عازبٍ: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ فقرأ في إحدى الركعتَين بالتِّين والزيتُونِ، فما سَمِعتُ أحداً أحسنَ صوتاً أو قراءةً منه. أخرجه الجماعةُ في كُتُبهم[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨ ﴾

اختلف المفسِّرون ها هنا على أقوالٍ كثيرةٍ فقيلَ: المرادُ بالتِّين مسجدُ دمشق. وقيل: هي نفسُها. وقيل

(١) الموطأ، كتاب الصلاة ١/٧٩ ـ ٨٠، وفتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٥٠، وتفسير سورة التين ٨/٧١٣، وكتاب التوحيد ١٣/٥١٨، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٣٩، وأخرجه أصحاب السنن في كتاب الصلاة سنن أبي داود ٢/٨، وعارضة الأحوذي ٢/١٠٦، والنسائي ٢/١٧٣، وابن ماجه ١/٢٧٢ ـ ٢٧٣.

الجبلُ الذي عندها. وقال القرظيُّ: هو مَسجدُ أصحاب الكهْفِ. وروَى العوفيُّ، عن ابن عبّاسٍ: أنه مسجدُ نوحٍ الذي على الجُوديِّ. وقال مجاهدٌ: هو تِينُكم هذ.

﴿والزيتُونِ﴾، قال كعبُ الأحبار، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، وغيرُهم: هو مسجدُ بيتِ المقدِس. وقال مجاهدٌ، وعِكْرمةُ: هو هذا الزيتونُ الذي تَعصِرُون.

﴿وطُورِ سِينينَ﴾، قال كعبُ الأحبار وغيرُ واحدٍ: هو الجبلُ الذي كَلّم الله عليه موسى.

﴿وهذا البلدِ الأمينِ﴾: يعني مَكّةَ. قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والحَسَنُ، وإبراهيم النخعيُّ، وابنُ زيدٍ، وكعبُ الأحبارِ، ولا خِلافَ في ذلك.

وقال بعضُ الأئمةِ: هذه مَحالُّ ثلاثةٌ، بَعَث الله في كلِّ واحدٍ منها نبيًّا مُرسَلًا من أُولي العَزمِ أصحابِ الشرائع الكبار، فالأوَّلُ: مَحلّةُ التين والزيتونِ، وهي بيتُ المقدِس، التي بَعَث الله فيها عيسى ابن مَرْيَم. والثاني: طُورُ سِينين، وهو طُور سيناءَ الذي كلَّم الله عليه موسى بنَ عمران. والثالث: مكّةُ، وهو البلدُ الأمينُ الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرْسَل فيه محمداً ﷺ قالوا: وفي آخر التوراة ذِكْرُ هذه الأماكنِ الثلاثةِ. جاء الله من طور سيناء ـ يعني الذي كلّم الله عليه موسى ـ وأشرق من سَاعِيرَ[1] يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى، واستعلن من جبال فاران ـ يعني جبال مَكّةَ التي أرسل الله منها محمّداً ﷺ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوُجُوديِّ بحسَب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرفِ، ثم الأشرفِ منه، ثم بالأشرف منهما.

وقولُه: ﴿لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ﴾، هذا هو المُقْسَم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسانَ في أحسنِ صُورَةٍ، وشَكْلٍ مُنتَصِب القامةِ، سَوِيِّ الأعضاءِ حَسَنِها.

﴿ثم رَدَدناه أسفلَ سافلين﴾ أي: إلى النار. قاله مجاهدٌ، وأبو العالية، والحسنُ، وابنُ زيدٍ، وغيرُهم. ثم بعد هذا الحُسنِ والنَّضارة مَصِيرُه إلى النار إن لم يُطِعِ الله ويَتَّبعِ الرُّسُلَ. ولهذا قال: ﴿إلا الذين آمنُوا وعملُوا الصالحات﴾.

وقال بعضُهم: ﴿ثم رَدَدناه أسفلَ سافلين﴾، أي: إلى أرْذَلِ العُمُر. رُوِيَ هذا عن ابن عباس، وعِكْرِمة، حتى قال عِكْرِمة: من جَمَع القرآن لم يُرَدَّ إلى أرْذَلِ العُمُر. واختار ذلك ابنُ جَرير[2]. ولو كان هذا هو المرادَ لما حَسُنَ استثناءُ المؤمنين من ذلك، لأن الهَرَم قد يُصِيب بعضهم، وإنما المُراد ما ذكرناه، كقوله: ﴿والعَصْرِ ۝ إنَّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ ۝ إلا الذين آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ﴾.

وقولُه: ﴿فلهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ﴾، أي: غيرُ مقطوعٍ كما تقدَّم.

ثم قال: ﴿فما يُكذِّبكَ﴾، يعني يا ابن آدَمَ ﴿بعدُ بالدِّين﴾، أي: بالجزاء في المَعاد، وقد عَلِمتَ البَدْأةَ، وعَرَفت أن من قدر على البَدْأة فهو قادر على الرَّجْعَةِ بطريق الأولى، فأيُّ شيءٍ يَحمِلُك على التكذيب بالمعاد وقد عَرَفتَ هذا؟!

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أحمدُ بن سِنَانٍ، حدَّثنا عبد الرحمن، عن سُفيانَ، عن منصورٍ قال: قلتُ

(١) ساعير: اسمٌ لجبل فلسطين. معجم البلدان.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٢٤٥

لمحمد ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾، عنى به النبيَّ ﷺ؟ قال: معاذ الله! عنى به الإنسان. وهكذا قال عكرمة وغيره.

وقوله ﴿أليس اللهُ بأحكم الحاكمين﴾، أي أمَا هو أحكمُ الحاكمين، الذي لا يجور ولا يظلم أحداً؟! ومن عدله أن يُقيم القيامة فينتصفُ للمظلوم في الدنيا ممَّن ظلمه. وقد قدَّمنا في حديث أبي هُريرة مرفوعاً: «فإذا قرأ أحدُكم ﴿والتين والزيتون﴾ فأتى على آخرها: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»(١).

آخر تفسير «والتين والزيتون» ولله الحمدُ والمنّةُ

---

(١) تقدم في خاتمة سورة القيامة.

تفسير

سورة العلق

وهي أوّلُ شيء نَزَل من القرآنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

قال الإمامُ أحمد: حدثنا عبدُ الرزّاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن عُروةَ، عن عائشة قالت: أولُ ما بُدِئ به رسولُ الله ـ ﷺ ـ من الوحي الرؤيا الصادقةُ في النوم، فكان لا يرى رُؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصُّبح. ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، فكان يأتي حراء فيتحنَّث فيه ـ وهو: التعبُّدُ ـ الليالي ذَواتِ العَدَدِ، ويَتزوَّدُ لذلك ثم يرجعُ إلى خديجة فتُزوِّده لمثلها حتى فَجِئَه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فقلت: ما أنا بقارئ! قال: فأخذني فغطَّني[1] حتى بلغ مني الجَهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ! فغطَّني الثانية حتى بَلَغ مني الجَهْدُ، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ! فغطَّني الثالثة حتى بلغ مني الجهدُ، ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربِّك الذي خَلَق﴾ حتى بلغ: ﴿ما لم يَعْلم﴾، قال: فرَجع بها ترجُفُ بوادره[2] حتى دخل على خديجةَ فقال: «زَمِّلُوني زَمِّلُوني». فَزمَّلُوه حتى ذَهَب عنه الروعُ فقال: يا خديجةُ، ما لي؟ فأخبرها الخبرَ وقال: قد خَشِيتُ عليَّ. فقالت له: كلّا، أَبْشِرْ، فوالله لا

(١) أي: عصرني وضمني. والجهد: الغاية والمشقة.

(٢) البوادر: جمع بادرة، وهي اللحمة التي بين المنكب والعنق، تضطرب عند الفزع.

يُخزيك الله أبداً، إنك لتَصِلُ الرَّحِمَ، وتصدُقُ الحديثَ، وتحمِلُ الكَلَّ[١]، وتقري الضيفَ، وتُعِينُ على نوائبِ الحقِّ. ثم انطلقت به خديجةُ حتى أتت به وَرَقَةَ بن نَوْفَلِ بن أسد بن عبد العُزى بن قُصَي ـ وهو ابن عمّ خديجة، أخي أبيها ـ وكان امرأً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتُبُ الكتابَ[٢] العربيَّ، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتُبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ ـ فقالت خديجةُ: أيْ ابن عمِّ، اسمَعْ من ابن أخيكَ. فقال ورقةُ: ابنَ أخي، ما ترى؟ فأخبره رسولُ الله ـ ﷺ ـ ما رأى، فقال وَرَقَةُ: هذا النَّاموسُ الذي أُنزلَ على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[٣] أكونُ حَيّاً حين يُخرِجُكَ قومُكَ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أوَ مُخرجيَّ هم؟». فقال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلا عُودِيَ، وإن يُدرِكْني يومُكَ أنصُرْكَ نصراً مُؤَزَّراً. ثُمَّ لم يَنْشَبْ[٤] وَرَقَةُ أن تُوفِّي، وفَتَرَ الوحيُ فترةً حتى حَزِنَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حُزناً غدا منه مراراً كي يتردّى من رؤوس شَوَاهِقِ الجبال، فكلما أوفى بذروة جبلٍ لكي يُلقِيَ نفسَه منه تبدّى له جبريلُ فقال: يا محمّدُ، إنك رسولُ الله حقاً فيَسْكُنُ لذلك جأشُه، وتَقَرُّ نفسُه، فيرجعُ. فإذا طالت عليه فترةُ الوحي غَدَا لمثلِ ذلك، فإذا أوفى بذِرْوَةِ جبلٍ تبدّى له جبريلُ، فقال له مثلَ ذلك[٥].

وهذا الحديث مخرَّج في الصحيحين[٦] من حديث الزُّهريِّ، وقد تكلَّمنا على هذا الحديث من جهة سَنَده ومَتْنه ومعانيه في أول شرحنا للبُخاري مستقصىً، فَمَن أراده فهو هناك مُحَرَّرٌ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

فأوَّلُ شيءٍ نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المبركة، وهُنَّ أول رَحْمَة رَحِم الله بها العِبادَ، وأوَّلُ نعمةٍ أنعم بها عليهم. وفيها التنبيهُ على ابتداءِ خلق الإنسان من عَلَقةٍ، وأن من كَرَمه تعالى أن عَلَّم الإنسانَ ما لم يعلَم، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدمُ على الملائكةِ، والعلمُ تارة يكون في الأذهانِ، وتارةً يكونُ في اللسان، وتارة يكون في الكتابةِ بالبنانِ، ذهنيٌّ ولفظيٌّ ورسميٌّ، والرسميُّ يستلزمُهما من غير عكس، فلهذا: قال: ﴿اقرأ وربك الأكرم ● الذي علّم بالقلم ● علّم الإنسان ما لم يعلم﴾. وفي الأثر: قيِّدُوا العلمَ بالكتابِ[٦] وفيه أيضاً: «من عَمِلَ بما عَلِمَ أورثه علم ما لم يكن يعلم».

﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴿٦﴾ أن رآه استغنى ﴿٧﴾ إن إلى ربك الرجعى ﴿٨﴾ أرأيت الذي ينهى ﴿٩﴾ عبدا إذا صلى ﴿١٠﴾ أرأيت إن كان على
الهدى ﴿١١﴾ أو أمر بالتقوى ﴿١٢﴾ أرأيت إن كذب وتولى ﴿١٣﴾ ألم يعلم بأن الله يرى ﴿١٤﴾ كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ﴿١٥﴾ ناصية كاذبة خاطئة ﴿١٦﴾
فليدع ناديه ﴿١٧﴾ سندع الزبانية ﴿١٨﴾ كلا لا تطعه واسجد واقترب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن الإنسان أنه ذو فَرَحٍ وأَشَرٍ وبَطَرٍ وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكَثُر ماله. ثم تهدَّده وتوعَّده ووعَظه فقال: ﴿إنّ إلى ربك الرُّجعى﴾، أي إلى الله المصيرُ والمرجعُ، وسيُحاسبك على مالِكَ، من أين جَمَعته؟ وفيم صَرَفته؟

(١) الكلُّ: الثقل.
(٢) أي: الكتابة. يقال: كتب كَتْباً، وكِتاباً، وكتابةً.
(٣) الضمير في «فيها» يعود إلى أيام النبوة. وجذعاً: شاباً قوياً، يريد: حتى أنصرك.
(٤) أي: لم يلبث.
(٥) مسند الإمام أحمد ٦/٢٣٢ ـ ٢٣٣، وفتح الباري، كتاب بدء الوحي ١/٢٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٣٩ ـ ١٤٣.
(٦) أي: بالكتابة. وقد أخرجه الدارمي في المقدمة ١/١٢٧ من كلام عُمَر بن الخطاب، والطبراني في المعجم الكبير ١/٢٤٦ من كلام أنس، وقال في مجمع الزوائد ١/١٥٢: «ورجاله رجال الصحيح». وأخرج الطبراني في الأوسط عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قيِّد العِلْمَ. قلتُ: وما تقييده؟ قال: الكتابة» قال في المجمع ١/١٥٢: «وفيه عبد الله بن المؤمل».

قال ابن أبي حاتم: حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو عُمَيس، عن عَوْن قال: قال عبد الله: منهومان لا يشبعان، صاحبُ العلم وصاحبُ الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحبُ العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحبُ الدنيا فيتمادى في الطغيان. قال: ثم قرأ عبد الله: ﴿إِنَّ الإِنسانَ لَيَطغى * أَن رَآهُ استغنى﴾. وقال للآخر: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ﴾.

وقد رُوي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ـ ﷺ ـ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»[1].

ثم قال تعالى: ﴿أَرَأَيتَ الذي يَنهى * عبداً إذا صَلّى﴾: نزلت في أبي جهل لعنه الله، توعَّد النبيَّ ـ ﷺ ـ على الصلاة عند البيت، فوعظه تعالى بالتي هي أحسنُ أولاً فقال: ﴿أرأيت إن كان على الهُدى﴾، أي: فما ظنُّك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فِعْله، أو ﴿أمر بالتقوى﴾ بقوله، وأنت تزجُره وتتوعَّده على صلاته. ولهذا قال: ﴿ألم يَعلم بأنَّ الله يَرى﴾؛ أي: أما عَلِم هذا الناهي لهذا المُهتدي أنَّ الله يَراه ويسمَعُ كلامَه، وسيُجازيه على فعلِه أتمَّ الجزاء؟!

ثم قال تعالى مُتوعِّداً ومُتهدِّداً: ﴿كلَّا لئن لم ينتهِ﴾، أي: لئن لم يرجع عمَّا هو فيه من الشقاق والعنادِ ﴿لنسفعاً بالناصية﴾ أي: لنَسِمَنَّها سواداً يومَ القيامة.

ثم قال: ﴿ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ﴾، يعني: ناصيةُ أبي جهلٍ كاذبةٌ في مقالها، خاطئةٌ في فِعَالِها.

﴿فلْيَدْعُ ناديَه﴾، أي: قومه وعشيرتَه، أي: لِيَدْعُهم يستنصرُ بهم ﴿سندعُ الزَّبانية﴾، وهم ملائكةُ العذاب، حتى يعلم من يَغلِبُ: أحِزبُنا أو حِزْبُه؟

قال البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا عبد الرزَّاق، عن معمر، عن عبد الكريم الجَزَري، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمداً يُصلِّي عند الكعبة لأطأنَّ على عُنُقه. فبلغَ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: «لئن فعله لأخذته الملائكة». ثم قال: تابعَه عَمْرو بن خالد، عن عُبَيد الله ـ يعني ابنَ عمرو ـ عن عبد الكريم[2].

وكذا رواه التِّرمذيُّ والنسائي في تفسيرهما من طريق عبد الرزَّاق، به[2]. وهكذا رواه ابنُ جرير، عن أبي كُرَيب، عن زكريا بن عَدي، عن عُبَيد الله بن عمرو، به[3].

وروى أحمدُ، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابنُ جَرير ـ وهذا لفظُه ـ من طريق داود بن أبي هند، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصلِّي عند المقام، فمرَّ به أبو جَهل بن هشام فقال: يا محمدُ، ألم أنهَكَ عن هذا؟! وتوعَّده، فأغلظ له رسولُ الله ـ ﷺ ـ وانتهره فقال: يا محمدُ، بأيِّ شيءٍ تُهدِّدني؟ أما والله إني لأكثرُ هذا الوادي نادياً! فأنزل الله: ﴿فلْيدعُ ناديَه * سَندعُ الزبانية﴾، قال ابن عباس: لو دعا ناديَه لأخذته ملائكةُ العذاب من ساعته[3]. وقال الترمذي: حسن صحيح[3].

---

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة ٩٦/١ موقوفاً على ابن عباس. والطبراني في المعجم الكبير ٣٢٣/١٠ بإسناده إلى عبد الله بن مسعود مرفوعاً. وقال في المجمع ١٣٥/١: «وفيه أبو بكر الداهري، وهو ضعيف».

(٢) أخرجوه عند تفسير هذه السورة، فتح الباري ٧٢٤/٨، وعارضة الأحوذي ١٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥١، وأخرجه النسائي في سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٤٨/٥. وتفسير الطبري ٢٥٦/٣٠

(٣) تفسير الطبري ٢٥٦/٣٠، ومسند الإمام أحمد ٣٢٩/١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ ٢٥١/١٢ ـ ٢٥٢، والنسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٣٢/٥.

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدَّثنا إسماعيل بنُ زيد أبو يزيد، حدَّثنا فُراتٌ، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ رسول الله يُصلِّي عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عُنُقه. قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكةُ عياناً، ولو أن اليهود تمنَّوا الموتَ لماتُوا وَرَأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُباهلون[1] رسول الله ـ ﷺ ـ لرجعوا لا يجدُون مالاً ولا أهلاً»[1].

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدَّثنا ابن حُميد، حدَّثنا يحيى بن واضح، أخبرنا يونُس بن أبي إسحاق، عن الوليد بن العَيْزار، عن ابن عباس قال: قال أبو جَهل: لئن عاد محمد يُصَلِّي عند المقام لأقتُلنَّه. فأنزل الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿اقرأ باسم ربِّك الذي خَلَق﴾، حتى بلغ هذه الآية: ﴿لنسفعاً بالناصية * ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ * فَلْيدعُ ناديه * سندعُ الزبانية﴾. فجاء النبيُّ ـ ﷺ ـ [وهو] يُصلِّي[2]، فقيل: ما يمنعُك؟ قال: قد اسودَّ ما بيني وبينه من الكتائب. قال ابن عباس: والله لو تحرَّك لأخذته الملائكةُ والناسُ ينظُرون إليه[3].

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابنُ عبد الأعلى، حدَّثنا المُعتمِر، عن أبيه، حدَّث نُعَيم بن أبي هند، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيْرة قال: قال أبو جَهل: هل يُعفِّرُ محمدٌ وجهه بين أظهُركم؟ قالوا: نَعم. قال: فقال: واللاتِ والعُزَّى لئن رأيتُه يُصلِّي كذلك لأطأنَّ على رَقَبته، ولأعفِّرن وجهه في التراب. فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يُصلي ليطأ على رقَبته، قال: فما فَجِئَهم منه إلا وهو ينكُص على عَقبيه وَيتَّقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خَنْدقاً من نارٍ وهَوْلاً وأجنحةً. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكةُ عُضواً عُضواً». قال: وأنزل الله ـ لا أدري في حديثِ أبي هُرَيرة أم لا ـ: ﴿كلاَّ إن الإنسان ليطغى﴾ إلى آخر السورة[4].

وقد رواه أحمدُ بن حَنبل، ومسلمٌ، والنَّسائي، وابنُ أبي حاتم، من حديث مُعتمر بن سليمان، به[4].

وقولُه: ﴿كلا لا تُطعه﴾، يعني: يا محمدُ، لا تُطعه فيما ينهاكَ عنه من المُداومة على العبادة وكثرتها، وصَلِّ حيثُ شئتَ ولا تُباله، فإنَّ الله حافظُك وناصرُك، وهو يَعصِمُك من الناس، ﴿واسجُد واقترب﴾، كما ثبت في الصحيح عند مسلم، من طريق عبد الله بن وَهب، عن عمرو بن الحارث، عن عُمارة بن غزيَّة، عن سُمَيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجدٌ، فأكثِروا الدعاء»[5].

وتَقدَّم أيضاً أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يسجُد في: ﴿إذا السماءُ انشقَّت﴾، و ﴿اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خلَق﴾.

آخرُ تفسيرِ سورة «العلق» ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) المباهلة: الملاعنة، وهي أن يجتمع القوم، إذا اختلفوا في شيء، فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا والحديث في المسند ١/ ٢٤٨
(٢) في نسخة: «فجاء النبي ﷺ فصلى»، وما بين القوسين عن الطبري.
(٣) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٥٦.
(٤) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٥٦، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٣٧٠، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/ ٢١٥٤، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير والملائكة من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٠/ ٩٢
(٥) مسلم، كتاب الصلاة ١/ ٣٥٠

تفسير

سورة القدر

وهي مكيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ
وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾

يُخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلةَ القدر، وهي الليلةُ المباركةُ التي قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنا أنزلناهُ في ليلةٍ مُباركةٍ﴾، وهي ليلةُ القدر، وهي من شهر رَمَضان، كما قال تعالى: ﴿شهرُ رَمَضانَ الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ﴾.

قال ابنُ عباس وغيرُه: أنزل الله القرآنَ جُملةً واحدةً من اللّوح المحفُوظِ إلى بيتِ العِزّةِ من السماء الدُّنيا، ثم نزل مُفصّلاً بحسب الوقائع في ثلاثٍ وعشرين سنةً على رسولِ الله ﷺ.

ثم قال تعالى مُعظّماً لشأن ليلة القَدر التي اختصّها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلةُ القدر ◉ ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهرٍ﴾.

قال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدّثنا محمود بن غَيلان، حدّثنا أبو داودَ الطَّيالسي، حدّثنا القاسمُ بن الفضل الحُدّاني، عن يوسف بن سعدٍ قال: قام رجلٌ إلى الحسن بن علي بعد ما بايَع معاويَةَ فقال: سوّدت وجوه المؤمنين ـ أو: يا مُسَوِّدَ وجُوه المؤمنين ـ فقال: لا تُؤنّبني ـ رَحِمك الله ـ فإن النبيَّ ـ ﷺ ـ أُرِيَ بني أمية على منبره، فساءه ذلك، فنزلت: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ يا محمدُ، يعني نهراً في الجنة، ونزلت: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر ◉ وما أدراك ما ليلةُ القدر ◉ ليلة القدر خير من ألف شهرٍ﴾ يملكها بعدَك بنو أميّةَ يا محمد. قال القاسم: فعددنا فإذا هي ألفُ شهرٍ، لا تزيدُ يوماً ولا تنقُص.

ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفُه إلا من حديث القاسم بن الفضل، وهو ثقة، وثَّقه يحيى القطَّان وابنُ مهدي. قال: وشيخُه يوسفُ بن سعد ـ ويقال: يوسف بن مازن ـ رجلٌ مجهولٌ، ولا نعرف هذا الحديث، على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه(١).

وقد رَوى هذا الحديث الحاكمُ في مستدركه، من طريق القاسم بن الفضل، عن يوسفَ بن مازنٍ، به وقول الترمذي: إنَّ يوسف هذا مجهولٌ ـ فيه نظرٌ؛ فإنه قد روى عنه جماعةٌ، منهم: حَمَّاد بن سلمة، وخالد الحذَّاء، ويونس بن عُبَيد. وقال فيه يحيى بن مَعِين: هو مشهورٌ، وفي رواية عن ابن مَعين: هو ثِقَةٌ. ورواه ابنُ جرير(٢) من طريق القاسم بن الفضل، عن عيسى بن مازن، كذا قال، وهذا يقتضي اضطراباً في هذا الحديث، والله أعلم، ثم هذا الحديثُ على كلِّ تقديرٍ مُنكَرٌ جداً، قال شيخنا الإمام الحافظ الحجة أبو الحجاج المزِّي: هو حديث منكرٌ.

قلت: وقولُ القاسم بن الفضل الحُدَّاني: إنه حَسَب مُدَّة بني أمية فوَجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص، ليس بصحيح؛ فإن معاويةَ بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ استقلَّ بالملك حين سَلَّم إليه الحسنُ بنُ عليٍّ الإمرةَ سنة أربعين، واجتمعت البيعةُ لمعاوية، وسُمِّي ذلك عام الجماعة، ثم استمرُّوا فيها مُتتابعين بالشام وغيرها، لم تخرُج عنهم إلا مُدَّةُ دولة عبد الله بن الزُّبَير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنينَ، لكن لم تَزُل يدُهم عن الإمرة بالكلِّية، بل عن بعض البلادِ، إلى أن استلَبَهُم بنو العباس الخلافة في سنة اثْنَتين وثلاثين ومائةٍ، فيكونُ مجموعُ مُدَّتهم اثنتين وتسعينَ سنة، وذلك أزيدُ من ألفِ شهر، فإن الألف شهر عبارةٌ عن ثلاثٍ وثمانين سنةً وأربعةِ أشهرٍ، وكأن لقاسم بن الفضل أسقط من مُدَّتهم أيامَ ابن الزبير، وعلى هذا فتَقارَبَ ما قاله للصِّحة في الحساب، والله أعلم.

ومما يدلُّ على ضَعف هذا الحديث أنه سِيق لذمِّ دولة بني أمية، ولو أُريد ذلك لم يكُن بهذا السياق؛ فإنَّ تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذَمِّ أيامهم، فإنَّ ليلة القَدْر شريفةٌ جداً، والسورةُ الكريمةُ إنما جاءت لمدح ليلةِ القدر، فكيف تُمدَحُ بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومةٌ بمقتضى هذا الحديث، وهل هذا إلا كما قال القائل:

أَلَم تَـرَ أَنَّ السَّيفَ ينقُصُ قَـدْرُهُ إذا قِيلَ. إنَّ السيفَ أمْضَى مِن العَصا

وقال آخر:

إذا أنتَ فَضَّلتَ امرأً ذا بَـرَاعَـة عَلَى نَاقصٍ، كَانَ المديحُ من النَّقص

ثم مَن الذي يفهم من الآية الألفَ الشهر المذكورةِ في الآية هي أيامُ بني أمية، والسورةُ مكيَّة، فكيف يُحال على ألف شهر هي دولةُ بني أميَّة، ولا يَدُلُّ عليها لفظُ الآيةِ ولا معناها؟! والمِنبرُ إنما صُنع بالمدينة بعد مُدَّةٍ من الهجرة، فهذا كُلُّه مما يدلُّ على ضَعْفِ هذا الحديث ونَكارته، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرعَةَ، حدَّثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا مسلم ـ يعني ابنَ خالد ـ عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ ذَكَر رجلاً من بني إسرائيلَ لَبِسَ السلاحَ في سَبيل الله ألف شهر، قال: فَعَجِب المسلمون من ذلك، قال: فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلةُ

(١) عارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١٢/٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٢٦٠.

القدر * ليلةُ القدْر خير من ألف شهر﴾، التي لبس ذلك الرجُل السلاح في سبيل الله ألف شهرٍ.

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا حكّام بن سَلْم، عن المثنّى بن الصباح، عن مُجاهدٍ قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يُصبح، ثم يُجاهدُ العدوّ بالنهار حتى يُمسي، ففعل ذلك ألفَ شهرٍ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهر﴾، قيامُ تلك الليلة خيرٌ من عمل ذلك الرجل[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: أخبرنا يونس، أخبرنا ابنُ وهب، حدثني مسلمة بن عُلَيّ، عن علي بن عُرْوة قال: ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً أربعةً من بني إسرائيل، عبدُوا الله ثمانين عاماً، لم يعصُوه طرفة عينٍ. فذكر أيُّوب، وزكريّا، وحزقيل بن العجوز، ويُوشع بن نُونٍ ـ قال: فعجبَ أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ من ذلك، فأتاه جبريلُ فقال: يا محمدُ، عَجبَتْ أمتُك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنةً، لم يعصُوه طرفة عينٍ؛ فقد أنزل الله خيراً من ذلك. فقرأ عليه: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القَدْر * وما أدراك ما ليلةُ القدر * ليلةُ القدرِ خيرٌ من ألف شهرٍ﴾، هذا أفضلُ مما عَجبتَ أنت وأمتُك. قال: فسُرَّ بذلك رسولُ الله ـ ﷺ ـ والناسُ معه.

وقال سُفيان الثَّوريُّ: بلغني عن مُجاهدٍ: ليلةُ القدرِ خيرٌ من ألف شهر. قال: عَمَلُها، صيامُها وقيامها، خيرٌ من ألف شهر. رواه ابن جرير[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا إبراهيمُ بن موسى، أخبرنا ابنُ أبي زائدةَ، عن ابن جُرَيجٍ، عن مُجاهدٍ: ليلةُ القدر خيرٌ من ألفِ شهر، ليس في تلك الشهور ليلةُ القدرِ.

وهكذا قال قتادةُ بن دِعامة، والشافعيُّ، وغير واحد. وقال عمرو بن قيس المُلائي: عَمَلٌ فيها خيرٌ من عمل ألف شهر.

وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ـ وليس فيها ليلةُ القدرِ ـ هو اختيارُ ابن جرير، وهو الصواب لا ما عداه، وهو كقوله ـ ﷺ ـ: «رباطُ ليلةٍ في سبيل الله خيرٌ من ألفِ ليلةٍ فيما سواه من المنازل». رواه أحمد[2] وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة، ونيّةٍ صالحةٍ: أنه يُكتبُ له عملُ سنةٍ، أجرُ صيامِها وقيامِها[3] إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي هُريرة قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قد جاءكم شهرُ رمضان، شهرٌ مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تُفتَح فيه أبوابُ الجنة، وتُغلق فيه أبوابُ الجحيم، وتُغَلُّ فيه الشياطين، فيه ليلةٌ خيرٌ من ألفِ شهرٍ، من حُرم خيرَها فقد حُرم»[4].

ورواه النسائي، من حديث أيوب، به[4].

ولما كانت ليلةُ القدر تعدل عبادتُها عبادةَ ألف شهر ثَبت في الصحيحَين عن أبي هُرَيرة أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه»[5].

وقولُه: ﴿تنزّل الملائكةُ والروحُ فيها بإذن ربّهم من كلِّ أمرٍ﴾، أي: يَكثُر تنزُّل الملائكةِ في هذه الليلةِ

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران.

(٣) تقدم عند تفسير الآية ٩ من سورة الجمعة.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٢٣٠، وسنن النسائي، كتاب الصيام ٤/١٢٩.

(٥) فتح الباري، كتاب الإيمان ١/٩١، وكتاب الصوم ٤/١١٥، وكتاب فضل ليلة القدر ٤/٢٥٥. ومسلم، كتاب الصلاة ١/٥٢٣ ـ ٥٢٤.

لكثرة بَرَكتها، والملائكةُ يزلون مع تَنَزُّل البركة والرحمة، كما يَتنزّلون عند تلاوة القرآن، ويُحيطون بِحَلَق الذِّكر، ويَضَعون أجنحتهم لطالِب العلم بِصِدْقٍ تعظيماً له.

وأما الرُّوح فقيل: إنَّ المُراد به ها هنا جبريلُ عليه السلام، فيكون من باب عَطْفِ الخاصِّ على العام وقيل: هم ضَرْبٌ من الملائكة. كما تقدَّم في سورة النبأ. والله أعلم.

وقولُه: ﴿من كلِّ أمرٍ﴾، قال مجاهدٌ: سَلام هي من كلِّ أمر.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا عيسى بن يونس، حدّثنا الأعمش، عن مجاهدٍ في قوله: ﴿سلامٌ هي﴾، قال: هي سالمةٌ، لا يستطيع الشيطانُ أن يعمَل فيها سُوءاً أو يعمل فيها أذًى.

وقال قتادةُ وغيرُه: تُقضَى فيها الأمورُ، وتُقدَّر الأرزاقُ والآجالُ، كما قال تعالى: ﴿فيها يُفرَق كلُّ أمْرٍ حكيم﴾.

وقولُه: ﴿سلامٌ هي حتّى مطلع الفجر﴾، قال سعيدُ بن منصور: حدَّثنا هُشَيم، عن أبي إسحاق، عن الشعبيِّ في قوله تعالى: ﴿من كُلِ أمرٍ * سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ قال: تسليمُ الملائكةِ ليلةَ القدرِ على أهل المساجد، حتى يَطلُعَ الفجرُ.

ورَوى ابنُ جرير، عن بن عباس أنه كان يقرأ: ﴿من كلِّ امرىء * سَلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾[1].

وروى البيهقي في كتابه «فضائل الأوقات» عن عليٍّ أثـراً غريباً في نُزُول الملائكة، ومُرُورِهم على المصلِّين ليلةَ القدرِ، وحُصُول البركة للمُصلِّين.

ورَوى ابنُ أبي حاتم عن كعب الأحبار أثراً غريباً عَجيباً مُطوَّلاً جداً، في تنزل الملائكة من سِدْرَةِ المُنتهى صُحْبَةَ جبريل ـ عليه السلام ـ إلى الأرض، ودُعائِهم للمؤمنين والمؤمنات.

وقال أبو داود الطيالسيُّ: حدّثنا عمران ـ يعني القطّانَ ـ عن قتادةَ، عن أبي ميمونةَ، عن أبي هُريرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعةٍ، أو تاسعةٍ وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثرُ من عَدَدِ الحصى»[2].

وقال الأعمشُ، عن المنهالِ، عن عبد الرحمن بن أبي لَيْلَى في قوله: ﴿من كل أمرٍ * سلامٌ﴾ قال: لا يَحدُثُ فيها أمرٌ.

وقال قتادةُ وابنُ زيدٍ في قوله: ﴿سلامٌ هي﴾، يعني: هي خيرٌ كلها، ليس فيها شرٌّ إلى مطلع الفجرِ. ويُؤيِّد هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا حَيْوَةُ بن شُرَيح، حدَّثنا بَقِيَّةُ، حدَّثني بَحِير بن سعدٍ، عن خالد بن مَعْدان، عن عُبادة بن الصامت: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ليلةُ القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حِسْبَتِهِنَّ فإن الله يغفِرُ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلةُ وِترٍ: تسعٍ، أو سبعٍ، أو خامسةٍ، أو ثالثةٍ، أو آخر ليلةٍ. وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن أمارة ليلةِ القدر أنها صافية بَلْجَة[3]، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنةٌ ساجيةٌ، لا بَرْدَ فيها ولا حَرّ، ولا يحلُّ لكوكب

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٦٠.
(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٣٣٢.
(٣) بَلْجةٌ: مشرقة.

يُرمَى به حتى تُصبح. وإن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرُج مستويةً، ليس لها شعاعٌ، مثل القمر ليلة البدر، ولا يحلُّ للشيطانِ أن يخرُج معها يومئذ»[1].

وهذا إسناد حسن، وفي المتن غرابةٌ، وفي بعض ألفاظه نكارة.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زمعةُ، عن سلمة بن وَهْرام، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال في ليلة القدر: «ليلةُ سَمْحة طَلْقَةَ، لا حارَّةٌ ولا باردةٌ، وتُصبح شمسُ صبيحتها ضعيفةً حمراء»[2].

وروى ابن أبي عاصم النبيلُ بإسناده عن جابر بن عبد الله، أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «إني رأيتُ ليلةَ القدرِ فأُنسيتُها، وهي في العشر الأواخر من لياليها، وهي ليلةٌ طلقة بلْجةٌ، لا حارَّةٌ ولا باردةٌ، كأن فيها قَمراً، لا يخرُج شيطانُها حتى يُضيءَ فجرُها».

فصـــل

اختلف العلماء: هل كانت ليلةُ القدر في الأمم السالفة، أو هي من خصائص هذه الأمة؟ على قولين:

قال أبو مُصعب أحمد بن أبي بكر الزُّهريُّ: حدَّثنا مالك: أنَّه بَلَغه أن رسول الله - ﷺ - أُري أعمارَ الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تَقاصَرَ أعمارَ أُمَّتِه ألَّا يبلغوا من العَمَل الذي بلغ غيرُهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلةَ القدر، خيراً من ألف شهر[3]. وقد أُسنِدَ من وجه آخر. وهذا الذي قاله مالك يَقتضِي تخصيصَ هذه الأمة بليلة القدر، وقد نقله صاحبُ «العدّة» أحد أئمة الشافعية عن جُمهورِ العُلَماء، فالله أعلم. وحكى الخَطَّابي عليه الإجماع. والذي دل عليه الحديثُ أنها كانت في الأُمَم الماضين كما هي في أُمَّتنا.

قال أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عِكْرِمةَ بن عَمَّار: حدَّثني أبو زُميلٍ سِماك الحَنَفي: حدَّثني مالك بن مرثد بن عبد الله، حدَّثني مَرْثَد قال: سألت أبا ذَرٍّ قلتُ: كيف سألت رسولَ الله - ﷺ - عن ليلة القدر؟ قال: أنا كنتُ أسألُ الناس عنها، قلت: يا رسولَ الله، أخبرني عن ليلةِ القَدْرِ، أفي رمضان هي أو في غيره؟ قال: «بل هي في رمضان». قلت: تكونُ مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قُبِضُوا رُفِعت؟ أم هي إلى يوم القيامة؟ قال؟ «بل هي إلى يوم القيامة». قلت: في أيِّ رمضانَ هي؟ قال: «التمسوها في العشر الأُوَل، والعشر الأواخر». ثم حَدَّث رسولُ الله - ﷺ - وحَدَّث، ثم اهتبلتُ غَفْلَته قلت: في أيِّ العشرينَ هي؟ قال: «ابتغُوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيءٍ بعدها». ثم حَدَّث رسول الله - ﷺ - ثم اهتبلتُ غفلته فقلتُ: يا رسولَ الله، أقسمتُ عليك بحقي عليك لمَا أخبرتني في أيِّ العشر هي؟ فغَضِب عليَّ غضباً لم يغضب مثله منذ صَحِبتُه، وقال: «التمسُوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها»[4].

وَرواه النسائيُّ عن الفلاس، عن يحيى بن سعيدٍ القطانِ، به[4].

ففيه دلالةٌ على ما ذكرناه، وفيه أنها تكون باقيةً إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي - ﷺ - لا كما زعمه

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٣٢٤
(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٣٤٩
(٣) الموطأ، كتاب الاعتكاف ١/٣٢١
(٤) مسند الإمام أحمد ٥/١٧١. وأخرجه النسائي في كتاب الاعتكاف من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٩/١٨٣

بعض طوائف الشيعة من رَفْعِها بالكُلِّيَة، على ما فهموه من الحديث الذي سَنُورِدُه بعد مِن قولِهِ عليه السلام «فرُفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم»، لأن المراد رفعُ عِلْمِ وقتها عيناً. وفيه دَلالةٌ على أن ليلة القدر يختصُّ وقوعُها بشهر رمضان من بين سائر الشهور، لا كما رُوِيَ عن ابن مسعُودٍ ومن تابعه من عُلماء أهل الكوفة، من أنها تُوجَد في جميع السنةِ، وتُرتجى في جميع الشهور على السواء.

وقد ترجَم أبو داود في سُنَنه على هذا فقال: «باب بيانِ أنَّ ليلة القدر في كلِّ رمضان»

حدثنا حُمَيد بن زَنْجُويه النَّسائي، أخبرنا سعيدُ بن أبي مَرْيَمَ، حدَّثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير، حدَّثني موسى بن عُقْبَةَ، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جُبَير، عن عبد الله بن عُمر قال: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا أسمع عن ليلة القدرِ، فقال: هي في كُلِّ رمضانَ[1].

وهذا إسنادٌ رجالُه ثِقاتٌ إلا أن أبا داود قال: «رَوَاه شعبةُ وسفيان عن أبي إسحاق فأوقفاه»[1].

وقد حُكِيَ عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ روايةُ أنها تُرتَجى في جميع شهرِ رمضان. وهو وجهٌ حكاه الغزاليُّ، واستغربه الرافعيُّ جدًّا.

فصـــل

ثم قد قيل: إنها تكون في أول ليلةٍ من شهر رَمَضان، يُحكَى هذا عن أبي رَزِين. وقيل: إنها تقعُ ليلة سبعَ عشرةَ. ورَوَى فيه أبو داود حديثاً مرفوعاً عن ابن مسعود[1]، ورُوِيَ موقوفاً عليه، وعلى زيد بن أرقَم، وعُثمانَ بن أبي العاص. وهو قولٌ عن محمد بن إدريسَ الشافعيِّ، ويُحكى عن الحسن البصري. ووَجْهُوه بأنها ليلةُ بَدْرٍ، وكانت ليلةَ جُمُعةٍ هي السابعةَ عشرةَ من شهرِ رمضان، وفي صبيحتها كانت وَقْعةُ بدرٍ، وهو اليومُ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يومَ الفرقان﴾.

وقيل: ليلة تسعَ عشرةَ، يُحكَى عن عليٍّ وابنِ مسعود أيضاً، رَضِيَ الله عنهما.

وقيل: ليلةَ إحدى وعشرينَ، لحديث أبي سَعيدٍ الخُدريِّ قال: اعتكفَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ العشر الأُول من رمضانَ واعتكفنا معه، فأتاه جبريلُ فقال: إن الذي تطلُب أمامك. فاعتكَفَ العشر الأوسَط واعتكفنا معه، فأتاه جبريلُ فقال: الذي تَطلُب أمامك. ثم قام النبي ـ ﷺ ـ خطيباً صَبيحةَ عشرين من رمضانَ، فقال: «من كان اعتكفَ معي فَلْيرجع، فإني رأيتُ ليلةَ القدر، وإني أُنسِيتُها، وإنها في العشر الأَوَاخر في وِترٍ، وإني رأيت كأني أسجُد في طينٍ وماءٍ». وكان سقفُ المسجد جَرِيداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قَزَعةٌ[2] فَمُطِرنا، فَصلَّى بنا النبيُّ ـ ﷺ ـ حتى رأيتُ أثَرَ الطِّين والماء على جَبْهة رسول الله ـ ﷺ ـ تصديقَ رُؤياه. وفي لفظ: «من صُبح إحدى وعشرين» أخرجاه في الصَّحيحين[3].

قال الشافعيُّ: وهذا الحديثُ أصحُّ الروايات.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٥٣ ـ ٥٤.

(٢) القَزَعةُ: قطعة من الغيم.

(٣) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٩٨، ومسلم، كتاب الصيام ٢/٨٢٤ ـ ٨٢٥.

وقيل: ليلة ثلاثٍ وعشرين، لحديث عبد الله بن أُنيسٍ في «صحيح مسلم»، وهو قريبُ السِّياقِ من رواية أبي سعيد[١] فالله أعلم.

وقيل: ليلة أربعٍ وعشرين، قال أبو داود الطَّيالسي: حدَّثنا حمَّاد بن سَلَمة، عن الجُرَيري، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد أنَّ رسول الله - ﷺ - قال: «ليلةُ القَدْرِ ليلةُ أربعٍ وعشرين»[٢]. إسنادُه رجالُه ثقاتٌ.

وقال أحمدُ: حدَّثنا موسى بن داود، حدَّثنا ابن لهيعة، عن يَزيدَ بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن الصُّنابحيِّ، عن بلالٍ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «ليلةُ القدرِ ليلةُ أربعٍ وعشرين»[٣].

ابنُ لَهيعة ضَعيفٌ. وقد خالفه ما رواه البُخاري عن أصبغ، عن ابن وَهب، عن عَمرو بن الحارث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي عبد الله الصُّنابحي قال: أخبرني بلالٌ مؤذِّنُ رسولِ الله - ﷺ - أنها أوَّل السبعِ من العشرِ الأواخرِ[٤]. فهذا الموقوف أصحُّ، والله أعلم. وهكذا رُوِيَ عن ابن مسعود، وابن عباس، وجابر، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن وَهب: أنها ليلة أربعٍ وعشرين. وقد تقدَّم في «سُورة البَقرة»[٥]، حديث واثلة بن الأسقَعِ مرفوعاً: «إنَّ القرآن أُنزِل ليلةَ أربعٍ وعشرين».

وقيل: تكونُ ليلةَ خمسٍ وعشرين، لما رواه البُخاري، عن عبد الله بن عباس: أنَّ رسول الله - ﷺ - قال: «التمِسُوها في العشرِ الأواخرِ من رمضان، في تاسعةٍ تبقى، في سابعة تبقى، في خامسةٍ تبقى»[٦]. فسَّره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهرُ وأشهرُ. وحَمَله آخرون على الأشفاع كما رواه مسلم، عن أبي سعيد[٧]، أنه حمله على ذلك. والله أعلم.

وقيل: إنها تكون ليلةَ سبعٍ وعشرين، لما رواه مسلم في صحيحه، عن أُبيِّ بن كَعْبٍ، عن رسول الله - ﷺ - أنها ليلةُ سَبعٍ وعشرين[٨].

قال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان: سَمِعتُ عَبْدَة وعاصماً، عن زِرٍّ: سألتُ أُبيَّ بن كَعْبٍ قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقولُ: من يُقِمِ الحَولَ يُصِبْ ليلةَ القَدْرِ. قال: يرحمُه الله، لقد عَلِم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلةُ سبعٍ وعشرين. ثم حَلَف. قلت: وكيف تعلمُون ذلك؟ قال: بالعلامةِ - أو: بالآيةِ - التي أُخبِرْنا بها، تطلع ذلك اليومَ لا شُعاعَ لها، يعني الشمس[٩].

وقد رواه مسلم من طريق سفيان بن عُيينة وشُعبة والأوزاعي، عن عَبْدَة، عن زِرٍّ، عن أُبيٍّ. فذكره. وفيه فقال: «والله الذي لا إله إلا هُو إنها لَفِي رَمَضان - يحلف ما يَستثني - ووالله إني لأعلَمُ أيَّ ليلةٍ هِيَ التي أَمَرنا رسولُ الله - ﷺ - بقيامها، هي ليلةُ سبعٍ وعشرينَ، وأمارتها أن تطلع الشمس في صَبيحة يومها بيضاء لا شُعاع لها»[١٠].

(١) مسلم، كتاب الصيام ٨٢٧/٢.
(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٢٨٨.
(٣) مسند الإمام أحمد ١٢/٦.
(٤) فتح الباري، كتاب المغازي ١٥٣/٨.
(٥) انظر تفسير الآية ١٨٥ من سورة البقرة
(٦) فتح الباري، كتاب فضل ليلة القدر ٢٦٠/٤.
(٧) مسلم، كتاب الصيام ٨٢٦/٢ - ٨٢٧
(٨) مسلم، كتاب الصيام ٨٢٨/٢
(٩) مسند الإمام أحمد ١٣٠/٥.
(١٠) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٢٥/١.

وفي الباب عن معاوية، وابن عُمَر، وابن عباس، وغيرهم، عن رسُول الله ـ ﷺ ـ أنها ليلة سبع وعشرين، وهو قولُ طائفة من السلف، وهو الجادَّة من مذهب أحمدَ بن حنبل ـ رحمه الله ـ وهو روايةٌ عن أبي حنيفة أيضاً. وقد حُكِيَ عن بعض السلف أنه حاول استخراج كَوْنِها ليلة سبعٍ وعشرين من القرآن، من قوله ﴿هي﴾ لأنها الكلمةُ السابعةُ والعشرون من السُّورة، فالله أعلم.

وقد قال الحافظُ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا إسحاقُ بن إبراهيم الدبري: أخبرنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمرٌ، عن قتادة وعاصم: أنهما سَمِعا عِكْرمة يقول: قال ابنُ عباس: دعا عُمَر بن الخطاب أصحاب محمدٍ ـ ﷺ ـ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعُوا على أنها في العشر الأواخر. قال ابنُ عباس: فقلتُ لعُمر: إني لأعلَمُ ـ أو: إني لأظنُّ ـ أيَّ ليلةٍ هِيَ؟ فقال عمر: وأيُّ ليلةٍ هِيَ؟ فقلتُ: سابعةٌ تمضي ـ أو: سابعةٌ تبقى ـ من العَشْرِ الأواخر. فقال عُمَر: وَمِن أين علمتَ ذلك؟ قال ابنُ عباس فقلتُ: خلَقَ الله سبعَ سموات، وسبع أرضين، وسبعةَ أيام، وإن الشهر يدور على سَبْعٍ، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سَبْعٍ، ويسجُد على سَبْعٍ، والطوافُ بالبيت سبع، ورَمْيُ الجمارِ سبعٌ، لأشياء ذكرها. فقال عُمَر: لقد فطِنْتَ لأمرٍ ما فطنَّا له. وكان قتادة يَزِيدُ عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله تعالى: ﴿فأنبتنا فيها حبًّا * وعنباً﴾[1] . . . الآية.

وهذا إسناد جَيِّدٌ قويٌّ، ومَتْنٌ غريب جداً، والله أعلم.

وقيل: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين، قال أحمد بن حنبل:

حدَّثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدَّثنا سعيدُ بن سلمة، حدَّثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عُمر[2] بن عبد الرحمن، عن عُبادةَ بن الصامت: أنه سأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن ليلة القَدْرِ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «في رمضان، فالتمِسُوها في العشر الأواخر، فإنها في وِتْرٍ إحدى وعشرين، أو ثلاثٍ وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو في آخر ليلة»[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سُليمانُ بن داودَ ـ وهو: أبو داودَ الطيالسي ـ حدَّثنا عِمْرانُ القَطَّان، عن قتادة، عن أبي مَيْمُونَةَ، عن أبي هُرَيرةَ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعةٍ أو تاسعةٍ وعشرين، وإنَّ الملائكةَ تلك الليلةَ في الأرض أكثرُ من عدد الحصى»[4].

تفرَّد به أحمد، وإسنادُه لا بأس به.

وقيل: إنها تكون في آخر ليلةٍ، لما تقدم من الحديث آنفاً، ولما رواه الترمذي والنسائي، من حديث عُيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي بَكْرَة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «في تسعٍ يَبْقَين، أو سبعٍ يَبْقَين، أو خمس يَبْقَين، أو ثلاثٍ، أو آخر ليلة». يعني: التمسوا ليلة القدر[5].

وقال الترمذي: «حَسَنٌ صحيحٌ»[5]. وفي المُسند من طريق أبي سلمة، عن أبي هُرَيْرَة، عن النبي ـ ﷺ ـ في ليلةِ القَدْرِ: «إنها آخرُ ليلةٍ».

---

(١) أخرجه في المعجم الكبير ٣٢٢/١٠

(٢) في المسند: عَمْرو. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٢٠/٦

(٣) مسند الإمام أحمد ٣١٨/٥.

(٤) مسند الإمام أحمد ٥١٩/٢ وانظر مسند أبي داود ٣٣٢، وقد تقدَّم هذا الحديث عند شرح الآية الأخيرة من هذه السورة

(٥) عارضة الأحوذي، أبواب الصوم ١٠/٤ وأخرجه النسائي في كتاب الصيام من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٥٤/٩

فصــل

قال الشافعيُّ في هذه الروايات: صَدَرت من النبيِّ ـ ﷺ ـ جواباً للسائل إذا قيل له: أَنَلْتَمِسُ ليلة القدر في الليلة الفلانية؟ يقول: نعم. وإنما ليلة القدر ليلة مُعيَّنة لا تنتقِلُ. نقله الترمذي عنه بمعناه[١]. وروَى عن أبي قلابة أنه قال: ليلةُ القَدْرِ تنتقل في العشر الأواخر[١].

وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نَصَّ عليه مالك، والثوريُّ، وأحمَدُ بن حنبل، وإسحاقُ بن راهويه، وأبو ثور، والمُزَني، وأبو بكر بن خزيمة، وغيرهم. وهو مَحْكِيٌّ عن الشافعي ـ نقله القاضي[٢] عنه، وهو الأشبه، والله أعلم.

وقد يُستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحَين، عن عبد الله بن عُمر: أنَّ رجالاً من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ أُرُوا ليلة القدرِ في المنامِ في السبع الأواخر من رَمَضان، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أرَى رُؤياكم قد تواطأت في السبعِ الأواخِر، فمن كان مُتَحرِّيها فلْيَتَحرَّها في السبع الأواخِر»[٣].

وفيهما أيضاً عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «تَحرَّوا ليلةَ القدر في الوَتْرِ من العشر الأواخر من رَمَضان». ولفظه للبخاري[٤].

ويُحتَجُّ للشافعي أنها لا تَنتقِل، وأنها مُعيَّنة من الشهر، بما رواه البخاري في صَحيحه، عن عُبادة بن الصامت قال: خرَجَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ لِيُخبرنا بليلة القَدْرِ، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأُخبِرَكُم بليلة القَدْر، فتلاحَى فلان وفلان، فَرُفِعَت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمِسُوها في التاسعةِ والسابعةِ والخامسة»[٥].

وَجْهُ الدلالة منه أنه لو لم تكن مُعيَّنة مُستمِرَّة التعيين لما حصل لهم العلمُ بعينها في كل سنة، إذ لو كانت تنتقِلُ لما عَلِمُوا تَعيُّنها إلا ذلك العام فقط، اللهم إلا أن يُقال: إنه إنما خرَجَ لِيُعلِمَهم بها تلك السنةَ فقط.

وقولُه: «فتَلاحَى فلان وفلان فَرُفِعَت»: فيه استئناسٌ لما يقال: إن المُمَاراة تقطَعُ الفائِدَة والعلم النافع، وكما جاء في الحديث: «إنَّ العبد لَيُحرَم الرزقَ بالذنب يُصيبه»[٦].

وقولُه: «فَرُفِعت» أي: رُفِع عِلْم تعيينها لكم، لا أنها رُفِعت بالكُلِّيَّة من الوجود، كما يقوله جَهَلةُ الشِّيعةِ، لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمِسُوها في التاسعةِ والسابعةِ والخامسة».

وقولُه: «وعَسَى أن يكون خيراً لكم»، يعني عَدَمَ تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مُبهمةً اجتهد طُلَّابها في ابتغائها في جَميع مَحالِّ رجائها، فكان أكثرَ للعبادة، بخلاف ما إذا عَلِمُوا عَيْنَها فإنها كانت الهِمَمُ تتَقاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمةُ إبهامَها لتعمَّ العبادةُ جميعَ الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهادُ في العشر الأواخر أكثَرَ. ولهذا كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَعتكِفُ العشرَ الأواخِرَ من رَمَضان، حتى توفاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب الصوم ٤/٨
(٢) في نسخة: «نقله القاضي عياض عنه»
(٣) فتح الباري، كتاب فضل ليلة القدر ٤/٢٥٦، ومسلم، كتاب الصوم ٢/٨٢٢ ـ ٨٢٣.
(٤) انظر الصحيحين في الكتابين المتقدمين، فتح الباري ٤/٢٥٩، ومسلم ٢/٨٢٨.
(٥) فتح الباري، كتاب فضل ليلة القدر ٤/٢٦٦
(٦) تقدَّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٧ من سورة إبراهيم.

عتكف أزواجه من بعده. أخرجاه من حديث عائشة[1]. ولهما عن ابن عُمَر: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يعتكِفُ العشرَ الأواخرَ من رمَضان[2]. وقالت عائشة: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا دخل العشرُ أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المِئْزَر. أخرجاه[3]. ولمسلم عنها: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يجتهدُ في العشر ما لا يجتهدُ في غيره[4]. وهذا معنى قولها «وشدَّ المِئْزر». وقيل: المراد بذلك اعتزالُ النساء. ويَحتمل أن يكون كنايةً عن الأمرين، لما رَوَاه الإمامُ أحمدُ:

حدَّثنا سُريجٌ، حدَّثنا أبو مَعْشَرٍ، عن هِشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا بَقِي عشرٌ من رمضان شَدَّ مِئْزَرَه، واعتزَلَ نِساءَه. انفرد به أحمد[5].

وقد حُكِيَ عن مالك ـ رَحِمه الله ـ أنَّ جميعَ ليالي العشر في تطلُّب ليلةِ القدر على السواء، لا يترجَّح منها ليلةٌ على أخرى: رأيتُه في شرح الرافعي رحمه الله.

والمستحبُّ الإكثارُ من الدُّعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثرَ، وفي العشر الأخير منه، ثُمَّ في أوتاره أكثرَ. والمستحبُّ أن يُكثِر من هذا الدعاء: «اللهُمَّ، إنك عَفُوٌّ تُحِبُّ العفو فاعفُ عني»، لما رواه الإمامُ أحمدُ.

حدَّثنا يزيدُ ـ هو ابن هارون ـ حدَّثنا الجُرَيري ـ وهو: سَعيد بن إياس ـ عن عبد الله بن بُرَيْدَة: أن عائشة قالت: يا رسولَ الله، إن وافقتُ ليلةَ القدر فما أدعُو؟ قال: «قُولي: اللهُمَّ إنك عَفُوٌّ تُحِبُّ العفوَ فاعفُ عني».

وقد رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من طريق كَهْمَس بن الحسن، عن عبد الله بن بُرَيْدَة، عن عائشة قالت: قُلت: يا رسولَ الله، أرأيت إن علمْتُ أيُّ ليلةٍ ليلةُ القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهُمَّ، إنك عَفُوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عني»[6].

وهذا لفظُ الترمذي، ثم قال «هذا حديثٌ حَسَن صحيح»[6]. وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: هذا صَحيح على شرط الشيخين). ورواه[6] النسائي أيضاً من طريق سفيان الثوري، عن علقمة بن مَرْثَد، عن سليمان بن بُرَيْدَة عن عائشة قالت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقتُ ليلةَ القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولي اللهُمَّ، إنك عَفُوٌّ تُحب العفو فاعفُ عني».

ذِكرُ أثرٍ غريبٍ ونبإٍ عجيبٍ يَتعلَّق بليلة القدر، رواه الإمامُ أبو محمد بن أبي حاتم، عند تفسير هذه السورة الكريمة فقال:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن أبي زياد القَطَوانيُّ، حدَّثنا سَيَّار بن حاتم، حدَّثنا موسى بن سعيد ـ يعني

(١) أخرجاه في كتاب الاعتكاف، فتح الباري ٤/٢٧١، ومسلم ٢/٨٣١.
(٢) أخرجاه في كتاب الاعتكاف، فتح الباري ٤/٢٧١، ومسلم ٢/٨٣٠.
(٣) فتح الباري، كتاب فضل ليلة القدر ٤/٢٦٩، ومسلم، كتاب الاعتكاف ٢/٨٣٢.
(٤) مسلم، كتاب الاعتكاف ٢/٨٣٢.
(٥) مسند الإمام أحمد ٦/٦٦ ـ ٦٧.
(٦) مسند الإمام أحمد ٦/١٨٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٤٥، وأخرجه النسائي في كتاب النعوت من سننه الكبرى، وكتاب اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ١١/٤٣٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الدعاء ٢/١٢٦٥، والمستدرك، كتاب الدعاء ١/٥٣٠، ورواية النسائي الثانية من طريق سفيان الثوري في اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف للمزي ١١/٤١٧.

الراسبيُّ - عن هلال بن أبي جبلة(١)، عن أبي عبد السلام، عن أبيه، عن كعب أنه قال: إنّ سِدْرة المُنتهى على حَدِّ السماء السابعة، مما يلي الجنة، فهي على حَدِّ هواء الدنيا وهواء الآخرة، عُلْوُها(٢) في الجنة، وعُرُوقُها وأغصانها من تحت الكُرسيِّ، فيها ملائكةٌ لا يَعْلم عِدَّتهم إلا الله عزّ وجلّ، يَعْبُدون الله - عزّ وجلّ - على أغصانها في كل موضع شَعْرة منها مَلَكٌ. ومقامُ جبريلَ - عليه السلام - في وَسَطها، فينادي الله جبريلَ أن ينزل في كلّ ليلةِ قدْرٍ مع الملائكة الذين يسكنون السِّدرةَ المُنْتهى، وليس فيهم ملك إلا قد أُعطيَ الرأفة والرحمةَ للمؤمنين، فينزلون على جبريل في ليلةِ القدر، حين تَغْرُب الشمس، فلا تبقى بقعةٌ في ليلة القدرِ إلا وعليها مَلَكٌ، إما ساجدٌ وإما قائمٌ، يدعُو للمؤمنين والمؤمنات، إلا أن تكون كنيسة أو بيعةٌ أو بيت نار أو وثَن، أو بعض أماكنكم التي تَطرحُون فيها الخَبَثَ، أو بيت فيه سكرانُ، أو بيتٌ فيه مُسكِرٌ، أو بيتٌ فيه وَثَنٌ منصوبٌ، أو بيت فيه جَرسٌ مُعلّق، أو مَبْوَلة، أو مكانٌ فيه كُساحة(٣) البيت. فلا يزالون ليلتهم تلك يَدْعُون للمؤمنين والمؤمنات، وجبريلُ لا يَدعُ أحداً من الناس إلا صافحه، وعلامةُ ذلك من اقشعرَّ جلدُه ورقّ قلبُه ودَمَعت عيناه فإن ذلك من مصافحة جبريل.

وذكر كعب أنّ من قال في ليلةِ القدر «لا إلَه إلا الله»، ثلاثَ مرّاتٍ، غَفَر الله له بواحدةٍ، ونَجّاه من النار بواحدةٍ، وأدخله الجنةَ بواحدةٍ. فقلنا لكعب الأحبار: يا أبا إسحاق، صادقاً؟ فقال كعب: وهل يقول «لا إلَه إلا الله» في ليلةِ القَدْرِ إلا كلُّ صادق؟ والذي نفسي بيده إنّ ليلةَ القدر لَتَثقُل على الكافر والمنافق، حتى كأنها على ظهره جَبَلٌ، فلا تزال الملائكة هكذا حتى يطلُعَ الفجرُ. فأول من يصعَد جبريل حتى يكونَ في وجه الأُفقِ الأعلى من الشمس، فيبسُط جناحَيه - وله جناحان أخضَران، لا يَنشُرهما إلّا في تلك الساعة - فتصيرُ الشمس لا شُعاع لها، ثم يدعُو مَلَكاً مَلَكاً فيصعد، فيجتمعُ نُور الملائكة ونورُ جناحَي جبريل، فلا تزال الشمس يومَها ذلك مُتحيِّرة، فيُقيم جبريلُ ومَن معه بين السماء وبين السماء الدنيا يومَهم ذلك، في دُعاء ورحمة واستغفار للمؤمنين والمؤمناتِ، ولِمَن صامَ رمضانَ احتساباً، ودعا لمن حَدَّث نفسه إن عاش إلى قابل صام رَمَضان لله. فإذا أمسوا دَخَلُوا إلى السماء الدنيا، فيجلسون حِلَقاً، فتجتمع إليهم ملائكة سماء الدنيا، فيسألونهم عن رَجلٍ رَجلٍ، وعن امرأةٍ امرأةٍ، فيحدِّثونهم حتى يقولوا: ما فَعَلَ فلان؟ وكيف وجدتُموه العام؟ فيقولون: وَجَدنا فلاناً عامَ أوّلَ في هذه الليلة متعبداً ووجدناه العام مبتدعاً، ووجدنا فلاناً مبتدعاً ووجدناه العام عابداً. قال: فيَكُفّون عن الاستغفار لذلك، ويُقبِلون على الاستغفار لهذا، ويقولون: وَجدنا فلاناً وفلاناً يذكُران الله، ووجدنا فلاناً راكعاً، وفلاناً ساجداً، ووجدناه تالياً لكتاب الله. قال: فهُم كذلك يومَهم وليلَتَهم، حتى يَصعَدُون إلى السماء الثانية، ففي كلِّ سماءٍ يومٌ وليلةٌ، حتى يَنْتَهُوا مكانهم من السِّدْرَةِ المنتهى، فتقول لهم سدرةُ المُنتهى: يا سُكّاني، حَدِّثوني عن الناس وسَمُّوهم لي. فإنّ لي عليكم حقاً، وإنّي أُحِبُّ مَن أحبَّ الله. فذَكر كعبٌ أنهم يَعُدُّون لها، ويحكُون لها الرجلَ والمرأةَ بأسمائهم وأسماء آبائهم. ثم تقبِلُ الجنة على السِّدرة فتقولُ: أخبريني بما أخبَرَكِ سُكّانك من الملائكة. فتُخبِرُها، قال: فتقول الجنةُ: رحمةُ الله على فلانٍ، ورحمةُ الله على فلانةَ، اللهم، عَجِّلهم إليّ، فيبلغ جبريلُ مكانَه قبلَهم، فيُلهِمُه الله فيقول: وجدتُ فلاناً ساجداً فاغفر له. فيَغفِرُ له، فيسمعُ جبريلُ جميعَ حَمَلةِ العرش فيقولون: رحمةُ الله على فلانٍ، ورحمة الله على فلانةَ، ومغفرتُه لفلانٍ، ويقولُ: يا ربِّ، وجدتُ عَبْدَك فلاناً الذي وجدته عامَ أوّلَ على السُّنّة والعبادةِ، ووجدته العامَ قد أحدث حَدَثاً وتولى عما

(١) كذا في النسخ، وهو في الجرح لابن أبي حاتم ٩/٧٧. هلال أبو جبلة
(٢) العُلْو - بضم العين وكسرها، وسكون اللام - من كل شيء: أرفعه
(٣) الكُساحة: الكُناسة.

أُمِر به. فيقول الله: يا جبريلُ، إن تاب فأعْتِبْه[1] قبل أن يموت بثلاث ساعات غفرتُ له. فيقولُ جبريل: لك الحمدُ إلهي، أنت أرحمُ من جميع خَلْقك، وأنت أرحمُ بعبادك من عِبادك بأنفُسهم، قال: فيرتجُّ العرشُ وما حوله، والحُجُبُ والسموات ومَن فيهنَّ، تقولُ: الحمدُ لله الرحيم، الحمد لله الرحيم.

قال: وذكر كعبٌ أنه من صام رمضانَ وهو يُحَدِّث نفسه إذا أفطر بعد رمضان أن لا يعصي الله دخل الجنة بغير مسألةٍ ولا حسابٍ.

آخر تفسير سورة «القدر» ولله الحمدُ والمنَّة

(١) أعتبه: أرضه.

تفسير

سُورَةُ البَيِّنَة

وهي مدنيَّة

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عفَّان، حدَّثنا حمادٌ ـ هو ابن سَلَمة ـ أخبرنا علي ـ هو ابنُ زيدٍ ـ عن عمَّار بن أبي عمَّار قال: سمعت أبا حَبَّة البدْرِيَّ ـ وهو: مالك[1] بن عمرو بن ثابت الأنصاري ـ قال: لما نزلت: ﴿لم يكُن الذين كفرُوا من أهل الكتاب﴾ إلى آخرها، قال جبريلُ: يا رسولَ الله، إنَّ ربَّكَ يأمُرك أن تُقرِئَها أُبيًّا. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ لأُبيٍّ: إنَّ جبريل أمرني أن أُقرِئَكَ هذه السورةَ. قال أُبيٌّ: وقد ذُكِرتُ ثَمَّ يا رسولَ الله؟ قال: نعم. قال: فبكى أُبيٌّ[2].

حديثٌ آخرُ، وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شعبةُ، سَمِعتُ قتادةَ يحدِّث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأُبيِّ بن كعب: إنَّ الله أمَرني أن أقرأ عليك: ﴿لم يكُنِ الذين كَفَرُوا﴾ قال: وَسَمَّاني لك؟ قال: نعم. فبكى[3].

وَرَواه البخاريُّ، ومسلم، والتِّرمِذِيُّ، والنَّسائي، من حديث شُعبَةَ، به[3].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا مُؤمَّلٌ، حدَّثنا سُفيان، حدَّثنا أسلَم المِنْقَرِيُّ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه، عن أُبيِّ بن كعب قال: قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ «إني أُمِرتُ أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا». قلتُ: يا رسولَ الله، وقد ذُكِرتُ هناك؟ قال: نعم. فقلتُ له: يا أبا المنذر، فَفَرِحتَ بذلك؟ قال: وما يمنعني والله يقول ﴿قل بفضل الله وبرَحْمته فبذلك فَلْيفرَحُوا هو خيرٌ مما يجمَعُون﴾. قال مُؤمَّل: قلت لسفيان: القراءة في الحديث؟ قال: نعم. تفرَّد به من هذا الوجه[4].

---

(١) انظر أسد الغابة ٥/٣٦، والإصابة ٤/٤١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٤٨٩.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/١٣٠ وفتح الباري، تفسير سورة ﴿لم يكن﴾ ٨/٧٢٥، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٩١٥، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/٢٠٣ وأخرجه النسائي في كتابي المناقب والتفسير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١/٣٢٥.

(٤) مسند الإمام أحمد ٥/١٢٣.

طريقٌ أخرى، قال أحمد. حدَّثنا محمَّد بن جعفر وحجَّاج قالا: حدَّثنا شعبةُ، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن أُبيِّ بن كعب قال. إن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لي: «إن الله أمَرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: فقرأ: ﴿لم يَكُنِ الذين كَفَرُوا من أهلِ الكتابِ﴾، قال: فقرأ فيها: ولو أنَّ ابنَ آدم سألَ وادياً من مالٍ فأَعطِيه لسَأل ثانياً، ولو سَأل ثانياً فأُعطِيه لسأل ثالثاً، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلاَّ الترابُ، ويتوبُ الله على مَن تاب. وإنَّ ذلك الدين عند الله الحَنيفيَّةُ، غير المُشرِكة ولا اليهوديَّة ولا النصرانية، ومَن يفعل خيراً فلن يُكفَرَه»[١]

ورواه الترمذي من حديث أبي داودَ الطَّيالِسيِّ، عن شُعبةَ، به. وقال: «حسن صحيح»[١].

طريق أخرى، قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا أحمد بن خُلَيد الحلبي، حدَّثنا محمد بن عيسى الطباع، حدَّثنا مُعاذ بن محمد بن مُعاذ بن أُبَيِّ بن كعب، عن أبيه، عن جدِّه، عن أُبيِّ بن كعب قال. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : يا أبا المُنذِر، إني أُمِرت أن أعرِضَ عليك القرآن. قال: بالله آمنتُ، وعلى يدك أسلمتُ، ومنك تعلَّمتُ. قال: فردَّ النبيُّ ـ ﷺ ـ القول، فقالَ: يا رسولَ الله، وذُكِرتُ هناك؟ قال. نعم، باسمِكَ ونَسبِكَ في الملأ الأعلى. قال: فاقرأ إذاً يا رسولَ الله[٢].

هذا غريبٌ من هذا الوجه، والثابتُ ما تقدَّمَ. وإنما قرأ عليه النبيُّ ـ ﷺ ـ هذه السورةَ تثبيتاً له، وزيادةً لإيمانه، فإنه ـ كما رَواه أحمدُ والنَّسائي، من طريق أَنَسٍ، عنه[٣]، ورواه أحمدُ وأبو داود، من حديث سُليمان بن صُرَد، عنه[٣]. ورواه أحمدُ عن عَفّان، عن حمّاد، عن حُمَيد، عن أَنَسٍ، عن عُبادَة بن الصامت، عنه[٣]. ورواه أحمدُ ومسلمٌ وأبو داودَ والنَّسائي، من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبدِ الله بن عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عنه[٣] ـ كان قد أنكر على إنسانٍ، وهو عبدُ الله بنُ مسعود، قراءةَ شيءٍ من القرآن على خلاف ما أقرأه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَرفعه إلى النبي ـ ﷺ ـ فاستقرأهما، وقال، لكلٍّ منهما: «أصبتَ». قال أُبَيٌّ: فأخذني من الشكِّ ولا إذْ كنتُ في الجاهلية. فضربَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ في صدْرِه، قال أُبَيٌّ: ففِضتُ عَرَقاً، وكأنما أنظر إلى الله فَرَقاً. وأخبره رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن جبريلَ أتاه فقال. إن الله يأمُركَ أن تُقرِىءَ أُمَّتَك القرآنَ على حرف. فقلتُ: أسأل الله معافاته ومغفرتَه، فقال: على حرفين. فلم يزَل حتَّى قال: إن الله يأمُرُكَ أن تُقرِىءَ أُمَّتَكَ القرآنَ على سبعةِ أحرُفٍ كما قدَّمنا ذكر هذا الحديث بطُرقِه وألفاظه في أول التفسير[٤]. فلما نزلت هذه السورةُ الكريمةُ وفيها: ﴿رَسُولٌ مِن الله يتلو صُحُفاً مُطَهَّرة ۝ فيها كُتُبٌ قَيِّمة﴾، قرأها عليه رسولُ الله ـ ﷺ ـ قراءةَ إبلاغٍ وتثبيتٍ وإنذارٍ، لا قراءة تعلُّمٍ واستذكارٍ، والله أعلم

وهذا كما أن عُمَرَ بن الخطاب لما سأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوم الحُديبية عن تلك الأسئلة، وكان فيما قال: أوَلم تكُن تخبرنا أنا سنأتي البيتَ ونطُوف به؟ قال: بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامَكَ هذا؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومُطوِّفٌ به. فلما رجعوا من الحُدَيبية، وأنزل الله على النبي ـ ﷺ ـ : «سُورَةَ الفتح»، دعا عُمَر بن الخطاب

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/١٣١ ـ ١٣٢ وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/٢٠٣ ـ ٢٠٤

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١/٢٠٠.

(٣) طريق أنس في المسند ٥/١١٢، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٥٤ وحديث سليمان في المسند ٥/١٢٤، وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٧٦، ورواية أحمد عن عبادة بن الصامت في المسند ٥/١١٤، وحديث ابن أبي ليلى في المسند ٥/١٢٧، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٦١ ـ ٥٦٢، وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٧٦، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٥٢

(٤) تقدم الحديث في كتاب الفضائل، أول التفسير.

فقرأها عليه، وفيها قوله: ﴿لقد صدق الله رسولَه الرُّؤيا بالحق لتدخُلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾... الآية، كما تقدَّم.

وروى الحافظ أبو نُعَيم في كتابه «أسماء الصحابة»، من طريق محمد بن إسماعيلَ الجَعفريِّ المدني: حدَّثنا عبد الله بن سَلَمة بن أسلم، عن ابن شهاب، عن إسماعيل بن أبي حكيم المَدَني، حدَّثني فُضَيل: سَمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله لَيسمعُ قراءة ﴿لم يكُن الذين كفروا﴾، فيقول: أبشر عَبْدِي، فَوَعِزَّتي لأُمَكِّنَنَّ لَكَ في الجنة حتى تَرضى».

حديث غريب جداً [(١- وقد رواه الحافظ أبو موسى المَدِيني وابن الأثير، من طريق الزُّهري، عن إسماعيل بن أبي حكيم عن نَظير(٢) المُزَني ـ أو: المَدَني ـ عن النبي ـ ﷺ ـ: إن الله ليَسْمَعُ قراءة ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ ويقول: أبشر عبدي، فَوَعِزَّتي لا أنساك على حالٍ من أحوالِ الدنيا والآخرة، ولأُمكِّنَنَّ لك في الجنة حتى ترضى -١)].

فقوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

أما أهل الكتاب فهم اليهودُ والنصارى، والمشركون عَبَدةُ الأوثان والنيران من العَرَب والعَجَم. وقال مجاهد: لم يكونوا ﴿منفكين﴾ يعني: مُنتَهين حتى يَتَبيَّن لهم الحقُّ. وكذا قال قتادة ﴿حتى تأتيهم البينة﴾، أي: هذا القرآن. ولهذا قال تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾. ثم فَسَّر البيِّنة بقوله: ﴿رسولٌ من الله يتلُو صُحُفاً مُطَهَّرة﴾، يعني محمداً ـ ﷺ ـ وما يتلوه من القرآن العظيم، الذي هو مُكْتَتَبٌ في الملأ الأعلى، في صُحُفٍ مطهرة، كقوله: ﴿في صُحُفٍ مُكَرَّمة ● مَرْفُوعةٍ مُطَهَّرة ● بأيدي سَفَرةٍ ● كرامٍ بَرَرةٍ﴾.

وقوله: ﴿فيها كتب قيمة﴾، قال ابنُ جَرير: أي في الصُّحُف المطهَّرة كُتُبٌ من الله قَيِّمة: عادلةٌ مستقيمة، ليس فيها خطأ؛ لأنها من عند الله عزَّ وجلّ(٣).

قال قتادةُ: ﴿رَسُولٌ من الله يتلو صُحُفاً مُطهَّرة﴾، يذكُر القرآن بأحسن الذكر، ويُثني عليه بأحسنِ الثناء، وقال ابنُ زيد: ﴿فيها كُتُبٌ قيمة﴾: مستقيمة معتدلة.

وقولُه: ﴿وما تفرّق الذين أوتُوا الكتابَ إلّا من بعد ما جاءتهم البينة﴾، كقوله: ﴿ولا تَكُونُوا كالذين تفرَّقوا

(١ ـ ١) ساقط من بعض النسخ.
(٢) انظر أسد الغابة ٥/٣٢٥.
(٣) تفسير الطبري ٣٠/٢٦٣.

واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذابٌ عظيم﴾، يعني بذلك أهلَ الكُتُب المنزلة على الأمم قبلَنا، بعد ما أقام الله عليهم الحُجَج والبيِّنات تفرَّقوا واختلَفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافًا كثيرًا، كما جاء في الحديث المرويِّ من طُرُقٍ: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقةً، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمةُ على ثلاث وسبعين فرقةً، كلُّها في النار إلا واحدةً». قالوا: من هُم يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[1].

وقولُه: ﴿وما أُمِرُوا إلا لِيعبُدوا الله مُخلِصين له الدِّين﴾، كقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسُولٍ إلا نُوحي إليه أنه لا إلَه إلا أنا فاعبدون﴾، ولهذا قال: ﴿حُنفاء﴾، أي: مُتحنِّفين عن الشرك إلى التوحيد. كقوله: ﴿ولقد بعثنا في كلِّ أُمةٍ رسُولاً أن اعبدُوا الله واجتنبُوا الطاغوت﴾. وقد تقدَّم تقريرُ الحنيف في «سورة الأنعام» بما أغنى عن إعادته ها هنا[2].

﴿ويُقيموا الصلاة﴾، وهي أشرفُ عبادات البَدَن، ﴿ويؤتوا الزكاة﴾، وهي الإحسانُ إلى الفقراءِ والمحاويج. ﴿وذلك دينُ القيِّمة﴾، أي: المِلَّةِ القائمة العادلةِ، أو: الأمَّةِ المستقيمةِ المعتدلةِ.

وقد استدلَّ كثيرٌ من الأئمة، كالزُّهريِّ والشافعي، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمالَ داخلةٌ في الإيمان. ولهذا قال: ﴿وما أُمِرُوا إلا ليعبُدوا اللهَ مُخلِصين له الدين حُنفاء ويُقيموا الصلاة ويؤتُوا الزكاة وذلك دين القيِّمة﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن مآلِ الفُجّار، من كَفَرةِ أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لِكُتُب الله المُنزَّلة وأنبياء الله المُرسَلةِ، أنهم يومَ القيامة ﴿في نار جَهنَّم خالدين فيها﴾ أي: ماكثين، لا يحولُون عنها ولا يَزُولون. ﴿أولئك هم شَرُّ البريَّة﴾، أي: شَرُّ الخليقة التي بَرَأها الله وذَرَأها.

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم، وعَمِلوا الصالحات بأبدانهم، بأنهم خيرُ البرية.

وقد استدل بهذه الآية أبو هُرَيرة وطائفةٌ من العُلَماء، على تفضيل المؤمنين[3] من البريَّة على الملائكة؛ لقوله: ﴿أولئك هم خيرُ البريَّة﴾.

ثم قال: ﴿جزاؤُهم عند ربِّهم﴾، أي: يوم القيامة، ﴿جنَّاتُ عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدًا﴾، أي: بلا انفصالٍ ولا انقضاءٍ ولا فراغ. ﴿رَضِيَ الله عنهم ورضُوا عنه﴾، ومقامُ رضاه عنهم أعلى مما أُوتُوه من النعيمِ المُقيمِ، ﴿ورَضُوا عنه﴾ فيما مَنَحهم من الفضل العميم.

---

(١) تقدَّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٩٣ من سورة يونس، ١١٨ من سورة هود.

(٢) انظر تفسير الآية ١٦١ من سورة الأنعام

(٣) في نسخة: «على تفضيل البشر على الملائكة»...

وقوله: ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾، أي: هذا الجزاءُ حاصلٌ لمن خشي الله واتقاه حَقَّ تقواه، وعَبَده كأنه يَرَاه، وعلم أنه إن لم يَرَه فإنه يراه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أبو معشر، عن أبي وهب ـ مولى أبي هُرَيرة ـ عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ألا أُخبركُم بخَير البريّة؟». قالوا: بلى، يا رسولَ الله. قال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هَيْعَةٌ[1] استوى عليه. ألا أخبركم بخير البريّة؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «رجل في ثُلَّة من غَنَمه، يُقيم الصلاة ويُؤتي الزكاة. ألا أخبركم بِشَرِّ البريّة؟» قالوا: بلى. قال: «الذي يَسأل بالله، ولا يُعطِي به»[2].

آخر تفسير سورة «البيّنة» ولله الحمدُ والمنّةُ

(١) الهَيْعة: كل ما أفزعك من صوت.
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٣٩٦.

تفسير

سُورَةُ الزَّلزَلَة

وهي مكيَّة

قال الإمام أحمد: حَدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا سعيدٌ، حدَّثنا عيَّاش بن عباس، عن عيسى بن هلال الصَّدَفِيِّ، عن عبد الله بن عَمرو قال: أتى رجلٌ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أقرئني يا رسولَ الله. قال له: اقرأ ثلاثاً من ذوات الر. فقال له الرجل: كَبِرَ سنِّي واشتدَّ[1] قلبي، وغَلُظَ لساني. قال: فاقرأ من ذات حم. فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبِّحات. فقال مثلَ مقالته، فقال الرجُل: ولكن أقرئني ـ يا رسول الله ـ سورةً جامعةً. فأقرأه: ﴿إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَها﴾ حتى إذا فرَغَ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحقِّ لا أزيد عليها أبداً. ثم أدبر الرجُل، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أفلح الرُّويجل! أفلح الرُّويجل! ثم قال: عليَّ به. فجاءه فقال له: أُمِرْتُ بيوم الأضحى جَعَلَه الله عيداً لهذه الأمة. فقال له الرجل: أرأيتَ إن لم أجد إلا مَنِيحَة[2] أنثى، فأضحي بها؟ قال: لا، ولكنك تأخذُ من شَعْرِك، وتُقَلِّم أظفارك، وتقص شارِبَك، وتَحلق عانتك، فذاك تمامُ أُضْحيتك عند الله عزَّ وجلَّ[3].

وأخرجه أبو داود والنَّسائي، من حديث أبي عبد الرحمن المقرىء، به[3].

وقال الترمذي: حدَّثنا محمدُ بن موسى الحَرَشي البصري: حدَّثنا الحسن بن سَلْم بن صالح العِجْلي، حدَّثنا ثابت البُنَاني، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن قرأ ﴿إذا زُلزِلت﴾ عُدِلَتْ له بنصف القرآن». ثم قال: «هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن سَلْم».

وقد رواه البزَّارُ عن محمد بن موسى الحَرَشيِّ، عن الحسن بن سَلْم، عن ثابت، عن أنس قال: قال

---

(١) أي: استحكم واشتد. يريد أنه انتهى إلى حالة لا يستطيع معها قراءة هذه السور.

(٢) المنيحة: ما يعطيه الرجُل غيره ليشرب لبنها، ومنع من التضحية بها لأنها ليست ملكاً له.

(٣) مسند الإمام أحمد ١٦٩/٣، وسنن أبي داود، تفريع أبواب شهر رمضان ٥٧/٢، وأخرجه النسائي في فضائل القرآن من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ٣٧٤/٦.

رسولُ الله ـ ﷺ ـ : ﴿قل هو اللهُ أحد﴾ تعدل ثُلث القرآن، و﴿إذا زُلزلت﴾ تعدل رُبُع القرآن. هذا لفظه.

وقال الترمذي أيضاً: حدَّثنا علي بن حُجْر، حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا يمان بن المغيرة العَنَزيّ، حدَّثنا عطاءٌ، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ ﴿إذا زلزلت﴾ تَعْدل نصف القرآن، ﴿وقُل هو الله أحد﴾ تَعْدل ثُلُث القرآن، و﴿قُل يا أيها الكافرون﴾ تَعْدل رُبُع القرآن. ثم قال: «غريبٌ، لا نَعرفه إلا من حَديث يَمانِ بن المُغيرة».

وقال أيضاً: حدَّثنا عُقبة بن مُكرَم العَمِّي البَصري، حدَّثني ابن أبي فُدَيك، أخبرني سَلَمة بن وَرْدان، عن أنس بن مالك: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لرجل من أصحابه: هل تزوَّجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسولَ الله، ولا عندي ما أتَزَوَّج! قال: أليس معك ﴿قل هو الله أحد﴾؟ قال: بلى. قال: ثُلُث القرآن. قال: أليس معك: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتحُ﴾؟ قال: بلى. قال: رُبُع القرآن. قال: أليس مَعَك ﴿قل يا أيها الكافرون﴾؟ قال: بلى. قال: رُبُع القرآن. قال: أليس معك ﴿إذا زُلزِلتِ الأرضُ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، تزوَّج، [تزوَّج]. ثم قال: «هذا حديث حسن».

تفرَّد بِهِنَّ ثلاثتِهِن الترمذيُّ، لم يَرْوِهِنَّ غيرُه من أصحابِ الكُتُب(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾

قال ابنُ عباس: ﴿إذا زُلزلت الأرضُ زلزالَها﴾، أي: تحركت من أسفلها. ﴿وأخرجتِ الأرضُ أثقالها﴾، يعني: ألقت ما فيها من الموتى. قاله غيرُ واحدٍ من السلف. وهذه كقوله تعالى: ﴿يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم إنَّ زلزلة الساعةِ شيءٌ عظيم﴾.. وكقوله: ﴿وإذا الأرضُ مُدَّت * وألقت ما فيها وتخلَّت﴾.

وقال مسلم في صَحيحه: حدَّثنا واصلُ بن عبد الأعلى، حدَّثنا محمد بن فُضَيل، عن أبيه، عن أبي حَازم، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ تَقيءُ الأرضُ أفلاذَ كَبدها أمثالَ الأسطوانِ(٢) من الذهب والفضة، فيجيء القاتلُ فيقول: في هذا قَتَلْتُ. ويجيء القاطعُ فيقول: في هذا قَطَعْتُ رَحِمي. ويَجيءُ السارقُ فيقول: في هذا قُطِعَتْ يَدي. ثم يَدَعُونَه فلا يأخُذُونَ منه شيئاً(٣).

وقولُه. ﴿وقال الإنسانُ ما لها﴾، أي: استنكر أمرَها بعد ما كانت قارَّةً ساكنةً ثابتةً، وهو مُستقِرٌّ على

(١) الأحاديث الثلاثة في عارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/٢٢ ـ ٢٣.
(٢) الأفلاذ: جمع فِلْذ، وهي القطعة من الكبد واللحم. والأسطوان: جمع أسطوانة، وهي السارية والعمود.
(٣) مسلم، كتاب الزكاة ٢/٧٠١.

ظهرها، أي: تقلَّبت الحالُ، فصارت مُتحرِّكةً مضطربةً، قد جاءها من أمر الله ما قد أُعدّ لها من الزلزال الذي لا مَحِيدَ لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأمواتِ من الأوَّلين والآخِرين، وحينئذ استنكر النّاسُ أمرَها وتبدَّلت الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ، وبَرَزُوا لله الواحدِ القهّار.

وقولُه: ﴿يومئذٍ تُحدِّث أخبارها﴾، أي: تُحدِّث بما عمل العاملُون على ظهرِها.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا إبراهيم، حدَّثنا ابنُ المبارك ـ وقال الترمذي وأبو عبد الرحمن النَّسائي، واللفظ له: حدَّثنا سُوَيد بن نصر، أخبرنا عبد الله ـ هو ابن المبارك ـ عن سعيد بن أبي أيُّوب، عن يحيى بن أبي سُلَيمان، عن سعيد المَقبُريّ، عن أبي هُرَيرة قال: قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿يومئذ تُحدث أخبارها﴾، قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّ أخبارَها أن تشهدَ على كلِّ عبدٍ وأَمَةٍ بما عَمِل على ظهرها، أن تقولَ: عَمِل كذا وكذا، يومَ كذا وكذا. فهذه أخبارها».

ثم قال الترمذي: «هذا حديث حَسَنٌ صحيح غريب»(١).

[(٢) ـ وفي معجم الطبراني من حديث ابن لَهيعَةَ: حدَّثني الحارث بن يَزيدُ ـ سمع رَبيعة الجُرَشي: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «تَحفَّظُوا من الأرض فإنها أُمُّكم، وإنه ليس من أحدٍ عاملٍ عليها خيراً أو شراً إلا وهي مُخبِرةٌ» ـ (٢)].

وقولُه: ﴿بأنَّ ربَّك أوحى لها﴾، قال البخاريُّ: «أوحى لها وأوحى إليها، وَوَحَى لها وَوَحَى إليها، واحدٌ»(٣). وكذا قال ابن عباس: ﴿أوْحَى لها﴾، أي: أوحى إليها. والظاهر أن هذا مُضَمَّنٌ: أَذِنَ لها.

وقال شَبِيبُ بنُ بِشْرٍ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباسٍ: ﴿يومئذٍ تُحدِّث أخبارَها﴾، قال: قال لها ربُّها قولي، فقالت. وقال مجاهد: ﴿أوحى لها﴾ أي: أمَرها. وقال القُرَظي: أمرها أن تنشقَّ عنهم.

وقولُه: ﴿يومئذٍ يصدُر الناسُ أشتاتاً﴾، أي: يَرجِعُون عن مَوقِفِ الحساب، ﴿أشتاتاً﴾، أي: أنواعاً وأصنافاً، ما بين شَقِيٍّ وسَعِيدٍ، مأمورٍ به إلى الجنّة، ومأمُورٍ به إلى النار. قال ابنُ جُرَيج: يَتصدَّعون أشتاتاً فلا يجتمِعُون آخرَ ما عليهم. وقال السُّدِّي: ﴿أشتاتاً﴾ فِرَقاً.

وقولُه تعالى: ﴿لِيُرَوا أعمالَهُم﴾، أي: لِيَعملُوا ويُجازَوا بما عَمِلوه في الدنيا، من خيرٍ وشرٍّ. ولهذا قال: ﴿فمن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه * ومَن يَعْمَل مثقالَ ذَرَّةٍ شرًّا يَرَه﴾.

قال البخاري: حدَّثنا إسماعيلُ بن عبد الله، حدَّثني مالك، عن زيدِ بن أسلَم، عن أبي صالح السَّمّان، عن أبي هُرَيرة: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «الخيلُ لثلاثةٍ، لرجلٍ أجرٌ، ولرجُلٍ سِترٌ، وعلى رَجُلٍ وِزرٌ. فأما الذي له أجرٌ، فرجل رَبَطها في سبيل الله فأطال طِيَلَها(٤) في مَرْجٍ أو روضة، فما أصابت في طِيَلِها ذلك في المَرْجِ والرَّوضةِ كان له حسناتٍ، ولو أنها قَطعت طِيَلَها فاستَنّت شَرَفاً أو شَرَفَين(٥)، كانت آثارها وأرواثها

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزِّي ٩/٥٠١ ـ ٥٠٢، والترمذي في كتاب التفسير ١٢/٢٥٤ ـ ٢٥٥، والإمام أحمد في مسنده ٢/٣٧٤.

(٢ ـ ٢) سقط من بعض النسخ. والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٥/٦٤. وانظر مجمع الزوائد ١/٢٤١.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة ﴿إذا زُلزلت﴾ ٨/٧٢٦.

(٤) الطِّيَل: الحبل الطويل. والمَرْج: الأرض الواسعة. والروضة: أخصّ من المرعى.

(٥) استنّت: جرت. والشرف: الشوط.

حسناتٍ له. ولو أنها مَرّت بنهر فشربت منه ولم يُرد أن يَسقِي به كان ذلك حسناتٍ له، وهي لذلك الرجل أجرٌ. ورجل رَبطها تَغَنِّيًا[١] وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظُهُورها، فهي له سترٌ ورجُلٌ رَبطها فخراً ورئاءً ونِواءً[٢] فهي على ذلك وِزْرٌ، فسُئل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن الحُمُر، فقال: «ما أنزَل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذّةَ الجامعة: ﴿فمن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه * ومن يَعْمَل مثقالَ ذَرَّةٍ شراً يَرَه﴾»[٣].

ورواه مسلمٌ من حديث زيدِ بن أسلَمَ، به[٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا جَريرُ بن حازم، حدَّثنا الحسنُ، عن صعصَعَة بن معاوية، عَمِّ الفرزدق، أنه أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ فقرأ عليه: ﴿فَمَن يَعمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه * وَمَن يعمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ شرًا يَرَه﴾، قال. حسبي! لا أبالي ألَّا أسمع غيرها[٤].

وهكذا رواه النسائي في التفسير، عن إبراهيم بن يونس بن محمد المؤدِّب، عن أبيه، عن جَرير بن حازم، عن الحسن البصري قال: حدَّثنا صَعصعةُ عمُّ الفرزدق... فذكره[٤].

وفي صَحيح البُخاريِّ، عن عَديٍّ مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة، ولو بكلمة طيبة»[٥]. وفي الصحيح: «لا تَحقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تُفرِغَ من دَلْوِك في إناءِ المُستَسقي، ولو أن تَلْقَى أخاكَ ووجهُكَ إليه مُنبسِطٌ»[٦]، وفي الصحيح أيضاً: «يا نساء المؤمنات، لا تَحقِرَنَّ جارة لجارتها ولو فِرسِنَ شاةٍ»[٧]: يعني ظلفها ـ وفي الحديث الآخر: «رُدُّوا السائل ولو بظِلْفٍ مُحْرَقٍ»[٨].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمد بن عبد الله الأنصاريُّ، حدَّثنا كَثِير بن زَيدٍ، عن المطلب بن عبد الله، عن عائشةَ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: يا عائشةُ، استَتِري من النار ولو بشقِّ تمرةٍ، فإنها تَسُدُّ من الجائع مَسدَّها من الشبعان. تفرَّد به أحمدُ[٩].

ورُوِيَ عن عائشة أنها تَصدَّقت بعِنَبَةٍ، وقالت. كم فيها من مثقالِ ذَرَّةٍ[١٠]!

وقال أحمد: حدَّث أبو عامر، حدَّثنا سعيد بن مسلم، سمعت عامر بن عبد الله بن الزُّبير: حدَّثني عوف بن الحارث بن الطفيل: أن عائشةَ أخبرته: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ كان يقول: يا عائشةُ، إيَّاكِ ومُحقَّراتِ الذنوبِ، فإن لها من الله طالباً[١١]!

ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سعيد بن مسلم بن بَانَك، به[١١]!

---

(١) أي: استغناء بها عن سؤال الناس.

(٢) في مسلم: «ونِواءً على أهل الإسلام»، أي: مناوأةً ومعاداةً.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة ﴿إذا زُلزلت الأرض زلزالها﴾ ٨/٧٢٦ ـ ٧٢٧، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٦٨٠ ـ ٦٨٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ٥/٥٩ وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/١٨٧.

(٥) فتح الباري، كتاب الزكاة ٣/٢٨٣.

(٦) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٨٣ من سورة البقرة، ٩٢ من سورة النحل.

(٧) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الهبة ٥/١٩٧، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٧١٤، والفِرْسِنُ: الظِّلفُ، وأصل استعماله في الإبل، ويطلق على الغنم استعارة.

(٨) أخرجه الإمام أحمد ٥/٣٨١، وأهل السنن في كتاب الزكاة، سنن أبي داود ٢/١٢٦، وعارضة الأحوذي ٣/١٦٩، والنسائي ٥/٨١، ٨٦.

(٩) مسند الإمام أحمد ٦/٧٩.

(١٠) الموطأ، كتاب الصدقة ٢/٩٩٧.

(١١) تقدَّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٥٣ من سورة القمر.

وقال ابنُ جَرير: حدَّثني أبو الخطاب الحَسَّاني، حدَّثنا الهيثم بن الربيع، حدَّثنا سِماك بن عطيَّة، عن أيّوب، عن أبي قِلابَة، عن أنس قال: كان أبو بكر يأكُل مع النبي ـ ﷺ ـ فنزلت هذه الآية: ﴿فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيراً يَرَه * ومن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ شرّاً يَرَه﴾، فرفع أبو بكر يَدَه وقال: يا رسول الله، إني أُجزَى بما عَمِلتُ من مثقال ذرَّةٍ من شرٍّ؟ فقال: «يا أبا بكر، ما رأيتَ في الدنيا مما تكْرَه فبمثاقيل ذَرِّ الشر، ويدَّخِرُ الله لك مثاقيل ذَرِّ الخير حتى تُوَفَّاه يوم القيامة»[1].

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي الخطَّاب، به. ثم قال ابنُ جَرير:

حدَّثنا ابن بَشَّار، حدَّثنا عبد الوهاب، حدَّثنا أيّوبُ قال: في كتاب أبي قِلابَة، عن أبي إدريسَ أن أبا بكر كان يأكُل مع النبيِّ ـ ﷺ ـ فذكره[1].

ورواه أيضاً عن يعقوب، عن ابن عُليَّة، عن أيّوبَ، عن قِلابَةَ: أن أبا بكر... وذكره[1].

طريقٌ أخرى، قال ابنُ جَرير: حدَّثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني حُيَي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال. لما نزلت: ﴿إذا زُلزِلت الأرضُ زِلزالها﴾، وأبو بكر الصدِّيقُ ـ رضي الله عنه ـ قاعد، فبكى حينَ أُنزِلَت، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما يُبكِيك يا أبا بكر؟» قال: تُبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «لولا أنكم تُخطِئون وتُذنِبُون، فيغفر الله لكم، لَخَلق الله أمةً يُخطِئون ويُذنِبون، فيغفِرُ لهم»[2].

حديثٌ آخر، قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرعَةَ وعلي بن عبد الرحمن بن المُغيرة ـ المعروف بعَلَّان المصري ـ قالا: حدَّثنا عمرو بن خالد الحَرَّاني، حدَّثنا ابنُ لَهيعة، أخبرني هشامُ بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عَطاءِ بن يسارٍ، عن أبي سَعيد الخُدْري قال: لما نَزَلت. ﴿فمن يعملِ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَه * ومن يَعْمَل مِثقالَ ذرَّةٍ شراً يَرَه﴾ قلت: يا رسولَ الله، إني لراءٍ عَمَلي؟ قال نَعَم. قلتُ: تلك الكبارُ الكبار؟ قال: نعم قلت: الصغارُ الصغارَ؟ قال: نعم. قلت: واثُكلَ أُمي؟ قال: «أبْشِر يا أبا سعيد، فإن الحسنة بعشر أمثالها ـ يعني إلى سبعمائة ضعف ـ ويضاعِفُ الله لمن يشاء، والسيئةُ بمثلها أو يَغفِرُ الله، ولن يَنجو أحدٌ منكم بعَمَله. قلت: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يَتغمَّدني الله منه برَحْمَةٍ». قال أبو زُرْعَة: لم يَرْوِ هذا غيرُ ابن لَهيعة.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرعَةَ، حدَّثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير، حدَّثني ابنُ لَهيعة، حدَّثني عطاء بن دينار، عن سَعيدُ بن جُبَير في قول الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَه * ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يَرَه﴾، وذلك لما نزلت هذه الآيةُ. ﴿ويُطعِمُون الطعامَ على حُبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾، كان المسلمون يَرَون أنهم لا يُؤجَرون على الشيءِ القليل إذا أعطَوه، فيجيءُ المسكينُ إلى أبوابهم فيستقلُّون أن يُعطوه التمرةَ والكِسْرَةَ والجَوْزَةَ[3] ونحو ذلك، فيردُّونه ويقولون: ما هذا بشيءٍ؟ إنما نؤجَر على ما نُعطي ونحن نُحِبُّه. وكان آخرون يَرَون أنهم لا يُلامُون على الذنب اليسير: الكذْبة والنَّظرة والغيبة، وأشباه ذلك، يقولون: إنما وَعد الله النارَ على الكبائر. فرَغَّبهم في القليل من الخير أن يَعمَلوه، فإنه يُوشِكُ أن يكثُرَ، وحذَّرهم اليسيرَ من الشرِّ، فإنه يُوشِكُ أن يكثُرَ، فنزلت: ﴿فمن يَعمل مِثقالَ ذرَّةٍ﴾، يعني: وَزْنَ أصغر النمل ﴿خيراً يَرَه﴾ يعني في كتابه،

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٦٨ ـ ٢٦٩.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٢٧٠.
(٣) الجوزة: السقية الواحدة

ويَسُرُّه ذلك. قال: يُكتَب لكل برٍّ وفاجرٍ بكلِّ سيِّئة سيئةٌ واحدةٌ، وبكلِّ حَسَنة عشرُ حسناتٍ، فإذا كان يومُ القيامة ضاعَفَ اللهُ حسناتِ المؤمنين أيضاً، بكلِّ واحدةٍ عشراً، ويمحُو عنه بكل حَسَنةٍ عشرَ سيئات، فمن زادت حسناتُه على سيِّئاتِه مثقالَ ذَرَّةٍ دَخَل الجنة.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سُليمان بنَ داودَ، حدَّثنا عِمرانُ، عن قتادةَ، عن عبدِ ربِّه، عن أبي عياض، عن عبد الله بن مسعود أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إيَّاكُم ومُحقَّرات الذنوب، فإنهن يجتمعنَ على الرجل حتى يُهلكنه. وإن رسول الله ـ ﷺ ـ ضرَب لهنَّ مَثَلاً، كَمَثَل قوم نَزَلُوا أرضَ فلاةٍ فَحَضر صَنيعُ[1] القوم، فجعل الرجُل ينطلِق فيجيء بالعُود، والرجُل يجيء بالعُود، حتى جَمَعوا سواداً، وأجَّجُوا ناراً، وأنضجُوا ما قذَفوا فيها[2].

آخر تفسير سورة «الزلزلة» ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) الصنيع: ما يُصنع، والمراد هنا الطعام يُعدُّونه. والسواد: الشيء المجتمع، يريد أنهم جمعوا حطباً كثيراً.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/٤٠٢ - ٤٠٣. وقد تقدم عند تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة.

تفسير

سُورَةُ العَادِيَات

وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ
ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى
ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾

يُقسِم تعالى بالخيل إذا أُجريت في سَبيله فَعَدت وضَبَحت، وهو: الصوتُ الذي يُسمَع من الفرس حين تعدُو. ﴿فالمُورياتِ قَدْحاً﴾، يعني: اصطكاكَ نِعالِها بالصخر فتَقدَح منه النار. ﴿فالمُغيرات صُبحاً﴾، يعني الإغارة وقتَ الصباح، كما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُغيرُ صَباحاً ويَتَسمَّع، فإن سَمِع أذاناً وإلا أغارَ[1]. ﴿فأثَرْنَ به نَقْعاً﴾، يعني: غُباراً في مُعْتَرَك الخيول. ﴿فوسطن به جَمْعاً﴾، أي: تَوسَّطن ذلك المكان كُلُّهن جُمَعُ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا عَبْدَةُ، عن الأعمشِ، عن إبراهيمَ، عن عبد الله ﴿والعادياتِ ضَبْحاً﴾، قال: الإبلُ.

وقال عليٌّ: هي الإبل. وقال ابن عباس: هي الخيلُ. فَبلَغ عليًا قولُ ابن عباس، فقال: ما كانت لنا خيلٌ يوم بَدْرٍ. قال ابن عباس: إنما كان ذلك في سَرِيَّة بُعِثت.

قال ابن أبي حاتم وابنُ جَرير: حدَّثنا يونس، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني أبو صَخْرٍ، عن أبي مُعاوية

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٨٩، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٢٨٨ ولفظ مسلم «كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذاناً أمسك، وإلا أغار».

البَجَلي، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس حَدَّثه قال: بينا أنا في الحِجْر جالساً جاءني رَجُلٌ فسألني عن: ﴿العادياتِ ضَبحاً﴾، فقلت له: الخيلُ حين تُغِير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيَصنعُون طعامهم، ويُورُون نارَهم. فانفتل عني فذهبَ إلى علي ـ رضي الله عنه ـ وهو عند سِقاية زَمْزَم، فسأله عن ﴿العادياتِ ضَبْحاً﴾، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألتُ ابنَ عباس فقال: الخيلُ حين تُغِير في سبيل الله قال: اذهب فادعُه لي. فلما وَقَف على رأسه قال: تُفتي الناس بما لا عِلْمَ لك، والله لَئِن كان أوّلَ غزوةٍ في الإسلام بدرٌ، وما كان معنا إلا فَرَسان، فَرَس للزُّبَير، وفَرَس للمقداد فكيف تكونُ العادياتِ ضَبْحاً؛ إنما العاديات ضَبْحاً من عَرَفة إلى المزدلفة، ومن المُزدلفة إلى مِنىً

قال ابنُ عباس: فنَزعتُ عن قولي وَرَجعْتُ إلى الذي قال عليٌّ، رضي الله عنه[1].

وبهذا الإسنادِ عن ابن عباس قال: قال عليٌّ: إنما ﴿العادياتُ ضَبْحاً﴾ من عَرَفة إلى المُزدلِفة، فإذا أَوَوا إلى المُزدلِفة أَوْرَوُا النيرانَ.

وقال العَوفيُّ عن ابن عباس: هي الخيلُ.

وقد قال بقولِ عليٍّ: إنها الإبلُ، جماعة منهم: إبراهيمُ، وعُبَيد بن عمير. وبقول ابن عباس آخرون، منهم: مجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وعطاءٌ، وقتادةُ، والضحَّاك. واختاره ابن جرير.

قال ابنُ عباسٍ، وعطاءٌ: ما ضَبَحت دابة قط إلا فَرَسٌ أو كَلْبٌ. وقال ابن جُرَيج، عن عطاء: سَمِعت ابنَ عباس يصف الضبح: أَحْ أَحْ[2].

وقال أكثر هؤلاء في قوله: ﴿فالمُورِيات قدحاً﴾، يعني: بحوافرها. وقيل: أَسْعَرْنَ الحربَ بين رُكبانهنّ. قاله قتادةُ. وعن ابن عبّاس ومُجاهدٍ ﴿فالموريات قدحاً﴾، يعني: مَكْرَ الرجال. وقيل: هو إيقاد النار إذا رَجَعُوا إلى منازلهم من الليل. وقيل: المراد بذلك نيران القبائل. وقالَ من فسرها بالخيل: هو إيقادُ النارِ بالمزدلفة. قال ابنُ جرير: والصوابُ الأول، أنها الخيلُ حين تقدَحُ بحوافرها.

وقولُه: ﴿فالمُغيرات صُبحاً﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني إغارةَ الخيل صُبحاً في سبيل الله. وقال من فسَّرها بالإبل: هو الدفعُ صُبحاً من المزدلفة إلى مِنىً.

وقالوا كُلُّهم في قوله: ﴿فأثرن به نقعاً﴾ هو: المكان الذي حَلَّت فيه، أثارت به الغُبَار إما في حَجٍّ أو غَزْوٍ.

وقولُه: ﴿فوسطن به جَمْعاً﴾، قال العَوفي، عن ابن عباس، وعطاء، وعكرمةُ، وقتادةُ، والضحاكُ: يعني جَمعَ الكُفَّار من العدو.

ويَحتمِلُ أن يكون: فوسَطْنَ بذلك المكان جَميعُهُن، ويكون ﴿جَمْعاً﴾ منصوباً على الحال المؤكدة. وقد روى أبو بكر البزّار ها هنا حديثاً فقال:

حدَّثنا أحمد بن عَبْدَة، حدَّثنا حفصُ بنُ جُمَيع، حدَّثنا سِماكٌ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس قال: بَعَث رسولُ الله ـ ﷺ ـ خيلاً فاشهرت[3] شهراً لا يأتيه منها خبرٌ، فنزلت: ﴿والعادياتِ ضبحاً﴾، ضَبَحت بأرجُلها، ﴿فالمورياتِ قَدْحاً﴾، قدحت بحوافرها الحجارة فأورَتْ ناراً، ﴿فالمغيراتِ صُبحاً﴾: صَبَّحت القومَ بغارةٍ،

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢) أَحْ: حكاية تنحنح أو توجع.

(٣) أي: لبثت شهراً.

﴿فأثَرْن به نقعاً﴾، أثارت بحوافرِها الترابَ، ﴿فوسَطْنَ به جَمْعاً﴾، قال: صَبَّحتِ القومَ جميعاً[1].

وقولُه: ﴿إنَّ الإنسانَ لربِّه لَكَنُودٌ﴾، هذا هو المُقسَمُ عليه، بمعنى أنه لِنِعَمِ ربِّه لَجَحُودٌ كَفُورٌ.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وإبراهيمُ النخعي، وأبو الجوزاء، وأبو العالية، وأبو الضُّحى، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن قيس، والضَّحَّاك، والحسنُ، وقتادةُ، والربيعُ بن أنس، وابنُ زيد: الكَنُودُ الكفورُ. قال الحسن: هو الذي يَعُدُّ المصائبَ، وينسَى نِعَمَ ربِّه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا عُبَيد الله، عن إسرائيلَ، عن جعفر بن الزُّبَير، عن القاسم، عن أبي أُمامَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿إن الإنسانَ لربِّه لكنود﴾، قال: الكفورُ الذي يأكل وحدَه، ويضربُ عبدَه، ويمنع رِفْدَه.

ورواه ابنُ أبي حاتم: من طريق جعفر بن الزُّبير، وهو متروك. فهذا إسنادٌ ضعيفٌ. وقد رواه ابن جرير أيضاً من حديث حَرِيز بن عثمان، عن حَمْزَة بن هانىء، عن أبي أُمامة موقوفاً[2].

وقولُه: ﴿وإنَّه على ذلك لَشهيدٌ﴾، قال قتادةُ وسفيان الثوريُّ: وإن الله على ذلك لشهيدٌ.

ويَحْتَمِلُ أن يعودَ الضميرُ على الإنسان، قاله محمدُ بن كعب القُرَظي. فيكون تقديره: وإن الإنسانَ على كونه كَنُوداً لَشَهِيدٌ، أي: بِلسَانِ حَالِه. أي: ظاهرٌ ذلك عليه في أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يَعْمُروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾.

وقولُه: ﴿وإنه لحبِّ الخير لَشَدِيدٌ﴾، أي: وإنه لحب الخير، وهو المالُ، لشديدٌ. وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديدُ المحبَّةِ للمالِ. والثاني: وإنه لحريصٌ بخيلٌ؛ من مَحَبَّةِ المال. وكلاهُما صحيحٌ.

ثم قال تعالى مُزَهِّداً في الدنيا، ومُرَغِّباً في الآخرة، ومُنَبِّهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبلُه الإنسان من الأهوال: ﴿أفلا يعلَمُ إذا بُعثِرَ ما في القبور﴾، أي: أُخرِجَ ما فيها من الأموات. ﴿وحُصِّلَ ما في الصُّدورِ﴾، قال ابن عباس وغيرُه: يعني أُبرِزَ وأُظهِرَ ما كانوا يُسِرُّون في نُفُوسِهِم، ﴿إنَّ ربَّهم بهم يومئذ لخبير﴾، أي: لَعالِمٌ بِجَميع ما كانوا يصنَعُونَ ويعمَلُون، ومجازيهم عليه أَوْفَرَ الجزاءِ، ولا يَظلِمُ مِثْقَالَ ذرَّةٍ.

آخر سورة ﴿العاديات﴾ ولله الحمدُ والمنَّةُ

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٨٢/٣، وانظر مجمع الزوائد ١٤٢/٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٧٨/٣٠.

تفسير

سورة القارعة

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾

﴿القارعةُ﴾: من أسماء يوم القيامة، كالحاقَّة والطامَّة والصاخَّة والغاشية، وغير ذلك.

ثم قال مُعظِّماً أمرها ومُهوِّلاً لشأنها: ﴿وما أدراك ما القارعةُ﴾، ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿يومَ يكونُ الناسُ كالفراش المبثوثِ﴾، أي: في انتشارهم وتفرُّقهم، وذَهابهم ومَجيئهم، من حيْرَتهم مما هم فيه، كأنَّهم فراشٌ مبثوثٌ. كما قال في الآية الأخرى: ﴿كأنهم جَرادٌ مُنتشِرٌ﴾.

وقولُه: ﴿وتكون الجبالُ كالعِهن المنفُوشِ﴾، يعني: قد صارت كأنها الصوفُ المنفوشُ، الذي قد شَرَع في الذَّهاب والتمزُّق. قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، والحسنُ، وقتادةُ، وعطاءٌ الخُراساني، والضحَّاك، والسُّدِّي: ﴿العِهنُ﴾: الصُّوفُ.

ثم أخبر تعالى عما يَئُول إليه عملُ العاملين، وما يَصيرون إليه من الكَرامة أو الإهانة، بِحَسَب أعمالهم، فقال: ﴿فأما مَن ثَقُلت موازينُه﴾، أي: رَجَحت حسناتُه على سيئاته، ﴿فهو في عيشةٍ راضيةٍ﴾، يعني: في الجنَّة. ﴿وأما مَن خَفَّت موازينُه﴾، أي: رَجَحت سيئاتُه على حَسناته.

وقولُه: ﴿فأمُّه هاويةٌ﴾، قيل: معناه: فهو ساقطٌ هاوٍ بأُمِّ رأسِه في نار جَهنَّم، وعَبَّر عنه بأمِّه، يعني دِماغَه.

رُوي نحو هذا عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، وقتادة، قال قتادة: يَهْوِي في النار على رأسه. وكذا قال أبو صالح. يَهْوُون في النار على رُءُوسهم. وقيل: معناه: ﴿فأمه﴾ التي يرجع إليها، ويَصير في المعاد إليها ﴿هاوية﴾، وهي اسمٌ من أسماء النار. قال ابنُ جرير: وإنما قيل للهاوية: أمه، لأنه لا مأوى له غيرها[1].

وقال ابنُ زيدٍ: الهاويةُ: النارُ، هي أمُّه ومأواه التي يَرْجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿ومأواهم النارُ﴾.

قال ابنُ أبي حاتم: ورُوِي عن قتادة أنه قال: هي النارُ، وهي مأواهم. ولهذا قال تعالى مُفسِّراً للهاوية: ﴿وما أدراك ماهيه * نار حامية﴾.

قال ابنُ جَرير: حدَّثنا ابنُ عبد الأعلى: حدَّثنا ابنُ ثور، عن مَعْمَر، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال: إذا مات المؤمنُ ذُهِبَ بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: رَوِّحوا أخاكم فإنه كان في غَمِّ الدنيا. قال: ويسألونه: ما فعل فلانٌ؟ فيقول: مات، أوَ ما جاءكم؟ فيقولون: ذُهِب به إلى أُمِّه الهاوية[2].

وقد رَواه ابنُ مَرْدُويه من طريق أَنَسِ بن مالك مرفوعاً، بأبسطِ من هذا، وقد أوردناه في كتاب صفةِ النار، أجارنا الله منها بِمنِّه وكَرَمه.

وقولُه: ﴿نارٌ حاميةٌ﴾، أي: حارَّة شديدةُ الحرِّ، قَوِيَّةُ اللَّهيبِ والسَّعِير.

قال أبو مُصعَب، عن مالكٍ، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيْرَة: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ قال: «نارُ بني آدمَ التي تُوقِدُون جزءٌ مِن سبعينَ جزءاً من نارِ جَهنَّم». قالوا: يا رسولَ الله، إن كانت لكافيةً! فقال: «إنها فُضِّلت عليها بتسعةٍ وستِّين جزءاً»[3].

ورواه البخاري، عن إسماعيلَ بن أبي أُوَيس، عن مالك. ورواه مسلم عن قُتَيبة، عن المغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، به. وفي بعض ألفاظه: «إنها فُضِّلت عليها بتسعةٍ وستِّين جزءاً، كُلُّهن مثل حرِّها»[3].

وقال الإمامُ أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا حمَّاد ـ وهو ابنُ سَلَمة ـ عن محمد بن زياد ـ سمع أبا هُرَيْرَة يقول: سَمِعتُ أبا القاسم ـ ﷺ ـ يقول: «نارُ بني آدمَ التي تُوقِدُون جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جَهَنَّم». فقال رجل: إن كانت لكفيةً! فقال: «ولقد فُضِّلت عليها بتسعة وستِّين جُزءاً حَرّاً فحَرّاً»[4].

تفرَّد به أحمدُ من هذا الوجه، وهو على شرْطِ مُسلمٍ.

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدَّثنا سفيانُ، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيْرَة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ وعمرو، عن يحيى بن جَعْدَة ـ «إنَّ ناركُم هَذِه جزءٌ من سبعين جُزءاً من نار جهنَّم، وضُرِبَتْ بالبحر مرَّتين، ولولا ذلك ما جَعَل الله فيها مَنْفعةً لأحدٍ»[3].

وهذا على شرط الصحيحين، ولم يُخرجُوه من هذا الوجه. وقد رواه مسلمٌ في صَحيحه من طَريق *[5].
ورواه البَزَّار من حديث عبد الله بن مسعود، وأبي سعيد الخُدْرِي: «ناركُم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً»[6]

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٨٣.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٢٨٢.
(٣) تقدَّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٨١ من سورة براءة.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٤٦٧.
(٥) كذا في النسخ. وقد تقدَّم الحديث كما قلنا عند تفسير الآية ٨١ من سورة براءة، ولم يشر إلى رواية مسلم له.
(٦) رواية البزار عن ابن مسعود في كشف الأستار، كتاب صفة جهنم ٤/١٨٠.

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا قُتيبة، حدَّثنا عبدُ العزيز ـ هو ابن محمد الدَّراوَرْدِيُّ ـ عن سُهَيلٍ، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «هذه النارُ جزءٌ من مائةِ جزءٍ من جَهَنَّم»(١).

تفرَّد به أيضاً من هذا الوجه، وهُو على شَرْطِ مُسلمٍ أيضاً.

وقال أبو القاسم الطَّبراني: حدَّثنا أحمد بن عمرو الخَلَّال، حدَّثنا إبراهيم بن المنذر الحِزَامي، حدَّثنا مَعْنُ بن عيسى القَزَّاز، عن مالك، عن عَمِّه أبي سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أتدرُون ما مَثَلُ ناركم هذه من نار جَهَنَّم؟ لَهِي أشدُّ سواداً من دُخَانِ ناركم هذه بسبعين ضعفاً»(٢).

وقد رواه أبو مصعب، عن مالك ، ولم يَرْفعه. ورَوَى التِّرمذِيُّ وابنُ ماجه، عن عباسٍ الدُّورِيِّ، عن يحيى بن أبي بُكير، حدَّثنا شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أُوقِد على النار ألفُ سنةٍ حتى احمرَّت، ثُمَّ أُوقِد عليها ألفُ سنةٍ حتى ابيضَّت، ثم أُوقِد عليها ألفُ سنةٍ حتى اسودَّت، فهي سَوْداء مُظلِمةٌ»(٣).

وقد رُوِي هذا من حديث أَنَسٍ وعُمَر بن الخطاب.

وجاء في الحديث ـ عند الإمام أحمدَ ـ من طريق أبي عثمان النَّهدِيِّ، عن أنس ـ وأبي نَضْرَةَ العَبْدِي، عن أبي سعيد، وعَجْلان مولى المُشْمَعِلِّ، عن أبي هُرَيْرَةَ ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن أهونَ أهلِ النارِ عذاباً من له نَعلانِ يَغْلِي منهما دِمَاغُه»(٤).

وثَبَت في الصحيح أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «اشتكت النارُ إلى ربها فقالت: يا ربِّ، أكَل بعضي بعضاً، فأذِن لها بنفَسَين: نَفَسٍ في الشتاء، ونَفَسٍ في الصيفِ. فأشدُّ ما تَجِدُون في الشتاء من بَرْدِها، وأشدُّ ما تَجِدُون في الصيف من حَرِّها»(٥).

وفي الصحيحَين: «إذا اشتدَّ الحرُّ فأبرِدُوا عَنِ الصلاة، فإنَّ شدَّة الحر من فَيح جَهَنَّم»(٦).

آخر تفسيرِ سورةِ «القارعة»

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٧٩.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، وقال في مجمع الزوائد ١٠/٣٨٧: «ورجاله رجال الصحيح».
(٣) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٨١ من سورة براءة.
(٤) حديث أبي سعيد فيه ٣/١٣، ٧٨، وحديث أبي هريرة فيه ٢/٤٣٢، ٤٣٩.
(٥) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣٣٠.
(٦) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣٣٠، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٣٠.

تفسير

سُورَةُ التَّكَاثُر

وهي مكيّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ
تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ
ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾

يقولُ تعالى: شَغَلكُم حبُّ الدنيا ونعيمُها وزَهرتُها عن طَلَبِ الآخرة وابتغائها، وتَمادى بكُم ذلك حتّى جاءكم الموتُ وزرتُم المقابر، وصرتم من أهلها!

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا زكريا بنُ يحيى الوَقّار المصري، حدَّثني خالد بن عبد الدائم، عن ابن زيد بن أسلَمَ، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿أَلهاكم التكاثُر﴾ عن الطاعة، ﴿حتّى زُرتُمُ المقابرَ﴾: حتى يأتيكُم الموتُ[1].

وقال الحسنُ البصري: ﴿ألهاكم التكاثُر﴾ في الأموالِ والأولادِ.

وفي صحيح البُخاريِّ، في «الرقاق» منه: وقال لنا أبو الوليد: حدَّثنا حمّاد بن سَلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، عن أُبيِّ بن كعبٍ قال: كُنّا نَرَى هذا من القرآن حتى نَزَلت: ﴿أَلهاكم التكاثُرُ﴾، يعني: لو كان لابنِ آدَمَ وادٍ من ذهبٍ[2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شعبةُ: سَمِعت قتادة يُحدِّث عن مُطرِّف ـ يعني ابن

(١) الدر المنثور ٨/٦١١.
(٢) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٢٥٣.

عبد الله بن الشخير- عن أبيه قال: انتهيتُ إلى رسولِ الله - ﷺ - وهو يقولُ: ﴿ألهاكُم التكاثُر﴾، يقول ابنُ آدم: مالي مالي. وهل لك من مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيت، أو لَبِستَ فأبليتَ، أو تَصَدَّقت فأمضيتَ[1]؟

ورواه مسلم والترمذي والنسائي، من طريق شُعبَة، به[1].

وقال مُسلمٌ في صَحيحه: حدَّثنا سُوَيدُ بنُ سعيدٍ، حدَّثنا حفصُ بن مَيْسَرةَ، عن العَلاءِ، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرةَ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «يقول العبد: مالي مالي! وإنما له من ماله ثلاثٌ: ما أكَل فأفنَى، أو لبس فأبلى، أو تَصدَّق فاقتنى[2]، وما سِوَى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناس». تفرَّد به مُسلِمٌ[3].

وقال البخاري: حدَّثنا الحُمَيديّ، حدَّثنا سفيان، حدَّثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزم، سَمِع أنسَ بن مالك يقولُ. قال رسولُ الله - ﷺ -: «يَتْبَع الميتَ ثلاثةٌ، فيرجِعُ اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجعُ أهلُه ومالُه، ويبقى عَمَلُه»[4].

وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سفيان بن عُيَينة، به[4].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يحيى، عن شُعبةَ، حدَّثنا قتادةُ، عن أنس: أن النبيَّ - ﷺ - قال: «يَهْرَم ابن آدم وتبقى منه اثنتان: الحرصُ والأملُ»[5]. أخرجاه في الصحيحين[5].

وقد ذكر الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمةِ الأحنفِ بن قيس[6]، واسمه الضحَّاك، أنه رأى في يَدِ رجلٍ درهماً فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي. فقال: إنما هو لك إذا أنفقتَه في أجرٍ وابتغاءَ شُكرٍ. ثم أنشد الأحنف مُتَمثِّلاً قول الشاعر:

أنتَ للمالِ إذا أمسكتَه ... فإذَا أنفقتَه فالمالُ لَكْ

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا أبو أسامة: قال صالح بن حيان: حدَّثني عن ابن بُرَيدةَ في قوله: ﴿ألهاكُم التكاثُر﴾، قال: نَزَلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، في بني حارثةَ وبني الحارث، تفاخرُوا وتكاثَرُوا، فقالت إحداهما: فيكُم مثلُ فُلان بن فُلانٍ وفلانٍ؟ وقال الآخرون مثلَ ذلك، تفاخَرُوا بالأحياء، ثم قالوا: انطلِقُوا بنا إلى القُبور. فجَعلت إحدى الطائفتَين تقول: فيكم مثلُ فلان؟ يُشِيرون إلى القَبر، ومثل فلان؟ وفعل الآخرُون مثلَ ذلك، فأنزل الله: ﴿ألهاكم التكاثُر * حتى زُرتم المقابِرَ﴾، لقد كان لكم فيما رأيتم عبرةٌ وشغلٌ.

وقال قتادةُ: ﴿ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر﴾، كانوا يقولون: نحنُ أكثَرُ من بني فلان، ونحن أعدُّ[7] من بني فلان. وهم كلَّ يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صَاروا من أهل القبور كلِّهم[8].

---

(١) مسند أحمد ٤/٢٤ وقد تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٢١٢ من سورة البقرة، ٩٥ من سورة الأنعام، ٧ من سورة الحديد.

(٢) أي: ادخره لآخرته.

(٣) مسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٧٣.

(٤) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٣٦٢، ومسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٧٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/٢٢٣ - ٢٢٤، والنسائي، كتاب الجنائز ٤/٥٣.

(٥) مسند الإمام أحمد ٣/١١٥، وفتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٢٣٩، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٧٢٤.

(٦) تهذيب تاريخ دمشق ٧/٢٣ - ٢٤. وانظر البيت في عيون الأخبار ٣/١٨.

(٧) أي: أكثر عدداً.

(٨) أخرجه الطبري ٣٠/٢٨٣.

والصحيحُ أنَّ المُراد بقوله: ﴿زُرتم المقابرَ﴾، أي: صِرتُم إليها ودُفِنتم فيها، كما جاء في الصَّحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ دَخَل على رَجُلٍ من الأعراب يَعُوده، فقال: لا بأس، طَهُورٌ إن شاء الله. فقال: قلت: طَهُور؟! بل هي حُمَّى تَفُور، على شيخٍ كَبِير، تُزِيرُه القُبورَ! قال: فنَعَم إذاً[1]

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدَّثنا أبو زُرعَةَ، حدَّثنا محمد بن سَعيد الأصبهانيُّ، أخبرنا حكام بن سَلْم الرازيُّ، عن عمرو بن أبي قيس، عن الحَجَّاج، عن المِنْهال، عن زِرِّ بن حُبَيش، عن علي قال: ما زِلْنا نَشُكّ في عذابِ القبر حتى نزلت: ﴿أَلهاكُم التكاثُر * حتى زرتُم المقابر﴾.

ورواه التِّرمذي عن أبي كُرَيب، عن حكام بن سلم، وقال: «غريبٌ»[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سَلَمة بن داود العُرَضيُّ، حدَّثنا أبو المليح الرَّقِّيُّ، عن ميمون بن مِهرانَ قال: كنتُ جالساً عند عُمَر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿أَلهاكُم التكاثُرُ * حتى زُرْتُم المقابر﴾، فلبث هُنيهةً فقال: يا ميمونُ، ما أرى المقابرَ إلا زيارةً، وما للزائر بُدٌّ مِن أن يرجع إلى منزله[3].

قال أبو مُحمَّد[3]: يعني أن يَرْجِع إلى منزله، أي: إلى جنةٍ أو نارٍ، وهكذا ذُكِرَ أن بعضَ الأعراب سمع رجلاً يتلُو هذه الآية: ﴿حتى زُرتُم المقابرَ﴾، فقال: بُعِثَ اليومَ وربِّ الكعبة! أي: إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره.

وقولُه: ﴿كلَّا سوف تَعلَمُون * ثم كَلَّا سوف تعلمُون﴾، قال الحسن البصريُّ: هذا وَعيدٌ بعدَ وَعِيد.

وقال الضَّحاكُ: ﴿كلَّا سوفَ تَعْلَمُون﴾، يعني الكفار، ﴿ثم كلَّا سوف تَعلمُونَ﴾ يعني: أيها المؤمنون.

وقولُه: ﴿كلَّا لو تعلَمُون عِلْمَ اليقين﴾، أي: لو عَلِمتُم حقَّ العلم لما ألهاكم التكاثُر عن طَلَبِ الدار الآخرة، حتى صِرتُم إلى المقابر.

ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثم لَتَرَوُنَّها عينَ اليقين﴾، هذا تفسيرُ الوعيدِ المتقدِّم، وهو قوله: ﴿كلا سوف تعلَمُون * ثم كـلَّا سوفَ تعلَمُون﴾ توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية النارِ التي إذا زَفَرت زَفرةً خرَّ كلُّ مَلَكٍ مُقرَّبٍ، ونَبِيٍّ مُرسَلٍ على رُكبَتيه، من المهابةِ والعَظَمة ومُعَاينة الأهوالِ، على ما جاء به الأثرُ المرويُّ في ذلك.

وقولُه: ﴿ثمَّ لَتُسألُنَّ يومئذٍ عن النعيم﴾، أي: ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذ عن شُكرِ ما أنعم الله به عليكُم، من الصحَّةِ والأمنِ والرزق وغير ذلك: ماذا[4] قابلتُم به نِعَمَه من شُكرِه وعبادتِه؟

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبو زُرْعة، حدَّثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقرئ، حدَّثنا عبد الله بن عيسى أبو خَلَف[5] الخزاز، حدَّثنا يونس بن عُبَيد، عن عكرِمة، عن ابن عباس أنه سَمع عُمَر بن الخطاب يقول: خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ عند الظهيرة، فوجد أبا بكر في المسجد فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟ قال: أخرجني الذي أخرجَكَ يا رسولَ الله. قال: وجاء عُمَر بنُ الخطاب فقال: ما أخرجك يا ابنَ الخطَّاب؟ قال: أخرجَني الذي

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ٩/٦٢٤، وانظر أطرافه هنالك.
(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة التكاثر ١٢/٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٣) أخرجه ابن المنذر أيضاً، الدر المنثور ٨/٦١١ وأبو محمد هو: عبد الرحمن بن أبي حاتم، راوي الأثر المتقدم
(٤) في النسخ: ما إذا
(٥) في نسخة: أبو خلد وفي أخرى: أبو خالد. والمثبت من المقتنى للذهبي ١/٢١٩، ودلائل النبوة للبيهقي، وتهذيب الكمال ١٥/٤١٦

أخرجكما. قال: فقعد عُمر، وأقبل رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُحدِّثُهما، ثم قال: هل بكما من قُوّة، تنطلقان إلى هذا النخل فتُصيبان طعاماً وشراباً وظِلاًّ؟ قلنا: نعم. قال. مُرُّوا بنا إلى منزل ابن التَّيهان أبي الهَيْثم الأنصاريِّ، قال فتقدَّم رسولُ الله ـ ﷺ ـ بين أيدينا، فسلّم واستأذن ـ ثلاثَ مرّاتٍ ـ وأمُّ الهيثم من وراءِ الباب تسمَعُ الكلام، تُريد أن يَزيدها رسولُ الله ـ ﷺ ـ من السلام، فلما أراد أن ينصرفَ خرجت أم الهيثم تسعَى خَلْفَهُم، فقالت: يا رسولَ الله، قد ـ والله ـ سمعتُ تسليمَكَ، ولكن أردتُ أن تَزيدنا من سلامِكَ. فقال لها رسولُ الله ـ ﷺ ـ: خيراً. ثم قال: أين أبو الهيثم؟ لا أراه. قالت: يا رسولَ الله، هو قريبٌ ذهب يستعذِبُ[1] الماء، ادخلُوا فإنه يأتي الساعة إن شاء الله. فبَسَطَت بساطاً تحت شجرة، فجاء أبو الهيثم ففرحَ بهم، وقرّت عيناه بهم، فصَعد على نخلة فصَرَم لهم أعذاقاً، فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ. حَسْبُكَ يا أبا الهيثم. قال: يا رسول الله، تأكُلون من بُسره، ومن رُطَبه، ومن تَذْنُوبه[2]. ثم أتاهم بماءٍ فشرِبُوا عليه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ. هذا من النعيم الذي تُسألُون عنه. هذا غريب من هذا الوجه[3].

وقال ابنُ جَرير. حدَّثني الحُسين بن علي الصُّدائي، حدَّثنا الوليد بن القاسم، عن يزيد بن كَيْسانَ، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة قال: بينما أبو بكر وعُمر جالسان إذ جاءهما النبيُّ ـ ﷺ ـ فقال: ما أجلسكما ها هنا؟ قالا: والذي بَعثك بالحقِّ ما أخرجنا من بُيوتنا إلا الجُوع. قال. والذي بَعثني بالحقِّ ما أخرجني غيره. فانطلقوا حتى أتوا بيت رَجُلٍ من الأنصار. فاستقبلتهم المرأةُ، فقال لها النبيُّ ـ ﷺ ـ: أينَ فلانٌ؟ فقالت: ذهب يَستعذِبُ لنا ماءً. فجاء صاحِبُهم يحمل قِرْبَتَه فقال: مرحباً، ما زار العبادَ نبيٌّ أفضلُ من نبيٍّ زارني اليوم! فعلَّق قِرْبَتَه بكَرَب[4] نخلة، وانطلق فجاءهم بعِذْق، فقال النبي ـ ﷺ ـ: ألا كنت اجتنيت؟ فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارُون على أعيُنكم. ثم أخذ الشفرة، فقال النبي ـ ﷺ ـ: إياكَ والحلوبَ؟ فذبح لهم يومئذٍ، فأكلوا. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ. لَتُسْئَلُنَّ عن هذا يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوعُ، فلم ترجعُوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النَّعيم[5].

ورواه مسلمٌ من حديث يزيدَ بن كيسان، به. ورواه أبو يَعْلَى وابن ماجه، من حديث المُحَارِبيِّ، عن يحيى بن عُبَيد الله، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن أبي بكر الصديق، به. وقد رَوَاه أهلُ السُّنَنِ الأربعةِ، من حديث عبد الملك بن عُمَير، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيْرَة، بنحوٍ من هذا السياقِ وهذه القصَّةِ[6].

وقال الإمام أحمدُ: حدَّثنا سُرَيج، حدَّثنا حَشْرَجٌ، عن أبي نُصَيرة، عن أبي عَسِيب ـ يعني مولى رسول الله ـ قال. خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ ليلاً فمرَّ بي، فدعاني فخرجتُ إليه، ثم مرَّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مرَّ

---

(١) أي خرج يطلب الماء العذب.

(٢) التذنوبُ. الذي بدأ فيه الإرطابُ من قِبَل ذنبه.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ١/٣٦٢ بإسناده إلى زكريا بن يحيى الخزّار، وقال ورواه ابن خزيمة عن هلال بن بِشْر، عن أبي خَلَف الخزار، دون ذكر عُمَر في إسناده. وانظر مجمع الزوائد ١٠/٣١٧، والدر المنثور ٨/٦١٦ ـ ٦١٧

(٤) الكربُ: أصل السعف. والعِذْقُ: العُرجُون بما فيه من الشماريخ.

(٥) تفسير الطبري ٣٠/٢٨٧ ورواية مسلم في كتاب الأشربة ٣/١٦٠٩ ـ ١٦١٠، ورواية أبي يعلى في مسنده ١/٧٠ ـ ٧١، وابن ماجه في سننه، كتاب الذبائح ٢/١٠٦٢، ورواية أهل السنن الأربعة في سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٣٣ ـ وانظر في هذا تحفة الأشراف ١٠/٤٦٧ ـ وعارضة الأحوذي، أبواب الأدب ١٠/٢٦١، وأبواب الزهد ٩/٢١٨ ـ ٢٢٠، وأخرجه النسائي في كتابي الوليمة والتفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ١/٤٦٧ ـ ٤٦٨، وابن ماجه في كتابه الأدب ٢/١٢٣٣

بعُمَر فدعاه فخرج إليه. فانطلق حَتَّى دَخَل[١] حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: أَطْعِمنا. فجاء بعِذْق فوضعه، فأكل رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأصحابُه، ثم دعا بماءٍ باردٍ فَشَرِبَ، وقال: لَتُسْئَلُنَّ عن هذا يومَ القيامة. قال: فأخذ عُمَرُ العِذْقَ فضرب به الأرض حتى تناثر البُسْرُ قِبَل رسولِ الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة؟: قال: نَعَم، إلا من ثلاثة: خِرْقَةٍ كفَّ بها الرجل عَوْرَتَه، أو كِسْرَة سَدَّ بها جَوْعَته، أو جُحْرٍ يَتَدخَّل[٢] فيه من الحرِّ والقَرِّ. تفرَّد[٣] به أحمد.

وقال الإمامُ أحمد: حدَّثنا عبدُ الصمد، حدَّثنا حَمَّاد، حَدَّثنا عَمَّارٌ، سَمِعتُ جابر بن عبد الله يقول: أكلَ رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر وعمر رُطَباً، وشَرِبُوا ماء، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ. هذا من النعيم الذي تُسْئَلُونَ عنه[٤].

وَرَواه النَّسائي، من حديث حَمَّاد بن سَلَمةَ، به[٤].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا أحمدُ، حدَّثنا يزيدُ، حدَّثنا مُحمَّد بن عمرو، عن صَفْوان بن سُلَيم، عن محمود بن الرَّبيع قال: لما نزلت ﴿الهاكم التكاثر﴾، فقرأ حتى: بَلَغ. ﴿لَتُسْئَلُنَّ يومئذٍ عن النعيم﴾، قالوا: يا رسولَ الله، عن أيِّ نعيم نُسأَلُ؟ وإنما هُما الأسودانِ الماءُ والتمرُ، وسيوفُنا على رقابنا، والعدوُّ حاضِرٌ، فعن أيِّ نَعِيم نُسأَلُ؟ قال: أَمَا إن ذلك سَيكُون[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرعةَ، حدَّثنا مُسَدَّدٌ، حدَّثنا سفيان، عن محمد بن عَمْرو، عن يحيى بن حاطب، عن عبد الله بن الزُّبَير قال: قال الزُّبير: لما نزلَتْ ﴿لَتُسْئَلُنَّ يومئذٍ عن النعيم﴾ قال: يا رسول الله، لأيِّ نَعِيم نُسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمرُ والماءُ؟ قال: إن ذلك سيكون[٦].

وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان ـ هو ابن عُيَيْنة ـ به. ورواه أحمد عنه، وقال الترمذي: «حسن»[٦].

وقال أحمد: حَدَّثنا أبو عامر عبد الملك بن عَمْرو، حدَّثنا عبد الله بن سليمان، حدَّثنا معاذ بن عبد الله بن خُبَيب، عن أبيه، عن عَمِّه قال: كُنَّا في مجلس فَطَلَع علينا النبيُّ ـ ﷺ ـ وعلى رأسه أثَرُ ماءٍ، فقلنا: يا رسولَ الله، نراكَ طَيِّبَ النفس. قال: أَجَلْ. قال: ثم خاض الناسُ في ذكر الغِنَى، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ. ولا بَأْسَ بالغنى لِمَن اتقى الله، والصحَّةُ لمن اتقى الله خيرٌ من الغنى، وطِيبُ النفسِ من النعيم[٧].

وَرَواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شَيْبَة، عن خالد بن مخلد، عن عبد الله بن سليمان، به[٧].

---

(١) في نسخة: حتى أتى.
(٢) يقال: دَخَّله فتدخل. إذا أدخله.
(٣) مسند أحمد ٥/٨١.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٣٥١، والنسائي، كتاب الوصايا ٦/٢٤٦.
(٥) مسند الإمام أحمد ٥/٤٢٩.
(٦) عارضة الأحوذي، تفسير سورة التكاثر ١٢/٢٥٦، وابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٣٩٢، ومسند أحمد ١/١٧٤
(٧) مسند الإمام أحمد ٥/٣٧٢، ٣٨٠ ـ ٣٨١. وسنن ابن ماجه، كتاب التجارات ٢/٧٢٤.

وقال الترمذيُّ: حدَّثنا عبْدُ بن حُميد، حدَّثنا شَبابةُ، عن عبد الله بن العَلاءِ، عن الضحَّاك بن عبد الرحمن بن عَرْزَم الأشعريِّ قال: سَمِعتُ أبا هُرَيْرة يقولُ: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «إنَّ أول ما يُسألُ عنه ـ يعني يوم القيامة ـ العبدُ من النعيم أن يُقال له: ألم نُصِحَّ لك جِسْمَكَ، ونُرْوِكَ من الماء البارد»[1]؟

تفرَّد به الترمذيُّ. ورواه ابنُ حِبَّان في صَحيحِهِ، من طريق الوليد بن مُسلِمٍ، عن عبد الله بن العَلاء بن زَبْرٍ، به[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبد الله الظّهرانيُّ، حدَّثنا حفص بن عُمَر العَدَني، عن الحكم بن أبان، عن عِكْرِمةَ قال: أُنزلتْ هذه الآية: ﴿ثم لَتُسْئلُنَّ يومئذ عن النَّعيم﴾، قالتِ الصحابةُ: يا رسول الله، وأيُّ نعيم نحنُ فيه، وإنما نأكل في أنصافِ بُطُونِنا خُبزَ الشَّعيرِ؟ فأوحى الله إلى نبيِّه ـ ﷺ ـ: قل لهم: أليس تحتذُون النعال، وتشْرَبُون الماء البارِدَ؟ فهذا من النعيم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرعَة، حدَّثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا محمد بن سُليمان بن الأصبهاني، عن ابن أبي ليلى ـ أظنه عن عامرٍ ـ عن ابن مسعود، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿لَتُسْئلُنَّ يومئذٍ عن النَّعيم﴾، قال: الأمن والصحَّةُ.

وقال زيدُ بن أسلم، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ثم لَتُسْئلُنَّ يومئذٍ عن النَّعيم﴾، يعني: شِبَعَ البطون، وبارِدَ الشرابِ، وظِلال المساكنِ، واعتدال الخَلْقِ، ولَذَّة النومِ. رواه ابن أبي حاتم بإسناده المتقدم، عنه في أول السُّورةِ.

وقال سعيد بن جُبَير: حتَّى عن شَرْبَةِ عَسَلٍ. وقال مجاهدٌ: عن كُلِّ لذَّةٍ من لَذَّات الدُّنيا، وقال الحسنُ البصريُّ: من النعيم الغَداءُ والعشاءُ. وقال أبو قِلابة: من النعيم أكلُ السَّمنِ والعسل بالخبز النَّقيِّ[2]. وقول مجاهدٍ أشملُ هذه الأقوال.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ثم لَتُسْئلُنَّ يومئذٍ عن النَّعيم﴾، قال: النعيمُ صِحَّةُ الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العبادَ فيمَ استعملُوها؟ وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إن السمعَ والبصَرَ والفؤادَ كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾.

وثبت في صَحيح البُخاريِّ، وسُنَن الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سَعيد بن أبي هندٍ، عن أبيه، عن ابن عباسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ الناس. الصحَّة والفراغ»[3].

ومعنى هذا أنهم مُقصِّرُون في شكر هاتين النِّعمتين، لا يَقُومون بواجِبِهما، ومن لا يقومُ بحقِّ ما وَجَب عليه فهو مَغبُونٌ.

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدَّثنا القاسمُ بنُ محمد بن يحيى المروزيُّ، حدَّثنا علي بن الحَسَن بن

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة التكاثر ١٢/٢٥٧، والإحسان ترتيب صحيح ابن حبان ٩/٢٢٨.

(٢) النقيُّ: الدقيق الجيِّد.

(٣) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٢٢٩، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/١٨١ ـ ١٨٢، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٣٩٦. وأخرجه النسائي في كتاب الرقائق من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٤/٤٦٥.

شقيق، حدّثنا أبو حمزة، عن ليث، عن أبي فزارة، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما فوق الإزار، وظلُّ الحائط، [وجرُّ الماء فضلٌ][(١)]، يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامة، أو يُسألُ عنه» ثم قال: لا نعرفه إلا بهذا الإسناد[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا بَهْزٌ وعفّانُ قالا: حدّثنا حمّاد، قال عفان في حديثه: قال إسحاقُ بنُ عبد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ ـ قال عفان: يوم القيامة ـ: يا ابن آدمَ، حَمَلْتُكَ على الخيلِ والإبلِ، وزَوَّجتُكَ النساءَ، وجعلتك تَرْبَعُ[(٣)] وتَرْأَس، فأين شكر ذلك»[(٤)]؟ تفرّد به من هذا الوجه.

آخر تفسير سورة «التكاثر»

(١) ما بين القوسين عن كشف الأستار ومجمع الزوائد، ومكانه في النسخ: وخبز.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الزهد ٤/٢٤٧، وانظر مجمع الزوائد ١٠/٢٦٧.
(٣) ترأس: تكون رئيساً. وتَرْبَع: تأخذ ربع الغنيمة، أي: تكون رئيساً مطاعاً.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٤٩٢.

تفسير

سُورَةُ العَصْرِ

وهي مكيّة

ذكَروا أنّ عَمرو بنَ العاص وَفَد على مُسَيلمةَ الكذَّاب، وذلك بعد ما بُعث رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقبل أن يُسلِمَ عَمرو، فقال له مُسَيلمةُ: ماذا أُنزِلَ على صاحبكم في هذه المدّة؟ قال: لقد أُنزلَ عليه سُورةٌ وجيزةٌ بليغةٌ. قال: وما هي؟ فقال: ﴿والعصرِ * إنَّ الإنسانَ لفي خُسرٍ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحقّ وتواصَوا بالصبر﴾. ففكّر مُسَيلمةُ هُنيهةً ثم قال: وقد أُنزلَ عليّ مثلُها. فقال له عَمرو: وما هو؟ فقال: يا وَبْر يا وَبْر، إنما أنت أُذنانِ وصَدْر، وسائرك حَفْرٌ نَقْر. ثم قال: كيفَ ترى يا عَمرو؟ فقال له عَمرو: والله إنّكَ لَتَعلَمُ أنّي أعلَمُ أنكَ تكذِبُ[1].

وقد رأيت أبا بكر الخَرَائِطيّ[2] أسند في كتابه المعروف «بمساوي الأخلاق»، في الجزء الثاني منه، شيئاً من هذا أو قريباً منه.

والوَبْرُ: دُوَيبّة تُشبه الهِرّ، أعْظَمُ شيءٍ فيه أُذُناه وصدرُه، وباقيه لَطيفٌ دَمِيمٌ. فأراد مُسَيلمةُ أن يُرَكّب من هذا الهذيان ما يُعارِضُ به القرآن، فلم يَرُج ذلك على عابدِ الأوثانِ، في ذلك الزمان.

[[3] ـ وذكر الطَّبَرانيُّ من طريق حَمَّاد بن سَلَمة، عن ثابتٍ، عن عُبَيد الله بن حِصْنٍ أبي مَدِينَةَ، قال: كان الرجلان من أصحابِ رَسُول الله إذا التقيا لم يتفرقا إلاّ على أن يقرأ أحدُهما على الآخر سورة العَصْرِ، إلى آخرها، ثم يُسَلِّم أحدهما على الآخر ـ[3]].

وقال الشافعي رحمه الله: لو تَدَبَّر الناسُ هذه السورة لَوَسِعَتهم.

(١) تقدم الأثر وشرح غريبه عند تفسير الآية ١٧ من سورة يونس.

(٢) هو. محمد بن جعفر، من أهل سُرّ من رأى. كان حَسَن التصانيف، أخبارياً، جمع الملح والنوادر، وكان مكثراً منها توفي بيافا سنة ٣٢٧، وطبع من كتبه مكارم الأخلاق. فأما المساوي فلا يزال مخطوطاً.

(٣ ـ ٣) سقط من بعض النسخ وقد أخرج الأثر الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مُليكة الدارمي. انظر الدر المنثور ٦٢١/٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

العصرُ: الزمانُ الذي يقَعُ فيه حَركاتُ بني آدم من خيرٍ وشرٍّ. وقال مالكٌ، عن زيدِ بن أسلَمَ: هو العَشِيُّ[1]. والمشهورُ الأوَّلُ.

فأقسم تعالى بذلك على أنَّ الإنسانَ لفي خُسرٍ، أي: في خَسارةٍ وهلاكٍ، ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، فاستثنى من جنسِ الإنسانِ عن الخسرانِ الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحاتِ بجوارحِهم، ﴿وتَوَاصَوا بالحقِّ﴾، وهو أداءُ الطاعاتِ، وتَرْكُ المحرَّماتِ، ﴿وتَواصَوا بالصَّبرِ﴾ على المصائبِ والأقدارِ، وأذى مَن يُؤذِي ممن يأمُرونه بالمعروفِ وينهَونه عن المنكرِ.

آخرُ تفسيرِ «سورة العصر» ولله الحمدُ والمِنَّةُ

---

(١) في بعض النسخ: العشر، وفي أخرى: العصر. انظر تفسير القرطبي ٢٠/١٧٩

تفسير

سُورَةُ الهُمَزَة

وهي مكيّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى
ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ
مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

الهمّازُ بالقول، واللمّازُ بالفعلِ. يعني يَزْدري بالناس ويَنْتَقِصُ بهم. وقد تقدّم بيانُ ذلك في قوله: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾.

قال ابنُ عبّاس: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: طَعّانٍ معياب. وقال الربيعُ بن أنس: الهُمَـزَةُ يَهْمِزُه في وجهه، واللُّمَزَةُ من خَلْفِهِ. وقال قتادة: يَهمِزُه ويَلْمِزه بلسانه وعَيْنِه، ويأكُل لحوم الناس، ويطعُن عليهم[1].

وقال مجاهدٌ: الهُمَزَةُ باليدِ والعينِ، واللُّمَزَةُ باللسانِ. وهكذا قال ابنُ زيدٍ. وقال مالكٌ، عن زيدِ بن أسلَمَ: هُمَزَةٌ لحومَ الناسِ.

ثم قال بعضهم: المراد بذلك الأخنسُ بن شَرِيقٍ، وقيل: غيرُه. وقال مجاهد: هي عامّةٌ.

وقولُه ﴿الذي جَمَع مالاً وعدّده﴾، أي: جَمَعه بعضَه على بعض، وأحصى عَدَده، كقوله: ﴿وجَمَعَ فأوعى﴾، قال له السُّدّي، وابنُ جَريرٍ.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٩٢/٣٠.

وقال محمدُ بن كعبٍ في قوله: ﴿جَمَعَ مالاً وعدَّده﴾، ألهاه مالُه بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليلُ نام كأنه جيفةٌ.

وقولُه: ﴿يحسَبُ أنّ مالَه أخلدَه﴾، أي: يظُنُّ أن جَمْعَه المالَ يُخلِدُه في هذه الدار! ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما زعَم ولا كما حَسِبَ. ثم قال تعالى: ﴿لَيُنبذَنَّ في الحُطَمة﴾، أي: ليُلقَيَنَّ هذا الذي جَمَع مالاً فعَدَّده في الحُطَمة، وهي اسمٌ من أسماءِ النارِ صِفَةٌ، لأنها تَحطِمُ مَن فيها. ولهذا قال: ﴿وما أدراك ما الحُطَمة * نارُ الله المُوقَدةِ * التي تَطَّلع على الأفئدة﴾، قال ثابتٌ البُناني: تحرِقهم إلى الأفئدة وهم أحياءٌ، ثم يقول: لقد بَلَغ منهم العذابُ. ثم يبكي.

وقال محمدُ بن كعبٍ: تأكُل كل شيءٍ من جَسَده، حتى إذا بَلَغت فُؤادَه حُدِّد خَلْقُه، فرَجع على جَسَدِه[1].

وقولُه: ﴿إنَّها عليهم مُؤْصَدة﴾، أي: مُطبقةٌ كما تقدَّم تفسيرُه في سورة البلد.

وقال ابن مَرْدُويه: حدَّثنا عبدُ الله بنُ محمدٍ، حدَّثنا عليُّ بن سراجٍ، حدَّثنا عثمان بن خُرَّزاذ، حدَّثنا شجاع بن أشْرَس، حدَّثنا شَرِيكٌ، عن عاصمٍ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هُرَيْرَة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾، قال: مُطبقةٌ.

وقد رَواه أبو بكرِ بن أبي شَيْبَة، عن عبدِ الله بن أسيدٍ، عن إسماعيلَ بن خالدٍ، عن أبي صالحٍ، قولَه، ولم يَرْفَعْه.

﴿في عَمَدٍ مُمَدَّدةٍ﴾، قال عَطيَّةُ العَوفي: عَمدٌ من حَديدٍ. وقال السُّدِّي: من نار. وقال شَبيب بن بِشْرٍ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس: ﴿في عَمَدٍ مُمَدَّدةٍ﴾، يعني الأبواب هي الممدُودَة.

وقال قتادة: في قراءةِ عبدِ الله بن مسعود «إنها عليهم مُؤْصَدةٌ بِعَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ»[2]

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: أدخلهُم في عَمَدٍ فَمُدَّت عَلَيهم بِعِمَادٍ، في أعناقِهم السلاسلُ فَسُدَّت بها الأبواب.

وقال قتادةُ: كُنا نُحدَّث أنهم يُعَذَّبون بِعَمَدٍ في النار. واختاره ابنُ جرير. وقال أبو صالح: ﴿في عَمَدٍ مُمدَّدةٍ﴾ يعني القيودَ الطِّوالَ.

آخرُ تفسيرِ سُورَةِ «الهُمَزَة» ولله الحمدُ والمنَّةُ

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٨/٦٢٥.
(٢) أخرجه الطبري ٣٠/٢٩٥، والبغوي في تفسيره ٤/٥٢٤.

تفسير

سُورَةُ الفِيلِ

وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

هذه من النِّعم التي امتنَّ الله بها على قُرَيْشٍ، فيما صَرَفَ عنهُم من أصحاب الفِيل، الذين كانوا قد عَزَمُوا على هَدْم الكعبةِ ومَحْوِ أثرها من الوُجودِ، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخَيَّبَ سَعْيَهم، وأضلَّ عَمَلهم، وردَّهُم بشَرِّ خَيْبَةٍ. وكانوا قوماً نَصارى، وكان دِينُهُم إذْ ذاكَ أقربَ حالاً مما كان عليه قُرَيْشٌ من عبادةِ الأوثانِ. ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعثِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ فإنه في ذلك العام وُلِد على أشهر الأقوال، ولسانُ حالِ القَدَرِ يقول: لم نَنْصُرْكم ـ يا معشَر قريش ـ على الحبشةِ لخيريَّتِكُم عليهم، ولكن صيانةً للبيتِ العتيقِ الذي سَنُشَرِّفُه ونُعظِّمه ونُوَقِّرهُ بِبَعْثةِ النبيِّ الأمي مُحمَّدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ خاتمِ الأنبياء.

وهذه قصةُ أصحابِ الفيل على وَجْهِ الإيجازِ والاختصارِ والتقريب:

قد تقدَّم في قصةِ أصحابِ الأخدود[١] أن ذا نُوَاسٍ ـ وكان آخر ملوك حِمْيَر، وكان مُشركاً ـ هو الذي قتل أصحابَ الأخدود، وكانوا نَصارى، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً، فلم يُفلِت منهم إلاّ دَوسُ ذو ثَعْلبانٍ، فذهب فاستغاث بقيصرَ ملكِ الشام، وكان نصرانياً، فكتب له إلى النجاشيِّ ملكِ الحبشةِ، لكونه أقربَ إليهم، فبعث

(١) انظرها آخر تفسير سورة البروج

معه أميرين: أرياطَ وأبرهةَ بن الصباح أبا يَكسُومَ، في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسُوا خلالَ الدِّيار، واستلبُوا الملك من حِمْيَر، وهلك ذو نُوَاس غريقاً في البحر، واستقلَّ الحبشةُ بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرياطُ وأبرهةُ، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا، وتصافَّا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجةَ بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا، ولكن ابرُزْ إليَّ وأبرزُ إليك، فأيُّنا قتلَ الآخرَ استقلَّ بعده بالمُلك. فأجابه إلى ذلك فتبارزا، وخلْفَ كلِّ واحد منهما قناةٌ، فحمل أرياطُ على أبرهةَ فضربه بالسيف، فشرَمَ أنفه وفمَه وشقَّ وجهَه، وحمل عَتْوَدَةُ مولى أبرهةَ على أرياطَ فقتله، ورجع أبرهةُ جريحاً، فداوى جُرحَه فبرأ، واستقلَّ بتدبير جيش الحبشة باليمن. فكتب إليه النجاشيُّ يَلُومه على ما كان منه، ويتوعَّده ويحلفُ ليطأنَّ بلاده ويجُزَّنَّ ناصيته. فأرسل إليه أبرهةُ يترقَّق له ويُصانِعُه، وبَعث مع رسُوله بهدايا وتُحَفٍ، وبجرابٍ فيه من تُرابِ اليمن، وجَزَّ ناصيتَه، وأرسلها معه، ويقول في كتابه: لِيَطإِ الملكُ على هذا الجرابِ فَيَبَرَّ قَسَمُه، وهذه ناصيتي قد بعثتُ بها إليك. فلما وصل ذلك إليه أعجبَه منه، ورَضِيَ عنه، وأقرَّه على عمله، وأرسل أبرهةُ يقولُ للنجاشيِّ: إنِّي سأبني لك كنيسةً بأرضِ اليَمَنِ لم يُبْنَ قبلَه مثلُها. فشرع في بناءِ كنيسةٍ هائلةٍ بصنعاءَ، رفيعةِ البناءِ، عاليةِ الفناءِ، مُزخرفةِ الأرجاءِ، سمَّتها العربُ القُلَّيسَ؛ لارتفاعها، لأن الناظرَ إليها يكادُ تسقطُ قَلَنْسُوَتُه عن رأسه من ارتفاع بنائها. وعزمَ أبرهةُ الأشرمُ على أن يصرفَ حَجَّ العربِ إليها كما يُحَجُّ إلى الكعبةِ بمكَّةَ، ونادى بذلك في مملكتِه. فكرهت العربُ العدنانيةُ والقحطانيةُ ذلك، وغضبت قريشٌ لذلك غضباً شديداً، حتى قصدها بعضُهم، وتوصَّلَ إلى أن دخلها ليلاً، فأحدثَ فيه، وكرَّ راجعاً. فلما رأى السَّدَنةُ ذلك الحدثَ رفعُوا أمره إلى ملكِهم أبرهةَ، وقالوا له: إنما صَنَع هذا بعضُ قريشٍ غضباً لِبيتِهم الذي ضاهيتَ هذا به. فأقسم أبرهةُ ليسيرنَّ إلى بيت مكَّةَ، وليُخرِّبنَّه حجراً حجراً.

وذكر مقاتلُ بن سُلَيمان أن فتيةً من قُرَيشٍ دخلوه فأجَّجوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواءٌ شديدٌ فاحترقت، وسقطت إلى الأرضِ.

فتأهَّبَ أبرهةُ لذلك، وسار في جيشٍ كثيفٍ عَرَمْرَمٍ لئلا يَصُدَّه أحدٌ عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبيرَ الجُثَّةِ لم يُرَ مثلُه، يقال له: محمود. وكانَ قد بَعثه إليه النجاشيُّ ملكُ الحبشةِ لذلك، ويقال: كان معه أيضاً ثمانيةُ أفيالٍ، وقيل: اثنا عشرَ فيلاً، وقيل غيره، والله أعلم. يعني لِيَهدِمَ به الكعبةَ، بأن تُجعلَ السلاسلُ في الأركان، وتُوضَع في عُنُقِ الفيلِ، ثم يُزْجَرَ لِيُلقيَ الحائطَ جملةً واحدةً.

فلما سمعت العربُ بمَسيرِه أعظمُوا ذلك جداً، ورَأوا أنَّ حقاً عليهم المُحاجَفَةَ[1] دونَ البيت، وردَّ من أراده بكَيدٍ. فخرج إليه رجلٌ من أشراف أهل اليمن ومُلُوكهم، يقال له: ذو نَفْرٍ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حَرْب أبرهةَ وجهاده عن بيت الله، وما يُريدُه من هَدْمه وإخرابه. فأجابوه وقاتلوا أبرهةَ، فهزمهم لما يُريده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من كرامةِ البيتِ وتعظيمِه، وأُسِر ذو نَفْرٍ فاستصحبه معه، ثم مَضَى لوجهه حتى إذا كان بأرضِ خَثْعَمٍ عَرَضَ له نُفَيل بنُ حَبيبٍ الخَثْعَمي في قومه: شهرانَ وناهس، فقاتلوه، فهزمهم أبرهةُ، وأُسِر نُفيل بن حَبيبٍ، فأراد قَتْلَه ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلادِ الحجازِ. فلما اقترب من أرض الطائفِ خرج إليه أهلُها ثقيفٌ وصانعوه خيفةً على بيتهم الذي عندهم، الذي يُسَمُّونه اللاتَ. فأكرمَهم وبعثُوا معه أبا رِغالٍ دليلاً. فلما انتهى أبرهةُ إلى المُغَمَّسِ ـ وهو قريبٌ من مكة ـ نَزَل به وأغار جيشُه على سَرْحِ[2] أهلِ مكة

(١) حاجفت فلاناً: عارضتُه ودافعتُه.
(٢) السَّرْح: الماشية.

من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السَّرح مائتا بعير لعبد المطلب. وكان الذي أغار على السَّرح بأمر أبرهةَ أميرُ المُقدِّمة، وكان يُقال له. الأسودُ بن مَقْصود، فهجاه بعضُ العرب ـ فيما ذكره ابنُ إسحاق[١] ـ وبعث أبرهةُ حُناطةَ الحِمْيَرِيَّ إلى مكة، وأمره أن يأتِيه بأشرفِ قُريش، وأن يُخبِرَه أنَّ الملِكَ لم يَجِيء لقتالكم إلا أن تَصُدُّوه عن البيت. فجاء حُناطةُ فَدُلَّ على عبدِ المطلب بن هاشم، وبَلَّغهُ عن أبرهةَ ما قال. فقال له عبد المطلب والله ما نُريد حربه، وما لنا بذلك من طاقةٍ، هذا بيتُ الله الحرامُ، وبيتُ خليله إبراهيم، فإن يَمْنَعْه منه فهو بيتُه وحرَمه، وإن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دَفعٌ عنه. فقال له حُناطَةُ: فاذهب معي إليه. فَذَهب معه، فلما رآه أبرهةُ أجلَّه، وكان عبدُ المطلب رَجُلاً جميلاً حَسَن المنظر، ونزلَ أبرهةُ عن سَريرِه، وجلس معه على البِساط، وقال لِتَرجُمانِه: قل له: حاجَتكَ؟ فقال للتَّرجُمانِ. إنَّ حاجتي أن يَرُدَّ عليَّ الملكُ مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهةُ لِتَرجُمانه: قل له: لقد كُنتَ أعجبتَنِي حين رأيتُك، ثم قد زَهِدتُ فيك حين كلَّمتني، أتُكلِّمني في مائتي بعير أصبْتُها لك، وتترك بيتاً هو دِينُك ودين آبائك قد جئتُ لِهَدْمِه لا تُكلِّمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رَبُّ الإبلِ، وإنَّ للبيتِ ربًّا سيَمْنَعه. قال: ما كان لِيَمْتنعَ مني! قال: أنت وذاك.

ويُقال. إنه ذَهَب مع عبد المطلب جماعةٌ من أشراف العرب فَعَرضوا على أبرهة ثُلث أموالِ تِهامة على أن يرجع عَن البيت، فأبى عليهم، وَرَدَّ أبرهَةُ على عبد المطلب إبلَه، ورجع عبدُ المطلب إلى قُرَيشٍ فأمرهم بالخُروج من مكة. والتحصُّنِ في رُءوسِ الجبالِ، تَخوُّفاً عليهم من مَعَرَّةِ[٢] الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقةِ باب الكعبةِ، وقام معه نفرٌ من قريش يَدْعون الله ويستنصرونه على أبرهةَ وجُنده، وقال عبدُ المطلب وهو آخذُ بِحَلْقةِ بابِ الكعبة:

لا هُـمَّ إنَّ المَـرْءَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَه فامْنَعْ حِلالَكْ[٣]
لا يَغْلِبَـنَّ صَلِيبُهُـمْ ... ومِحالُهُم غَدْواً مِحالَكْ[٤]

قال ابنُ إسحق: ثم أرسل عبدُ المطلب حَلْقةَ الباب، ثم خرجُوا إلى رؤوس الجبال[٥].

وذكَر مُقاتِلُ بن سُليمان أنهم تَرَكوا عند البيت مائة بَدَنةٍ مُقلَّدةٍ، لعلّ بعضَ الحبشة ينالُ منها شيئاً بغيرِ حَقٍّ، فينتقم الله منه.

فلما أصبح أبرهة تهيَّأ لدخُولِ مكَّةَ، وهيَّأ فِيلَه ـ وكان اسمُه محموداً ـ وعبَّأ جيشَه، فلما وَجَّهوا الفِيلَ نحو مكَّةَ أقبل نُفَيل بن حَبيب حتى قام إلى جَنبِه، ثم أخذ بأذُنه وقال: ابركْ محمودُ، أو ارجِع راشداً من حيثُ جئتَ، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيلُ، وخَرَج نُفَيل بن حَبيب يَشْتدُّ[٦] حتى أصْعَدَ في الجبل. وضربُوا الفيل ليقوم، فأبى، فضربُوا في رأسه بالطَّبَرْزِين[٧]، وأدخلوا محاجن لهم في مَرَاقه فبزغوه بها ليقومَ، فأبى. فوَجَّهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهروِلُ. ووجَّهُوه إلى الشام ففعل مثلَ ذلك، ووجَّهوه إلى المشرق ففعل

(١) سيرة ابن هشام ١/٥١.
(٢) المعرّة. الأذى والمساءة والمكروه
(٣) الحلال: القوم المقيمون. يريد سكان الحرم.
(٤) غدْواً: غداً. والمِحال: القوة والشدة.
(٥) سيرة ابن هشام ١/٥١ـ ٥٢.
(٦) أي: يُسرع. واصعد: علا.
(٧) الطَّبَرْزِين: آلة مُعقّفة من حديد، والمحاجنُ: جمع مِحْجَن، وهي عصاً مُعوَّجة. والمراقُّ: أسفل البطن. وبزغوه: أدموه.

مثل ذلك، وَوَجَّهوه إلى مكة فَبَرَكَ، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسان[1] مع كلِّ طائر منها ثلاثةُ أحجار يحملُها: حَجَرٌ في منقارِه، وحَجَرانِ في رجليه، أمثال الحِمَّص والعَدَس، لا تُصيب منهم أحداً إلا هَلَكَ، وليس كلُّهم أصابت وخَرَجُوا هاربين يبتدِرُون[2] الطريق، ويسألون عن نُفَيل ليدلَّهم على الطريق هذا ونُفَيلٌ على رأس الجَبَلِ مع قُرَيشٍ وعَرَبِ الحِجَازِ، ينظُرون ماذا أنزل الله بأصحابِ الفيل من النِّقمةِ، وجَعَل نُفَيل يقول:

أيـنَ المَفَـرُّ؟ والإلَـهُ الطَّـالِـبُ ... والأشْـرَمُ المغلوبُ غيـر الغـالِبِ

قال ابنُ إسحق: وقال نُفَيل في ذلك أيضاً:

أَلَا حُـيِّـيـتِ عَـنَّـا يـا رُدَيْـنَـا ... نَعِمْنَـاكُمْ مَـعَ الإصْبَـاحِ عَيْـنَـا[3]
رُدَيـنَـةُ، لَـو رأيـتِ ـ وَلا تَـرَيْـه ... لَـدَى جَنْـبِ المُحَصَّبِ ـ مـا رَأَيْـنَـا[4]
إذاً لَـعَـذَرْتِـنِـي وَحَـمِـدْتِ أمْـرِي ... وَلَم تَـأسَيْ عَلَى مَـا فَـات بَيْـنَـا
حَـمِـدْتُ الله إذْ أبـصَـرْتُ طَـيـراً ... وَخِفْـتُ حِجَـارَةً تُلقَى عَلَيْـنـا
فَكُـلُّ القَـومِ يَـسْـألُ عَنْ نُـفَـيـلٍ ... كَـأنَّ عَـلَيَّ لـلحُـبْـشَـانِ دَيْـنَـا!

وذَكَر الواقديُّ بأسانيده أنَّهم لما تَعَبَّئوا لدخول الحرم وهَيَّئُوا الفيل جَعَلُوا لا يَصْرِفُونه إلى جِهَةٍ من سائر الجهات إلا ذَهَب فيها، فإذا وَجَّهُوه إلى الحرم رَبَضَ وصاحَ وجعل أبْرَهةُ يحملُ على سائس الفيل ويَنْهَرُه ويَضرِبُه، لِيقهَرَ الفيلَ على دُخول الحرم. وطال الفصلُ في ذلك. هذا وعبدُ المطلب وجماعةٌ من أشراف مكّة، منهم المُطعِم بن عَدِيٍّ، وعمرو بن عائذ بن عمرانَ بن مَخْزُوم، ومسعود بن عَمْرو الثقفي، على حِرَاءٍ ينظُرون إلى ما الحبشةُ يصنَعُون، وماذا يَلْقَون من أمر الفيل وهو العَجَبُ العُجَابُ. فبينما هم كذلك إذ بَعَث الله عليهم طيراً أبابيلَ، أي: قِطَعاً قِطَعاً صُفراً دون الحمام، وأرجُلها حمرٌ، ومع كل طائر ثلاثة أحجار، وجاءت فَحَلَّقت عليهم، وأرسلت تلك الأحجارَ عليهم فَهَلكُوا[5].

وقال محمد بن كعب: جاءوا بِفِيلَين فأما محمود فَرَبَض، وأما الآخر فَشَجُعَ فَحُصِبَ.

وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: كان معهم فِيَلَةٌ، فأما محمودٌ ـ وهو فِيل الملك ـ فَرَبَض، لِيقتدِيَ به بقيةُ الفِيَلةِ، وكان فيها فيلٌ تَشَجَّع فَحُصِب، فَهَربت بقيةُ الفِيَلة.

وقال عطاءُ بن يَسَار وغيرُه: ليس كلُّهم أصابه العذابُ في الساعة الراهنة، بل منهم مَن هلك سريعاً، ومنهم مَن جَعَل يَتَساقطُ عُضواً عُضواً وهم هاربون، وكان أبرهةُ يَتَساقط عُضواً عُضواً، حتى مات ببلاد خَثْعَم.

---

(١) الخطاطيف جمع خُطَّاف، وهو ضَرْبٌ من الطيور القواطع، عريض المنقار، دقيق الجناح طويله، مُنْفَشُ الذيل، يقال له السُّنُونو والبلسان كذا في لسبع، وسيرة ابن هشام ١/ ٥٣، وفي النهاية لابن الأثير نقلاً عن عباد بن موسى «وأظنها لزرازير» لكن برر ربر ـ وهي جمع زُرْزُور ـ طير من رُتبة العصفوريات، وهي أكبر قليلاً من العصفور، وله منقار طويل دو قاعدة عريضة، وجناحان طويلان مُذَبَّبان، ويستوطن أوربا وشمال آسيا وإفريقية. هذا وفي شرح أبي ذر الخشني على السيرة ١/ ١٨ «والخطاطيف والبلسون ضربان من الطير»

(٢) أي: يتسارعون إليه.

(٣) ردينا: مُرَخَّم رُدَينة، وهو اسم امرأة. ونَعِمناكم: نَعِمنا بكم.

(٤) المُحَصَّب: موضع بين مكة ومنى، أقرب إلى منى.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الدلائل بإسناده إلى الواقدي ١/ ١٤٩.

قال ابنُ إسحقَ: «فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويَهْلِكون على كُلِّ مَنْهَلٍ، وأُصيب أَبرهَةُ في جَسَده، وخرجُوا به معهم يَسقُط أَنْمُلةً أَنْمُلَةً، حتى قَدِموا به صنعاء وهو مثلُ فَرخِ الطائرِ، فما مات حتى انصدَع صدرُه عن قلبه فيما يزعُمون»[1].

وذكر مُقاتِل بن سُليمَان: أن قُريشاً أصابُوا مالاً جَزِيلاً من أسلابهم، وما كان معهم، وأَنَّ عبد المطلب أصاب يومئذٍ من الذهب ما مَلأ حُفرةً.

وقال ابنُ إسحق: وحدّثني يعقوب بن عُتْبَة أنّه حُدِّث أنّ أوّل ما رُؤيت الحَصْبَةُ والجُدَرِيُّ بأرضِ العربِ ذلك العامَ، وأنه أوّلُ ما رُئِي به مَرائِرُ الشَّجرِ الحَرْمَلُ والحَنْظَل والعُشَر، ذلك العام[1].

وهكذا رُوِي عن عكرمة، من طريق جيد.

قال ابنُ إسحق: «فلما بَعَث الله مُحمداً ـ ﷺ ـ كان فيما يَعُدُّ به على قُرَيشٍ من نِعْمَتِهِ عليهم وفضلِه، ما رَدَّ عنهم من أمر الحبشة، لبقاءِ أمرهم ومُدَّتهم، فقال: ﴿ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بأصحابِ الفيل * ألم يجعل كيدَهُم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارةٍ من سِجِّيلٍ * فَجعلهم كَعَصْفٍ مأكول﴾، ﴿لإِيلافِ قُرَيشٍ * إيلافِهم رحلةَ الشتاءِ والصيفِ * فَلْيعبُدوا ربَّ هذا البيتِ * الذي أطعمهم من جُوعٍ وآمنهم من خوفٍ﴾، أي: لئلا يُغيِّر شيئاً من حالهم التي كانوا عليها، لِمَا أرادَ الله بهم من الخير لو قَبِلُوه»[2].

قال ابن هشام: الأبابيلُ: الجماعاتُ، ولم تتكلم العربُ بواحِدِه. قال: وأما السِّجِّيل فأخبرني يونُس النحويُّ وأبو عُبَيدة أنه عند العرب: الشَّدِيدُ الصُّلْبُ. قال: وذكر بعضُ المفسِّرين أنهما كلمتان بالفارسيَّةِ، جَعَلتهما العربُ كلمةً واحدةً، وإنما هو سَنْج وجِلّ يعني بالسَّنج: الحجر، والجِلّ الطين، يقول: الحجارة من هذين الجنسين: الحَجَرِ والطينِ. قال: والعصفُ: ورقُ الزرع الذي لم يُقَصَّبْ[3]، واحدته عَصْفَةٌ. انتهى ما ذكره[4].

وقد قال حَمَّادُ بن سَلَمة، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله ـ وأبو سَلَمة بنُ عبدِ الرحمن ـ: ﴿طيراً أبابيلَ﴾، قال: الفِرَق[5].

وقال ابنُ عباس، والضحَّاك: ﴿أبابيل﴾: يتبعُ بعضُها بعضاً. وقال الحسنُ البصريُّ، وقتادةُ: الأبابيلُ الكثيرةُ. وقال مجاهد: أبابيل: شتَّى متابعة مجتمِعَةً. وقال ابنُ زيدٍ: الأبابيلُ المختلفة، تأتي من ها هنا، ومن ها هنا، أتتهم من كلِّ مكانٍ.

وقال الكسائي. «سمعتُ [(٦)- النحويين يقولون: إبَّوْل مثل العِجَّوْل. قال: وقد سمعتُ -(٦)] بعض النحويين يقول واحد الأبابيل: إبِيلٌ».

---

(١) سيرة ابن هشام ٥٤/١
والحَرْمَل: نباتٌ صحراويٌ لا يأكله إلا المعزى والعُشَر: شجر مُرٌّ له صَمْغٌ ولبن، وتُعالَج بلبنه الجلودُ قبل الدباغة

(٢) سيرة ابن هشام ٥٤/١ ـ ٥٥.

(٣) يقال: قصَّب الزرعُ وأقصَبَ: صار ذا ساقٍ وقصب

(٤) سيرة ابن هشام ٥٥/١.

(٥) أخرج الطبري أثر عبد الله بن مسعود في تفسيره ٢٩٧/٣٠، وكذلك البيهقي في دلائل النبوة ١٢٣/١. وأثر أبي سلمة بن عبد الرحمن في تفسير الطبري ٢٩٧/٣٠

(٦ ـ ٦) من تفسير الطبري ٢٩٦/٣٠

وقال ابن جرير: [(١-حدثنا ابن المثنى-١)]، حدثني عبد الأعلى، حدثني داود، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه قال في قوله: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾، هي: الأقاطيع، كالإبل المؤبلة.

وحدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن ابن عباس: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾، قال: لها خراطيمُ كخراطيم الطير، وأكفٌّ كأكفّ الكلاب[٢].

وحدثنا يعقوبُ، حدثنا هُشَيم، أخبرنا حُصَين، عن عكرمة في قوله: ﴿طيراً أبابيل﴾، قال: كانت طيراً خُضراً خَرَجت من البحر، لها رؤوسٌ كرؤوس السباع[٣].

وحدثنا ابنُ بَشّار، حدثنا ابنُ مهدي، عن سُفيانَ، عن الأعمش، عن أبي سفيانَ، عن عُبيد بن عُمَير: ﴿طيراً أبابيلَ﴾، قال: هي طيرٌ سودٌ بحرية، في مناقيرِها وأظفارِها الحجارة[٣].

وهذه أسانيد صَحيحةٌ.

وقال سعيد بن جُبَير: كانت طيراً خُضراً لها مناقيرُ صُفْرٌ، تختلف عليهم.

وعن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، وعطاءٍ: كانت الطيرُ الأبابيل مثل التي يُقال لها عنقاءُ مُغْرِب[٤]. رواه عنهم ابنُ أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَة، حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شَيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عُبَيد بن عُمَير قال: لما أراد الله أن يُهلكَ أصحابَ الفيل بعثَ عليهم طيراً أُنشِئَت من البحر أمثالَ الخطاطيف، كلُّ طيرٍ منها يحمل ثلاثة أحجار مُجَزَّعة[٥]: حَجَرين في رِجلَيه وحجراً في مِنقاره، قال: فجاءت حتى صَفَّت[٦] على رؤوسهم، ثم صاحت وألقَت ما في أرجُلِها ومناقيرها، فما يقع حَجَرٌ على رأسِ رجُلٍ إلا خَرَج من دُبُرِه، ولا يقَعُ على شيءٍ من جَسده إلا خَرَج من الجانب الآخر. وبَعَث الله ريحاً شديدةً فضَربتِ الحجارةَ فزادتها شدَّةً فأُهلِكوا جميعاً[٧].

وقال السُّدِّي، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿حجارةٍ من سجِّيل﴾، قال: طينٌ في حِجارةٍ: «سَنْك، وكِل»[٨]. وقد قدَّمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته ها هنا.

وقولُه: ﴿فجَعلهم كعَصْفٍ مأكُولٍ﴾، قال سَعيد بن جُبَير: يعني التِّبْنَ الذي تُسمِّيه العامة: هَبُور[٩]. وفي رواية عن سعيد: وَرَق الحِنطة. وعنه أيضاً: العصفُ: التِّبْنُ. والمأكول: القَصيل[١٠] يُجَزُّ للدوابِّ. وكذلك قال

(١ ـ ١) عن تفسير الطبري ٢٩٧/٣٠.
(٢) تفسير الطبري ٢٩٧/٣٠ ـ ٢٩٨.
(٣) تفسير الطبري ٢٩٨/٣٠.
(٤) العنقاء: طائر مُتوهَّم لا وجود له. والمُغرب: المبعد في البلاد، فعنقاء مُغْرِبٌ من الألفاظ التي ليس لها مدلول حقيقي.
(٥) أي: مُلوَّنة بألوان مختلفة.
(٦) صَفَّ الطير في السماء: بسطت أجنحتها في طيرانها ولم تحركها.
(٧) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة بإسناده إلى الأعمش ١٥٠، والبيهقي في الدلائل بإسناده إلى أبي معاوية ١٢٣/١ ـ ١٢٤. وانظر الدر المنثور ٦٣١/٨.
(٨) أخرجه الطبري ٢٩٨/٣٠.
(٩) الهَبُور: دُقاقُ الزرع.
(١٠) القصيل: ما اقتُطِعَ من الزَّرْعِ أخضرَ لِعَلَفِ الدوابِّ.

الحسن البصري. وعن ابن عباس: العصفُ: القِشرَةُ التي على الحَبَّة، كالغِلافِ على الحِنطَةِ. وقال ابنُ زيدٍ: العصفُ: وَرَقُ الزرع، وورق البَقْلِ، إذا أكلته البهائم فراثته، فصار دَرِيناً[1].

والمعنى أنَّ الله - سبحانه وتعالى - أهلكهُم ودمَّرهُم، ورَدَّهم بكيدِهم وغيظِهم لم ينالُوا خيراً، وأهلَكَ عامَّتهم، ولم يرجع منهم مُخبِرٌ إلا وهو جَرِيح، كما جَرَى لِمَلِكِهم أبرهةَ، فإنه انصدَعَ صَدْرُه عن قلبِه حين وصل إلى بلدِه صنعاء، وأخبرَهُم بما جَرَى لهم، ثم مات. فَمَلَك بعده ابنه يَكْسُوم، ثم من بعده أخوه مسروقُ بن أبرهةَ. ثم خرَج سيفُ بنُ ذِي يَزَن الحميري إلى كسرى فاستغاثه على الحبشة، فأنفذ معه من جُيوشه فقاتلوا معه، فَرَدَّ الله إليهم مُلكَهم، وما كان في آبائهم من الملك، وجاءته وفودُ العَرَب للتهنئة.

وقد قال محمدُ بن إسحاق: حدَّثنا عبد الله بن أبي بكر، عن عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن بن أسعدَ بن زُرارةَ، عن عائشة قالت: لقد رأيتُ قائدَ الفِيل وسائِسَه بمكَّة أعميين مُقعَدَيْنِ يَسْتَطعِمَان[2]. ورواه الواقدي، عن عائشة مثله. ورواه أيضاً عن أسماءَ بنتِ أبي بكر أنها قالت: كانا مُقعَدَيْن يستطعمان الناس عند إسافٍ ونائلةَ[3]، حيث يذبحُ المشركون ذَبائِحهم.

قلتُ: كان اسم قائد الفِيـل أُنيساً.

وقد ذكر الحافظُ أبو نُعَيم في كتاب «دلائل النبوة» من طريق ابن وهب، عن ابن لَهِيعة، عن عُقَيل بن خالد، عن عُثمانَ بن المغيرة قصةَ أصحاب الفيل، ولم يذكر أنَّ أبرهَةَ قَدِمَ من اليمن، وإنما بَعَث على الجيشِ رَجُلاً يقال له شِمر بن مفصود[4]، وكان الجيشُ عشرين ألفاً، وذكر أنَّ الطير طرقتهُم ليلاً، فأصبحوا صَرْعَى[5].

وهذا السياق غريب جداً، وإن كان أبو نعيم قد قَوَّاه ورَجَّحه على غيره، والصحيحُ أن أبرهَةَ الأشرمَ الحبشيَّ قَدِم مكة كما دَلَّ على ذلك السياقاتُ والأشعارُ. وهكذا رَوَى ابن لهيعة، عن الأسود، عن عُرْوَةَ: أن أبرهة بَعَثَ الأسودَ بن مفصُودٍ على كتيبةٍ معهم الفيل، ولم يذكر قُدُوم أبرهة نفسِه. والصحيح قدومُه، ولعلَّ ابنَ مفصُودٍ كان على مُقَدِّمة الجيش، والله أعلم.

ثم ذكر ابنُ إسحاقَ شيئاً من أشعار العرب، فيما كان من قِصَّةِ أصحاب الفيل، فمن ذلك شعرُ عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

تَنَكَّلُوا[6] عن بَطنِ مَكَّةَ إنَّها ... كَانَتْ قَدِيماً لا يُرَامُ حَرِيمُها
لم تُخلَقِ الشِّعرَى[7] لَيالِيَ حُرِّمَتْ ... إذْ لا عَزيزَ من الأنامِ يَرُومُها

---

(١) الدَّرين: حُطام المرعى القديم اليَبيس.
(٢) سيرة ابن هشام ١/٥٧. ونصّ السيرة «يستطعمان الناس»، أي: يسألانهم أن يطعموهما.
(٣) إسافٌ ونائلةُ: صنمان، تزعم العرب أنهما كانا رجلاً وامرأة، زنيا في الكعبة فمُسِخا.
(٤) في دلائل النبوة لأبي نعيم: مقصود.
(٥) الدلائل ١٤٤ - ١٤٨.
(٦) كذا، ومثله في سيرة ابن هشام. «تنكلوا». ولم يقع لنا تفعّل من نكل، على أنه يروى: تنكبوا. والمعنى: ميلوا عن بطن مكة ولا تقصدوها.
(٧) الشِّعرى: كوكبٌ نَيِّرٌ يطلع عند شدّة الحرّ، ويقول السهيلي في الروض ١/٤٩: وإن كان ابن الزّبعرى قال هذا في الإسلام فهو منتزع من قول النبي - ﷺ -: إن الله حرم مكة ولم يحرّمها الناس. ومن قوله في حديث آخر: إن الله حرمها يوم خلق السموات والأرض. والتربة خُلقت قبل خلق الكواكب. وإن كان ابن الزِّبَعرى قال هذا في الجاهلية فإنما أخذه - والله أعلم - من الكتاب الذي وجدوه في الحجر =

سَائِلْ أَمِيرَ الجيشِ عَنْها: ما رَأى؟ ... فَلَسَوفَ يُنْبِي الجاهلينَ عَلِيمُهَا
سِتُّونَ أَلفاً لم يَئُوبُوا أرضَهم ... ولم يَعِشْ بَعدَ الإيابِ سَقِيمُها[1]
كَانَتْ بها عَادٌ وجُرْهُمُ قَبْلَهُمْ ... واللهُ من فَوقِ العِبادِ يُقِيمُهَا

وقال أبو قيس بن الأَسْلَتِ الأنصاريُّ المُرِّيّ:

وَمِنْ صُنْعِهِ يَومَ فِيلِ الحُبُو ... شِ؛ إذْ كُلُّ ما بَعَثُوه رَزَمْ[2]
مَحَاجِنُهُمْ تَحْتَ أَقْرَابِهِ[3] ... وَقَدْ شَرَّمُوا أَنْفَه فانْخَرَمْ
وَقَدْ جَعَلُوا سَوْطَه مِغْوَلاً ... إذا يَمَّمُوهُ قَفَاه كُلِمْ[4]
فَوَلَّى وأَدْبَرَ أَدْرَاجَهُ ... وَقَدْ بَاءَ بالظُّلْمِ مَنْ كَانَ ثَمّ
فَأَرْسَلَ مِنْ فَوْقِهِم حَاصِباً ... يَلُفُّهُم مِثْلَ لَفِّ القُزُمْ[5]
تَحُضُّ عَلَى الصَّبْرِ أَحْبارُهم ... وَقَدْ ثَأَجُوا كَثُؤَاجِ الغَنَم[6]

وقال أبو الصلت بن [أبي] ربيعة الثقفيُّ، ويُروَى لأُمَيَّة بن أبي الصَّلت بن أبي رَبيعَةَ:

إنَّ آياتِ رَبِّنا بَاقِياتٌ ... ما يُمَارِي فِيهِنَّ إلا الكَفُورُ
خُلِقَ اللَّيلُ والنَّهارُ، فَكُلٌّ ... مُسْتَبِينٌ حِسَابُه مَقْدُورُ
ثُمَّ يَجلُو النَّهارَ رَبٌّ رَحِيمٌ ... بِمَهَاةٍ شُعَاعُها مَنْشُورُ[7]
حُبِسَ الفِيلُ بالمُغَمَّسِ حَتّى ... صَارَ يَحْبُو كَأَنَّه مَعْقُورُ
لازِماً حَلْقَةَ الجِرَانِ كَما قُطِّـ ... ـرَ مِنْ ظَهْرِ كَبْكَبٍ مَحْدُورُ[8]
حَولَه مِن مُلُوكِ كِنْدَةَ أَبطالٌ ... مَلاوِيثُ فِي الحُرُوبِ صُقُورُ[9]
خَلَّفُوه ثُمَّ ابْذَعَرُّوا جَمِيعاً ... كُلُّهُم عَظْمُ سَاقِهِ مَكْسُورُ[10]
كُلُّ دِينٍ يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَ اللـ ... ـهِ إلا دِينَ الحَنِيفَةِ بُورُ

وقد قَدَّمنا في تفسير «سورة الفتح» أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما أطلَّ يوم الحُدَيبية على الثَّنِيَّةِ التي تَهْبِط به

= بالحطّ المسد حين بوا الكعبة، وفيه. أنا الله رب بكّة، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض»

(١) في النسخ: «بل لم يعش» وفي السيرة «ولم يعش» ويقول السهيلي في الروض «ولم يعِشْ بعد الإياب سقيمها» هكذا في النسخة المقيدة مع أبي الوليد المقابلة بالأصلين اللذين كانا عنده، وقابلها أبو بحر ـ رحمه الله ـ بهما مرتين وحسب بعضهم أنه كسر في البيت فزاد من قبل نفسه فقال: «بل لم يعش»، فأفسد المعنى، وإنما هو خَرْمٌ في أول القسم من صدر البيت، كما كان في الصدر في أول بيت منها»

(٢) رزَم ثبت ولزم في مكانه.

(٣) المحاجن: جمع مِحْجن، وهي عصاً معوجّة. والأقراب: جمع قُرْب، وهي الخاصرة. وشرَّموا: شقُّوا

(٤) المِغْوَلُ سكين كبيرة. ويروى: مِغْوَلاً، وهي الفلس. وكُلِم جُرح

(٥) القُزُم: صغار الغنم، ويقال: رُذال المال

(٦) ثؤاج الغنم: صوتها

(٧) المهاة الشمس، سُمِّيت بذلك لصفائها، والمها من الأحجار: الصافي الذي يُرى باطنه من ظاهره.

(٨) الجران العُنق، يريد ألقى بجرانه إلى الأرض. وقُطِّر رُمي به. وكبكب: جبل والمحدور الحجر حُدر حتى بلغ الأرض. وفي السيرة والروض: «كما قُطِّر من صَخْرِ كبكب».

(٩) الملاويث. السادة الأشراف، جمع مِلْاث وملوث، لأنه يُلاث به الأمر ويُعصب، أي: تُقرن به الأمور وتُعقد.

(١٠) ابذعروا تفرقوا من ذُعْرٍ، قال السهيلي في الروض ١/٥٠: «وهي كلمة منحوتة من أصلين، من البَذْر والذُّعْر»

على قُرَيش بركت ناقته، فزجروها فألحّت، فقالوا: خلأت القصواء. أي: حَرنت. فقال رسول الله - ﷺ -: «ما خلأت القَصْواءُ، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حَبَسها حابسُ الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليومَ خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرُماتِ الله إلا أجبتُهم إليها». ثم زَجَرها فقامت. والحديثُ من أفراد البخاري[١].

وفي الصحيحَين أن رسول الله - ﷺ - قال يومَ فتح مكّة: «إن الله حَبس عن مَكّة الفيلَ، وسلَّط عليها رَسُوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حُرمَتُها اليوم كحُرمتها بالأمس، ألا فَلْيُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ»[٢].

آخرُ تفسيرِ «سُورَةِ الفيلِ» ولله الحمدُ والمنّةُ

---

(١) تقدّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٢٦ من سورة الفتح.

(٢) فتح الباري، كتاب العلم ١/٢٥٠. ومسلم، كتاب الحج ٢/٩٨٨.

تفسير

سُورَةُ قُرَيْشٍ

وهي مكيَّةٌ

ذِكْرُ حديثٍ غريبٍ في فَضْلِها، قال البيهقيُّ في كتاب الخِلافيَّات:

حدَّثنا أبو عبد الله الحافظ، حدَّثنا بكر بن محمد بن حَمْدانَ الصيرفيُّ بِمَرْوٍ، حدَّثنا أحمد بن عُبَيد الله النَّرْسيُّ[1]، حدَّثنا يعقوب بن محمد الزُّهريُّ، حدَّثنا إبراهيمُ بن محمد بن ثابت بن شُرَحبيل، حدَّثني عثمان بن عبد الله بن أبي عَتِيق، عن سعيد بن عَمْرو بن جَعْدَة بن هُبَيرة، عن أبيه، عن جَدَّته أم هانىء بنتِ أبي طالب: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «فَضَّل الله قُرَيشاً بسبع خلالٍ: أني منهم، وأنَّ النُّبوَّة فيهم، والحجبة والسِّقَاية فيهم، وأنَّ الله نَصَرهم على الفيل، وأنهم عَبَدُوا الله عَشْرَ سنينَ لا يَعبُده غيرُهم، وأنَّ الله أنزلَ فيهم سورةً من القرآن، ثم تلاها رسولُ الله ـ ﷺ ـ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿لإيلافِ قُرَيشٍ * إيلافهم رحلةَ الشتاء والصيفِ * فَلْيعبُدوا ربَّ هذا البيتِ * الذي أطعَمَهُم من جُوعٍ وآمَنَهُم من خَوفٍ﴾[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

(١) انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٤/٢٥٠، وسيرة أعلام النبلاء ١٣/٢٤٠، والثقات لابن حبّان ٨/٥٣، وتكملة الإكمال لابن نقطة، رقم ٦٣٠٢

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير ٢/٥٣٦، ومن وجه آخر في كتاب معرفة الصحابة ٤/٥٤، والطبراني في المعجم الكبير ٢٤/٤٠٩، وانظر مجمع الزوائد ١٠/٢٤.

هذه السورةَ مفصولةً عن التي قبلها في المُصحف الإمام، كَتَبُوا بينهما سَطْرَ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وإن كانت متعلقةً بما قبلها، كما صَرَّح بذلك محمد بن إسحق[1]، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مَكّة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لإيلافِ قُرَيش﴾، أي: لائتلافِهم واجتماعهم في بلدهم آمنين.

وقيل: المرادُ بذلك ما كانوا يألَفُونه من الرحلة في الشِّتاء إلى اليَمَن، وفي الصيفِ إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يَرجِعُون إلى بَلَدهم آمنينَ في أسفارِهم، لِعَظَمتِهم عندَ الناس، لكَونهم سُكَّان حَرَم الله، فمن عَرَفهم احترمَهُم، بل من صَوَى[2] إليهم وسار معهم أَمِن بهم، وهذا حالهم في أسفارهم ورِحْلَتِهم في شتائهم وصيفِهم، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله: ﴿أَوَلَم يَرَوا أنا جَعَلنا حرماً آمناً ويُتَخطَّفُ الناسُ من حولهم﴾. ولهذا قال: ﴿لإيلافِ قُرَيشٍ * إيلافِهِم﴾، بدل من الأول ومُفَسِّر له. ولهذا قال: ﴿إيلافِهِم رحلةَ الشتاءِ والصيف﴾.

وقال ابنُ جَرِيرٍ: الصوابُ أن «اللام» لامُ التعجُّب، كأنه يقول: اعجبُوا لإيلافِ قُرَيشٍ ونِعْمَتِي عليهم في ذلك. قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سُورتَانِ مُنْفَصِلَتَانِ مُسْتَقِلَّتانِ[3].

ثم أرشدهُم إلى شُكرِ هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿فَلْيَعبُدوا ربَّ هذا البيت﴾، أي: فَلْيوحِّدوه بالعبادةِ، كما جعل لهم حرماً آمِناً وبيتاً مُحرماً، كما قال تعالى: ﴿إنما أُمِرتُ أن أعبدَ ربَّ هذه البلدةِ الذي حَرَّمها وله كل شيءٍ وأمرت أن أكونَ من المسلمين﴾.

وقولُه: ﴿الذي أطعمهُم من جُوعٍ﴾، أي: هو ربُّ البيتِ، وهو الذي أطعمهُم من جُوعٍ، ﴿وآمَنَهُم من خَوفٍ﴾، أي: تفضَّل عليهم بالأمن والرُّخص، فَلْيُفرِدُوه بالعبادة وحدَه لا شريكَ له، ولا يَعبُدُوا من دُونه صنماً ولا نِدّاً ولا وثَناً. ولهذا من استجاب لهذا الأمر جَمَع الله له بين أَمْنِ الدنيا وأمنِ الآخرة، ومن عَصَاه سَلَبَهُما منه، كما قال تعالى: ﴿ضربَ الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كلِّ مكانٍ فكفَرت بأنعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجُوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذَّبوه فأخذهم العذابُ وهم ظالمون﴾.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عبد[4] الله بن عمرو العَدَني[5]، حدَّثنا قَبِيصَةُ، حدَّثنا سفيان، عن لَيثٍ، عن شَهرِ بن حَوْشَبٍ، عن أسماءَ بنتِ يزيدَ قالت: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «ويلٌ أُمِّكم قريش، لإيلاف قريش»[6]. ثم قال:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا المؤمَّل بن الفضل الحرَّاني، حدَّثنا عيسى ـ يعني ابن يُونُسَ ـ عن عُبَيد الله بن أبي زياد، عن شَهْرِ بن حَوْشَبٍ، عن أسامةَ بن زيد قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: ﴿لإيلاف قريش *

---

(١) انظر الأثر المرويّ في ذلك عن ابن عباس في سورة الفيل، والذي خرجناه من سيرة ابن هشام، ١/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) أي: مال وانضمّ إليهم.

(٣) تفسير الطبري ٣٠/ ٣٠٦. وانظر معاني القرآن للفرّاء ٣/ ٢٩٣.

(٤) كذا في النسخ ولم نعثر له على ترجمة.

(٥) في بعض النسخ: القرني.

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ١٧٧ ـ ١٧٨ بإسناده إلى قبيصة.

إيلافهم رحلةَ الشتاء والصيف﴾، ويحكم يا معشرَ قُرَيشٍ، اعبدوا ربَّ هذا البيت، الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف.

هكذا رأيتُه عن «أسامةَ بن زيد»، وصوابُه عن أسماء بنت يزيدَ بن السَّكَنِ، أم سَلَمة الأنصارية[1] رضي الله عنها. فلعله وَقَع غلطٌ في النسخةِ أو في أصل الروايةِ، والله أعلم.

آخر تفسير سورة «لإيلاف قريش» ولله الحمدُ والمنَّة

(١) وهكذا أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٤٦٠ بإسناده إلى عيسى بن يونس. وانظر مجمع الزوائد ٧/١٤٣

تفسير

سورة الماعون

وهي مكيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿أرأيت﴾، يا محمدُ ﴿الذي يُكَذِّب بالدِّين﴾، وهو: المعادُ والجزاءُ والثوابُ، ﴿فذلك الذي يَدُعُّ اليتيمَ﴾، أي: هو الذي يقهرُ اليتيمَ ويَظلِمُه حقَّه، ولا يُطعِمُه ولا يُحسِنُ إليه، ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾، كما قال تعالى: ﴿كلَّا بل لا تكرِمُون اليتيم * ولا تحَضُّون على طعام المسكين﴾[1]، يعني: الفقير الذي لا شيءَ له يقوم بأَوَدِه وكفايته.

ثم قال: ﴿فويل للمصلين * الذين هُم عن صلاتهم ساهُون﴾، قال ابنُ عباس وغيرُه: يعني المنافقين، الذين يُصَلُّون في العلانية ولا يُصَلُّون في السرِّ. ولهذا قال: ﴿للمُصَلِّين﴾، أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزمُوا بها، ثم هم عنها ساهُون، إمَّا عن فعلها بالكُلِّيَّة، كما قاله ابنُ عباس، وإمَّا عن فِعلها في الوقت المقدَّر لها شرعاً، فَيُخرِجُها عن وقتها بالكُلِّيَّة، كما قاله مسروق، وأبو الضحى. وقال عطاءُ بن دينار: الحمدُ لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم ساهُون﴾، ولم يقل: في صلاتهم ساهون. وإمَّا عن وقتها الأول فَيُؤخِّرُونها إلى آخره دائماً أو غالباً. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمُور به. وإما عن الخُشوع فيها والتدبُّر لمعانيها. فاللفظ يشمل هذا كلَّه، وَلِكُلِّ من اتَّصفَ بشيءٍ من ذلك قسطٌ من هذه الآية. ومن اتَّصفَ بجميع ذلك فقد تَمَّ

---

(١) تقدم التعريف بهذه القراءة في سورة الفجر، آية ١٧ ـ ١٨

نَصِيبُه منها، وكَمَلَ له النِّفاقُ العمليُّ. كما ثبت في الصحيحَيْن[١] أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال. «تلك صلاةُ المنافِق، تلك صلاةُ المنافِق، تلك صلاةُ المنافِق، يجلس يرقُب الشمسَ، حتى إذا كانت بين قَرْنَي الشيطانِ قام فنَقَر أربعاً لا يذكُر الله فيها إلا قليلاً»[١]. فهذا آخرُ صلاةِ العَصْر التي هي الوسطى، كما ثبت به النصُّ إلى آخر وقتها، وهو وقتُ كَرَاهَةٍ، ثم قام إليها فنَقرها نَقْرَ الغُراب، لم يَطْمَئِنَّ ولا خَشَع فيها أيضاً. ولهذا قال. «ولا يذكُر الله فيها إلا قليلاً». ولعلّه إنما حَمَله على القيام إليها مراءاةُ الناس، لا ابتغاءَ وجهِ الله، فهو إذاً لم يُصَلِّ بالكُلِّيَّة.

قال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادِعون الله وهو خادِعُهم وإذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسَالى يُراءُون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾. وقال ها هنا: ﴿الذين هم يُراءُون﴾.

وقال الطَّبَرانيُّ: حدَّثنا يحيى بن عبد الله بن عَبْدُويه البغدادي، حدَّثني أبي، حدَّثنا عبدُ الوهاب بن عطاء، عن يُونُس، عن الحسن، عن ابن عبّاس، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إن في جهنم لوادياً، تستعيذُ جهنم من ذلك الوادي في كل يوم أربَعَمائة مَرّة، أُعِدَّ ذلك الوادي للمُرائين من أُمَّةِ محمدٍ: لحامل كتابِ الله، وللمصَّدِّق في غير ذاتِ الله، وللحاجِّ إلى بيت الله، وللخارج في سبيلِ الله»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو نُعَيم، حدَّثنا الأعمش، عن عَمْرو بن مُرّة قال: كُنّا جُلُوساً عند أبي عُبيدة فذكروا الرِّياء، فقال رجل يُكنَى بأبي يزيدَ: سمعت عبدَ الله بن عَمْرو يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من سَمَّع الناس بعمله سَمَّع الله به، سَامعَ خلقه، وحَقّره وصَغّره»[٣].

وَرَواه أيضاً عن غُندَرٍ ويحيى القطّان، عن شُعبة، عن عمرو بن مُرّة، عن رجل، عن عبد الله بن عَمْرو، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره[٣].

ومما يتعلقُ بقوله تعالى: ﴿الذين هم يُراءُون﴾، أنّ من عَمِل عَمَلاً لله فاطّلع عليه الناسُ فأعجبَه ذلك، أن هذا لا يُعَدُّ رياءً، والدليلُ على ذلك ما رواه الحافظ أبو يَعْلَى الموصليُّ في مُسْنَدِه:

حدَّثنا هارون بنُ معروف، حدَّثنا مخلَّد بن يزيد، حدَّثنا سعيد بن بَشِير، حدَّثنا الأعمشُ، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: كنتُ أُصلّي، فدخل عليَّ رجلٌ، فأعجبني ذلك، فذكرتُ لرسولِ الله ﷺ، فقال: «كُتِب لك أجران: أجرُ السرِّ، وأجرُ العلانية».

قال أبو علي هارونُ بن معرُوف: «بلغني أن ابنَ المبارك قال: نعم الحديثُ للمُرَائي». وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجهِ، وسَعِيد بن بَشِير مُتَوسِّطٌ، وروايتُه عن الأعمشِ عَزِيزَةٌ. وقد رواه غيره عنه.

قال أبو يَعْلَى أيضاً: حدَّثنا محمد بن المثنى بن موسى، حدَّثنا أبو داودَ، حدَّثنا أبو سِنان، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيْرَة قال: قال رجلٌ. يا رسولَ الله، الرجل يعمَلُ العملَ بسرِّه، فإذا اطُّلع عليه أعجبه، قال: قال رسول الله ﷺ: «له أجرانِ، أجرُ السرِّ، وأجرُ العلانيةِ»

وقد رواه الترمذي عن محمد بن المُثنى، وابنُ ماجه عن بُندار، كلاهما عن أبي داود الطيالسي، عن أبي

---

(١) كذا قال في الصحيحين. وقد تقدّم الحديث عند تفسير ١٤٢ من سورة النساء، ورواه عن مالك، ثم قال «وكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي». وقد خُرِّج هنالك.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/١٧٥ ـ ١٧٦ وانظر مجمع الزوائد ١٠/٢٢٢

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٢١٢. ورواية غُنْدَر في المسند ٢/١٩٥، ورواية يحيى في ٢/١٦٢، وقد تقدمت في ختام سورة الكهف

سنان الشيباني، واسمه: ضرارُ بن مُرَّة. ثم قال الترمذي: «غريبٌ، وقد رواه الأعمشُ وغيرُه، عن حبيب، مُرسلاً»[١].

وقد قال أبو جَعفر بن جرير: حدَّثني أبو كُرَيب، حدَّثنا معاويةُ بن هشام، عن شَيْبَانَ النَّحويِّ، عن جابر الجُعفيِّ، حَدَّثني رجل، عن أبي بَرْزَةَ الأسلمي قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لما نزَلت هذه الآيةُ: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهُون﴾: «الله أكبر! هذا خيرٌ لكم من أن لو أعطى كُلَّ رجلٍ منكم مثلَ جَميع الدنيا، هو الذي إن صلى لم يَرْجُ خيرَ صلاتِهِ، وإن تَرَكها لم يَخفْ رَبَّه»[٢].

فيه جابر الجُعفيُّ، وهو ضعيفٌ، وشيخه مُبهم لم يُسَمَّ، والله أعلم.

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدَّثني زكريا بن أَبَانَ المِصْريُّ، حدَّثنا عمرو بن طارق، حدَّثنا عِكْرِمةُ بن إبراهيم، حدَّثني عبد الملك بن عُمَير، عن مُصعَبِ بن سعدٍ، عن سعد بن أبي وقّاص قال: سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهُون﴾، قال: «هم الذين يُؤَخِّرون الصلاةَ عن وقتِها»[٢].

وتأخير الصلاة عن وقتها يَحتَمِلُ تَركَها بالكُلِّيَة، أو صلاتَها بعد وَقْتِها شرعاً، أو تأخيرها عن أوَّلِ الوَقْتِ وكذا رواه الحافظ أبو يَعْلَى عن شَيْبَانَ بن فَرُّوخ، عن عكرمة بن إبراهيم، به. ثم رواه عن أبي الربيع، عن [حمّاد][٣] عن عاصم، عن مُصعَبٍ، عن أبيه موقوفاً[٤]: «سَهُوا[٥] عنها حتى ضاع الوقت». وهذا أصحُّ إسناداً، وقد ضَعفَ البيهقيُّ رَفْعَه وصَحَّح وقفه، وكذلك الحاكم[٦].

وقولُه: ﴿ويمنعُون الماعون﴾، أي: لا أحسنُوا عبادةَ ربِّهم، ولا أحسنُوا إلى خَلْقِه حتَّى ولا بإعارةِ ما يُنتَفَع به ويُستَعان به، مع بقاء عينه ورجُوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرُبات أولى وأولَى. وقد قال ابن أبي نَجيحٍ، عن مجاهد: قال علي: الماعُون الزكاة[٧]. وكذا رواه السُّدِّي، عن أبي صالحٍ، عن عَليٍّ. وكذا رُوِيَ من غير وجهٍ عن ابن عُمَر. وبه يقول محمد ابن الحنفية، وسعيد بن جُبَير، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، وعطيةُ العَوفي، والزُّهريُّ، والحسنُ، وقتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زيدٍ.

وقال الحسنُ البصريُّ: إن صَلَّى راءَى، وإن فاتته لم يَأسَ عليها، ويمنَعُ زكاةَ مالِه. وفي لفظ: صدقةَ ماله[٧].

وقال زيدُ بن أسلَمَ: هم المنافقون، ظَهَرتِ الصلاةُ فصلوها، وخَفِيَت[٨] الزكاةُ فَمَنَعُوها.

وقال الأعمشُ وشُعبةُ، عن الحَكَم، عن يحيى بن الجَزَّار: أن أبا العُبَيدِينَ[٩] سأل عبدَ الله بن مسعُودٍ عن الماعُونِ، فقال: هو ما يتعاوَرُه الناسُ بينهم من الفأسِ والقِدْرِ.

(١) أخرجاه في الزهد عارضة الأحوذي ٩/٢٣٠ ـ ٢٣١، وسنن ابن ماجه ٢/١٤١٢ ـ ١٤١٣.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٣١٣.
(٣) ما بين القوسين عن مسند أبي يعلى، ومكانه بياضٌ في نسختين، وكلمة غير واضحة في أخرى. وعاصم هو ابن بَهْدَلَة، ابن أبي النجود، يروي عن مُصعب، وعنه حمّاد بن زيد. انظر تهذيب الكمال ١٣/٤٧٥، ٧/٢٤٣.
(٤) روايته عن شيبان في المسند ١/٣٧٨، ورواية أبي الربيع في المسند ١/٣٣٦.
(٥) في نسخة: «لهوا حتى». ولفظ مسند أبي يعلى: «يلهو حتى يضيع الوقتُ».
(٦) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الصلاة ٢/٢١٤ ـ ٢١٥.
(٧) أخرجه الطبري ٣٠/٣١٤ ـ ٣١٦.
(٨) في نسخة: وصمتت. وفي أخرى كلمة غير واضحة.
(٩) هو معاوية بن سَبْرَة التميمي. انظر المقتنى للذهبي ١/٣٨٤.

وقال المسعوديُّ، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن أبي العُبَيدين: أنه سُئِل ابنُ مسعودٍ عن الماعونِ، فقال: هو ما يتعاطاه الناس بينهم، من الفأسِ والقدر والدَّلْو، وأشباه ذلك

وقال ابنُ جرير: حدَّثني محمد بن عُبَيد المحاربيُّ، حدَّثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحق، عن أبي العُبَيدين وسعد بن عياض، عن عبدِ الله قال: كنَّا ـ أصحابَ رسول الله، ﷺ ـ نتحدَّث أن الماعونَ الدلو والفأس والقِدرَ، لا يُستَغنى عنهنَّ[1].

وحدَّثنا[2] خلَّاد بن أسلَم، أخبرنا النضرُ بن شُمَيل، أخبرنا شعبةُ، عن أبي إسحق قال: سَمِعتُ سعدَ بن عِيَاضٍ يُحدث عن أصحاب النبيِّ ـ ﷺ ـ مثلَهُ.

وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن الحارث بن سُوَيد، عن عبد الله: أنه سُئِل عن الماعون، فقال: ما يتعاورُ الناس بينهم: الفأسُ والدلوُ، وشبهه.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا عَمرو بن علي الفلَّاس، حدَّثنا أبو داود ـ هو الطيالسي ـ حدَّثنا أبو عَوانة، عن عاصم بن بَهْدَلة، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: كُنَّا مع نَبيِّنا ـ ﷺ ـ ونحن نقولُ: الماعونُ، منعُ الدلوِ وأشباه ذلك[3].

وقد رواه أبو داود والنسائي، عن قُتَيبة، عن أبي عَوَانة بإسنادِهِ، نحوه. ولفظُ النسائيِّ عن عبدِ الله قال: كلُّ معروفٍ صَدَقةٌ، كنا نَعُدُّ الماعونَ على عهدِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ عاريَةَ الدلوِ والقِدْرِ[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عَفَّان، حدَّثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن عاصمٍ، عن زِرٍّ، عن عبد الله قال: الماعون: العَوارِيّ، القِدْرُ، والميزان، والدَّلْوُ.

وقال ابنُ أبي نَجيحٍ، عن مُجاهدٍ، عن ابن عباس: ﴿ويمنعون الماعون﴾، يعني متاعَ البيتِ وكذا قال مجاهدٌ، وإبراهيم النخعيُّ، وسعيد بن جُبَير، وأبو مالكٍ، وغيرُ واحدٍ: إنها العارية للأمتعة.

وقال ليثُ بن أبي سُلَيم، عن مجاهدٍ، عن ابن عباسٍ: ﴿ويمنَعُون الماعونَ﴾، قال: لم يَجِيء أهلُها بعدُ.

وقال العَوْفيُّ عن ابن عباس: ﴿ويمنَعُون الماعونَ﴾، قال: اختلف الناسُ في ذلك، فمنهم من قال: يمنعونَ الزكاةَ. ومنهم من قال: يمنعون الطاعةَ. ومنهم من قال: يمنعون العاريَةَ. رواه ابن جرير[4]. ثم روى عن يعقوبَ بن إبراهيم، عن ابن عُلَيَّة، عن ليث بن أبي سُلَيم، عن أبي إسحق، عن الحارث، عن عليٍّ: الماعونُ منعُ الناسِ الفأسَ والقِدْرَ والدلو[*].

وقال عِكْرِمةُ: رأسُ الماعون زكاةُ المالِ، وأدناه المُنخُل والدَّلْوُ والإبرةُ. رواه ابن أبي حاتم.

وهذا الذي قاله عِكْرِمةُ حَسَنٌ؛ فإنه يشملَ الأقوالَ كلها، ويرجع كلُّها إلى شيءٍ واحدٍ، وهو تركُ المعاونة

(١) تفسير الطبري ٣١٧/٣٠.
(٢) انظر سند هذا الأثر في تفسير الطبري ٣١٧/٣٠.
(٣) تفسير الطبري ٣١٩/٣٠ وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤٦/٧ ـ ٤٧، وأبو داود في كتاب الزكاة ١٢٤/٢.
(٤) تفسير الطبري ٣١٩/٣٠.
(*) لفظ الطبري: «منع الزكاة والفأس..».

بمالٍ أو منفعةٍ، ولهذا قال محمدُ بن كعب: ﴿ويمنعون الماعون﴾، قال: المعروف. ولهذا جاء في الحديث: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ»(١).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا وكيعٌ، عن ابن أبي ذئب، عن الزُّهريِّ: ﴿ويمنعون الماعون﴾، قال: بلسانِ قُريشٍ المالُ.

وروَى ها هنا حديثاً غريباً في إسناده ومَتْنِه، فقال:

حدَّثنا أبي وأبو زُرعَةَ قالا: حدَّثنا قيس بنُ حفصٍ الدارميُّ، حدَّثنا دَلْهَمُ بن دَهْثَمٍ العِجْليُّ، حدَّثنا عائذُ بن ربيعةَ النُّميريُّ، حدَّثني قُرَّة بن دُعْمُوصٍ النُّميريُّ. أنهم وفَدُوا إلى رسُولِ الله ـ ﷺ ـ فقالوا: يا رسول الله، ما تَعْهَدُ إلينا؟ قال: لا تمنَعُوا الماعُونَ. قالوا: يا رسولَ الله، وما الماعُونَ؟ قال: في الحَجَرِ، وفي الحَديدة، وفي الماء. قالوا: فأيُّ الحَديدةِ؟ قال: قُدُورُكُم النحاسُ، وحديدُ الفأسِ الذي تَمتَهِنون به. قالوا: ما الحجر؟ قال: قدورُكم الحجارةُ.

غريبٌ جدًّا، ورفْعُه منكَرٌ، وفي إسناده مَن لا يُعرَفُ، والله أعلمُ.

[(٢)-وقد ذكر ابنُ الأثير في الصحابة ترجمة «علي النُّميري»، فقال: رَوَى ابنُ قانع بسنده إلى عائذِ بن ربيعة بن قيس النميري، عن علي بن فلان النُّميريُّ: سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «المُسلمُ أخو المسلم، إذا لقيه حَيَّاهُ بالسلام، ويَرُدُّ عليه ما هو خيرٌ منه، لا يمنع الماعون». قلت: يا رسولَ الله، ما الماعُون؟ قال: الحَجَرُ، والحديدُ، وأشباه ذلك(٢)].

آخر تفسير سورة «الماعون» ولله الحمدُ والمنَّةُ

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود، مسلم، كتاب الزكاة ٦٩٧/٢، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٨٧/٤.
(٢ ـ ٢) سقط من بعض النسخ. وترجمة علي النميري في أسد الغابة ١٢٧/٤.

تفسير

سورة الكوثر

مدنيَّة، وقيل مكيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن فُضَيل، عن المختار بن فُلْفُل، عن أنس بن مالك قال: أغفى رسولُ الله ـ ﷺ ـ إغفاءةً، فرفع رأسه مُتَبَسِّماً، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكتَ؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إنه أُنزلت عليَّ آنفاً سورةٌ. فقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أعطيناكَ الكوثرَ﴾، حتى ختَمها قال: هل تدرُون ما الكوثرُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: هو نهرٌ أعطانِيه ربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ في الجنة، عليه خيرٌ كثيرٌ، تَرِدُ عليه أُمَّتي يومَ القيامةِ، آنيتُه عددُ الكواكبِ، يُخْتَلَجُ[1] العبدُ منهم فأقول: يا ربِّ، إنه من أُمتي. فيقال: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعْدَكَ[2].

هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثي، وهذا السياقِ. وقد ورد في صِفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَبُ[3] فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر، وأنَّ عليه آنية عدد نُجوم السماء. وقد رَوَى هذا الحديث مُسلِمٌ وأبو داودَ والنَّسائي، من طريق محمد بن فُضَيل وعلي بن مُسهِر، كلاهما عن المختار بن فُلْفُل، عن أنس، ولفظ مسلم قال: بينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بين أظهُرِنا في المسجد إذْ أغفَى إغفاءةً ثم رفع رأسه مُتَبَسِّماً، قلنا: ما أضحكَكَ يا رسولَ الله؟ قال: أُنزلت عليَّ آنِفاً سُورَةٌ فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أعطيناكَ الكَوثَرَ *

(١) أي: يُنْتزَع ويُقتطع.
(٢) مسند الإمام أحمد ٣/١٠٢.
(٣) أي: يسيل

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ * إنَّ شانِئَكَ هو الأبْتَرُ﴾. ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلمُ. قال: فإنه نهر وَعَدَنِيهِ ربي - عزّ وجلّ - عليه خيرٌ كثيرٌ، هو حوضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتي يوم القيامة، آنيته عددُ النجوم، فيُختَلَجُ العبدُ منهم، فأقول: ربِّ، إنه من أُمّتي فيقول: إنك ما تدري ما أحدث بعدك»(١).

وقد استدلَّ به كثير من القُرّاء على أن هذه السورة مَدَنِيَّةٌ، وكثيرٌ من الفقهاء على أنَّ البسملة من السُّورة، وأنها مُنَزَّلَةٌ معها.

فأما قولُه تعالى: ﴿إنا أعطيناكَ الكوثرَ﴾، فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهرٌ في الجنة. وقد رَوَاه الإمام أحمد من طريق أُخرى، عن أنس فقال:

حدَّث عفّان، حدَّثنا حَمّادٌ، أخبرنا ثابتٌ، عن أَنَس أنه قرأ هذه الآية: ﴿إنا أعطيناكَ الكوثرَ﴾ قال. قال رسولُ الله - ﷺ -: أُعطيتُ الكوثرَ فإذا هو نهرٌ يجري، ولَمْ يُشَقّ شَقّاً، وإذا حافَتاه قِبابُ اللُّؤلُؤِ، فضربتُ بِيَدي في تربته، فإذا مِسْكَةٌ ذَفِرَةٌ وإذا حَصاةُ اللُّؤلُؤِ»(٢).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدَّثنا محمد بن أبي عَدِيّ، عن حُمَيد، عن أَنَس قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «دخلتُ الجنةَ فإذا أنا بنهر، حافَتاهُ خيامُ اللُّؤلُؤ، فَضَربتُ بيدي إلى ما يجري فيه الماءُ، فإذا مسكٌ أذفرُ، قلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاكَهُ الله عزَّ وجلَّ»(٣).

وَرَواه البخاريُّ في صَحيحه ومسلمٌ، من حديثِ شيبانَ بن عبد الرحمن، عن قتادةَ، عن أَنَس بن مالك قال. لما عُرِجَ بالنبيِّ - ﷺ - إلى السماء قال: «أتيتُ على نهر حافَتاه قِبابُ اللُّؤلُؤِ المُجَوَّفَة، فقلت: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثرُ». وهذا لفظ البخاري، رحمه الله.

وقال ابنُ جَرير: حدَّثنا الربيع، أخبرنا ابنُ وهب، عن سُليمان بن بلال، عن شَريك بن أبي نَمر، قال. سَمِعتُ أنس بن مالك يُحدِّثنا قال: لما أُسري برسُول الله - ﷺ - مَضَى به جبريلُ في السماء الدُّنيا، فإذا هو بِنَهر عليه قصرٌ من لؤلؤ وَزَبَرْجَدٍ، فذهب يَشَمُّ ترابه فإذا هو مِسْكٌ، قال: يا جبريلُ، ما هذا النَّهرُ؟ قال: هو الكوثر الذي خَبَأ لك ربُّك(٤).

وقد تَقَدَّم في حديث الإسراءِ في سُورة ﴿سُبحانَ﴾، من طريق شَريكٍ عن أَنَس، وهو مُخرَّجٌ في الصَّحِيحَين(٤).

وقال سعيدٌ، عن قتادةَ، عن أَنَس: إنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «بينما أنا أسيرُ في الجَنَّة إذ عَرَضَ لي نهرٌ، حافَتاه قِبابُ اللُّؤلُؤِ، مُجَوَّفٌ، فقال المَلَكُ الذي معه: أتدري ما هذا؟ هذا الكوثرُ الذي أعطاك الله. وضَرَب بيده إلى أرضِهِ فأخرج من طِيبه المِسْكَ»(٥). وكذا رواه سليمان بن طَرْخَان، ومعمر(٥) وهَمّام وغيرهم، عن قتادة، به.

---

(١) مسلم، كتاب الصلاة ١/٣٠٠، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٣٧، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٣٣ - ١٣٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٢٤٧ ومِسْكَةٌ ذفِرة: طيبة الريح، ولفظ المسند: «فإذا هو مسكةٌ ذفرة».

(٣) مسند أحمد ٣/١٠٣، وفتح الباري، تفسير سورة الكوثر ٨/٧٣١. ويقول المِزِّي في تحفة الأشراف ١/٣٣٧: «حديث مسلم هذا لم يذكره أبو مسعود، ووجدته ملحقاً في كتاب خَلَف».

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٣٢١، وانظر حديث الصحيحين في أول تفسير سورة الإسراء.

(٥) أخرجه الطبري ٣٠/٣٢٣.

وقال ابنُ جَرِير: حدَّثنا أحمدُ بن أبي سُرَيج، حدَّثنا أبو أيوبَ العباسُ، حدَّثنا إبراهيمُ بن سَعدٍ، حدَّثني محمد بن عبد الله ابنُ أخي ابن شِهاب، عن أبيه، عن أنسٍ قال: سُئل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن الكوثر، فقال: «هو نهرٌ أعطانيه الله في الجنَّةِ، ترابُه مِسْكٌ، أبيضُ من اللبن، وأحلى من العسل، تردُه طيرٌ أعناقها مثل أعناق الجُزُر»[١]. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنها لناعمةٌ؟ قال: «آكلُها أنعم منها»[٢].

وقال أحمد: حدَّثنا أبو سَلمة الخُزَاعيُّ، حدَّثنا الليثُ، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الوهّاب، عن عبد الله بن مُسلِم بن شهابٍ، عن أنس أنَّ رجُلاً قال: يا رسولَ الله، ما الكوثرُ؟ قال: «نهرٌ في الجنَّةِ أعطانيه ربِّي، لهو أشَدُّ بياضاً من اللَّبنِ، وأحلَى من العسلِ، فيه طيورٌ أعناقُها كأعناق الجُزُرِ» قال عُمَر: يا رسولَ الله، إنَّها لناعِمَةٌ؟ قال: «آكلُها أنْعَمُ منها يا عُمَرُ»[٣].

رَوَاه ابنُ جرير، من حديث الزُّهريِّ، عن أخيه عبد الله، عن أنس: أنه سَأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن الكوثر... فذكر مثله سواءً[٣].

وقال البخاري: حدَّثنا خالد بن يزيدَ الكاهليُّ، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عُبَيْدَة، عن عائشة قال: سَألتُها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، قالت: نهر أُعطِيَه نبيُّكم ﷺ، شاطئاه عليه دُرٌّ مُجوَّفٌ، آنيته كعَدَدِ النجوم.

ثم قال البخاريُّ: «رواه زكريا وأبو الأحْوَصِ ومُطَرِّفٌ، عن أبي إسحق»[٤]. ورواه أحمد والنسائي، من طريق مُطرِّف، به[٤].

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا وكيع، عن سفيان وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عُبَيدة، عن عائشة قالت: الكوثرُ نهر في الجنة، شاطئاه دُرٌّ مُجَوَّفٌ. وقال إسرائيل: نهرٌ في الجنَّة عليه من الآنيةِ عَدَدُ نجوم السماء[٥].

وحَدَّثنا ابنُ حُمَيد، حدَّثنا يعقوب القُمِّي، عن حفص بن حُمَيد، عن شِمرِ بن عَطِيَّةَ، عن شَقيقٍ أو مَسْرُوقٍ قال: قلتُ لعائشة: يا أمَّ المؤمنين، حَدِّثيني عن الكَوْثَر. قالت: نَهَرٌ في بُطنان الجنة. قلت: وما بُطنانُ الجنة؟ قالت: وَسَطُها، حافَتَاه قُصُور اللؤلؤِ والياقوتِ، تُرَابُه المِسكُ، وحَصْباؤُه اللؤلؤُ والياقوتُ[٦].

وحدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا وكيع، عن أبي جَعْفَرٍ الرازيِّ، عن ابن أبي نَجِيحٍ، عن عائشة قالت: من أحبَّ أن يَسْمَعَ خرير الكوثر فَلْيَجعل إصبَعَيْه في أُذُنيه.

وهذا منقطع بين ابن أبي نَجِيحٍ وعائشةَ، وفي بعض الروايات: «عن رجُل، عنها». ومعنى هذا أنه يَسْمعُ نَظِيرَ ذلك، لا أنه يسمعه نَفْسَه، والله أعلم.

---

(١) الجُزُر: جمع جَزُور، وهو البعيرُ، ذكراً كان أو أنثى.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٣٢٤.
(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٢٢٠ ـ ٢٢١. وانظر تفسير الطبري ٣٠/٣٢٤.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة الكوثر ٨/٧٣١، ومسند أحمد ٦/٢٨١، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٢/٣٧٦.
(٥) تفسير الطبري ٣٠/٣٢١.
(٦) تفسير الطبري ٣٠/٣٢٠.

قال السُهيليُّ: وَرَواه الدارَقُطني مرفوعاً، من طريق مالكِ بن مِغْوَلٍ، عن الشعبيِّ، عن مَسْرُوقٍ، عن عائشةَ، عن النبيِّ ﷺ(١).

ثم قال البخاري: حدَّثنا يعقوبُ بن إبراهيم، حدَّثنا هُشَيمٌ، أخبرنا أبو بِشْرٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس أنه قال في الكَوْثَر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بِشْرٍ. قلتُ لسعيد بن جُبَير: فإن ناساً يَزْعُمون أنه نهرٌ في الجنة؟ فقال سعيد: النهرُ الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه(٢).

وَرَواه أيضاً من حديث هُشَيم، عن أبي بِشْرٍ وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: الكَوْثَرُ: الخيرُ الكثيرُ(٣).

وقال الثوريُّ، عن عطاء بن السائب، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال. الكَوْثَرُ: الخيرُ الكثيرُ(٣).

وهذا التفسير يَعُمُّ النهر وغيره، لأنَّ الكَوْثَر من الكَثْرة، وهو الخيرُ الكثيرُ، ومن ذلك النهر، كما قال ابن عباس، وعِكْرِمَةُ، وسعيد بن جُبير، ومجاهدٌ، ومُحَارِبُ بن دِثَارٍ، والحسنُ بن أبي الحَسَنِ البَصْرِيُّ. حتى قال مجاهدٌ: هو الخيرُ الكثيرُ في الدُّنيا والآخرة.

وقال عِكْرِمةُ: هو النُّبوَّة والقرآنُ، وثوابُ الآخرة. وقد صَحَّ عن ابن عباس أنه فَسَّره بالنهر أيضاً، فقال ابن جرير:

حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا عُمَر بن عُبَيدٍ، عن عطاء، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: الكَوْثرُ نهرٌ في الجنة، حافتاه ذهبٌ وفضةٌ، يجري على الياقوتِ والدُّرِّ، ماؤه أبيضُ من الثلج وأحلى من العَسَل(٤).

وَرَوى العَوفيُّ، عن ابن عباس، نَحْوَ ذلك.

وقال ابنُ جَرير: حدَّثني يعقوبُ، حدَّثنا هُشَيم، أخبرنا عطاءُ بن السائب، عن مُحارِب بن دِثَارٍ، عن ابن عُمَر أنه قال: الكوثَرُ نهرٌ في الجَنَّة، حافَتاه ذَهبٌ وفضَّةٌ، يجري على الدُّرِّ والياقوت، ماؤُه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل(٤).

وكذا رواه ابن جرير(٥) عن ابن حميد، عن جرير، عن عطاء بن السائب، به مثله، موقوفاً. وقد رُوِي مرفوعاً فقال الإمام أحمد:

حدَّثنا عليُّ بن حفص، حدَّثنا وَرْقاءُ قال: وقال عطاءٌ عن مُحارِب بن دثارٍ، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الكوثرُ نهرٌ في الجنة حافَتاه من ذَهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤُه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العَسَل»(٦)

وهكذا رَوَاه الترمذيُّ، وابنُ ماجه، وابن أبي حاتم، وابنُ جَرير، من طريق محمد بن فُضَيل، عن عطاءِ بن السائب، به مرفوعاً. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ صَحيحٌ(٦).

---

(١) الروض الأنف ١/٢٤١

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الكوثر ٨/٧٣١

(٣) تفسير الطبري ٣٠/٣٢١

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٣٢٠.

(٥) في النسخ «وكذا رواه الترمذيُّ» ولم يقع لنا به من هذه الطريق، وهي رواية ابن جرير ٣٠/٣٢٠.

(٦) مسند أحمد ٢/١٥٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الكوثر ١٢/٢٥٨، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٥٠، وتفسير الطبري ٣٠/٣٢٤.

وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدَّثني يعقوبُ، حدَّثنا ابنُ عُلَيَّة، أخبرنا عطاءُ بن السائب قال: قال لي محاربُ بن دِثارٍ: ما قال سعيد بن جُبَير في الكوثر؟ قلت: حدَّثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخيرُ الكثيرُ. فقال: صَدَقَ، والله إنه للخيرُ الكثيرُ، ولكن حدَّثنا ابنُ عمر قال: لما نزلت: ﴿إنا أعطيناكَ الكوثرَ﴾، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «الكوثرُ نهرٌ في الجنة، حافتاه من ذَهَبٍ، يجري على الدُّرِّ والياقوت»[١].

وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدَّثني ابنُ البَرْقيِّ، حدَّثنا ابنُ أبي مَرْيَم، حدَّثنا محمدُ بن جعفر بن أبي كَثِير، أخبرني حَرام بن عثمان، عن عبد الرحمن الأعرج، عن أسامة بن زيد: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أتى حمزةَ بن عبد المطلب يوماً فلم يَجِدْه، فسأل امرأتَه عنه ـ وكانت من بني النَّجَّار ـ فقالت: خَرَجَ يا نبيَّ الله آنفاً عامداً نحوكَ، فأظنه أخطأكَ في بعض أزقة بني النَّجار، أَوَلا تدخل يا رسولَ الله؟ فدخل، فَقَدَّمتُ إليه حَيْساً[٢] فأكل منه، فقالت: يا رسولَ الله، هَنِيئاً لكَ ومَريئاً، لقد جئتَ وأنا أريدُ أن آتيكَ فأُهَنِّيكَ وأُمَرِّيكَ[٣]، أخبرني أبو عُمَارة أنكَ أُعطيتَ نهراً في الجنة يُدعى الكوثرَ. فقال: أجل، وعَرْضُه ـ يعني أرضه ـ ياقوتٌ ومرجان، وزَبَرْجدٌ ولُؤلؤٌ[٤].

حَرَامُ بن عثمانَ ضعيفٌ. ولكن هذا سياق حَسَنٌ، وقد صَحَّ أصلُ هذا، بل قد تَواتَرَ من طريق تُفِيد القطعَ عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحَوْض[٤].

وهكذا رُوِيَ عن أنسٍ، وأبي العالية، ومُجاهِدٍ، وغير واحدٍ من السَّلَف: أنَّ الكوثَرَ نهرٌ في الجنة. وقال عطاءٌ: هو حوضٌ في الجنة.

وقولُه: ﴿فَصَلِّ لربِّك وانحرْ﴾، أي: كما أعطيناك الخيرَ الكثيرَ في الدُّنيا والآخرةِ، ومن ذلك النهرُ الذي تقدَّم صفته، فأَخلِصْ لربِّك صلاتَكَ المكتوبةَ والنافلةَ ونَحْرَك، فاعبُده وحده لا شريكَ له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَمَاتي لله ربِّ العالمين ۞ لا شريكَ له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين﴾، قال ابنُ عباس، وعطاءٌ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسنُ: يعني بذلك نَحْرَ البُدْنِ ونحوَها. وكذا قال قتادةُ، ومحمد بنُ كعب القُرَظيُّ، والضحَّاك، والربيع، وعطاءٌ الخُراساني، والحَكَمُ، وإسماعيلُ بن أبي خالدٍ، وغيرُ واحدٍ من السلف. وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السُّجودِ لغير الله، والذبحِ على غيرِ اسمه، كما قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذكرِ اسمُ الله عليه وإنه لَفِسْقٌ﴾ . الآية.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿وانحرْ﴾: وَضْعُ اليدِ اليُمنَى على اليُسرَى تحتَ النحر. يُروَى هذ عن عليٍّ[٥]، ولا يَصِحُّ، وعن الشعبي مثله. وعن أبي جَعْفر الباقر: ﴿وانحرْ﴾، يعني: ارفعِ اليَدَيْنِ عند افتتاح الصلاة. وقيل: ﴿وانحرْ﴾، أي: استقبل بنَحْرِك القبلة. ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير.

وقد رَوَى ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً مُنكراً جدًّا فقال:

حدَّثنا وهبُ بن إبراهيم القاضيُّ ـ سنة خمس وخمسين ومائتين ـ حدَّثنا إسرائيل بن حاتم المَرْوَزيُّ، حدَّثنا مُقاتل بن حَيَّانَ، عن الأصبغ بن نُباتة، عن علي بن أبي طالب قال: لما نَزَلت هذه السورةُ على النبيِّ ـ ﷺ ـ : ﴿إنا أعطيناكَ الكوثرَ ۞ فصل لربِّك وانحرْ﴾، قال رَسُول الله: يا جبريلُ، ما هذه النُّحيرةُ التي أمرني بها ربِّي؟

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٣٢٥.

(٢) الحيس: طعام من التمر واللبن المُجفّف أو السمن.

(٣) هنأه بالأمر: خاطبه راجياً أن يكون هذا الأمر مبعث سرور له. ومرّأه: إتباع له يقوي معناه.

(٤) بعده في نسخة: «ونذكرها هنا». وزادت أخرى: «وكل هذه الأقوال غريبة جدًّا».

(٥) أخرجه الطبري ٣٠/٣٢٥ ـ ٣٢٦ ولفظه: «وضع يده اليمنى على وسَط ساعده اليسرى، ثم وضعهما على صدره».

فقال: ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرَّمتَ للصلاة، ارفعْ يديك إذا كبَّرت وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتُنا وصلاةُ الملائكة الذين في السموات السبع، وإنَّ لكلِّ شيءٍ زينةً، وزينةُ الصلاة رفعُ اليدين عند كلِّ تكبيرة.

وهكذا رواه الحاكمُ في المستدرك، من حديث إسرائيل بن حاتم، به[1].

وعن عطاء الخراساني، ﴿وانحر﴾، أي: ارفعْ صُلبَك بعد الركوع واعتدلْ، وأبرزْ نحرَك، يعني به الاعتدالَ. رواه ابنُ أبي حاتم.

[(٢- وكل هذه الأقوال غريبة جداً -٢)]. والصحيح القولُ الأول، أنَّ المرادَ بالنحر ذبحُ المناسك، ولهذا كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصلِّي العيدَ ثم ينحر نُسكه ويقول: «مَن صلى صلاتنا، ونَسَك نُسُكنا، فقد أصابَ النُّسُكَ. ومن نسك قبل الصلاة فلا نُسُكَ له». فقام أبو بُردَةَ بنُ نِيار فقال: يا رسولَ الله، إني نسكتُ شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليومَ يومٌ يُشتَهى فيه اللحمُ. قال: «شاتك شاةُ لحم». قال: فإنَّ عندي عَناقاً[3] هي أحبُّ إليَّ من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: «تجزئك، ولا تجزيء أحداً بعدك»[4].

قال أبو جعفر بنُ جرير: «والصوابُ قول من قال: معنى ذلك: فاجعلْ صلاتك كلَّها لربِّك خالصاً دون ما سواه من الأندادِ والآلهةِ، وكذلك نحرَك اجعلْه له دُونَ الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرَامة والخير الذي لا كِفَاءَ له، وخصَّك به»[5].

وهذا الذي قاله في غاية الحُسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى محمدُ بن كعب القرظي، وعطاءٌ.

وقولُه: ﴿إنَّ شانئك هو الأبترُ﴾، أي: إن مُبغضَك ـ يا محمدُ ـ ومُبغِضَ ما جئتَ به من الهُدَى والحقِّ والبُرهانِ الساطع والنُّورِ المبين، هو الأبترُ الأقلُّ الأذلُّ المُنقطِعُ ذِكرُه.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبير، وقتادةُ: نزلت في العاص بن وائل.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومانَ قال: كان العاصُ بنُ وائل إذا ذُكِر رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: دعُوه فإنه رجلٌ أبترُ لا عقب له، فإذا هلَك انقطعَ ذكرُه، فأنزل الله هذه السورة[6].

وقال شَمِرُ بن عطيَّة: نزلت في عُقبة بن أبي مُعَيط. وقال ابن عباس أيضاً، وعِكرِمةُ: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعةٍ من كُفَّار قُريش.

وقال البزار: حدَّثنا زياد بن يحيى الحَسَّاني، حدَّثنا ابن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصَنْبِرِ المُنْبَتِر من قومه؟ يزعُم أنه خيرٌ منا، ونحنُ أهلُ الحَجيج، وأهلُ السِّدانةِ وأهلُ السِّقاية. فقال: أنتم خيرٌ منه. قال: فنزلت: ﴿إن شانئَك هو الأبتَر﴾.

---

(١) المستدرك، تفسير سورة الكوثر ٥٣٧/٢ ـ ٥٣٨، والبيهقي في كتاب الصلاة من سننه ٢٩/٢، وأخرجه كذلك ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦٥٠/٨.

(٢ ـ ٢) ما بين القوسين من نسخة. وانظر تعليقنا المتقدم بعد حديث أسامة بن زيد الذي أخرجه الطبري.

(٣) العناق: هي الأنثى من المعز إذا قويت لم تستكمل سنة.

(٤) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب العيدين ٤٧١/٢، ومسلم، كتاب الأضاحي ١٥٥٢/٣ ـ ١٥٥٤.

(٥) تفسير الطبري ٣٢٨/٣٠.

(٦) سيرة ابن هشام ٣٩٣/١.

هكذا رَوَاه البزار[1]، وهو إسنادٌ صَحِيحٌ.

وعن عطاءٍ: نَزَلت في أبي لَهَب، وذلك حين ماتَ ابنٌ لرسول الله ـ ﷺ ـ فَذَهب أبو لَهَب إلى المشركين وقال: بُتِرَ محمدٌ الليلةَ. فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾.

وعن ابن عبَّاسٍ: نَزَلت في أبي جَهْلٍ. وعنه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾، يعني: عَدُوَّك. وهذا يَعُمُّ جميعَ من اتَّصف بذلك ممن ذُكِر وغيرهم.

وقال عِكْرِمةُ: الأبترُ: الفردُ. وقال السُّدِّي: كانوا إذا مات ذكورُ الرجل قالوا: بُتِر. فلما مات أبناءُ رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا: بُتِر محمدٌ. فأنزل الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾.

وهذا يرجِعُ إلى ما قلناه مِن أنَّ الأبتر الذي إذا مات انقطع ذِكْرُه، فتوهَّموا لجهلهم أنه إذا مات بَنُوه يَنْقطِعُ ذكرُه، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذِكْرَه على رُؤُوسِ الأشهاد، وأوجَبَ شَرْعَه على رقابِ العبادِ، مُستمِرًّا على دَوَام الآبادِ، إلى يومِ الحشرِ والمَعَادِ، صَلَواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم التنادِ.

آخر تفسير «سورة الكوثر» ولله الحمدُ والمِنَّةُ

---

(١) في نسخة الأزهر: «هكذا رواه الترمذي» ولم يقع لنا فيه، بل أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٥/١٣٤، عن عمرو بن علي، عن ابن أبي عدي، به. وهو في كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٨٣، عن الحسن بن علي الواسطي، عن يحيى بن راشد، عن داود، به. وقد تقدّم الحديث من غير وجه في تفسير الآية ٥١ من سورة النساء، وشرحنا غريبه هنالك.

تفسير

سُورَةُ الكَافِرُونَ

وَهِيَ مَكيَّة

ثَبت في صحيح مسلم، عن جابرٍ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ بهذه السورةِ، وبـ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ﴾ في ركعتي الطَّوَافِ[(١)].

وفي صحيح مُسلِمٍ، من حديث أبي هُرَيْرَة: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ بهما في رَكْعَتَي الفَجْرِ[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكيعٌ، حدَّثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحق، عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ في الركعتين قبل الفَجْر والركعَتَينِ بعد المغربِ، بضعاً وعشرين مرَّةً ـ أو: بضعَ عشرةَ مَرَّةً ـ ﴿قُلْ يا أيها الكافرُون﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ﴾[(٣)].

وقال أحمدُ أيضاً: حدَّثنا مُحمَّد بن عبد الله بن الزُّبَير، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحق، عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر قال: رَمقتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ أربعاً وعشرينَ ـ أو: خمساً وعشرين ـ مرَّةً، يقرأ في الركعتَين قبل الفجرِ، والركعتين بعد المغربِ بـ ﴿قُلْ يا أيها الكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هو الله أحدٌ﴾[(٤)].

وقال أحمدُ: حدَّثنا أبو أحمدَ ـ هو محمدُ بن عبد الله بن الزُّبير الزُّبَيريُّ ـ حدَّثنا سُفيانُ ـ هو الثوريُّ ـ عن أبي إسحقَ، عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر قال: رَمقتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ شهراً، وكان يقرأُ في الركعتَينِ قبل الفَجْرِ: ﴿قُلْ يا أيها الكافرون﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ﴾[(٥)].

وكذا رواه التِّرمِذيُّ، وابنُ ماجَه، من حديث أبي أحمدَ الزُّبَيريِّ، وأخرجه النسائي من وجهٍ آخَرَ، عن أبي إسحقَ، به. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن»[(٥)].

(١) مسلم، كتاب الحج ٢/٨٨٨.
(٢) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٠٢.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٢٤.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٩٩.
(٥) مسند الإمام أحمد ٢/٩٤. وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/٢١٠، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٣٦٣، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٧٠.

وقد تقدَّم في حديثٍ أنها تعدِلُ رُبُعَ القرآن، و﴿إذا زُلزِلَتْ﴾ تَعْدِلُ رُبُعَ القرآن[١].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشمُ بن القاسم، حدَّثنا زُهَير، حدَّثنا أبو إسحق، عن فَرْوَةَ بن نَوْفَلٍ ـ هو ابنُ معاويةَ ـ عن أبيه: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال له: «هل لَكَ في رَبيبةٍ لنا تكفُلُها؟» قال: أُرَاها زينبَ. قال: ثم جاء فسأله النبيُّ ـ ﷺ ـ عنها، قال: «ما فعلت الجاريةُ؟» قال: تَرَكْتُها عند أُمِّها. قال: «فمَجِيءُ ما جاء بِكَ؟» قال: جئتُ لتُعلِّمني شيئاً أقولُه عند منامي. قال: «اقرأ ﴿قُلْ يا أيها الكافرون﴾، ثم نَمْ على خاتِمَتِها، فإنها براءةٌ من الشِّرك». تفرَّدَ به أحمدُ[٢].

وقال أبو القاسم الطَّبَرانيُّ: حدَّثنا أحمد بن عَمْرو القَطِرانيُّ، حدَّثنا محمد بن الطُّفَيل، حدَّثنا شَرِيك، عن أبي إسحق، عن جَبَلة بن حارِثَةَ ـ وهو أخو زيدِ بن حارثةَ ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا أوَيتَ إلى فِراشِكَ فاقرأ قل: ﴿يا أيها الكافرون﴾ حتى تَمُرَّ بآخرِها، فإنها براءةٌ من الشرك»[٣].

[(٤ ـ وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا حَجَّاجٌ، حدَّثنا شَرِيكٌ، عن أبي إسحق، عن فَرْوَةَ بن نَوْفَلٍ، عن الحارث بن جَبَلَةَ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، عَلِّمني شيئاً أقولُه عند مَنامِي. قال: «إذا أخذتَ مَضْجَعكَ من الليلِ فاقرأ: ﴿قُلْ يا أيها الكافرون﴾، فإنها براءةٌ من الشِّرْكِ» ـ ٤)].

[(٥ ـ ورَوَى الطَّبَرانيُّ من طريق شَرِيك، عن جابر، عن مَعْقِل الزُّبَيديِّ، عن عَبَّادِ بن أخضَرَ أو أحمَرَ[٦]: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا أخَذَ مَضْجَعه قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى يَخْتِمَها ـ ٥)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

هذه السورة سورة البراءة من[٧] العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، شَمِلَ كلَّ كافرٍ على وجه الأرض، ولكنِ المواجَهُون بهذا الخطاب هم كُفَّار قريش.

وقيل: إنهم من جَهلِهم دَعَوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ إلى عبادة أوثانهم سنةً، ويعبُدون معبودَه سنةً، فأنزل الله هذه السورةَ، وأمَرَ رسُولَه ـ ﷺ ـ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكُلِّيَّة، فقال: ﴿لا أعبدُ ما تعبدُون﴾. يعني من

(١) انظر أول تفسير سورة ﴿إذا زُلزِلَتْ﴾.
(٢) وقع لنا الحديث في المسند ٥/٤٥٦ من رواية يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن أبي إسحق.
(٣) أخرجه في المعجم الكبير ٢/٢٨٧. وقال في مجمع الزوائد ١٠/١٢١: «ورجاله وُثِّقوا».
(٤ ـ ٤) ساقط من بعض النسخ.
(٥ ـ ٥) سقط من نسخة.
(٦) في نسخة الأزهر «عن عبد البرِّ أخضر أو أحمر» وفي أخرى «عن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد رضي الله عنه أنَّ رسول الله» والمثبت عن الجرح لابن أبي حاتم ٦/٧٧، وأثبت نص الجرح اعتماداً على ما في مجمع الزوائد ١٠/١٢١، وهو قريب من نص نسخة الأزهر، وهو إحدى روايتين رواهما الطبراني، والثانية كما في المعجم الكبير ٤/٨١ عن عباد أبي الأخضر، عن خباب. والله أعلم.
(٧) في بعض النسخ «في العمل». هذا وقد قال ابن تيمية عند تفسير هذه السورة: «وأما المؤمن نفسه فهو مأمور بأنه يُنشِئ قوة الإخلاص لله وحده، وعبادته وحده، والبراءة من كلِّ معبود سواه وعبادته، وبراءته منه ومن عابديه». دقائق التفسير ٥/٣٢٩.

الأصنام والأنداد، ﴿ولا أنتم عابدُون ما أعبد﴾، وهو الله وحدَه لا شريك له. فـ «ما» ها هنا بمعنى «مَن».
ثم قال: ﴿ولا أنا عابدٌ ما عبدتُم * ولا أنتم عابدُون ما أعبُد﴾، أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكُها ولا أقتدي بها، وإنما أعبدُ الله على الوجه الذي يُحِبُّه ويرضاه. ولهذا قال: ﴿ولا أنتم عابدُون ما أعبُد﴾، أي: لا تقتدُون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتُم شيئاً من تلقاء أنفُسكم، كما قال: ﴿إن يتَّبِعون إلا الظن وما تهوى الأنفسُ ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى﴾، فتبرَّأ منهم في جَميع ما هم فيه، فإن العابد لا بُدَّ له من معبودٍ يعبده، وعبادةٍ يسلُكها إليه، فالرسولُ وأتباعُه يعبُدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، أي: لا معبود إلا الله، ولا طريقَ إليه إلا بما جاء به الرسولُ ﷺ، والمشركُون يعبُدون غيرَ الله عبادةً لم يأذن بها الله. ولهذا قال لهم الرسولُ ـ ﷺ ـ: ﴿لكم دينُكم ولي دين﴾، كما قال تعالى: ﴿وإن كذَّبوك فقُل لي عملي ولكُم عملكُم أنتم بريئُون مما أعمَلُ وأنا بريءٌ مما تعمَلُون﴾. وقال: ﴿لنا أعمالُنا ولكم أعمالكم﴾.
وقال البخاري: يقال لكم دينكُم الكفرُ، ولي دين الإسلام. ولم يقل «ديني» لأن الآيات بالنُّون، فحذف الياء، كما قال: ﴿فهو يهدِين﴾ و﴿يشفين﴾[1]، وقال غيرُه[2]: ﴿لا أعبد ما تعبدُون﴾ الآن، ولا أُجيبكم فيما بَقيَ من عُمُري، ﴿ولا أنتم عابدُون ما أعبُد﴾، وهم الذين قال: ﴿وليزيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِلَ إليكَ من ربِّك طُغياناً وكُفراً﴾. انتهى ما ذكره[3].
ونقل ابنُ جرير عن بعض أهل العَرَبيَّة أنَّ ذلك من باب التأكيد، كقوله ﴿فإنَّ مع العُسر يُسراً * إنَّ مع العُسر يُسراً﴾، وكقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثم لَتَرَوُنَّها عينَ اليقين﴾. وحكاه بعضهم كابن الجَوْزيّ[4] وغيره عن ابن قُتَيبة، فالله أعلم. فهذه ثلاثة أقوال: أولها ما ذكرناه أولاً. الثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿لا أعبدُ ما تعبُدون * ولا أنتم عابدُون ما أعبُد﴾ في الماضي ﴿ولا أنا عابدٌ ما عبدتُم * ولا أنتم عابدون ما أعبُد﴾ في المستقبل. الثالث: أن ذلك تأكيدٌ محض.
وثَمَّ قولٌ رابعٌ، نصره أبو العباس بن تَيميَّة في بعض كُتُبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لا أعبُد ما تعبدون﴾ نفيُ الفعل لأنها جملةٌ فعليَّةٌ، ﴿ولا أنا عابدٌ ما عبدتم﴾، نفي قبوله لذلك بالكُلِّية؛ لأن النفي بالجُملة الاسمية آكدُ فكأنه نفى الفعلَ وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفيُ الوقوع ونفيُ الإمكانِ الشرعيِّ أيضاً. وهو قولٌ حَسَنٌ أيضاً[5]، والله أعلم.
وقد استدلَّ الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيرُه بهذه الآية الكريمة: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾، على أن الكُفرَ كُلَّه مِلَّةٌ واحدةٌ، فوَرَّثَ اليهودَ من النصارى، وبالعكس؛ إذا كان بينهما نَسَبٌ أو سَبَبٌ يُتوارَثُ به؛ لأنَّ الأديان ما عدا الإسلامَ كُلُّها كالشيءِ الواحدِ في البطلان. وذهب أحمدُ بن حنبل ومَن وافقه إلى عَدَم توريث النصارى من اليهود وبالعكس، لحديث عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يتوارَثُ أهل مِلَّتين شتَّى»[6].

آخر تفسير سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) قاله في فتح الباري بعده. وهو كلام الفرّاء بلفظه. وانظر معاني القرآن للفرّاء ٣/٢٩٧.
(٢) هذا كلام أبي عبيدة كما في فتح الباري، وانظر مجاز القرآن ٢/٣١٤.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة ﴿قل يأيها الكافرون﴾ ٨/٧٣٣.
(٤) زاد المسير ٨/٣٢٣.
(٥) انظر دقائق التفسير ٥/٣٢٥ وما بعدها.
(٦) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنفال.

تفسير

سُورَةُ النَّصر

وهي مدنيَّة

قد تقدَّم أنها تَعدِلُ رُبُعَ القرآنِ، و﴿إذا زُلزِلَت﴾ تَعدِلُ رُبُعَ القرآنِ. وقال النَّسائي:

أخبرنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا جعفر، عن أبي العُمَيس (ح) ـ وأخبرنا أحمد بن سليمان، حدَّثنا جعفرُ بن عَون، حدَّثنا أبو العُمَيس ـ عن عبد المجيد بن سُهَيل، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبَةَ قال: قال لي ابنُ عباس: يا ابن عُتبةَ، أتعلم آخرَ سورةٍ من القرآن نَزَلت؟ قلت: نعم، ﴿إذا جاء نصر الله والفتحُ﴾. قال: صَدَقْتَ[١].

ورَوَى الحافظان أبو بكر البزَّار والبَيْهَقيُّ، من حديث مُوسَى بن عُبَيْدَةَ الرَّبَذِيِّ، عن صَدَقَةَ بن يَسارٍ، عن ابن عُمَر قال: أُنزِلَت هذه السورةُ: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾ على رسول الله ـ ﷺ ـ أوسَطَ أيامِ التشريق، فَعَرف أنه الوداعُ، فأمر براحلته القَصْواءِ فَرُحِلَت، ثم قام فَخَطب الناسَ... فذكر خطبته المشهورة[٢].

وقال الحافظ البَيْهَقيُّ: أخبرنا علي بن أحمد بن عَبْدَانَ، أخبرنا أحمد بن عُبَيد الصفار، حدَّثنا الأسفاطِيُّ، حدَّثنا سَعيد بن سليمان، حدَّثنا عَبَّادُ بن العَوَّام، عن هلال بن خَبَّاب، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبَّاس قال: لما نَزَلَت: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتحُ﴾، دَعَا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فاطمةَ وقال: إنه قد نُعِيَتْ إليَّ نَفْسِي. فَبَكت ثم ضَحِكت، وقالت: أخبرني أنه نُعِيَت إليه نَفْسُه فَبَكيتُ، ثم قال: اصبري فإنَّكِ أوَّلُ أَهْلي لَحاقاً بي. فضَحِكْتُ[٣].

وقد رَوَاه النَّسائيُّ، كما سيأتي، بدُونِ ذِكْرِ فاطمَةَ.

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٥/٥٧، ومسلم في كتاب التفسير من صحيحه عن أبي بكر بن أبي شيبة، وهارون بن عبد الله، وعَبْد بن حُمَيد عن أبي العُمَيس ٤/٢٣١٨

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، ٢/٣٣ ـ ٣٤. والسنن الكبرى للبيهقي، كتاب الحج ٥/١٥٢

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ٧/١٦٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

قال البخاريُّ: حدَّثنا موسى بن إسماعيل، حدَّثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان عُمَرُ يُدخِلُني مع أشياخ بَدْرٍ، فكأنَّ بعضهم وَجَد في نَفْسِه، فقال: لِمَ تُدْخِلُ هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟ فقال عُمَر: إنه ممن عَلِمتُم[(١)]. فدعاهم ذاتَ يوم فأدخلَه معهم، فما رُئيتُ أنه دعاني فيهم يومئذٍ إلاَّ لِيُريهم. فقال: ما تقولون في قولِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إذا جاءَ نصرُ الله والفتحُ﴾؟ فقال بعضهم: أُمِرْنا أن نَحْمَدَ الله ونستغفِرَه إذا نُصِرنا وفُتِح علينا. وسكت بعضُهم فلم يَقُل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقولُ يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقولُ؟ فقلت: هو أَجَلُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ أعْلَمَه له، قال: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتحُ﴾ فذلك علامةُ أَجَلِك، ﴿فسبِّح بحمدِ ربِّك واستغفِرْه إنه كان توَّاباً﴾. فقال عُمَرُ بنُ الخطاب: لا أعلمُ منها إلا ما تقولُ. تفرَّد به البخاري[(٢)].

وروى ابنُ جَرير، عن مُحمَّدِ بن حُمَيد، عن مِهْرانَ، عن الثوريِّ، عن عاصم، عن أبي رَزِين، عن ابن عباس. فذكر مثل هذه القصة، أو نحوها[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا مُحمَّد بن فُضَيل، حدَّثنا عطاء، عن سعيد بن جُبَير، عن ابنِ عباسٍ قال: لما نَزَلت: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «نُعِيَت إليَّ نفسي»، بأنه مقبوضٌ في تلك السنة، تفرَّد به أحمد[(٣)].

ورَوَى العَوْفيُّ، عن ابن عباس، مثله. وهكذا قال مجاهدٌ، وأبو العالية، والضحَّاك، وغيرُ واحد: إنها أجل رسول الله ـ ﷺ ـ نُعِي إليه.

وقال ابنُ جَرير: حدَّثني إسماعيلُ بن موسى، حدَّثنا الحُسَين بن عيسى الحَنَفيُّ، عن مَعْمَرٍ، عن الزُّهريِّ، عن أبي حازمٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ قال: بينما رسولُ الله ـ ﷺ ـ في المدينة إذ قال: «الله أكبر، الله أكبر! جاءَ نصرُ الله والفتحُ، جاء أهلُ اليَمَن». قيل: يا رسولَ الله، وما أهلُ اليمنِ؟ قال: «قومٌ رقيقةٌ قلوبُهم، لَيِّنَةٌ طباعُهم، الإيمانُ يَمانٍ، والفقهُ يَمانٍ، والحكمة يَمانِيَةٌ»[(٤)].

ثم رواه عن ابن عبد الأعلى، عن ابن ثَورٍ، عن معمر، عن عكرمة مرسلاً[(٤)].

وقال الطَّبرانيُّ: حدَّثنا زكريا بن يحيى، حدَّثنا أبو كامل الجَحْدَرِيُّ، حدَّثنا أبو عَوَانة، عن هلال بن خَبَّاب، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عبَّاسٍ قال: لما نَزَلَت: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتحُ﴾، حتى خَتَم السورةَ، قال: نُعِيَتْ لرسول الله ـ ﷺ ـ نفسُه حين نَزَلت، قال: فأخذ بأشدِّ ما كان قطُّ اجتهاداً في أمر الآخرة، وقال رسولُ

---

(١) أشار بذلك إلى قرابته من النبي ﷺ، أو إلى معرفته وفطنته.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ ٨/٧٣٤ ـ ٧٣٥. وتفسير الطبري ٣٠/٣٣٤.

(٣) مسند أحمد ١/٢١٧.

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٣٣٢، ٣٣٣.

الله ـ ﷺ ـ بعد ذلك: «جاء الفتحُ ونصر الله، وجاء أهلُ اليمن». فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، وما أهلُ اليمن؟ قال: «قومٌ رقيقةٌ قلوبُهم، لَيِّنةٌ قلوبُهم، الإيمانُ يَمانٍ، والفقهُ يمانٍ»[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا وكيعٌ، عن سفيانَ، عن عاصم، عن أبي رَزِينٍ، عن ابن عباسٍ قال: لما نزلت: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾، عَلِم النبيُّ ـ ﷺ ـ أن قد نُعِيَت إليه نفسُه، فقيل: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾، السورةَ كلَّها[2].

حدَّثنا وكيعٌ، عن سُفيانَ، عن عاصمٍ، عن أبي رَزِينٍ: أن عُمَرَ سأل ابنَ عباسٍ عن هذه الآيةِ: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾، قال: لما نزلت نُعِيَتْ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ نفسُه[3].

وقال الطبرانيُّ: حدَّثنا إبراهيمُ بن أحمدَ بن عُمَر الوكيعيُّ، حدَّثنا أبي، حدَّثنا جعفرُ بنُ عونٍ، عن أبي العُمَيسِ، عن أبي بكر بن أبي الجَهْمِ، عن عُبَيدِ الله بن عبدِ الله بن عُتْبَةَ، عن ابن عباسٍ قال: آخرُ سورةٍ نزلت من القرآن جميعاً: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾[4].

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدَّثنا محمدُ بن جعفر، حدَّثنا شُعبةُ، عن عَمْرو بن مُرَّةَ، عن أبي البَخْتَرِيِّ الطائيِّ، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: لما نزلت هذه السورةُ: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾، قرأها رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى ختمها، فقال: «الناس حَيِّزٌ[5]، وأنا وأصحابي حَيِّزٌ». وقال: «لا هِجْرَةَ بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ». فقال له مَرْوانُ: كَذَبْتَ. وعنده رافعُ بن خَديجٍ وزيدُ بن ثابتٍ قاعدانِ معه على السرير، فقال أبو سعيدٍ: لو شاء هذانِ لحدَّثاكَ، ولكن هذا يخاف أن تَنْزِعَه عن عِرَافَةِ[6] قومِه، وهذا يخشى أن تَنْزِعَه عن الصدقة. فرفع مروانُ عليه الدِّرَّةَ ليضربَه، فلما رأيا ذلك قالا: صَدَقَ[7].

تفرَّد به أحمدُ، وهذا الذي أنكره مَرْوانُ على أبي سعيدٍ ليس بمُنْكَرٍ، فقد ثبت من روايةِ ابن عبَّاسٍ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال يومَ الفتح: «لا هجرةَ، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ، ولكن إذا استُنْفِرْتُم فانفِروا». أخرجه البخاري ومسلم في صَحيحَيهما[8].

فالذي فسَّر به بعضُ الصحابة من جُلَساء عُمَرَ ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ من أنه قد أُمِرْنا إذا فتح الله علينا المدائنَ والحُصُونَ أن نحمَدَ الله ونشكُرَه ونُسَبِّحَه، يعني نُصلِّي له ونستغفره ـ معنىً مَليحٌ صحيحٌ، وقد ثَبَت له شاهدٌ من صلاة النبي ـ ﷺ ـ يومَ فتح مكَّةَ وقتَ الضُّحَى ثماني ركعات، فقال قائلونَ: هي صلاةُ الضُّحَى. وأُجِيبُوا بأنه لم يكن يُواظِبُ عليها، فكيف صلَّاها ذلكَ اليومَ وقد كان مُسافراً لم يَنْوِ الإقامةَ بمكَّةَ؟ ولهذا أقامَ فيها إلى آخرِ شهرِ رمضانَ قريباً من تسعةَ عشَرَ يوماً يَقصرُ الصلاةَ ويُفطِر هو وجميعُ الجيشِ، وكانوا

---

(١) أخرجه في المعجم الكبير ١١/٣٢٨ ـ ٣٢٩، وانظر مجمع الزوائد ٩/٢٣.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/٣٤٤.
(٣) المسند ١/٣٥٦.
(٤) أخرجه في المعجم الكبير ١٠/٣٦٩.
(٥) الحيِّز: كل جمع مُنضَمٍّ بعضه إلى بعض.
(٦) العرافة: تدبير أمر القوم والقيامة بسياستهم.
(٧) مسند أحمد ٣/٢٢.
(٨) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير آية البقرة ٢١٦، وآل عمران ٩٧.

نحواً من عشرة آلاف، قال هؤلاء: وإنما كانت صلاة الفتح، قالوا: فيستحبُّ لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يُصلّي فيه أولَ ما يدخله ثماني رَكَعاتٍ. وهكذا فعل سعدُ بن أبي وقاص يوم فتح المدائن، ثم قال بعضهم: يُصلّيها كلَّها بتسليمةٍ واحدةٍ والصحيحُ أنه يُسلِّم من كلِّ ركعتين، كما ورد في سُنَن أبي داود: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يُسلِّم يومَ الفتحِ من كل ركعتين[1] وأما[2] ما فسَّر به ابنُ عباسٍ وعُمر ـ رضي الله عنهما ـ من أنَّ هذه السورة نُعي فيها إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ نفسُه الكريمةُ، وأُعلِمَ أنك إذا فتحتَ مكة ـ وهي: قريتُك التي أخرجَتْكَ ـ ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فقد فرغ شُغلنا بك في الدنيا، فتهيَّأ للقُدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خيرٌ لك من الدنيا، ولسوف يُعطيك ربُّك فترضى، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بحمدِ رَبِّك واستغفِرْه إنه كان تَوَّاباً﴾، قال النسائي:

أخبرنا عمرو بن منصور، حدَّثنا محمد بنُ محبُوبٍ، حدَّثنا أبو عَوَانَةَ، عن هلال بن خَبَّاب، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس: قال لما نزلت: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾، إلى آخر السورة، قال: نُعِيَت لرسُول الله ـ ﷺ ـ نفسُه حين أُنزلت، فأخذ في أشدِّ ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة، وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ بعد ذلك: جاء الفتحُ، وجاء نصرُ الله، وجاء أهلُ اليَمَنِ. فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، وما أهلُ اليَمَنِ؟ قال: قومٌ رقيقةٌ قلوبُهم، لينةٌ قلوبُهم، الإيمانُ يَمَانٍ، والحكمةُ يمانيَّةٌ، والفقهُ يَمَانٍ[3].

وقال البُخاريُّ: حدَّثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ، حدَّثنا جَرير، عن منصورٍ، عن أبي الضحى، عن مَسْرُوقٍ، عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُكثِر أن يقولَ في رُكُوعه وسجُوده: «سبحانَكَ اللهمَّ ربَّنا وبِحَمْدِكَ، اللهم اغفر لي»، يتأول القرآن[4].

وأخرجه بَقِيَّةُ الجماعةِ إلَّا الترمذيَّ، من حديث منصورٍ، به[5].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا محمد بنُ أبي عَدِيٍّ، عن داود، عن الشعبيِّ، عن مَسْرُوقٍ قال: قالت عائشةُ: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُكثِرُ في آخر أَمْرِه من قَوْلِ: «سبحان الله وبحمده، أستغفِرُ الله وأتوبُ إليه»، وقال: «إنَّ ربِّي كان أخبرَني أني سأرى علامةً في أُمَّتي، وأمرني إذا رأيتُها أن أُسبِّحَ بحَمْدِه وأستغفِرَه، إنه كان تَوَّاباً، فقد رأيتُها: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتحُ ❁ ورأيتَ الناسَ يدخُلون في دينِ الله أفواجاً ❁ فَسَبِّح بحمدِ رَبِّكَ واستغفره إنه كان تَوَّاباً﴾»[6].

وَرَواه مُسلِمٌ من طريقِ داودَ، وهو ابن أبي هند، به[6].

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا أبو السائب، حدَّثنا حَفْصٌ، حدَّثنا عاصم، عن الشَّعبيِّ، عن أم سَلَمة قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ في آخر أمره لا يقومُ ولا يقعُد، ولا يذهَبُ ولا يجيءُ، إلا قال: سبحانَ الله وبِحَمْدِه. فقلتُ:

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٢٨.

(٢) لعلَّ جواب (أمَّا) هذه فيما سيذكره ابن كثير من الحديث المرويّ عن ابن عباس، والذي أخرجه النسائي، ففيه مأخذ هذا التفسير والله أعلم.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزِّي ٥/١٧٢ ـ ١٧٣.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ ٨/٧٣٣ ومعنى قوله: «يتأوَّلُ القرآن». يجعل ما أُمِر به من التسبيح والتحميد والاستغفار في أشرف الأوقات والأحوال.

(٥) مسلم، كتاب الصلاة ١/٣٥٠، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٣٢، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/٢١٩، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٢٨٧.

(٦) مسند الإمام أحمد ٦/٣٥، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٥١.

يا رسول الله، إنك تُكثِرُ من سبحان الله وبحمده، لا تذهبُ ولا تجيءُ، ولا تقومُ ولا تقعُد إلا قلت: سُبحان الله وبحمده؟ قال: إني أُمِرتُ بها، فقال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾. . إلى آخر السُورَة. غريب[1].

وقد كتب حديث كفارة المجلس من جميع طرقه وألفاظه في جزء مُفرد، فيكتب ها هنا.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وكيعٌ، عن إسرائيل، عن أبي إسحق، عن أبي عُبيدة، عن عبد الله قال: لما نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾، كان يكثر إذا قرأها وركَعَ أن يقول: «سبحانك اللهُمَّ ربَّنا وبحَمْدِك، اللهُمَّ اغفِرْ لي إنك أنت التوَّابُ الرحيمُ، ثلاثاً»[2].

تَفرَّد به أحمدُ. ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن عمرو بن مُرَّة، عن شعبة، عن أبي إسحق، به.

والمرادُ بالفتح ها هنا فتحُ مكَّةَ قولاً واحداً، فإنَّ أحياء العرب كانت تَتَلوَّم[3] بإسلامها فتحَ مكَّة، يقولون إن ظَهَر على قومه فهو نبيٌّ. فلما فتحَ الله عليه مكَّة دخلُوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسَقتْ[4] جزيرةُ العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مُظهِرٌ للإسلام، ولله الحمدُ والمنَّة. وقد روى البخاريُّ في صَحيحه، عن عمرو بن سَلِمة قال: «لما كان الفتحُ بادَرَ كُلُّ قومٍ بإسلامِهم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت الأحياءُ تَتَلوَّمُ بإسلامها فتحَ مكَّة، يقولون: دَعُوه وقومَه، فإن ظَهَر عليهم فهو نبيٌّ...» الحديث[5]. وقد حَرَّرنا غزوةَ الفتح في كتابنا: السِّيرة، فمن أراده فليُراجِعْه هناك، ولله الحمدُ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا مُعَاوِيةُ بن عَمرو، حدثنا أبو إسحق، عن الأوزاعيِّ، حدَّثني أبو عَمَّار، حدَّثني جارٌ لجابر بن عبد الله قال: قدمتُ من سَفر فجاءني جابرُ بن عبد الله يُسلِّم عليَّ، فجعلتُ أُحدِّثُه عن افتراق الناس وما أحدثُوا، فجعل جابرٌ يبكي، ثم قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الناس دخلُوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجُون منه أفواجاً»[6].

آخر تفسير السورة ولله الحمدُ والمنَّةُ

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٣٣٥

(٢) مسند الإمام أحمد ٣٨٨/١.

(٣) أي: تنتظر.

(٤) أي اجتمعت على الإيمان

(٥) فتح الباري، كتاب المغازي ٢٢/٨.

(٦) مسند أحمد ٣٤٣/٣.

تفسير

سُورَةُ المَسَدِ

وهي مكيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

قال البخاري: حدَّثنا محمد بن سَلَام، حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن عَمْرو بن مرَّةَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: أن النبيَّ - ﷺ - خَرَج إلى البطحاءِ، فَصَعِد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قُرَيشٌ، فقال: أرأيتم إن حَدَّثتكم أن العدوَّ مُصبحُكُم أو مُمْسيكُم، أكنتُم تُصَدِّقوني؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديدٍ. فقال أبو لهب: أَلِهذَا جَمَعتنا؟ تَبًّا لك! فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾... إلى آخرها[1].

وفي روايةٍ: فقام يَنفُض يديه، وهو يقول: تَبًّا لكَ سائرَ اليوم! ألهذا جَمَعْتَنا؟ فأنزلَ الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

الأولُ دُعاءٌ عليه، والثاني خبرٌ عنه. فأبو لَهَبٍ هذا هو أحدُ أعمامِ رسُولِ الله - ﷺ - واسمُه: عبدِ العُزَّى بن عبدِ المطلب، وكنيته أبو عُتبة، وإنما سُمِّي «أبا لَهَبٍ» لإشراقِ وَجْهِه، وكان كثيرَ الأَذِيَّةِ لرسول الله - ﷺ - والبِغْضَةِ له، والازدراءِ به، والتنقُّصِ له ولدينه.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا إبراهيمُ بن أبي العباس، حدَّثنا عبد الرحمن بنُ أبي الزِّنادِ، عن أَبيه، قال:

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة ﴿تبَّت يدا أبي لهبٍ وتَبَّ﴾ ٨/٧٣٧، هذا وقد تقدم الحديث عند تفسير آية الشعراء ٢١٤، وسبأ ٤٦

أخبرني رجلٌ يُقالُ له: ربيعةُ بنُ عَبَّادٍ، من بني الديل، وكان جاهليًا فأسلم(١) ـ قال: رأيت النبيَّ ـ ﷺ ـ في الجاهليَّة في سوقِ ذي المَجازِ وهو يقول: يا أيُّها الناسُ، قولوا: لا إلهَ إلا الله، تفلحُوا. والناسُ مُجتمِعُون عليه، ووراءه رجلٌ وَضِيءُ الوجه أحولُ ذو غَدِيرَتَين، يقول: إنه صابئٌ كاذبٌ. يتبعه حيثُ ذهب، فسألت عنه فقالوا(٢): هذا عمُّه أبو لهب(٣).

ثم رَواه عن سُرَيجٍ، عن ابن أبي الزِّناد، عن أبيه... فذكره. قال أبو الزِّناد: قلتُ لربيعة: كنتَ يومئذٍ صغيراً؟ قال: لا، والله إني يومئذٍ لأعقِلُ أني أَزْفِرُ القِرْبَةَ(٤). تفرَّد به أحمدُ.

[(٥)* وقال محمد بن إسحاق: حدَّثني حُسَين بن عبد الله بن عُبَيد الله بن عباس قال: سمعتُ رَبيعة بن عَبَّاد الدِّيليَّ يقولُ: إني لَمعَ أبي، رَجُلٌ شابٌ أنظرُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يَتْبَعُ القبائلَ ـ ووراءه رَجُلٌ أحوَلُ وَضِيءٌ ذو جُمَّةٍ(٦) ـ يَقِفُ رسولُ الله ـ ﷺ ـ على القبيلة فيقولُ: يا بني فُلانٍ، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تَعبدُوا الله لا تُشرِكُوا به شيئاً، وأن تُصدِّقُوني وتَمنعُوني حتى أُنفِذَ عن الله ما بَعثني به. وإذا فَرَغ من مقالته قال الآخرُ من خَلفِه: يا بني فُلانٍ، هذا يريدُ منكم أن تَسلُخوا اللاتَ والعُزَّى، وحُلفاءَكم من الجنِّ من بني مالك بن أُقَيش، إلى ما جاء به من البِدْعَةِ والضَّلالةِ، فلا تَسمَعُوا له ولا تَتَّبِعُوه. فقلتُ لأبي: مَن هذا؟ قال: عَمُّه أبو لَهَب. رواه أحمدُ أيضاً، والطبراني بهذا اللفظ*(٥)].

فقولُه تعالى: ﴿تَبَّت يدا أبي لَهَبٍ﴾، أي: خسِرت وخابت، وضلَّ عملُه وسَعْيُه، ﴿وتَبَّ﴾، أي: وقد تَبَّ تحقَّقَ خَسارته وهَلاكه.

وقولُه: ﴿ما أغنى عنه مالُه وما كَسَب﴾، قال ابن عباس وغيرُه: ﴿وما كَسَب﴾، يعني: وَلَدَه. ورُوِي عن عائشةَ، ومجاهدٍ، وعطاءٍ، والحَسَن، وابنِ سيرينَ، مثلَه.

وذُكِر عن ابن مسعود أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ لما دَعا قومَه إلى الإيمان، قال أبو لَهَب: إن كان ما يقولُ ابنُ أخي حقًّا فإني أفتدِي نفسي يومَ القيامة من العذاب بمالي وولدي. فأنزل الله: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كَسَب﴾(٧).

وقولُه: ﴿سيصلى ناراً ذاتَ لَهَب﴾، أي: ذات شَرَرٍ ولَهيب وإحراقٍ شديدٍ، ﴿وامرأتُه حمالةَ الحطَب﴾، وكانت زوجتُه من ساداتِ نساءِ قريش، وهي أمُّ جَميلٍ، واسمها أَرْوى بنتُ حَرْب بن أُمَيَّة، وهي أختُ أبي سُفيانَ. وكانت عوناً لزوجها على كُفرِه وجُحُوده وعِناده، فلهذا تكونُ يومَ القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جَهنَّم. ولهذا قال: ﴿حمَّالةَ الحَطَب * في جيدها حَبْلٌ من مَسَدٍ﴾، يعني: تحمِلُ الحطبَ فتُلقِي على زَوْجِها، ليزدادَ على ما هو فيه، وهي مُهيَّأةٌ لذلك مُستعِدَّةٌ له.

﴿في جيدها حبلٌ من مسد﴾، قال مجاهدٌ وعُروةُ: من مَسَد النار. وعن مجاهدٍ، وعِكْرِمةَ، والحسنِ، وقَتادة، والثوريِّ، والسُّدِّي: ﴿حَمَّالةَ الحَطَبِ﴾. كانت تَمْشِي بالنَّميمة.

---

(١) قوله: «فأسلم»، غير ثابت في المسند.

(٢) لفظ المسند: وسألت عنه، فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ، وقالوا لي: هذا عمه أبو لهب.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٤١/٤. والرواية الأخرى في المسند ٣٤١/٤ ـ ٣٤٢.

(٤) يعني في المسند: أي أحملها.

(٥ ـ ٥) سقط هذا الأثر من بعض النسخ. وهو في سيرة ابن هشام ٤٢٣/١، ومسند الإمام أحمد ٤٩٢/٣، والمعجم الكبير للطبراني ٦٣/٥ وانظر مجمع الزوائد ٣٦/٦.

(٦) الجُمَّةُ من الإنسان: مجتمع شعر ناصيته، وما ترامى من شعر الرأس على المَنكِبَين.

(٧) رواه البَغَوِيُّ في تفسيره ٥٤٣/٤.

وقال العوفيُّ عن ابن عباس، وعَطِيَّةُ الجَدَلي، والضَّحَّاك، وابن زيد: كانت تَضَعُ الشوكَ في طريق رسول الله ﷺ. واختاره ابن جرير[1].

قال ابنُ جرير: وقيل: كانت تُعَيِّرُ النبي ﷺ بالفقر، وكانت تحتطبُ، فعُيِّرت بذلك. كذا حكاه، ولم يعزُه إلى أحدٍ، والصحيحُ الأوَّلُ، والله أعلم.

قال سعيدُ بن المُسَيَّب: كانت لها قلادةٌ فاخرةٌ، فقالت: لأُنفقَنَّها في عداوةِ مُحمَّدٍ، يعني فأعقَبَها الله بها حبلاً في جيدِها من مَسَدِ النار.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا وكيعٌ، عن سُليم مولى الشعبيِّ، عن الشعبيِّ قال: المسدُ اللِّيفُ[2].

وقال عُرْوةُ بن الزُّبير: المَسَدُ سلسلةٌ ذرعها سبعون ذراعاً. وعن الثوريِّ: هي قلادةٌ من نار، طولُها سبعون ذراعاً.

وقال الجوهريُّ: المَسَدُ الليفُ، والمَسَد أيضاً: حبلٌ من ليفٍ أو خُوصٍ، وقد يكونُ من جُلودِ الإبلِ أو أوبارِها، ومَسَدْتُ الحبلَ أَمْسُدُه مَسْداً: إذا أجَدْتَ فَتْلَه[3].

وقال مجاهدٌ: ﴿في جيدِها حبلٌ من مَسَدٍ﴾، أي: طوقٌ من حَديدٍ، ألا تَرَى أن العرب يُسمُّون البَكْرَةَ[4] مَسَداً؟

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدَّثنا أبي وأبوزُرعة قالا: حدَّثنا عبدُ الله بن الزُّبير الحُمَيدي، حدَّثنا سُفيان، حدَّثنا الوليد بن كثير، عن ابن تَدْرُس، عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّت يدا أبي لَهَبٍ﴾، أقبلت العوراءُ أمُّ جَميل بنتُ حَربٍ، ولها وَلْوَلَةٌ، وفي يدها فِهرٌ، وهي تقول:

مُذَمَّماً أَبَيْنَا * وَدِينَه قَلَيْنَا * وأَمْرَه عَصَيْنَا

ورسولُ الله ـ ﷺ ـ جالسٌ في المسجد ومَعَه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسولَ الله، قد أقبلَتْ وأنا أخافُ عليك أن تَرَاكَ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنها لن تَراني، وقرأ قراناً اعتصَم به، كما قال تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يُؤمنُون بالآخرة حجاباً مستُوراً﴾. فأقبلت حتى وَقَفت على أبي بكر ولم تَرَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقالت: يا أبا بكر، إني أُخبِرتُ أنَّ صاحِبَكَ هَجاني؟ قال: لا، ورَبِّ هذا البيتِ ما هَجَاكِ. فوَلَّت وهي تقولُ: قد عَلِمَت قُرَيشٌ أني ابنةُ سَيِّدها. قال: وقال الوليدُ في حديثه، أو غيره: فَعثرَت أمُّ جميل في مِرْطِها[5] وهي تطوفُ بالبيت، فقالت: تَعِسَ مُذَمَّمٌ. فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إني لَحَصانٌ فما أُكَلَّم، وثَقَافٌ[6] فما أُعلَّم، وكُلُّنا من بني العَمِّ، وقُرَيش بعدُ أعلم[7].

---

(١) وقع قولُه: «واختاره ابن جرير» في نسختين بعد القول السابق. «وكانت تمشي بالنميمة». وفي أخرى بعد قوله فيما يأتي: «ولم يعزه إلى أحد». وانظر تفسير الطبري ٣٠/٣٣٩.

(٢) لم نجد هذا الأثر في تفسير الطبري

(٣) الصحاح، رسم: مَسَد.

(٤) بكْرة البئر: ما يُستَقى عليها. والمرادُ مِحْوَرُ هذه البَكْرة، فهو الذي يُسمَّى مَسَداً إذا كان من حديد، فأما البكرة فكانت من خشب

(٥) المِرْطُ: كساءٌ من خزٍّ أو صوف أو كتان يؤتزر به وتتلفع به المرأة.

(٦) امرأة ثقافٌ: ذات فطنة.

(٧) تقدَّم الحديث من رواية أبي يعلى عند تفسير الآية ٤٥ من سورة الإسراء. وانظر سيرة ابن هشام ١/٣٣٥-٣٥٦

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد وأحمد بن إسحاق قالا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يدا أبي لهب﴾ جاءت امرأة أبي لهب، ورسول الله ـ ﷺ ـ جالسٌ، ومعه أبو بكر، فقال له أبو بكر: لو تنحَّيت لا تؤذيك بشيء. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنه سيُحال بيني وبينها. فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر، هجانا صاحبُك. فقال أبو بكر: لا، وربِّ هذه البَنِيَّة ما نطق بالشعر ولا يتفوَّه به. فقالت: إنك لَمُصدَّق، فلما ولَّت قال أبو بكر: ما رأتك؟ قال: لا، ما زال مَلَكٌ يسترني حتى ولَّت.

ثم قال البزار: لا نعلمه يُروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر، رضي الله عنه[1].

وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿في جيدها حبلٌ من مسد﴾، أي: في عنقها حبلٌ من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها، ثم يُرمى بها إلى أسفلها، ثم كذلك دائماً[2].

قال أبو الخطاب بن دِحْيَة في كتابه التنوير[3] ـ وقد روى ذلك ـ . وعُبِّر بالمسد عن حَبْلِ الدلو، كما قال أبو حنيفة الدِّينوريّ في كتاب «النبات»: كلُّ مَسَدٍ رِشاءٌ، وأنشد في ذلك.

وَبَكْرَةً ومِحْوَراً صِرَارَا وَمَسَداً مِنْ أَبَقٍ مُغَارا

قال: والأَبَقُ القِنَّبُ. وقال الآخر:

يَا مَسَدَ الخُوصِ تَعَوَّذْ مِنِّي إِنْ تَكُ لَدْناً لَيِّناً فَإِنِّي
مَا شِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَئِنِّ[4]

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزةٌ ظاهرة ودليلٌ واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب ● وامرأته حمالة الحطب ● في جيدها حبلٌ من مسد﴾، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يُقيَّض لهما أن يؤمنا، ولا واحدٌ منهما، لا ظاهراً ولا باطناً، لا سِرّاً ولا عَلَناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة.

آخِرُ تفسيرِ «تبَّت» ولله الحمدُ والمنَّة

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، تفسير سورة «تبت» ٣/ ٨٣ ـ ٨٣.
(٢) للسهيلي في الروض الأنف كلام نحو هذا، انظر ١/ ٢٢٢.
(٣) هو: التنوير في مولد السراج المنير، وأبو الخطاب هو عُمَر بن الحسن الأندلسي، تلمذ للسُّهَيْليّ، كان عالماً في فنون مختلفة، ودخل مصر، وكان شيخاً لدار الحديث الكاملية بالقاهرة، توفي في سنة ٦٣٣. وفيات الأعيان ٣/ ١٢٢.
(٤) الشَّمَطُ: اختلاف الشعر بلونين من سواد وبياض. والمُقْسَئِنُّ: الذي هو في آخر شبابه.

تفسيرُ

سُورَةُ الإخلاص

وهي مكيَّة

ذكرُ سبَبِ نُزُولها وفَضِيلَتِها

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سَعْدٍ[1] محمد بن مُيَسَّر الصاغاني، حدَّثنا أبو جعفر الرازي، حدَّثنا الربيعُ بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيِّ بن كعب: أن المشركين قالُوا للنبيِّ ـ ﷺ ـ: يا محمدُ، انسُبْ لنا ربَّك. فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحد * اللهُ الصمدُ * لم يَلِدْ ولم يُولَد * ولم يَكُن له كُفُواً أحد﴾[2].

وكذا رَواه التِّرمذيُّ، وابنُ جَرير، عن أحمد بن مَنيع ـ زاد ابنُ جَرير: ومحمودُ بن خِداش ـ عن أبي سَعْدٍ مُحمَّد بن مُيَسَّر، به ـ زاد ابنُ جرير والتِّرمذي ـ قال: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لم يَلِدْ ولم يُولد، لأنه ليس شيءٌ يُولَد إلا سيَمُوتُ، وليس شيءٌ يَمُوتُ إلا سيُورَثُ، وإنَّ الله ـ جلَّ جلالُه ـ لا يموتُ ولا يُورَثُ، ﴿ولم يَكُن له كُفُواً أحَد﴾ ولم يكن له شِبْهٌ ولا عِدْل، وليس كمثله شيء[2].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي سَعدٍ محمد بن مُيَسَّر، به. ثم رَوَاه التِّرمذيُّ عن عَبْدِ بن حُمَيد، عن عُبَيدالله بن موسى، عن أبي جعفر، عن الرَّبيع، عن أبي العالية. فذكره مُرسَلاً ولم يذكر «أخبرنا». ثم قال الترمذي: «وهذا أصح من حديث أبي سعد»[2].

حديثٌ آخَرُ في معناه، قال الحافظ أبو يَعْلَى الموصِليُّ:

حدَّثنا سُرَيج بن يُونُسَ، حدَّثنا إسماعيلُ بن مُجالد، عن مُجالدٍ، عن الشَّعبيِّ، عن جابر: أنَّ أعرابيًّا جاء إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: انسُبْ لنا ربَّكَ. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحد﴾، إلى آخِرِها[3]. إسنادُه مُقارِب.

---

(١) كذا في نسخة الأزهر، ومثله في المقتنى للذهبي ١/٢٦٢، والجرح لابن أبي حاتم ٨/١٠٥، والأنساب للسمعاني ٣/٥٤٢. وفيه وفي المقتنى الصَّغاني: نسبة إلى الصغانيان معرب الجغانيان. وفي نسختين: أبو سعيد، ومثله في المسند.

(٢) المسند ٥/١٣٣ ـ ١٣٤ وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الإخلاص ١٢/٢٥٩ ـ ٢٦٠، وتفسير الطبري ٣٠/٣٤٢، ٣٤٦، ٣٤٧.

(٣) مسند أبي يعلى ٢/٣٩٨، وانظر مجمع الزوائد ٧/١٤٦، وتفسير الطبري ٣٠/٣٤٣.

وقد رَوَاه ابنُ جَرِيرٍ، عن مُحمَّد بنِ عَوفٍ، عن سُرَيجٍ، فذكره. وقد أرسله غيرُ واحدٍ من السَّلَف

وَرَوى عُبَيد بن إسحاق العَطّار، عن قيس بن الربيع، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسْعُودٍ قال قالت قُرَيشٌ لرسول الله ـ ﷺ ـ. انسُب لنا ربَّك، فَنَزلت هذه السورة: ﴿قُل هو الله أحد﴾.

قال الطبراني: رَوَاه الفِرْيابي وغيره، عن قَيسٍ، عن أبي عاصم، عن أبي وائل، مُرسلاً. ثم روى الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطائفي، عن الوازع بن نافع، عن أبي سَلمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: لِكُلِّ شيءٍ نِسبَةٌ، ونسبةُ الله ﴿قُل هُو الله أحد﴾[1].

حديثٌ آخرُ في فَضْلِها، قال البخاريُّ:

حدَّثنا محمد، هو الذُّهليّ، حدَّثنا أحمدُ بن صالح، حدَّثنا ابنُ وَهْبٍ، أخبرنا عَمرو، عن ابن أبي هلالٍ: أن أبا الرِّجالِ مُحمَّد بن عبد الرحمن حدَّثه، عن أُمِّه عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن ـ وكانت في حِجْرِ عائشة زوج النبي ـ ﷺ ـ عن عائشةَ: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ بعث رَجُلاً على سَرِيَّةٍ، وكان يقرأ لأصحابه في صَلاتهم، فيختم بـ﴿قُل هُوَ الله أحد﴾، فلما رَجَعُوا ذكَرُوا ذلك للنبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: سَلُوه، لأيِّ شيءٍ يصنعُ ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفةُ الرحمنِ، وأنا أُحِبُّ أن أقرأ بها. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أخبروه أن الله تعالى يُحِبُّه»[2].

هكذا رواه في كتاب «التوحيد». ومنهم من يُسقِطُ ذكر «محمد الذُّهلي»: ويجعلُه من روايته عن أحمد بن صالح. وقد رواه مسلم والنسائيُّ أيضاً من حديث عبد الله بن وهب، عن عَمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، به[2].

حديث آخر، قال البُخاري في كتاب الصلاة:

وقال عُبَيد الله، عن ثَابت، عن أنس قال: كان رجلٌ من الأنصار يؤمُّهم في مسجد قُبَاء، فكان كُلَّما افتتح سورةً يقرأُ بها لهم في الصلاة مما يُقرأُ به، افتتح بـ﴿قُل هُو الله أحد﴾ حتى يَفرُغَ منها، ثم يقرأ سورةً أُخرى مَعَها، وكان يصنَعُ ذلك في كلِّ ركعةٍ. فَكلَّمه أصحابُه فقالوا: إنَّك تفتتح بهذه السورة ثم لا تَرَى أنها تُجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تَدَعها وتَقرَأ بأخرى. فقال: ما أنا تاركها، إن أحببتم أن أؤمَّكم بذلك فعلتُ، وإن كَرِهتم تَركتكم. وكانوا يَرونَ أنه من أفضلهم، وكَرِهُوا أن يؤمَّهم غيرُه. فلما أتاهم النبيُّ ـ ﷺ ـ أخبروه الخبَرَ فقال: يا فلان، ما يمنعُكَ أن تفعل ما يأمُرك به أصحابُك، وما حمَلك على لزوم هذه السورةِ في كلِّ ركعةٍ؟ قال: إني أحبُّها. قال. حُبُّك إياها أدخلَكَ الجنة[4].

هكذا رَوَاه البُخاريُّ تعليقاً مجزوماً به. وقد رَوَاه أبو عيسى الترمذيُّ في جامِعِه، عن البُخاريِّ، عن إسماعيل بن أبي أُوَيسٍ، عن عبد العزيز بن محمد الدَّراوَرْدِيِّ، عن عُبَيدِ الله بن عُمَر. فذكر بإسناده مثله سواءً، ثم قال الترمذي: «غريب من حديث عُبَيد الله، عن ثابت». قال. «وَرَوَى مُبَارك بن فَضالَةَ، عن ثابت، عن أنس أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، إني أحبُّ هذه السورة ﴿قُل هُو الله أحد﴾. قال: إن حُبَّكَ إياها أدخلَكَ الجنَّةَ»[3]

وهذا الذي عَلَّقه الترمذي قد رَوَاه الإمام أحمد في مسنده متصلاً، فقال:

---

(١) قال في مجمع الزوائد ١٤٦/٧ «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الوازع بن نافع، وهو متروك»

(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد ٣٤٧/١٣ ـ ٣٤٨، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٥٧/١، والنسائي، كتاب الافتتاح ١٧٠/٢ ـ ١٧١

(٣) فتح الباري، كتاب الأذان ٢٥٥/٢ وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ٢٦/١١ ـ ٢٧ ومسند الإمام أحمد ١٤١/٣

حدثنا أبو النضر، حدثنا مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إني أحبُّ هذه السورة ﴿قل هو الله أحد﴾. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «حبك إياها أدخلك الجنة».

حديثٌ في كونها تعدلُ ثلثَ القرآنِ، قال البخاريُّ:

حدثنا إسماعيلُ، حدثني مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه، عن أبي سعيدٍ أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾، يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فذكر ذلك له، وكأنَّ الرجل يتقالُّها[1]، فقال النبي ـ ﷺ ـ: والذي نفسي بيده إنها لتعدلُ ثلث القرآن. زاد إسماعيل بن جعفر، عن مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، عن أبي سعيدٍ قال: أخبرني أخي قتادةُ بنُ النعمان، عن النبي ﷺ[2].

وقد رواه البخاري أيضاً عن عبد الله بن يوسف، والقَعْنَبيِّ[2] ورواه أبو داود عن القَعْنَبي، والنسائي عن قُتَيبة، كلهم عن مالك، به. وحديثُ قتادةَ بن النعمان أسنده النسائيُّ من طريقين، عن إسماعيل بن جعفر، عن مالك، به[2].

حديثٌ آخرُ، قال البخاريُّ، حدثنا عُمَرُ بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمشُ، حدثنا إبراهيمُ والضحَّاك المَشْرِقيُّ، عن أبي سعيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ ثُلُثَ القرآن في ليلة؟ فشقَّ ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يُطيقُ ذلك يا رسول الله؟ فقال: اللهُ الواحدُ الصمَدُ ثلثُ القرآن[3].

تفرَّد بإخراجه البخاريُّ من حديث إبراهيمَ بن يزيدَ النخعيِّ والضحَّاك بن شُرَحبيل الهَمْدانيِّ المَشْرِقيِّ، كلاهما عن أبي سعيد. وقال[4] الفِرَبْريُّ: سمعت أبا جعفر محمدَ بن أبي حاتمٍ ورَّاقَ أبي عبد الله قال: قال أبو عبد الله البخاريُّ: عن إبراهيم مُرْسَلٌ، وعن الضحاك مُسْنَدٌ.

حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بن إسحق، حدثنا ابنُ لَهيعَة، عن الحارث بن يزيدَ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ قال: بات قتادةُ بن النعمان يقرأ الليلَ كلَّه بـ﴿قل هو الله أحد﴾، فذُكِر ذلك للنبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: والذي نفسي بيده لتعدلُ نصفَ القرآن، أو: ثُلُثَه[5].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعَة، حدثنا حُيَيُّ بنُ عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُليِّ، عن عبد الله بن عمرو: أنَّ أبا أيوبَ الأنصاريَّ كانَ في مجلسٍ وهو يقول: ألا يستطيعُ أحدُكم أن يقومَ بثُلُثِ القرآن كُلَّ ليلةٍ؟ فقالوا: وهل يستطيعُ ذلك أحدٌ؟ قال: فإن ﴿قل هو الله أحد﴾ ثلثُ القرآنِ. قال: فجاء النبيُّ ـ ﷺ ـ وهو يسمعُ أبا أيوبَ، فقال: صدَقَ أبو أيوب[6].

---

(١) أي: يراها قليلة.

(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٣٤٧، وروايته عن عبد الله بن يوسف في كتاب الفضائل، الفتح ٩/٥٨ ـ ٥٩، وعن القعنبي في كتاب الأيمان ١١/٥٢٥. ورواه أبو داود في كتاب الصلاة ٢/٧٢. وأخرجه النسائي في كتاب فضائل القرآن كما في تحفة الأشراف للمزي ٣/٣٧٥ ـ ٣٧٦. وانظر تحفة الأشراف أيضاً ٨/٢٧٩، فقد روى النسائي حديث قتادة في اليوم والليلة، وفضائل القرآن أيضاً.

(٣) فتح الباري، كتاب فضائل القرآن ٩/٥٩.

(٤) قول الفربري مُثْبَتٌ في صحيح البخاري. والفربري هو محمد بن يوسف بن مطر، راوي الصحيح عن البخاري. وأبو جعفر محمد بن أبي حاتم كان ينسخ للبخاري، وكان من الملازمين له والعارفين به، والمكثرين عنه. انظر فتح الباري ٩/٦٠ ـ ٦١.

(٥) مسند الإمام أحمد ٣/١٥.

(٦) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٣.

حديث آخر، قال أبو عيسى الترمذيُّ: حدَّثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا يزيد بن كيسان، أخبرني أبو حازم، عن أبي هُرَيْرَة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «احشُدوا[1] فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن. فحَشَد من حَشَد، ثم خرج نبيُّ الله ـ ﷺ ـ فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. ثم دخل فقال بعضنا لبعض، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فإني سأقرأ عليكم ثُلُثَ القرآن، إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ـ ﷺ ـ فقال: إني قلت: سأقرأ عليكم ثُلُث القرآن، ألا وإنها تعدِلُ ثُلُث القرآن»[2].

وهكذا رواه مسلم في صحيحه، عن محمد بن بشار[3]، به. وقال الترمذيُّ: «حسنٌ صحيحٌ غريب، واسم أبي حازمٍ سَلْمانُ»[2].

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهديٍّ، عن زائدة بن قُدامة، عن منصور، عن هلال بن يِساف، عن الرَّبيع بن خُثَيم، عن عمرو بن مَيْمُونٍ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن امرأةٍ من الأنصار، عن أبي أيّوبَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ ثُلُث القرآن في ليلةٍ؟ فإنه من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ﴾ في ليلة، فقد قرأ ليلتئذٍ ثُلُثَ القرآن»[4].

هذا حديث تُساعِيُّ الإسنادِ للإمام أحمدَ. ورواه الترمذي والنسائيُّ، كلاهما عن محمد بن بشّار بُندار ـ زاد الترمذيُّ: وقُتَيْبة ـ كلاهما عن عبد الرحمن بن مهديٍّ، به. فصار لهما عُشاريًّا. وفي رواية الترمذي: «عن امرأة أبي أيوب، عن أبي أيوب»، به. ثم قال: «وفي الباب عن أبي الدرداء، وأبي سعيد، وقتادة بن النعمان، وأبي هُرَيْرة، وأنس، وابن عُمَر، وأبي مسعود. وهذا حديث حَسَنٌ، ولا نعلم أحداً روى هذا الحديث أحسن من رواية «زائِدَة»، وتابعه على روايته إسرائيلُ، والفُضَيلُ بن عِياضٍ. وقد رَوَى شُعبةُ وغيرُ واحدٍ من الثقات هذا الحديثَ عن منصورٍ، واضطربوا فيه»[4].

حديث آخر، قال أحمدُ: حدثنا هُشَيم، عن حُصَين، عن هلال بن يساف، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيّ بن كعب ـ أو: رَجُلٍ من الأنصار ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ ـ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ بثلث القرآن»[5].

ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث هُشيم، عن حُصَين، عن ابن أبي ليلى، به. ولم يقع في روايته: هلال بن يِساف[5].

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا وَكيعٌ، عن سُفيانَ، عن أبي قيس، عن عمرو بن ميمونٍ، عن أبي مَسْعُودٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تعدلُ ثلث القرآن»[6].

وهكذا رواه ابنُ ماجه عن علي بن محمد الطنافِسيِّ، عن وَكيعٍ، به. ورواه النسائي في اليوم والليلة من طُرُقٍ أُخَر، عن عمرو بن ميمون، مرفوعاً وموقوفاً[6].

---

(١) أي: اجتمعوا واستحضروا الناس.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ٢٦/١١، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٥٧/١

(٣) كذا في النسخ! والحديث أخرجه مسلم عن محمد بن حاتم، ويعقوب بن إبراهيم جميعاً عن يحيى. وانظر تحفة الأشراف للمزي ٩٤/١٠

(٤) مسند أحمد ٤١٨/٥ ـ ٤١٩. وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ٢٣/١١ ـ ٢٤. وسنن النسائي، كتاب الافتتاح ١٧١/٢ ـ ١٧٢، وأخرجه في اليوم والليلة مختصراً كما في تحفة الأشراف ١٠٨/٣ ـ ١٠٩

(٥) مسند الإمام أحمد ١٤١/٥. ورواه النسائي بإسناده إلى هشيم من روايتين، في إحداهما هلال بن يساف. اليوم والليلة ٤٢٥

(٦) مسند الإمام أحمد ١٢٢/٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٤٥/٢، واليوم والليلة ٤٢٦ ـ ٤٢٧

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزٌ، حدثنا بُكَير بن أبي السَّمِيطِ، حدثنا قتادةُ، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن مَعْدان بن أبي طلحة، عن أبي الدَّرداءِ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ كلَّ يوم ثُلُثَ القرآن؟» قالوا: نعم يا رسول الله، نحن أضعفُ من ذلك وأعجزُ. قال: «فإن الله جزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء، فـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُلُثُ القرآن»[1].

ورواه مسلمٌ والنَّسائيُّ، من حديث قتادةَ، به[1].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أميةُ بنُ خالدٍ، حدثنا مُحمَّدُ بنُ عبدِ الله بن مُسلِمٍ ـ ابنُ أخي ابنِ شهاب ـ عن عَمِّه الزُّهريِّ، عن حُمَيدِ بن عبد الرحمن ـ هو ابنُ عوفٍ ـ عن أُمِّه ـ وهي أُمُّ كلثوم بنت عُقْبَةَ بن أبي مُعَيطٍ ـ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القرآن»[2].

وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة»، عن عَمرو بن علي، عن أُميَّةَ بن خالد، به. ثم رواه من طريق مالك، عن الزُّهريِّ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، قوله. ورواه النسائي أيضاً في «اليوم والليلة» من حديث مُحمَّد بن إسحاق، عن الحارث بن الفُضَيل الأنصاري، عن الزُّهريِّ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن: أن نَفَراً من أصحاب مُحمَّد ـ ﷺ ـ حدَّثوه عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القرآن لمن صَلَّى بها»[2].

حديثٌ آخر في كَوْنِ قراءتها تُوجِبُ الجنَّةَ، قال الإمام مالك بن أنس، عن عُبَيد الله بن عبد الرحمن، عن عُبيد بن حُنَين قال: سمعتُ أبا هُرَيْرَةَ يقول: أقبلتُ مع النبي ـ ﷺ ـ فسَمِعَ رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «وَجَبَتْ». قلتُ: وما وَجَبت؟ قال: «الجنة»[3].

ورواه الترمذي والنسائي، من حديث مالكٍ. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لا نَعرِفُه إلَّا من حديث مالكٍ[3].

وتقدَّم حديثُ: «حُبُّك إيَّاها أدخلَك الجنَّة».

حديثٌ في تَكْرارِ قراءتِها، قال الحافظُ أبو يَعْلَى المَوْصِليُّ:

حدَّثنا قَطَنُ بن نُسَيرٍ، حَدَّثنا عُبَيسٌ[4] بن ميمون القُرَشِيُّ، حَدَّثنا يزيدُ الرَّقاشِيُّ، عن أنسٍ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «أمَا يستطيعُ أحدُكم أن يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ في ليلةٍ، فإنها تَعْدِلُ ثلث القرآن»[5]؟.

هذا إسنادٌ ضعيفٌ، وأجودُ منه حديثٌ آخر، قال عبد الله ابن الإمام أحمد:

حدَّثنا محمد بن أبي بكر المُقَدَّمي، حدَّثنا الضحَّاك بن مَخْلدٍ، حدَّثنا ابن أبي ذئب، عن أَسِيدِ بن أبي أَسِيدٍ، عن مُعاذ بن عبد الله بن خُبَيب، عن أبيه قال: أصابنا طَشٌّ[6] وظُلْمَةٌ، فانتظرنا رسولَ الله ـ ﷺ ـ يُصَلِّي

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦/٤٤٧، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٥٦، وأخرجه النسائي في اليوم والليلة ٤٢٩ ـ ٤٣٠
(٢) مسند الإمام أحمد ٦/٤٠٣ ـ ٤٠٤، واليوم والليلة ٤٢٧ ـ ٤٢٨
(٣) الموطأ، كتاب القرآن ٢/٢٠٨، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/٢٤ ـ ٢٥، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٧١
(٤) في بعض النسخ: عيسى. وهو تحريف
(٥) مسند أبي يعلى ٤/١٥١. وانظر مجمع الزوائد ٥/٢٣٤، ٧/١٤٦
(٦) الطَّشّ: المطر الضعيف القليل.

لنا، فخرج فأخذ بيدي، فقال: ﴿قُل﴾. فسكتُّ، قال: ﴿قُل﴾. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والمُعَوِّذتين حين تُمسي وحين تُصبح ثلاثاً، تَكْفِك كُلَّ يوم مرَّتين»[١].

ورواه أبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ، من حديث ابن أبي ذئب، به. وقال الترمذيُّ: «حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه»[١]. وقد رواه النسائي من طريق أُخرى، عن مُعاذ بن عبد الله بن خُبَيب، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، فذكره[١].

حديث آخر في ذلك، قال الإمام أحمد:

حدَّثنا إسحاق بن عيسى، حدَّثني ليثُ بنُ سعد، حدَّثني الخليل بن مُرَّة، عن الأزهر بن عبد الله، عن تميم الداريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من قال «لا إلَه إلا الله» واحداً أحداً صَمداً، لم يتخذ صاحبةً ولا وَلَداً، ولم يكن له كفواً أحد ـ عَشْرَ مرَّاتٍ ـ كُتِب له أربعونَ ألفَ ألفِ حسنة»[٢].

تفرَّد به أحمد، والخليل بن مُرَّة ضعَّفه البخاري وغيره بمرَّة[٢].

حديثٌ آخر، قال أحمدُ أيضاً: حدَّثنا حسن بن موسى، حدَّثنا ابن لَهيعَة، حدَّثنا زَبَّان بن فائد، عن سَهل بن معاذ بن أنس الجُهَنِي، عن أبيه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختِمَها ـ عشرَ مرَّاتٍ ـ بَنَى الله له قصراً في الجنَّة». فقال عُمَر: إذن نستكثر يا رسولَ الله. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الله أكثر وأطيب». تفرَّد به أحمد[٣].

ورواه أبو محمد الدارميّ في مسنده فقال: حدَّثنا عبدُ الله بن يزيد، حدَّثنا حَيْوَة، حدَّث أبو عَقيل زُهرةُ بن مَعْبَد، قال الدارميُّ: ـ وكان من الأبدال ـ أنه سمع سعيد بن المُسَيَّب يقول: إنَّ نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ عَشْرَ مَرَّاتٍ ـ بَنَى الله له قصراً في الجنة، ومَن قرأها عشرين مرَّةً بنى الله له قصرين في الجنة، ومن قرأها ثلاثين مرَّة بنى الله له ثلاثةَ قُصُور في الجنة». فقال عمر بن الخطاب: إذنْ لتَكثُر قصورنا؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الله أوسع من ذلك»[٤] وهذا مُرسَلٌ جيد.

حديث آخرُ، قال الحافظُ أبو يَعْلَى: حدَّثنا نصرُ بن علي، حدَّثني نوحُ بن قيس، أخبرني مُحمَّد العطَّار، أخبرتني أم كَثِير الأنصارية، عن أَنَس بن مالك، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ خمسينَ مَرَّةً غُفِرت له ذنوبُ خمسينَ سنةً». إسنادُه ضعيفٌ.

حديث آخر، قال أبو يَعْلَى: حدَّثنا أبو الربيع، حَدَّثنا حاتم بن ميمون، حدَّثنا ثابتٌ، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ في يوم ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ مائتي مَرَّةٍ كتب الله له ألفاً وخمسمائةِ حَسَنَةٍ، إلا أن يكون عليه دين»[٥].

إسنادُه ضعيف، حاتمُ بنُ ميمون ضَعَّفه البخاريُّ وغيره. ورواه الترمذي، عن محمد بن مرزوق البصري،

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٣١٢، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٢١ ـ ٣٢٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٣/٧٩، والنسائي، كتاب الاستعاذة ٨/٢٥٠.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/١٠٣، وانظر تهذيب الكمال ٨/٣٤٤.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٤٣٧.

(٤) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن ٢/٣٣٠

(٥) مسند أبي يعلى ٣/٣٥٨

عن حاتم بن ميمون، به. ولفظه: «من قرأ كل يوم مائتي مرة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحد﴾ مُحي عنه ذنوب خمسين سنة، إلَّا أن يكون عليه دين»(١).

قال الترمذيُّ: وبهذا الإسنادِ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحد﴾ مائة مرَّةٍ، فإذا كان يومُ القيامة يقولُ له الربُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ: يا عبدي، ادخل على يمينك الجنَّة».

ثم قال: «غريبٌ من حديث ثابتٍ، وقد رُوِي من غير هذا الوجه، عنه»(١).

وقال أبو بكر البزَّارُ: حدَّثنا سهل بن بحر، حدَّثنا حَبَّان بن أغلب، حدَّثنا أبي، حدَّثنا ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾ ـ مائتي مرَّةٍ ـ حطَّ الله عنه ذنوب مائتي سنة».

ثم قال: «لا نعلم رَوَاه عن ثابتٍ إلا الحسنُ بن أبي جعفر، والأغلب بن تميم، وهما متقاربان في سُوءِ الحِفْظِ».

حديثٌ آخَرُ في الدُّعاء بما تَضَمَّنته من الأسماء، قال النسائيُّ عند تفسيرها:

حدَّثنا عبدُ الرحمن بن خالد، حدَّثنا زيدُ بن الحباب، حدَّثني مالك بن مِغْوَل، حدَّثنا عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه: أنه دَخَل مع رسول الله ـ ﷺ ـ المسجد، فإذا رجلٌ يصلي، يدعو يقول: اللهُمَّ، إني أسألك بأني أشهدُ أن لا إلٰه إلا أنت، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كُفُواً أحدٌ. قال: «والذي نفسي بيَدِه لقد سأله باسمه الأعظمِ الذي إذا سُئِل به أعْطَى، وإذا دُعِي به أجاب»(٢).

وقد أخرجه بقيةُ أصحاب السُّنَن من طُرُق، عن مالك بن مِغْوَلٍ، عن عبد الله بن بُرَيْدَة، عن أبيه، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ غريبٌ»(٢).

حديث آخر في قراءتها عشر مرَّات بعد المكتوبة، قال الحافظ أبو يَعْلَى:

حدَّثنا عبد الأعلى، حدَّثنا بشر بن منصور، عن عُمَر بن نَبْهان(٣)، عن أبي شدَّاد، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «ثلاثٌ من جاء بهنَّ مع الإيمان دَخل من أيِّ أبواب الجنَّة شاء، وزُوِّجَ من الحُور العين حيثُ شاء. من عفا عن قاتله، وأدَّى ديناً خفياً، وقرأ في دُبُر كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ عَشْرَ مرَّاتٍ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. قال: فقال أبو بكر: أو إحداهنَّ يا رسول الله؟ قال: «أو إحداهنَّ»(٤).

حديثٌ في قراءتها عندَ دُخول المنزلِ، قال الحافظُ أبو القاسم الطَّبَراني:

حدَّثنا محمدُ بن عبد الله بن بكر السرَّاج العَسْكريُّ، حدَّثنا محمد بن الفَرَج، حدَّثنا محمد بن الزِّبرقان، عن مَرْوان بن سالم، عن أبي زُرْعة بن عَمرو بن جَرير، عن جَرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾ حين يدخلُ منزله نفتِ الفقرَ عن أهل ذلك المنزل والجيرانِ». إسناده ضعيف(٥).

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/٢٥.
(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٢/٩٠، وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٧٩، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٣/٢٠، ابن ماجه كتاب الدعاء ٢/١٢٦٧ ـ ١٢٦٨.
(٣) في النسخ: شيبان. وهو تحريف.
(٤) مسند أبي يعلى ٢/٣٢٣ ـ ٣٢٤. وانظر مجمع الزوائد ٩/٣٠١.
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/٣٤٠.

حديثٌ في الإكثارِ من قراءتها في سائرِ الأحوالِ، قال الحافظُ أبو يَعْلَى:

حدَّثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبي، حدَّثنا يزيدُ بن هارون، عن العلاء أبي[1] محمد الثقفيّ قال: سَمِعتُ أنسَ بن مالك يقولُ: كُنّا مَعَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ بتَبوكَ، فَطَلعتِ الشمسُ بضياءٍ وشُعاعٍ ونُورٍ لم نَرَها طَلَعَت فيما مَضَى بمثله، فأتى جبريلُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: «يا جبريلُ، ما لي أرى الشمسَ طَلَعتْ اليومَ بضياءٍ ونُورٍ وشُعاعٍ لم أرها طلعت فيما مضى؟». قال: إن ذلك [أنَّ] مُعاويةَ بن مُعاوية اللَّيْثيَّ مات بالمدينة اليوم، فبعثَ الله إليه سبعينَ ألفَ ملكٍ يُصلُّون عليه. قال: «وفيم ذلك؟». قال: كان يُكثِرُ قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ في الليلِ والنهارِ، وفي مَمْشاه وقيامه وقُعوده، فهل لك يا رسولَ الله أن أَقبِضَ لك الأرضَ فتُصلِّيَ عليه؟ قال: «نعم». فَصَلَّى عليه[2].

وكذا رواه الحافظ أبو بكرٍ البيهقي[3] في دلائل النبوة، من طريق يزيد بن هارون، عن العلاء أبي[1] محمد، وهو مُتَّهمٌ بالوضع، فالله أعلم.

طريقٌ أخرى، قال أبو يَعْلَى: حَدَّثنا محمد بن إبراهيم الشَّامي أبو عبد الله، حدَّثنا عُثمان بن الهيْثم ـ مُؤذِّن مسجد الجامع بالبصرة عَبْدِيٌّ ـ عن محمود أبي عبد الله، عن عطاء بن أبي ميمُونة، عن أنس قال: نزلَ جبريلُ على النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: ماتَ معاويةُ بن معاوية الليثيُّ، فتُحِبُّ أن تُصلِّي عليه؟ قال: «نعم». فضرب بجناحه الأرضَ، فلم تَبْقَ شجرةٌ ولا أَكَمَةٌ إلا تَضَعْضَعَتْ، فَرُفع سريرُه فنظرَ إليه، فكَبَّر عليه وخلْفَه صفَّانِ من الملائكة، في كُلِّ صَفٍّ سبعُونَ ألفَ مَلَكٍ، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «يا جبريلُ، بِمَ نال هذه المنزلةَ من الله تعالى؟». قال: بحبِّه ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وقراءته إيَّاها ذاهباً وجائياً، وقائماً وقاعداً، وعلى كلِّ حالٍ[3].

ورواه البيهقي، من رواية عثمان بن الهيثم المؤذن، عن محبوب بن هلال، عن عطاءِ بن أبي ميمونة، عن أنسٍ . . . فذكره[3]. وهذا هو الصوابُ، ومحبوبُ بن هلال قال أبو حاتم الرازيُّ: «ليس بالمشهور»[3]. وقد رُوِي هذا من طرقٍ أُخَرَ، تركناها اختصاراً، وكلها ضعيفةٌ.

حديثٌ آخرُ في فَضْلِها مع المُعوِّذتينِ، قال الإمامُ أحمدُ:

حدَّثنا أبو المُغيرةِ، حدَّثنا مُعاذ بن رِفاعةَ، حدَّثني علي بن يزيدَ، عن القاسم، عن أبي أُمامَةَ، عن عقبةَ بن عامرٍ قال: لَقِيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فابتدأتُه فأخذتُ بيده، فقلتُ: يا رسولَ الله، بِمَ نجاة المُؤمن؟ قال: يا عُقْبَةُ، احرُسْ لسانَك، ولْيَسَعْكَ بَيتُكَ، وابْكِ على خطيئتك. قال: ثُمَّ لَقِيَني رسولُ الله ـ ﷺ ـ فابتدأني فأخذَ بيدي، فقال: يا عقبةَ بنَ عامرٍ، ألا أُعلِّمك خيرَ ثلاثِ سُوَرٍ أُنزلَت في التوراة، والإنجيل، والزَّبُور، والقرآنِ العظيم؟ قال: قلت: بلى، جعلني الله فِداكَ. قال: فأقرأني ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ثم قال: يا عُقبةُ، لا تَنسَهُنَّ ولا تَبِتْ ليلةً حتى تقرأَهُنَّ. قال: فما نَسِيتُهنَّ منذ قال: لا تَنسَهُنَّ، وما بِتُّ ليلةً قطُّ حتى أقرأَهُنَّ. قال عقبةُ: ثم لَقِيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فابتدأتُه، فأخذتُ بيده فقلتُ: يا رسولَ الله، أَخبِرْني بفواضِلِ الأعمالِ. فقال: يا عقبةُ، صِلْ مَن قَطَعكَ، وأَعْطِ من حَرَمكَ، وأعرِضْ عمَّن ظَلَمكَ[4].

---

(١) في النسخ: العلاء بن محمد. وانظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣٥٥/٦، وأسد الغابة ٢١٤/٥ ـ ٢١٥.
(٢) مسند أبي يعلى ٢١٠/٤. وانظر مجمع الزوائد ٤٢١/٢. ودلائل النبوة للبيهقي ٢٤٥/٥.
(٣) مسند أبي يعلى ٢١٠/٤ ـ ٢١١، ودلائل النبوة للبيهقي ٢٤٦/٥، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣٨٩/٨.
(٤) مسند الإمام أحمد ١٤٨/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٢٤٧/٩.

رَوَى الترمذي بعضَه في «الزُّهد»، من حديث عُبَيد الله بن زَحْرٍ، عن عليِّ بن يزيد وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ». وقد رواه أحمد من طريق آخر:

حدَّثنا حُسَين بن محمد، حدَّثنا ابن عَيَّاش، عن أسِيدِ بن عبد الرحمن الخَثْعَميِّ، عن فَرْوَة بن مُجاهِد اللَّخْميِّ، عن عُقْبة بن عامر، عن النبيِّ ﷺ.. فذكر مثله سواءً. تفرَّد به أحمد[1].

حديثٌ آخرُ في الاستشفاء بهنَّ، قال البُخاريُّ:

حدَّثنا قُتَيْبَةُ، حدَّثنا المُفَضَّلُ، عن عُقَيل، عن ابن شهاب، عن عُرْوَةَ، عن عائشةَ أن النبيَّ - ﷺ - كان إذا أوَى إلى فراشِه كُلَّ ليلةٍ جَمَع كَفَّيه، ثم نَفَثَ فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أعوذُ بربِّ الفلق﴾، و﴿قُلْ أعوذُ بربِّ الناس﴾. ثم يَمْسَحُ بهما ما استطاعَ من جَسَدِه، يبدأُ بهما على رأسِه ووَجْهِه، وما أقبلَ من جَسَدِه، يفعل ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ[2].

وهكذا رَوَاه أهلُ السُّنَن، من حديث عُقَيلٍ، به[3].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

قد تَقَدَّم ذكرُ سَبَبِ نُزولِها. وقال عكرمةُ: لما قالت اليهود: نحنُ نعبُد عُزيرَ ابنَ الله. وقالت النصارى: نحن نعبُد المسيحَ ابنَ الله. وقالت المجوسُ: نحن نعبُد الشمسَ والقَمَر. وقالت المشركون: نحن نعبُد الأوثانَ ـ أنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾.

يعني: هو الواحدُ الأحدُ، الذي لا نظيرَ له ولا وَزيرَ، ولا نَديدَ ولا شَبيهَ ولا عَديلَ، ولا يُطْلَقُ هذا اللفظ «أَحَد» في الإثباتِ إلَّا على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنه الكاملُ في جميع صفاتِه وأفعالِه.

وقولُه: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾، قال عِكْرِمَةُ، عن ابن عباس: يعني الذي يَصْمُدُ الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم.

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو السيِّدُ الذي قد كَمَل في سُؤْدَدِه، والشريفُ الذي قد كَمَل في شَرَفِه، والعظيمُ الذي قد كَمَل في عظمته، والحليمُ الذي قد كمل في حلمه، والعَليمُ الذي قد كَمَل في عِلْمِه، والحكيمُ الذي قد كَمَل في حِكْمَتِه. وهو الذي قد كَمَل في أنواع الشرفِ والسُّؤْدَدِ، وهو الله سبحانه، هذه صِفَتُه لا تَنبغي إلا له. ليس له كُفْءٌ، وليس كَمِثْلِه شيءٌ، سبحانَ الله الواحد القهَّار[3].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) فتح الباري، كتاب فضائل القرآن ٩/٦٢، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣١٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٢/٢٨٩ ـ ٢٩٠، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٢/٦٠ ـ ٦١، وابن ماجه في كتاب الدعاء ٢/١٢٧٥.

(٣) أخرجه الطبري بنحوه ٣٠/٣٤٦.

وقال الأعمشُ، عن شقيقٍ، عن أبي وائل: ﴿الصمَدُ﴾: السيد الذي قد انتهى سُؤْدَده، ورواه عاصمٌ، عن أبي وائل، عن ابن مَسْعُودٍ، مثله.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿الصمَدُ﴾: السيِّد. وقال الحسنُ، وقتادةُ: هو الباقي بعد خَلْقه. وقال الحسن أيضاً: ﴿الصمدُ﴾: الحي القيُّوم الذي لا زَوَالَ له. وقال عكرمةُ. ﴿الصمَدُ﴾: الذي لم يخرج منه شيءٌ ولا يَطْعَمُ.

وقال الربيعُ بن أَنَسٍ: هو الذي لم يَلِد ولم يُولَد. كأنه جَعَل ما بعدَه تفسيراً له، وهو قوله: ﴿لم يلد ولم يُولَدْ﴾. وهو تفسيرٌ جيِّدٌ. وقد تقدَّمَ الحديثُ من روايةِ ابن جَرِيرٍ، عن أُبَيِّ بن كعبٍ في ذلك، وهو صَرِيحٌ فيه.

وقال ابنُ مسعود، وابنُ عباس، وسعيدُ بن المسيِّب، ومجاهدٌ، وعبد الله بن بُرَيْدَة، وعكْرِمةُ أيضاً، وسعيد بن جُبَير، وعطاءُ بن أبي رَباح، وعطيةُ العَوفيُّ، والضحَّاكُ، والسُّدِّي: ﴿الصمد﴾: الذي لا جَوْفَ له.

قال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿الصمدُ﴾: المُصْمَتُ الذي لا جَوْفَ له. وقال الشَّعبيُّ: هو الذي لا يأكُل الطعامَ، ولا يشرَبُ الشرابَ. وقال عبد الله بن بُرَيْدَة أيضاً: ﴿الصمد﴾ نورٌ يتلألأ. رَوَى ذلك كلَّه وحَكاه ابنُ أبي حاتم، والبيهقيُّ[1]، والطَّبَرانِيُّ. وكذا أبو جعفرُ بن جَريرٍ ساقَ أكثرَ ذلك بأسانيده، وقال:

حدَّثني العباس بن أبي طالب، حدَّثنا محمد بن عُمَر بن رُومِيٍّ، عن عُبَيد الله بن سعيد قائد الأعمش، حدَّثني صالح بن حَيَّان، عن عبد الله بن بُرَيْدَة، عن أبيه قال - لا أعلم إلا قد رَفَعه - قال: ﴿الصمدُ﴾ الذي لا جَوْفَ له[2].

وهذا غريب جدًّا، والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بُرَيدَةَ.

وقد قال الحافظ أبو القسم الطبراني في كتاب السُّنَّة له، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير ﴿الصمد﴾: وكلُّ هذه صَحيحةٌ، وهي صفاتُ ربِّنا عزَّ وجلَّ، هو الذي يُصمَدُ إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سُؤْدُده، وهو الصمد الذي لا جَوْفَ له، ولا يأكلُ ولا يشربُ، وهو الباقي بعد خَلْقِهِ. وقال البيهقيُّ نحوَ ذلك أيضاً.

وقولُه: ﴿لم يَلِد ولم يُولَد * ولم يكُن له كُفُواً أحد﴾، أي: ليس له وَلَدٌ ولا والدٌ ولا صاحبةٌ. قال مجاهد: ﴿ولم يكُن له كفواً أحد﴾، قال: يعني لا صاحبةَ له.

وهذا كما قال تعالى: ﴿بديعُ السمواتِ والأرضِ أنَّى يكونُ له وَلَدٌ ولم تكُن له صاحبةٌ وخَلق كلَّ شيءٍ﴾، أي: هو مالكُ كلِّ شيءٍ وخالقُه، فكيف يكونُ له من خَلْقه نظيرٌ يُساميه، أو قريبٌ يُدانيه. تعالى وتقدَّس وتنزَّه، قال الله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً * لقد جئتُم شيئاً إدًّا * تكادُ السمواتُ يَتَفطَّرن منه وتنشقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هدًّا * أن دعَوا للرحمن وَلَداً * وما ينبغي للرحمن أن يَتَّخِذَ وَلَداً * إن كلُّ مَن في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهُم وعدَّهم عدًّا * وكُلُّهم آتيه يومَ القيامة فرداً﴾. وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمنُ ولَداً سبحانَه بل عبادٌ مُكرَمُون * لا يَسبِقُونه بالقولِ وهم بأمره يعملون﴾. وقال تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنةُ إنهم لمُحضَرون * سُبحانَ الله عمَّا يَصفُون﴾. وفي الصحيح،

(١) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ١/١١٠ - ١١١.
(٢) تفسير الطبري ٣٠/٣٤٥

صَحِيح البخاري «ولا أحد أصبرُ على أذى سَمِعه من الله، إنهم يجعَلُون له ولداً، وهو يرزقُهم ويُعافِيهم»(١).

وقال البُخارِيُّ: حَدَّثنا أبو اليمان، حدَّثنا شُعَيب، حدَّثنا أبو الزِّناد، عن الأعرَج، عن أبي هُرَيْرَة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: كَذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكُن له ذلك، وشتَمني ولم يكُن له ذلك، فأما تكْذِيبُه إياي فقولُه: لن يُعِيدني كما بَدَأني. وليسَ أوَّلُ الخَلْقِ بأهونَ عليَّ من إعادَتِه. وأما شَتْمُه إيَّايَ فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»(٢).

وَرَواه أيضاً من حديث عبد الرزّاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّه، عن أبي هُرَيْرَة، مرفوعاً بمثلِه. تَفَرَّد بهما من هذين الوجهَين(٢).

آخر تفسير «سورة الإخلاص»

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١٢٦ من سورة البقرة، ٤٧ من سورة النحل، ٣٧، ٩١ من سورة مريم.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٧ من سورة الروم

تفسير سورتي المُعَوِّذَتَيْنِ

سُورَةُ الفَلَق

وهما مَدَنِيَّتَانِ

قال الإمامُ أحمد: حَدَّثنا عَفَّانُ، حدَّثنا حَمَّادُ بن سَلَمة، أخبرنا عاصم بن بَهْدَلَة، عن زِرِّ بن حُبَيْش قال: قلتُ لأُبَيِّ بن كعب: إنَّ ابنَ مسعودٍ لا يكتبُ المُعَوِّذَتَين في مُصحَفِهِ؟ فقال: أشهدُ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أخبرني أن جبريل ـ عليه السلام ـ قال له: ﴿قُلْ أعوذُ بربِّ الفلق﴾ فقلتُها، قال: ﴿قُلْ أعوذُ بربِّ الناس﴾، فقلتُها. فنحن نقولُ ما قال النبيُّ ﷺ(١).

ورواه أبو بكر الحُمَيديُّ في مُسْنَدِه، عن سفيان بن عُيينَة، حدَّثنا عَبْدَةُ بن أبي لُبَابة وعاصم بن بَهْدَلة، أنهما سَمِعا زِرَّ بن حُبَيْش قال: سألتُ أُبَيَّ بن كعبٍ عن المُعَوِّذَتَين، فقلت: يا أبا المُنذِر، إنَّ أخاكَ ابنَ مسعودٍ يَحُكُّهما من المُصحَفِ. فقال: إنِّي سألتُ رسولَ الله ﷺ، فقال: «قيل لي ﴿قُلْ﴾ فقلتُ». فنحن نقول كما قال رسولُ الله ﷺ.

وقال أحمدُ: حَدَّثنا وَكِيعٌ، حدَّثنا سفيانُ، عن عاصمٍ، عن زِرٍّ قال: سألتُ ابنَ مسعودٍ عن المُعَوِّذَتين فقال: سألتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ عنهما فقال: «قيل لي، فقلتُ لكُم. فقولُوا». قال أُبَيٌّ: فقال لنا النبي ـ ﷺ ـ فنحنُ نقولُ(١).

وقال البخاري: حَدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا سفيان، حدَّثنا عَبدَةُ بن أبي لُبَابة، عن زِرِّ بن حُبَيْش ـ وحَدَّثنا عاصم عن زِرٍّ ـ قال: سألتُ أُبَيَّ بن كعبٍ فقلتُ: أبا المُنذِرِ، إنَّ أخاكَ ابنَ مسعودٍ يقولُ كذا وكذا فقال: إنِّي سألتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: «قيل لي، فقلتُ». فنحن نقولُ كما قال رسول الله ﷺ(٢).

ورواه البخاري أيضاً والنسائي، عن قُتَيبة، عن سفيان بن عُيينة، عن عَبْدَةَ وعاصم بن أبي النَّجُودِ، عن زِرِّ بن حُبَيْش، عن أبي بن كعب، به(٢).

(١) مسند الإمام أحمد ١٢٩/٥.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة ﴿قل أعوذ بربِّ الفلق﴾، وسورة ﴿قل أعوذ بربِّ الناس﴾، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٥/١.

وقال الحافظُ أبو يَعْلَى: حدَّثنا الأزرَقُ بن عليٍ، حدَّثنا حَسَّان بن إبراهيم، حدَّثنا الصَّلْت بن بَهْرَام، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَةَ قال: كان عبد الله يَحُكُّ المُعَوِّذَتين من المُصحفِ، ويقولُ: إنما أُمِرَ رسولُ الله - ﷺ - أن يَتَعوَّذ بهما. ولم يكن عبدُ الله يقرأ بهما.

ورواه عبد الله بن أحمد من حديث الأعمش، عن أبي إسحق، عن عبد الرحمن بن يزيدَ قال: كان عبد الله يحُكُّ المُعَوِّذَتين من مَصاحِفِه، ويقولُ: إنهما ليستا من كتاب الله. قال الأعمشُ: وحدَّثنا عاصمٌ، عن زِرِّ بن حُبَيش، عن أُبَيِّ بن كعبٍ قال: سألنا عنهما رسولَ الله - ﷺ - قال: «قيل لي، فقلتُ»[(١)].

وهذا مشهورٌ عند كثير من القرَّاء والفقهاء: أن ابنَ مسعودٍ كان لا يكتُب المُعَوِّذتين في مُصحفِهِ، فلعلَّه لم يَسْمَعهما من النبيِّ ﷺ، ولم يتواترْ عنده، ثم لعلَّه قد رَجَع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإنَّ الصحابة - رضي الله عنهم - كَتَبُوهما في المصاحِفِ الأئمَّةِ، ونَفَّذُوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمدُ والمنَّة.

وقد قال مُسلِمٌ في صَحِيحِه: حدَّثنا قُتَيبةُ، حدَّثنا جريرٌ، عن بَيَانٍ، عن قيس بن أبي حَازِم، عن عُقبةَ بن عامرٍ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «ألم تَرَ آياتٍ أُنزلت هذه الليلةَ لم يُرَ مِثْلُهنَّ قطُّ: ﴿قُل أعوذُ بربِّ الفلق﴾، و ﴿قُل أعوذُ بربِّ الناس﴾»[(٢)].

ورواه أحمدُ، ومسلمٌ أيضاً، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ، من حديث إسماعيلَ بن أبي خالدٍ، عن قيس بن أبي حازمٍ، عن عُقْبَةَ، به. وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح»[(٢)].

طريقٌ أُخرَى، قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا الوليدُ بن مسلم، حدَّثنا ابنُ جابرٍ، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن عُقْبَةَ بن عامرٍ قال: بينا أنا أقودُ برسولِ الله - ﷺ - في نَقْبٍ[(٣)] من تلك النِّقاب، إذ قال لي: يا عقبةُ، ألا تَرْكبُ؟ قال: «[(٤) - فأجْلَلْتُ رسولَ الله - ﷺ - أن أركَبَ مَرْكَبَه. ثم قال: يا عُقَيبُ، ألا تَرْكَبُ؟ قال - (٤)]: فأشفقتُ أن تكونَ معصيةً، قال: فنزل رسولُ الله - ﷺ - وركِبتُ هُنَيهَةً، ثم ركب، ثم قال: يا عُقَيبُ، ألا أُعلِّمُكَ سُورَتَين من خير سُورَتَين قرأ بهما الناسُ؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأني: ﴿قُل أعوذُ بربِّ الفَلَق﴾، و﴿قُل أعوذُ بربِّ الناس﴾. ثم أُقيمت الصلاةُ، فتقدَّم رسول الله - ﷺ - فقرأ بهما، ثم مَرَّ بي فقال: كيفَ رأيتَ يا عُقَيبُ، اقرأ بهما كُلَّما نِمْتَ وكُلَّما قُمْتَ»[(٥)].

ورواه النَّسائيُّ من حديث الوليدِ بن مُسلِم وعبد الله بن المبارك، كلاهما عن ابن جابرٍ، به. ورواه أبو داود والنَّسائي أيضاً، من حديث ابن وَهْبٍ، عن [معاوية][(٦)] بن صالحٍ، عن العَلاء بن الحارثِ، عن القاسِمِ بن عبد الرحمن، عن عُقْبَةَ، به[(٥)].

طريقٌ أُخرى، قال أحمدُ: حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا سعيدُ بن أبي أيُّوب، حدَّثني يزيدُ بن عبد

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/١٢٩ - ١٣٠

(٢) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٥٨، ومسند أحمد ٤/١٤٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المعوِّذتين ١٢/٢٦١ - ٢٦٢ والنسائي، كتاب الاستعاذة ٨/٢٥٤

(٣) النَّقب والنُّقب: الطريق. وقيل: الطريق الضيِّق في الجبل

(٤ - ٤) من المسند

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/١٤٤، وسنن النسائي، كتاب الاستعاذة ٨/٢٥٢ - ٢٥٣، وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٧٣

(٦) في نسخة: معن بن صالح. وفي أخرى: ميمون بن صالح. والمثبت عن السنن. وانظر تحفة الأشراف ٧/٣١٤

العزيز الرُّعينيُّ وأبو مَرْحُوم، عن يَزيد بن محمد القُرَشِيِّ، عن علي بن رَبَاح، عن عُقبةَ بن عامرٍ قال: أمرني رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن أقرأ بالمعوِّذات في دُبُر كلّ صلاة(١).

وَرَواه أبو داودَ والترمذيُّ والنَّسائيُّ، من طُرُقٍ، عن علي بن رَبَاحٍ، وقال الترمذيُّ: «غريبٌ»(١)

طريقٌ أُخرى، قال أحمدُ: حدَّثنا يحيى(٢) بن إسحق، حدَّثنا ابنُ لَهيعة، عن مِشْرَح بن هاعان، عن عُقبَةَ بن عامر: قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «اقرأ بالمُعوِّذتين، فإنك لن تقرأ بمثلهما»(٣). تفرَّد به أحمدُ.

طريقٌ أُخرَى، قال أحمدُ: حدَّثنا حَيْوَةُ بن شُرَيحٍ، حدَّثنا بَقِيَّةُ، حدَّثنا بَحِيرُ بن سعد، عن خالد بن مَعْدانَ، عن جُبَير بن نُفَير، عن عُقْبَةَ بن عامرٍ أنه قال: إنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أُهدِيَت له بغلةٌ شهباءُ، فركبها، فأخذ عُقْبَةُ يقودُها له، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: اقرأ: ﴿قُلْ أعوذُ بربِّ الفَلَقِ﴾. فأعادها له حتى قرأها، فعرف أني لم أفرح بها جدًّا، فقال: «لَعلَّك تهاونتَ بها؟ فما قمتَ تُصلِّي بشيءٍ مثلِها»(٤).

وَرَواه النَّسائيُّ عن عَمرو بن عثمان، عن بَقِيَّةَ، به. وَرَواه النَّسائيُّ أيضاً من حديث الثَّوريِّ، عن معاويةَ بن صالح، عن عبد الرحمن [بن جُبَير] بن نُفَير، عن أبيه، عن عُقبَةَ بن عامرٍ: أنه سأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن المُعوِّذَتَين... فذكر نحوه(٤).

طريقٌ أُخرَى، قال النَّسائيُّ: أخبرنا محمد بنُ عبد الأعلى، حدَّثنا المعتمِرُ، سمعتُ النعمانَ، عن زياد(٥) أبي الأسد، عن عقبَةَ بن عامرٍ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: إنَّ الناس لم يتعوَّذُوا بمثلِ هذين: ﴿قُلْ أعوذُ بربِّ الفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أعوذُ بربِّ النَّاسِ﴾.

طريقٌ أُخرَى، قال النَّسائيُّ: أخبرنا قُتَيبة، حدَّثنا اللَّيثُ، عن ابن عَجْلان، عن سَعيد المقبُريِّ، عن عُقْبَةَ بن عامر قال: كنتُ أمشي مَع رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا عُقَيبُ، ﴿قُلْ﴾ فقُلتُ: ماذا أقولُ؟ فسكت عنّي، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ فقلتُ: ماذا أقولُ يا رسولَ الله؟ [(٦ـ فسكت عني، فقلت: اللَّهُمَّ، اردُدْه عليَّ، فقال: يا عُقْبَةُ، ﴿قُلْ﴾. قلتُ: ماذا أقولُ يا رسولَ الله؟ ـ٦)]. فقال: ﴿قُلْ أعوذُ بربِّ الفَلَقِ﴾، فقرأتُها حتى أتيتُ على آخرها، ثم قال: ﴿قُلْ﴾. فقلتُ: ماذا أقولُ يا رسولَ الله. قال: ﴿قُلْ أعوذُ بربِّ الناسِ﴾، فقرأتُها حتى أتيتُ على آخرها، ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ عندَ ذلك: ما سأل سائلٌ بمثلهما، ولا استعاذَ مُستعيذٌ بمثلهما(٧).

طريق أخرى، قال النسائي: أخبرنا مُحمَّد بن بَشَّار، حدَّثنا عبدُ الرحمن، حدَّثنا معاويةُ، عن العلاءِ بن الحارثِ، عن مكحُولٍ، عن عُقْبَةَ بن عامرٍ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ بهما في صلاة الصبح(٨).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/١٥٥، وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٨٦، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/٢٨، وأخرجه النسائي في كتاب الصلاة ٣/٦٨.

(٢) في النسخ: محمد بن إسحق. والمثبت عن المسند، وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/١٢٦، وتهذيب الكمال، ترجمة عبد الله بن لهيعة ١٥/٤٩٠

(٣) مسند أحمد ٤/١٤٦

(٤) مسند أحمد ٤/١٤٩، وسنن النسائي، كتاب الاستعاذة ٨/٢٥٢.

(٥) كذا وقع السند في النسخ، ولم يتيسَّر لنا تخريج هذا الحديث

(٦ ـ ٦) عن سنن النسائي

(٧) سنن النسائي، كتاب الاستعاذة ٨/٢٥٣ ـ ٢٥٤

(٨) سنن النسائي، كتاب الاستعاذة ٨/٢٥٢.

طريقٌ أخرى، قال النَّسائيُّ: أخبرنا قُتيبة، حدَّثنا الليثُ، عن يزيدَ بن أبي حبيب، عن أبي عمرانَ أسلم، عن عُقبةَ بن عامر قال: اتبعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهو راكبٌ، فوضعتُ يدي على قَدَمِهِ فقلتُ: أقرِئني سورةَ هُودٍ أو سورةَ يُوسُفَ. فقال: لن تقرأ شيئاً أنفعَ عندَ الله من ﴿قُل أعوذُ بربِّ الفَلَق﴾(1).

حديثٌ آخر، قال النسائيُّ: أخبرنا محمودُ بن خالد، حدَّثنا الوليدُ، حدَّثنا أبو عَمرو الأوزاعيُّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي عبدِ الله، عن ابن عابسٍ الجُهَنيِّ: أن النبي ـ ﷺ ـ قال له: يا ابنَ عابس، ألا أدلك ـ أو: ألا أخبرُكَ ـ بأفضل ما يتعوَّذ به المُتعوِّذون؟ قال: بلى، يا رسول الله. قال: ﴿قُل أعوذُ بربِّ الفلق﴾، و﴿قُل أعوذُ بربِّ الناس﴾ هاتان السورتان(2).

فهذه طُرُقٌ عن عُقبةَ كالمتواترة عنه، تُفيدُ القطعَ عند كثيرٍ من المُحقِّقين في الحديث.

وقد تقدَّم في رواية صُدَيِّ بن عَجْلان، وفَرْوَة بن مُجاهد، عنه: «ألا أُعلِّمك ثلاثَ سُوَرٍ لم يَنزِلْ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزَّبُورِ ولا في القرآن مثلهن؟ ﴿قُل هُو الله أحَد﴾ و﴿قُل أعوذ بربِّ الفَلَق﴾ و﴿قُل أعوذُ بربِّ الناس﴾.

حَديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا الجُرَيْريُّ، عن أبي العلاءِ قال: قال رجلٌ: كُنَّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ، والناس يَعتقِبُون، وفي الظَّهر قِلَّةٌ، فحانَت نَزْلَةُ رسول الله ـ ﷺ ـ ونزلتي فلَحِقني فضرب [من بعدي](3) مَنْكِبي، فقال: ﴿قُل أعوذُ بربِّ الفَلَق﴾، فقرأها رسول الله ـ ﷺ ـ وقرأتها معه، ثم قال: ﴿قُل أعوذُ بربِّ الناس﴾، فقرأها رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقرأتُها معه، فقال: «إذا صَلَّيتَ فاقرأ بهما»(4).

الظاهر أن هذا الرجل هو عُقبة بن عامر، والله أعلم. ورواه النسائي عن يعقوبَ بن إبراهيم، عن ابن عُلَيَّة، به.

حديثٌ آخرُ، قال النَّسائيُّ: أخبرنا محمد بن المثنَّى، حدَّثنا محمد بن جعفر، عن عبد الله بن سَعيد، حدَّثني يزيدُ بن رُومانَ، عن عُقبةَ بن عامر، عن عبد الله الأسلَمي ـ هو ابنُ أُنيس ـ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وَضع يده على صَدْرِه ثم قال: ﴿قل﴾. فلم أدرِ ما أقولُ، ثم قال لي: ﴿قل﴾. قلت: ﴿هو الله أحد﴾. ثم قال لي: ﴿قُل﴾. قلت: ﴿أعوذُ بربِّ الفَلَق * من شرِّ ما خَلَق﴾ حتى فَرَغتُ منها. ثم قال لي: ﴿قُل﴾. قلتُ: ﴿أعوذُ بربِّ الناس﴾، حتى فَرَغتُ منها. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هكذا فتَعوَّذ، ما تَعوَّذَ المُتعوِّذون بمثلهن قطُّ.

حَديثٌ آخرُ، قال النَّسائيُّ: أخبرنا عمرو بن علي أبو حَفْص، حدَّثنا بَدَلٌ، حدَّثنا شَدَّاد بنُ سعيدٍ أبو طلحةَ، عن سعيد الجُرَيريِّ، حدَّثنا أبو نضرَةَ، عن جابر بن عبد الله قال: قال لي رسولُ الله ـ ﷺ: اقرأ يا جابرُ. قلتُ: وما أقرأ بأبي أنت وأمي؟ قال: اقرأ ﴿قُل أعوذُ بربِّ الفَلَق﴾، و﴿قُل أعوذُ بربِّ الناس﴾. فقرأتُهما، فقال: اقرأ بهما، ولن تَقرأ بمثلهما(5).

وتقدَّم حديثُ عائشةَ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ بهنَّ، وينفُثُ في كفَّيه، ويمسَحُ بهما رأسه ووَجْهَه، وما أقبلَ مِن جَسَدِه.

(1) سنن النسائي، كتاب الاستعاذة ٢٥٤/٨.
(2) سنن النسائي، كتاب الاستعاذة ٢٥١/٨ ـ ٢٥٢.
(3) عن المسند.
(4) مسند الإمام أحمد ٢٤/٥، ٧٩.
(5) سنن النسائي، كتاب الاستعاذة ٢٥٤/٨.

وقال الإمامُ مالكٌ، عن ابن شهاب، عن عُرْوَةَ، عن عائشةَ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان إذا اشتكى يقرأُ على نفسه بالمُعَوِّذَتين وينفُث. فلمَّا اشتدَّ وجعُه كنتُ أقرأُ عليه، وأمسحُ بيده عليه، رجاءَ بركتها[1].

ورواه البخاري عن عبد الله بن يُوسفَ، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن القَعْنَبيِّ، والنسائي عن قتيبة ـ ومن حديث ابن القاسم، وعيسى بن يونس ـ وابنُ ماجه من حديث مَعْنٍ وبشر بن عُمَر، ثمانيتهم عن مالك، به[1].

وتقدَّم في آخر سورة: ﴿نٓ﴾، من حديث أبي نَضْرة، عن أبي سعيد: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يتعوَّذ من أعيُن الجانِّ وعين الإنسان، فلما نزلت المعوِّذتان أخذ بهما، وترَك ما سواهما.

رواه الترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه، وقال الترمذيُّ: «حسَنٌ».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أحمدُ بن عِصام، حدَّثنا أبو أحمد الزُّبَيريُّ، حدَّثنا حسن بن صالح، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابرٍ قال: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الصبحُ.

وقال العَوْفيُّ، عن ابن عبَّاس: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾، الصُّبح. ورُوي عن مجاهدٍ، وسعيدِ بن جُبَير، وعبدِ الله بن محمد بن عَقِيل، والحسنِ، وقتادةَ، ومحمدِ بن كعب القُرَظي، وابن زيدٍ، ومالكٍ عن زيد بن أسلَمَ، مثلُ هذا. قال القُرَظيُّ، وابنُ زيدٍ، وابنُ جَريرٍ: وهي كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[2].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾: الخَلْقُ. وكذا قال الضحَّاك: أمر الله نبيَّه أن يتعوَّذ من الخَلْقِ كُلِّه.

وقال كعبُ الأحبارِ: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾: بيتٌ في جهنَّم، إذا فُتح صاح جميعُ أهلِ النار من شدَّة حَرِّه. رواه ابن أبي حاتمٍ، ثم قال:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا سُهَيل بن عثمان، عن رجل سمَّاه، عن السُّدِّي، عن زيد بن علي، عن آبائه أنهم قالوا: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾: جبٌّ في قعرِ جهنَّم، عليه غطاءٌ، فإذا كُشِف عنه خرَجت منه نارٌ تصيح منه جهنَّم، من شدَّةِ حرِّ ما يخرُج منه[3].

---

(1) الموطأ، كتاب العين ٢/٩٤٢ ـ ٩٤٣. وفتح الباري، كتاب فضائل القرآن ٩/٦٢، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧٢٣، وسنن أبي داود، كتاب الطب ٤/١١ ـ ١٢، وأخرجه النسائي في كتاب الطب والتفسير من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٢/٧٤، وابن ماجه في كتاب الطب ٢/١١٦٦.

(2) تفسير الطبري ٣٠/٣٥٠ ـ ٣٥١.

(3) الدرّ المنثور ٨/٦٨٨.

وكذا رُوي عن عَمْرو بن عَبَسة، والسُّدِّي، وغيرهم. وقد وَرَد في ذلك حديثٌ مرفوعٌ مُنكَرٌ، فقال ابن جرير:

حدثني إسحاقُ بن وهب الواسطي، حدثنا مسعود بن موسى بن مُشكان الواسطيُّ، حدثنا نصرُ بن خُزيمة الخُراسانيُّ، عن شُعيب بن صفوان، عن محمد بن كعب القُرظي، عن أبي هُريرَة، عن النبيِّ - ﷺ - قال: ﴿الفَلَق﴾ جُبٌّ في جهنم مُغطًّى(١). إسنادُه غريبٌ ولا يَصِحُّ رفعُه.

وقال أبو عبد الرحمن الحُبُلِيُّ: ﴿الفلق﴾: من أسماء جهنّم.

قال ابنُ جرير: والصوابُ القولُ الأوّلُ، أنّه فَلَقُ الصبح. وهذا هو الصَّحيحُ، وهو اختيار البخاري - رحمه الله - في صحيحه(٢).

وقولُه: ﴿من شرِّ ما خلق﴾، أي: من شرِّ جميع المخلوقاتِ. وقال ثابتٌ البُنانيُّ، والحسن البصريُّ: جَهَنّم وإبليسُ وذُرِّيته مما خلَق.

﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقَب﴾، قال مجاهدٌ: غاسقُ الليلِ إذا وقَبَ غُروبُ الشمس. حكاه البخاريُّ عنه(٢). ورواه ابن أبي نجيح، عنه. وكذا قال ابنُ عبّاس، ومحمد بن كعب القُرظي، والضَّحّاك، وخُصَيفٌ، والحسنُ، وقتادةُ: إنه الليل إذا أقبل بظلامه.

وقال الزُّهريُّ: ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقب﴾: الشمسُ إذا غَربت. وعن عَطِيّةَ وقتادةَ: إذا وَقَب الليلُ: إذا ذهَب. وقال أبو المُهَزِّم(٣)، عن أبي هُريرَة: ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقب﴾ كَوكَبٌ. وقال ابنُ زيد: كانت العربُ تقولُ: الغاسقُ سقُوطُ الثُّريا، وكانت الأسقامُ والطواعينُ تكثر عند وُقوعها، وترتفع عند طُلوعها(٤).

قال ابنُ جرير: ولهؤلاء من الأثر ما حدَّثني نصر بن علي، حدّثني بكار بنُ عبد الله، ابن أخي همّام، حدث محمد بن عبد العزيز بن عُمَر بن عبد الرحمن بن عَوفٍ، عن أبيه، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة، عن النبيِّ - ﷺ -: ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقَب﴾، قال: النجمُ الغاسِقُ(٤).

قلتُ: وهذا الحديثُ لا يَصِحُّ رفعُه إلى النبيِّ ﷺ.

قال ابنُ جرير: وقال آخرون: هو القمرُ. قلت: وعُمدَة أصحاب هذا القولِ ما رواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا أبو داودَ الحَفَريُّ، عن ابن أبي ذِئب، عن الحارث، عن أبي سَلَمة قال: قالت عائشةُ رضي الله عنها: أخذ رسولُ الله - ﷺ - بيدي فأراني القمرَ حين طلَع، وقال: «تعوّذي بالله من شرِّ هذا الغاسقِ إذا وَقَب»(٥).

ورواه الترمذي(٥) والنسائي في كتابَي التفسير من سُنَنَيهما، من حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن، به. وقال الترمذيُّ: «حسنٌ صحيحٌ». ولفظُه «تعوّذي بالله من شرِّ

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٣٤٩.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ ٨/٧٤١.
(٣) أبو المُهَزِّم: يزيد بن سفيان - ويقال: عبد الرحمن - التميمي البصري. المغني للذهبي ٢/١٠٦.
(٤) أخرجه الطبري ٣٠/٣٥٢.
(٥) مسند الإمام أحمد ٦/٦١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المعوذتين ١٢/٢٦٠ - ٢٦١.

هذا، فإن هذا الغاسقُ إذا وقَب». ولفظ النسائي: «تعوذي بالله من شرِّ هذا، هذا الغاسقُ إذا وقَب».

قال أصحابُ القولِ الأولِ ـ وهو أنّه الليلُ إذا وَلَج ـ: هذا لا يُنافي قولَنا، لأن القمر آيةُ الليل، ولا يُوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تُضيءُ إلا في الليل، فهو يرجعُ إلى ما قلناه، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ومن شرِّ النفاثات في العُقَد﴾، قال مجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، والضحّاكُ: يعني السواحر. قال مجاهدٌ: إذا رَقَيْنَ ونَفَثْنَ في العُقَد.

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا ابنُ عبد الأعلى، حَدَّثنا ابنُ ثورٍ، عن معمَرٍ، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: ما من شيءٍ أقربَ من الشِّرك من رُقيةِ الحَيَّةِ والمَجانين(١).

وفي الحديث الآخرِ أنَّ جبريلَ جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: اشتكيتَ يا مُحمَّد؟ فقال: نعم. فقال: باسمِ الله أَرْقِيك، من كُلِّ داءٍ يُؤذِيك، ومن شرِّ كُلِّ حاسدٍ وعينٍ اللهُ يَشْفِيك(٢).

ولعلَّ هذا كان من شَكْواه ـ عليه السلام ـ حين سُحِر، ثم عافاه الله تعالى وشَفَاه، وردَّ كيدَ السحرةِ الحُسَّاد من اليهود في رُؤوسهم، وجَعَل تَدْميرَهُم في تَدْبيرهم وفَضَحَهم، ولكنْ مع هذا لم يُعاتبه(٣) رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً من الدهر، بل كَفَى اللهُ وشَفَى وعافَى، قال الإمامُ أحمدُ:

حدَّثنا أبو مُعاويةَ، حدَّثنا الأعمشُ، عن يزيدَ بن حَيَّانَ، عن زيدِ بن أَرْقَمَ قال: سَحَرَ النبيَّ ـ ﷺ ـ رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً، قال: فجاءه جبريلُ فقال: إنَّ رجلاً من اليهود سَحَرك، عَقَد لك عُقَداً في بئر كذا وكذا، فأَرْسِلْ إليها مَن يجيءُ بها. فَبعثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ [(٤ـ عليًّا، رضي الله تعالى عنه ـ٤)] فاستخرَجها، فجاء بها فَحَلَّلها، قال: فقامَ رسول الله ـ ﷺ ـ كأنما نُشِط(٥) من عِقالٍ، فما ذَكَر ذلك لليهوديّ، ولا رآه في وَجْهِهِ حتى مات(٦).

وَرَواه النسائيُّ عن هَنّادٍ، عن أبي معاويةَ محمد بنِ خَازمٍ الضرير(٦). وقال البخاريُّ في «كتاب الطبّ» من صَحيحه:

حدَّثنا عبد الله بن محمد قال: سَمِعتُ سفيان بن عُيَيْنةَ يقول: أوَّلُ مَن حَدَّثنا به ابن جُرَيجٍ، يقول: حَدَّثني آل عُرْوةَ، عن عُروةَ، فسألت هِشاماً عنه، فَحدَّثنا عن أبيه، عن عائشةَ قالت: كان رسولَ الله ـ ﷺ ـ سُحِرَ حتى كان يُرَى أنه يأتي النساءَ ولا يأتيهنَّ ـ قال سفيان: وهذا أشَدُّ ما يكونُ من السِّحر، إذا كان كذا ـ فقال: يا عائشةُ، أَعَلِمْتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيتُه فيه(٧)؟ أتاني رجلان فقعد أحدُهما عند رأسي، والآخرُ عند رجلي، فقال الذي عندَ رأسي للآخرِ: ما بالُ الرجل؟ قال: مطبوبٌ(٨). قال: وَمَن طَبَّه؟ قال: لَبيدُ بن أَعْصَمَ ـ

(١) تفسير الطبري ٣٠/٣٥٣.

(٢) تقدم الحديث وتخريجه آخر تفسير سورة ﴿ن﴾.

(٣) أي: لم يعاتب الساحر، كما يشهد لذلك حديث الإمام أحمد.

(٤ ـ ٤) عن المسند.

(٥) قال في لسان العرب: «فكأنما أُنْشِط من عِقال»، أي: حُلَّ. قال ابن الأثير: وكثيراً ما يجيء في الرواية: «كأنما نُشِط من عقال»، وليس بصحيح.

(٦) مسند أحمد ٤/٣٦٧، وسنن النسائي، كتاب التحريم ٧/١١٢ ـ ١١٣.

(٧) أي: أجابني فيما دعوتُه. فأطلق على الدعاء استفتاءً، لأن الداعي طالبٌ والمجيب مُفْتٍ. أو المعنى: أجابني بما سألته عنه، لأن دعاءه كان أن يُطلعه الله على حقيقة ما هو فيه لِمَا اشتبه عليه من الأمر.

(٨) أي: مسحور، يقال: طُبَّ الرجلُ: إذا سُحِر، كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً، كما قالوا للديغ: سليم.

رجلٌ من بني زُرَيق حليفٌ ليهودَ، كان منافقاً ـ قال: وفيم؟ قال: في مُشط ومُشاقة[1] قال: وأين؟ قال: في جُفّ طلْعَةٍ ذكرٍ تحت رَاعُوفةٍ[2] في بئر ذروان. قالت: فأتى [[3]- النبيُّ - ﷺ [3]] البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئرُ التي أُرِيتُها، وكأنَّ ماءها نُقاعةُ[4] الحِنّاء، وكأنّ نخلها رُؤُوس الشياطين. قال: فاستُخرج، [قالت]: فقلت: أفلا؟ أي: تنشّرت[5] فقال: «أمّا اللهُ فقد شفاني، وأكره أن أُثير على أحدٍ من الناس شرّاً»[6].

وأسنده من حديث عيسى بن يونس، وأبي ضَمْرَة أنس بن عياض، وأبي أسامة، ويحيى القطان وفيه: «قالت: حتى كان يُخيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله». وعنده «فأمر بالبئر فدُفنت». وذكر أنه رواه عن هشام أيضاً ابن أبي الزناد والليث بن سعد[6].

وقد رواه مسلم، من حديث أبي أسامة حمّاد بن أسامة وعبد الله بن نُمَير، ورواه أحمد، عن عفّان، عن وُهَيب، عن هشام، به[6].

ورواه الإمام أحمدُ أيضاً عن إبراهيم بن خالد[7]، عن معْمَر، عن هِشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: لَبِثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ستةَ أشهرٍ يُرى أنه يأتي ولا يأتي، فأتاه ملَكان، فجلس أحدُهما عند رأسه، والآخرُ عند رِجْلَيه، فقال أحدهما للآخر: ما بالُه؟ قال: مَطبوبٌ. قال: ومَن طَبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم .. وذكر تمام[6] الحديث.

وقال الأستاذُ المفسِّرُ الثعلبيُّ في تفسيره[8]: قال ابنُ عبّاس وعائشةُ رضي الله عنهما:

كان غلامٌ من اليهود يخدُم رسولَ الله ـ ﷺ ـ فدَبّت[9] إليه اليهودُ، فلم يزالُوا به حتى أخذ مُشاطَة رأسِ النبيِّ ـ ﷺ ـ وعِدّةَ أسنانٍ من مُشطِه، فأعطاها اليهودَ، فسحرُوه فيها. وكان الذي تولّى ذلك رجلاً منهم، يقال له: لَبِيدُ بنُ أعْصَمَ، ثم دسَّها في بئر لبني زُرَيق، يقال لها: ذَرْوانُ، فمَرِض رسولُ الله ـ ﷺ ـ وانتثر شعرُ رأسِه، ولبث ستةَ أشهرٍ يُرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنّ، وجعَل يَذُوبُ ولا يدْرِي ما عَرَاه. فبينما هو نائمٌ إذْ أتاه مَلَكانِ فقعَد أحدُهما عندَ رأسِه والآخرُ عند رجلَيه، فقال الذي عند رجلَيه للذي عند رأسه: ما بالُ الرجل؟ قال: طُبَّ. قال: وما طُبَّ؟ قال: سُحِرَ. قال: ومَن سَحَره؟ قال: لَبِيدُ بن أعصَمَ اليهودي. قال: وبِمَ طَبَّه؟ قال: بمُشْطٍ ومُشاطَةٍ. قال: وأينَ هو؟ قال: في جُفِّ طَلْعَةٍ تحتَ راعُوفةٍ في بئرِ ذَرْوانَ ـ والجُفُّ: قِشْرُ الطلع،

---

(١) المُشط: الآلة التي يُسرّحُ بها الشعر. والمشاقة: المشاطة، وهي الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط.

(٢) الجُفُّ: الغشاء الذي يكون على الطَّلع، ويقع للذكر والأنثى. والرعُوفة: صخرة تُترَكُ في أسفل البئر إذا حُفِرت يجلس عليها الذي ينظف البئر. وذروان: بئر بني زريق بالمدينة.

(٣ ـ ٣) عن الصحيح.

(٤) أي: لون ماء البئر كلون الماء الذي ينقع فيه الحِنّاء.

(٥) أي: هل طلبت العلاج، من النُّشْرة، وهي: نوع من الرقية والعلاج.

(٦) فتح الباري، كتاب الطب ٢٣٢/١٠ ـ ٢٣٣. وبقية روايات البخاري في فتح الباري، كتاب الجزية ٢٧٦/٦، وكتاب بدء الخلق ٣٣٤/٦ وكتاب الطب ٢٢١/١٠، ٢٣٥ ـ ٢٣٦، وكتاب الأدب ٤٧٩/١٠، وكتاب الدعوات ١٩٢/١١ ـ ١٩٣. مسلم، كتاب السلام ١٧١٩/٤ ـ ١٧٢١، ومسند أحمد ٩٦/٦، ٦٣/٦.

(٧) في المسند: «عن إبراهيم بن خالد، عن رباح، عن معمر».

(٨) هو أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، له التفسير الكبير، وكتاب العرائس في قصص الأنبياء، وكان كثير الحديث واسع السماع. وقد اختصر أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغويّ تفسيره، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التي فيه، وأشياء أخر، كما يقول ابن تيمية. توفي الثعلبيُّ في سنة ٤٢٧. انظر البداية والنهاية ٤٣/١٢، ودقائق التفسير لابن تيمية ٨٦/١

(٩) أي: وصَلوا إليه، ونموا منه كُلَّ مبلغ، يقال: دبَّ الشيءُ في الشيء: سرى، ودبَّ الشراب في الجسد.

والراعوفة: حَجَرٌ في أسفل البئر ناتئ؛ يقومُ عليه الماتحُ[1] - فانتبه رسولُ الله - ﷺ - مذعُوراً، وقال: يا عائشةُ، أما شَعرتِ أنَّ الله أخبرني بدائي؟ ثم بعثَ رسولُ الله - ﷺ - عليًا والزبيرَ وعمّار بن ياسر، فنزحُوا ماءَ البئرِ كأنه نُقَاعَةُ الحناء، ثم رَفَعُوا الصخرةَ، وأخرجُوا الجُفَّ فإذا فيه مُشَاطةُ رأسه وأسنانٌ من مُشْطه، وإذا فيه وَتَرٌ معقودٌ، فيه اثنتا عَشْرَةَ عقدةً مَغْرُوزَةً بالإبَر. فأنزل الله تعالى السورتين، فجعلَ كُلّما قرأ آيةً انحلَّت عُقدةٌ، وَوَجد رسولُ الله - ﷺ - خِفّةً حين انحلَّت العقدةُ الأخيرةُ، فقام كأنّما نُشِطَ من عِقالٍ، وجعل جبريلُ - عليه السلام - يقول: باسم الله أَرْقِيكَ، من كلِّ شر يُؤذيكَ، من حاسد وعينِ اللهُ يشفيكَ. فقالوا: يا رسولَ الله، أفلا نأخذ الخبيثَ نقتُله؟ فقال رسول الله - ﷺ -: أمّا أنا فقد شفَاني الله، وأكرَهُ أن أثيرَ على الناس شرًا.

هكذا أوْرَده بلا إسنادٍ، وفيه غَرَابةٌ، وفي بعضِه نكارةٌ شَديدَةٌ، ولبَعضِه شواهدُ مما تقدّم، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾

هذه ثلاثُ صفاتٍ من صفات الربِّ - عزّ وجلّ -: الرُّبوبيّةُ، والمُلْكُ، والإلَهيَّة. فهو ربُّ كلِّ شيءٍ ومَليكه وإلَهُه، فجميعُ الأشياءِ مخلوقةٌ له، مملوكةٌ، عبيدٌ له، فأمر المستعيذَ أن يَتعوَّذ بالمُتَّصِف بهذه الصفات، من شرِّ الوسواس الخنّاس، وهو الشيطانُ الموكَّل بالإنسان، فإنه ما من أحدٍ من بني آدم إلا وله قرينٌ يُزيِّن له الفواحِشَ، ولا يألُوه جهداً في الخَبَالِ. والمعصومُ من عَصَمَ الله. وقد ثَبَت في الصحيح أنه: «ما منكم من أحدٍ إلا قد وُكِّل به قرينُه. قالوا: وأنتَ يا رسولَ الله؟ قال: نَعَم، إلا أنَّ الله أعانني عليه، فأسلَمَ، فلا يأمُرُني إلاَّ بخير»[2]. وثبَت في الصحيح، عن أنس في قِصَّةِ زيارةِ صَفِيّةَ النبيَّ - ﷺ - وهو مُعتكفٌ، وخروجه معها ليلاً ليردَّها إلى منزلها، فلَقِيَه رجلان من الأنصار، فلمّا رأيا رسولَ الله - ﷺ - أسْرَعا، فقال رسولُ الله: «على رِسْلِكُما[3]، إنها صَفِيَّةُ بنت حُيَيٍّ». فقالا: سُبحانَ الله يا رسولَ الله! فقال: «إن الشيطانَ يجري من ابن آدَمَ مجرى الدم، وإني خَشِيت أن يَقذِفَ في قُلُوبِكما شيئاً، أو قال: شرًّا»[4].

وقال الحافظ أبو يَعْلَى الموصليُّ: حدَّثنا مُحمَّدُ بن بَحْرٍ، حدَّثنا عَدِيُّ بن أبي عُمارَةَ، حدَّثنا زيادٌ النُّميريُّ، عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إن الشيطان واضِعٌ خَطْمَه[5] على قَلْبِ ابنِ آدَمَ، فإن ذَكَر خَنَسَ، وإن نَسِي التقَمَ قلبَه، فذَلِكَ الوَسْوَاسُ الخنَّاسُ»[6]. غريبٌ[6].

(١) متح الماء: نزعه واستخرجه.
(٢) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١١ من سورة الرعد.
(٣) يقال: افعل كذا على رِسْلِك، أي: اتّئِدْ ولا تَعْجَلْ.
(٤) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة البقرة.
(٥) أي: أنفه.
(٦) مسند أبي يعلى ٢٢٣/٤.

وقال الإمام أحمدُ: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شُعبةُ، عن عاصمٍ، سَمِعت أبا تَمِيمةَ يُحدِّثُ عن رَدِيفِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: عَثَر بالنبيِّ ـ ﷺ ـ حِمارُه، فقلت: تَعِسَ الشيطانُ! فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «لا تَقُل: تَعِس الشيطانُ، فإنك إذا قلتَ: تَعِسَ الشيطان، تعاظَمَ، وقال: بِقُوَّتي صَرَعتُه. وإذا قلت: باسم الله، تصاغَرَ حتى يصيرَ مثل الذُّبابِ»[1].

تَفرَّد به أحمدُ، إسنادُه جَيِّدٌ قويٌّ، وفيه دلالةٌ على أن القلب متى ذَكَر الله تصاغَرَ الشيطانُ وغُلِبَ، وإن لم يَذكُر الله تعاظَمَ وغَلَبَ. وقال الإمام أحمد:

حَدَّثنا أبو بكر الحَنَفِيُّ، حدَّثنا الضحَّاك بن عثمانَ، عن سَعيد المقبُرِيِّ، عن أبي هُرَيْرَة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن أحدكم إذا كان في المسجد جاءه الشيطان فَأَبَسَّ بـه كما يُبِسُّ الرجلُ[2] بدابته، فإذا سَكَن له زَنَقَه[3] ـ أو: أَلْجَمَه». قال أبو هُرَيْرَةَ: وأنتم تَرَون ذلك، أما المزنوق[3] فتراه مائلاً ـ كذا ـ لا يذكُر الله، وأما المُلْجَمُ ففاتِحٌ فاه، لا يَذكُر الله عزَّ وجلَّ». تَفرَّد به[4] أحمد.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾، قال: الشيطان جاثِمٌ على قلبِ ابن آدم، فإذا سَهَا وغَفَل وَسْوَسَ، فإذا ذَكَر الله خَنَسَ[5]. وكذا قال مجاهد، وقتادةُ.

وقال المُعتمِرُ بنُ سُلَيمان، عن أبيه: ذُكِرَ لي أنَّ الشيطانَ، أو: الوَسْوَاس، ينفُث في قَلْبِ الإنسان عند الحُزنِ وعند الفَرَح، فإذا ذَكَر الله خَنَس.

وقال العَوفِيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿الوَسْوَاسِ﴾، قال: هو الشيطانُ يأمُر، فإذا أُطِيعَ خَنَس.

وقولُه: ﴿الذي يُوَسْوِسُ في صُدور الناس﴾، هل يختص هذا ببني آدم ـ كما هو الظاهر ـ أو يَعُمُّ بني آدم والجنَّ؟ فيه قولان، ويكونون قد دَخَلوا في لفظ الناسِ تَغْليباً. وقال ابنُ جَريرٍ: وقد استعمل فيهم ﴿رِجَالٍ من الجِنِّ﴾ فلا بِدْعَ في إطلاقِ الناسِ عليهم[6].

وقولُه: ﴿مِن الجِنَّةِ والناسِ﴾، هل هو تفصيلٌ لقوله: ﴿الذي يُوَسْوِسُ في صُدورِ الناس﴾، ثم بيَّنهم فقال: ﴿من الجِنَّةِ والناس﴾. وهذا يُقَوِّي القولَ الثاني. وقيل: قوله: ﴿مِن الجِنَّةِ والناس﴾، تفسير للذي يُوسوس في صُدور الناس، من شياطين الإنس والجنِّ، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نَبيٍّ عَدُوًّا شياطينَ الإنسِ والجنِّ يُوحِي بعضُهم إلى بعض زُخرُفَ القولِ غُروراً﴾، وكما قال الإمام أحمد:

حَدَّثنا وكيعٌ، حدَّثنا المسعوديُّ، حدَّثنا أبو عُمَر الدِّمشقيُّ، حدَّثنا عُبَيد بن الخَشْخاش، عن أبي ذَرٍّ قال: أتيتُ رَسولَ الله ـ ﷺ ـ وهو في المسجدِ، فجلستُ، فقال: يا أبا ذَرٍّ، هل صَلَّيت؟ قلت: لا. قال: قم فَصَلِّ. قال: فَقُمتُ فَصَلَّيتُ، ثم جلستُ، فقال: يا أبا ذَرٍّ، تَعَوَّذْ بالله من شَرِّ شياطين الإنسِ والجِنِّ. قال: قلت:

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٥٩.

(٢) بَسَّ الإبل وبَسَّ بها: ساقها سوقاً سهلاً، وزجرها بقوله: بِسْ بِسْ. وبَسَّ بالناقة وأَبَسَّ بها: دعاها إلى الحَلْب.

(٣) زَنَق الشيءَ: حَصَرَه وضَيَّق عليه. وفي النهاية: «وفي حديث أبي هريرة الآخر أنه ذكر المزنوق فقال: المائل شِقُّه لا يذكر الله، قيل: أصله من الزنقة، وهي ميل في جدار في سكّة أو عُرْقوب وادٍ، هكذا فسّره الزمخشري».

(٤) مسند أحمد ٢/٣٣٠.

(٥) أخرجه الطبري ٣٠/ ٣٥٥، والحاكم وصححه، المستدرك، كتاب التفسير ٢/٥٤١.

(٦) قال الطبري في تفسيره ٣٠/٣٥٦: «فإن قال قائل: فالجنة ناس، فيقال: الذي يوسوس في صدور من الجنة والناس؟ قيل: قد سمّاهم الله في هذا الموضع ناساً، كما سمّاهم في موضع آخر رجالاً فقال: ﴿وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجال من الجنِّ﴾ فجعل الجن رجالاً، وكذلك جعل منهم ناساً».

يا رسولَ الله، وللإنس شياطينُ؟ قال: نَعَم. قال: قلت: يا رسولَ الله، الصلاةُ؟ قال: «خيرٌ موضوعٌ، من شاء أقلَّ، ومن شاء أكثَرَ». قلتُ: يا رسولَ الله. فالصومُ؟ قال: فرضٌ مُجزئٌ، وعند الله مزيد. قلت: يا رسولَ الله، فالصدقةُ؟ قال: أضعافٌ مضاعفَةٌ. قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّها أفضلُ؟ قال: جُهْدٌ من مُقِلٍّ، أو سِرٌّ إلى فقير. قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الأنبياء كان أوَّلَ؟ قال: آدم. قلتُ: يا رسولَ الله، ونبيًّا كانَ؟ قال: نعم، نبيٌّ مُكَلَّم. قلتُ: يا رسولَ الله، كَم المُرْسَلُون؟ قال: ثلثمائة وبِضْعَةَ عشَر، جَمًّا غفيراً. وقال مَرَّة: خَمْسَة عشَر. قلت: يا رسولَ الله، أيُّما أُنزِلَ عليكَ أعظمُ؟ قال: آيةُ الكُرسِيِّ: ﴿الله لا إلَه إلا هو الحي القيُّوم﴾[1].

وَرَواه النَّسائيُّ، من حديث أبي عُمَر الدِّمَشْقي، به[1] وقد أخرج هذا الحديث مُطوَّلاً جدًّا أبو حاتم بنُ حِبَّانَ في صَحِيحِه، بطريقٍ آخَرَ، ولفظٍ آخَرَ مُطوَّلٍ جدًّا[1]، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمدُ: حدَّثنا وَكِيعٌ، عن سُفيان، عن مَنصُور، عن ذَرِّ بن عبد الله الهَمْدانِيِّ، عن عبد الله بن شَدَّادٍ، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إني أُحَدِّثُ نفسي بالشيء لأن أخِرَّ من السماء أحبُّ إليَّ مِن أن أتكلَّم به. قال: فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «الله أكبرُ الله أكبرُ، الحمدُ لله الذي رَدَّ كيدَه إلى الوسوسة»[2].

ورواه أبو داود والنسائي، من حديث منصور ـ زاد النسائي: والأعمش ـ كلاهما عن ذَرٍّ، به[2].

آخر التفسير، ولله الحمد والمِنَّةُ، والحمدُ لله رب العالمين.
وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.
ورضي الله عن الصحابة أجمعين. حسبنا الله ونعم الوكيل.
وكان الفراغ منه في العاشر من جمادى الأولى
سنة خمس وعشرين وثمانمائة. والحمد لله وحده.

* * *

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير آية البقرة ٢٥٥، والأنعام ١١٢. وحديث النسائي في كتاب الاستعاذة ٨/٢٧٥، وانظر حديث أبي حاتم في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان ١/٢٨٧ ـ ٢٨٩.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٢٣٥، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٢٩ ـ ٣٣٠، والنسائي في اليوم والليلة ٤٢١.

هذا وقد تم بحمد الله تعالى قراءة هذا السفر الجليل وإعادة تحقيقه على أصوله التي مَنَّ الله تعالى بالاطلاع عليها يوم الاثنين بعد صلاة العشاء لعشر بقين من ذي القعدة من سنة إحدى عشرة وأربعمائة وألف، بمكة المكرمة، والحمد لله أوَّلاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وكتبه: محمد بن إبراهيم البنا

فهرس موضوعات الجزء الثامن

- تفسير سورة الحديد ٣٤٢٣
- تفسير سورة المجادلة ٣٤٤٨
- تفسير سورة الحشر ٣٤٦٧
- تفسير سورة الممتحنة ٣٤٩١
- تفسير سورة الصف ٣٥١٠
- تفسير سورة الجمعة ٣٥٢٠
- تفسير سورة المنافقون ٣٥٢٩
- تفسير سورة التغابن ٣٥٣٨
- تفسير سورة الطّلاق ٣٥٤٥
- تفسير سورة التّحريم ٣٥٦٠
- تفسير سورة المُلك ٣٥٧٥
- تفسير سورة القلم ٣٥٨٤
- تفسير سورة الحاقّة ٣٦٠٦
- تفسير سورة المعارج ٣٦١٦
- تفسير سورة نوح ٣٦٢٦
- تفسير سورة الجنّ ٣٦٣٢
- تفسير سورة المزّمّل ٣٦٤٢
- تفسير سورة المدّثر ٣٦٥٣
- تفسير سورة القيامة ٣٦٦٥
- تفسير سورة الإنسان ٣٦٧٤
- تفسير سورة المُرسلات ٣٦٨٣
- تفسير سورة النبأ ٣٦٨٩
- تفسير سورة عَبَس ٣٧٠٣
- تفسير سورة التكوير ٣٧١١
- تفسير سورة الانفطار ٣٧٢٢
- تفسير سورة المُطَفّفين ٣٧٢٧
- تفسير سورة الانشقاق ٣٧٣٥
- تفسير سورة البُروج ٣٧٤٢
- تفسير سورة الطّارق ٣٧٥٢
- تفسير سورة الأعلى ٣٧٥٥
- تفسير سورة الغاشية ٣٧٦٢
- تفسير سورة الفَجر ٣٧٦٧
- تفسير سورة البلد ٣٧٧٨
- تفسير سورة الشمس ٣٧٨٦
- تفسير سورة الليل ٣٧٩١
- تفسير سورة الضُّحى ٣٧٩٨
- تفسير سورة الشرح ٣٨٠٤
- تفسير سورة التين ٣٨٠٩
- تفسير سورة العَلَق ٣٨١٢
- تفسير سورة القدر ٣٨١٦
- تفسير سورة البيّنة ٣٨٢٨
- تفسير سورة الزلزلة ٣٨٣٣
- تفسير سورة العاديات ٣٨٣٩
- تفسير سورة القارعة ٣٨٤٢
- تفسير سورة التكاثر ٣٨٤٥
- تفسير سورة العصر ٣٨٥٢
- تفسير سورة الهُمَزَة ٣٨٥٤
- تفسير سورة الفيل ٣٨٥٦
- تفسير سورة قريش ٣٨٦٥
- تفسير سورة الماعون ٣٨٦٨
- تفسير سورة الكوثر ٣٨٧٣
- تفسير سورة الكافرون ٣٨٨٠
- تفسير سورة النّصر ٣٨٨٣
- تفسير سورة المسد ٣٨٨٨
- تفسير سورة الإخلاص ٣٨٩٢
- تفسير سورة الفلق ٣٩٠٣
- تفسير سورة الناس ٣٩١١